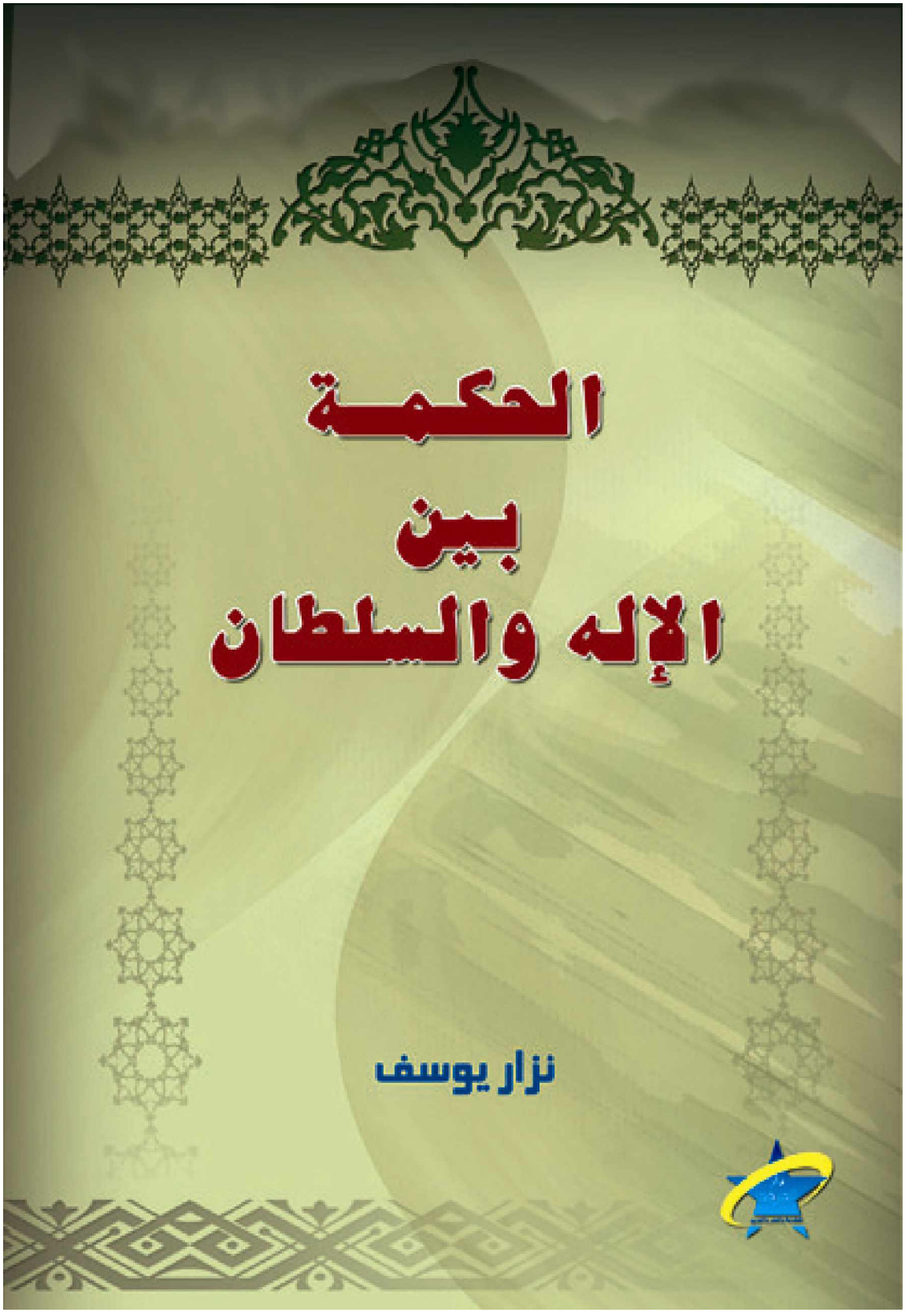
الحكمة
بين
الإله والسلطان
نزار يوسف

نزار يوسف

دراسة و بحث

موافقة وزارة الإعلام السورية
رقم / ٩٧٨٤٩ / - تاريخ ٢٠٠٨/٢/١٨

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
لا يجوز الطباعة أو الاقتباس من
هذا الكتاب إلا بعد موافقة المؤلف

إذا كان أحكم إنسان يعيش على هذه الأرض ، هو من يقدر أمورها .

فإن العدل حتماً هو الذي سيحصل مهما جرى من أحداث (نزار)

العقل باب . إن أردت إغلاقه . فاغلقه دائماً و إلى الأبد

لأنك لو فتحته مرة واحدة . فلن تستطيع إغلاقه أبداً (نزار)

المحتوى

المقدمة ٥

مدخل إلى أصل و منشأ الحكمة ٩

فترة الإنسان القديم ١٦

الشرق الأدنى القديم ٣٧

بلاد ما بين النهرين ٤٤

مصر القديمة ٧٣

اليونان ١٢٦

الاسكندر ١٧٣

الأديان السماوية ١٨٩

الديانة اليهودية ١٩١

الديانة المسيحية ٢٦٥

الديانة الإسلامية ٣٥٤

المصادر و المراجع ٣٤٦

المقدمة

الحكمة ... هذه الكلمة التي تتناهى إلى أسماعنا في بعض الأحاديث و الكلمات ، أو الجوار و النقاش ، و التي تتراءى إلى أنظارنا و نحن نقرأ بعض الكتب و المخطوطات التاريخية أو الدينية أو السياسية ، بل و حتى الأمثال و الروايات الشعبية و الاجتماعية . و التي قد تتجلى أمامنا بمواقف أو تصرفات ، تبدر من غيرنا أو منا نحن أنفسنا . و في كل الحالات نحس بها ونشعر بوجودها أو قد نظن أننا فعلنا حقاً و في بعض الأحيان نمر بها مرور الكرام . قرأنا عنها و سمعنا بها و ربما تصرفنا بها في أفعالنا و أقوالنا ، و لكن .. هل فكرنا بها بشكل جدي ؟؟ و تعمقنا بمفهومها و بحثنا فيها ؟؟ ما هي ؟؟ ما معناها ؟؟ متى ظهرت ؟؟ و كيف ظهرت ؟؟ و بمن ارتبطت و لماذا ؟؟ و في أي المفاهيم أو الأفكار وجدت ؟؟ و أي الأفعال و التصرفات ظهرت أو كان يجب أن تظهر ؟؟ هل لها عوامل و مقومات و صفات استدعت بالضرورة وجودها ، أم ليس لها ذلك ؟؟ هل هي خليط مركب من مجموعة عناصر أو مفاهيم تشوبها و تمتزج بها أم هي جوهر فرد و عنصر وحيد صاف ؟؟ هل هي عنصر محدد له نهاية و مدى أم عنصر مطلق لا حدود له ؟؟ أم أن له قمة هرم من الصعب الوصول إليها أو إدراكها .

في الواقع أن كلمة الحكمة هي مفهوم معقد و ليس من السهولة بمكان الوصول إليه و سبر أغواره جميعاً . و من المتعارف عليه و المألوف أن الحكمة هي صفة نادرة و من الصعب تطبيقها أو القيام بها . إنها صفة لا تنطبق على كل الناس ، و الذين تنطبق عليهمهم أشخاص مميز ون (حسب العرف السائد) و يتمتعون بصفات و مؤهلاتثيرة كالثقافة و الخبرة و سعة الا طلاع و الذكاء و غيرها . من هنا تأتي فكرة صعوبة تطبيق الحكمة و التصرف بها . و لكن في الحقيقة إن الصعوبة لا تتأتى أيضاً من النواحي الفكرية و العملية كالفعل و التطبيق و الكلام ، بل أيضاً من ناحية البحث و التحليل و الدراسة لكلمة الحكمة و مفهومها ، لأن مجرد محاولة الخوض في هذا الأمر ، سنجد أنفسنا نخوض في أمور عدة و مفاهيم و أفكار غير منتهية ، فلسفية و دينية و سياسية و اجتماعية و تاريخية أيضاً ، تجد الحكمة فيها موطئ قدم واسع ، و تتبوأ مقعداً كبيراً . و هذا الأمر يضطرنا إلى العودة الوراء .. إلى الماضي ، و طرق أبواب و مجالات عدة . و هذا

ماحصل في هذا الكتابيضاف إلى ذلك أن صعوبة كلمة الحكمة و تعقيد ها ينطلق من كونها كلمة شاملة عامة يندرج في إطارها أكثر من مصطلح أو صفة كالذكاء و الفهم و الدراية و الثقافة و العلم . و لكن هذه الصفات ، واحدة منها أو بعضها أو جميعها ، قد لا يكون كافياً لوجود الحكمة أو لإطلاق صفة الحكمة على الشخص الذي يمتلكها (أي الصفات) . فالشخص الذكي قد يتيح له ذكاؤه اتخاذ قرار صائب و صحيح أو مفيد بناء على معطيات منطقية معينة ، استطاع ذكاؤه تمييزها و تحديدها . و لكن قراره هذا بالرغم من كونه قراراً صحيحاً و مفيداً ، فإنه قد لا يكون حكيماً . و كذا الشخص المثقف أو العالم أو المطلع . و بالمقابل فقد يتخذ شخص ما ... رئيس أو حاكم أو مدير .. الخ ، قراراً قد لا يعجب المرؤوسين أو الأتباع أو الآخرين ، و يرونه خاطئاً و ضاراً ، و لكن يتضح في النهاية أنه كان قراراً حكيماً و لصالح الأمة أو القبيلة أو الجماعة مثلاً . هذا الأمر يقودنا إلى النتيجة التالية و هي .. **إن الحكمة قد لا ترتبط بالضرورة ، بالصحة و الصواب** .. و هذا لا يعني أنها حالة متضادة أو منافية لهما ، بل هي حالة منفصلة و لها طابعها و مفهومها الخاصان المختلفان عنها . و بمعنى آخر إن الصواب هو جزء من الحكمة و لكنها لا تقف عنده و تكتفي به ، بل تتعداه و هذا معناه أننا إذا وصلنا في قرارنا و تفكيرنا أو قولنا و تصرفاتنا إلى درجة الصواب ، فسيكون بانتظارنا شوط آخر نقطعه للوصول إلى أعتاب الحكمة ، قد يكون طويلاً أو ربما معدوماً . السبب في ذلك أن الحكمة لا ترتبط بحالة آنية و ظرفية معينة . و النطق و التصرف بها لا يعتمد حصراً على معطيات و ظروف آنية أو في الوقت الحاضر ، بل في الماضي و الحاضر و المستقبل ، و خصوصاً في المستقبل . و هو ما يزيد من صعوبة الوصول إلى الحكمة كمفهوم و كتطبيق . فهي أقرب ما تكون إلى الشيء الصائب الذي تتضح صوابيته في المستقبل ، أو اكتشاف الضرر و الخطر المجهول الكامن . إنها شيء من السبر لأغوار الأمر الظاهري المنظور و المسموع لمعرفة الخفي و المستور . و نوع من الحاسة السادسة أو القدرة على التنبؤ بما وراء الأفق ، و هي تعبير في معناها و جوهرها عن عواقب الأمور و التصرفات .. عاقبة القرار أو الحكم أو النطق أو الفعل . أي نستطيع القول هنا .. **إن الحكمة لا تظهر إلا بعواقب الأمور** .. و هذه الميزة لا يتمتع بها أي شخص ، حتى لو كان يمتلك ناصية الذكاء و الدراية . و لهذه الأسباب جميعها و منذ القدم ، فرضت الحكمة نفسها على البشر كشيء مقدس له مكانته و خصوصيته ، كهالة ملموسة تحيط بالشخص الذي يتصف بها ، فتميزه عن غيره من الناس و تعطيه درجة أعلى منهم .

لقد عرف الإنسان قديماً الحكمة و أدرك معناها ، سواء كصفة لازمته أو كصفة وجدت في غيره . و في كلتا الحالتين أعطت الحكمة كما ذكرنا الأشخاص الذين لازمتهم و اتصفوا بها ، مرتبة

فوق مستوى البشر العاديين و هؤلاء الأشخاص قيض لهم أن يتحكموا بغيرهم من البشر و يقودوهم و يقرروا مصائرهم ، سواء كملوك أو حكام أو كهنة أو رؤساء هياكل ، أو حتى حكماء معلمين . و بدورهم الآخرين ، قيض لهم أن يسلموا قيادهم لهؤلاء و ينقادوا لهم و ينصاعوا لأوامرهم و يظهروا لهم الاحترام و الطاعة و التبجيل .

و الحكمة أيضاً لم ترتبط قديماً بالبشر فقط ، بل ارتبطت أيضاً بالآلهة ، فتلازمت معها أحياناً ، و انبثقت عنها أحياناً أخرى ، و أحياناً سميت الآلهة بها ، و أحياناً أخرى عدت واهبة لها و معطية أو معلمة . و في الواقع إن الحكمة وجدت منذ بزوغ أولى الحضارات القديمة ، فقد دلت الكتابات القديمة و أشارت إليها الآثار المكتشفة لحضارات الشعوب القديمة . و أقدم كتابة معروفة في التاريخ و هي الكتابة المسمارية أو الفينيقية و ما بعدها ، وجدت فيها كلمات تعبر عن الحكمة و تعرف بها و تشرح عنها بطريق الوصف و العقل أو سرد أحداث و وقائع دينية أو سياسية معينة . و كذلك كان الأمر في الكتابات المصرية القديمة و ما بعدها .

و في الحضارة الإغريقية ، تطور مفهوم الحكمة بشكل أكبر عما كان عليه قبلاً في حضارة بلاد ما بين النهرين أو الحضارة المصرية القديمة ، و أصبح أكثر دقة و تحديداً و أكثر تميزاً و خصوصية ، حيث ظهرت في اليونان المدارس الفكرية و الفلسفية المتعددة التي طرحت آراء و نظريات فلسفية ، أولها المدرسة السفسطائية أو الفكر السفسطائي . و أنجبت أيضاً مفكرين و فلاسفة عظماء كسقراط و إفلاطون و أرسطو . هؤلاء و غيرهم من المفكرين الإغريق ، تناولوا موضوع الحكمة في كتاباتهم و آراءهم ، بشكل أو بآخر ، و كذا الأمر بالنسبة للحضارات الهندية و الصينية السائدة في منتصف القرن الأول قبل الميلاد . و بالإضافة إلى كل ذلك فقد تلازمت الحكمة أيضاً مع ظهور الأديان بشقيها ، الأرضية و السماوية التوحيدية ، فظهرت إشارات متعددة لموضوع الحكمة و مفهومها ، بصيغ عدة مختلفة . و الحقيقة أنه منذ بزوغ فجر الحضارت القديمة و ما بعدها ارتبط مفهوم الحكمة بأمرين اثنين .. الأسطورة و الإنسان قديماً ، ثم الدين و السياسة أو الإله و السلطان لاحقاً أو حديثاً ، و هذا ما دلت عليه قديماً الآثار و المخطوطات و الكتابات الأثرية للحضارات القديمة ، أو الأحداث و الوقائع التاريخية المسجلة لفترات اللاحقة ، و هو أيضاً موضوع كتابنا هذا " **الحكمة بين الإله و السلطان** " .

هذا الكتاب هو محاولة لدراسة مفهوم الحكمة من جوانبها كافة ، و محاولة معرفة طبيعتها و ماهيتها و بداية ظهورها ، و لكن محور الدراسة سيرتكز أساساً على موضوع الحكمة الإلهية و الحكمة السياسية المتعلقة بالإرادة البشرية الحاكمية و السلطانية . ما هما ؟؟ ما طبيعتهما و ما مجال كل منهما ؟؟ هل لهما المجال نفسه أم لكل منهما مجاله الخاص به ؟؟ ما هي علاقة كل

منهما بالأخرى ؟؟ هل مصدرهما واحد أي بمعنى هل الحكمة السلطانية مشتقة من الحكمة الإلهية ؟؟ هل هما متلازمتان و متوافقتان أم متضادتان و مختلفتان ؟؟ هل يجب أن تكونا متوافقتين أم ليس بالضرورة ؟؟ هل مرت فترات كانتا فيهمتوافقتين و ما أثر هذا التوافق ؟؟ هل الحكمة السلطانية هي تنفيذ للحكمة الإلهية و خاضعة لها (بشكل مباشر أو غير مباشر) أم ليس بالضرورة ؟؟ هل كانت نشأتهما التاريخية واحدة أو متقاربة (على الأرض طبعاً) أي بمعنى هل عرفهما الإنسان معاً و خلال فترة واحدة أم عرف كلاً منهما على حدة و خلال فترات متفاوتة ؟؟ و أي منهما عرف أولاً ؟؟ هذه التساؤلات كلها سنحاول أن نتناولها في هذا الكتاب ، و لكن قبل كل شيء يجب إيراد الملاحظات التالية :

أولاً : برأينا أن الحكمة الإلهية (في الأديان التوحيدية) هي غيب لا يدرك ، و هي أمر مقدس و كبير و لا يمكننا معرفته أو إدراكه ، و هو موجود منذ الأزل و يختص بالله سبحانه و تعالى وحده ، و هذا الأمر نابع من عقيدة و إيمان المؤلف ، و سيقتصر بحثنا في هذا المجال على ما ذكرته الكتب السماوية عن هذا الموضوع ، و ضمن حدود معرفتنا .

ثانياً : منهجية الدراسة و أسلوب البحث في هذا الكتاب ، ستعتمد أساساً على المقارنة و الاستشهاد ، و من ثم الاستنتاج . أما آلية هذه المنهجية و الدراسة ، فستكون بدءاً من الحضارات القديمة و بالتسلسل .

ثالثاً : موضوع الحكمة الإنسانية الحاكمية أو السلطانية أو السياسية ، ستتم دراسته و مناقشته من خلال كل المفاهيم و العوامل المكونة لفن الحكم و السياسة و الحرب عبر التاريخ ، كالذكاء و الدهاء و الحيلة و الصبر و القوة و المناورة و العدل و القيادة ... الخ . و علاقة الحكمة الإلهية بالحكمة السلطانية ، ستكون في جزء كبير منها ، من خلال دراسة ما ذكرته الكتب الدينية عن مفهوم الحكمة الإلهية و ما ذكرته عن المفاهيم و العوامل السابقة المكونة للحكمة السلطانية و محاولة الربط بينهما .

رابعاً : الدين كمفهوم و مصطلح ، مجاله عام و واسع جداً و هناك بعض الأديان التي لا تقوم على عبادة الآلهة ، بل يندرج اهتمامها أو عقائدها في أمور طبيعية معينة ، كالأرواح أو الكواكب أو بعض مظاهر الطبيعة كالبوذية التي لا تعتمد في أساسها على مفهوم أو فكرة الإله ، بل الأخلاق العامة ، و هذه الأديان تم استثناؤها في هذا الكتاب و ربما تتم مناقشة أمرها في بحث آخر جديد .

مدخل إلى أصل و منشأ الحكمة

روي عن الرسول (ص) أنه قال أول ما خلق الله سبحانه و تعالى ، العقل ، فقال له " أقبل " فأقبل . ثم قال له " أدبر " فأدبر . فقال عز من قائل " و عزتي و جلالي ما خلقت خلقاً أعز علي منك ، بك آخذ و بك أعطي و بك أحاسب و بك أعاقب "* . نفهم من هذا الحديث أن بداية الخلق كان العقل . أي أن الله سبحانه و تعالى ، قبل أن يخلق أي شيء خلق العقل . إذاً العقل هو الأساس و محور التدبير في هذا الوجود . و بموجب هذا الحديث فإن العقل كان الرابط بين الإنسان العاقل (حامل هذا العقل) و بين الله . و بما أن الإنسان هو الكائن و المخلوق الوحيد الذي يحمل العقل ، فإنه قد تميز به عن سائر المخلوقات الأخرى ، و بالتالي أصبح هناك رابطة أو علاقة خاصة مميزة و مستقلة عن غيرها من الروابط و هي .. **الله – العقل – الإنسان** . و إذا عدنا إلى علوم الآثار و الأنتروبولوجيا و التاريخ ، وجدنا أن بداية الأصول الأولى المكونة للحضارات و التجمعات البدائية ، كانت مع بداية ظهور الإنسان العاقل إذ قبل هذه الفترة ، فترة ظهور هذا الإنسان ، لم يكن للإنسان البدائي القديم أي أثر يدل على تحضره أو تمدنه أو يميزه عن غيره من الحيوانات ، بل كان إلى حد بعيد يشبه القردة [1] في تصرفاته و أعماله . فهو لم يكن منتصب القامة ، بل كان يمشي على أطرافه الأربع ، فضلاً عن ذلك فهو لم يكن يستخدم يديه إلا في المشي و الأكل . و خلال ملايين السنين ، مر هذا الإنسان بعمليات تطور أثرت فيه من الناحية الجسدية و العقلية ، و أدت به في نهاية المطاف إلى الوصول إلى مرتبة الإنسان العاقل المميز و المستقل عن القردة .

و المراحل التي مر بها الإنسان القديم و التي أثرت في تكوينه الجسدي و العقلي ، كانت متعددة ، و أهمها تحرير اليدين من المشي و استخدام الأرجل لهذه الغاية أي بداية الانتصاب ، ثم استخدام

---

* مجمع الزوائد ، ج/٨/ ، ص/٢٨/ .

[1] لا يعني ذلك بالضرورة أن أصل الإنسان كان قرداً . و صحة أو عدم صحة نظرية داروين ليست ضمن مجال بحث الكتاب .

اليدين في الاستعمال ، كالتقاط الحجارة أو جذوع الأشجار و أغصانها ، و تحريكها و نقلها . ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى استخدام بعض الأدوات البسيطة و البدائية التي صنعها الإنسان بيديه ، ليتطور الأمر أيضاً إلى مرحلة الاستطلاع و الاكتشاف ، كاكتشاف النار . و في النهاية تطور هذا الإنسان حتى وصل إلى مرحلة الإنسان العاقل الذي هو أبو الإنسان الحالي .

في الواقع إن أكثر من اهتم و بحث في أصل الإنسان القديم ، هو علم الأنتروبولوجيا الذي أعطى و قدم الكثير من الأبحاث و الدراسات حول الإنسان القديم ، كفرع من فروع و أقسام هذا العلم . و قد أعطت الدراسات الأنتروبولوجية تسميات عدة للإنسان القديم ، عبرت عن مراحل تطوره السابقة الذكر ، كالأوسترالوبيسيكوس أو الإنسان الجنوبي ثم الإنسان الحاذق ثم الإنسان المنتصب القامة ثم الإنسان العاقل . و يأتي بعده الإنسان الحالي أو الإنسان الشديد الحكمة [٢] .

و بداية ظهور و وجود الإنسان العاقل (homo-sapiens)كانت أيضاً بمنزلة البداية الأولى لأساس و جذور الحضارات القديمة ، و البداية الحقيقية و الفعلية ايضاً لتاريخ الإنسان بعامة ، فمعظم الدراسات و الأبحاث التاريخية و الأنتروبولوجية ، تركزت أساساً حول هذا الإنسان البدائي من حيث الشكل و حجم الجمجمة و الاختلاف النوعي في المقدرة و الإدراك ، و هذا أمر بدهي لأنه من الطبيعي و المنطقي أن تبرز التصرفات و الأفعال و طرق التفكير المنظمة حصراً لدى الإنسان العاقل ، كونها جميعاً ناتجة أساساً عن العقل الذي ظهر في هذا الإنسان ، و هذا ما يرجعنا إلى القسم الثاني من الحديث القدسي السابق " بك آخذ و بك أعطي و بك أحاسب و بك أعاقب " لنفهم من كل هذا أن ظهور العقل ، هو المفصل الأساس و الرئيس الأول في تاريخ الإنسان بعامة . و بدوره الإنسان العاقل ، خضع هو نفسه للتطور في تركيبته الجسدية و العقلية و في قدراته الجسمية و الفكرية . و تجلى ذلك كله من خلال صراعه مع الطبيعة و الحيوانات المفترسة ، دفاعاً عن نفسه و حفاظاً على وجوده . و هذا أيضاً بدوره تجلى باستخدامه للأدوات ، و صناعة بعض الأسلحة الحجرية أو الخشبية للدفاع عن نفسه أو لصيد الطرائد ، بالإضافة إلى تطوير أساليب الصيد و ابتكار أساليب أخرى جديدة ، و تحسين طرق عيشه و مسكنه ، كانتقاء الكهوف و مغاور جديدة تقيه هجوم الحيوانات المفترسة أو برد الشتاء و غيرها . هذه الأمور قيض لها أن تؤدي إلى تطوير و نمو القدرات العقلية لدى هذا الإنسان ، كما يمكن عدها أيضاً بمنزلة البذرة أو النواة أو الجذور الأولى لظهور مفهوم الحكمة فيما بعد لدى هذا الإنسان .

و لكن يجب القول هنا إنه إذا كان هذا الإنسان العاقل .. عاقلاً فعلاً من خلال ما أثبتته الدراسات و الأبحاث عنه ، فإنه ليس بالضرورة أن يكون حكيماً ، و على الأرجح أنه لم يكن كذلك ، قياساً إلى

---

[٢] الفكر السياسي و أساطير الشرق القديم .

الإنسان العاقل الذي تلاه فيما بعد و أسس التجمعات البشرية الأولى و اخترع اللغة و الكتابة الأولى . و لكن هذه الأمور والتصرفات التي كان يقوم بها ، ربما كانت الأساس لظهور مفهوم الحكمة فيما بعد . فطالما أنه كان يغير من تصرفاته و أعماله و يطورها ، فهذا يعني أنه كان يدرك و لو عفوياً أو باللاشعور أنه من الأفضل القيام بهذا الأمر بدلاً من ذاك ، أو السكن في هذا الكهف بدلاً من الكهف الذي كان يعيش فيه . أي بمعنى آخر ، الوصول إلى عملية التمييز بين الأشياء و اختيار و تحديد الأفضل و المناسب منها ، و هو ما يمكن عده نواة و أساساً لحكمة لم تنضج بعد . السبب في ذلك يعود إلى أن استخدام هذا الإنسان للعقل الموجود فيه ، كان في بداية مراحله ، استخداماً عفوياً و غريزياً بالدرجة الأولى ، فهو لم يكن يقصد أو يعي هذا الاستخدام تماماً ، و لم يكن يعرف إلى أين يمكن أن يصل به هذا الاستخدام و هذه المعارف التي كان يكتسبها من خلال حياته اليومية .

و لكن هذه التراكمات المعرفية المتحصلة و المكتسبة مع الأيام ، هي التي أمنت له القفزات الهائلة و الخطوات الواسعة نحو البدايات الأولى للحضارة القديمة [1] . و بداية هذه الخطوات و القفزات ، كانت عندما بدأ هذا الإنسان العاقل القديم يتساءل عن الظواهر الطبيعية المحيطة به و التي لم يستطع عقله و تفكيره آنذاك أن يتوصل إلى حل أو تفسير بسيط لها . و عندما بدأ البحث عن الحلول و التفسيرات لها و أخذ يعمل عقله و جهده في التفكير بها ، بدأ مفهوم الحكمة يأخذ له مكاناً في عقل هذا الإنسان . و لعل تساؤله حول هذه الأمور و الأشياء و عجزه و عدم تمكنه من إيجاد تفسير لها و تسليمه بهذاالعجز ، هو بحد ذاته نوع من الحكمة [2] . أي أنه عرف أنه لا يعرف ، فهذا الإنسان عندما كان يستخدم عقله و يكتشف الطبيعة و الأشياء أمامه و كيفية استخدامها ، لم يكن يعرف أو يدرك ذلك . و لكنه عندما اصطدم مع الأمور المستعصية عليه و التي لم يفهم لها سبباً أو تفسيراً ، و جهد في ذلك و لم يفلح ، أدرك عندها أنه لا يعرف . و نستطيع أن نستنتج و إن كنا غير جازمين ، بأن أول شيء عرفه الإنسان العاقل القديم و اكتشفه و لمسه بيديه ، هو أنه لا يعرف و أنه جاهل . و هذا يقودنا إلى النتيجة التالية و هي .. **إن الإنسان القديم أدرك جهله قبل أن يدرك معرفته ، و إن إدراكه جهله هو الذي قاده إلى إدراك معرفته ..** و هو أول بدايات مفهوم الحكمة لديه ، و هي حكمة وليدة خام لم تتحد أبعادها و صفاتها إلا في المراحل اللاحقة ، عندما برزت تساؤلات أخرى أكثر تعقيداً من الأولى ، و إصرار ذلك الإنسان على إيجاد التفسير الملائم لها .

---

[1] المصدر السابق

[2] و هو الإنسان اللاحق المتطور قليلاً عن الإنسان العاقل البسيط .

هذه التساؤلات بمجملها تركزت حول أمور عدة منها الأمطار و الرعد و البرق و العواصف و عوامل الطبيعة الأخرى و الكواكب كالشمس و القمر و غيرها من نجوم و أجرام . و تلازم عجزه عن تفسيرها مع إصراره على تفسيرها ، أدى في نهاية المطاف إلى تكون قناعة لديه بأن هناك قوى خفية غير منظورة ، هي التي تتحكم بالطبيعة . فبدأ مفهوم الآلهة بالظهور لدى هذا الإنسان القديم . و هذا التفسير في الواقع كان ملائماً و منطقياً لهذا الإنسان و في الوقت نفسه قدم له الكثير من الأجوبة و الحلول لأمور و أشياء أخرى . و بالرغم من إصراره على إيجاد التفسير لهذه الظواهر و الأمور ، و صراعه الفكري معها ، تماماً كما صراعه الجسدي مع الطبيعة و الحيوانات ، فإنه اقتنع تماماً بفكرة و مفهوم القوى الخفية أو الآلهة كحل لهذه القضا يا العالقة ، و سلم به و له بكل طواعية و قبول ، لأنه فعلاً كان الأكثر منطقية و قبولاً له من كل الحلول الأخرى (فهل كان مسلماً بالفطرة ؟؟؟) و تسليم الإنسان القديم لمبدأ و فكرة القوى الخفية أو الآلهة و قبوله بهما كحل ، كان أيضاً بمنزلة نوع من الحكمة ، لأنه و بكل طواعية و منطقية اعترف بهذه القوى و الآلهة كشيء أقوى منه و فوق قدراته على المجابه و التحدي ، فأقر لها بالقبول و الخضوع و راح يعبدها بوسائل بسيطة جداً و هذا ما أثبتته الدراسات و الأبحاث الأثرية . إذاً فهذه الحكمة التي ظهرت لديه ، هي حكمة إلهية في الوقت الذي لم يكن فيه قد عرف التجمعات البشرية بعد ، و خضع لسلطان البشر . و هنا يمكن القول إن الحكمة الإلهية أو حكمة الآلهة ظهرت قبل حكمة السلطان و حتمية هذه المقولة تنطلق في الأساس من فكرة أن المعتقدات و الأفكار الدينية بعامة ، ظهرت لدى الإنسان القديم قبل المعتقدات و الأفكار السياسية .

أما الأفكار السياسية أو الشق الثاني للحكمة موضوع كتابنا و هو الشق السلطاني أو السياسي ، فيعود بجذوره و بداياته إلى أولى بدايات تشكل التجمعات أو الجماعات الإنسانية أي إلى الجانب و الشق الاجتماعي لهذا الإنسان ، فمع تطور ظروفه الطبيعية و حياته المعيشية و نمو في قدراته العقلية ، أخذ هذا الإنسان ينظم حياته ضمن جماعة أو مجموعة بسيطة . و لقد كانت دوافعه في هذا المجال متعددة ، أهمها الحاجة و الخوف ، فالحاجة برزت نتيجة لصراعه مع الطبيعة و الوسط المحيط به ، الأمر الذي ولد عنده نوعاً من الشعو ر و الإدراك لحاجته إلى التعاون مع أفراد آخرين من بني جنسه لتأمين ضرورات المعيشة اليومية من صيد و مسكن و حماية ضد هجمات الحيوانات الضارية . أما عامل الخوف و الرهبة ، فإنه أسهم في تعزيز أواصر التجمع العفوي عندو.فضلاً عن الأسباب السابقة ، فإن فكرة القوى ا لخفية أو الإلهية في الطبيعة ، ربما تكون أيضاً قد لعبت دورها في جعله ينضم إلى الأفراد المحيطين به و يتكتل معهم ، إما لصد خطر و ضرر هذه القوى ، و إما للتعامل و التفاهم معها بشكل أفضل أيضاً . و هذا القرار

أو التحول من الحياة الفردية إلى الحياة الجماعية ، كان أيضاً بمنزلة نوع من الحكمة الخفية ، لأنه ارتأى في نفسه أن هذه الأمور جميعها تتحقق له بشكل أفضل إذا ما اتبع أسلوب التعاون و الاجتماع المنظم مع أقرانه . و هذه الحكمة كانت الحكمة الاجتماعية التي شكلت النواة و الأساس للحكمة السلطانية فيما بعد . و مع هذا و بالرغم من كل التطورات التي مر بها هذا الإنسان ، حتى اللحظة التي بدأ فيها يشكل لنفسه جماعات يعيش ضمن إطارها . و بالرغم من أن بعض الدراسات الأنتروبولوجية أكدت أن هذا الإنسان هو كائن اجتماعي بحكم ضرورات تكوينه الدماغي و النفسي [1] فإنه حتى هذه اللحظة لم يدرك هذا الأمر و لم يفكر فيه ، و في الوقت نفسه لم يفكر بذاته كإنسان ، بل كان كل تركيزه منصباً حول الطبيعة و الوسط المحيط به .

إذن فهذه الحكمة التي ظهرت في الإنسان القديم العاقل ، ارتبطت بصفتين اثنتين أساسيتين هما الصفة الإلهية و الصفة الاجتماعية التي ستتحول إلى صفة سياسية أو سلطانية . و هاتان الصفتان تلازمتا بعضهما مع بعض و تطورتا مع مرور الزمن بحسب الظروف و المقتضيات الخارجية الطبيعية و بحسب تطور المفهوم العقلي عند الإنسان و كيف نظر لهما من منظار هذا التطور . فالمفهوم الروحي أو الإلهي عند الإنسان القديم العاقل ، و حتى الإنسان الحالي ، تطور من آلهة متعددة تحكم الطبيعة المحيطة به إلى آلهة أقل عدداً تحكم العالم ، إلى إله واحد يحكم الكون بأسره ، و في الوقت نفسه تطور المفهوم السياسي و السلطاني عنده بحسب معيار التطور السابق ، من جماعة بسيطة إلى مجتمع مركب ، إلى دولة كبيرة ذات سيادة و نظام سياسي ، إلى امبرطورية هائلة شاسعة مترامية الأطراف .

و نلاحظ في تطور الصفة الإلهية السابق ، أنه في البداية كانت الآلهة كثيرة و حيز نطاق عملها الجغرافي محدود و مقتصر على الطبيعة المحيطة بهذا الإنسان لأنه في البداية لم يكن لديه إلمام بمفهوم ما وراء الطبيعة الجغرافي ، فلم يعرف إلا الأرض و المكان الذي يعيش فيهما حيث لم يكن قد وصل إلى مرحلة الهجرات البشرية الأولى . ثم نلاحظ بعد ذلك نقص عدد الآلهة مع ازدياد مساحة و موقع الأرض التي تمد سلطانها و سطوتها عليها ، حتى وصل الأمر مع الأديان السماوية و التوحيدية إلى إله واحد مع مساحة مطلقة مفتوحة تشمل الكون كله . العلاقة هنا هي علاقة عكسية بين حجم الآلهة و عددها و بين مساحة الحيز و المكان الذي تسيطر عليه ، مع أنه من الناحية النظرية لدى هذا الإنسان ، فإنه يجب أن تكون العلاقة طردية ، أي كلما ازدادت مساحة و حجم المكان ، كلما ازداد عدد الآلهة بالنسبة إليه ، فهل يمكن عد ذلك نوعاً من أنواع

---

[1] المصدر السابق .

الحكمة لدى هذا الإنسان و التي ليس لها سوى تفسير واحد و هو أن الآلهة أو الله تعالى قد عرف عن نفسه لهذا الإنسان كما في حالة الأديان السماوية .

أما في تطور الصفة الاجتماعية ، فيلاحظ أن العلاقة هنا هي طردية بين تطور مفهوم الجماعة و بين المسافة الجغرافية التي تشغلها هذه الجماعة ، فالجماعات البدائية البسيطة التي شكلها الإنسان القديم ، كانت ضمن مساحات صغيرة و محدودة ، نظراً لقلة الكثافة البشرية و انعدام واقع التنقل والانتشار لمسافات بعيدة عند هذا الإنسان ، و انعدام استخدام الوسائط التي تساعده على ذلك ، كالخيول و الحمير (لم يكن قد سخرها بعد لخدمته) . و مع تطور مفهوم الجماعة لدى هذا الإنسان إلى مجتمع و مدن و ممالك و إمارات صغيرة أو متوسطة أو كبيرة ، ازدادت تبعاً لذلك مساحات الأراضي التي تشغلها هذه الكيانات السياسية (إن جاز التعبير) . و ترافق هذا الأمر مع ترافق ظهور الهجرات و التنقلات و استخدام الحيوانات الخاصة لهذا الغرض ، ليصل الأمر بعد ذلك إلى ذروته في تشكل الامبرطوريات الكبيرة الواسعة و المترامية الأطراف و التي تشكل مساحات جغرافية هائلة ، و ينضوي تحت لوائها أعداد كبيرة من البشر (كامبرطورية الأسكندر المقدوني و الامبرطورية الفارسية و الرومانية) .

مما سبق ، نستطيع القول إن أصل و منشأ مفهوم الحكمة تاريخياً ، بدأ مع ظهور العقل في الإنسان ، هو الإنسان العاقل . و لكن هذا المفهوم لم يظهر إلا كنتيجة لتطور و نمو هذا العقل في الإنسان العاقل . فالعقل الخام الوليد لم يأت بالحكمة ، و إنما الحكمة ظهرت فيه كوعاء لها عندما أخذ صاحبه الإنسان يستخدمه في التعامل مع الطبيعة المحيطة به مستخدماً في الوقت نفسه حواسه الخمس زائد أطرافه العضوية ، و مطوراً قدراته شيئاً فشيئاً .

إذن فإن عوامل و مكونات هذه الحكمة الإنسانية هي العقل و الطبيعة ، و هي ناتجة عن تزاوج هذين المفهومين (إن صح التعبير) أما الصفات و الأبعاد التي أخذتها الحكمة في هذا الإنسان ، فهي صفتان أو بعدان .. البعد الإلهي ، و البعد الاجتماعي السياسي . و نلاحظ ايضاً أنه ليس هناك علاقة فعلية بين هذين البعدين أو الصفتين ، أو بالأحرى و توخياً للدقة ، فإنه ليس لدينا المعطيات الأثرية و التاريخية الكافية لإثبات وجود أو عدم وجود هذه العلاقة بشكل دقيق . و أهم هذه المعطيات هي الكتابة و يليها الرسوم القديمة الواضحة و المعبرة عن تصرفات الإنسان القديم . أما الفترة التي سبقت ظهور الكتابة القديمة و المخطوطات ، فمن الصعب فيها الجزم بشكل دقيق و واضح بتصرفات إنسان تلك الفترة ، و خاصة فيما يتعلق بموضوع فكري معقد كموضوع الحكمة ، و ملامسة أبعاده الدينية و الاجتماعية ، و بالذات تلك الفترات التي لم يكن هناك أثر واضح يدل عليها أو كانت المنحوتات الأثرية المكتشفة فيها ، مبهمة و غير واضحة . و

الكلام على تلك الفترات أو المراحل سيكون من باب التخمين . و هنا تجدر الملاحظة بأنه كانت هناك فترات سبقت عصر الكتابة ، و استطاع علماء الآثار و الأنتروبولوجيا تحديد تصرفات الإنسان الذي عاش فيها بشكل واضح إلى حد بعيد ، بسبب وفرة الآثار المكتشفة فيها و الرسومات الواضحة التي قادتهم إلى استنتاجات منطقية و علمية و موضوعية حول تصرفات ذلك الإنسان . و في النهاية ، تبقى الكتابة و المخطوطات القديمة أفضل أداة و خير وسيلة لمعرفة تصرفات الإنسان القديم لأنها – أي الكتابة – و خلافاً لكل المعطيات الأثرية الأخرى كالرسوم و الأدوات المستخدمة و البيوت ، هي الأداة الوحيدة التي تستطيع أن تعرف عن طريقة تفكير الإنسان و كيفيته في تلك المراحل و كيفية نظرته إلى الحياة و الطبيعة و الأشياء المحيطة به ، و هذا ما لا تستطيع تحديده المعطيات الأخرى بشكل واضح ، هذا إذا علمنا أن الكتابات القديمة تركزت في معظمها حول الأمور الدينية و الأمور السياسية أو الحربية التي كان يعيشها الإنسان القديم ، و تحدثت عنها في بعض الأحيان بشكل واضح و مسهب .

فترة الإنسان القديم

إن دراسة فترة تاريخ الإنسان القديم ، تبدأ منذ العثور على أقدم مستحاثة معروفة لهذا الإنسان على اختلاف أنواعه و تعدد فصائله ، و على الأدوات التي كان يستخدمها و الآثار التي تركها . و هي في علم الآثار و علم الأنتروبولوجيا – و تحديداً علم الآثار – فترة غير ثابتة ، بل متغيرة و تخضع في تغيرها إلى آخر الاكتشافات الأثرية ، الحديثة و الدورية ، و على عمليات التنقيب التي تضيف الجديد في هذا المجال و التي بدورها تتطور و تتقدم مع التطور التقني و التكنولوجي لأدوات و آليات و طرق البحث ، و هذه الفترة تمتد إلى ملايين السنين و تشمل كل ما يتعلق بالإنسان منذ بدايات ظهوره حتى الفترات القريبة ، بينما مجال الدراسة في علم الأنتروبولوجيا عامة يكون أكثر تحديداً و قريباً من مجال علم الآثار . و في موضوعنا هذا و فيما يخص بدراسة الحكمة عند هذا الإنسان ، المرتبطة بالدين و السياسة ، فإنها حتماً ستكون منذ فترة الإنسان العاقل ، و تحديداً منذ فترة ظهور هذا الإنسان و حتى مرحلة تشكل الجماعات البشرية و بداية الحضارات القديمة و ظهور الكتابة . هذا الإنسان الذي بدأ بشكل عام يستخدم الأدوات الحجرية و حتى المعدنية و يصنع الأسلحة البسيطة للدفاع عن نفسه و لصيد الحيوانات البرية ، لم يعد يختار سكنه جزافاً ، بل أصبح ينتقي كهوفاً و أماكن معينة لها مواصفات محددة و بعد تدقيق و تمحيص ، و لو بسيطين .

و إنسان هذه الفترة بالذات ، هو أكثر من شغل فكر علماء الآثار و الباحثين ، و أثار التكهنات و الافتراضات حول طريقة تفكيره و ثقافته و نظرته للحياة . و السبب هو عدم وجود آثار كتابية و مخطوطات معينة تدل على ذلك ، فاعتمدوا بالدرجة الأولى على مكان سكنه و على أدواته المكتشفة و على رسوماته و منحوتاته التي خلفها أيضاً وراءه و التي كانت تعطي بعض التصور عن طريقة تفكيره و معتقده و ثقافته . و مما لا شك فيه أن هذا الأمر يفترض وجود نوع من

الحكمة لدى هذا الإنسان . و لن يكون من السهولة بمكان التحدث عن هذه الحكمة و خصائصها و تناولها ، إلا من خلال المخلفات و الآثار التي تركها هذا الإنسان . إن مناقشة موضوع الحكمة في تلك الفترة ، يستدعي منا بداهة التطرق إلى موضوعين أساسين هما .. المفهوم الديني و المفهوم السياسي أو الاجتماعي إن صح التعبير ، و محاولة استخلاصها من هذين المفهومين .

إن أولى بوادر ظهور مفهوم الجماعة عند الإنسان القديم ، كانت عندما بدأ هذا الإنسان يلاحظ غيره من بني جنسه و يتفاعل معهم بعد أن كان ينظر فقط إلى نفسه و إلى العالم و الكون . و ظروف هذا التفاعل بدأت من خلال تطور وعي الإنسان و نمو مدركاته العقلية [١] و ظروف الحياة اليومية التي كان يعيشها ، و من ذلك ، أخذ يلاحظ القواسم المشتركة بينه و بين بني جنسه ، كعمليات الصيد و الدفاع عن النفس . و لعل أول بداية في تشكيل الجماعات البشرية ، هو تشكل مفهوم الأسرة و وعي الإنسان لهذا الأمر و تطور نظام الأسرة و عددها الذي أسهم في تشكل الجماعات ، ساعد على ذلك ، تلاه العامل الأساس و الهام و هو اكتشاف الزراعة و القدرة على الاستنبات [٢] . و هناك نظريات أخرى تقول بقدم نشوء و تشكل الجماعات و الهجرات البشرية . و قد ترافق مع تشكل مفهوم الأسرة (قبل أو بعد) ، مفهوم الزمر حيث أخذ هذا الإنسان يتجمع مع أقرانه في زمر صغيرة بلغ عددها في بعض الأحيان من /٥ ـ ٩/ [٣] كانت تتحكم بها و بعددها ، عوامل الطبيعة و الحيوانات المفترسة . و قد شكلت هذه الجماعات و الزمر البدائية ، الأسس الأولى للعلاقات الاجتماعية ، و من بعدها السياسية التي تشعبت و تفرعت عنها . و نستطيع القول وفقاً لما سبق .أن تفكير الإنسان أيضاً قد تغير من التفكير الفردي إلى التفكير الجماعي ، و عملية التفكير الجماعي هذه ، كانت قفزة نوعية في حياة الإنسان ، فرضت عليه تغيير نمط حياته كلياً .

و قبل تشكل و ظهور الجماعات البشرية ، كان تفكير الإنسان محصوراً بالطبيعة وحدها فقط ، و كان تفكيره غريزياً . حتى مفهوم الحكمة البدائي عنده ، كان غريزياً و بالفطرة العفوية . و لم يكن هناك تفكير بقدر ما كان هناك ممارسة فردية و تكرار يومي . و برأينا أن الحكمة لدى هذا الإنسان ، كانت حكمة لاحقة أي تحددها الأحداث اللاحقة و تكرار الأفعال ، فهي حكمة ناتجة عن خبرة الممارسة اليومية و اصطفاء الصواب بعد الوقوع في الخطأ أكثر من مرة . هي ليست حكمة بقدر ما هي خبرة ممارسة و بقدر ما هي غريزة البقاء . إذاً في الحياة الفردية ، كان قرار

---

[١] للمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة أرنولد توينبي (تاريخ البشرية) – ول ديورانت (قصة الحضارة) – غوستاف لوبون – هنري فرانكفورت و غيرهم .

[٢] الفكر السياسي و أساطير الشرق الأدنى القديم .

[٣] المصدر السابق ص ٤٠ .

الإنسان على الأرجح يأتي كنتيجة للأحداث و الوقوع في الخطأ و الصواب . و هناك سبب آخر لإصدار القرار و بروز مفهوم الحكمة الغريزية ، و هو الاكتشاف ، فهذا الإنسان الوحيد الهائم في الغابات و البراري ، كان أحياناً و عن طريق المصادفة يكتشف أمراً ما أو طريقة معينة مثلى للصيد أو لجني الثمار أو لتناول الطعام . و لعل اكتشاف النار كان من أحد أمثلة المصادفة . و برأينا أن كل إبداعات و اكتشافات الإنسان الفردية الفطرية ، لم تكن ذات أثر يذكر في التاريخ ، و إن التاريخ لم يسجل سوى التصرفات الجماعية أو الفردية التي حصلت ضمن نطاق الجماعة . و السبب في ذلك هو أن هذه الاكتشافات و التطورات الحاصلة ، الإيجابية منها أو السلبية ، بقيت ملازمة لذلك الإنسان الفردي و لم تعمم على باقي المجموعة ، فهو بسبب طبيعته الفردية ، بقي محتفظاً بهذه الأمور لنفسه ، ربما ليس من باب الأنانية ، بل من باب أنه لم يصل إلى مستوى فهم و إدراك أنه يجب تعميم معرفته و خبرته على بني جنسه و عدم توافر الظروف التي تسمح له بالاجتماع دائماً مع بني جنسه . فإن كانت تلك الأمور إيجابية و مفيدة كاكتشاف أداة معينة أو طريقة صيد مثلى ، احتفظ بها لنفسه و بقيت محصورة به ، و فائدتها تعود عليه وحده . و أما إذا كانت سلبية ، فكان أيضاً هو الذي يتحمل نتائجها فقط و يدفع ثمن ذلك وحده ، و قد يكلفه هذا الثمن حياته . هذه الفترة برأينا كانت فترة بطيئة جامدة خارج نطاق التاريخ كله و لا يوجد فيها أثر يدل على الإنسان سوى الهياكل العظمية . و هي فترة لا مجال للإبداع فيها ، فترة سكون و ضمور .

و لم تأت النقلة النوعية في حياة هذا الإنسان إلا بعد أن انضوى تحت لواء الجماعات الصغيرة ، و بعد أن اكتشف أنه من الحكمة أن يكون وجوده داخل إطار جماعة معينة . و برأينا أن بداية تشكل الجماعات البشرية ، هو أيضاً بمنزلة اكتشاف مهم للإنسان ، اكتشاف غير من طريقة حياته و سلوكه ، و كان طريق البداية الذي أوصله إلى بداية الحضارة .

و في الحياة الجماعية ، كانت أول ميزة للإنسان هو نظام الحماية ضد الطبيعة عامة و ضد الحيوانات المفترسة خاصة . و الميزة الثانية هي التعاون و تبادل الخبرات و المعرفة في شؤون الحياة اليوميةأما الميزة الثالثة و الأهم ، فهي ميزة التفكير الجماعية ، هذه ا لميزة التي صقلت مفهوم الحكمة لهذا الإنسان و أعطته دفعاً قوياً للأمام و وسعت أبعاده . ففي النظام الجماعي لم يعد التفكير يأتي دائماً في الأمور اللاحقة أو بعد حصول الحدث ، بل صار أحياناً يستبق الحدث أو الواقعة اللذين أصبحا أحياناً يأتيان كنتيجة لهذا التفكير و ليس العكس . و صارت الحكمة بمفهومها البسيط تتولد لدى هذا الإنسان كعملية سابقة على التنفيذ أو وقوع الحدث لتحدد كيفية التصرف و التعامل معه بالطريقة المثلى . و السبب في ذلك أنه في النظام الجماعي أضحى هناك

نوع من بنك المعلومات خاص بالجماعة ، وضع كل فرد فيه خبرته الخاصة في الحياة اليومية و أصبح رصيده ملكاً لجميع الأفراد ، و أصبحت العودة إليه من قبل كل فرد ، هي بمنزلة حكمة . هذا الأمر أدى إلى أن تكون الاكتشافات و الابتكارات في الحياة اليومية ، معممة على الجميع ، و الفائدة المرجوة منها هي أن الأمور الإيجابية تعمم على أفراد الجماعة ، بينما الأمور السلبية يدفع ثمنها صاحبها وحده و في الوقت نفسه يجنب أفراد الجماعة خطرها و أذاها إلا في حالات نادرة جداً . اي أن العملية هنا هي عملية حماية و صيانة للإنسان . فمثلاً إذا اكتشف أحد أفراد الجماعة مصادفة ، طريقة لإشعال النار ، فإن هذه المعرفة بالغالب و بحكم عضويته و علاقته بالجماعة ، ستنتقل إلى كل افرادها و سيقوم الجميع ابتداء من تلك اللحظة بتطبيقها و الإفادة منها . أما إذا تناول هذا الشخص فطراً ساماً مثلاً ، فإنه سينقل هذا الأمر إلى باقي أفراد الجماعة فيجتنبوه . إذاً العملية هنا هي التسريع و حرق المراحل و ذلك بعكس النظام الفردي ، و نستطيع أن نعمم باقي الاكتشافات و التطورات اللاحقة بالطريقة نفسها . فضلاً عن ذلك ، فإن النظام الجماعي نقل الإنسان من عملية التجريب إلى عملية التفكير . و لعل الفائدة أو الاكتشاف المعنوي الكبير في هذا الأمر هو مفهوم تبادل الرأي و الاستماع إلى وجهات النظر حيال أي مشكلة أو خطر يعترض الجماعة .

إن أول عملية تبادل للرأي في التاريخ (إذا صح التعبير) كانت هي الفاتحة لتغيير الإنسان جذرياً . و نظن أنها الأساس في كل الإبداعات و الاكتشافات اللاحقة للإنسان ، و هي الأساس و الوعاء الذي ظهرت فيه الأديان القديمة ، و حتى الحضارات . فقد كان من أثر تبادل الرأي أن توثقت عرى الجماعة و زاد اعتماد الإنسان على الإنسان ، و لم يعد هناك مجال للفردية ، و أصبح الإنسان من وقتها كائناً اجتماعياً . و منذ أن تم التفاهم بينه و بين أقرانه ، بدأت عملية تشكيل الأسس الأولى للحضارة بمختلف جوانبها المادية و الفكرية و الروحية .

إن عصر ما قبل الحضارة الأولى أو الكتابة الأولى ، يسمى عصر (النيولين) و هو حسب بعض الدراسات ، يمتد لأكثر من ثلاثة ملايين سنة و ينتهي حوالي سنة /١٠٠٠٠/ قبل الميلاد . و هو عصر شامل عام ضم بين طياته عدة عصور مختلفة . و قد حدد تاريخه و أحداثه الهامة بالجدول الزمني التالي [1] :

- من سنة ٤٠٠٠٠٠ و حتى ٣٦٠٠٠ : الإنسان في آسيا و افريقيا يصنع الأدوات و يستخدم النار و يقوم بالصيد و جمع الثمار و الحبوب و الجوز و يمارس دفن موتاه .

[1] موسوعة سيكلوبيديا ، تاريخ الإنسان القديم . و الأحداث طبعاً قبل الميلاد .

- من١٢٠٠٠٠ و حتى ٧٥٠٠٠ : الإنسان يطور مهارات الصيد و يعتني بكبار السن .
- ٦٠٠٠٠ سنة : الإنسان يستخدم الزهور في دفن موتاه .
- ٤٠٠٠٠ و حتى ٢٠٠٠٠ : الإنسان يتحكم في النيران و يطور الأدوات و يقوم بصيد الحيوانات و الأسماك و يجمع العسل و الثمار .
- ٣٥٠٠٠ : رسومات الكهف في فرنسا و اسبانيا .
- ١٢٠٠٠ : استئناس الكلاب في الشرق الأدنى .
- ١٠٠٠٠ : استئناس و تربية الماعز في الشرق الأدنى (العصر الميزوليثي الحجري أو الوسيط) .
- ٧٥٠٠ : تربية الأغنام في اليونان (العصر الحجري الحديث) .
- ٧٠٠٠ : زراعة القمح و الشعير و ظهور الجدران في المستعمرات السكنية (الشرق الأدنى) .
- ٦٥٠٠ : السومريون يطورون تصنيع العجلات .
- ٦٠٠٠ : تطور صناعة الفخار و الخبز و حفظ الفواكه و الخضراوات بالتجفيف (في سومر) .
- ٥٥٠٠ : صهر النحاس (فارس) .
- ٥٠٠٠ : حفر قنوات للري و الصرف في الشرق الأدنى .
- ٤٠٠٠ : تربية الخيول بعد استئناسها (أوروبا) و صناعة النبيذ .
- ٣٥٠٠ : صناعة البرونز و السومريون يطورون العربات ذات العجلات و السفن التي تدفعها المجاديف .
- ٣٠٠٠ : السومريون يطورون الكتابة المسمارية .

إن جدول التاريخ الزمني هذا ، لا يعطينا فكرة واضحة عن بداية ظهور وفهم الجماعة لدى الإنسان القديم ، و لكننا نستطيع استنتاج ذلك من خلال الفترة التي بدأ فيها يطور مهاراته في الصيد ، و يعتني بكبار السن منذ حوالي ١٢٠٠٠٠ سنة و حتى ٧٥٠٠٠ سنة و هي المرحلة

الثانية ، و أغلب الظن أنها هي المرحلة أو الفترة التي بدأ فيها مفهوم الجماعة يتشكل لديه . أما المرحلة السابقة و هي المرحلة الأولى ، فالغالب أنه كان فيها يحيا حياة بدائية فردية ، خالية من أي تقدم و إبداع . و نلاحظ من الفترة الثانية ، الربط بين مفهوم التطور في مهارات الإنسان و بين العناية بكبار السن هذا الأمر هو دلالة على أن مفهوم الحكمة لدى الإنسان قد بدأت تفعل فعلها في عقله و تفكيره . فمعنى التطور في مهارات الصيد و غيرها ، هو دلالة واضحة على وجود النظام الجماعي و أثره في التطور . و العناية بكبار السن هي دلالة واضحة على تمسك هذا الإنسان بمفهوم النظام الجماعي ، و دلالة على أنها حكمة أكثر منها عاطفة . فعناية هذا الإنسان بالأكبر منه سناً ، هو على الأرجح إدراكه لفائدة هؤلاء و حكمتهم و حاجته إلى الخبرة التي يمتلكونها ، أكثر من كونه مجرد عاطفة بحتة . و تعطي أيضاً الدلالة على أن مفهوم الأخذ بالرأي و المشورة ، كان موجوداً و كان له أثره الفعال . و لعلنا نلاحظ أيضاً أن مفهوم العناية بكبار السن فضلاً عن ارتباطه بتطوير مهارات الصيد و تزامنه معها ، هو السابق على الأحداث و التطورات الحاصلة للإنسان ، كالتحكم في النيران و تطوير و صنع الأدوات و الرسومات في الكهف ، و استئناس الحيوانات وصولاً إلى اختراع الكتابة في التاريخ و نشوء أول حضارة . و هذا ما يجعلنا نتجه إلى القول إن كل هذه الأمور و التطورات الحاصلة ، ما هي إلا نتيجة لحكمة كبار السن الذي حافظ عليهم الإنسان القديم و اعتنى بهم . أما فيما يخص الدين ، فإن بعضهم قد يظن أن إنسان العصر الحجري لم يكن له دين و لم يعرف أو يتصور أو يفقه شيئاً عن الدين . و لكن في الواقع فإنه إلى جانب الحياة اليومية لهذا الإنسان من صيد و غذاء و مسكن ، كانت هناك حياة روحية ، فقد دلت الأبحاث و الدراسات الأنتروبولوجية و الأثرية على وجود معتقدات دينية لدى هذا الإنسان القديم ، و توجهات روحية معينة ، و لكن كما ذكرنا من قبل ، فإنه من الصعوبة بمكان تحديد الكيفية التي كان يفكر فيها ذلك الإنسان (البيالوتي) و التصرفات و المعتقدات الخاصة به و الحياة الاجتماعية التي كان يحياها بشكل دقيق ، نظراً لعدم ظهور الكتابة في ذلك الوقت . في هذه الحالة لا يبقى سوى المخلفات التي تركها ذلك الإنسان و التي انطلق منها علماء الآثار و الأنتروبولوجيا لدراسة المفهوم الديني لهذا الإنسان ، هي الرسومات و المنحوتات الموجودة في الكهوف و المقابر العائدة له .

لقد عثر علماء الاثار في الكهوف التي اكتشفوها و العائدة للعصر البالبوتي ، على رسومات للحيوانات البرية التي كان يصطادها إنسان ذلك العصر ، و منها الثيران و الغزلان . و قد لوحظ أن هذه الحيوانات مرسومة بدقة فائقة و عناية متناهية أثارت الدهشة لدى بعض الباحثين من قدرة و مهارة إنسان ذلك العصر على الرسم بهذه الطريقة التعبيرية . و قد تكررت هذه المشاهد و

الرسومات في كهوف أخرى . و اتفق معظم الباحثين و علماء الأنتروبولوجيا باستثناء بعضهم ، على أن هذه الرسومات ليست عبارة عن مجرد هواية عبثية أو لمجرد الرسم فقط ، بل إن إنسان ذلك العصر أو الشخص الذي رسم هذه الصور قد أراد التعبير عن شيء آخر غير الرسم . فالمكان الذي وجدت فيه هذه الصور ، كان مكاناً خاصاً و على ما يبدو أنه خصص فقط لهذه الصور و كان مصمماً بطريقة توحي بقدسية و خصوصية المكان ، فكان الوصول إليه يتم عبر اجتياز أماكن و ممرات ضيقة جداً يضطر الشخص فيها للحنو و الركوع و حتى الحبو أحياناً ، حتى يصل إلى المكان . و تبين للباحثين أن طريقة حفر المسالك و الممرات على هذا النحو ، كانت مقصودة ، فضلاً عن أن طبيعة هذه الرسومات و طريقة رسمها ، كانت متميزة . و قد أورد الباحث (فراس السواح) في كتابه دين الإنسان ما مفاده " هناك أمر ملفت للنظر في اللوحات الجدارية و هو خلو المشهد الحيواني من أية خلفية طبيعية أو عنصر آخر يمت بصلة إلى عالم الطبيعة ، فلا وجود لشمس أو قمر ، لا لصخرة أو لشجرة أو أرض تخطو عليها هذه الهيئات الحيوانية أو أفق يحدد موقعها . و هذه الكتل لا تلقي ظلاً على الأرض ، و كأنها تتحرك في حيز لا مكان للنور أو الظلام فيه بمفهومها المتعارف عليه . كل ذلك يعطينا الانطباع بأننا لسنا أمام مشهد من الطبيعة و أن الحيوان المصور هو جزء من مجال آخر و عالم آخر " [1] .

لقد تعددت التفسيرات و التأويلات حول طبيعة هذه الرسومات و انحصرت في معظمها حول أن هذه الرسومات هي في الأصل نوع من أنواع السحر الذي كان يستخدمه إنسان ذلك العصر للسيطرة على تلك الحيوانات و صيدها بطريقة سهلة ، و ذلك عن طريق رسمها على جدران الكهوف . و الرأي الثاني قال إن عملية رسم تلك الحيوانات ، ما هي إلا عبارة عن طقوس عبادة هذه الحيوانات ، أي أن الإنسان القديم كان يعبد تلك الحيوانات و كانت ديانته ، ديانة العصر الحجري الأول ، قائمة على هذا الأمر . و قد اشتد المؤيدون لهذه الفرضية كما ذكرنا ، على طريقة رسم هذه المشاهد و كيفية توضع مكانها . و الفرضية الثالثة ذهبت إلى أنه ليس هناك غاية من رسم هذه الصور و الحيوانات سوى موهبة الرسم ، أي أن الإنسان في ذلك العصر كانت لديه مهارات معينة و منها الرسم ، فعبر عنها بهذه الرسومات و بالتالي فإن هذه الرسومات ليس لها أية قيمة معنوية أو تفسيرية ، و هناك من جردها حتى من القيمة الجمالية و الفنية .

برأينا .. من المؤكد أنه كان يوجد لدى إنسان ذلك العصر ديانة . و من المرجح أن لهذه الصور و الرسومات ، علاقة بديانة ذلك الإنسان ، و لكن برأينا أنه من المستبعد أن هذا الإنسان كان يمارس عملية طقوس عبادة تلك الحيوانات . فمن خلال تاريخ هذا الإنسان منذ بداية العصر

---

[1] دين الإنسان ص١٥٠ .

البيالوتي و حتى مرحلة رسومات الكهف ، تطورت قدراته العقلية و الذهنية بشكل كبير ، رافقها تطور مماثل في قدراته على صنع الأدوات الحجرية و حتى المعدنية . و ترافق ذلك كله أيضاً ، مع تطور في علاقاته الاجتماعية و الإنسانية و العاطفية . أي بالنتيجة إن موضوع الحكمة لديه ، قد أخذ مجالاً لا بأس به ، و لهذا ، فمن الصعب أن نظن أن إنساناً مثل هذا و بعد أن وصل إلى هذه المرحلة من التطور ، كان من الغباء بحيث يعبد الحيوانات التي كان يصيدها و أن رسمه لها يعبر عن عبادته لها ، و بخاصة أن فترة رسومات الكهف قد أتت في مراحل لاحقة و متأخرة نسبياً من العصر البيالوتي . و قد سبقها مراحل عدة من تطور قدراته العقلية و الذهنية و الصناعية و الاجتماعية ، كانت كافية لجعله فوق مستوى عبادة الحيوانات . و إننا ننحو إلى البساطة عندما نقر بعبادة الإنسان القديم لهذه المخلوقات و نتغافل في الوقت عينه عن قدراته العقلية و مكنوناته العاطفية و الإنسانية و النفسية .

لقد حاولت مراراً أن أقنع نفسي بكون هذه الرسومات هي عبادة الإنسان لهذه الحيوانات . و حاولت إيجاد المبررات و الاستنتاجات لذلك ، فلم أفلح . و على العكس فقد تبادرت إلى ذهني أكثر من مقولة و أكثر من تصور لرسومات الكهوف تلك ، و كلها تنفي عبادة الإنسان لها . و وجدت أن عملية رسم الإنسان لتلك الوحوش البرية التي كان يصطادها ، لها أكثر من دلالة و معنى غير العبادة ، و هي تصورات لا ترتبط بعضها ببعض ، و تبقى في إطار التكهنات و هي على الشكل التالي :

١)- ربما [٢] تكون عملية رسم الإنسان للحيوانات ، هي تأكيد لنفسه بأنه أقدر من هذه الحيوانات و أقوى و أعقل ، و أنه يتميز عنها بأنه يرسمها ، خاصة و أن القواسم المشتركة بينه و بينها كانت متشابهة في مراحل معينة سواء من حيث السكن أم الملبس أم طريقة العيش أو الطعام ، و ربما اللغة (أي الأصوات ، قبل أن يكوّن لنفسه لغة خاصة به) فهو و نتيجة لإدراكه بتفوقه و تميزه عن تلك الحيوانات ، قام برسمها ليبرهن لنفسه أنه أقدر منها و أعلى مستوىً . و ربما يكون هذا الأمر الوحيد الذي ميز الإنسان فعلاً عن تلك الحيوانات ، في الوقت الذي لم تتكون لديه ميزة اللغة أو الكتابة أو اللباس التقليدي أو الأشياء التي تميزه بشكل خاص عن الحيوانات ، سوى هذه الميزة ، و بخاصة إذا عرفنا أن الحيوانات التي كان يرسمها ، كانت أو ستكون أليفة بالنسبة إليه و عاشت أو ستعيش معه في كهف أو مكان واحد .

---

[٢] نقول ربما ، لأن العملية برمتها حتى الآن غير واضحة المعالم و لم يبت بشأنها حتى اليوم ، نظراً لعدم وجود كتابة في ذلك العصر تعطي فكرة واضحة عن ذلك ، كما هي الحال في حضارات الشرق الدنى .

٢)- عملية رسم الإنسان لتلك الحيوانات هي لتأكيد سيطرته عليها و ليس لعبادتها ، و خاصة الحيوانات التي سخرها لخدمته أو التي كان لها فائدة بالنسبة إليه . و الملاحظ أنه غالباً لم يقم برسم الحيوانات التي لم يستطع تسخيرها ، و منها القردة التي كانت أقرب إليه من حيث المظهر و الذكاء و التصرفات ، من بقية الحيوانات .

٣)- عملية رسم تلك الحيوانات هي رسالة مخاطبة ، أو محاولة اتصال مع الآلهة أو القوى الخفية التي كان يعتقد بوجودها و يشعر بها ، التي هي حتماً غير الحيوانات بالنسبة له .

٤)- عملية رسم الحيوانات ، هي محاولة اختبار لنفسه ، هل هو إله ؟؟ هل هو الذي صنع هذه الحيوانات ؟؟ هل يمكن أن تتحول إلى حقيقة فيما إذا رسمها ؟؟ هي محاولة اختبار و معرفة موقعه و قدرته و سلطانه في هذه الحياة ، و محاولة سبر ذاتي و داخلي لكوامن و مكنونات نفسه .

٥)- عملية رسم الحيوانات من الممكن أن تكون نوعاً من القرابين أو الأضاحي الرمزية للآلهة .

٦)- هي عملية لا علاقة لها بالسحر و لا بالدين ، بل هي عملية اجتماعية و سياسية بحتة ، تخفي وراءها المظهر السياسي ، أي هي عملية لإثبات أحقية القيادة السياسية و الاجتماعية داخل المجموعة ، فمن الواضح أن دقة الرسومات و أشكالها التصويرية الرائعة ، هي موهبة لم تكن بمتناول كل أفراد الجماعة ، بل فئة قليلة ، و على الأرجح شخص واحد .

٧)- معظم الدراسات و الأبحاث ، وجدت أن راسم هذه الثيران و الخيول هو الذي كان يصيدها . و لكن لماذا لا يكون العكس هو الصحيح . أي أن راسم هذه الحيوانات هو الشخص الوحيد الذي لم يكن يصيدها . إن شخصاً يرسم بهذا الحس الفني الراقي و الرفيع ، هل من الممكن أن يكون صياداً متوحشاً ؟!! ربما هو شخص له تفكير مختلف عن بقية أفراد المجموعة ، و له موهبة متميزة في القدرة على الرسم و نظرة إنسانية متقدمة و رحيمة تجاه هذه الحيوانات ، فاستعاض عن صيدها برسمها .

٨)- إن الشخص الذي كان يرسم هذه الحيوانات ، هو شخص واحد على الأرجح ، و تحول مع مرور الوقت إلى الكاهن الذي يدير تلك المجموعة . و بعد وفاته تحول إلى إله لسلفه ، أي بمعنى أدق ، أن الآلهة التي كانت البشر الأسلاف ، هي الأشخاص الذين كانوا يرسمون على جدران الكهوف .

كل هذه الفرضيات السابقة و التكهنات ، من الممكن قبولها أو حدوثها ، ما عدا فرضية عبادة الحيوانات التي هي برأينا غير مقبولة منطقياً . و إذا ما أضفنا إليها مقولة الإنسان في بدايته كان يعبد الكواكب و العوامل الطبيعية التي كانت بالنسبة إليه أكثر غموضاً و رهبة من الحيوانات ، لانتفى أي منطق لعبادة الحيوانات . و إذا كانت العملية ليست عبادة للحيوانات ، فمما لا شك فيه و أدعى للقبول و الرجحان هو أنه لها علاقة ما بديانة ما . من الراجح أن الشخص الذي كان يرسم تلك الصور ، هو شخص متميز عن باقي أفراد الجماعة . " فرسم الصور يدل على سيطرة تامة على اليد و قوة الملاحظة و مقدرة على رسم الأشكال بحيث تكون أقرب ما تكون إلى الطبيعة و التوفيق في رسم خطوط تنبض بالحيوية و تعبر عن الحركة ، هذا فضلاً عما يقاسيه المصور من متاعب و مشاق في أثناء رسمها في سقف أعماق الكهوف المظلمة و جوانبها " [1] .

إن عملية الرسم هنا لم تكن عملية عبثية بلا هدف ، و لم يكن إنسان ذلك العصر ليتكبد مشاق الرسم لو لم تكن له غاية معينة أو فائدة مرجوة أو دافع روحي قدسي لذلك .

و الملاحظة الثانية في هذه الصور و التي تدعم وجود العامل الديني في الرسومات ، هو أنها كانت متشابهة في كل الكهوف التي اكتشفت فيها . و هذه الكهوف اكتشفت في مناطق نائية متباعدة بعضها عن بعض ، في أوروبا و آسيا و في الشرق الأدنى . و هذا ما يؤكد وجود رابطة معينة بين راسمي هذه الصور أو مذهب . و قد أورد الدكتور حسن الباشا ما مفاده " إن التطور العام في أساليب التصوير ، كان متشابهاً في جميع المناطق ، فلم تكن منطقة ما تنفرد عن غيرها بتطور خاص ، فمراحل التطور كانت تقريباً متشابهة في مناطق واسعة من القارات . و قد أدت هذه الملاحظة إلى الاعتقاد بأن الفنانين في المناطق المتباعدة ، كانوا على اتصال و على علم تام بما تحرزه مجموعة معينة في جهة ما . و ربما جاء ذلك من أن طبقة الفنانين الذين كانوا يؤدون مهمتهم على اعتبار أنها وسيلة سحرية لكسب الرزق ، كانت على الأرجح تكّون طائفة واحدة تجمعها وحدة روحية و ذات تقاليد فنية ثابتة و عادات محترمة . و ربما كان لأفرادها اجتماعات يتدارسون فيها شؤون فنهم السحري "[2] .

من الثابت هنا أن عملية رسم صور الحيوانات ، كانت في صلب تشكيل وحدة جماعية روحية معينة . و برأينا أن العملية لم تكن ذات طابع فني بقدر ما كانت ذات طابع روحي . و إن رسم الصور كان أيضاً نتيجة لتشكيل ديانة روحية للإنسان القديم لم يكشف النقاب عنها حتى الآن ، و

---

[1] تاريخ الفن في عصر الإنسان الأول ص ٢٠ .

[2] المصدر السابق ص ٢٨ .

ليس العكس ، أي لم تكن تلك الديانة من نتاج الصور ، بل الصور من نتاج الديانة . و عملية الرسم أو التصوير قد ألقت بظلالها على معتقدات الشعوب في العصور اللاحقة و لا تزال إلى الآن تأخذ حيزاً في تفكير و معتقد بعض الشعوب و القبائل . في الأسطورة البابلية ، نرى في أثناء صراع الآلهة بين " إله الخير أيا و إله الشر آبسو ، أن إله الخير استطاع أن يتغلب على إله الشر بأن صنع نموذجاً تلا عليه دعاء مقدساً و بعد ذلك أرسل عليه الذوم " [٣] . فليس من المستبعد أن يكون فن الرسم على جدران الكهوف قد وضع لغاية سحرية ، و هو و إن كان كذلك ، فإن الأمر برمته يكون نتاج معتقد ديني ، أي أن السحر قد يكون ناتجاً عن الدين و ليس العكس ، و بخاصة أنه قد عثر أيضاً إلى جانب الرسومات الحيوانية ، على رسومات تمثل بشراً يرتدون أقنعة حيوانية و منها صورة رجل مقنع في صورة فيل الماموث و يداه على شكل نابين [٤] . و قد فسر بعض العلماء بأن الإنسان القديم كان يعتقد أن ظهوره في شكل حيوان ما سوف يمكنه من أن يصيده و يتغلب عليه بسهولة ، و يؤيد هذا الرأي ، وجود بعض القبائل إلى الآن تمارس هذه العادة . و هناك من قال إن رسم الإنسان لصورته على شكل حيوان ، هو أنه كان مضطراً لذلك كي يحمي نفسه من برد الشتاء القارس " و ذلك بارتداء الفراء الطبيعي للحيوانات حيث لم يكن قد عرف بعد حياكة القماش و النسيج . و يؤيد هذا الرأي ، أن هذه الرسوم لم تظهر في الكهوف في المناطق الأكثر دفئاً " [٥] .

إن معظم الأديان عامة ، يأخذ فيها طابع و عملية التصوير أو الرسم أو وضع الأشكال ، بعداً معيناً ، سواء على مستوى الإله أم على مستوى الأنبياء و القديسين أو مستوى البشر العاديين . و قد كانت عملية الرسم و التصوير و النحت أو الشكل و الهيئة ، عبر التاريخ القديم و حتى الآن ، تعبر للإنسان باللاشعور و بشكل غير مباشر عن عملية الخلود و البقاء و الهوية و الخاصية المميزة . فصورة أي شيء أو مادة ، تعني على الفور تحديد هوية هذا الشيء أو شكله ، و ترمز بشكل آخر إلى المعنى الوجودي لهذا الشيء ، فمن المؤكد أن كل شيء نراه أمامنا هو حتماً موجود بشكل أو بآخر . لقد كانت الصورة أو الهيئة تعطي أيضاً بشكل عام ، استقلالية للشيء و خصائص تميزه عن غيره . و من جهة أخرى فإن تصوير أو نحت شيء ما ، يعطي هذا الشيء نوعاً من التكريم و التبجيل ، و هذا ما نراه دائماً في الديانات القديمة و المعاصرة . و في القرآن الكريم وردت الإشارة إلى عمليات التصوير أو النحت و الشكل ، في مواضع عدة و مناسبات مختلفة ، فعملية التصوير وردت في الآيات التالية (**هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا**

---

[٣] المصدر السابق ص ٥٠ .

[٤] المصدر السابق .

[٥] المصدر السابق .

إله إلا هو العزيز الحكيم) (آل عمران – ٦) (**و لقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين**) (الأعراف – ١١) (**الله الذي جعل لكم الأرض قراراً و السماء بناء و صوركم فأحسن صوركم و رزقكم من الطيبات ذلك الله ربكم فتبارك الله رب العالمين**) (غافر – ٦٤) (**هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم**) (الحشر – ٢٤) و غيرها من الآيات . و يلاحظ هنا أن عملية التصوير هي من اختصاص الله تعالى و أنها ارتبطت مع عملية الخلق و جاءت من بعدها (**خلقناكم ثم صورناكم**) (**هو الله الخالق البارئ المصور**) و هي عملية تكريم و نعمة من الله عز و جل (**صوركم فأحسن صوركم**) و هي عملية مرتبطة بكيان الإنسان و شكله ، و تمثل المرحلة النهائية من خلق الإنسان ، أي إعطاءه صورة و شكلاً يتحدد بهما كيانه و يتميز به عن الحيوانات (**فأحسن صوركم**) . كما وردت في القرآن الكريم لفظة مشابهة أو مشتقة من التصوير و هي (الهيئة) ، في الآيات التالية (**.... و أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ....**) (آل عمران - ٤٩) (**.... و إذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ....**) (المائدة – ١١٠) و هي الآيات التي تتحدث عن السيد المسيح (ع) و عن منحه امتيازاً أو معجزة الخلق من الله عز و جل لإثبات نبوته و رسالته . و يلاحظ أن موضوع الخلق كان هيئة الطير و ليس الطير نفسه . كما وردت في القرآن الكريم عبارة تتعلق بمعنى و مفهوم التصوير أو الرسم ، و هي الشكل ، في آيات منها (**قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً**) (الإسراء – ٨٤) (**و آخر من شكله أزواج**) (ص – ٥٨) . و وردت أيضاً كلمة النحت و هي أيضاً من مشتقات الرسم و التصوير من حيث المعنى و المفهوم ، في الآيات (**و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً و تنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله و لا تعثوا في الأرض مفسدين**) (الأعراف – ٧٤) . (**و كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين**) (الحجر – ٨٢) . (**و تنحتون من الجبال بيوتاً فارهين**) (الشعراء – ١٤٩) . (**قال أتعبدون ما تنحتون**) (الصافات – ٩٥) . أما كلمة الرسم و لواحقها ، فلم ترد في القرآن الكريم مطلقاً .

مما تقدم نستطيع القول إن الفترة التي بدأت فيها رسومات الإنسان القديم على جدران الكهوف قبل حوالي /٣٥٠٠٠/ سنة ، كانت فترة المخاض لبداية تشكيل الكيان السياسي و الديني للإنسان . و في هذه الفترة بدات البذور الأولى للمفاهيم السياسية و الدينية و فيها تجمعت الظروف و تراكمت الأحداث . و محصلة التطور العقلي و الذهني للإنسان لإنتاج هذه المفاهيم . و من الصعب و العسير أن نتحدث بثقة و تأكيد عن تلك الفترة و أن نسهب في الاستنتاج و إيراد الحقائق و

الثوابت العلمية و التاريخية لبداية و كيفية تشكيل هذين الحدثين ، لعدم وجود الدليل (على الأقل حتى الآن) العلمي و الأثري و اللغوي و الكتابي حول ذلك و الذي نستند إليه باطمئنان . إن الصور و الرسومات و المنحوتات الأثرية المكتشفة ، كانت دليلاً على وجود هذه المفاهيم ، يضاف إليها المدافن و الآثار التي تركها هذا الإنسان . و لكنها لم تكن هذ المفاهيم ذاتها ، أي أن هذه الصور مثلاً دلت على وجود ديانة ، و لكنها برأينا لم تكن هي الديانة ذاتها . و هي (الصور) دلت على وجود نظام جماعة متطور نوعاً ما ، و لكنها لم تكن هي التعبير الوحيد عن هذا النظام أو الأساس و القانون الذي قام عليه هذا النظام .

لقد أدرك الإنسان القديم و عرف مفهوم الجماعة و نظامها و كذلك الأسرة ، و سار عليه ، و أدرك و عرف على الأرجح أن لهذا الكون إلهاً أو خالقاً منظماً أو مدبراً ، فتلقى أو أوجد طقوساً دينية لذلك . و على الأرجح ليست هي الرسومات التي رسمها على الكهوف ، و لكن يوجد علاقة ما بينهما . لقد أدرك هذه الإنسان النظام الإلهي للكون و توصل إليه بفعل حكمة ما ، حكمة معينة أرشدته و دلته إليه ، حكمة منطقية بالغة . من أين جاءت هذه الحكمة ؟؟ هل أتت منه هو ، من عقله ؟؟ و بشكل خالص مجرد عن الظروف و المبررات و المسببات ؟؟ أم أتت من نتاج تجاربه الحياتية اليومية ، و من تطور قدراته العقلية و الذهنية بحكم الطبيعة و الظروف ؟؟ هل عبّر الله بطريقة ما عن نفسه لهذا الإنسان و بما يتناسب مع قدراته العقلية و نمو تفكيره ؟؟ أم أرسل رسولاً ما ؟؟ أم عن طريق كبار السن الذين اعتنى بهم الإنسان القديم و بجلهم ؟؟ يبقى الأمر داخل نطاق التكهن و التخمين . و نظراً لعدم وجود تاريخ مكتوب ، يبقى المصدر الوحيد المدون في هذا الأمر هو الكتب الدينية عامة و السماوية خاصة .

لقد تحدثت هذه الكتب المقدسة عن الإنسان منذ بدء الخليقة ، فبدأت بآدم و هو أول البشر ، ثم قابيل و هابيل مروراً بنوح (أصحاب الأعمار الطويلة) و إذا اسقطنا هذه المقولة و انطلقنا منها بالاستناد إلى الفرضيات و الآراء السابقة ، فسيبدو لنا أن كبار السن أصحاب الحكمة ، كانوا هم الأداة الرئيسة في ذلك . و بالتوافق و التزامن مع مفهوم الدين ، أدرك الإنسان أيضاً مفهوم الجماعة و أدرك و عرف أنه لا بد من وجود الجماعة ، و قادته إلى ذلك حكمة معينة . و هنا نطرح الأسئلة السابقة نفسها ... من أين جاءت هذه الحكمة ؟؟ هل منه هو ، من عقله ، و بشكل خالص مجرد عن الظروف و المبررات و المسببات و بفعل عامل المصادفة البحتة ؟؟ أم أنها أتت من نتاج تجاربه الحياتية اليومية و من تطور قدراته العقلية و الذهنية بحكم الطبيعة و الظروف ؟؟ هل تبدى مفهوم الجماعة للإنسان القديم كمفهوم حتمي و بديهي بشكل يتناسب مع

قدراته و تفكيره ؟؟ أم كان ذلك بفعل تدخل كبار السن الذين توصل كل منهم بعد خبرته الطويلة المتراكمة و عراكه مع الحياة ، إنه لا بد من وجود نظام للجماعة و لو كان صغير العدد ؟؟

من الراجح و ليس الثابت أن أول تشكيل لنظام الجماعة المنظم كان نتاج حكمة بصيرة ولدتها تراكم الظروف و التجربة و خبرات الحياة اليومية ، و هي نفسها الحكمة التي توصلت إلى فكرة وجود إله خالق أو منظم و مدبر لهذا الكون . و نلاحظ من الكتب السماوية أن الأنبياء و الرسل الأوائل ، كانوا أرباب أسر و جماعات . و هذه الفترة كانت فترة المشاعية و العفوية الجماعية ، و تميزت بتوافق الحكمتين الإلهية الروحية و الاجتماعية التدبيرية (التي ستتحول فيما بعد إلى الحكمة السلطانية) و على الأرجح كان هذا الأمر ، من قبل شخص واحد ، كان هو الموجه المعنوي للجماعة و المدبر لشؤونها في حلها و ترحالها ، و هو صاحب الاقتراح السديد و الرأي الراجح حول المشاكل و الشؤون الحياتية اليومية ، من صيد و زراعة و حراسة و دفاع .. الخ .

لقد اقتضت ظروف الحياة المشاعية العفوية البسيطة و الخالية من أي عقد [1] فكرية و تنظيمية أو تعقيدات اجتماعية و روحية ، اقتضت بعفويتها و بساطتها ، أن تكون الحكمة الاجتماعية (السلطانية فيما بعد) تابعة للحكمة الإلهية و متوافقة معها ، و لكن بشكل غير مباشر . فالحكمة الاجتماعية الإنسانية البشرية كانت باحثة عن جوهر هذا الكون و عن سره . كانت باحثة عن الطبيعة الميتافيزيقية أو الروحية أو اللا مادية التي لم تكن في متناولها ، في الوقت نفسه الذي كانت فيه باحثة عن الطبيعة الحسية المادية الموجودة أمامها و المتفاعلة معها و التي كانت في متناولها مادياً و حسياً . و من المؤكد أن استكشاف الطبيعة المادية من قبل الإنسان في ذلك الوقت ، كان عن طريق الممارسة اليومية و بواسطة الحواس الطبيعية من بصر و سمع و لمس .. الخ بالإضافة إلى المحاكاة العقلية التي كانت تتجلى في الحكمة الإنسانية التي تميز و تفاضل بين الأشياء و الموضوعات .

إذن فاستكشاف الطبيعة المادية بالنسبة لإنسان ذلك العصر ، كان يتجلى من خلال أمرين اثنين : التفاعل مع الطبيعة كأساس للتلقي ، و استخدام الحكمة كأساس للقرار .أما استكشاف الطبيعة الميتافيزيقية و الروحانية ، فإنه لم يكن واضح المعالم بالضبط . و لكن على الأرجح منطقياً ، كان بفعل عاملين اثنين ، أحدهما أو كلاهما ... عامل التفكير و التأمل المرتبط بالحكمة الإنسانية و عامل التلقي المباشر أو الوحي . بالنسبة للعامل الأول و هو عامل التفكير ، فمن المؤكد أنه كان موجوداً لأنه من المؤكد و الثابت أن الإنسان في تلك الفترة ، كان يعمل تفكيره في الكون المحيط به من سماء و كواكب و نجوم و عوامل طبيعية (أمطار – رعد – برق – عواصف – فيضانات

[1] العقد هنا بمعنى الصعوبة و التشعب و التطور .

... الخ) و يحاول إيجاد التفسيرات و المبررات لهذه الأشياء و الحوادث . و ربما اعتقد أنه كما تعامل مع الطبيعة المادية و مع مشاكلها اليومية و أوجد الحلول و التفسيرات لها بالاعتماد على حكمته الإنسانية ، فإنه يستطيع أيضاً التعامل مع الطبيعة الميتافيزيقية و الروحانية بالطريقة نفسها إيجاد التفسيرات و المبررات لظواهرها و معضلاتها و إشكالاتها بالاعتماد على حكمته الإنسانية التي أوجدت الحلول لمسائل الطبيعة المادية ، و لكنه على ما يبدو اصطدم بواقع أو حقيقة انه لا يستطيع إيجاد الحلول للظواهر الماورائية و لا تستطيع حكمته الإحاطة بأسبابها و عللها . أما العامل الثاني فقد اقتصر وجوده على ما أوردته الكتب السماوية من أن الإنسان كان متلقياً لأسباب و عوامل الأمور الدينية و تفسير المظاهر و المسائل الماورائية و أن الأمر لم يكن نابعاً منه هو ، بل بمبادرة من الله **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** (البقرة – ٣٧) . **و إنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** (النمل – ٦) و لقد تكررت كلمة الوحي و الإيحاء في / ٣٣ / موضعاً من القرآن الكريم . **أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس و بشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لسحر مبين** (يونس – ٢) . **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبيين من بعده و أوحينا إلى إبراهيم و اسماعيل و إسحق و يعقوب و الأسباط و عيسى و أيوب و يونس و هارون و سليمان و آتينا داود زبوراً** (النساء – ١٦٣) **ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة و لا تجعل مع الله إله آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً** (الإسراء – ٣٩) **و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتب لا الإيمان و لكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم** (الشورى – ٥٢) . كما وردت كلمة التعليم في /٢٥/ موضعاً من القرآن الكريم منها **و علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ! قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** (البقرة – ٣١ / ٣٢) . و قد ورد مصطلح الفهم في القرآن الكريم مرة واحدة **.... ففهمناها سليمان و كلاً آتينا حكماً و علماً ...** (الأنبياء – ٧٩) .

و في العهد القديم وردت أيضاً آيات عدة تحدثت عن الوحي و التعليم من قبل الرب للإنسان منها **[قل لهم هكذا قال السيد الرب هذا الوحي هو الرئيس في أورشليم و كل بيت إسرائيل و الذين هم في وسطهم]** (سفر حزقيال ١٢ : ١٠) . **[و علمهم الفرائض و الشرائع و عرفهم الطريق الذي يسلكونه و العمل الذي يعملونه]** (سفر الخروج ١٨ : ٢٠) . **[الرب صالح و مستقيم لذلك يعلم الخطاة الطريق]** (المزامير ٢ : ٨) . **[لمن يعلم معرفة و لمن يفهم تعليماً أللمفطومين عن اللبن ؟؟ أللمفصولين عن الثدي ؟؟]** (سفر إشعيا ٢٨ : ٩) .

و كذلك في العهد الجديد وردت عبارات الوحي و التعليم في مواضع عدة منها **[و كان قد أوحى إليه بالروح القدس إنه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب]** (إنجيل لوقا ٢ : ٢٦) . **[لأن الروح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه]** (إنجيل لوقا ١٢ : ١٢) . و معظم الآيات في العهد الجديد التي تتحدث عن موضوع التعليم ، تعطي تلك الصفة للسيد المسيح (ع) و تصفه بالمعلم أو معلم من عند الله **[هذا جاء إلى يسوع ليلاً و قال له يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً لأن ليس أحد يقدر أ ن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه]** (يوحنا ٣ : ٢) .

إن منطقية عامل الوحي و التلقي و صدقه، استندت بالدرجة الأولى إلى عامل عجز الإنسان عن تفسير الظواهر الماورائية و الروحية . و العجر هنا برأينا كان مختصاً بالإنسان الحكيم المفكر و قائد الجماعة . فكما اقتضى نظام الجماعة في العصر القديم تحميل رئيس الجماعة أو قائدها (الرمزي أو الفعلي) شؤون التفكير و التخطيط الحياتية ، فإنه برأينا و بطريقة عفوية اقتضى أيضاً تحميله العجز عن التوصل إلى حل للأمور و الظواهر الكونية و الغيبية ، أي بمعنى أن كل شخص سلم عجزه عن التوصل إلى تفسير أو إجابة حول الظواهر السلبية إلى هذا الشخص و ترك له في الوقت نفسه عملية التفكير بهذه الأمور . هذه القضية تقودنا إلى نتيجة اخرى و هي أن عجز الشخص رب الجماعة أو الأسرة أو العشيرة أو ... أو ... المتحصل لديه في النهاية ، انقسم هو الاخر بدوره إلى قسمين .. عجزه أمام أفراد الجماعة و عجزه أمام نفسه [1] فهو نفسه و بالرغم من كونه حكيم الجماعة و مدبر شؤونها العامة و موجهها و موجد الحلول العامة للمشاكل ، فإنه أيضاً كان عاجزاً أمام هذه الجماعة حتى عن إيجاد التفسير المناسب .و لا نعرف إذا كان قد صرح لهذه الجماعة بهذا العجز ، أم أبقى الأمر محصوراً بينه و بين نفسه . الأمر الثاني أنه هو نفسه كان يتساءل لنفسه و عن نفسه كشخص مجرد ، و يحاول إيجاد التفسيرات و الحلول المقنعة لنفسه أولاً قبل غيره . و لا نعرف أيضاً إذا كان هذا الشخص قد فكر وحده أو أشرك غيره معه في عملية التفكير . و عملية التفكير و التساؤل تمحورت بدورها حول أمرين اثنين ، التساؤل حول الظواهر الطبيعية كالشمس و الكواكب و غيرها . و التساؤل حول منشأ و خلق الكون و كيف أتى هو إلى الأرض . بعد ذلك جاءت مرحلة إيجاد الحلول و التفسيرات و التي تمثلت بالوحي و الإلهام و التلقي الإلهي . و برأينا أن هذه العملية لم تأت رداً على التساؤل الأول أي التساؤل الذي يختص بالظواهر التي كان يراها أمامه و لا يجد لها تفسيراً كالكواكب و النجوم ،

[1] مرحلة ما قبل إيجاد الحلول و ظهور الدين .

بل نتيجة لعملية التساؤل الثانية أي التساؤل عن خلق هذا الكون ، من خلقه ؟ و كيف خلقه ؟ و لماذا خلقه ؟ و عن خلقه هو (الإنسان) من خلقه ؟ و لماذا ؟ و كيف ؟

فالأمور الميتافيزيقية و الروحية العصية على التفسير بالنسبة لذلك الإنسان ، انقسمت إلى قسمين ، الأول خارجي مرئي (الكواكب و غيرها) و الثاني داخلي لا مرئي . الأول فرض نفسه على الإنسان من خلال تحسسه له باستخدام حواسه الطبيعية ، و الثاني فرض نفسه عليه من خلال عقله و توصله إليه من خلال الحكمة البشرية الموجودة فيه . و لهذا اقتضت الحكمة الإلهية أن تظهر نفسها أو أن تعبر عن نفسها لهذه الحكمة البشرية . هذه القضية تقودنا إلى مناقشة التساؤلين التاليين .. هل الحكمة البشرية هي التي أوجدت مفهوم الوحي و التلقين الإلهي كحل مقبول و منطقي و إجابة معقولة للتساؤلات و العجز الذي انتاب هذا الإنسان ؟؟ أو أن الحكمة الإلهية رأت أن الإنسان قد وصل إلى مرحلة يجب .. أو من الممكن الإباحة له فيها عن شيء من مكنونات هذا الكون ، يكون بمستوى تفكيره و عقله أولاً ، و بمستوى حكمته ثانياً ؟؟ .

إن كون الحكمة البشرية هي التي أوجدت مفهوم الوحي و التلقين الإلهي كحل مقبول ، فإن ذلك يعني أن الغاية الوحيدة من هذا الأمر هي تدعيم و توطيد أركان مفهوم القيادة و السيطرة على الجماعة و تهييئها و التمهيد لها لتتحول فيما بعد إلى سلطة سياسية متطورة تؤسس لنشوء المدن و من ثم الممالك و الدول . فهذه الحكمة البشرية رأت أن هذا الأمر يؤدي غرضين في الوقت نفسه ، الأول تقديم التفسيرات و الإجابات عن كل التساؤلات الإنسانية بخصوص هذه الظواهر . و ثانياً إيجاد وسيلة لضبط و تنظيم الجماعة . و لعل الإنسان القديم توصل إلى ذلك من خلال ملاحظته لنظام الكواكب و النجوم و الليل و النهار المنظمين بدقة شديدة ، و قارنه مع الفوضى الشاملة أو النسبية التي لاحظها في الجماعة البشرية آنذاك ، فأدرك افتقاره لنوع من التنظيم الأكثر دقة و شمولاً . و لكن مع ذلك تبقى هذه المقولة مفتقرة إلى الدعم بالأدلة لأسباب عدة أهمها :

أولاً : وجود حلول بديلة كثيرة غير الحل أو الطريقة الإلهية ، بإمكانها تقديم النتيجة و الفائدة نفسها من حيث الأجوبة المقنعة و من حيث تنظيم أمور الجماعة ، لا بل إنها كانت عملياً و نظرياً و فكرياً ، أقرب إلى مفهوم و تفكير الإنسان في ذلك العصر ، و منها مثلاً ، أنه لا يوجد إله للكون و أن الكون يسير نفسه بنفسه و المصادفة هي التي تحكمه . أو إن أرواح الأسلاف و الأجداد هي التي تتحكم بعمليات الطبيعة و ظواهرها أو السحر .. الخ . و هي فرضيات و نظريات وجدت لها موطئ قدم في الحضارات اللاحقة ، كبلاد الرافدين و مصر القديمة و حتى في اليونان (كالفلسفة السفسطائية أو الرواقية و إلى حد ما الإبيقورية) و ركزت بالدرجة الأولى على العقل الإنساني و

ألغت مفهوم الإله و نفت وجود الآلهة . و الذي كان منها متساهلاً في هذا الموضوع ، كالأبيقورية التي لم تنف وجود الآلهة في الكون ، عدت أنه لا يوجد تأثير لها في نظام الكون و أنها لا تتدخل في عمل الإنسان . و حتى الآن في العصر الراهن ، توجد نظريات عدة تنفي وجود الآلهة أو العامل الديني أو الماورائي ، كالماركسية مثلاً .

إذن كان من الممكن في العصر القديم قبول أي حل آخر . و قد يقال إن الإنسان البدائي القديم أو إنسان ما قبل الحضارات الأولى و ما قبل الكتابة ، كان مهيئاً لقبول فكرة الآلهة المسيرة المنظمة للكون ، نظراً لتناسب هذا الأمر مع تفكيره البدائي البسيط و تـ وافقه مع مرحلة المشاعة الأولى التي كان يمر بها . و لكن مع ذلك ، فإن الأمر برأينا هو على النقيض من هذا تماماً ، ففكرة الآلهة و مفهومها تتوافق مع المراحل و العصور كلها ، ما عدا فترة المشاعة الأولى و بالذات فترة العصر الحجري اللاحق (ما قبل الحضارات الأولى) . و برأينا أيضاً أن فكرة الآلهة و مفهومها ، و فكرة الإله الواحد ، هي ليست بهذه البساطة و العفوية كما يقال ، بل هي مفهوم معقد يحتاج إلى قدرات عقلية و ذهنية متطورة لكي تتقبله و تستوعبه ، و هذه القدرات العقلية و الذهنية هي نظرياً متوافقة مع مراحل لاحقة لمرحلة الإنسان القديم ، لا بل حتى لمراحل الحضارات الأولى في الشرق الأدنى . و بالرغم من ذلك ، ظهر هذا المفهوم لدى هذه الجماعات البدائية و في مراحل المشاعة الأولى ، و هذا ما يستدعي منا التحول إلى المنطق الاخر ، منطق الوحي و التجلي الإلهي ، و هو المنطق أو المقولة التي تؤكدها معظم الأديان العالمية تقريباً و منها الأديات السماوية . و هي تذهب في ذلك إلى أن أول عملية للوحي و التلقي الإلهي ، كانت لأول إنسان على وجه الأرض و هو آدم . و الحكمة الإلهية هنا كانت معلمة و ملقنة و مدربة . ففي القرآن الكريم نلاحظ الآية **و علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ...** (البقرة – ٣١) . **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ....** (البقرة – ٣٧) و عملية الوحي و التلقي هنا ، حدثت قبل نزول آدم على الأرض . و نلاحظ أيضاً الآية التالية **أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس و بشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** (يونس – ٢) هذه الآية تتحدث بشكل واضح و مباشر عن إشكالية موضوع الوحي . و يلاحظ من سياقها أن عملية الوحي كانت في مرحلة معينة ، مثار جدل و نقاش عند بعضهم من حيث إمكانية حدوثها و معقوليتها ، و مثار تعجب و استنكار ، فجاءت هذه الآية لتتعجب بدورها من تعجب هؤلاء الناس و تنكر عليهم استنكارهم لعملية الوحي و هي تدلل هنا بأن هذا الأمر (الوحي) هو أمر طبيعي و منطقي و معقول ، و تتساءل في الشق الأول منها بما معناه : ما هو المانع العملي و العقلي الذي يمنع مثل حدوث هذه العملية . و الشق الأخير منها

يتحدث عن التفسير الجاهز و البديل لدى الناس لهذا الموضوع و هو السحر و وصف الذين يفكرون بهذه الطريقة بالكافرين . و يتضح من سياق هذه الآية أن عملية الوحي الإلهي و التلقي البشري و مفهومهما ، هي فعلاً عملية معقدة و تحتاج إلى قدرات عقلية و ذهنية متطورة بدليل أن الناس استغربوا و استهجنوا عملية حدوثها **(أكان للناس عجباً)** و عدوها ضرباً من السحر . إن الآية تعبر عن حقيقة تاريخية و علمية منطقية و هي أن عقلية و ذهنية الناس في هذه المراحل تتقبل مفهوم السحر أكثر من تقبلها لمفهوم الوحي الذي استعصى على فهم هؤلاء . و من هنا نستنتج أن فكرة الوحي الإلهي و مفهومه ، كانت بمبادرة من الله تعالى . و إذا كان إنسان الشعوب القديمة قد استعصى عليه مثل هذا الفهم ، فما بالنا بإنسان العصر الحجري . هذه القضية تقودنا إلى الاستنتاج بأن موضوع الوحي و فكرته ليست من صناعة الحكمة البشرية حتماً و ليست من بنات أفكار الإنسان ، لأن الحكمة البشرية تقتضي مخاطبة أفراد الجماعة أو المجتمع المعاصر لها بشيء يفهمونه و يتقبلونه و لا يستنكرونه و يستهجنونه و بالتالي يرفضونه . و هذا ما نلاحظه في الأديان السماوية و منها الإسلام . و الفكرة التي سنطرحها الآن (و لو أنها خارج سياق الفصل) تعبر عن ذلك . فالدين الإسلامي الذي تمثل بالقرآن الكريم الذي جاء عن طريق الوحي إلى الرسول محمد (ص) قد جاء بشرائع إلهية مخالفة لكثير من عادات المجتمع في الجاهلية ، بل حتى في المجتمعات البشرية عامة . و جاء معدلاً أو ناسخاً لمفاهيم معينة كانت موجودة في الأديان السابقة . و هي عادات كانت نظرياً متأصلة حتى الجذور في الناس عامة و من الصعب بل من المستحيل إلغاؤها أو استئصالها ، فإلى جانب الركن الأساس في الإسلام و هو عبادة الله الواحد رب السماوات و الأرض ، نزل مثلاً أمر آخر و هو تحريم الخمر و إلغاء تعدد الزوجات فوق الأربع و تحريم أكل غير ما حدده القرآن من بعض الحيوانات كلحم الخنزير و غير ذلك . و هذه المحرمات كلها جاءت عن طريق الوحي الإلهي تماماً كما جاءت فكرة الوحدانية أو الإله الواحد . هذه المحرمات هي من الناحية النظرية و التقنية البحتة ، لا علاقة لها بفكرة الإله الواحد . بمعنى أنه كان من الممكن للرسول (ص) أن يدعو إلى عبادة الله الواحد و يغض الطرف عن الخمر و تعدد النساء و الزواج من الأقارب و نساء الأب و أخت الزوجة و غيرها ، و بدلاً من مقولة بعض المستشرقين أن الرسول (ص) هو رجل عبقري و عظيم جاء بالدين الإسلامي من عنده و ألف القرآن ، لماذا لم يتساءل هؤلاءعن مصلحة الرسول (ص) في إلغاء الخمر و غيره من العادات المتأصلة عند الناس كلهم و أصبحت بحكم الأعراف لديهم و التي لا يستطيعون منها فكاكاً و التي لا علاقة لها عامة بالدين أو الأخلاق و لا بالتوحيد خاصة ، لا من الناحية النظرية و لا الفكرية ، لا بل أن بعض الأديان السابقة و منها السماوية لم تحرم بعضاً منها كالخمر مثلاً . و هي من الناحية الأخلاقية ، ليس لها هذه الحساسية الأخلاقية مثل السرقة و القتل و الزنا و الكذب

و غيرها . إن رجلاً عبقرياً و حكيماً ، لا بد له من أن يأخذ هذه الأمور بعين الاعتبار ، و من المستحيل أن يتجاهلها ، لأنها تتنافى مع الحكمة البشرية و لا يبقى هنالك إلا الحكمة الإلهية وحدها كتفسير منطقي و مقبول . و إننا لنستطيع ملاحظة ذلك بكل سهولة حتى في الأديان السماوية السابقة ، فموسى (ع) جاء بشريعة حرمت الكثير من عادات المجتمع ، و كذلك السيد المسيح (ع) . و هنا يبرز السؤال : ما هي غاية الحكمة الإلهية من هذا الأمر[1] ؟ أي تكليف البشر بأمور لم يعتادوا عليها و مخالفة لإرادتهم و تركيبهم ، ويسبب لها هذا الأثر الضار في المجتمع و لم يكن لها من قبل كالخمرة مثلاً ؟؟ !! الجواب هو في علم الغيب و هو مختص بالحكمة الإلهية وحدها . و لكن برأينا و من باب الاستنتاج و التخمين القابل للإصابة و الخطأ ، و مع إغفال الجانب الأخلاقي العام ، أن الأمر ذو دلالة معنوية الغاية منها هو ترويض الإنسان أو ترويض الحكمة البشرية أو لإثبات أن هذا القرآن ليس من صنع البشر ، لأنه من المستحيل أن يكون من صنع البشر و تنزل آية تحريم الخمر مثلاً أو تحريم لحم الخنزير ، فهناك الكثير من الأطعمة و المأكولات و النباتات السامة بل و حتى الحيوانات . هل هو امتحان و تجربة لأمور لم تشأ الحكمة الإلهية الإفصاح عنها و من الأمثلة على ذلك ، الآيتان الواردتان في القرآن الكريم **(و قلنا يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة و كلا منها رغداً حيث شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)** (البقرة – ٣٥) . **(و يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة فكلا من حيث شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)** (الأعراف – ١٩) [1] . يلاحظ من سياق الآيتين السابقتين ، أن الله تعالى قد أباح لآدم و زوجه الجنة ليأكلا من كل ما يريدانه ، ما عدا شجرة واحدة حظر عليهما الآكل أو الاقتراب منها . و لم يذكر عز و جل نوع هذه الشجرة أو ماهيتها لهما و لا لنا نحن كقارئين للقرآن و لا السبب في عملية المنع و التحريم (مع تعدد تفاسير بني البشر بهذا الشأن) .

إن خلاصة ما سبق تبين لنا أنه و منذ العصر الحجري و في فترة ما منه ، تطورت الحكمة البشرية إلى حد معين و التقت فيه مع الحكمة الإلهية عن طريق الوحي الإلهي ، و نتج عن ذلك ظهور مفهوم الدين لدى الإنسان القديم . و الإنسان القديم و بعد مخاض فكري و ذهني عسير و مرير ، تقبل هذا المفهوم كحل منطقي وحيد ، و تبناه و درج عليه بقية حياته . و هذا المفهوم (أي الدين) قد ظهر في الفترات و الحضارت اللاحقة بأشكال و نماذج عدة ، و ارتبط فيها بالأمر أو المظهر السياسي و بالأحداث و الوقائع السياسية و الاجتماعية . و نظراً لبساطة الحياة و

---

[1] تحريم الأشياء التي لا تدخل في نطاق الأخلاق و الآداب العامة بشكل مباشر كالقتل و الزنا و غيرها .

[1] بالرغم من كون القرآن الكريم قد تنزل في مرحلة لاحقة لفترة ذلك الفصل من الكتاب ، فإن الآيتين تتحدثان عن تلك الفترة و ما قبلها .

المفاهيم و التصورات في العصر القديم أو عصر المشاعة القديم ، فإن العلاقة بين الحكمة الإلهية و الحكمة الإنسانية البشرية ، كانت بسيطة أيضاً و متوافقة ، نظراً لخلوها من التعقيدات و المؤثرات الظرفية الخارجية و الداخلية . كما اتسمت أيضاً بعدم تشعبها و تفرعها ، بل بقيت في إطار فكري و تنظيمي معين خال من الشوائب و لم تتعقد هذه العلاقة و تتشعب إلا مع التطور الزمني اللاحق ، حيث ترافق و تزامن معها تطور مفهوم الحكمتين الإلهية و البشرية (بالنسبة إلى الإنسان طبعاً) و تبلورهما . و هذا الأمر ما كان من الممكن حدوثه لولا ظهور التعقيدات الاجتماعية و الثقافية و السياسية . فالحكمة عامة مرتبطة بالأمر المعقد ، فهي دالة عليه و هو دال عليها ، و كلما تعقد أمر ما و ازداد تشعباً و تفرعت منه أمور أخرى ، كانت الحكمة المتعلقة به أكثر تطوراً و نضجاً و حجماً و اتساعاً . و العكس هو الصحيح ، و هذا ما سوف نعرفه في الحضارات اللاحقة و التي تلت فترة العصر الحجري الأخير و تمثلت بظهور الكتابة . و هي حضارات الشرق الأدنى .. بلاد ما بين النهرين و الساحل السوري و مصر القديمة .

الشرق الأدنى القديم

منطقة الشرق الأدنى القديم هي المنطقة التي ظهرت فيها أولى الحضارات البشرية المعروفة ، و أولى المجتمعات البشرية المنظمة . و لم يكتشف حتى الآن في جميع أنحاء العالم ، مجتمع حضاري سبق المجتمعات الحضارية التي نشأت في هذه المنطقة ، إلا أنه لم يجر اتفاق بين المؤرخين حول أي من أجزاء هذه المنطقة ، كان الأسبق في التشكل الحضاري [1] ، فهناك من يعد أن بلاد ما بين النهرين كانت هي السباقة في المضمار الحضاري ، و بعضهم الآخر يميل إلى أن منطقة وادي النيل أو مصر القديمة ، كانت هي الأسبق . و بغض النظر عن هاتين المقولتين ، فإنه مما لا شك فيه أن منطقة الشرق الأدنى قدمت أولى الحضارات و المنجزات البشرية و التي كان لها الفضل اللاحق على كل الحضارات البشرية التي تلتها . و فضلاً عن ذلك ، فإن منطقة الشرق الأدنى القديم قدمت أيضاً أولى الأفكار السياسية و الإدارية التي تمثلت بالدول و الممالك و الامبرطوريات و ما نتج عنها من قوانين اجتماعية و سياسية و إدارية (قانون حمورابي) عدت من أرقى أنواع التنظيم السياسي و الاجتماعي ، و في الوقت نفسه قدمت هذه المناطق أولى الأديان الرسمية و الأفكار الدينية . و نقول أولى الديانات لأنها أول ديانات مكتوبة ، و أما ما سبقها ، فهو فترة مجهولة عملياً و تبقى مثار التكهنات و التخمينات و الاستنتاجات بالاعتماد على قرائن و دلالات بسيطة . و لعل أفضل ما قدمته هذه الحضارات للبشرية ، هو اختراع الكتابة المسمارية في بلاد ما بين النهرين و التي انتقلت منها فيما بعد إلى بلاد اليونان و من ثم إلى كل أنحاء العالم . و الحقيقة الساطعة التي أكدتها هذه الحضارات هي أنها أثبتت للعالم بأن الحضارة اليونانية ليست الحضارة الأولى في تاريخ البشرية ، و ليست نقطة و انطلاقة الحضارات كما ادعى بعض المؤرخين و زعمت بعض النظريات ، حيث أتى علم الآثار و الأنتروبولوجيا ليثبتا

---

[1] الفكر السياسي و أساطير الشرق الأدنى القديم ص ٩٨ .

عدم دقة هذا الكلام و صوابيته و باعتراف مؤرخين عدة بهذا الشأن و منهم (جورج سارتون) حيث يقول " فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق ، فإن المعجزة اليونانية سبقتها آلالاف الجهود العلمية في مصر و بلاد ما بين النهرين و غيرها من الأقاليم . و العلم اليوناني كان إحياء أكثر منه اختراعاً " [٢] . و يقول (أرنولد توينبي) أيضاً في هذا الصدد " و في القرنين الثامن و السابع قبل الميلاد ، جاء المدينة الهيللينية الوحي من التقدم الحضاري الذي كانت المدينة السورية قد أخذت تحققه منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد و هو الزمن الذي كانت كل المظاهر تدل على أن العالم الإغريقي كان لا يزال يغط في سباته " [١] .

لقد تميزت حضارات الشرق الأدنى القديم بأنها قدمت الحلول الوصفية النظرية لمعظم إشكالات التفكير الإنساني القديم حول الدين و المجتمع بشكل عام . و هذه الحلول النظرية كانت توضع موضع التنفيذ حسب الأوضاع و الأحداث السائدة و التي كانت تخضع للتقلبات السياسية و تبدلات السلطة و الدول و الممالك و أيضاً الهجرات التي كانت سمة من سمات بلاد الرافدين . و نلاحظ ذلك من خلال الكتابات المكتشفة و التي أعطت فكرة واضحة عن حضارات الشرق الأدنى و شرحت بكثير من الدقة عن كيفية الحياة الاجتماعية و السياسية و الدينية السائدة .

إن التحدث عن حضارة ما ، ليس بهذه السهولة التي يمكن تصورها لأن الحضارة ، أية حضارة ، تحمل في طياتها مفاهيم متعددة متشعبة و أحداثاً و وقائع لها أكثر من وجه احتمال و بعد و تفسير . و في هذا الصدد يقول الباحث المستشرق هنري فرانكفورت " إن طابع الحضارة أبعد من أن يلين لمعادلة أو أن يخضع لقاعدة "[٢] . إن مفاهيم و عوامل و مقومات الحضارة ، ليست بهذه الشفافية الواضحة و لا يمكن أن تعتمد على منهج أو آلية دراسة محددة و معينة بذاتها ، بل لها مجال مفتوح و آراء كثيرة متعددة ، و أحياناً تكون متباعدة و مختلفة " إن كلمة ثقافة بما فيها من تأكيدات على شيء لا يمكن تبريره ، شيء نما من نفسه و لم يُصنع ، هي الكلمة المفضلة الأثيرة عند الذين يدرسون الشعوب البدائية ، أما كلمة الحضارة فتروق لأولئك الذين يعدون الإنسان مخلوقاً سياسياً بالدرجة الأولى "[٣] .

إن الحضارة برأينا هي و بالرغم من كل المقولات و النظريات التي تعبر عن تكاملها و تواصلها مع الحضارات الأخرى ، سواء السالفة منها أم المعاصرة أم اللاحقة ، هي تعبير عن مرحلة خاصة منفصلة ، و هي بالدرجة الأولى نتاج تفكير و أحداث داخلية ضمن المجتمع الواحد ، و

---

[٢] المصدر السابق ص١٠٢ .

[١] المصدر السابق .

[٢] فجر الحارات الأدنى ص١٥ .

[٣] هنري فرانكفورت ، المصدر السابق ص٩٧ .

هي تحددها و تتحدد بها حتماً ، مهما ارتبطت أو تأثرت بعوامل و مؤثرات خارجية . في هذا الصدد يصف الباحث الغربي (شبنغلز) مولد الحضارة باختصار فيقول " الحضارة تزهر في تربة في منطقة محددة تحديداً تاماً و تبقى متعلقة بها تعلق النبتة في الأرض ، ثم تموت الحضارة حين تحقق مجموع إمكاناتها في صور شعوب و لغات و لا هوت و فنون و دول و علوم "[٤] و يقول أيضاً في تعبير آخر " إن لكل حضارة إمكاناتها التعبيرية الخاصة التي تظهر و تنضج ثم تذوي و لا تعود البتة "[١] . و في نظرة أخرى تشاؤمية نوعاً ما لهذا المفكر الفذ ، يقول " إن في تاريخ العالم صورة للتكون و التغيير الأبديين للبناء و الانحلال المدهشين للأشكال العضوية ، في حين يرى المؤرخ في ذلك صورة الدودة التي تنتج دون ملل حقبة إثر حقبة " [٢] . و ربما يكون لحضارات بلاد الشرق الأدنى القديم ارتباط أو تأثير بحضارات أو ثقافات و فترات العصر الحجري الذي سبقها ، و لكن و بكل الأحوال تبقى لها خصوصياتها التي تميزها عما سبقها و عما تلاها . و لكن يبرز سؤال و هو : أليس هذا الكلام مناقضاً لنظرية و مقولة أن حضارات بلاد الشرق الأدنى هي أقدم الحضارات و أولها على الإطلاق ؟؟ .

من الراجح أنه كانت هناك حضارات سبقت حضارات الشرق الأدنى ، لأن أقدم النصوص الكتابية التي وردتنا عن حضارات بلاد الشرق الأدنى ، كانت تعبر عن وجه حضاري متقدم و متكامل و مكتمل العوامل و المقومات و الأسس الحضارية بجوانبها كافة .. الثقافية و الدينية و الاجتماعية و السياسية ، وبمستوى من الرقي لا بأس به . و من المعلوم أن أية حضارة ما ، راقية و متقدمة و مستوفية لشروطها النظرية و العملية كافة ، هي حضارة ناتجة عن تراكم عوامل و مقومات ثقافية و فكرية سابقة مؤسسة لها . أي تراكم حضارات بمستوى أقل . فليس هناك حضارة تنتج من العدم أو تظهر إلى الوجود خلال فترة زمنية قصيرة . و من المنافي للصواب و المنطق أن نقول إن الفترة التي ظهرت فيها الكتابة المسمارية كانت فترة حضارية راقية و قبلها مباشرة ، كان العدم . و لكن هذا الكلام برأينا لا يتناقض مع مقولة أن حضارات الشرق الأدنى كانت أول الحضارات ، لعدة أوجه منها : أن هذه الحضارات هي أقدم حضارات معروفة لنا و ما قبلها هو غير معروف على وجه الدقة . كما أن اختراع الكتابة الذي ظهر لأول مرة في هذه المنطقة هو نتيجة حتمية مؤكدة للفكر الحضاري الذي وصلت إليه هذه المنطقة . و بالمحصلة فإنه لو كان هناك حضارة ما في منطقة مختلفة ، سابقة لهذه الحضارة و بالسوية و المرتبة الحضارية نفسها ، فإن ذلك يستلزم بالتأكيد وجود كتابة ما خاصة بها تدل عليها . و بالتالي تظهرها للوجود

---

[٤] spengler der untergana des abendelandes 1920 + المرجع السابق .

[١] المصدر السابق .

[٢] المصدر السابق .

و العلن . فضلاً عن ذلك أن حتمية تراكم الحضارات البسيطة و العوامل و المقومات الثقافية و الفكرية المؤسسة لحضارة متكاملة أعمق و أرقى ، لا تنفي حتمية الوحدة الجغرافية أو الحيز المكاني أو الإقليمي بين الحضارات الناضجة المكتملة و بين هذه الحضارات البسيطة . فمن غير المعقول أن تكون حضارة راقية ما في منطقة ، و تكون أسسها و مقوماتها في منطقة أخرى بعيدة عنها لا يستطيع أي عامل أو سبب أن يبرر ذلك بشكل منطقي مقبول ، حتى عامل الهجرة البشرية الذي هو بالتأكيد أقل قدرة من حيث الظرف الزمني على استيعاب و احتواء الفترة الزمنية الطويلة نسبياً لتشكل الحضارات . فضلاً عن أن الحضارة بشكل عام تحتاج إلى الاستقرار و التمركز و التموضع الجغرافي في مواقع استراتيجية ذات صفات مناخية و غذائية و مادية معينة . و النتيجة أن الحضارات المهنية و المؤسسة لحضارات الشرق الأدنى القديم ، كانت عملياً في منطقة الشرق الأدنى نفسها ، أي أن هذه المنطقة بقيت هي نفسها مهد الحضارات البشرية .

لقد تميزت حضارات بلاد الشرق الأدنى أيضاً بكونها كانت تمثل الركيزة الثابتة بالنسبة للحضارات التالية التي اعتمدت عليها و استوحت منها . و كانت النواة الحضارية الأولى للعالم أجمع . و معظم الحضارات التي تلتها ، كانت متشابهة معها إلى حد بعيد من حيث النظم الإدارية و السياسية و حتى الإلهية مع الأخذ بعين الاعتبار النقلة النوعية المتميزة للحضارة اليونانية اللاحقة و التي كان لها الأثر البالغ في إخراج الجانب العقلاني البحت للفكر الإنساني إلى الوجود و فصله عن الجانب الروحي ، و صقله بالنظريات العلمية و الفلسفية المعبرة عنه .

لقد كان من أهم سمات و مقومات الجانب الفكري لحضارات الشرق الأدنى القديم ، مفهومان أساسان هما المفهوم الديني و المفهوم السياسي . فأما المفهوم الديني فإنه تجلى بشكل أساس بالأساطير في بلاد الرافدين ، و بالكتابات الدينية في منطقة وادي النيل و التي عثر عليها في المقابر و المعابد و غيرها . و أما المفهوم السياسي ، فقد تجلى كذلك في الكتابات و الألواح المنقوشة و أوراق البردي التي كتبت فيها الأحداث التاريخية و السياسية في كلا البلدين . و من المفهومين السياسي و الديني ، نتج مفهوم آخر كفرع لهما أو كقاسم مشترك بينهما و هو المفهوم القانوني و الإداري التنظيمي . و تجلى هذا المفهوم بالقوانين و الشرائع و العادات التي تنظم أمور الدولة و المجتمع . و كان واضحاً ارتباط هذا المفهوم (القانوني)بالمفهومين السابقين (الديني و السياسي) و استقاؤه معظم مواده و بنوده و مقوماته منهما بحيث بدا في أحيان كثيرة و كأنه نتاج لهما . و من هذه الأقانيم الثلاثة ظهر مفهوم الحكمة ببعديه الاثنين ، البعد الإلهي و البعد البشري السلطاني ، و بشكل واضح و جلي ، و إن كان قد برز من خلف ستار الأحداث و الوقائع

التاريخية و النصوص و الفقرات الاسطورية و السياسية و القانونية الإدارية التنظيمية ، و أمكن استنتاج كيفية العلاقة بشكل واضح بين الحكمة الإلهية و الحكمة السلطانية . و كما ذكرنا في بداية الكتاب ، فإن الحكمة الإلهية في واقع الحال هي من أمور الغيب و الحديث عنها هنا و في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب ، سيكون من خلال كيفية ظهورها في الخطابين الديني و السياسي لكل حضارة أو مرحلة و كيف تم النظر إليها و التعامل معها من منظور هذين الخطابين .

لقد ظهر الترابط الواضح و العميق بين المظهر الإلهي و بين المظهر السياسي في حضارات الشرق الأدنى في الكتابات و الأساطير التي بينت هذا الترابط و تحدثت عنه بكيفية واضحة و بليغة في الإجمال . و قد أخذ هذا الترابط و العلاقة ، أشكالاً و مظاهر عدة تجلت بشكل عام بالاندماج التام و الاتحاد الكلي من خلال الحاكم الإله كما في حالة الفراعنة في مصر القديمة ، أو الحاكم ابن الإله أو الذي يحوي في تركيبته و شخصه على جزء بشري و جزء إلهي . و أحياناً أخرى تجلت هذه العلاقة بالتوافق التام و التفاهم الضمني أو العلني ، و ذلك من خلال تكليف الآلهة لحاكم ما بإدارة دفة البلاد أو تكليفه بإصدار قوانين صادرة عنها و بإرادتها (كقوانين حمورابي) . و أحياناً اخرى و في حالات نادرة نسبياً ، كان هناك تنافر و اختلاف بين الأمر الإلهي و الأمر السياسي البشري ، أو بين الحكمة الإلهية و الحكمة السلطانية ، و هذا الأمر تجلى في عمليات الإنقلابات الداخلية أو المعارك التي كانت تقوم بين الممالك و الدول و التي يتم تفسيرها على أنها عملية استبدال للحاكم أو الملك من قبل الآلهة التي لم تعد راضية عن أعماله أو تصرفاته .

في معرض حديثنا عن حضارات الشرق الأدنى القديم ، لن ندخل في نقاش أو سرد تاريخي تفصيلي بحت ، و قد لا نعتمد التسلسل التاريخي الزمني ، أولاً لأن ذلك ليس من منهج الكتاب بل خارج نطاق مجاله ، و ثانياً لأننا نفترض أن القارئ لديه فكرة أو إلمام بتاريخ هذه الحضارات .

فيما يلي ، جدول زمني بأهم الأحداث و التواريخ الأساسية الحاصلة في فترة حضارات الشرق الأدنى القديم حوالي الألف الثالث قبل الميلاد [1] ، و الأرقام هي للسنوات :

- حوالي سنة ٢٨٠٠ ق.م : مينا ملك مصر العليا أول فرعون في الأسرة الأولى .
- ٢٧٠٠ : جلجامش يبني جدراناً حول مدينة أوروك .
- ٢٦٠٠ : الأسرة الثالثة في مصر القديمة و بناء الهرم المدرج .

[1] سيكلوبيديا التاريخ القديم .

- ٢٥٥٠ : الأسرة الرابعة في مصر القديمة و بناء الهرم الأكبر في الجيزة و أبو الهول .
- ٢٥٠٠ : أول حضارة في طروادة .
- ٢٤٠٠ : الأسرة الأكادية في بلاد ما بين النهرين .
- ٢٣٠٠ : رجال قبائل الجوتي يدمرون امبرطورية بلاد ما بين النهرين .
- ٢٢٠٠ : مصر تتمزق تحت وطأة الصراع بين عواصم الأسرة الحاكمة .
- ٢٠٠٠ : الدولة الوسطى تعيد لمصر وحدتها .
- ١٩٠٠ : بداية أول امبرطورية بابلية .
- ١٨٠٠ : بابل تحرز تقدما كبيراً في مجال التشريع (قوانين حمورابي) .
- ١٥٠٠ : الحثيون يستولون على حلب و بابل و يؤسسون مملكة الحثيين القديمة .
- ١٣٧٥ – ١٣٥٠ : الفرعون اخناتون يحاول تعميم ديانة التوحيد .
- ١٣٠٠ : خروج اليهود من مصر .
- ١٢٥٠ : الإسرائيليون يدخلون فلسطين .
- ١٢٠٠ : سقوط الامبرطورية الحيثية على يد الفرنجيين .
- ١٠٠٥ : الملك داود ملك يهوذا ، يوحد إسرائيل .
- ٨٤١ : الآشوريون يغزون سوريا .
- ٧٥٠ : النوبيون يغزون مصر .
- ٧٣٢ – ٧٢٩ : الآشوريون يضمون بابليون و دمشق .
- ٧٢٤ : الآشوريون يضمون إسرائيل .
- ٧٠٨ : تأسيس امبرطورية ميديا .
- ٦٦٩ – ٦٦٣ : الآشوريون يقتحمون مصر ، و تأسيس الامبرطورية البابلية الثانية و انهيار الامبرطورية الآشورية .
- ٦١٤ : الميديون يهزمون آشور .
- ٦١٢ : البابليون و الميديون يدمرون نيقية .

- ٦١٠ : البابليون يقضون على الدولة الآشورية .
- ٦٠٥ : الملك نبوخذ نصر ملك بابل يهزم المصريين .
- ٥٩٨ : نبوخذ نصر يستولي على القدس .
- ٥٥٠ : قورش الفارسي يهزم الميديين .
- ٥٣٩ : قورش يضم بابل و صعود الامبرطورية الفارسية .
- ٥٢٥ : هزيمة مصر على يد الفرس .
- ٥٢١ : دارد يستولي على العرش الفارسي .
- ٥١٦ : حملات دارا على مدينة سيز و ضمه لوادي السند .

بلاد ما بين النهرين

يطلق اسم بلاد ما بين النهرين أو بلاد الرافدين عموماً على المنطقة الواقعة بين نهري دجلة و الفرات ، أما كلمة العراق فلم يكن هناك اتفاق معين على تحديد فترة نشأتها بين المؤرخين [١] . و قد حملت هذه المنطقة تسميات مختلفة في العديد من أجزائها و أقسامها . كبلاد سومر في الجنوب و بلاد أكد في الوسط أو بلاد بابل و بلاد آشور . و يبدو أن كلمة بلاد ما بين النهرين قد ظهرت لأول مرة عند الإغريق و الرومان باسم (ميزوبوتاميا) [٢] و قد عرف الإنسان القديم في تلك المنطقة من وقت طويل مهنة الصيد ، ثم تطور بعدها إلى عملية الزراعة منذ حوالي عشرة آلاف سنة .

و منذ حوالي الألف التاسع قبل الميلاد ، تطورت عملية الزراعة لدى هذا الإنسان ، و أدى ذلك إلى بداية الاستقرار البشري نظراً لتوافر كميات المياه و الأمطار ، فضلاً عن الأنهار ، فنشأت تبعاً لذلك أولى المستقرات و التجمعات البشرية [٣] . و كانت هذه المستقرات و التجمعات البداية و النواة لتشكيل القرى و المدن فيما بعد . و الواقع أن حضارة بلاد ما بين النهرين جاءت متأخرة نسبياً عن مثيلتها المصرية من حيث الاكتشاف (حوالي الربع قرن) . و لكن غزارة المادة الكتابية و المعلومات المدونة في المكتشفات الأثرية لبلاد ما بين النهرين ، هي أكثر منها في المكتشفات المصرية القديمة . و يعود ذلك لكون الكتابة في بلاد ما بين النهرين قد نقشت على ألواح من الآجر و الجص أو الحجر فحافظت على شكلها و طبيعتها و قاومت عوامل الزمن و التآكل ، أما الكتابات المصرية القديمة فقد كتبت على أوراق البردي أو الجلود التي سرعان ما أصابها التلف نتيجة عوامل الزمن ، باستثناء تلك التي كتبت على جدران المقابر أو المعابد و الإهرامات .

---

[١] الفكر السياسي و أساطير الشرق الأدنى القديم . ص/١١١ – ١١٢ / و ما بعدها – فجر الحضارة بالشرق الأدنى .

[٢] المصدر السابق ص/٩٨/ .

[٣] المصدر السابق .

و فضلاً عن ذلك فإن الاهتمام بالكتابة في بلاد ما بين النهرين ، كان على ما يبدو أقوى منه في بلاد وادي النيل ، حيث شملت الكتابة في بلاد ما بين النهرين معظم نواحي الحياة الدينية و السياسية و الاجتماعية و تناولت مفاصل عدة فيها . و كان نظام المكاتب على درجة عالية من التطور و الرقي . بينما في مصر انحصرت الكتابة في معظم الأحيان بالأمور الدينية و الطقوس و الشعائر المتعلقة بها . و لكن إذا كانت الكتابة في بلاد الرافدين هي أشمل و أعمق و أكثر من الكتابة في مصر القديمة ، فإن الآثار الهندسية كانت على العكس من ذلك حيث كانت في مصر أكثر منها في بلاد الرافدين و ذلك بسبب توافر المادة الصخرية الخاصة بالبناء في مصر أكثر منها في بلاد الرافدين ، فضلاً عن عامل المناخ الجاف في مصر و المساعد على الحفاظ على الآثار و الشواهد الحجرية الهندسية .

إن أول بداية أو ظهور لحضارة بلاد ما بين النهرين في المكتشفات الأثرية ، تمثل بما يعرف بعصر العبيد و هي جماعة مهاجرة قدمت إلى منطقة ما بين النهرين من شبه الجزيرة العربية و استقرت فيها . و تميزت هذه المرحلة على ما يبدو ، ببداية ظهور المعابد الدينية و في الوقت نفسه بداية تكوين المستقرات الزراعية حيث كانت المهنة الأساس لجماعة العبيد هي الزراعة و الأرض . و أيضاً فإن هذه الفترة (عصر العبيد) كانت بمنزلة التكوين الثقافي و الفكري الأول لحضارة ما بين النهرين [٤] . و بعد عصر العبيد جاءت جماعة السومريين حوالي /٣٨٠٠/ قبل الميلاد ، حيث تمازجوا مع جماعة العبيد و كونوا معهم المرحلة السومرية و هي المرحلة التي كانت الانطلاقة الحقيقية و الفعلية لحضارة ما بين النهرين . و فيها أيضاً تشكل مفهوم الدولة بالمعنى الحقيقي . و قد تميزت هذه المرحلة بالمعارك و الحروب بين السومريين و الأكاديين و الكوتيين ، تخللها تبادل نشوء الدول و الممالك و الحكام ، و تبادل سيطرة و تملك الحكام و منهم مساني بادا و لوكالزاكيزي الذي أسس أول امبرطورية في التاريخ بينما كان الحاكم مسانيبادا أول من أسس سلالة حاكمة [١] في مدينة أور . بعد ذلك جاء سرجون الأكادي و قضى على الدولة السومرية و أقام مكانها الدولة الأكادية حيث بدأ ما يعرف بالمرحلة الأكادية و هي المرحلة التي شهدت الهجرات المتتالية من الساميين المعروفين بالأموريين أو العموريين و الكنعانيين و أيضاً الكشديين و الحوريين الميديين . و قد استمرت امبرطورية سرجون الأكادي حوالي القرن ، سقطت بعدها بفعل غزوات الكوتيين الذين استمر حكمهم من /٢٢٠٣/ و حتى /٢١٢٠/ قبل الميلاد ليأتي بعدهم البابليون الذين تابعوا مسيرة أسلافهم الحضارية و الفكرية ، التي تميزت بعهد

---

[٤] المرجع السابق ص/١٢١ / و ما بعد – فجر الحضارة في الشرق الأدنى القديم .

[١] المصادر السابقة .

حمورابي (واضع القوانين الشهيرة باسمه) و في الوقت نفسه أكملوا التنظيم السياسي بتوحيد مناطق بلاد ما بين النهرين ضمن امبرطورية واحدة ، بعد معارك عنيفة ضارية مع الخصوم . و هذه المرحلة تميزت أيضاً بظهور الألطير و وفرتها و منها ملحمة جلجامش و أسطورة الطوفان و أسطورة إينوما إيليش (بدء الخليقة) [٢] .

بعد البابليين جاء الكشيون الذين برزوا نتيجة لضعف الامبرطورية البابلية بعد حمورابي و كثرة الثورات و حركات الانفصال فيها . و كانت فترة حكمهم حوالي أربعمئة سنة . و بعد الكشيين عادت السيطرة مرة أخرى إلى البابليين الذين اشتهر منهم نبوخذ نصر الأول (و هو غير نبوخذ نصر الذي سبى اليهود) . و بعد البابليين جاء الآشوريون الذين كانوا قد استوطنوا في منطقة تدعى آشور و أطلقوا على عاصمتهم اسم آشور ، كما قاموا بتسمية إلههم وبرآشأيضاً و هو إلههم القومي . و قد وضعوه في مرتبة فوق جميع الآلهة المحلية الأخرى [٣] . و قد كانت الحضارة الآشورية من أهم حضارات الشرق الأدنى القديم و تميزت بتطورها التاريخي و السياسي الهامين حيث تم توحيد الدولة مرة أخرى في امبرطورية واحدة عدت من أقوى الامبرطوريات في تلك الفترة ، تطور فيها نظام الجيش و الإدارة قياساً عن الفترات السابقة . و لعل الميزة الهامة في تلك الفترة (فترة الامبرطورية الآشورية) هي فترة الغزو الخارجي الذي وصل إلى السواحل السورية و من ثم إلى مصر . كما تميزت تلك الفترة أيضاً بالعلاقات التجارية للدولة الآشورية مع الدول المجاورة . و كان من أهم ملوك الآشوريين إددنيراري الذي ابتدأت بعهده الحضارة الآشورية . و سرجون الذي هاجم مملكة إسرائيل و سنحاريب و أسرحدون الذي غزا مصر [٤] . و قد انتهت فترة حكم الآشوريين على يد الحاكم البابلي نبوبولاصر الذي قام بالقضاء على نينوى عاصمة الآشوريين عام / ٦١٢ / قبل الميلاد و أسس دولة بابل الحديثة التي كان قوامها الكلدانيين الذين نزحوا من شبه الجزيرة العربية . و كان ملوك هذه الدولة أيضاً بعد نبوبولاصر ، نبوخذ نصر الثاني الذي كانت له حروب مع الدولة المصرية و الممالك السورية التابعة و المؤيدة لها ، بالإضافة إلى مهاجمته مملكة إسرائيل و دخوله أورشليم و سبيه اليهود إلى بابل . و بدخول الملك الفارسي قورش إلى بابل عام /٥٣٦/ قبل الميلاد ، انتهت ذلك أهم حضارة ميزت بلاد الشرق الأدنى القديم و هي حضارة بلاد ما بين النهرين لتبدأ بعد ذلك الغزوات الأجنبية للبلاد .

---

[٢] المصادر السابقة .

[٣] المصادر السابقة .

[٤] فجر الحضارة ص/٦٢/ .

إذن لقد تميزت حضارة بلاد الرافدين منذ نشأتها ، بتطور مفهومي الدين و السياسة ، عن الفترات السابقة و تبلورهما بشكل أعطاهما أبعادهما الواضحة و المميزة . فمفهوم الآلهة أخذ بعده الواضح و مكانته المميزة منذ أقدم فترة عرفت فيها هذه الحضارة ، و هي فترة العبيد و ثقافتهم و هي أول ثقافة انتشرت في بلاد الرافدين ، فكان للآلهة اسمها المميز و معبدها الخاص بها و الطقوس الخاصة بالتقرب إليها ، ليس ذلك فحسب ، بل إنها أعطيت أدواراً معينة تقوم بها تجاه الإنسان ، منها ما هو مختص بالطبيعة . و قد تبين أنه في الفترة التي وجد فيها العبيد ، كان هناك إله يدعى أنكي و أطلق عليه لقب إله الأرض و الماء . و لابد من القول إنه و إن كانت ثقافة العبيد هي أولى ثقافات بلاد الرافدين ، فإنه ليس بالضرورة أن الآلهة فيها هي الأقدم ، لأن مفهوم الكتابة في بلاد الرافدين يختلف عن مفهوم الكتابة في مصر القديمة . و من المتعارف عليه أن التاريخ عامة يبدأ ببدء الكتابة . " إن قولاً كهذا يصلح لمصر القديمة حيث إن أقدم النقوش تشير إلى أول الحوادث و الشخصيات المعروفة . و هكذا فإنها كسجلات للمعارك و الأسماء ، تكون أقدم مادة للتاريخ المصري . لكن الأمر ليس كذلك في بلاد الرافدين ، حيث اتخذت المدينة شكلها و حيث ظهرت الكتابة قبل أن وجدت الوثائق التاريخية بمعناها المحدود بزمن طويل . و هذا الفرق بينها و بين مصر يعود إلى تباين الغايات التي كان على الكتابة و الفن أن يخدماها "[1] لقد كانت الكتابة هي أول معلم من معالم الحضارة في بلاد الرافدين (و حتى في مصر القديمة) . و هي لم تأت عبثاً أو بمجرد الصدفة ، بل من المؤكد أنها أتت كنتاج لتفكير عميق و خبرة طويلة و كحاجة للإنسان . و يخبرنا علم الأنتروبولوجيا و الآثار أن اللغة الصوتية كانت أسبق من الكتابة التي كانت بالدرجة الأولى تعبر عن هذه اللغة . و منذ اكتشاف الكتابة ، بدأت الحياة الإنسانية تتغير تغيراً جذرياً و أصبح تكوين المعارف و الخبرات يتراكم بسرعة هائلة قياساً للفترة السابقة للكتابة .

في الواقع إن كيفية اكتشاف أو توصل الإنسان في الشرق الأدنى للكتابة بشكل دقيق ، هو أمر غير معروف تماماً . و قد تعددت التفسيرات و التأويلات بشأنه ، و عندما نقول إن الكتابة أتت كنتاج لتفكير عميق و خبرة طويلة ، فإن هذا الأمر يحتمل تأويلين اثنين .. الأول هو اختراع الإنسان للكتابة من ذاته من قدراته الذهنية و العقلية المتطورة مع الزمن ، عن طريق حكمته البشرية التي أوحت إليه بهذا الأمر و أوصلته إلى هذه النتيجة أي أن العامل الأساس هنا هو عامل داخلي . الأمر الثاني هو اكتشاف الإنسان للكتابة عن طريق التلقي أو الوحي أو الإلهام الإلهي الذي تحدثت عنه الكتب السماوية المقدسة و هي المصدر الوحيد الذي اشار إلى كيفية

---

[1] المصدر السابق .

تعليم الإنسان الكتابة ففي القرآن الكريم نجد في سورة العلق (**الذي علم بالقلم _ علم الإنسان ما لم يعلم**) (العلق / ٤-٥) . (**و لا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ....**)(البقرة – ٢٨٢) . (**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ...**) (البقرة – ١٨٢) . (**قل لمن ما في السماوات و الأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ...**) (الأنعام – ١٢) . (**فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ...**) (الأنعام – ٥٤) . نلاحظ في الآيتين من سورة العلق أن الله تعالى هو من علم الإنسان بال قلم و هو وجه يحتمل الكتابة . و إن الإنسان لم يكن يعرف هذا الأمر من قبل (علم الإنسان ما لم يعلم) . و نلاحظ هذا الأمر أيضاً في الآية /٢٨٢/ من سورة البقرة التي تدل على أن كيفية و طريقة أصول الكتابة كانت من عند الله (أن يكتب كما علمه الله) . و بالرغم من كون الآية الكريمة قد جاءت بخصوص كيفية كتابة العقود و المواثيق بين الناس ، و هي فترة لاحقة متطورة ، فإن عبارة (كما علمه الله) تدل على صحة المقولة السابقة و تحمل في طياتها مدلول التعليم البدائي . و نلاحظ في بقية الآيات أن الكتابة هي في بداية الأمر و قبل وجود الإنسان ، كانت من اختصاص الله تعالى . و قد وردت في مواضع عدة و كثيرة في القرآن الكريم لا يتسع المجال لذكرها هنا . و هناك آية ربما دلت على محاول تعليم مفهوم الكتابة من خلال الإيحاء للعقل ، حيث ورد (**.أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ...**) (المجادلة – ٢٢) . نفهم هنا أن مفهوم الكتابة قد اختلف عن مفهوم الخط بالمعنى التقليدي و أصبح أقرب إلى تلقين العقل بمعلومات مسبقة ، و لعل الكتابة في الحاسوب (الكمبيوتر) و تلقينه المعلومات ، تشابه هذا المفهوم .

و في العهد القديم وردت أيضاً آيات تدل على تعليم الله الكتابة للإنسان منها **[قد فهمني الرب كل ذلك بالكتابة بيده علي أي كل أشغال المثال]** (أخبار الأيام الأول ٢٨ : ٩٩) . **[و في السنة الأولى لكورش ملك فارس لأجل تكميل كلام الرب بفم إرميا نبه الرب روح كورش ملك فارش فأطلق نداء في كل مملكته و كذا بالكتابة قائلاً]** (أخبار الأيام الثاني ٣٦ : ٢٢) . **[صورة الكتابة المعطاة سنة فلي البلدان أشهرت بين جميع الشعوب ليكونوا مستعدين لهذا اليوم]** (أستير ٣ : ١٤) . **[أما هؤلاء الفتيان الأربعة فأعطاهم الله معرفة و عقلاً في كل كتابة و حكمة و كان دانيال فهيماً بكل الرؤى و الأحلام]** (دانيال ١ : ١٧) .

إن الشق الأول من تأويل مفهوم الكتابة و هو اختراع الإنسان لها من نتاج فكره و وحي عقله ، يدل على حكمة بشرية بالغة ، لها غايات سياسية و دينية واضحة ، فالسبب الوحيد الذي يتضح أمامنا في دفع الإنسان إلى اختراع مفهوم الكتابة ، هو العامل الديني و العامل السياسي حتماً . أي أن الإنسان كان من وراء اختراعه لمفهوم الكتابة ، غاية ما ، و كانت على مايبدو تختمر في ذهنه

منذ فترة طويلة ... غاية معينة دفعته و أوصلته إلى الكتابة . و من المرجح بشكل كبير أن تكون لها علاقة إما بالمفهوم أو العامل الديني أو المفهوم أو العامل السياسي أو كلاهما معاً . و دافعنا إلى ذلك هو القاسم المشترك بين هذه المفاهيم و الذي هو المفهوم الفكري العقلي أو الحكمة البشرية ، فكل مفهوم من هذه المفاهيم كان أساسه و ارتباطه بالفكر الإنساني الخلاق و الحكمة الإنسانية ، حتى و لو كان عن طريق الوحي الإلهي ، لأن وجود الوحي الإلهي يستوجب بالضرورة وجود العقل الإنساني و هذا ما يقودنا إلى الحديث الشريف عن خلق الله تعالى للعقل كأول عملية خلق و استخدامه أداة للحساب و العقاب . و من المرجح جداً برأينا أن من قام باختراع الكتابة فعلاً أو اكتشافها ، هم أنفسهم الأشخاص الذين كانوا في الماضي يرسمون على جدران الكهوف . و إن الكتابة ما هي إلا عملية متطورة و متقدمة لعملية رسم الحيوانات على جدران الكهوف . و هنا يبرز التساؤل التالي : إن عملية الرسم على جدران الكهوف قد وجدت تقريباً في مناطق متعددة من العالم و بخاصة آسية و أوروبة و إفريقيا ، فلماذا انحصرت الكتابة في منطقة الشرق الأدنى بالذات ؟؟!! إن الإجابة المعقدة و الصعبة على هذا السؤال تنحو بنا فوراً باتجاه العامل الديني و ظهوره في تلك المنطقة . و هو الوحيد الذي يمكن أن يعطي التفسير الذي هو حتى الآن غير موجود بشكل علمي و أثري يقيني بحت . و في الأحوال كافة فإن غاية الحكمة البشرية من اختراع الكتابة هو السيطرة على الحاضر و المستقبل في الوقت نفسه ، من الناحية الزمنية و الروحية ، السياسية و الدينية . و هذا يدعونا إلى القول إن الإنجاز الإنساني العظيم المتجلي باختراع الكتابة المسمارية أو الهيروغليفية أو الهيرية ، لم يضاهه سوى اكتشاف آخر و هو اختراع الحكمة أو الغاية من الكتابة . و بسهولة نستطيع أن ندرك العامل الديني من وراء عملية الكتابة ، و هو أن بداية ظهور الكتابة في تلك المنطقة أو الظهور الفعلي للكتابة ، بدأ حقيقة في المعابد الدينية و للأغراض الدينية . ففي بلاد الرافدين استخدمت الكتابة في أول ظهورها لتسجيل كل ما يتعلق بأمور الهياكل و المعابد و ما يتبعها من حساب إيرادات هذه المعابد و غيرها ، و بعد ذلك تطورت لتشمل النواحي السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية .

إن الحاجة الإنسانية أو الحكمة البشرية من مفهوم الكتابة ، كانت لأمور عدة أهمها أن الحكمة البشرية ، وصلت في تطورها و ترقيها عبر السلم الزمني المليء بالأحداث و الوقائع و تراكم الخبرات ، إلى مرحلة عجزت فيها هذه الحكمة عن استيعاب نفسها . و بعد أن وصل العقل الإنساني إلى مرحلة من تطور القدرات التحليلية و التأملية و الذهنية ، أكبر من طاقته على ربطها جميعاً في بوتقة واحدة ، فأدرك عجزه أمام نفسه .. عجزه أمام قدرته . أدركت الحكمة البشرية بمعنى آخر أن قدرتها أصغر من قدرتها ، و أن قدرتها لا يمكن أن تستوعب قدرتها .

أدركت حاجتها إلى التصنيف و التبويب و فرز المفاهيم و الأفكار . و الأمر الثاني هو إدراك الحكمة البشرية أن علاقة تطورها و إبداعها مع الزمن هي علاقة طردية ، أي كل يوم يخلق مفهوم جديد و فكرة جديدة . و هذا الأمر أوحى لها بفكرة الخوف من المستقبل و التحيط له . العامل الثالث هو إدراك الحكمة البشرية لأهمية مفهوم الاستمرارية و النظام و ضبط الفوضى الناتجة عن زيادة حجم الجماعة الكمي و النوعي ، و تطور الأمر السياسي و الديني و الاجتماعي . و الاستمرارية هنا تعني استمرارية وجود الشخص العاقل و الحكيم المتحكم بالجماعة و المسيطر على تصرفاتها و أفعالها و الموجه لقدراتها المادية و المعنوية نحو الغاية و الخطة التي يراها مناسبة ، سواء له أو للجماعة . و تبقى نقطة أخرى مهمة جداً و هي أن الذي اخترع الكتابة أو الذي أوجدها بين بني البشر كان حتماً يعرف تمام المعرفة أن الجنس البشري سيبقى على هذه الأرض لمدة طويلة جداً و سيكون هو المتحكم بقرارها .

لقد كانت الكتابة عاملاً مهماً لنشوء الدول و الممالك ، و عاملاً مهماً لتطور المفهوم الديني أيضاً . و الأهمية القصوى كانت لربط هذه المفاهيم الثلاث بعضها ببعض – المفهوم الديني و المفهوم السياسي و المفهوم الاجتماعي – ربطاً متوازياً متناسقاً مع سير الزمن ، و ضرورياً لاستمرارية الحياة اليومية التي بدات تتعقد و تتشعب شيئاً فشيئاً .

نتجه إلى الشق الثاني من سببية ظهور مفهوم الكتابة ، و هو الشق أو العامل الإلهي المتمثل بالتعليم أو الإيحاء الإلهي للإنسان بالكتابة . و هو شق مشابه للشق الأول . و ربما (و نقول ربما) ارتأت الحكمة الإلهية أن الوقت قد حان لتلقي الإنسان مبادئ الكتابة للتمهيد لدعائم الدين لديه و إثبات الحجة ، له أو عليه في ذلك . فمفهوم الكتابة بالنسبة لمشيئة الإلهية هو مفهوم هام جداً و له مكانته المتميزة ، و نستطيع أن ندرك ذلك من خلال الكتب الدينية المقدسة التي ترينا أن الله تعالى اختار التعامل مع الإنسان عن طريق الكتابة و العهود و المواثيق ، و هو ما يوحي بالدقة و إثبات الحجة و البينة و الوضوح بالنسبة للإنسان (**و ابتغوا ما كتب الله لكم و كلوا و اشربوا**)(البقرة – ١٨٧) . (**و كتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة و تفصيلاً لكل شيء ...**) (الأعراف – ١٤٥) . (**يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه و ليكتب بينكم كاتب بالعدل و لا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب و ليملل الذي عليه الحق ...**) (البقرة – ٢٨٢) . (**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ...**) (المائدة – ١) . (**لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم و لكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان ...** ((المائدة – ٨٩) . (**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل و يفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون**) (البقرة – ٣٧) . (**و إذ أخذنا ميثاقكم و رفعنا**

فوقكم الطور) (البقرة – ٦٣) . (**و إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله و بالوالدين إحساناً و ذي القربى ... _ و إذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم و لا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم و أنتم تشهدون**) (البقرة / ٨٣ – ٨٤) . (**و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب و حكمة ...**) (آل عمران – ٨١) . (**و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ...**) (آل عمران – ١٨٧) . (**و اذكروا نعمة الله عليكم و ميثاقه الذي واثقكم به ...**) (المائدة – ٧) . (**و إن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم و بينهم ميثاق و اله بما تعملون بصير**) (الأنفال – ٧٢) . (**و إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم و منك و من نوح و إبراهيم و موسى و عيسى ابن مريم و أخذنا منهم ميثاقاً غليظاً**) (الأحزاب – ٧) .

من سياق الآيات القرآنية السابقة و مضمونها تتضح مكانة العهد و الميثاق و أهميته و تركيز الآيات الواضح و الشديد على هذه القضية و الذي تجلى في أمر الله تعالى للبشر بكتابة العهود و المواثيق فيما بينهم و تبيان أن أساس العلاقة و بدايتها بين الله و البشر هو في الميثاق و العهد . و لعل أهمية هذا الأمر و مكانته عند الله تعالى تتضح لنا في الآية التي تقول (**لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم و لكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان ...**) أي ان الله تعالى يتسامح بموضوع اللغو في الإيمان و لكن لا يتسامح بأمور العقود حتى و إن كانت باطنية أو شفهية أو كتابية و كذلك الآية /٧٢/ من سورة الأنفال التي تظهر الأمر الإلهي بنصرة الناس أو الجماعة في أمر ما إلا على الناس الذين يوجد معهم ميثاق حتى و لو كان بالدين نفسه أو من الملة نفسها . و هذا تظهر خطورة المساس بالميثاق و أهميته .

و تكمن أهمية هذا الأمر أيضاً في الجانب الفكري و الإنساني لدى البشر ، فكلمة ميثاق تحتل مكانة هامة في قاموس الفكر الإنساني الاجتماعي و السياسي و الديني و هي تعبر عن العلاقة و الارتباط بين طرفين أو أطراف عدة برابط الشرف و القانون و القيد و الإلـ ام . فكلمة ميثاق مشتقة من أوثق أي قيّدَ و ربط ، و مشتقة من كلمة توثيق أي تصنيف و حفظ المعلومات و الأفكار في نصوص معينة ، و من كلمة وثيقة التي تعني الصك أو السند المكتوب و الذي هو الكلمة الفصل في المنازعات و الخلافات و الاتفاقات و التحكيم . و من كلمة ثقة التي تعني الاطمئنان و اليقين . و نلاحظ أيضاً من مضمون الآيات السابقة ، أن الميثاق أو العهد قد شمل الأنبياء أيضاً . و بعامة فإن الميثاق قد شمل ثلاثة أطراف : الله – الأنبياء – البشر . و نستطيع أن نقول إن الميثاق هو الصيغة القانونية الإلهية – البشرية للتعامل ، و نستطيع القول أيضاً إن أول مفهوم قانوني أو عقد قانوني ، كان عملياً بين الله و بين البشر . و لعل العبارة الشهيرة التي تقول

" **العقد شريعة المتعاقدين** " و التي ظهرت أول ما ظهرت في التشريع الروماني ، ليست بعيدة كل البعد عن هذا الموضوع .

و في العهد القديم جا ء ما يدعم هذه المقولة أيضاً حيث جاء **[و قال الرب لموسى اصعد إلى الجبل و كن هناك فأعطيك لوحي الحجارة و الشريعة و الوصية التي كتبتها لتعليمهم]** (سفر الخروج ٢٤ : ١) . **[ثم قال الرب لموسى أنت لك لوحان من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الذي كسرتهما]** (سفر الخروج ٣٤ : ١) . **[و قال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات لأنني بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك و مع إسرائيل]** (سفر الخروج ٣٤ : ٢٧) . **[و ها أنا مقيم ميثاقي معكم و مع نسلكم من بعدكم]** (سفر التكوين ٩ : ٩) . **[و قال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني و بينكم ...]** (التكوين ٩ : ١٢) . و في العهد الجديد جاء **[و هذا هو العهد من قبلي لهم من نزعت خطاياهم]** (الرسالة إلى أهل رومية ١١ : ٢٧) . **[هذا هو العهد الذي أعهده معهم بعد تلك الأيام يقول الرب اجعل نواميسي في قلوبهم و اكتبها في أذهانهم]** (الرسالة إلى العبرانيين ١٠ : ٢٦) .

و لم يكن بالإمكان ظهور مفهوم المواثيق و العهود دون وجود المفهوم الكتابي ، و هذا ما يقودنا إلى استنتاج احتمال العلاقة و الارتباط بين الآية (**الذي علم بالقلم _ علم الإنسان ما لم يعلم**) و بين آيات العهود و المواثيق الإلهية – البشرية . و بالإضافة إلى ذلك فإن مفهوم أو عبارة المواثيق و العهود الإلهية ، من الممكن قبولها نظرياً (دون تأكيد حتمية الأمر) كأساس ، **أولاً** لظهور الأمر الديني و تثبيته و تسويقه بين الناس مع تدخل الحكمة الإلهية أو الحكمة الـ بشرية أو كلاهما معاً في هذا الأمر ، لأننا نفترض أن الحكمة الإلهية يهمها انتشار الشرائع و التعاليم الدينية بين بني البشر ، و أن أفضل طريقة لذلك هي الكتابة و التسجيل و التدوين . أما الحكمة البشرية فمؤكد أنها تهتم بذلك حتماً و عن طريق الكتابة و التوثيق أيضاً . **و ثانياً** لظهور الأمر السياسي بمختلف عناصره ، من الهيكلية الإدارية و التنظيمية ، و حتى نشوء الدول و الممالك ، و بخاصة إذا عرفنا أنه في الشرق الأدنى القديم اختصت فئة المكتبيين بالعمل في الهياكل و في البلاط الملكي . و هنا لا نستطيع إقحام الحكمة الإلهية في هذا القول ، بل نقتصر على الحكمة البشرية التي من المحتم أنها رحبت و وافقت على هذا الأمر و اعتمدت عليه كأساس لاستمرارية وجودها و توسيع حركتها و نطاق عملها الذي هو أصلاً محصور في العالم المادي المحسوس .

و الواقع أن ظهور مفهوم الكتابة ليس بهذه السهولة التي نتخيلها عن طريق الاستنتاجات التاريخية و الأثرية البسيطة ، بل هي أعقد من هذا بكثير ، و مع ذلك تبقى بعض النظريات و

الاستنتاجات التاريخية و الأثرية محتفظة بمصداقيتها و أدلتها و منطقيتها كجزء من هذا الأمر و ليس الأمر كله .

لقد كان للكتابة مكانة كبيرة عند سكان بلاد الرافدين . و قد بينت الاكتشافات الأثرية هذا الأمر . فقد وجد لديهم نظام للمكتبات بشكل راق و متطور جداً ، حيث تم اكتشاف مكتبات ملكية تحتوي على عشرات الآلاف من الألواح الحجرية التي تحوي نصوصاً كتابية محفورة عليها . و قد رتبت هذه الألواح بطريقة منظمة و معقدة جداً . و كما ذكرنا آنفاً فإن حضارة بلاد النهرين تجلت في مظهرين أساسين .. المظهر الديني و المظهر السياسي .

إن خير من عبر عن المظهر الديني في حضارة ما بين النهرين ، هي الأسطورة التي عبرت في مواضع عدة أيضاً عن الفكر السياسي لتلك الفترة . و قد ظهر في الأوساط العلمية الحديثة ، وجهات نظر حول مفهوم و ظاهرة الأسطورة و مدى علاقتها أو تعبيرها عن المستوى الفكري لإنسان تلك المرحلة ، فهناك من رأى أن الأسطورة هي تعبير عن تخلف الإنسان القديم و بدائية تفكيره و عللوا ذلك بأن الإنسان القديم لم يفصل ذاته و نفسه عن الكون بل عد نفسه وحدة واحدة متجانسة معه بخلاف الإنسان العاقل الحديث صاحب العلم الحضاري الذي ميز بين ذاته و بين الطبيعة المحيطة به . و هناك من رآى عكس ذلك تماماً ، و هم أصحاب التفكير المثالي الذين لم يروا فارقاً بين العالم الروحي و العالم المادي الطبيعي ، و أن كل محاولة للفصل بينهما هي محاولة فاشلة لأنهما وحدة متجانسة متوافقة مع نفسها [1] . و رأى هؤلاء أن الأسطورة تمثل الإبداع و التطور الحضاري للإنسان ، فلا تزال الأساطير القديمة حتى الآن تمثل موضوعاً للدراسة و البحث في مختلف الجامعات و الأكاديميات في العالم . " فالفكر الأسطوري كان مرحلة متقدمة من التطور العقلاني و الذهني الذي لم تعرفه الجماعات البسيطة ، كما كان في الوقت نفسه مرحلة تكوين أساس لبداية تطور المعرفة التي أوصلت الإنسان إلى الأسلوب الفلسفي الإغريقي . و مادام قد ظهر التمايز و التأثير و الهيمنة في المجتمعات القديمة ، فإن الفكر كان لا بد له من أن يعالج هذا الأمر الاجتماعي و السياسي لتأمين الأمن و الاستقرار في المجتمع لصالح المتميزين و المهيمنين وفقاً للتصور العام للغايات في المجتمع و طرق تحقيق هذه الغايات . لذلك كانت الأسطورة هي مجال هذه الإجابة بما تضمنته من مفاهيم عن الآلهة و البشر و من المجتمع و السلطة و الفرد و مختلف العلاقات السائدة في المجتمع . و اختلاف أساليب الإجابة من الأمر السياسي بين أساليب الأسطورة و أساليب الفلسفة الممنهجة ، لا يلغي أو ينفي عن الأسطورة

[1] الفكر السياسي و أساطير الشرق القديم ص/٩٥/ .

التفكير السياسي إنما يبين اختلاف الطريقة التي تـ مت بها دراسة العقل الإنساني لها و اختلاف البناء الذهني "[٢] .

لقد تعددت أساليب و كيفيات ظهور الأمر الديني في الأسطورة في بلاد الرافدين ، سواء من حيث المناقشة أم من حيث التغيير و التبرير لظواهر الأمر الديني المتفاعلة مع الوجود المادي الخارجي . فهي قد فسرت ظهور الالهة و تعددها و كيفية تعاملها بعضها مع بعض ، و كيفية نشوء الخلق و الكون و الطبيعة و غايات هذه الآلهة من خلق الكون و من خلقها للإنسان ، و حتى تدخلها في الأمر السياسي و الاجتماعي و السلطوي .

إن أشهر أسطورة ظهرت في بلاد الرافدين و شرحت كيفية بدء الحياة و الكون و خلق الإنسان و الغاية من كل ذلك ، هي أسطورة " الإينوما إيلش "و التي تعني (عندما في الأعالي) . و تتحدث هذه الأسطورة بمجملها و ظاهرها عن تشكل الكون و النظام و كيفية خلق هذا الكون من قبل الآلهة و تعبر بذلك عن تطور الكون نفسه الذي ترافق بتطور الآ لهة و تعددها . و هنا تبدو لنا الملاحظة التالية و هي : أن تطور الكون قد ارتبط و انبثق من تطور الآلهة (حسب الإينوما إيلش) أي أن الكون لم يتحرك إلا بتحرك الآلهة و تعددها ، و لم يتحدد شكله النهائي إلا بتحدد الالهة و حسمها للأوضاع فيما بينها ، و هذا ما سنراه في الأسطورة حيث تميز التطور في الكون و الآلهة بمبدأ الانتقال من السكون إلى الحركة و الذي تمثل كل منهما بآلهة خاصة به و هذا الانتقال تجلى بالصراع بين هذه الآلهة التي خرج المنتصر منها ليغير من نظام الكون على طريقته .

و الإينوما إيليش يستشف منها أيضاً فضلاً عن النظام الكوني و الإلهي ، يستشف منها العلاقات و التطورات البشرية التي حدثت على الأرض و لو بشكل غير مباشر ، فيمكن أن يكون ما حدث بين البشر على الأرض قد تم إسقاطه على الآلهة في الكون أو هو نتيجة بعض مظاهر الأمر الاجتماعي أو السياسي البشري . و بكلتا الحالتين تبرز لنا الإينوما إيليش مظاهر الحكمة الإلهية [١] و من بعدها مظاهر الحكمة البشرية التي اعتمدت على هذه الأسطورة و التي قد تكون نتجت في بعض مراحلها منها . و لنبدأ الآن بسرد أهم فقرات الإينوما إيليش مع تحليل كل فقرة :

[عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء لم يكن من الآلهة سوى آبسو أبوهم و ممو و تعامة التي حملت بهم جميعاً ، فخلقت الآلهة الثلاث لخمو و لخامو الذين جاؤوا بالآلهة إنشار و كيشار الذي أنجبا آنو وريثهما ، و آنو أنجب ابنه نوديمود أو أيا] يعطينا هذا المقطع من

---

[٢] المصدر السابق ص/١٠٥/ .

[١] أي الحكمة الإلهية الخاصة بالأسطورة حصراً و ليس على وجه العموم .

الأسطورة صورة عدم تشكل الكون و تحديده بشكل ه المعلوم و وجود آلهة ما قبل الكون و هي الآلهة الأولى آبسو و تعامة و ممو و هذه الآلهة كانت حسب الأسطورة ، تسمى بآلهة السكون و العماء (عدم الوجود أو اللاشيء) . ثم خلقت الآلهة تعامة آلهة أخرى هي لخمو و لخامو اللذان بدورهما جاءا بالآلهة أنشار و كيشار الذي بدوره أنجب الإله أيا . و هذه الآلهة الأخيرة كانت توصف بالحركة الدائبة و الطاقة ، على عكس الآلهة الأولى التي خلقتها و هي آبسو و تعامة ، مما سبب الإزعاج للآلهة الكبار أو ألأعلى **[أزعجوا بحركتهم تعامة ، نعم لقد هزوا جوف تعامة ، يروحون جيئة و ذهاباً في مسكنهم المقدس]** التضارب في الصفات بين الآلهة الأولى و الآلهة التي جاءت في المراتب التالية و ظهور المشاكل نتيجة هذا التضارب و التعارض في الصفات و عدم التوافق و نلاحظ هنا أن هذا الأمر ظهر نتيجة التطور عند الآلهة و هو من صنع الآلهة الأولى أي أن الحركة قد ظهرت من السا لب . و نلاحظ أن الحركة لم تظهر مباشرة عند ولادة أو خلق الجيل الثاني من الآلهة ، بل في الجيل الثالث و الرابع مما يقودنا إلى الاستنتاج بأن ظهور مبدأ الحركة من مبدأ السكون (طبعاً ضمن مجال الأسطورة) لم يكن بشكل مباشر ، بل كان نتيجة لوسيط و سبقته مرحلة تهيئة . و نلاحظ أن التطور هذا لم يكن بيد الآلهة الأولى أو لم يكن لها علم بأنه سيحدث أو لم تكن تعرف أنه سيسبب لها الإزعاج و المشاكل ، و إلا لما كانت قد قامت بخلق الآلهة الأخرى (منطقياً) أو على الأقل تداركت الموضوع و تحكمت به . و هنا يبرز التساؤل و الاستفهام حول مدى حكمة الآلهة الأولى في ألإينوما إيليش . الأمر الثاني الذي يبرز في نص الآسطورة هو أن الآلهة الأولى برغم كونها هي الخالقة للآلهة اللاحقة ، فإنها عجزت عن التحكم بها **[لم يقدر آبسو على إسكات صخبهم ، و تعامة كانت ساكتة حيال أفعالهم رغم ألمها من سلوكهم و رغم رفضها لطريقتهم]** ليس ذلك فقط ، بل نرى بعد ذلك أن هنالك خلافاً نشب بين الآلهة الأولى حول كيفية الرد و التصرف مع الآلهة الجديدة صاحبة الطاقة و الحركة . و عندما طلب الإله آبسو من الآلهة تعامة التدخل ، رفضت ذلك **[فلما سمعت تعامة ذلك منه ، ثار غضبها و صاحت بزوجها]** و الخلاف هنا يستدل منه وجود آراء مختلفة أي وجود أكثر من حكمة إلهية ، و في الوقت نفسه متعارضة مع بعضها ، حكمة آلهة ترى أنه يجب إيقاف آلهة الطاقة و الحركة . و حكمة إلهية أخرى ترى وجوب التروي و التريث أو ربما عدم الممانعة ، و هذا يدل على أنه ربما كان هناك رغبة عامة في التحول من الجمود و السكون إلى الطاقة و الحركة . و مع هذا يقرر الإله آبسو التصرف منفرداً و يجمع عدداً من مؤيديه من آلهة السكون لمحاربة آلهة الحركة الجديدة . و لكن الآلهة الجديدة و بطريقة ما ، علمت بما يدبره فريق الآلهة القديمة **[غير أن ذا الفهم العميق و صاحب الفطنة و الحكمة ، أيا العليم بكل شيء قد نفذ ببصيرته إلى خطط المتآمرين]** هنا تبدأ الإينوما إيليش بالتحدث عن مفهوم الحكمة بشكل واضح

و محدد . و هذه الحكمة نرى أنها ظهرت لدى الآلهة من الطرف الآخر أي آلهة الحركة . و هو أول مفهوم يظهر للحكمة الإلهية و قد ظهر للتعامل مع الآلهة الأولى و استخدامه ضدها . و بحسب الأسطورة فإن الحكمة الإلهية أول ما ظهرت كانت موجهة ضد نفسها أو بني جنسها . و كان استخدامها أشبه بعملية تصحيح الأوضاع أو إعادة خلط الأوراق . و بمعنى آخر فإن ظهور الحكمة الإلهية ، كانت الغاية منه إعادة ترتيب الكون أو بشكل أدق خلق الكون ، حيث نرى بعد ذلك أن الإله أيا و بعد أن اكتشف بحكمته و بصيرته ، ما تخطط له الآلهة الأولى و بالذات الإله آبسو ، قام باستخدام حكمته أيضاً ، فقام بتنويم آبسو ثم نزع كل عناصر قوته ، ثم قام بذبحه و سجن أتباعه و مؤيديه من الآلهة و أصبح هو المسيطر على مقاليد الأمور . و يلاحظ هنا أنه لم يتم التعرض للآلهة تعامة زوجة آبسو ، فهل ساعدت الفريق الآخر و تساهلت معهم ؟؟؟ .

بعد ذلك أنجب الإله أيا و زوجته الآلهة دومينا ، الإله مردوخ و هو الإله الذي سيكون (حسب الأسطورة) محور الكون كله و سيده و الذي ستتمحور حوله كل الأحداث فيما بعد و كل الصفات العلية و منها صفة الحكمة **[و في غرفة الأقدار تلك ، غرفة المصائر .. أحكم الحكماء .. أحكم الآلهة ، في آبسو المقدس ، مردوخ قد ولد ، أيا كان له أباً و دومينا التي حملت به أماً ... رفع شأنه بين الآلهة و زاد من قدره عليهم ، فكان أرفعهم مقاماً و أسبقهم في كل شيء ... لا تدركه الأفهام و لا يحيط به خيال ..... كان الأعلى بين الآلهة ما لهيئته نظير]** . يصور المشهد لنا كيفية و طريقة ظهور الإله مردوخ و كيف تمت عملية تهيئة ظهوره . التعبير هنا يظهر لنا أن شيئاً ما تم عمله لظهور الإله مردوخ .. تهيئة المكان و الزمان . و يبدو و كأن الإله مردوخ قد وجد ليقوم بدور ما .

لقد بدأ مفهوم الحكمة الإلهية يتبلور أكثر فأكثر . و نقف هنا أمام تعبير و وصف الأسطورة للإله مردوخ بعبارة " لا تدركه الأفهام و لا يحيط به خيال " التي تبين لنا المستوى الراقي و المتطور الذي وصل إليه الإنسان في بلاد الرافدين في تلك الفترة . هذه العبارة تقودنا حتماً إلى أن من كتب أو وضع أسطورة الإينوما إيليش ، هو إنسان ، لأن المقصود من هذه العبارة هو الإنسان ، حيث أن الآلهة التي جاءت بالإله مردوخ ، تعرفه و تحيط به من حيث الإدراك و الشعور . و هي (أي العبارة) تعد قفزة زمنية واسعة عن العبارة التي سبقتها و التي تتحدث عن بدء ظهور الآلهة . و هي ركيكة نوعاً ما من حيث التسلسل الزمني ، حيث ينتقل بنا نص الأسطورة فجأة من ولادة أو ظهور الإله مردوخ الموغل في القدم إلى كونه غير معروف بالنسبة للإنسان و لا يحيط به خبال إنسان . الأمر الثاني الذي يستوقفنا هنا هو كلمتي (الإفهام و الخيال) اللتين تدخلان فوراً إلى مجال الحكمة البشرية في بحثها الدائم عن معرفة الآلهة ، و تعطينا صورة واضحة و دقيقة عن

عملية البحث البشري في نظام الكو ن و الآلهة . و هنا يتبدى لنا قوة و عبقرية واضع الإينوما إيليش . لنلاحظ كيف بدء أولاً بعبارة (لا تدركه الإفهام) ثم تلاها بعبارة (و لا يحيط به خيال) حيث ربط عملية الفهم بالإدراك ، و عملية الخيال بالإحاطة بشكل منهجي سليم و دقيق [1] . فإنسان تلك الفترة بدأ أولاً بعملية المحاكاة العقلية و المنطقية لتفسير ظواهر الكون و نشوئه و مفهوم الآلهة و إيجاد المبررات المقبولة عقلياً و فكرياً له . و عندما عجز عن ذلك لجأ إلى الأسلوب الثاني في التفكير و هو أسلوب الخيال . و الخيال هنا لا يقصد به الشطط أو الوهم أبداً . بل هو برأينا عبارة عن نوع من أنواع التفكير البديل للتفكير المنطقي و الاستدلالي لإنسان تلك الفترة . إنه يمثل رقي الحكمة البشرية و استماتتها للوصول إلى شيء ما . و أقصى جهد للعقل و التفكير الإنساني لتفسير ظواهر الكون و مفهوم الألهة ، و وضع افتراضات و استنتاجات ليس لها براهين ثابتة و لكن في الوقت نفسه يمكن القبول بها كمسلمات (و لكن ليست بديهية) . و الإينوما إيليش هنا تبين لنا أن الحكمة الإلهية استطاعت الوصول إلى مبتغاها عندما علم الإله أيا ببصيرته ما يخطط له الإله آبسو ، و هذا ما سنراه عند الإله مردوخ ، بينما عجزت الحكمة البشرية عن الوصول إلى مبتغاها في كشف و معرفة الأسرار الإلهية . و هذه إشارة من الإينوما إيليش إلى عجز الحكمة البشرية أمام الحكمة الإلهية .

نعود إلى الأسطورة لنرى أن الخلاف و الصراع يبدأ مرة أخرى ، و لكن هذه المرة بين الإله مردوخ و الآلهة تعامة التي كانت صامتة و راضية من قبل ، فأصبحت الآن ساخطة **[مردوخ الذي أحدث الأمواج فاضطربت لها تعامة .. قلقة صارت تحوم على غير هدى]** يبدو هنا و من سياق النص أن سخط تعامة كان بسبب الحركة التي سببها مردوخ . و لكن ربما يكون هناك سبب آخر و هو إعلاء شأن مردوخ من قبل كل الآلهة مما جعل تعامة تشعر بالخطر الداهم على نفسها و مركزها ، و هذا ما لم تذكره الأسطورة . و ربما يكون هناك سبب آخر و هو أن الإله مردوخ الذي يتصف بالحكمة و القوة و كل الصفات الأخرى ، قد عمد إلى استفزاز تعامة أو كلف بهذه المهمة من قبل بعض الآلهة الكبار ، و هذا ما يبدو من سياق نص الأسطورة و بين جنباتها ، و لو أنها لم تذكره بشكل مباشر حين قام مردوخ بإحداث حركة الامواج . و هنا يلاحظ أتباع آبسو المقتول ، هذا الخلاف و التوتر و اضطراب الأمور بين الإله مردوخ و الآلهة تعامة ، فيبادروا فوراً إلى استغلال الفرصة و تحريض تعامة على قتال مردوخ و الآلهة الأخرى التي هزمتهم ، في محاولة منهم لاستعادة زمام المبادرة من جديد . من خلال جولة ثانية حاسمة كان لا بد منها و كان الجميع يعرف أنها آتية لا ريب و إن كل ما سبق ، كان عبارة عن هدنة مؤقتة **[جاؤوا إلى**

[1] على اعتبار أن ترجمة الأسطورة سليمة و حرفية تماماً .

أمهم تعامة قائلين .... دعونا نعلن الحرب على الآلهة (الشابة) .... ثم احتشد الجمع و ساروا إلى جانبها ...غاضبين يحيكون الخطط ليل نهار ... يتهيؤون للحرب في هياج و ثوران] بعد ذلك بدأت تعامة و فريقها يجهزون العدة لمعركة فاصلة ضد الفريق الآخر الذي بدوره علم بما يقوم به فريق آلهة السكون . و بعد مشاورات و نقاشات ، تقرر تكليف الإله مردوخ بالتصدي للآلهة تعامة و فريقها بوصفه هو الوحيد المؤهل للقيام بهذه المهمة و يلاحظ هنا أن الآلهة الشابة كانت منذ ظهورها مسببة للأحداث و صاحبة المبادرات و القرارات من الطرفين .

قلنا إن آلهة قررت تكليف الإله مردوخ بمهمة محاربة الآلهة تعامة و التصدي لها . فيقبل الإله مردوخ ذلك ، ولكنه يشترط اعتراف الآلهة به كسيد لها و يطالب بتسليمه مقاليد الأمور فيقول مخاطباً الإله الكبير **[يا سيد الآلهة و سيد مصائرهم ... إذا كان لي أن أنتقم لكم حقاً فأقهر تعامة و أحفظ حياتكم – فإني أطلب اجتماعاً يعلن فيه اقتداري – و عندما تلتقون جذلين في قاعة الاجتماع ، اجعلوا لكلمتي قوة تقرير المصائر بدلاً عنك – و ليبق ما أخلق قائماً لا يزول ، و ما أنطق به من أوامر ماضياً لا يحول]** من الواضح هنا قوة و اقتدار الإله مردوخ و حكمته ، و هو ليس بحاجة لتسليمه قوى إضافية ، و لكنه يطلب ذلك لكي يجعل الأمر قانونياً و شرعياً . لقد تبلور أكثر ، مفهوم التخطيط لإنشاء و خلق الكون . و الحكمة الإلهية هنا واضحة للعيان تماماً و إن لم تذكرها الإينوما إيليش واضحة كمفهوم مجرد من خلال رد الإله مردوخ على تكليف الآلهة له لقتال الآلهة تعامة . و من حيث الغاية و الهدف أو البرنامج الذي وضعته هذه الحكمة الإلهية للتنفيذ بعد الانتهاء من قتال تعامة ، و ذلك من خلال طلب الإله مردوخ طلبات خاصة (و ليبق ما أخلق قائماً لا يزول و ما أنطق به من أوامر ماضياً لا يحول) و يبدو أنه كان يعرف مسبقاً نتيجة صراعه مع تعامة . إذاً فهناك برنامج عمل يهيأ له ، و سنعرف فيما بعد أنه خلق الكون و تكوينه و تشكيله مع جميع لوازمه و توابعه و مستلزماته بما فيها الإنسان . إذا من الواضح هنا بروز حكمة الإله مردوخ و معرفته بمجريات الأمور ، و ربما يكون هو نفسه أ و أحد ما (الإله أيا أو غيره) قد هيأ له ذلك بشكل غير مباشر ليتسلم مقادير السلطة و القوى . و لعل هذا ما نستشفه من سياق نص الأسطورة ، حيث إن هناك بعض الآلهة من فريق آلهة الحركة لم تنظر بعين الاستحسان لطلب الإله مردوخ هذا ، و تعبر عن ضيقها و تبرمها و شكها **[فلما سمع لخمو و لخاموا ذلمك صرخا بصوت عال – و كل الإيجيجي بكوا بحرقة – مالذي ألجأها إلى مثل هذا القرار إن سلوكها مستعص على إفهامنا]** بعد ذلك تنشب المعركة بين تعامة و مردوخ و تنتهي بمقتل تعامة و استلام مردوخ لمقاليد السلطة و القدرة و البدء في عملية خلق الكون و ترتيبه و تنظيمه و خلق الكواكب و الكائنات و المخلوقات و البدء بنظام جديد .

يبدو جلياً أن الإله مردوخ كان يخطط مسبقاً لكل الأمور ، و أنه كان صاحب فكرة و مشروع . لقد برزت لنا الحكمة الإلهية بشكل واضح في الأسطورة و لو من خلف الكواليس و ما بين السطور و الكلمات . فكل شيء كان مرتباً بدقة و مردوخ الحكيم يبدو أنه كان يعرف أن مشروعه هذا سيصطدم بعراقيل كثيرة ، أهمها الآلهة تعامة . و ربما أيضاً من فريقه هو ، فريق الآلهة الجديدة . و لذلك استفز تعامة و استدرجها إلى معركة خاسرة بالنسبة لها ، و في الوقت نفسه استخدمها أداة للضغط على الآلهة لتسليمه مقاليد القوى و السلطة و القرار ، أي أنه عملياً قام بانقلابين .. انقلاب دموي مباشر على تعامة ، و انقلاب سلمي ودي و رضائي غير مباشر على الآلهة الأخرى . و قد بلغ من حكمته أنه قام بعد انتصاره بتقديم الأعطيات و السكن للآلهة التي سلمته السلطة **[ثم أعطى لآنو و أنليل و أيا مسكنهم – خلق محطات لكبار الآلهة يستريحون بها – أوجد لكل مثيله من النجوم]** .

إن قراءة تحليلية للإينوما إيليش ، تعطينا فكرة واضحة عن تشكل الحكمة الإلهية و الحكمة البشرية السياسية ، فهي تظهر من خلال شرحها ، عملية بدء الخليقة و كيفية تشكل النظام الكوني و المعارك الإلهية التي حصلت لأجل ذلك . تظهر الأمر الديني و الإلهي لتنتقل بعد ذلك إلى الأمر السياسي في بلاد ما بين النهرين على خلفية المفهوم الاجتماعي و تطور هذين المفهومين ليؤديا بالنتيجة إلى تبلور نظام الدولة و مفهومها في بلاد الرافدين . و نستطيع أيضاً من قراءة الإينوما إيليش أن نستدل على شيء من نفسية واضع هذه الأسطورة الرائعة و شخصيته و غايته . و كما كانت حكمة الإله مردوخ في الأسطورة تعبر عن بعد النظر و عن التطلع إلى ما بعد الآلهة تعامة أو آلهة السكون ، كذلك كانت الحكمة البشرية تتطلع إلى ما بعد المنظور من الأفق و في السماء و تقوم بإسقاطه على واقع الحياة اليومي في بعديه الاجتماعي المتقدم و السياسي الوليد و الناشئ أو تقوم بإسقاط هذا الواقع المادي على الواقع الروحي الميتافيزيقي و محاولة إيجاد علاقة ما بينهما و رابط يؤسس لبنيان و كيان مادي ملموس . و نستطيع إدراك البعد الآخر أو المكمل لنظرة الإنسان لهذا الكون من خلال عملية خلق الإنسان نفسه في الإينوما إيليش . حيث إنه و بعدما انتهى الإله مردوخ من انتصاره في حربه مع الآلهة تعامة و قام بعملية تنظيم و خلق الكون ، بدأ يفكر في خلق الإ نسان **[فلما انتهى مردوخ من سماع حديث الآلهة / حفزه قلبه لخلق مبدع / فأسر لأيا بما يعمل في نفسه / و أطلعه على ما عقد عليه العزم / سأخلق دماء و عظاماً / منها سأشكل لالو و سيكون اسمه الإنسان / نعم سوف أخلق لالو الإنسان / و سنفرض عليه خدمة الآلهة و يخلدون للراحة]** .

إن واضع الإينوما إيليش يريد أن يصل بنا (أو بالبشر المعاصرين له) إلى نتيجة منطقية مقبولة و معتمدة للفكر البشري ، و هي أن غاية الآلهة في النهاية هو خلق الإنسان . و هنا تظهر لنا عملية ربط محكمة و متينة بين الإنسان و الآلهة ، و بمعنى أدق و أوضح عملية تجميع و ضبط و تنظيم للفكر و الخيال الإنساني المشتت الضائع في متاهات هذا الكون الواسع الغامض ، بالبحث عن تفسير منطقي سليم لوجوده على هذه الأرض و علاقته مع الآلهة . إن واضع الإينوما إيليش أدرك أنه إذا لم يكن للإنسان وجود و غاية في أسطورته تلك ، فإنه من الصعب التحكم به و السيطرة عليه و على تفكيره و خياله . و هنا تتجلى الحكمة الإلهية و الحكمة البشرية في آن معاً للسيطرة على الإنسان و وضع حد لخياله و تفكيره أو بمعنى آخر إراحة تفكيره و عقله من البحث في الحقيقة و وضعها أمامه جاهزة ، منتهية و مقدمة في طبق أو قالب منطقي مقبول .

لقد التقت الحكمة الإلهية و الحكمة البشرية في هذا المضمار لوضع حد للإنفلاش في تفكير الإنسان و تحركاته و تصرفاته في الأرض ، لأن الإنسان إذا لم يجد لنفسه مكاناً في النصوص الدينية أو الأساطير ، فإنه سيظل يبحث و يبحث و يفكر ، و سيؤدي هذا الأمر إلى رجحان مفهوم التفكير الميتافيزقي على مفهوم العمل و التفكير التقني لدى الإنسان القديم الذي عليه أن يسابق الزمن ليؤسس حضارة بشرية راقية و يصل إلى تقدم تقني سريع .

إذن فقد اقتضت حكمة واضع الإينوما أيليش ، وضع حد للتفكير الديني و حصره ضمن مجال محدد ، من خلال إيجاد مخرج و تفسير مقبول و مقنع للإنسان و في الوقت نفسه فتح المجال أمام عقله و تفكيره في الحياة المادية الأرضية و هذا ما نلاخظه في الفقرات التالية في الأسطورة **[نعم سوف أخلق لاو الإنسان / و سنفرض عليه خدمة الآلهة فيخلدون للراحة] – [و ليبسط رعايته للبشر أجمعين / فيلهج باسمه لسانهم و يذكرون نعمته عليهم أبداً / و يقدمون القرابين لآبائه / فيقيمون أودهم و يرعون هياكلهم / و يصنعون لهم محرقات القرابين يتنسمون رائحتها / و كما فعل في السماء لتكن كذلك مشيئته على الأرض / فيعّلم البشر كيف يخشونه / و يكون حاضراً في قلوبهم أبداً / و يحفظون أبداً حدود إلههم و آلهتهم / ثم فلينتشروا في الأرض و يزينوها بيوتاً لهم]** .

لقد حددت الأسطورة للإنسان ، مجال عمله تجاه الآلهة و أوصلته إلى نهاية طريق التفكير الروحي بحل نهائي و حصري لمعضلة خلق الكون و معضلة وجوده فيه . و لعلنا نلاحظ ذلك أيضاً في الكتب السماوية ، ففي القرآن الكريم وردت الآية **و ما خلقت الإنس و الجن إلا ليعبدون** (الذاريات – ٥٦) و في العهد القديم نجد **[لأنه في جبل قدسي في جبل إسرائيل العالي يقول السيد الرب هناك يعبدني كل بيت إسرائيل كلهم في الأرض]** (حزقيال ٤٠ : ٢٠)

[و المملكة و السلطان و عظمة المملكة تحت كل السماء تعطي لشعب قديسي العلي ملكوته أبدي و جميع السلاطين إياه يعبدون و يطيعون] (دانيال ٢٧ : ٧) **[لأني حينئذ أحول الشعب إلى شفة نقية ليدعوا كلهم باسم الرب ليعبدوه بكتف واحدة]** (زكريا ٩ : ٣) **[أنا خلقت الأرض و خلقت الإنسان عليها يداي أنا نشرت السماوات و كل جندها أنا أمرت]** (إشعيا ١٢ : ٤٥) .

و في العهد الجديد نجد أيضاً ما يدل على ذلك **[فأجابه يسوع و قال اذهب يا شيطان إنه مكتوب للرب إلهك تسجد و إياه وحده تعبد]** (إنجيل لوقا ٨ : ٤) **[كن حينئذ إن كنتم لا تعر فون الله استعبدتم للذين ليسوا بالطبيعة آلهة]** (الرسالة إلى أهل غلاطية ٨ : ٤) . لقد حددت الآلهة في الأسطورة للإنسان مفهومها و ماهيتها و أتبعته على الفور بالدور الذي يجب عليه القيام به تجاهها هي فقط . فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون الغاية من خلق الإنسان هي العبادة و خدمة الآلهة و هي في بلاد ما بين النهرين حددت دور الإنسان في خدمتها أكثر من عبادتها . أو بشكل آخر جعلت عبادة الإنسان لها عن طريق خدمته لها و هذه الخدمة تجلت في إعمار المساكن و الأبنية و زراعة الحقول و إعمار الأرض . و هذا الأمر يلتقي تماماً مع مفهوم الحضارات البشرية و الإنسانية و يلتقي مع مفهوم التنظيم الإداري و الاجتماعي للإنسان و يهيئ لنشوء مفهوم المأسسة في الحياة الإنسانية البشرية . فإذا كان مفهوم العلاقة الإلهية البشرية في الديانات السماوية قد اعتمد على مبدأ الميثاق و العهد ، فهل نستطيع القول إن مفهوم العلاقة الإلهية البشرية في بلاد ما بين النهرين قد اعتمد على مبدأ المشاركة و المحاصصة في الأرض ؟؟؟ و هل قام مفهوم العهد و الميثاق الإلهي البشري في بلاد ما بين النهرين على مبدأ المشاركة ؟؟ إذا أخذنا الأمر من منظور الحكمة الإلهية ، فلسوف نجد أنها ارتأت أولاً عملية خلق كائن لخدمتها و هو الإنسان ، ثم اقتضت أن يكون مكانه على الأرض ، ثم ارتأت أنه يجب أن يكون له نصيب من الميزات التي يقدمها للآلهة كي يستطيع القيام بعمله خير قيام ، تماماً كمبدأ المحاصصة . و في سياق التحليل المنطقي و المحاكاة العقلية للإينوما إيليش ، فإننا كبشر قد نتفهم وجهة نظر الآلهة بخلق الإنسان و ذلك لكي يقوم بخدمتها ، و نتفهم إشراكه في خيرات الأرض التي ينتجها و يقدمها للآلهة و ذلك لكي يستطيع القيام بواجبه . و لكن لم نتفهم لماذا يجب عليه أن يكون في الأرض و ما هو سبب خلقه فيها و لماذا لم يكن في مكان آخر كالسماء مثلاً ؟؟ .

لقد قدمت لنا تلك الأسطورة مبررات خلق الإنسان و تمتعه بالخيرات إلى جانب الآلهة ، و لكنها لم تقدم لنا مبرر وجوده على الأرض ، أما مبدأ التنظيم الاجتماعي و الحياتي اليومي ، فلم تتطرق إليه الأسطورة مباشرة . و إذا أخذنا الأمر من منظور الحكمة البشرية ، فلسوف نجد أنه ارتأت

أن يتم إيجاد حل لمشكلة خلق الإنسانه الفكرية و هو خلق هذه الآلهة لـه و إيجاد المبررات لهذا الخلق و هو خدمة هذه الآلهة ، ثم ارتأت هذه الحكمة مشاركة الإنسان للخيرات التي يقدمها للآلهة و تقديم المبرر لذلك و هو مكافأة للإنسان و ليستطيع القيام بهذه الخدمة . و لكنها أيضاً لم تذكر مبرر وجود الإنسان على الأرض ، بل سلمت به تماماً من منطلق أن الآلهة هي التي أوجدته . لقد تطابقت الحكمتان الإلهية و البشرية حول مفهوم خلق الإنسان و مفهوم خدمة الآلهة من مبدأ التوصل إلى رؤية متجانسة للأمور ، بينما اختلفتا في علة وجوده على الأرض ، فبينما اقتضت الحكمة الإلهية ذلك دون تقديم مبررات ، سلمت الحكمة البشرية بذلك أيضاً و دون تقديم المبررات . و إننا لنلحظ ذلك (فقط جعل الإنسان في الأرض) أيضاً في الأديان السماوية ففي القرآن الكريم ورد **(و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً)** (الأعراف – ٧٤) . **(و هو الذي جعلكم خلائف في الأرض و رفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم ...)** (الأنعام – ١٦٥) . **(ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون)** (يونس – ١٤) . **(و هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ...)** (فاطر – ٣٩) . و في التوراة جاء **[و قال الله نعمل إنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر و على طير السماء و على البهائم و على كل الأرض و على جميع الدبابات التي تدب على الأرض]** (سفر التكوين ٢٦ : ١) **[و باركهم الله و قال لهم أثمروا و أكثروا و املأوا الأرض و اخضعوها و تسلطوا على سمك البحرو على طير السماء و على كل حيوان يدب على الأرض]** (سفر التكون ٢٨ : ١) و كذلك جاء في الإنجيل **[و لكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض]** (متى ٦ : ٩) **[و صنع من دم واحد كأمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض و حتم بالأوقات المضيئة و بحدود مسكنهم]** (أعمال الرسل ٢٦ : ١٧) . **[لأنه يقول الكتاب لفرعون إني لهذا بعينه أقمتك لكي أظهر فيك قوتي و لكي ينادى باسمي في كل الأرض]** (الرسالة إل أهل رومية١٧ : ٩) .

لقد عكست الأساطير الدينية في بلاد ما بين النهرين و منها أسطورة الإينوما إيليش ، وجهة النظر الإنسانية و الاجتماعية و عكست شكل الحياة الاجتماعية البشرية و تطورها نحو المجتمعات السياسية التي توجت بنشوء الممالك و الدول و كل ذلك كان مرتبطاً بالدرجة الأولى بالدين . و قد نتج عن ذلك ظهور مبدأ الطبقات أو الفئات ضمن الشريحة الاجتماعية أو المجموعة البشرية في الإقليم أو المدينة ، و ظهر ما يسمى بالفئة المسيطرة و الموجهة و الفئة الخاصة و المسيرة .

و مبدأ الحكمة في الأساطير ، يظهر لنا في الأمر التالي و هو أن الإنسان عندما يصل إلى قناعة معينة بشأن خلق الكون و وجوده هو فيه ، سواء أكانت هذه القناعة إلهية أتت إليه من الله أم

بشرية أتت إليه من بني جنسه ، فإنه منطقياً سيسلم بها و يحاكي نفسه بها . و كذلك فإنه كان من السهل إقتناع الإنسان القديم بفكرة وجود الطبقات الحاكمة في المجتمع و خضوعه لها ، طالما أنه اقتنع بفكرة صراع الآلهة و فرزها إلى آلهة سيدة و حاكمة و آلهة تابعة لها . و هذا الشيء لم يكن من الممكن تنفيذه لولا الاعتماد على مبدأ تعدد الآلهة . هذه المقولة تقودنا إلى سوآل مهم جداً و هو : من أين نشأت فكرة تعدد الآلهة عند الإنسان القديم ؟؟ من فكرة أن لكل ظاهرة طبيعية إلهاً خاصاً كما يعتقد و يزعم بعض المؤرخين أم من فكرة عبقرية فردية للسيطرة على المجتمع البشري الوليد و الذي يهدد تطوره و تكاثر أفراده بانفلاش لا تحمد عقباه ؟؟ .

إن فكرة و مقولة أن الإنسان القديم لم يتوصل إلى فكرة الإله الواحد لأنه كان يرى ظواهر طبيعية مختلفة يعزوها إلى آلهة متعددة [1] فيه ظلم و إجحاف بحق عقل و تفكير إنسان تلك الفترة . فما الذي يمنع الإنسان في ذلك العصر من التوصل إلى فكرة الإله الواحد ، طالما أنه اهتدى و توصل إلى فكرة تعدد الآلهة ؟؟

إن عوامل و مقومات فكرة الإله الواحد موجودة أيضاً أمام ناظري ذلك الإنسان إلى جانب عوامل و مقومات تعدد الآلهة . لقد كانت عوامل و مقومات الفكرتين أو المقولتين موجودة أمام ناظري الإنسان القديم . و فكرة أن هناك أسباباً معينة رجحت فكرة الآلهة المتعددة على فكرة الإله الواحد و أشهرتها عممتها . و ربما أيضاً أن مفهوم فكرة الإله الواحد و بالرغم من وجود عواملها و مقوماتها أمام الإنسان القديم فإنه لم يصل بعد إلى مرحلة يستطيع فيها هضمها و تقبلها في جو من تشكل مفهوم مجتمعي وليد . إن العامل أو المبدأ المشترك بين الحكمتين الإلهية و البشرية في بلاد الرافدين ، هو إسقاط التصرفات البشرية على التصرفات الإلهية و هو الأمر الذي لاقى قبولاً من الطرفين **[و كما فعل في السماء لتكن كذلك مشيئته في الأرض / فيعلم البشر كيف يخشونه]** و حسب نص الأسطورة نستدل أن الآلهة شاءت أن تكون تصرفات الإنسان مشابهة لتصرفات الآلهة و موافقة لمشيئتها ، و هذا الأمر إن دل على شيء فإنه حتماً يدل على فكرة وجود النظام المجتمعي لدى الآلهة أيضاً ، و على أن الأمر الاجتماعي كان نقطة التقاء للحكمتين الإلهية و البشرية و موضع إناخة لبداية تطبيق و تأسيس الحضارة البشرية ، حيث نرى في التاريخ القديم عامة و في دراسات علم الأنتروبولوجيا أن الطوطم [1] كان رابطاً اجتماعياً قوياً و قد كانت

---

[1] هناك مقولات عدة لتفسير تعدد الآلهة عند الإنسان القديم أقواها هذه الفكرة .

[1] تطلق كلمة الطوطم و الأصح توتم على كل أصل حيواني أو نباتي تتخذه عشيرة ما رمزاً لها و لقباً لجميع أفرادها . و أول كتاب ظهرت فيه هذه الكلمة هو كتاب إنكليزي ألفه جون لنج و طبع سنة ١٧٩١ .

القبيلة في الماضي أو المدينة " تعتقد أنها تؤلف مع الطوطم وحدة اجتماعية و تنزله و تنزل الأمور التي ترمز إليه ، منزلة التقديس " [٢] .

و قد ذهب العلامة دوركهايم إلى أن " قسطاً كبيراً من الفضل في نشأة فكرة الجنس و النوع في العالم الإنساني يرجع إلى هذا التقسيم الطوطمي . فهذا التقسيم الاجتماعي هو الذي أوحى إلى العقل الإنساني بأن العالم يشتمل على أجناس و أنواع ينفصل كل منها عما عداه و يندرج تحت كل منها أمور متحدة بالطبيعة " . و يرى دوركهايم أنه " لولا هذا التقسيم النوعي الذي يمثل في نظره أقدم تقسيم اجتماعي ، ما كان يمكن أن يصل العقل الإنساني وحده إلى فكرة الجنس و النوع ، إذ ليس في طبيعة الأشياء الخارجية ما يمكن أن يوحي إلى الإنسان بهذه الفكرة . فالجنس و النوع كلاهما تصوران فكريان خالصان لا وجود لواحد منهما في الخارج و إنما الموجود في الخارج هم الأفرد الذين يدخلون تحت كل منهما " .

إن هذه الفكرة و المقولة تنحو بنا مباشرة إلى زاوية عكسية مغايرة للنص السابق في أسطورة الإينوما إيليش ، و هي أن إسقاط تصرفات الإنسان و أفعاله على عالم الآلهة ، كانت رغبة إنسانية صرفة اقتضتها الحكمة البشرية . و لعل فكرة صراع الآلهة قد نتجت عن صراع البشر أو القبائل الذي يحمل كل منهم طوطماً خاصاً به . و كذلك فكرة تعدد الآلهة ، ناتج من الشيء نفسه حيث إن الفرد الذي يصل إلى سدة الرئاسة في الـ عشيرة أو الجماعة ، يفرض بلا شك طوطمه على بقية الطواطم الأخرى ، و هو ما نجد شبيهاً له في صراع الآلهة المذكور في الأساطير الدينية القديمة . و من هذا المنطلق أدركت الحكمة البشرية أن الخوف من الآلهة و الخوف من المجهول و الخوف من مظاهر الطبيعة المدمرة (خاصة في بلاد ما بين النهرين) كالفيضانات و السيول ... الخ ، يمكن أن يكون لها الأثر الكبير في تنظيم و ترتيب الوضع الاجتماعي و إيجاد قواعد و أسس و ضوابط اجتماعية منهجية ، تمهيداً لإنشاء كيانات سياسية و إدارية تجلت فيما بعد بالممالك و الامبرطوريات القديمة .

لقد أدركت الحكمة البشرية القديمة أن الإنسان لن ينصاع إلا لما يخاف منه و يخشى ضرره و بأسه . و إذا افترضنا أن الكيان السياسي ذا القوانين الرادعة و الضابطة لحركات و أفعال البشر لم يتبلور بعد ، فإن خير ما يمكن الاعتماد عليه هو الطوطم أو المقدس صاحب الرهبة و الخوف في نفوس البشر و صاحب الاحترام و التبجيل في قلوبهم . و يرى دوركهايم " أن الكائنات التي يتجه إليها التقديس سواء في التوتم نفسه أو الرسوم التي تدل عليه ، تجمع بينها صفة مشتركة و هي أنها مظاهر للعشيرة نفسها و رموز تشير إليها . فالتوتم هو لقب العشيرة و طبيعته من

---

[٢] الطوطمية أشهر الديانات البدائية ص/١٧/ .

طبيعتها ، و الرسوم الخاصة بها ترمى إليها . فالتقديس لا يتجه إذاً إلى هذه الأشياء إلا لأنها رمز للعشيرة و بعبارة أخرى ، إن تقديس هذه الأشياء هو في حقيقة الأمر تقديس للعشيرة ، فالطواطم و رسومها هي بمنزلة الأعلام التي تتخذها أممنا الحديثة رمزاً لها . فكما أن تقديسنا و تعظيمنا لعلم بلادنا هو في حقيقة الأمر تقديس و تعظيم لما يرمز إليه هذا العلم ، كذلك كان شأن البدائيين حيال طواطمهم . فالإله الذي يتجه إليه التقديس في الديانة الطوطمية ، هو العشيرة نفسها أو المجتمع نفسه ، مرموزاً إليه ببعض الرسوم " . و يرى دوركهايم أيضاً أن هذا النظام قد انبعث من تلقاء نفسه من الفعل الجماعي و أنه حقق فوائد اجتماعية ذات بال . فالحياة الاجتماعية لا تستقيم إلا إذا كان المجتمع و نظمه و أوامره و نواهيه موضع تقديس الأفراد و إجلالهم . و النظام التوتمي وسيلة لتمرين الأفراد و ترويضهم على هذا التقديس و الإجلال ، لتقوى أواصر ارتباطهم بمجتمعهم و يسلس قيادهم للحياة الاجتماعية و ما تعرضه من نظم و تضعه من قواعد تتعارض في كثير من مظاهرها مع أهواء الأفراد و رغباتهم . و لما كان دوركهايم يرى أن الطوطمية ديانة بالمعنى الدقيق لكلمة ديانة ، لأنها تقوم على التفرقة بين عالمين ، عالم قدسي و عالم عادي ، فقد ذهب إلى أن المجتمع نفسه كان أول إله عبده الإنسان ، و نحن هنا نختلف تماماً الاختلاف مع دوركهايم ، و لو أننا نحترم رأيه و نأخذه بعين الاعتبار مع عوامله و براهينه و دواعمه الفكرية و المنطقية كافة . و برأينا أن الإنسان القديم لم يعبد المجتمع ولكنه أدرك بحكمته البشرية و بصيرته ، قوة المجتمع .

إن الإله قد خلق الإنسان ، و الإنسان قد خلق المجتمع . فأراد الحفاظ عليه ، و لم يجد وسيلة لذلك سوى ربطه بالآلهة بطريقة محنكة و حكمة عجيبة نتجت منها علاقة معقدة من الصعب فك أواصرها و تحليلها . و إذا عدنا لتصفح تاريخ و نشوء كل الديانات البشرية ، لرأينا أنها لجأت إلى المجتمع و تجنبت الدولة أو السلطة ، بطريقة لا نستطيع أن نتكهن هل هي عفوية أم مقصودة ، و لكنها و بعد ترسخها و اشتداد عودها تفاعلت مع السلطة الحاكمة بعلاقة جدلية خرجت منها إما إلى الانتشار و التمدد أو إلى الذوبان و الاضمحلال . و مما سبق ، و بالعودة إلى مفهوم تعدد الآلهة و صراعها ، نستطيع أن نطرح التفسير أو التبرير الآتي و هو أن صراع الآلهة عند سكان بلاد ما بين النهرين ربما كان يحمل في طياته نوعاً من إدراك الإنسان في تلك الفترة ، عجزت آلهة معينة عن القيام بما كان يتوقعه منها أو يعتقد أنه من الممكن أن تقوم به ، ففوجئ بقوانين الطبيعة اللا إلهية التي خالفت إرادة تلك الآلهة في ما كان يأمله منها و أثبتت عجز تلك الآلهة على مد سلطانها المطلق فيما كان يعتقد أنه من اختصاصها و نتيجة لذلك رأى أن يشطب هذه الآلهة من ذهنه و يلغيها من حياته و تفكيره . و لكن عقدة الخوف الكامنة فيه ، قد منعته من ذلك .

ولا حل لهذه المعضلة سوى الاستعانة بآلهة أكبر للقضاء عليها . أي بمعنى آخر الاحتماء وراء ظهر آلهة أخرى ، فقادته حكمته البشرية التي توصلت إلى عجز هذه الآلهة ، قادته إلى فكرة اللجوء إلى آلهة أقوى تحميه من الآلهة السابقة أو اختراع هذه الآلهة كما اخترع التي قبلها .

و عقدة الخوف هذه نراها أيضاً في القرآن الكريم في قصة النبي إبراهيم عندما كسر الأصنام حينما رفض قومه كسرها بالرغم من اقتناعهم بذلك و أبقى على الصنم الكبير ليجادلهم في أمره . و عندما سألوه عمن كسر الأصنام قال لهم (**بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون**) (الأنبياء – ٦٣) كما نرى هذا الأمر أيضاً في الحياة العامة عندما يتطلب الأمر في بعض الأحيان التراجع عن نذر أو رقية ، بنذر أو رقية أكبر . و إذا كانت فترة الانتقال من مجتمع المشاعة إلى فترة المجتمع المنظم و الدولة الناظمة في بلاد ما بين النهرين غامضة المعلم و الملابسات ، فإنه و الحالة هذه تلك لن يبقى أمامنا إلا الأساطير الدينية للاعتماد عليها كمصدر تحليل قابل للاستنتاج .

تشكل البنية السياسية في بلاد الرافدين :

بالرجوع إلى الوثائق القديمة لفترة بدء تشكل المجتمع و المفهوم السياسي لبلاد الرافدين (منتصف الألف الثالث قبل الميلاد) نرى أن بداية تشكيل المجتمعات [1] كان قد نشأ من تطور مفهوم المجتمع أو البنية الزراعية لسكان هذه المنطقة . و مما لا شك فيه أن الزراعة كان لها أثر قوي في تنظيم الأفراد ضمن حيز سكاني واحد ، و في فرض مفهوم التعاون فيما بينهم سواء في حراثة الأرض أم زراعتها أم سقايتها ، يضاف إلى ذلك مواجهة العوامل الطبيعية و بالذات الكوارث ، كالفيضانات التي كانت تدمر المحاصيل الزراعية و تجرف ا لأتربة و البيوت ، فكان لزاماً على إنسان تلك الفترة أن يلتقي بشكل عفوي مع أقرانه للتخطيط و للتفكير في التعامل مع مستجدات الحياة اليومية أو مواجهة هذه المشاكل التي تعترضهم . و الحقيقة أن قضية العوامل الجوية المتمثلة بالكوارث الطبيعية ربما قد تكون لعبت دوراً قوياً في ترسيخ مفهوم التعاون البشري الذي أدى إلى نشوء المجتمع البدائي الذي كان بدوره نواة تشكيل الكيان السياسي ، و ذلك من خلال أنها كانت تحدث بصورة فجائية و غير متوقعة و فضلاً عن ذلك فإنها كانت ذات آثار سلبية عامة و شاملة ، تصل في بعض المراحل إلى درجة التدمير . و هذه الأسباب مجتمعة كانت كفيلة بأن تجمع أناس تلك الفترة على التكتل السريع و التفكير المشترك المقترن بالشعور بشيء من التضامن و التكافل . إننا نستطيع هنا أن نفسر ظاهرة بداية تشكل المجتمعات أو على الأقل

---

[1] فجر الحضارة – الفكر السياسي و أساطير الشرق القديم .

أحد عوامل نشوئها . و لكن كيف سنفسر أو نستنتج كيفية بداية ظهور قيادة هذه المجتمعات أو التجمعات ؟؟ .

لقد برزت مقولات عدة تبرر و تفسر نشوء هذا الأمر و هي جميعها منطقية و سليمة من حيث إمكانية و حتمية الحدوث . فمثلاً لعبت القوة البدنية دوراً في نشوء قيادة المجتمعات ، فالشخص الذي كان يتمتع بقوة بدنية فيزيولوجية قياسية بالنسبة لأقرانه ، كان يفرض نفسه بالتدريج كون الآخرين قد أصبحوا بحاجة له و لقوته البدنية . و الشخص الذي كان يتمتع بجرأة معينة قياساً لأقرانه ، كالتصدي لحيوان خطر مفترس و القضاء عليه أو إنقاذ شخص أو أشخاص أو أشياء من خطر ما ، كان أيضاً يحظى باهتمام و احترام باقي أفراد الوسط المحيط به . أو الشخص الذي كان يبدي بسالة و شجاعة مميزة عن غيره خلال تعرض الجماعة للهجوم من عدو خارجي . و لكن و بما أن موضوع كتابنا هو الحكمة ، فإنا لا نستطيع أن نستثني من النماذج السابقة ، نموذج الشخص الذي كان يتميز عن أقرانه من حيث التفكير و طرح الحلول الناجعة في المواقف الحاسمة و التي تتطلب رأياً معيناً أو مشورة خاصة كما في حالات الدفاع عن الجماعة أو تنظيمها . و هذا ما يدخل في نطاق الحكمة البشرية .

هل نستطيع أن نغامر قليلاً و نتكهن و نحلل في كيفية نشوء أو ظهور الشخص الحكيم العا قل و المفكر الذي كان له الآثر المميز في قيادة الجماعة ؟؟ . إذا افترضنا أنه لا داعي للبحث في كيفية تشكل القوة البدنية أو الجرأة و الشجاعة ، لأن هذه الأمور قد توجد بشكل طبيعي و منطقي طبقاً للطبيعة الفيزيولوجية و طبيعة التكيف و الاصطفاء البشري ، فإن القدرة الـ ذهنية و العقلية كذلك أيضاً قد تتكون بشكل طبيعي . و لكن كيف نتكهن بآلية هذه القدرة العقلية و الذهنية التي توفرت لدى شخص ما ؟؟ برأينا أن الشخص الذي تميز فكرياً و عقلياً في تلك الفترة و حتى ما قبلها ، هو الشخص الذي كانت له القدرة العقلية و الذهنية على السبق في تفسير ظاهرة ما أو مفهوم ما ، أي ظاهرة أو مفهوم ، و استغل سبقه في ذلك ليبرز أمام أقرانه . بل ربما أنه أدرك بحدسه أن الآخرين عاجلاً أم آجلاً سيتوصلون إلى الحقيقة أو النتيجة التي سبقهم هو إليها . و لا نستطيع أن نفسر كلامنا إلا بالمثال التالي : لنفرض أن شخصاً اكتشف أن المطر ينزل بسبب الغيوم التي في السماء نتيجة لحدسه أو مراقبته لسماء و الغيوم ، و من ثم ربط ذلك بنزول المطر . و كذلك الأمر بالنسبة للرعد و البرق . و في الوقت نفسه لاحظ هذا الشخص خوف أقرانه من الظواهر الطبيعية ، فاستغل هذا الوضع كوسيط بينهم و بين السماء ، أو بشكل أبسط بينهم و بين تلك الظاهرة أياً كان نوعها ، و بغض النظر عن الدخول بادئ الأمر في المجال أو الاعتقاد الديني الذي يكون قد أتى كنتيجة لاحقة لهذا الأمر الاجتماعي . و نرجح هنا أن قصب السبق في قيادة الجماعة كان من

نصيب هذا الإنسان نفسه و ليس ذوي القدرات العضلية و الجرأة و الشجاعة ، لأن حلول هؤلاء تنصب حتماً و فقط في المجال الذي يبرع فيه هو . بينما من المؤكد أن الشخص الأذكى و صاحب الحكمة لم يكن ليعدم الحلول حتى في مجال اختصاص هؤلاء الأشخاص . و فضلاً عن ذلك فإن أصحاب القدرات البدنية و الشجاعة ، لم يكن لديهم أدنى تصرف حيال الأخطار التي كان يتم عزوها للآلهة .

إذن نستطيع القول و دون مواربة إن منشأ و بداية الشخصية القيادية التي تحكمت بأقرانها و استلمت قيادتهم و تربعت على سدة الجماعة و كانت الواسطة بينهم و بين الإله ، كانت هي الشخصية التي تميزت عليهم بالقدرات العقلية و الذهنية .

تطور الحياة السياسية و الدينية في بلاد الرافدين : لقد كانت الأسطورة في بلاد الرافدين هي المعطي لصورة تشكل الأمر الديني حسب ما نقله لنا إنسان تلك الفترة . و كانت تلك الأسطورة تعبر بشكل أو بآخر عن مفهوم الكيان السياسي . و إذا علمنا أن تلك الأساطير و إن كانت تؤرخ و تتحدث عن مرحلة بداية الخلق و التكوين فإنها ، كتبت في فترة لاحقة لبدايات تشكيل المجتمع الديني و السياسي لبلاد الرافدين . إنها كتبت في وقت كان فيه نظام الدولة المجتمع السياسي و الديني قد أخذ حجمه و مفهومه الكاملين . لقد كان تطور نظام المجتمع و الدولة السياسي و الديني قياساً إلى بدايات تشكل مفهوم الجماعة الذي تحدثنا عنه آنفاً ، هو تطور عمودي و ليس أفقياً ، أي أن هذه الجماعة تحولت مع مرور الزمن إلى مجتمع ذي كيان سياسي تمثل بالدولة و كيان ديني تمثل بالمعابد . و الأشخاص الذين تميزوا في الفترة السابقة (فترة نشوء الجماعة) بدنياً و فكرياً ، هم أنفسهم الذين تربعوا على سدة قيادة المجتمع المحدث ، بعد أن طوروا مواهبهم و ميزاتهم و قدراتهم الجسدية و الذهنية و العقلية ، بتراكم الخبرات و القدرات مع الزمن ، فتحول صاحب القوة البدنية و الشجاعة و الجرآة إلى الحاكم أو الملك أو القائد أو الأمير ، أي ببساطة إلى صاحب السلطات التنفيذية . و تحول صاحب الذهن الفكري المتقد الذي سبق أقرانه إلى ملاحظة الأشياء و سبب حدوثها ، تحول إلى رجل الدين أو الكاهن أو حتى النبي ، أي ببساطة صاحب السلطات الروحية و أحياناً التشريعية لكون القوانين في تلك الفترة كانت مستمدة في معظم الأحيان من الآلهة حسب الأساطير و الكتابات الأثرية المكتشفة و نستطيع إدراك ذلك إذا نظرنا إلى الفئات المسيطرة على مقاليد الأمور في المجتمعات في ذلك الوقت و هي :

١ – **طبقة الملوك :** و هي رأس السلطة السياسية في المجتمع و هي التي تسن القوانين . و يتبع للملوك ، قواد الجيش و رؤساء العائلات و كبار السن الذين يمكن أن يكون لديهم أحياناً نوع من

مجلس الشيوخ أو النواب الذي يشرف على تنظيم المدينة . و بالرغم من أن طبقة الملوك كانت منفصلة عن طبقة رجال الدين ، إلا أنها كانت في الغالب تستمد سلطتها من آلهة المدينة و تسن قوانينها الخاصة بها بوصفها من قبل الآلهة . و في بعض الأحيان تدعي الألوهية أو توجد لنفسها شيئاً من الألوهية كأن يدعي أحد الملوك أنه ابن إله معين . و في تلك الحالات كان الملك أو الحاكم يأخذ سلطات و صلاحيات مطلقة و كان يطلق عليه لقب " لوغان "[1]أي الرجل العظيم أو الكبير أو يطلق عليه لقب " إذن " . و في بعض الأحيان و حسب ظروف معينة و نتيجة لاغتصاب السلطة و تعاقبها ، يطلق على هذا الحاكم لقب " إنسي " أي الحاكم بأمر الله أو من عند الله[2] .

٢ – **طبقة الكهنة :** و هي الطبقة أو الفئة التي تمثل المراجع الدينية و المشرفة على تطبيق الطقوس الدينية و تطبيق تعاليم الآلهة و إرضائها و قيادة الناس إلى الطريق الصحيح و السليم لذلك . . أي أنها كانت صلة الوصل بين الناس و بين الآلهة إلى جانب الملوك . و كانت هذه الطبقة تحظى باحترام الناس و طاعتهم لها و رهبتهم منها . و قد بلغ من نفوذ هذه الطبقة أنها كانت في بعض المراحل و الفترات ، تفرض نفسها على الملوك و الحكام ، فتعينهم أحياناً أو تنقلب عليهم و تستولي على السلطة أحياناً أخرى ، ذلك حسب الظروف السائدة و حسب قوة الملوك أو ضعفهم ، أو حسب حال البلاد السياسية و علاقتها مع الممالك و الدول المجاولة . و لذلك فإن الملوك أحياناً لم يكونوا يستطيعون التخلص من سيطرة هؤلاء الكهنة عليهم إلا بإعلان أنفسهم آلهة ، فيخضع هؤلاء الكهنة لهم تلقائياً باعتبار أنهم يخدمون الآلهة [1] .

مما تقدم نستطيع ملاحظة التشابك و التضارب الذي كان يحدث أحياناً بين طبقة رجال الدين و طبقة الملوك . و لكن قد نستطيع فهم طبيعة هذا الأمر إذا اعتبرنا أن هاتين الطبقتين هما امتداد طبيعي تقليدي نتج عن تطور الشخصيتين القديمتين اللتين تحكمتا بالجماعة ، الشخصية التي تميزت بالقوة البدنية و الشخصية التي تميزت بالقوة الفكرية . هنا نستطيع القول إن هذا التضارب و التداخل يعود بجذوره إلى الماضي ، إلى البدايات الأولى لتشكل الجماعة عندما حاولت كل من الشخصيتين المتميزتين تقمص دور الآخر أو محاولة تجربة ميزة الآخر و استيرادها لنفسه . فمنذ بداية تشكل الجماعات البشرية و ظهور الأفراد المميزين فيها ، لاحظ المميز جسدياً أن هناك شخصاً مميزاً فكرياً و عقلياً ، كما لاحظ المميز فكرياً و عقلياً أن هناك شخصاً مميزاً جسدياً . لقد فكر كل منهما حتماً بتجربة الحصول على ميزة الآخر و التمتع بالميزتين معاً . أي أن الشخص

---

[1] فجر الحضارة الأدنى .

[2] المصدر السابق – الفكر السياسي و أساطير الشرق القديم ص/١٤٧/ .

[1] المصادر السابقة .

المتميز بالقوة البدنية و الشجاعة و الجرأة ، أراد أن يتمتع بميزة الذكاء الفطري . و كذلك الشخص المميز فكرياً و عقلياً أراد أن يكون له شيء من التميز البدني و الشجاعة . و لكن ما هو مدى نجاح كل من الطرفين بذلك ؟؟ و هل يمكن للحاكم الذي أعلن نفسه ألهاً ، أن يكون متأثراً بهذه الفكرة و الجمع بين الشخصيتين ؟؟ في الحقيقة لا يمكن التكهن بذلك بالضبط إلا بالاعتماد على الكتابات الأثرية التي توفرت للباحثين و علماء الآثار . و نحن هنا نرجح أن يكون الشخص المميز بدنياً قد حصل على الميزة الأخرى ، ميزة الذكاء أكثر،أن يكون الشخص المتميز فكرياً قد حصل على ميزة القوة البدنية و الشجاعة . و من باب التكهن نقول إنه ربما ارتأت الحكمة الإلهية أن تضع اعتمادها على القوي بدنياً و تجعل فيه شيئاً من القدرات العقلية . و إذا أردنا أن نغامر و نتكهن أكثر ، فإننا نقول إن الشخص المتميز بالقوة البدنية لم يستطع أن يرى ضالته في الحصول على القدرات العقلية و الذهنية (و خاصة بعد ما أعيته الحيلة في ذلك) إلا باللجوء إلى الآلهة ، فاتجه نحوها و أخذ يفكر بهذا الكون المحيط به و بنفسه و وجوده . بينما لم يتيسر لصاحب التميز الفكري و العقلي أخذ القوةالبدنية من الالهة لسبب ما [٢] . و قد نستطيع أن ندعم قولنا هذا بملحمة جلجامش التي يبحث فيها جلجامش القوي صاحب القدرات الخارقة عن الحكمة و سر الحياة و يدفع الغالي ثمناً لذلك .

لقد كانت الآلهة مترافقة في كل خطوة و مرحلة من مراحل تطور المجتمع في بلاد الرافدين . و الحقيقة أن الحكمة البشرية الملكية و الكهنوتية اقتضت أيضاً أن تكون الآلهة موجودة دائماً في كل خطوة تخطوها و كل حركة أو إجراء تقوم به . و لن نستطيع ملاحظة آلية تداخل الحكمة الإلهية مع الحكمة السلطانية إلا بالعودة إلى المبررات و التصرفات التي كانت تقوم بها النخبة الحاكمة في قيادة المجتمعات و بالذات في اضطرارها للتعامل مع الظروف القهرية و القسرية التي كانت تفرض عليها ، مهما كان نوع تلك الظروف و العوامل . و لن يكون لكلامنا مغزى من المصداقية إلا إذا قلنا كلمة – اضطرارها – (أي الحكمة السلطانية) .

لقد كان هنالك ضرورة ملحة لتعامل النخبة القيادية مع ظروف تطور الجماعات الخاطف و السريع مع ما رافقه من أخطار خارجية تمثلت بالغزو و التهديد الخارجي و أخطار الطبيعة . و برأينا أن تلك الفترة البدائية كانت أشبه بالفترة الحالية التي نعيشها الآن في القرن الواحد و العشرين من تسارع و تطور التكنولوجيا و التقنية و الأفكار بشتى أنواعها . نعم لقد كانت تلك الفترة القديمة أيضاً بداية أسس تشكل العلوم و المجتمعات و الدول و الممالك ، بداية تشكل فن السياسة و الحكم و الدين إضافة إلى الأدوات و العلوم البسيطة ، هذا كله كان من نتاج الحكمة

[٢] يجدر التنويه إلى أننا نأخذ في الحسبان الاحتمالات كافة هنا .

البشرية الوليدة التي صدغت كل تلك الأمور و المفاهيم و انفلتت من عقالها في هجمة شرسة لاكتشاف هذا العالم المجهول الذي زرعت فيه . و عندما أحست بالخطر و التسرع في اقتحامها لهذا العالم المجهول و أدركت أنها لا تستطيع إدراك ماهية العواقب ، لجأت إلى الحكمة الإلهية مستعينة بها لتكون كصمام أمان و كابح و ضابط لها في كل خطواتها ، فكانت الحكمة الإلهية بالنسبة لها خير معين في ذلك . و شكل هذا نوعاً من التلازم و خير من عبر عن ذلك و أبانه لنا بشكل مباشر و غير مباشر هو الأسطورة التي سجلت أروع الصور و أدقها . لقد كانت كل عملية تطور و اكتشاف في تلك المرحلة ، سواء أكانت علمية أم دينية أم اجتماعية أم سياسية ، تستوجب معها رد فعل معين لابد من القيام به للسيطرة على تلك العملية و احتوائها أو الاستفادة منها . فمع تطور نظام الجماعة و تكاثر بني الإنسان ، أصبحت القوانين الناظمة للفترة السابقة و بأشكالها كافة ، غير قادرة على التعامل معها . و استوجب ذلك وضع قوانين جديدة و ذلك يستوجب بروز سلطة جديدة أيضاً أو تعديل السلطة القديمة لنفسها و هذا يستوجب تغيير التعامل و العلاقة القانونية الاجتماعية بين السلطة الحاكمة و بين الرعية أنفسهم من جهة أخرى . فإذا كانت الجماعة في أولى بدايتها قد اعتمدت التراضي العفوي بين أفرادها كعلاقة سليمة و مناسبة في ظل أوضاع و ظروف بدائية لم تبرز فيها الهجرات البشرية المستوجبة لمفهوم الغزو و الخطر الخارجي ، فإنها في ظل نظام المجتمع المتطور قد اعتمدت على نظام الإكراه و القسر و القانون الإلزامي الفوقي لتنظيم شؤون الأفراد و حماية المجتمع و ضبط الأمن و النظام . و هذه النقلات النوعية و الجذرية و إن كانت أحياناً لا تتم بسرعة ملحوظة إلا انها كانت بحاجة إلى مبررات عقائدية تصونها فكرياً ، فجاء النظام الملكي و القوانين الإلهية القسرية و الإلزامية نتيجة لضرورات أملتها التطورات الاقتصادية و الاجتماعية .

لقد كان الإنسان و منذ القديم و بعد أن تطور من نظام الجماعة إلى نظام المجتمع البدائي و تطلعه إلى عالم الآلهة و انخراطه في إدراك معالمها و ماهيتها و منذ ظهور الأديان ، يدرك أهمية وجود الآلهة و تحكمها بمصيره و حياته و قدره ، أي أن الحكمة البشرية السلطانية أدركت وجود أهمية الحكمة الإلهية ، فعملت على إيجاد حيز لها في نفوس الناس و عقولهم لتكييفهم و صقل خضوعهم و تبعيتهم و تنظيمهم في المجتمع . و هنا نستطيع القول إن الحكمة السلطانية البشرية (سياسية كانت أم دينية) لم تفعل ذلك لإدراكها تمام الإدراك بالحكمة الإلهية أو لأن غايتها هي مجرد تعريف الناس عليها فحسب ، بل لإقناع الناس بصوابية أعمالها و مشروعيتها (أي الحكمة البشرية) عن طريق تلبسها و اختفائها وراء الحكمة الإلهية التي أظهرتها للناس و أشارت لهم إليها . إنها من دون قصد أظهرتها و في الوقت نفسه كانت تقصد إظهارها ... دون قصد ، لأنها

لم تدرك كنهها و أبعادها بل و معناها ... و بقصد لأنها اخترعتها أو كانت تعتقد أو تظن أو تهيأ لها أو شبه لها أنها اكتشفتها لتكون أداة لضبط الناس و سكوتهم .فمن دل و استد ل على الآخر أولاً ؟؟ الحكمة الإلهية أم الحكمة السلطانية البشرية ؟ هذا ما لم يظهر بعد ما يدل عليه في المكتشفات الأثرية حتى الآن .

بالاعتبار إلى كل ما سبق يظهر لنا أن تلك الفترة في بلاد الرافدين و الساحل السوري و مصر كانت الأساس و النواة الأولى لكل ما تلاها من حضارات ظهرت و انتشرت في المعمورة ، كانت فترة اختمرت و نشأت فيها كل التساؤلات الإنسانية الأولى و نظرتها إلى نفسها و إلى الكون و إلى مؤسس هذا الكون . و أيضاً و مما سبق نستطيع الاستخلاص بأن سكان بلاد ما بين النهرين و من خلال تكيفهم مع ظروف طبيعتهم القاسية و الصارمة و المدمرة أحياناً ، قد كيفوا و رافقوا بين المفهوم الديني لديهم و المفهوم السياسي . و هذا التوافق و التكييف وجد منذ نشوء هذين المفهومين السياسي و الديني بأبسط اشكالهما و حتى ذروة تطورهما ، أي بدءاً من الجماعة و حتى المملكة و الدولة . و حبكت جدلية هذا التفاهم و الالتقاء المتصفة بالتطور و الترقي .. حبكت كلها بمفهوم الأسطورة و ما اشتق عنها من قوانين و ذلك كله بالاستناد إلى الحكمتين البشرية الإلهية .

مصر القديمة

حضارة مصر القديمة هي من الحضارات الأوَ ل التي نشأت في منطقة الشرق الأوسط الأدنى التي كانت المهد و البداية لتشكل الحضارات البشرية في العالم ككل . و نحن هنا لا نريد أن ندخل في إشكالية السبق بين الحضارة المصرية القديمة و حضارة بلاد ما بين النهرين أو الحضارة الفينيقية و أية منطقة سبقت الأخرى بالولوج إلى عالم الحضارة ، لأن ذلك ليس من موضوع الكتاب و منهجه .

و الحقيقة التي لا بد من ذكرها هي أن بلاد مصر القديمة و المصريين القدماء ، قد قدموا للعالم أرقى و أعرق و أفضل الحضارات التي لا تزال آثارها و شواهدها باقية إلى الآن و لا تزال المكتشفات الأثرية التي تظهر كل يوم ، تدل على عظمة هذه الحضارة ، سواء في الأهرامات أم المعابد الكبيرة الضخمة أم في المدن و القرى القديمة . و الحضارة المصرية القديمة شأنها شأن الحضارات في الشرق الأوسط ، لم تكتشف إلا في فترة متأخرة نسبياً و إن كان اكتشافها قد سبق حضارة بلاد ما بين النهرين و الحضارة الفينيقية في الساحل السوري . و أول اكتشاف للحضارة المصرية ، كان في أوائل القرن التاسع عشر بعد الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ، عندما اكتشف الحجر الرشيد و قام العالم الفرنسي شامبليون بفك رموزه التي كانت تمثل الكتابة الهيروغليفية و هي كتابة الحضارة المصوية القديمة و لغتها . فكان حل شيفرة الرموز هذه و فكها ، بمنزلة البداية لاكتشاف أعظم حضارة في تاريخ البشرية القديم . و قد كانت الحضارة المصرية من حيث الدلائل المادية الظاهرة ، تتميز عن حضارة بلاد الرافدين في أن آثارها العمرانية قد بقيت محفوظة عبر الزمن أكثر من حضارة بلاد الرافدين و ذلك بسبب

المناخ و الطبيعة الصحراوية في ذلك الإقليم اللذين ساعدا على حفظ الآثار الحجرية . بينما طبيعة بلاد الرافدين لم تساعد على ذلك . و لكن و على النقيض من هذا ، نجد أن الكتابات في بلاد الرافدين هي أكثر غزارة و أكثر حفظاً ما هي عليه في مصر القديمة و السبب هو أنها كانت تكتب على الحجارة أو الطين المشوي بينما في مصر كانت الكتابة تتم على ورق البردي و هو مادة لا تصمد أمام عوامل الزمن ، على عكس ماهو عليه في بلاد الرافدين حيث إن الحجارة و الطين ، هي أكثر مقاومة لعوامل الطقس و الزمن ، فضلاً عن أن سكان بلاد الرافدين قد حفظوا ألواحهم الطينية و الحجرية و كانوا من محبي و مطوري أساليب الكتابة . و نجد أيضاً في الفرق بين حضارة مصر و العراق ، أن تركز الكتابة في مصر القديمة كان بالدرجة الأولى على الأمور الدينية و طقوس العبادة و الحياة الجنائزية لما بعد الموت و غيرها ، يضاف إلى ذلك شيء من الأمور الإدارية التي تخص الفراعنة . و لكنها في الجانب الآخر تجاهلت و لم تتطرق كما هو الحال عليه في العراق إلى الحياة الاجتماعية و السياسية العامة و الاقتصادية أو تحاول تأريخ و تسجيل حوادث هذه المفاهيم و ظروفها جمعاء .

يرجع تاريخ مصر القديمة إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد ، حيث يبدأ من هذه الفترة لينتهي إلى مرحلة ما قبل الميلاد بقرنين أو ثلاثة . و تقسم فترات هذا التاريخ إلى ثلاث مراحل .

- **المرحلة الأولى :** مرحلة الدولة القديمة حيث تشكلت فيها دولة مصر القديمة و توحدت بجزأيها الشمالي و الجنوبي تحت قيادة الملك أو الفرعون ميتا . و ابتدأت منذ حوالي / ٣٢٠٠ / قبل الميلاد و امتدت إلى سنة / ٢١٦٠ / قبل الميلاد و قد شملت هذه المرحلة أيضاً فترة ما قبل التاريخ المكتوب لمصر . و قد شهدت هذه الفترة أيضاً مرحلة ازدهار الحضارة المصرية القديمة ، ففيها تم بناء الإهرامات الكبرى في الجيزة .

- **المرحلة الثانية :** و هي المرحلة الوسطى و تمتد من سنة / ٢١٦٠ / إلى سنة / ١٥٨٠ / قبل الميلاد و قد شهدت هذه الفترة غزو الهكسوس لمصر سنة / ١٧٨٨ / و انتهت بطردهم منها عام / ١٥٨٠ / قبل الميلاد و قد شهدت هذه المرحلة فترة انحطاط حضاري .

- **المرحلة الثالثة :** و هي المرحلة الحديثة أو مرحلة الدولة ، و قد بدأت منذ عام / ١٥٨٠ / و حتى عام / ٣٣٣ / قبل الميلاد . و شهدت فترة ازدهار نوعي و فيها أيضاً خضعت مصر لغزو الأسكندر المقدوني .

حسب المكتشفات الأثرية و الكتاباتلتاريخية ، يظهر لنا أن بداية تشكل الجماعات الأولية في مصر القديمة ، يعود إلى ما قبل الألف الرابع قبل الميلاد و سكان مصر في الواقع وحسب

التاريخ ، لم يكونوا من مكان واحد و لم يشكلوا شعباً واحداً ، بل كانوا جماعات متعددة قدمت من أماكن متفرقة إلى مصر و تحديداً إلى وادي النيل[1] حيث شكلت لنفسها تجمعات زراعية بسيطة . و شيئاً فشيئاً بدأت هذه التجمعات بالتطور و في الوقت نفسه بدأ يظهر لكل منها اعتقاده الديني الذي تجلى في إله معين يرمز لهذه القرية أو تلك . و بداية هذه التجمعات البشرية تعود إلى أولى الجماعات التي قدمت إلى وادي النيل و بدأت بتشكيل القرى الصغيرة و التي كان عددها في بعض الأحيان لا يتعدى عشرة أشخاص . و مع مرور الوقت و الزمن و بفضل عامل التكاثر و الولادة و إتقان التعامل مع الأرض و استصلاحها و التعامل مع الحيوانات الأليفة ، توسعت هذه الجماعات و ازداد عددها و حجمها . و مع هذا التوسع العمراني الذي رافقه تطور في العلوم التقنية البسيطة من زراعية و صناعية ، برزت مفاهيم اجتماعية رافقها تطور أسلوب العمل الجماعي الذي رافقه أيضاً تأمين الغذاء و الأمن الكافيين لهذه القرية أو المدينة الصغيرة . ذلك كله انضوى تحت لواء التعاون و التكافل و التعاضد الذي تميز به المجتمع المصري القديم .

في الواقع يمكن القول إن بروز القيادة الدينية و السياسية في المجتمع المصري ، شبيه إلى حد بعيد بمثيلتها التي جرت في بلاد الرافدين من مبدأ أن الشخص الأكثر شجاعة و قوة بدنية ، كان له حظ أوفر في القيادة السياسية . و الشخص الأكثر ذكاء و لديه من قوة الملاحظة و الاستنتاج أكثر مما كان لدى غيره ، كان هو الأوفر حظاً بالقيادة الدينية و الروحية و الأوفر حظاً لأن يكون وسيطاً بين الناس و الالهة ، يضاف إلى ذلك أن العمل المنظم و التوجيه قد لعب دوراً إيجابياً في ذلك حيث برزت الحاجة مع تطور الزمن إلى ضرورة وجود سلطة معينة تنظم هذه الأمور و تديرها من خلال إصدارها الأوامر و التوجيهات ، يضاف إلى ذلك أمر مهم جداً و هو أن الطبيعة في بلاد وادي النيل ساعدت الإنسان على الاستقرار و ساعدت على وفرة الإنتاج الزراعي و الحيواني أكثر من الطبيعة في بلاد الرافدين التي اتصفت بالكوارث و كثرتها و الفيضانات المدمرة للمحاصيل الزراعية قياساً إلى الفيضانات في وادي النيل و التي كانت تمثل الخير بالنسبة للإنسان ، حيث كان الفيضان السنوي للنيل يعطي الطمي و الخصوبة و الري للمزروعات ، و هذا كله أدى إلى تراكم الإنتاج و الفائض الزراعي و الاقتصادي و هذا بدوره أيضاً أدى إلى ازدياد قوة و ثروة و غنى هؤلاء المتميزين بدنياً و فكرياً أو المسيطرين سياسياً [2] . و كان من نتيجة ذلك أن بدأ هؤلاء يتطلعون إلى توسيع مناصبهم و مراكزهم ، معتمدين في ذلك على قواهم البدنية والفكرية و ما اكتسبوه من خبرات متراكمة مع مرور الزمن ، إضافة إلى تراكم الثروة و

---

[1] قصة الحضارة .

[2] بالمعنى السياسي البسيط و البدائي .

فائض الإنتاج في أيديهم . و قد أدى ذلك إلى نشوب صراعات و نزاعات ، و في بعض الأحيان حروب بين القرى و المدن الصغيرة ، و كانت النتيجة هي ضم الطرف الغالب و المنتصر ، لأراضي و ممتلكات الطرف المغلوب أو الضعيف . و كانت النتيجة أيضاً هي تحول القرى و المدن الصغيرة و الكثيرة ، إلى قرى و مدن أكبر و لكن أقل عدداً . و هذا الأمر استمر مع مرور الزمن كحدث و نتيجة حتمية للظروف السابقة ، حتى وصل الحال إلى دولتين ، دولة مصر العليا و دولة مصر السفلى اللتين توحدتا فيما بعد على يد الملك أو الفرعون (مينا).

و إذا ما عدنا إلى تاريخ مصر القديمة و في مختلف فتراته ، نرى أن عمل الأفراد الأساس في منطقة وادي النيل انحصر في الزراعة و الصيد عامة . و كانت بداية العلاقات الاجتماعية الأولى تقوم على المساواة و عدم وجود التفاوت الطبقي ، ثم ما لبثت كما ذكرنا بالتغير لتفرز الطبقة الحاكمة سياسياً و دينياً . و في الواقع فقد تبدت من خلال دراسة تاريخ مصر القديمة أنه كانت هناك قناعة عند المحكومين بحتمية و ضرورة وجود الحاكم الذي يحكمهم و يسخرهم لأجله و قد سلموا له دون قيد أو شرط ، قناعة أن هذا الحاكم يعمل لصالحهم و لأجلهم و خيرهم . و هذا الأمر كله لم يكن منفلتاً من عقاله بل كان كله و منذ بدايته يندرج ضمن إطار و محتوى ديني و إلهي . فقد برزت المفاهيم الدينية عند الإنسان المصري منذ بداية وجوده و كانت الآلهة تتابع كل حركاته و سكناته و تشرف عليه ، فضلاً عن حمايتها له و صيانتها لممتلكاته و أغراضه .

لكن و إن اختلفت ظروف الكتابة و التدوين و الظروف الطبيعية و الأثرية بين منطقة وادي النيل و منطقة ما بين النهرين ، إلا أنهما اتفقتا في موضوع الأساطير الدينية و كيفية شرحها لبدء الخلق و تكوين المجتمعات . و اتفقتا أيضاً في أن الأسطورة في بلاد الرافدين و التي يقابلها الكتابات الدينية في مصر القديمة ، كانت هي الموجه الأول و المعبر عن النظرة الدينية للإنسان في ذلك العصر و منعكساً غير مباشر للتصرفات الاجتماعية و العلاقات الطبقية و الفئوية . كما اتفقتا أيضاً على عد الحاكم المجسد بالملك أو الفرعون ، هو إما ابن إله أو نصف إله و إما كلف من قبل إله ، أو حتى إله أحياناً . و لكن و مع ذلك فلا بد لنا من أن نسجل تمييزاً بسيطاً في الديانتين و هو أن الديانة المصرية القديمة قد اهتمت بشكل مباشر و واضح بالحياة في الآخرة أو حياة الإنسان ما بعد الموت و في القبر ، و قد ظهر ذلك جلياً في الكتابات الدينية الأثرية التي عثر عليها في الأهرامات و المعابد و الهياكل الدينية . كما تميزت الديانة المصرية القديمة في بعض مراحلها بأنها ديانة توحيدية تميل في بعض نصوصها إلى فكرة التوحيد الإلهي و في بعضها الآخر إلى التوحيد الديني المحض . و في هذا المجال يقول (واليس بدج) في كتابه (الديانة الفرعونية) " حين يدرس القارئ نصوص الديانة المصرية القديمة ، تحصل لديه القناعة بأن

المصريين قوم كانوا يؤمنون بإله واحد موجود بذاته ، خالد غير مرئي ، أبدي عليم قدير ، لا يحيط به عقل ، خالق السماوات و الأرض و العالم الأسفل (الآخرة) خالق السماء و البحر و الرجال و النساء الحيوان و الطير و السمك و الزواحف و الشجر و الزرع و الكائنات غير الجسدية الذين كانوا رسله ينفذون مشيئته و يعلمون كلمته "[1] .

لقد تطرقت معظم الكتابات المصرية الدينية القديمة في نصوصها ، إلى فكرة الإله الواحد و لو أنها لم تحدد لنا كيفية نشوء هذه الفكرة من حيث الظروف البشرية الإنسانية ، و لا تاريخ نشوئها و زمنها أيضاً من حيث الظروف و الاعتقاد البشري . لقد ذكر (واليس بدج) أنه بالرغم من عدم معرفة أي شيء عن الحقبة التي نشأ فيها الاعتقاد المصري بوجود إله واحد قدير ، فقد ظهر في النقوش الأثرية و الكتابات الهيروغليفية أن هذا الكائن كان يدعي بـ (نتر) (neter) . و بالرغم من وجود فكرة الإله الواحد في الأدبيات المصرية القديمة أو الخطاب الديني القديم ، فإن ذلك لم يمنع من وجود آلهة كثيرة متعددة و لكل منها دور معين و أداء محدد تقوم به ، فضلاً عن وجود اسم لكل منها . و بعضها كان من الحيوانات . و مع ذلك و بالرغم من وجود كل تلك الالهة فقد عمد الإنسان المصري القديم إلى إيجاد نوع من التوافق بين مفهوم و فكرة الإله الواحد و بين مفهوم و فكرة الآلهة المتعددة ، بأن جعل هناك نوعاً من التسلسل الهرمي في سلطات تلك الآلهة ، تربع على رأسه الإله الواحد الذي كان اسمه يختلف من حين لآخر و حسب المراحل الزمنية و الظروف و الأحداث السياسية و الديانات المتعددة التعاقبة التي نتجت عنها ، و الذي كان أحد أسمائه (رع) و إحدى تجلياته الشمس. نحن لن نستطيع تبرير و استنتاج كيفية بروز فكرة الإله الواحد إلا بالعودة إلى البدايات الأولى التي شكلت أساس الجماعة في منطقة وادي النيل ، و النظر إلى الكيفية التي تعامل بها الإنسان في ذلك الوقت مع البيئة المحيطة به .

من الواضح أن الإنسان المصري القديم شأنه شأن الإنسان في بلاد الرافدين ، كان يتأثر بالوسط الخارجي المحيط به ، فكان للطبيعة و ما حوته من مظاهر جوية و مناخية و عوامل طقسية ، أثر كبير في عقلية الإنسان المصري القديم و بداية تفتح ذهنيته و مدركاته العقلية نحو تشكل الكون الذي يعيش فيه و سبب وجوده و خلقه . و من الواضح أن هذا الإنسان قد تساءل عن سبب وجوده في هذا العالم و تساءل عن خلق هذا العالم و كيفية وجوده ، فلم يجد أمامه سوى السماء و الطبيعة و الظواهر الطبيعية التي كانت تحدث أمامه و الكائنات التي اصطدم و تعامل معها من الحيوانات البرية و المائية . و في هذا المجال يقول أدولف إرمان" و إذا تساءل الإنسان عن العالم و نشأته ، فليس من شك أنه حاول الإجابة عن ذلك متأثراً بما كان يلاحظه من مظاهر الطبيعة التي تتغير و

---

[1] الديانة الفرعونية ص/١٣/ .

تختلف طوال العام . فتختفي حقول مصر مرة كل عام في لجة من المياه لا تلبث أن تنحسر عنها رويداً رويداً ، فاعتقد المصري أن الأرض أيضاً قد برزت من الماء ، و تصور أن مكاناً عالياً من الأرض كان أول ما ظهر على سطح ذلك الخضّم القديم الذي أسموه (نون) و كان هذا المكان بمنزلة بدء العالم ، فهو التل الموغل في القدم . و حددوا مكانه في مواقع مختلفة من مصر . و فوق هذا التل ظهرت المعالم الأولى للحياة إذ سكنت فيه الضفادع و الثعابين و هي من الكائنات التي تتفق مع ما يغمر هذا المكان من ظلام و رطوبة و سميت هذه الكائنات بأسماء استمدت من طبيعة المكان (الليل – الظلام – الاختفاء – الذبذبة) و غير ذلك . و كان عددها ثمانية و منها جاءت (آشمون) اسم المدينة التي تعني ثمانية "[1] .

لقد قادت طبيعة وادي النيل الإنسان المصري إلى التفكير بإله واحد و ذلك لأن الطبيعة هناك كانت بشكل عام متجانسة ، و المناخ واحد تقريباً على عكس الإنسان في بلاد الرافدين الذ ي كان أمامه حوادث طبيعية عدة يراها على مدار فصول السنة و كل واحدة منها كان لها أثر محدد و منفصل ، مدمر أو مفيد ، لم يجد مناصاً له من الاستنتاج بأن وراء كل ظاهرة من هذه الظواهر إلهاً ، فنشأت لديه فكرة تعدد الآلهة بالرغم من أن فكرة الإله الواحد لم تغب عن باله ، بل كان لها حضورها و لكن ليس كما لدى الإنسان المصري القديم الذي كان يلاحظ حالة مناخية و طبيعية متجانسة في معظم أيام السنة و هي تحمل الخير له و الطمي . و حتى فيضان النيل الذي من المفترض أن يكون ذا أثر سلبي للمزروعات ، كان في معظم الأحيان عاملاً قوياً في إيصال المياه و التربة الخصبة المتمثلة بالطمي إلى المزروعات . و لهذا فإن ذلك الإنسان أيضاً لم يجد مناصاً من الاستنتاج بأن هناك إلهاً واحداً فوق كل الآلهة التي يعرفها و هو الذي يدبر أمور هذا الكون و يقوم بشؤونه و ذلك من خلال ربط كل هذه الظواهر بهذا الإله . و بما أنها كانت ظواهر إيجابية و مفيدة له فقد مال إلى عد هذا الإله إله خير في الأحوال عامة و نفى عنه صفات الشر و الأذى إلا فيما ندر . و هناك عامل آخر ربما يكون قد أثر في قوة مفهوم الإله الواحد لدى الإنسان المصري القديم و سرعة تقبله له ، و هو أن الطقس و الطبيعة الهادئين في منطقة وادي النيل ، قد أعطيا الفرصة أكثر لإنسان هذه المنطقة للتفكير الهادئ و الوصول إلى فرضية وجود الإله الواحد المتحكم ، على عكس الطبيعة القاسية الباردة الجلفة في بلاد الرافدين و التي لم تكن لتعطي الإنسان في تلك المنطقة الفرصة للتفكير بالإله الواحد بهذا الشكل المركز . و فضلاً عن ذلك فإنه قد تعامل مع أحداث طبيعية منفصلة و متعد دة ، فكان يرى أن الطبيعة أحداث منفصلة شكلت بالنسبة له لغزاً محيراً لم يستطع حله خارج إطار الدين و النطاق الإلهي بصورة دقيقة . بينما كان

---

[1] ديانة مصر القديمة ص/٧٢/ .

الإنسان المصري يراها حدثاً واحداً . و مع ذلك فإنوربما نستطيع أن نضيف عاملاً آخر مهماً لعب دوره في قضية مفهوم التوحيد الإلهي بالنسبة لحضارة بلاد الرافدين و حضارة مصر القديمة ، وهو طبيعة التضاريس و الأحداث السياسية و التوزع الجيوبوليتيكي . فقد كانت طبيعة منطقة بلاد ما بين النهرين و ما حولها ، ذات بنية جبلية قسمتها السلاسل الجبلية إلى مناطق منفصلة بعضها عن بعض و هذا ما جعل التفكير في عملية التوحيد السياسي و الجغرافي لحكام تلك المناطق أمراً صعباً و متشعباً بينما ساعدت الطبيعة المصرية المفتوحة و المتجانسة و الهادئة ، على توحيد ممالكمصر القديمة و مدن هاكلها في ملكة وا حدة و الذي يفترض أن يؤدي إلى الاعتقاد بوجود إله واحد و ذلك ربما لكون الملك أو الحاكم هو واحد . فضلاً عن أن تلك المناطق تمتلتعددية المؤثرات الطبيعية و التي يمكن لها أن تلعب دوراً في التفك ير بالآلهة ، كالأنهار مثلاً أو الجبال و غيرها . فمنطقة بلاد ما بين النهرين تميزت بوجود نهرين أثرا في الحياة اليومية للإنسان هناك و هما دجلة و الفرات ، بينما تميزت مصر بنهر واحد كبير هو النيل . فمظاهر الزوجية أو التعددية لهذه المؤثرات كانت موجودة في بلاد الرافدين ، بينما تميزت مصر بأحادية المؤثرات البصرية الجغرافية و الطبيعية التي كانت ترتبط بذهن الإنسان القديم بالمفهوم الإلهي . كما أن الأحداث السياسية قد لعبت دوراً مهماً في التوجه نحو مفهوم التوحيد الإلهي للإنسان . فعملية توحيد الممالك و المدن و القرى فيما بينها تمهيداً لتوحيد المملكتين الرئيستين فيما بعد .. مملكة مصر العليا و مصر السفلى ، كان لا بد لها بشكل أو بآخر من أن تتم ضمن إطار مفهوم الإله الواحد أو بشكل متوافق معه . و هنا يبرز السوآل الآتي : من كان نتيجة للآخر ، مفهوم الإله الواحد أم توحيد مصر القديمة في مملكة واحدة ؟؟ أي بمعنى آخر ، هل الحاجة إلى توحيد مصر القديمة برزت نتيجة لظهور مفهوم الإله الواحد و ضرورة تطبيقها و تعميمها على المدن و القرى المصرية كلها ، أو أن فكرة الإله الواحد برزت كسبب و وسيلة و أداة خدمة لهذا الهدف و نتيجة لتوحيد مصر ؟؟ أو أنها برزت بشكل تلقائي محض و كنتيجة لتوصل الإنسان المصري القديم لها بغض النظر عن توحيد منطقة وادي النيل ، ثم بعد ذلك استخدمت كأداة لذلك ؟؟ أو بشكل أكثر وضوحاً ، هل كانت الحكمة الإلهية هي السبب في توحيد مصر القديمة أم الحكمة البشرية ؟؟ و من هيأ للاخر الأسباب و المقدمات لهذا الأمر ؟؟ أسئلة عدة من الصعب إيجاد جواب دقيق لها ولن يكون ذلك إلا من باب الاستنتاج و التخمين .

في الواقع إننا إذا قرأنا مقولة (واليس بدج) الآتية " هناك استحالة طبيعية على أناس مختلفين يعيشون في أمكنة و أزمنة مختلفة أن يفكروا تفكيراً موحداً في مسائل يجب أن تعود بعد كل شيء إلى نطاق الإيمان . كل هذا يرجح لدينا أن تعجز سلطة دينية بالغة ما بلغت سلطتها ، عن صوغ

جملة من المعتقدات ، صياغة يتقبلها الكهنة و العامة على السواء و يستنسخها الكتبة على أساس أنها المرجع النهائي في الإسكاتالوجيا (علم الآخرة) " [1]. هذه المقولة بالنسبة لنا تعزز فرضية أن أي رأي أو قرار ديني بغض النظر عن منشأ الأمر الإلهي و مصداقيته (هل من الله حقاً أم من البشر) لابد له من ظرف و حدث سياسي يدعمه و يثبته . فهل نستطيع القول إن مفهوم و فكرة الإله الواحد بغض النظر عن مدلولاتها و منشئها ، كان لا بد لها من غاية و حكمة بشرية سياسية تعمل لأجلها و تعتمد عليها في الوصول إلى غايتها ، سواء أكانت هي الغاية الأساس أم الهدف السياسي هو الغاية ؟؟ . و نحن هنا لن نفتح تبريراً فكرياً أو نظرية تأسيسية لمقولة أن الحكمة الإلهية أو الغاية الإلهية لا بد لها من الاعتماد على الحكمة البشرية أو السلطانية لمد ظلها في الأرض . فهذا ليس بالضرورة أن يكون حتمياً و بشكل دائم . و لكن نستطيع استقراء واقع التداخل بين هاتين الحكمتين بالعودة إلى الجذور الأولى لتشكل المعتقد الإلهي عند الإنسان المصري ، في بداية تشكل الجماعات المستقرات الأولية على ضفاف النيل .

من الواضح أن بداية الفكر الأسطوري أو الديني سواء في بلاد الرافدين أم مصر أم حتى في مناطق أخرى ، كان منشؤه هو الرد على تساؤلات الإنسان عن كل ما يراه أمامه . و الإجابة عن كل ما يخطر بباله من ظواهر و أحداث يراها في حياته اليومية . فما رأه أمامه و استطاع أن يجد له تفسيراً مقنعاً و مبرراً لديه من بنات أفكاره ، عد نفسه حاكماً له و عليه و فوقه . أما ما رآه أمامه و لم يستطع أن يجد له تفسيراً و تأويلاً يقنع نفسه به ، فقد عد نفسه خاضعاً له بشكل أو بآخر و أعطاه صفة القدسية أو الطوطمية ، و خاصة إذا كان لهذا الشيء الغامض تأثير سلبي أو إيجابي بالنسبة له . ومن البدايات الأولى للمستقرات البشرية في وادي النيل ، بدأت المفاهيم الإلهية البسيطة بالظهور . في البداية[2] كان لكل جماعة أو مستقر عدد معين من الآلهة و ذلك بحسب ما كانوا يشاهدونه أمامهم على الطبيعة . و هذه الآلهة كانت أحياناً هي الحيوانات التي عاشت في بيئتهم سواء الكائنات البرية أم المائية أم البرمائية ، كالأفاعي و الطيور و التماسيح و غيرها . فأعطيت هذه الحيوانات صفة القداسة و الألوهة . و برأينا ان هذا الأمر لم يكن ليتم إلا عن طريق ربط هذه الحيوانات و الكائنات بأحداث كانت تجري في أثناء تواجدها أو بسببها ، فربما كان ظهور أفعى مثلاً في قرية أو مستقر ما ، يتسبب بموت أحد الأشخاص دون أن يكتشف الإنسان أن الأفعى تلدغه و تسبب له الموت عن طريق السم أو أنه كان يراها تعضه و يعرف أنه

---

[1] الديانة الفرعونية ص/٨/ .

[2] الديانة الفرعونية – ديانة مصر القديمة- قصة الحضارة .

سوف يموت بسببها دون القدرة على اتقاء شرها ، عاملاً رئيساً في ذلك ، فلهذا عدها كائناً فوق قدرته و سيطرته و أعطاها تلك الصفة ، و كذا الأمر مع بقيةالحيوانات .

و قد يتبادر إلى الذهن سوآل و هو أنه فيما بعد استطاع هذا الإنسان أن يكتشف أن هذه الأفعى تحوي مادة سامة تستطيع قتله و استطاع التعامل معها و ابتكار الوسائل الكافية لمنعها من مهاجمته ، أو اكتشاف الوسائل التي تشفيه من سمها ، و مع ذلك أبقى لها خاصية الإلوهية و صفتها ، فلماذا ؟؟ الجواب برأينا هو أن البعد الإلهي الذي أعطي لكائن ما و ليكن مثلاً الأفعى ، و قبل أن تتوضح أسباب التعامل معه ، كان قد أخذ طابعاً فكرياً طوطمياً دخل في عقل كل من آمن به و اعتقد بقداسته ، و في الوقت نفسهخل في تركيبة الحياة الاجتماعية لهذه القرية أو ذاك المستقر ، فلم يعد من الممكن إزالة الصفة الإلهية أو القدسية عنه بهذه السهولة ، حتى بعد التغلب عليه و وضوح مكامن ضعفه لدى الإنسان ، و هذا ما نراه الآن في الحياة المعاصرة في بعض الاعتقادات الدينية . و ربما يكون العامل الاقتصادي و السياسي قد لعب دوراً هاماً في بقاء المعتقد كما هو عليه بالنسبة لذلك الكائن . أي بمعنى آخر فإن الحكمة البشرية أو السلطانية البدائية قد ارتأت أن يبقى الأمر على حاله لأن المجتمع و القيادة و السلطة السياسية و الدينية .. كل ذلك قد قام على هذا المعتقد من قبل ، فأصبح هناك نوع من المخاطرة و المغامرة بالإطاحة بكل هذه العقائد و الميزات المادية و المفاهيم الاعتبارية إذا ما تمت الإطاحة بقدسية الأفعى مثلاً و العودة إلى نقطة الصفر ، لأنها أصبحت مرتبطة بأمور و أعراف اجتماعية توارثها على الأقل جيلين أو ثلاثة و مصالح سلطوية و حتى مادية . هذه النظرية تبين في الواقع حقيقة مفهوم المعتقدات البدائية الخاطئة و كيفية نشوئها و الإبقاء عليها و محاولة التوفيق بينها و بين المعتقدات التوحيدية المحضة التي ربما تكون قد ظهرت فيما بعد أو ظهرت قبل ذلك . خاصة و كما ذكرنا آنفاً أنه يوجد الآن الكثير من الخرافات و المعتقدات لدى بعض الشعوب و الديانات و ما زالت سارية المفعول لأنها قد دخلت في التركيبة الاجتماعية و العقلية لتلك الشعوب و الفئات و أضحت بمنزلة أداة نفعية توفيقية تنظيمية يمكن أن تؤدي إزالتها إلى مغبة الانفلات و التشرذم و الفوضى أو دخول معتقدات أديان أخرى محلها .

لقد اقتضت الحكمة السلطانية الإبقاء على المفاهيم الإلهية المزيفة و غير الحقيقية ، حفاظاً على نفسها و سلطانها الذي تعبت كثيراً للحصول عليه . هذا الأمر يفسر لنا الكثير من القضايا المشابهة و التي حصلت فيما بعد . و هنا أيضاً نعود لنطرح السوآل الآتي و هو كيف نشأ إذاً مفهوم الإله الواحد و تطور فيما بعد ؟؟ بعد أن عاين الإنسان المصري القديم معظم الكائنات و المظاهر التي أعطاها صفة القداسة و الألوهية و اكتشف حقيقتها و طبيعتها ، كان لا بد له من

الاتجاه نحو البحث عن إله آخر غيرها بالرغم من أنه أبقى عليها صفة الإلوهية و القداسة . و من المرجح أن هذا الإنسان قد نحا نحو مظاهر أخرى لم يستطع أن يجد لها تفسيراً و منها الكواكب و النجوم . أي أنه اتجه ببصره نحو السماء ، و هو أمر نجد ما يشابهه في القرآن الكريم في الآية التي تحدث عن النبي إبراهيم الخليل في بداية إيمانه و اعتقاداته الدينية التي كانت تعتمد على الملاحظة ، حين تحول من كوكب إلى آخر ، حتى وصل إلى مفهوم التوحيد الإلهي المحض كما تورده الآية القرآنية التالية (**فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين _ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين _ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون**) (الأنعام ٧٦ – ٧٨) . و لذلك فعندما توصل الإنسان المصري إلى قناعة مفادها أن هذه الكائنات الحية التي يراها أمامه لا تمثل بالنسبة له مفهوم الإله الواحد الذي هو فوق كل الآلهة اتجه بتفكيره نحو الكواكب و اختص منها بالدرجة الأولى الشمس التي شكلت بالنسبة له أهم أركان الديانة المصرية التوحيدية القديمة و أسسها. و كانت بمنزلة العمود الفقري لها و الذي غالباً ما كان يتسمى بالإله (رع) . يقول هنري برستد[1] " إن الاعتقاد الديني بوجود الإله الواحد في العاصمة هليوبوليس حول إله الشمس ، يؤكد حصول الاتحاد المصري القديم . و كان من الثابت بأن كل وحدة من المجتمعات المتعددة في الجنوب و الشمال كانت تؤمن بآلهة معينة و بمراسم و طقوس واحدة . و قد وجد عندهم إلى جانب الآلهة المتعددة في المناطق المختلفة ، الاعتقاد بوجود إله واحد فوق جميع الآلهة و هو إله الشمس في هليوبوليس . فهذا الإله القومي لجميع المناطق يجسد بوصفه ملك كل الآلهة وحدة المعتقد الديني الذي لا يتحقق إلا بوجود سلطة تؤمن به و تفرض وجوده على جميع المناطق الخاضعة لها و هذا يفسر احتمال وجود الاتحاد الأول لأن الإيمان بإله الشمس وجد قبل توحيد الملك مينا لكل مصر ، فأصبح إله الشمس ملك كل الآلهة و خاطبه الناس بقولهم (إنك أنت الذي تشرف على كل الآلهة و لا يشرف عليك إله) و كذلك أصبح هو في في الوقت نفسه الحاكم الأعلى المتصرف في مصير كل الناس و بذلك انتقل إله الشمس من عالم الطبيعة إلى عالم الناس فأصبح فيه ملكاً قديماً كان قد حكم مصر يوماً ما كما حكم الفراعنة من بعده . و قد آمن المصريون بأن إله الشمس كان يحكمهم قبل أن يترك الأرض و يذهب إلى السماء و يترك شؤون الأرض للملوك و الفراعنة . فوجود الاعتقاد بإله فوق آلهة الجميع ، يؤكد افتراض وجود السلطة الواحدة في كل مصر التي استطاعت أن تفرض الإيمان به في المناطق الخاضعة لها خاصة و أن هذا الاعتقاد قد تأصل في النفوس " .

---

[1] انظر أيضاً الفكر السياسي و أساطير الشرق القديم ص/١٨٦/ .

من مضمون القول السابق يتـ وضح الترابط الوثيق بين مفهوم الحكمة الإلهية و مفهوم الحكمة البشرية في الحضارة المصرية القديمة . و يتوضح ذلك أكثر من حيث كيفية النظر إلى مفهوم الإله الواحد عند المصريين وذلك من مقولة و فكرة أن هذا الإله كان يسكن مصر في البداية ثم صعد إلى السماء و أورثها للفراعنة من بعده و أنه يمكّن لهم مصر العليا و مصر السفلى . حيث يبرز هنا و بشكل جلي ارتباط فكرة الإله الواحد بالمفهوم السلطا ني الحاكمي في مصر . فالإله كان يسكن مصر ، إذاً فهو كان موجوداً هنا من قبل و لذلك يجب احترام الأرض و التعامل معها بحذر . و هو عند صعوده إلى السماء أوكل أمر أرض مصر من بعده إلى الفراعنة . و هذه إشارة سياسية قوية و واضحة إلى الحكم السياسي بالحق الإلهي المطلق ، لا يمكن دحضها ، و ربط كل ذلك بفضل هذا الإله على أرض مصر و الذي يعني في واقع الأمر أن مخالفته و عصيانه تؤديان إلى مغبة حرمان أرض مصر من تلك الخيرات . و هذا الإله تجسد في نظر هؤلاء و في نظر الحكمة السلطانية المصرية بالشمس . أما لماذا تم اعتماد الشمس كمفهوم و رمز للإله الواحد لدى المصريين ، فهو أمر لا يمكن لنا مناقشته إلا من طرف الحكمة ا لبشرية أو السلطانية وكيف نظرت هي له . و لا يمكن لنا مناقشته أو تحليله من واقع الحكمة الإلهية لأنه لا معطيات قوية دينية أو تاريخية أو أثرية تسمح لنا بذلك و لهذا فلن نستطيع ا لتطرق لهذا الأمر إلا من الباب الإنساني البشري ، أي إننا سنتطرق إلى الحكمة الإلهية هنا من خلال الحكمة البشرية .

في الواقع إذا نظرنا إلى مفهومي الوحدة الإلهية و الوحدة السياسية في مصر القديمة ، رأينا أنهما ارتبطتا بصفة مشتركة و هي السلطة المركزية أو القوة المركزية التي تكون على رأس هرم القيادة و التوجيه ، و ترتبط بها باقي السلطات الخاضعة لها و طبقاً لذلك أضحى هناك سلطتـ ان مركزيتان هما السلطة الإلهية و السلطة السياسية الدينية . و لكننا نتساءل هنا .. هل ظهر مفهوم الإله الواحد هكذا اعتباطياً ؟؟؟ و هل أوجدته الحكمة السلطانية ؟؟ و إذا كانت هي من أوجده ، فما السبب في اختيارها له لضبط الناس ؟؟ أم إن مفهوم الإله الواحد كان من عند الله حقاً و من ثم و فيما بعد ارتأت الحكمة البشرية ان تعتمده كأداة للسلطة و إدارة البلاد و تنظيمها ؟؟

قبل كل شيء لا بد لنا من القول و من خلال تتبعنا لتاريخ مصر القديمة ، إن الحضارة المصرية العريقة بجوانبها العلمية و الفكرية و الدينية كافة ، قامت على مبدأ الاتحاد التام و التفاعل الكامل بين مفهوم الإله الواحد و مفهوم السلطان الواحد و الأرض الواحدة المحددة . الاعتقاد بالإله الواحد ، من المؤكد أنه كانت له جذور منطقية عقلية أثبتت وجوده لدى الإنسان المصري القديم . و من خلال تتبعنا للتاريخ المصري القديم ، نرى أن فكرة الإله الواحد عامة قد انحصرت بالشمس التي كان لها تجليات عدة في أسماء متعددة غلبت على تاريخ الحضارة المصرية ، و في

حقبة قصيرة من تاريخ الحضارة المصرية القديمة ، برز مفهوم توحيدي محض للإله الواحد تمثل فيما وراء قرص الشمس و هو ما عرف بديانة آخناتون ، أي أن مفهوم الإله الواحد قد تأرجح بين هاتين الديانتين أو الرمزين . و مقارنة مع الآية القرآنية السابقة نستطيع أن نتعرف على شيء من هذا الأمر . فإذا نظرنا إلى هذه الآية نرى التشابه بينها و بين تلك المقولة ، حيث إن النبي إبراهيم قد تدرج بين كواكب عدة قبل أن يتجه نحو الإله غير المعروف أو الموصوف . و إذا دققنا أكثر ، نرى أن آخر كوكب اعتمده النبي إبراهيم قبل انتقاله إلى التوحيد المحض ، كان كوكب الشمس . أي بعبارة أخرى لم يكن هناك كائن يفصل بين الشمس و بين الله في هذه الآية ، فجاءت الشمس في مرتبة تلي مرتبة الله مباشرة . و إذا وجدنا أن المقارنة هنا منطقية بين تلك الآية و بين رموز الديانة المصرية القديمة خاصة إذا اعتبرنا أن النبي إبراهيم قد عاصر مرحلة من مراحل الحضارة المصرية القديمة و هاجر في خلال مراحل هجرته إلى أرض مصر ، نستطيع القول إن فكرة الانتقال من عبادة الحيوانات و الأشياء إلى عبادة الكواكب ، وصولاً إلى التوحيد المحض الذي ربما يكون قد تمثل بديانة آخناتون . كانت إلى حد كبير مشابهة لسياق الآية القرآنية السابقة ، فالإنسان المصري القديم توصل إلى عبادة الإله الواحد غير المرئي عندما تدرج من خلال المراحل السابقة . و لكن الحكمة البشرية السلطانية شاءت أن تبقي على قرص الشمس ضمن نطاق الإلوهية و لا تفعل كما فعلت حكمة النبي إبراهيم بالانتقال أو الانعتاق إلى ما وراء الشمس أو التوحيد ألإلهي المحض . و مع هذا فإن لا بد من آلية أو نظرية فكرية منطقية مقنعة لربط كل الكائنات التي يراد لها أن تأخذ شيئاً من الصفات الإلهية سواء بعضها أو حتى كلها ، و تكون بمنزلة سلسلة محكمة الطوق و تؤدي الغرض المطلوب منها . هذه الآلية أو النظرية ربما وجدت مكانها المناسب في مفهوم التجلي الذي كان تفسيراً طبيعياً و منطقياً و مقبولاً من الناحية الدينية للناس . و هذا الأمر وجد مكاناً له أيضاً في معظم الديانات المعاصرة و اللاحقة لها إن لم نقل في كلها .

و قد تطرق (واليس بدج) إلى تفسير الطبيعة الإلهية للأشياء بقوله " إن الكائنات التي تشترك على نحو ما في طبيعة الله و في شخصيته ، تسمى آلهة في العادة ، و قد كانت الأقوام الأولى التي لها صلات بالمصريين ، كثيراً ما تسيء فهم طبيعة هذه الكائنات . بل كان هناك عدد من الكتاب الغربيين المحدثين من فعلوا الشيء نفسه . لكننا حين ندرس هذه الآلهة عن كثب ، نجد أنها ليست أكثر أو أقل من صور أو تجليات أو مظاهر أو صفات لإله واحد هو الإله (رع) إله الشمس الذي كان هو النموذج أو الرمز لله "[1] . و قد ذهب باحث آخر هو (تيتل) إلى أن الديانة

[1] الديانة الفرعونية ص/٢٥/ .

المصرية كانت في أول أمرها تشرك مع الله آلهة أخرى ثم تطورت في اتجاهين متضادين . في الاتجاه الأول تضاعفت الآلهة بإضافة الآلهة المحلية ، و في الاتجاه الآخر دنا المصريون قرباً من التوحيد . أما الدكتور (كولدمان) فيرى أن في الديانة المصرية ثلاثة عناصر .. العنصر الأول توحيد شمسي أي إله واحد خالق للعالم تتجلى قدرته خصوصاً في الشمس و آثارها . و العنصر الثاني هو عقيدة تجديد قوة الطبيعة و تعبر عن نفسها في عبادة آلهة التناسل و آلهة الخصب و في طائفة الحيوانات و مختلف النباتات . أما العنصر الثالث فهو تصور الألوهية في هيئة بشرية تكون حياتها في الدنيا و الآخرة نموذجاً لحياة الإنسان المثالية[1] .

في الواقع إن فكرة التجلي قد برزت في معظم الديانات كوسيلة لمحاولة تقريب صورة فكرية و عقلية في أذهان الناس . و جاءت كأداة توسيط بين الله و الإنسان . و لعلنا نجد ذلك أيضاً في الأديان السماوية . ففي التوراة نرى **[و ظهر له ملاك الرب بلهيب من نار من وسط عليقة فنظر و إذ العليقة تتوقد بالنار و العليقة لم تكن تحترق]** (سفر الخروج ٣ : ٢) . **[فحدث إذ كان هارون يكلم كل جماعة إسرائيل إنهم التفتوا نحو البرية و إذا مجد الرب قد ظهر في السحاب]** (سفر الخروج ١٦ : ١٠) . **[و جاء رجل إلى عالي و قال له هكذا يقول الرب هل تجليت لبيت أبيك و هو في مصر في بيت فرعون]** (صموئيل الأول ٢ : ٢٧) . **[فإنما يجده الذين لا يجربونه و يتجلى للذين لا يكفرون به]** (سفر الحكمة ٦ : ١٤) . **[و اليهود يباركون الرب الذي مجد مقدسه و قد امتلأ الهيكل ابتهاجاً و تهللاً إذ تجلى فيه الرب القدير ...]** (سفر المكابيين الثاني ٣ : ٣) . و في الإنجيل جاء أيضاً **[و لما كمل أربعون سنة ظهر له ملاك الرب في برية جبل سيناء في لهيب نار عليقة]** (أعمال الرسل ٧ : ٣٠) . و في القرآن الكريم نجد أيضاً آيات التجلي **(و لما جاء موسى لميقاتنا و كلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني و لكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً و خر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك و أنا أول المؤمنين)** (الأعراف – ١٤٣) . **(فلما قضى موسى الأجل و سار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون _ فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين)** (القصص - ٣٠) .

مما تقدم نرى أن موضوع التجلي كان في الأساس حلاً لمشكلة أو قضية رؤية الله أو الكلام معه .. حلاً للعقدة الكامنة في النفس البشرية الإنسانية منذ الأزل و هي عقدة رؤية الله و التساؤل عن

---

[1] المصدر السابق ص/٢٧/ .

هيئته و شكله . و لكنه في الواقع كان عبارة عن حل وسط أكثر منه حلاً نهائياً . و نستطيع القول إنه كان نوعاً من التوافق بين الحكمة الإلهية و الحكمة البشرية الإنسانية السلطانية ، حفظاً منها له من التشتت و الضياع .. إنه الوعاء الذي احتوت فيه الحكمة الإلهية الحكمة السلطانية و البشرية . و هذه المقولة تضطرنا للعودة إلى الوراء مرة أخرىلمناقشة إشكالية اعتقاد ا لإنسان المصري القديم بألوهية الأشياء التي كان يراها أمامه من كائنات حية أو طبيعية أو جماد ، لنقول إن منشأ ذلك الاعتقاد ربما يعود إلى أول حادثة تجلٍ إلهي حقيقية حصلت له بالفعل ، ليقوم هو بعد ذلك بافتراض كذا حالة تجلٍ نتيجة لوهم ، أو لبساً حصل معه أو نتيجة لسبب قادته إليه حكمته البشرية لتثبيت أمر ما و تنظيمه . و لعلنا نلاحظ أن عمليات التجلي الحاصلة في الكتب السماوية الثلاث ، كانت عامة في أمور طبيعية فيزيائية .

لعلنا أيضاً نقع على ملاحظة أخرى ذات أهمية و مدلول كبيرين و تدعم كلامنا و هي أن عمليات التجلي تلك المذكورة في الكتب السماوية حصلت في أرض مصر أو في أماكن قريبة متاخمة لها و قريبة منها . و بما أن الحكمة الإلهية قد اقتضت أن يكون التجلي في بعض وقائعه و أحداثه إرضاء للمطلب البشري و أمراً توفيقياً للحكمة البشرية و حلاً وسطاً لإشكالية الرؤيا الإلهية لديها كما حدث عندما طلب النبي موسى رؤية الله تعالى ، فإن الحكمة السلطانية أيضاً قد اتخذت هذا الأمر قضية توفيقية و حلاً لإشكالية التعامل في المجتمع و الحياة اليومية بجوانبها الاقتصادية و الدينية و السياسية كافة التي كانت في مصر القديمة مرتبطة بشكل كامل بالمفهوم الإل هي و على تماس مباشر معه يومياً . لأنه ما كان بالإمكان بناء الإهرامات و شق الترعات و الحفاظ على الوحدة السياسية و حتى الفكرية و التي كانت أحدهُم الأسس الداعمة للحضارة المصرية ، لولا الاعتماد و الاتكال علىهذه المفاهيم الإلهية التوحيدية و التي كانت من نتائ جها و بسببها ، قوة العلوم التقنية بمختلف جوانبها الفلكية و الرياضية و الكيميائية و الفيزيائية و غيرها . و لذلك فقد ارتأت الحكمة السياسيةالسلطانية ألا تعرض هذا التفا هم الإلهي السياسي الصامت (على ألأقل من جانب البشر) للخطر عن طريق الخضات و الهزات التي تسبب له الخلل و ذلك بتغير المفاهيم الدنية كل يوم . و حتى تدمج بين كل تلك المفاهيم .. صحيحها و سقيمها .. غثها و سمينها .. لجأت إلى مبدأ و فكرة التجلي الإلهي لتكرره و تعممه على كل ما يثبت لها مصالحها و استمرار ديمومتها ، لتستمر و تبقى الحضارة المصرية بمقوماتها الصحيحة و الخاطئة كافة . و فضلاً عن ذلك فإن مفهوم التجلي قد حقق هدفاً آخر للحكمة السلطانية في مصر القديمة ، و هو أنه قد ربط كل مظاهر التجلي في أرض مصر أو خارجها من كائنات حية أو غير حية ، كلها قد ربطها بالإله (رع) إله الشمس أي أن ذلك كله قد ارتبط بمفهوم الإله الواحد . و الهدف من ذلك

كله كان ضبط التخيلات البشرية و حصرها ضمن بوتقة واحدة و ضمان عدم انفلاشها و تشتتها مما يشكل خطراً جسيماً و تهديداً كبيراً لوحدة الأراضي المصرية و الحضارة المصرية . هذا الأمر بحد ذاته ، يفتح لنا باب التبرير لتعمّد الحكمة السلطانية لفعل ذلك ، بأنهما كانت مجبرة على القيام بهذا الأمر دون وجود نية مسبقة لإضلال الناس . و لكن وطأة الحاجة و المصالح قد اضطرها إلى ذلك . و إذا كنا نقول هذا الكلام من باب الفرضية و الاستنتاج ، فإن هذا يقودنا إلى فرضية أخرى و هي ان التجلي الإلهي قد أسدى إلى الحكمة السلطانية خدمة أخرى و هي أنه قد خلق نوعاً من مناخ فكري ديني مناسب لطبقة العوام المصرية و فصلها عن الطبقات الأخرى و خاصة الكهنة و الفراعنة الذين ربما كانوا يعرفون و يدركون أصول التجليات الإلهية الحقيقية التي حدثت في تاريخ دولتهم ، فاحتفظوا بها لأنفسهم و أعطوا بقية أفراد العوام و الغوغاء تجليات مزورة متعددة و ذلك حفاظاً على أسرار الديانة المصرية . لأننا إذا عدنا إلى ترانيم و أدعية و طقوس هذه الديانة خلال فترة الحضارة المصرية القديمة ، نراها كلها تتحدث في صلب التوحيد الإلهي ، و في ذروة مفهوم الإله الواحد ، عن نفي التجليات أو الصفات أو الصور لهذا الإله و خاصة في ديانة آخناتون التوحيدية التي برز فيها ذلك الاتجاه و المفهوم بشكل قوي جداً بحيث طغى على كل عناصرها و ميز أسسها .

و قد جاء في إحدى الأدعية التي تصف ذلك الإله ، بأنه " **لا يصور و لا يرى في صور منحوتة عليها تيجان وحدة الشمال و الجنوب ، تزينها شعارات الثعابين ، و لا قرابين تقرب له و لا أعمال تؤدى إليه . لا يطلع من مكانه الخفي و مكان سكناه غير معروف و لا نجده في الحرم المنقوشة إذ لا مسكن يمكن أن يحتويه و أنت لا تستطيع أن تتصور هيئته حتى في قلبك** "[1] . و هذا الإله الواحد لديهم ، قد أطلق عليه صفات و أسماء عدة تدل عليه منها (هابي – نتر – ماني – خيبيرا) و لكنها كانت تتخذ معنى الإله الواحد أو معنى الإله أو خالق نفسه . و لا عجب إذا قرأنا هذه الأدعية أو الكتابات الدينية التالية ، أن نقول إن مفهوم الإله الواحد قد وجد لنفسه مكاناً في الديانة المصرية لم يجده في ديانة أخرى معاصرة . ورد في إحدى الكتابات " **الله واحد وحده و ليس معه أحد سواه . الله هو الواحد . الواحد الذي خلق كل شيء . الله روح . روح الأرواح . الروح الأعظم للمصريين و الروح الإلهي . وجد الله منذ البدء و هو لم يزل موجوداً . وجد منذ القدم و قد كان و لم يكن معه شيء كائناً . وجد عندما لم يكن غيره موجوداً . هو أب البدايات . الله هو الواحد الأزلي . أزلي لا يتناهى و يبقى دائماً و إلى الأبد . بقي عصوراً ليس لها عدد و سوف يبقى إلى أبد الآبدين . الله هو الكائن الخفي الذي لم يعرف صورته إنسان و لا يستطيع**

---

[1] الديانة الفرعونية ص/٢٩/ .

إنسان أن يجد لـه شبهاً أو مثلاً . خفي عن الآلهة و النـاس . سر مغلق على خلقه . لا يعرف إنسان كيف يعرفه . يظل اسمه خفياً . فاسمه سر خفي . أسماؤه كثيرة و لا يحصيها أحد "[٢].

و في برديةأخرى نقرأ " **الله حق . يحيا بالحق و يفتدى به هو ملك الحق يعتمد على الحق . يصوغ الحق و ينفذه في جميع أنحاء العالم . الله حياة و لا يحيا الإنسان إلا بـه . يهب الإنسان الحياة و ينفخ فيه نسمة الحياة . يلد و لا يولد أبداً . ينتج و لا يُنتَج . ولد نفسه أنتج نفسه . يخلق و لا يُخلق . خالق نفسه و صانع جسده** " . و نقرأ في برديـة أخرى ايضاً " **الله خلق العالم و كل ما فيه . هو خالق ما في هذا العالم ما كان و ما سيكون . هو الذي صاغه بيده قبل أن يكون ثمة بدء و هو الذي ثبته بما طلع منه و هو الذي خلق السماوات و الأرض و الأعماق و الحياة و الجبال و هو الذي بسط الـ سماء و أرسى قواعد الأرض . و ما تصوره قلبه حدث على الفور و عندما نطق حدثت كلمته و سوف يبقى إلى الأبد** " و ورد أيضاً في برديـة أخرى " **الله أب الآلهة و أب آباء جميع الآلهة . ما أن سُمع صوته حتى جاءت الآلهة إلى الوجود و جاءت إلى الوجود بعد أن نطق بفمه صور البشر و صاغ الآلهة . هو السيد الأعظم و الخزاف الأول الذي طلع الناس و الآلهة من يديه . وصور الناس و الآلهة على الخزف "[١]** .

إن المقاطع الدينية السابقة تدل بوضوح لا شك فيه على توحيد إلهي محض و متقدم بالنسبة إلى إنسان ذلك العصر . و هي تحمل في طياتها نوعاً من الرقي في الوصول إلى مفهوم الإلـه الواحد و التعبير عنه . و هذا مالا نجده في أي ديانة أخرى معاصرة أو سالفة لهذه الديانـة . و القوة في إدراك هذا التوحيد الإلهي في تلك الديانة هو حقيقة غير موجودة بهذا الشكل و الوضوح في ديانـة بلاد الرافدين عامة . و ذلك بالرغم من أن هذه الديانة قد تحدثت عن مفهوم الإلـه الواحد و تطرقت إليه في مواضع عدة من أساطيرها و ما عثر عليه في الكتابات المسمارية القديمة و غيرها .

لقد بقيت فكرة الإله الواحد في مصر القديمة تتمتع بميزة الصفاء و النقاء و خلوها من الشوائب أكثر من غيرها . بينما في أساطير بلاد الرافدين نرى أن صورة الإلـه الواحد كانت موجودة في بعض الأحيان و لكنها و مع ذلك ، كان يحيط بها شيء من الغموض و التشويش و شيء من الالتباس بآلهة أخرى غيرها . و بالرغم من أنها كانت في بعض أدبيات الأساطير الدينية لحضارة بلاد الرافدين تظهر الآله الواحد مميزاً عن بقيت الآلهة و عدهقوى منها جميعاً و أفضل و أحكم ، إلا إنها كانت تعطي تلك الآلهة ميزات استقلالية عن هذ الإله كانفرادها بتدمير مدينة ما أو فعل

---

[٢] المصدر السابق .

[١] المصدر السابق .

ما . و فضلاً عن ذلك فإن عرض شخصية الإله الواحد في أعراف ديانة بلاد الرافدين يأتي عادة مسبوقاً بآلهة أخرى قبله هي التي خلقته تماماً كما الإله مردوخ ، حيث كان قبله الإله آبسو و أيا و الآلهة تعامة .

إننا إذا افترضنا وجود ديانة توحيدية حقيقية محضة بدأت بأول إنسان على وجه الأرض و هو آدم كما ورد في الكتب السماوية و منها القرآن الكريم ، فإننا نتساءل عن سر علاقة الحكمة البشرية السياسية مع ضعف مفهوم الإله الواحد في بلاد الرافدين قياساً إلى ما هو عليه في بلاد مصر القديمة ؟ إن إشكالية تناول طرح فكرة اختلاف مفهوم الإله الواحد لدى كل من الحضارتين ، لا تتحدد إلا من خلال نظرة السلطة الحاكمة إلى هذا المفهوم ، و بحكم تأثرها في الطبيعة . و هذا تبرز لنا إشكالية العلاقة بين الإنسان و الطبيعة ، و بين الإنسان و الله و جدليتها . و هذه العلاقة برأينا من الصعب فصم عراها إلى نظريتين منفصلتين تماماً بحيث تأخذ كل منهما أبعادها الخاصة بها و حدودها الفكرية و العقلية التي تميزها عن الأخرى ، فالإنسان منذ القديم و منذ نشأته على الأرض و بداية وجوده فيها و منذ وعيه ، كان أول ما تعامل معه هو الطبيعة ، أول شيء دخل في وعي الإنسان هو الطبيعة حتى قبل أن يعي وجوده هو ، و لذلك فإن كل تفكيره كان في البداية ينطلق من خلال الطبيعة حتى تفكيره الديني و نظرته الميتافيزيقية بالنسبة إلى الكون كانت من خلال الطبيعة . و هذا الشيء عززه أيضاً كتب الديانات السماوية الثلاث حيث جاء في القرآن الكريم (**قل انظروا ماذا في السماوات و الأرض ...**) (يونس – ١٠١) (**أو كصيب من السماء فيه ظلمات و رعد و برق يجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت و الله محيط بالكافرين**) (البقرة – ١٩) (**هو الذي يريكم البرق خوفاً و طمعاً و ينشئ السحاب الثقال _ و يسبح الرعد بحمده و الملائكة من خيفته و يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء**) (الرعد / ١٢ – ١٣) (**إن في خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل و النهار و الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس و ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بث فيها من كل دابة و تصريف الرياح و السحاب المسخر بين السماء و الأرض لآيات لقوم يعقلون**) (البقرة – ١٦٤) . (**و هو الذي يرسل الرياح بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء ... لعلكم تذكرون**) (الأعراف – ٧٥) . (**فلا أقسم بمواقع النجوم**) (الواقعة – ٧٥) .

و في التوراة نجد أيضاً ما يدعم هذه المقولة بشكل كبير حيث وردت آيات كثيرة جداً في أسفارها و كلها تتحدث عن السماء و الرياح و عوامل الطبيعة و تقرنها ببعض الأحيان بغضب الرب ومنها على سبيل المثال **[ثم أخرجه إلى خراج و قال انظر إلى السماء و عد النجوم إن**

استطعت أن تعدها] (سفر التكوين ١٥ : ٥) **[هناك بهاء السماء و مجد النجوم و عالم متألق و الرب في الأعالي]** (سيراخ ٤٣ : ١٠) **[تنطق السماء منطقة مجد و يد العلي تمدانها]** (سيراخ ٤٣ : ١٣) . **[قد ضعفت من كثرة مشوراتك ليقف قاسموا السماء الراصدون النجوم المعروفون عند رؤوس الشهود و يخلصوك مما يأتي عليك]** (إشعيا ٤٧ : ١٣) **[و اجلب على عيلام أربع رياح من أربعة أطراف السماء و اذريهم لكل هذه الرياح ...]** (إرميا ٤١ : ٣٦) . و في الإنجيل نجد أيضاً ما يدعم هذا الرأي **[ينزل المطر جاءت الأنهار و هبت الرياح و صدمت ذلك البيت فسقط و كان سقوطه عظيماً]** (متى ٧ : ٢٧) . **[فيرسل حينئذ ملائكته و يجمع مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء الأرض أقصاء السماء]** (مرقس ١٣ : ٢٧) . **[ثم قال لهم أين إيمانكم فخافوا و تعجبوا قائلين فيما بينهم من هو هذا فإنه يأمر الرياح أيضاً و الماء فتطيعه]** (لوقا ٨ : ٢٥) .

مما تقدم و من الشواهد السابقة نستطيع القول إن الطبيعة بكل مظاهرها قد احتوت بالنسبة للإنسان القديم أمرين اثنين .. التفكير و الدين . إذاً لابد للحكمة السلطانية البشرية أن تأخذ في حسبانها عامل الطبيعة بكل ظواهرها . و إذا لاحظنا أن الطبيعة في كلتا المنطقتين ، بلاد الرافدين و وادي النيل ، هما مختلفتان ، كان لا بد لنا من الاستنتاج بأن مفهوم الإله الواحد هو مفهوم مختلف لدى كل من الحضارتين ، و كيف ارتأت الحكمة السلطانية البشرية في كلا الإقليمين النظر إليه من خلال الطبيعة . فمن خلال مظاهر الطبيعة القاسية المتعددة في بلاد الرافدين ، اتجه التفكيرالإنساني العادي من عامة الشعب إلى ربط هذه المظاهر كلها بآلهة متعددة لها فاعلية معينة . و ربما توصلت عقلية هؤلاء الأشخاص و الذين يفترض أنهم ليسوا بالضرورة أن يكونوا من القادة إي أن تفكيرهم ليس من فئة الحكمة السلطانية الوثيقة ، و توصلت قناعاتهم إلى أن هناك آلهة أخرى فاعلة و لها تأثيرها الذاتي و المستقل ، حتى بوجود الإله الواحد الأعلى منها ، فجمعت الإله الواحد الذي في قناعتها الدينية ، مع المظاهر الطبيعية دون رابط عقلي موضوعي . و من باب الاستنتاج نقول إن إنسان هذه المنطقة ربما يكون قد تقرب إلى الإله الأعلى الذي جسده في تراثه و أساطيره الدينية و طلب منه ايقاف كل العوامل و المظهر الطبيعية الضارة به و بمزروعاته و المدمرة لمساكنه . و لما لم يفلح في ذلك نتيجة لعدم خرق القوانين الإلهية لقوانين الطبيعة و التي هي من خلقها و صنعها (و هذا ما نراه في الكتب السماوية أيضاً) **(و إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله أن كنتم مؤمنين)** (المائدة – ١١٢) . **(و إذ قال إبراهيم ربي أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى و لكن ليطمئن قلبي)** (البقرة – ٢٦٠) . **(لولا كتب من الله سبق لمسكم**

فيما أخذتم عذاب عظيم) (الأنفال – ٦٨) . (**و لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة و لا يزالون مختلفين**) (هود – ١١٨) . و في العهد القديم جاء **[عوض أن تقولوا إن شاء الرب و عشنا نفعل هذا و ذاك]** (سفر يعقوب ٤ : ١٥) . **[فقالت امرأته لو أراد الرب أن يميتنا لما أخذ من يدنا محرقة و تقدمة]** (القضاة ١٣ : ٢٣) . عند ذلك نحا هذا الإنسان بنفسه إلى الجانب الآخر لتفسير ذلك و هو وجود قوى أخرى غير الإله الأعلى ، لها سلطات و صلاحيات معينة في ذلك . أي أنه كان أمام مفترق طرق ، إما البقاء على الاعتقاد بالتوحيد الإلهي و عد هذه الظواهر من صلب القوانين الإلهية و هي نتيجة طبيعية و منطقية ، و إما الزج بآلهة أخرى و ربطها بها . فاختار الطريق الآخر و الذي نرجح أنه كان من باب المصلحة النفعية . و تصرف الإنسان العادي هذا أو طبقة العوام ، جعل الحكمة السلطانية هي الأخرى أمام مفترق طرق و ذلك على افتراض أنها كانت تعرف و تعي الحقائق و القوانين الإ لهية العقلية و المنطقية . فإما أنها ستوافق على رأي القاعدة العامة من الناس و إما أن تشذ عنهم و تشكل لنفسها أراء دينية خاصة بها . فاختارت على ما يبدو الطريق الثاني أيضاً و الذي كان أيضاً من باب المصلحة النفعية و ذلك لظروف و أسباب لا يمكن فهمها و استنتاجها إلا من خلال معرفتنا بالصراع بين الملوك و الكهنة في ذلك الوقت ، و بالعامل الخارجي المتمثل بالغزوات الخارجية . فبلاد الرافدين قد تعرضت لخضات سياسية متعددة قياساً إلى مصر القديمة ، تمثلت بالغزو الخارجي بشقيه السلبي و الإيجابي ، أي من البلاد إلى خارجها ، و من خارجها إلى داخلها بكل جوانبه الفكرية و الدينية و الثقافية . هذا ربما يكون قد فتح المجال لتذبذب الفكر الديني و تأرجحه بين نظريات و آراء إلهية متعددة لكل منها براهينها و إثباتاتها و جذورها الطبيعية الأولى التي نشأت منها . و فضلاً عن ذلك فإن التعرض الدائم للغزو بشقيه السابقين يؤدي حتماً إلى اختلاط الأمر السياسي بالأمر الديني ، وهذا لا بد له من أن يفتح المجال أمام الحكمة السلطانية لت لعب دوراً كبيراً و تحتل مساحة واسعة و حيزاً كبيراً في توجيه الرأي العام و توليفه على أمور و آراء متناسبة مع الحدث الآني الذي تتعرض له البلاد و الذي يصب في مصلحة بقاء المجتمع و الدولة كما هما من دون تعديل .

أما في بلاد مصر القديمة ، فنرى أمراً مختلفاً تماماً عما هو عليه الحال في بلاد ما بين النهرين حيث نرى أن مفهوم الآله الواحد و بالرغم من وجود آلهة أخرى ، قد طغى على أدبيات الخطاب الديني في الكتابة المصرية القديمة و كان لهذا الإله سلطة علياً واضحة و قوية على كل الآلهة الأخرى . و ليس هناك شيء يتم من دون علمه أو إذنه ، فهو المسيطر سيطرة تامة على أرض مصر كلها ، و هو إله محب خيّر ، يحب أرضه مصر و يحب رعاياه ، على عكس الآلهة في

بلاد الرافدين التي كانت تغضب دائماً و بسرعة و تصب لعناتها و غضبها و عذابها على السكان ، فتدمر أرضهم و مساكنهم . و لكن الأمر كان مختلفاً هنا في أرض مصر ، حيث تعامل الإنسان العادي مع مظهر واحد من مظاهر الطبيعية ، أثر فيه و في مزروعاته و أرضه و رافقه يومياً في حله و ترحاله ، و هو الشمس .

لقد كانت الشمس تعني الكثير للإنسان المصري ، فهي كانت تمنحه الدفء و الاستقرار في المناخ و في الوقت نفسه كانت تختفي من أمامه كل مظاهر الطقس المدمرة كالعواصف و الفيضانات و البرد . وشيئاً فشيئاً بدأت ترتبط بذهنه الشمس كعامل ثابت لا يرى غيرها غالباً ، بالإضافة إلى نهر النيل الذي كان يمده و يمد مصر كلها بالحياة . و لكن نهر النيلو بالرغم من أنه كان ذ ا فائدة كبيرة و أساس في حياة الإنسان المصري القديم ، فإنه (أي هذا الإنسان) قد وضع مفهومه للتوحيد الإلهي و الإله الواحد في الشمس . و هذا سبب لم يتوضح لنا بدقة تفصيلية ، و لكننا نستطيع الاستنتاج بأن تفضيل الإنسان المصري للشمس على النيل كر مز للإله الواحد ، ربما يعود مرده إلى أن نهر النيل كان بمتناول هذا الإنسان دائماً ، فهو ينزل إليه و يأخذ منه و يغوص فيه و يعرف كل كائناته . أي أن النيل كمظهر من مظاهر الطبيعة الأساس للإنسان المصري القديم ، كان مظهراً معروفاً بكل أبعاده و منشئه و في متناول يديه ، بينما كانت الشمس خارج نطاق هذه الأمور كلها ، ليس ذلك فحسب ، بل لعل عدم قدرته على النظر إليها كان سبباً رئيساً في إدخالها ضمن نطاق الألوهية .

لقد تميزت الشمس عن النيل في نظر الإنسان المصري بمفهوم العجز ، فهو و بالرغم من أنه كان عاجزاً أمام الشمس التي كانت أكثر الكواكب قرباً له و ظهوراً أمامه و تأثيراً في حياته ، لا يستطيع فعل أي شيء حيالها و لو بتفسير معين ، بينما لم يشكل له النيل هذا العجز الكبير . يضاف إلى ذلك أمران مهمان ربما يكونان قد لعبا دوراً في هذا المجال . و وضع الشمس في دائرة الألوهية ، الأول هو الثبات ، فبينما كان النيل يتغير سنوياً بمد و جزر و فيضان و ركود و غيره ، فإن الشمس كانت تمثل مشهداً ثابتاً يتكرر يومياً و على مدار السنة كلها دون أن يتغير قيد أنملة . الأمر الثاني هو المشاركة ، حيث تميز نهر النيل كمظهر عياني ، بتمازج كائنات حية عدة فيه ، و السفن التي تمخر مياهه و الزوارق التي تسبح فيه ، مما أفقده شيئاً من مصداقية الوحدانية ، بينما تميزت الشمس ككائن وحيد لم يقترن معه شيء .

من ذلك كله اتجه الإنسان المصري القديم نحو الشمس و رأى فيها رمزاً للإله الواحد . و لكن ذلك لا بد من أن يكون ضمن إطار الحكمة و من خلالها ، سواء الحكمة الإلهية أو الحكمة السلطانية . و هنا في موضوع الشمس تقرر أن الحكمة السلطانية كان لها دور كبير و فاعل في توجيه الرأي

العام نحو الشمس لأسباب عدة برأينا و هي : انتشار فكرة الشمس كرمز للإله في أذهان العامة من الناس و محاولة الحكمة السلطانية مداراة هذا الأمر و مسايرة الطبقة العامة في عقائدها . الأمر الثاني هو أن الحكمة السلطانية قد ارتأت أن الشمس كـ كائن غامض للإنسان المصري لا يستطيع إدراك شيء منه إلا المظهر فحسب ، هو أفضل من النيل المعروف لهذا الإنسان ، كرمز للإله . و يبدو أن الحكمة السلطانية أدركت نتيجة الخبرة المتراكمة لديها أن المجهول هو الأقرب إلى عقلية الإنسان كمظهر إلهي من الشيء المعروف . و هذه التراكمات بدأت لديها منذ المرة الأولى التي تعاملت فيها مع المجهول الذي كانت تراه في الطبيعة أمامها عندما وعت نفسها في الوجود . و من وقتها بدأ الدين مع الإنسان لمحاولة التعرف على المجهول و غير المدرك . كان ذلك هو البداية للتدرج بين سلسلة من المجاهيل الأولى في حياة الإنسان القديم و التي كلما انكشف له خبايا و أسرار أحدها ، تركه و انتقل مباشرة إلى المجهول الذي يليه ليعبده أو على الأقل ليضفي عليه لمسة الألوهية في محاولة لكشف أسراره و معالمه ، حتى يصل إلى الشيء الذي لا يستطيع أن يجد له تفسيراً و في الوقت نفسه مهيمن على حياته كلها .و ربما كانت الشمس تمثل للإنسان المصري القديم هذه الأمور كلها و لعل مثال النبي إبراهيم (ع) في القرآن الكريم ، يعطي لمحة و ضوءاً حول هذه النقطة و ذلك عندما تخلى عن الكواكب ثم القمر ثم الشمس لينتقل بعدها إلى المفهوم الأخير و الذي لم يعط له أية صفة يمكن الاستدلال بها عليه و ذلك لقوله (**إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات و الأرض ...**) .

و لذلك و بناء على ما تقدم فإن الحكمة البشرية السلطانية ارتأت أن المجهول هو أفضل ما يقاد به الإنسان و يعمَ مْ عليه دينياً ، لسبب واضح و هو أن الإنسان بعامة لديه غريزة خوف من المجهول . و الحكمة السلطانية قديماً و خاصة في الحضارة المصرية القديمة ، قد لعبت على هذا الوتر ، وتر الخوف من المجهول لضبط العامة من جهة و تأسيس نواة لحضارة الدولة الحديثة من جهة أخرى . و هنا نحب أن نلفت نظر القارئ إلى أن ذلك ليس من باب الفرض الحتمي الثابت و لكن من باب الاستنتاج الاحتمالي . و الذي يجعلنا نطرق باب الاستنتاج ، هو صلاحية مفهوم الخوف من المجهول لدى الناس كمبدأ لفكرة إدعاء الألوهية . فعلى مدار التاريخ المصري القديم ، كان الفراعنة يصبغون لأنفسهم سمات إلهية جزئية ، كأن يعرف الحاكم بأنه نصف أو ثلث أو ربع إله أو بعض منه أو ابن الإله . و غالباً ماكان يطلق على الفرعون لقب ابن الإله (رع) . أو أن تكون السمة الإلهية كلية كأن يجعل الحاكم نفسه إلهاً محضاً . و هذه القضية بحد ذاتها توضح لنا و بشكل جلي دور الحكمة السلطانية الكبير في صياغة هذه الفكرة و إظهارها إلى العلن و إلى العامة . و نتساءل هنا : هل كانت الحكمة السلطانية على اطلاع حقيقي و واضح

على مفهوم الإلـه الواحد الصحيح ؟؟ الجواب يرجح أن يكون بنعم لأنها من غير الممكن أن ترفض أمراً ما مبدئياً ، ثم تحاول طرحه في الوقت نفسه على عموم الجمهور لتقبله . و بكل حال فسواء أكانت الحكمة السلطانية هي من توصل إلى مفهوم الإلـه الواحد أولاً أم جهة ما غيرها ، فإنها تبنت هذه الفكرة كأساس لقيادة المجتمع و الناس ، لأنه مفهوم منطقي تم قبوله من كل أطراف المجتمع و فئاته ، و أضحى يشكل أساس و عماد عقيدة كل فرد سواء أكان خالصاً أم مشوباً بأفكار و آلهة أخرى ، هذه القضية تنقلنا فوراً إلى استنتاج آخر و هو أن الحكمة السلطانية المصرية فضلت أن تمزج فكرة الإله الواحد ببعض الشوائب و تجعل معه آلهة أخرى ليتيسر لها طرح نفسها كوكيلة للآلهة أو جزء منها أو من سلالتها أو ... أو . و إن كنا لا نرجح بشكل يقيني أن هذه الطبقةالحاكمة قد توصلت هي أولاً إلى مفهوم الإلـه الواحد ، فإننا يقيناً نقر و نجزم أنها كانت أول من أدرك و عرف تأثيره في أفراد الجماعة و المجتمع و أثره في توجيههم و تنظيمهم .

إن هذا الطرح يقودنا إلى فكرة أن المزج بين الأمر الديني المحض و الأمر الاجتماعي كان بالأساس من نتاج الحكمة السلطانية و إن كانت له ربما بعض المعطيات في المفهوم الإلهي المحض . و هذا المزج لم يكن ليوجد إلا تحت وطأة الحاجة و الاضطرار إلى قيادة المجتمع و لكونه الأنجع في ذلك . وإلا فإن الحكمة السلطانية كان من المؤكد أنها ستجد البديل له في ذلك . و لكانت قد فشلت في قيادة المجتمع عندما اعتمدته ، و لكنها نجحت نجاحاً باهراً و منقطع النظير في ذلك ، و الدليل هو هذه الحضارة العريقة التي لا تزال إلى الآن مثار إعجاب البشرية كلها . . العامل الثاني لنجاح هذا الأمر هو أنه حتماً كان يوجد له بعض المعطياتفيالديا نة الإلهية المحضة و إلا لما كتب له النجاح . و الآن و بعد كل هذه الأفكار و المقولات ، لا بد لنا من أن نتساءل كيف نظرت العقيدة المصرية القديمة للإله الواحد و تكلمت عنه ، و كيف وردت هذه الرؤية في الكتابات المصرية القديمة .

في البدء لا بد لنا منأن ننظر في مبحث بداية الوجود و الخلق في الخطاب الديني المصري القديم كما ورد في الكتابات الهيروغليفية و على لسان الباحثين . يقول (واليس بدج) " يهب المصريون إلى أنه كان ثمة وقت لم يكن فيه وجود للسماوات و الأرض ، و لم يكن لشيء وجود غير الماء البدئي الذي لا حدود له و الذي كانت تغلفه ظلمة شديدة كثيفة . و قد ظل الماء البدئي على هذه الحالة مدة طويلة بالرغم من انطوائه على جرثومة الأشياء و التي جاءت فيما بعد إلى الوجود و على العالم نفسه . ثم شعر روح الماء البدئي برغبة في الفعالية المبدعة . و ما إن نطق الكلمة حتى ظهر العالم إلى الوجود على الفور على الهيئة التي كان موصوفاً بها في عقل الروح قبل أن ينطق الكلمة التي نتج عنها خلقه و تلا ذلك الفصل الثاني من الخلق ألا و هو صوغ

الجرثومة أو البيضة التي انبثق منها الإله (رع) إله الشمس الذي تجسدت في هيئة شعاعه قوة الروح الإلهي ذات القدرة "[1]. و قد جاء في برديـة (نيزي آمسو) المحفوظة في المتحف البريطاني ، وصف آخر لتكوين الخلق الذي كان باسم الإله المتكلم هذه المرة حيث يقول عن نفسه **[طورت تطوير الأطوار . طورت نفسي في هيئة أطوار الإله خيبيرا الذي كان تطوره في بداية الزمان بتطورت مع أطوار الإ لـه خيبيرا . تطورت بتطور الأطوار . أنشأت نفسي من المادة البدئية التي خلقتها . اسمي أوزارس (أوزيريس) جرثومة المادة البدئية . لقد جعلت إرادتي كلها في هذه الأرض . بسطتها إلى الخارج و ملأتها . كنت وحيداً إذ لم يكن ثمة شيء مخلوق في ذلك الوقت . نطقت باسمي بما هو كلمة القدرة من فمي و أنشأت نفسي . أنا خلقت جميع الأشياء . لقد خلقت الخلق بواسطة الروح الإلهي الذي ظل في الهاوية المائية لا يفعل شيئاً . ما وجدت مكاناً أقف عليه لكني كنت قوي القلب و لم أصنع أساساً لنفسي و خلقت كل شيء مما خلق و كنت وحيداً . وضعت أساساً لقلبي (أو إرادتي) و خلقت عدداً لا يحصى من الأشياء]**[2] . و في برديـة (آني) ، نجد عبارات الوصف التالية بحق الإله الواحد و الذي تمثل بالإله (رع) حيث تقول هذه البردية **[أنت الواحد الذي خلق الإنسان و خلق جوهر آلهة الجنوب و الشمال و الغرب و الشرق / أي (رع) إن الذين يسكنون الأعالي و يسكنون الأعماق كلهم يعبدونك الإله توت و الآلهة معات يرسمان لك الطريق في كل يوم]**. و جاء في برديـة (هونفر) **[يا أيها المتوج ملكاً على جميع الآلهة أنت رب السماء و رب الأرض خالق الذين يسكنون الأعالي و يسكنون الأعماق . أنت الإله الواحد الذي جاء إلى الوجود في بداية الزمان . إنك أنت الذي خلق الأرض و أنت الذي خلق الإنسان . أنت مجهول و ما من لسان بقادر أن يذكر شبيهاً لك . أنت وحدك الذي يستطيع أن يفعل ذلك . أنت الواحد ، يثني عليك الناس باسمك و يحلفون لك . أنت السميع بأذنيك و البصير بعينك . ملايين السنين انقضت من عمر الدنيا أما أنت فلا أعرف عدد السنين التي قضيتها . لقد عين قلبك يوماً السعادة . إنك أنت الذي سافر إلى أماكن تتطلب ملايين السنين و مئات ألوف السنين لبلوغها . قطعتها في سلام و وجهت طريقك في الهاوية المائية إلى المكان الذي تحبه . تفعل هذا في لحظة قصيرة من الزمن ثم غصت في القاع و وضعت للساعات نهايتها]**[1] .

إن هذه الكتابات الدينية هي في الحقيقة تعبير عن توحيد حقيقي خالص و متطور بالنسبة إلى تلك الفترة و قياساً إلى مستوى المفهوم الثقافي الديني و برأينا أن الديانة المصرية القديمة قد تميزت

---

[1] الديانة الفرعونية ص/٣٢/ .

[2] المصدر السابق ص/٣٤/ .

[1] المصدر السابق .

حقاً بطرح مفهوم إلهي توحيدي مـ ميز و متطور . و من خلال قراءتنا لتلك النصوص السابقة نرى أن أول شيء كان في الوجود أو حتى قبله ، هو الماء الذي كان حسب تلك المعتقدات قبل كل شيء حتى قبل الأرض و السماء و الذي كان مغلفاً بظلمة كثيفة و يحوي في داخله جرثومة الأشياء . هذه الفكرة تقودنا إلى ملاحظتين مهمتين .. الأولى هي التوافق الكبير بين معتقدات الديانة المصرية القديمة و ديانة بلاد ما بين النهرين عامة حول النظرة إلى نشأة الكون و نظام الحياة ، بل و حتى مع الأديان اللاحقة و منها الأديان السماوية . و نلاحظ أيضاً أن أساس التوحيد الإلهي الذي تجسد في الماء ، هو في الوقت نفسه عامل أساس و محوري في حياة الإنسان الذي عاش في تلك الفترة سواء بالإفادة و النفع كما في وادي النيل أم بالأذى و الضرر كما في بلاد ما بين النهرين . و النتيجة التي نخلص إليها هي أن مفهوم التوحيد الإلهي قد ارتبط بعامل أساس و محوري فاعل و مؤثر في حياة الإنسان القديم . فالديانة المصرية جعلت لب التوحيد في الماء و جعلت مبدأ الخلق منه و ذلك من العبارة السابقة التي تقول (ظل الماء البدئي على هذه الحالة مدة طويل بالرغم من انطوائه على جرثومة الأشياء التي جاءت فيما بعد إلى الوجود) كما عد الماء مالكاً للألوهية و يحوي شيئاً من الصفات أو الذات (حسب تلك الكتابات) و ذلك من عبارة (ثم شعر روح الماء البدئي برغبة في الفعالية المبدعة و ما إن نطق الكلمة حتى ظهر العالم إلى الوجود على الفور) . هنا تم الحديث عن الذات الإلهية حسب منظور تلك الديانة و التي عدتها أنها كانت في الماء . و يلاحظ في سياق العبارة أنه تم الحديث عن شيء اسمه الماء البدئي . الذي من الواضح أن اسمه ورد عن قصد و أنه يعني دلالة معينة قد تكون ربما خارج نطاق مدلول المعنى اللغوي الماء العادي لأن هذا الماء كان موجوداً حيث لم يكن هناك سماء و لا أرض و لم يكن شيء ، و لاحتوائه على جرثومة الأشياء (حسب النص) و التي ربما يكون منها الماء العادي . و مفهوم الماء هذا نراه في الكتب المقدسة أيضاً حيث جاء في التوراة في سفرالتكوين **[في البدء خلق الله السماوات و الأرض و إذا كانت الأرض مشوشة و مقفرة و تكتنف الظلمة وجه المياه و إذ كان روح الله يرفرف على سطح المياه / ثم أمر الله ليكن جلد يحجز بين مياه مياه]** . و في القرآن الكريم نرى (**و هو الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيام و كان عرشه على الماء**) (هود – ٧) . يتبين من ذلك التشابه الواضح في مفهوم بدء التكوين الإلهي . كما يتبين التشابه في الإشارة إلى التفريق بين نوعية المياه . و هذا ما يحدو بنا إلى القول إن الديانة المصرية القديمة و التي وصلت إلينا عبر الكتابات الهيروغليفية على أوراق البردي ، كانت تحتوي في حيثياتها على مفاهيم و تعاليم إلهية سليمة و محضة . و هذه المقولة إذا اعتمدناها كفرضية مسلم بها ، فإنها تقودنا إلى اعتبار أن الحكمة السلطانية لم يكن لها هذا الدور الكامل في اعتماد عوامل الطبيعة كأساس و مفهوم توحيدي إلهي . و لم يكن ذلك من اختراعها ، بل من

المرجح في ذلك أنه حصل خلط فيما بعد و التباس أدى إلى تعددية المظاهر الطبيعية كصفات و أسماء لآلهة مختلفة متعددة . أما ما هو دور الحكمة البشرية في ذلك ، فهذا ما لا يمكن تحديده بدقة ، إلا من باب الاستنتاج فحسب . نتابع النص المتحدث عن كيفية تشكل الكون لنقرأ المقطع التالي **[ثم شعر روح الماء البدئي برغبة في الفعالية المبدعة و ما أن نطق حتى ظهر العالم]** هذه المقولة توافق تماماً مقولة أسطورة الإينوما إيليش في بلاد ما بين النهرين حول آلهة السكون الأولى (تعامة) و التي قررت خلق آلهة الحركة من بعدها و التي خلقت هي بدورها الكون فيما بعد ، بعد أن خاضت معركة دامية ضد الآلهة تعامة . و هذه الفقرة بالذات تبرز لنا بشكل واضح و جلي ، وجود الحكمة الإلهية و الغاية الخفية لها من وراء خلق هذا الكون و هنا أيضاً نستطيع التأكيد أنه لا دور للحكمة البشرية في هذه المسألة لأنه لا وجود لمصلحة مادية سياسية في ذلك .

إن وجود الحكمة الإلهية المجرد يستوجب منطقياً عدم وجود الحكمة السلطانية ، لأنه من الطبيعي و البدهي أن الحكمة الإلهية عندما تطرح نفسها في الخطاب الديني بعامة و في كل الأديان ، تطرح نفسها كحكمة مبادرة نافية أي وجود لرأي بني البشر في ذلك . و هي في معظم الأحيان تطرح إرادتها بحيث لا يمكن إدراك الغاية منها أو إدراك خفايا أسبابها ، أو أنه يمكن أن تظهر فيما بعد . و لا يبدأ عمل الحكمة البشرية السلطانية و ظهورها إلا في وقت لاحق حيث تطرح نفسها مبررة و شارحة و مفسرة لمراد الحكمة الإلهية . و ظهورها هذا و طرحها ، لا بد من أن يدخل فيه شيء من الغاية السياسية أو الاجتماعية و تحت إطار المصلحة العامة حتماً . لأن عبارة **[حتى ظهر العالم إلى الوجود على الفور على الهيئة التي كان موصوفاً بها في عقل الروح قبل أن ينطق الكلمة التي نتج عنها خلقه]** تظهر بشكل جلي فكرة وحدانية التفكير و التصرف و الغاية الإلهية ، باعتبار عدم وجود أي شيء معها و إلى جانبها شاركها في ذلك . و كل ما عدا ذلك فهو قد ظهر كنتاج لهذه الحكمة و من رحمها و إرادتها ، بكل ما حواه من صفات قد تكون متناقضة و مختلفة بعضها مع بعض و هذا ما يدلنا عليه سياق المقطع الآتي **[و تلا ذلك الفصل الثاني من الخلق ألا و هو صوغ الجرثومة أو البيضة التي انبثق منها الإله رع]** تأسيس لمرحلة جديدة أخرى من مرحلة بدء الخلق ، شبيهة بالتدرج الذي في الإينوما إيليش و الذي تمثل بخلق آلهة الحركة مع فارق بسيط و هو أنه في العقائد المصرية لم يحصل خلاف و صراع و سفك دماء فيما بين آلهة الجيل الأول و آلهة الجيل الثاني ، باستثناء بعض الخلافات بين الآلهة

الصغيرة [1] . أما الخلاف بين الإله الأول أو الخالق لجميع الآلهة ، وبين خلقه من آلهة ، فهو غير موجود هنا .

إن نص العبارة السابقة يفتح المجال و يؤسس لمرحلة من التفاهم و العلاقة ، بين الحكمة السلطانية و الحكمة الإلهية ، و من منظور الحكمة البشرية حتماً . فأضحى هناك رمزان أو إلهان ، أحدهما المسمى بروح الماء و هو الإله الأول المجهول و الذي لا يمكن الاقتراب منه و التفكير فيه أو طرح اسمه للعامة للتداول و هذا ما ارتأته الحكمة البشرية السلطانية ، و هو إن حصل فعلاً ، فإنه يدل على فصل هذه الحكمة لموضوع الدين و التوحيد الإلهي الخاص عن المصلحة العامة و الحياة الاجتماعية . أما الإله الثاني (رع) فهو يمثل إلهاً قابلاً للتداول بين العامة و قابلاً لأن يكون رمزاً للإله الواحد يعتمده هؤلاء العامة و يصبح في الوقت نفسه مادة أساساً للخطاب الديني الرسمي للديانة الفرعونية القديمة .

و لكن هل نستطيع أن ننفي وجود الحكمة الإلهية في قضية طرح هذا المفهوم ؟؟ لا يمكننا التكهن بذلك لكن قد نستنتج أن ذلك الأمر حوى في طياته شيئاً من هذا القبيل و ظهرت في سماته ملامح الحكمة الإلهية . و الغاية هي ربما من أجل صيانة مفهوم التوحيد الإلهي الحقيقي و حمايته ، و عدم الانزلاق به إلى متاهات الأمر السياسي و الاجتماعي . و وضع شبيهاً له أو نظيراً بشكل مباسر أو غير مباشر ليكون بمنزلة حجاب بالنسبة له . و يتضح لنا بالتالي أن نهاية مجال خلط الحكمة السلطانية البشرية مع الحكمة الإلهية و تواجدهما ضمن مجال واحد و تقاطعهما في مفهوم و عمل ما ، هو في بداية طور الجيل أو الاشتقاق الثاني للآلهة المصرية القديمة الذي يتمثل هنا بالإله (رع) . أما ما قبل هذا النطاق فهو محرم عليها و ممنوع أن تخوض فيه و لعل هذا الأمر يفسر لنا قدسية الإله (رع) و الهالة الكبيرة التي أعطيت له في نفوس المصريين و ربما يكون ذلك من تدبير الحكمة السلطانية البشرية لكي تثبت نفسها و ترسخ جذورها في عقول العامة من المصريين و يتوضح هذا الأمر أكثر عندما نعرف أن الفراعنة المصريين كانوا دائماً يدعون أنهم أبناء الإله (رع) أو جاؤوا بتكليف منه . و هذه المقولة لابد من إضفاء نوع من الصفة التنفيذية أو الإرادة القادرة ، عليها ، ليكتمل لذلك نصاب تحديد الملامح و الصفات الأساس للآلهة التي سيعرفها الناس و التي على أساسها سيتم الادعاء و الإعلان عن الكلام باسمها و استمداد الشرعية و الحكم منها ، و تطبيق القوانين باسمها ، بل و حتى الإدعاء بأبوتها و تلبس بعض أو معظم أو كل صفاتها أحياناً . و هذا ما نراه في الفقرة الأخيرة من المقطع السابق (الإله رع إله

[1] ننبه القارئ إلى أن الصراع الذي دار بين الإله أوزيريس و الإله حورس ، لا يدخل ضمن هذا المجال لأنه من الفئة أو التراتبية الإلهية المتقدمة .

الشمس الذي تجسدت في هيئة شعاعه قوة الروح الإلهي ذات القدرة) هنا أعطيت القدرة للإله (رع) ليصبح الإله الرسمي المعتمد و الذي يتمتع بكل الصلاحيات و الإمكانيات . و يبدو هذا تشابه واضح بين تلك النظرية و ما جاء في أسطورة الإينوما إيليش حول بداية الخلق و الفرق و التمييز بين الآلهة الأولى التي لم تكن تمتلك أو تتصف بصفة القدرة الكلية أو أنها كانت كامنة فيها و لم تظهرها ، كما في آلهة السكون الأولى تعامة ، مع فارق بسيط و هو أنه بينما كانت الآلهة (تعامة) معروفة و مذكورة في الأسطورة من حيث الاسم و العقل ، فإن الإله الأول في الديانة المصرية هو إله مجهول و غير معروف أو بشكل آخر ، معتم عليه إعلامياً و فكرياً في منهج الديانة المصرية . كما أن الانتقال و التحول من الشكل الأول للآلهة إلى الشكل الثاني الذي تجلي بصفات القدرة ، كان في ثقافة بلاد الرافدين نتيجة لمعارك دامية و عسيرة راح ضحيتها العديد من ألالهة . أما في الثقافة المصرية القديمة فقد تم الأمر بسلاسة تامة و هدوء و دون أي إشكال . و إذا تمعنا في النص الديني السابق ، نرى أنه تم الفصل فيه بين الآلهة الأولى و الثانية من حيث الوجود و الصفات ، بالأشخاص . فكان هناك تمييز واضح بين الاثنين من حيث الإثنـ رة و التشخيص . أما في النص الثاني المسمى بردية (نيزي آمسو) فنجد عملية أخرى لوصف التكوين و بدء الخلق و لكن هذه المرة اسم الإله نفسه الذي بدأ الخلق و تكلم هو عن نفسه و عن كيفية خلقه للكون و ذلك خلافاً للنص الأول السابق الذي جرى فيه الحديث عن الإله و الخلق بالضمير المفرد الغائب (هو) و هو هنا تحدث عن نفسه قائلاً **[طورت تطوير الأطوار . طورت نفسي في هيئة أطوار الإله خيبيرا الذي كان تطوره في بداية الزمان . تطورت مع أطوار الإله خيبيرا[1] . تطورت بتطوير الأطوار أنشأت نفسي من المادة البدئية التي خلقتها]** وصف غامض و مبهم قليلاً لعملية بدء الخلق قياساً للوصف الأول . و لا يفهم منه إلا عملية تطوير إله واحد أو تجليات و مظاهر عدة لإله واحد اسمه (خيبيرا) . و لا نستطيع الاستنتاج بأن عملية التطوير هذه كانت مرتبطة بعامل الزمن أو أي مفهوم زمني معين . و كل ما يتضح هو أطوار . يلاحظ أن الماء الذي جاء ذكره في في البردية الأخرى السابقة ، ليس له وجود في عملية التكوين و الخلق تلك ، بل ذكر وصف المادة البدئية . و هنا أيضاً نقع في إشكالية ماهية هذه المادة البدئية و التي قد تكون شبيهة بوصف مفهوم الماء البدئي من حيث الإبهام و الغموض . و يبدو التقارب بين علاقة الإله مع الماء البدئي في النص الأول و علاقته مع المادة البدئية في النص الثاني . ففي النص الأول كان هناك روح للماء البدئي بينما في النص الثاني نرى الإله يتكلم عن ذاته و يقول (أنشأت نفسي من المادة البدئية التي خلقتها) و هي علاقة جدلية من الصعب تحليلها إلى عوامل

---

[1] هو إله بدئي قديم مجهول الهوية و نموذج للمادة التي ينطوي في داخلها على جرثومة الحياة التي هي في سبيل أن تنبثق إلى وجود جديد و قيل إن معناه المجهول أو الذي يدور .

تفسيرها الحقيقية . لأنها تدل في معناها و مدلولاتها على وصف عسير للتوحيد الإلهي ، يقول عن ذاته أنه خارج نطاق الفهم الإنساني أو على الأقل فهم الجمهور ، ليكون حكراً بيد الكهنة و الفراعنة . **[اسمي أوزارس (أوزيريس) جرثومة المادة البدئية لقد جعلت إرادتي كلها في هذه الأرض بسطتها إلى الخارج و ملأتها]** هنا يعلن الإله عن اسمه و يصرح عن نفسه و يقرنها إلى المادة البدئية الأولى و يتحدث مباشرة عن خلقه الأرض و كيفية خلقه لها . و سياق هذا المقطع يدل على تحول واضح و ملفت للنظر في مفهوم التجلي الثاني للآلهة أو بداية ظهور القدرة و العمل التي ستدخل في طياتها الحكمة السلطانية البشرية . و هذا ما نلاحظه من خلال هذا التحول الفجائي و دون مقدمات إلى خلق الأرض و اتخاذ اسم و صفة (أوزيريس) . **[كنت وحيداً إذ لم يكن ثمة شيء مخلوق في ذلك الوقت . نطقت باسمي بما هو كلمة القدرة من فمي و أنشات نفسي أن خلقت جميع الأشياء]** ظهور عملية اختزال التكوين و بدء الخلق في شخص إله واحد و الذي اختزل في شخصه و جمع في صفاته أيضاً مفهوم القدرة و الحركة و الإرادة . فأصبح الإله الذي هو رمز الحكمة الإلهية ملهم للحكمة السلطانية و مؤيد لها في جميع أعمالها . و يتضح ذلك بشكل أكبر عندما نعرف أن أوزيريس و الذي هو اسم الإله ، قد أطلق أيضاً على أحد فراعنة مصر و الذي اتخذ صفات ألوهية لنفسه . و قد قال عنه واليس بدج في كتابه الديانة الفرعونية " بعد اعتلاء أوزيريس عرش مصر ، انصرف إلى تمدين رعيته و تحويلهم عن مجرى حياتهم الهمجية السابقة ، فعلمهم حراثة الأرض و زراعتها و غرس الأشجار المثمرة و استن لهم مجموعة من القوانين ينظمون بها العلاقات فيما بينهم و علمهم ما يجب عليهم من فروض الاحترام و العبادة لآلهتهم . ثم بنفس الروح الطيبة جاب سائر بلاد الدنيا يحث الناس في كل مكان على اتباع سنته ، لا بقوة السلاح ، بل بالحجة و الإقناع و كان من ثمرة آخر هذه المناسبات أن خلص الإغريق إلى نتيجة و هي أن أوزيريس هو نفسه يونيسيوس "[1] .

إذا تأملنا في نص القراءتين السابقتين و التي تحدثت إحداهما عن أوزيريس كإله و كيف ظهر ، و الأخرى تتحدث عنه كحاكم أوفرعون ، رأينا أنهما متوافقتان تماماً . و بمعنى آخر ، فإن كلاً منهما يؤدي إلى الآخر . و يتبين لنا أن أوزيريس الحاكم الأرضي و الفرعون المهيمن على مصر ، هو بشكل أو بآخر صورة عن أوزيريس الإله الذي خلق نفسه و طور ذاته . و لا يستبعد في نظرنا أن تكون الحكمة السلطانية قد تدخلت في النص أو المقطع الإلهي لتضفي عليه الطابع الأرضي البشري الاجتماعي الناظم لشؤون الأفراد و الجماعة . فأوزيريس الحاكم و الفرعون ، يعتمد على أوزيريس الإله في تنفيذ مشاريعه العمرانية و الحضارية و تطوير أفراد شعبه بما

[1] إله إغريقي قديم .

يتلاءم و تلك الحضارة ، و يستمد صلاحياته من أوزيريس الإله و التي هي بالدرجة الأولى صلاحيات معنوية على ما يبدو ، إلى جانب كونها دينية . و لعلنا نلاحظ أن وصف التكوين في بردية (نيزي آمسو)صمم ليناسب المفهوم الحضاري الإنساني و يتوافق مع مشروع بدء التكوين الحضاري لنظام دولة و مجتمع . و هذا التوجه نراه في سياق النص الإلهي السابق حيث انتقل بنا فجأة من وصف تكوين إلهي بحت و غامض بعض الشيء و معقد من منطلق لاهوتي توحيدي ، إلى تكوين الأرض و خلقها و بسطتها و بث المخلوقات فيها و دون مقدمات ، في تفسير يبدو و كأنه حاجة ملحة لصنع الحضارة البشرية و العمرانية و خلقها . و تلا ذلك بعبارات مثل (كنت قوي القلب – وضعت أساساً لإرادتي – خلقت عدداً لا يحصى من الأشياء) و التي تشكل في أساسها و سياقها خطاب للآخر و الذي ربما يكون الإنسان المصري ، في نوع من التحفيز و شحذ الهمم . كذلك يتضح الأمر من عبارة (اسمي أوزارس أو أوزيريس) و التي هي أيضاً خطاب موجه .

بالمجمل إذا نظرنا إلى نص بردية (نيزي آمسو) ككل ، نرى أن هناك حكمة أوجدته و كان لها غاية من وضعه و صياغته بحيث يكون خطاباً موجهاً و معداً ليكون حجر أساس للأمر الاجتماعي و الديني عامة .

لقد تميزت الديانة المصرية القديمة بأن الصفاء الديني و التوحيد الإلهي يكون أصفى و أقوى نوعاً ما كلما أوغلنا في قدم التاريخ المصري . و يلاحظ ذلك حتى في الكتابات الدينية الهيروغليفية التي تتحدث في بدايتها عن التكوين الإلهي الصافي و الغامض بآن معاً ، لننتقل بعد ذلك إلى الحالة الوصفية الاجتماعية التي تعبر عن تصرفات و رأي الآلهة تجاه الناس . و يترافق ذلك أيضاً مع وضوح اسم الآلهة و ربما تعددها ، كذلك وضوح إرادتها و غايتها . هذا الأمر انسحب أيضاً على ذهنية الإنسان المصري الذي صار القديم بنظره معياراً لقدسية الشيء و صفاء مكوناته الإلهية ، و من الجدير أن يرفع من شأنه .

لقد امتزج كنه التعبد و التوحيد الإلهي المصري منذ القدم بمفهوم الحكمة ، فكان من المنطقي بعد تأسيس الدولة المصرية لكيانها السياسي و أساسها الاجتماعي الذي نتج عن تطور الجماعات و القرى و المستقرات ، كان من المنطقي أن يتعرف الإنسان المصري القديم على مفهوم الحكمة و يدرك أن له بشقيه الإلهي و البشري السلطاني ، دوراً كبيراً و أساساً في تأسيس حضارته تلك التي امتزج فيها الأمران الديني و العلمي معاً و من أهم الأسباب المباشرة التي لعبت دوراً في إبراز مفهوم الحكمة للإنسان المصري ، هو أدبيات الكتابة الدينية الهيروغليفية التي أبرزت في مضامينها و محتوياتها مفهوم الحكمة لدى الآلهة . و جاء الحديث عن الفراعنة الذين ارتبطوا

بالآلهة برابطة القرابة و ادعوا الألوهية نفسها . و الذين أرخوا لأنفسهم و أعمالهم . جاء ذلك ليبرز إلى العلن شكل الحكمة البشرية أو الحكمة السلطانية الحاكمة و المسيطرة و المتحكمة بمقاليد الأمور و الموجهة للرعية و الناظمة لشؤونهم الاقتصادية و الاجتماعية . يقول أدولف إرمان " لقد كان كل شيء قديم أهلاً للتقديس عند المصريين . و جديراً بأن يرفع من شأنه . و من هذا التقدير ، تقدير الحكمة القديمة ، حيث نشأت عبادة من كانوا أنفسهم من القائمين بها في الزمن القديم و قد كانوا في الزمن القديم أشخاصاً مبجلين فأصبح بعضهم الآن آلهة تقريباً و أولهم أمحوتب و كان ينتمي إلى بلاط الملك زوسر .إذ كان رئيس بنائية . و لم ينس الشعب أنه كان أول من شيد هرماً من الحجر المنحوت . و إلى جانب ذلك عرف عنه أنه كان عالماً و أن كل شخص يلوك بلسانه أمثاله و حكمه . ثم غدا بالتدريج حامياً لكل من يشتغل بالعلوم . و كان الأطباء كذلك يمجدونه بوصفه أول من ابتدع حرفتهم . و أخيراً كان يعد عند الشعب إله الشفاء . و قد ذكر عنه أنه لم يكن ابناً لأحد من البشر و أنه ولد من إمرأة تدعى كروتي غنج . و قد تحدث عن نفسه في أحد النصوص قائلاً إنه لقن الكتاب المقدس و رأى مآثر تحوت و كان يفهم أسرارها و يستشار في أمرها . و قد نسب إليه كتاب في السحر "[1] .

لقد أخذت الحكمة السلطانية في مصر القديمة لنفسها مكاناً و حيزاً في عقل الإنسان المصري القديم . و بعد أن قامت هي نفسها بدمج ذاتها مع ذات الحكمة الإلهية و أعلنت ذلك للجمهور في الكتابات و الأدعية و الطقوس الدينية . أضحى من الطبيعي و البديهي أن تتقبل ذهنية الإنسان المصري القديم ، العكس ، أي أن تتحول الحكمة السلطانية البشرية المقترنة بإنجازات هائلة و مشاريع إنمائية عمرانية ضخمة ، إلى حكمة إلهية مع مرور الزمن إلى . و الحقيقة فإننا نستطيع القول و دون مواربة.. إن تشبه و ادعاء الفراعنة للألوهية في مصر القديمة ، قد فتح الباب على واسعاً على مصراعيه أمام خلط المفاهيم و دمجها بعضها ببعض لدى الإنسان المصري القديم . و هذا الادعاء ربما لا يكون هو العامل الأول في ذلك ، لأن الإنسان المصري القديم قد وضع في إشكالية خلط و دمج المفاهيم و خاصة الدينية و الإلهية منها ، في بداية وعيه على مظاهر الطبيعة المحيطة به . و تعامله معها . و لكنه (هذا الإدعاء) قد ثبت و شرعن للإنسان المصري القديم هذا الأمر و جعله أمراً مسلماً به و منطقياً . و لهذا فإننا في بعض الأحيان و في بعض المفاصل التاريخية للديانة المصرية القديمة حتى في قمة توحيدها الإلهي ، قد نجد صعوبة فكرية في فصل الحكمة الإلهية عن الحكمة السلطانية البشرية . و دمج المفاهيم هذا في الواقع هو الذي أعطى للحضارة المصرية قوتها و أعطى للتقانة العلمية فيها مركزاً مرموقاً تفوقت فيه على كثير من

[1] ديانة مصر القديمة ص/٣٦٥/ .

الحصارات الأخرى . لأن كل الأعمال التي اندرجت في هذا المجال ، سواء أكانت أعمال سخرة أم إدارية أم تنفيذية ، فإنها كانت من منطلق القناعة التامة و الكاملة بأنها لخدمة الإله الواحد .

و طالما أن الحكمتين معاً قد اندمجتا في إطار واحد [٢] ، فإن كل أمر أو ظرف اجتماعي أو سياسي أو حتى جغرافي سيطرأ بعد ذلك في الفترات الزمنية اللاحقة ، سيكون للعامل الإلهي و الحكمة الإلهية دور فيه ، و ذلك حسب المعتقد الإلهي و حسب ما ارتأته الحكمة السلطانية في ذلك . و بناء عليه سيصبح لزاماً على الحكمة الإلهية على الأقل كمفهوم و طرف ، أن تكون موجودة و حاضرة دوماً لتثبيت القرار السلطاني في أمر ما و قضية معينة ، و العكس أيضاً صحيح ، أي أن تكون الحكمة السلطانية البشرية حاضرة و موجودة دوماً لتثبيت القرار و الإرادة الإلهية التي تدعي أنها صدرت و حصلت في أمر أو قرار ما ، بغض النظر عن ماهية هذا القرار و نوعه و عن الفعل و العمل المترتب لأجله .

هذا الأمر قد يبرر لنا أسباب نشوء الأهرامات المصرية القديمة و المعابد الكبيرة الضخمة و الترعات و غيرها من المشاريع العمرانية الهائلة و الضخمة التي راح ضحيتها مئات الآلاف بل ربما الملايين من الناس و على مدار سنين طويلة .

و بالرغم من ذلك و بناء على ما سبق ، هل نستطيع القول إن المفهوم التوحيدي الإلهي قد سلم هو الاخر من التعددية في الرأي و الاعتقاد ؟؟ و هل سلم من بديهية اختلاف العقائد و النظريات الدينية حسب اختلاف الجغرافيا ؟؟ من المؤكد أن مفهوم التوحيد الإلهي لم يبق على حاله صافياً ، بل تخللته شوائب كثيرة . و مما لا شك فيه أن ادعاء الفراعنة للألوهية و ربط أنفسهم بالآلهة الكبيرة كالإله (رع) ، كان سبباً قوياً في ذلك ، فكان لا بد لكل ظرف أو حادث سياسي و بيئة جغرافية ، من أن يكون له نظرية خلق و بدء تكوين ، قد تكون مختلفة أو مقاطعة مع غيرها حسب الظروف السابقة حيث نرى أنه كان لكهنة مدينة (عين شمس) نظرية خاصة بهم في قضية خلق العالم و الكون ، و هذا الاعتقاد لاقى في فترات معينة رواجاً كبيراً و انتشاراً واسعاً ، إذ اعتقد هؤلاء أنه " في بادئ الأمر كان يوجد جسم عظيم من الماء يدعى (نن) يشتمل على جراثيم الكائنات الحية من ذكر و أنثى . و من هذا الماء فطرت الشمس (رع) و كان هذا الماء يشتمل كذلك إله الأرض (جب) و آلهة السماء (نوت) متعانقين . و قد بقيا كذلك حتى فصل بينهما شو إله الهواء ، فحمل آلهة السماء على ذراعيه إلى الطبقات الطويلة "[١] . و في معبد هليوبوليس نرى تفسيراً آخر لكهنته على الشكل التالي " في حين كان سائر الآلهة السماوية

---

[٢] طبعاً حسب الكتابات و المعتقدات المصرية القديمة .

[١] ديانة قدماء المصريين ص/٢٩/ .

العظام ماضية كل في طريقه عن الناس ، أخذ إله معبود هليوبوليس المحلي ينشئ له الروابط ببني الإنسان و صار يعبد بوجه خاص . وكان في نظر القوم أعظم الآلهة و أشدها قوة . على أن كهنة هليوبوليس لم يكتفوا بإعلان هذه المناقب ، بل أخذوا يبذلون جهدهم في استنباط ما يترتب عليها . و بهذه الطريقة أمكنهم الوصول إلى فكرة عميقة عن كهنة الآلهة فاهتدوا أولاً إلى أن إله الشمس إله واحد فقط هو (رع) و أن إله الشمس القديم حوريس الذي كان يحلق في السماء على هيئة باشق هو في الحقيقة (رع) "[٢] .

إن هذين النصين بالمقارنة مع النصوص السابقة التي ورد ذكرها بالنسبة لبداية تكوين الخلق ، لا يمكن إيجاد الفروق الجوهرية بينهما ، فالفكر واحد تقريباً و جميعا تتمحور عامة حول موضوع الماء و الإله (رع) . و لا مناص من الاستنتاج بأن هذه الكتابات الوصفية كلها حول التكوين ، كانت في الواقع تعبيراً عن مذاهب شتى فرضتها ظروف معينة قد تكون بيئية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية . و قامت الحكمة السلطانية بتأطيرها و صياغتها ضمن قوالب فكرية و دينية مناسبة ، و حسب ما ارتأت أنه مناسب لمحيطها و بيئتها . أما أوراق الاعتماد التي على أساسها سيتم قبول هذا المذهب لدى العامة ، فهو بدء التكوين الأصلي المتمثل بالماء و بالإله (رع) و الذي كان بحد ذاته رمزاً لشرعية هذه المعتقدات و يضفي عليها طابع الديمومة و الثبات بالنسبة لمعتقديها ، فضلاً عن ذلك فإن هذا الأمر يتوافق مع مصلحة الإنسان المصري القديم في عد العوامل الطبيعية البيئية رمزاً لمفهوم التوحيد الإلهي و معبراً إليه كما في حالة نهرالنيل الذي أوجد بجريانه في أرض مصر منذ القديم مكاناً مناسباً و أداة للعيش و الحياة و ذلك باستحضاره آلياً كل موارد الحياة و الغذاء للإنسان ، سواء الحيوانية أم النباتية و التي لولاها لما وجدت الحياة في أرض مصر على الإطلاق . و بقراءتنا للكتب التاريخية التي تتحدث عن الحضارة المصرية القديمة ، ندرك أن الحكمة السلطانية المصرية القديمة قد اعتمدت في تعاملها مع طبقات المجتمع المتعدة كوسيط بينها و بين الآلهة ، اعتمدت على التركير على كل ما يرتبط به الإنسان المصري القديم من عوامل الطبيعة و كل ما نتج عن هذا الارتباط . و لا شك أيضاً بأنها ربما قد قامت بدراسة نفسية للإنسان المصري أو على الأقل تعاملت معه من خلال تأثر نفسيتها هي بتلك العوامل و ما نتج عنها . و الذي لا شك فيه هو أن الحكمة السلطانية المصرية كان يهمها استغلال جهد الإنسان المصري و عمله إلى أقصى حد ، في خدمة التقانة العلمية التي توصلت إليها . و إننا على يقين بأن الحكمة السلطانية المصرية القديمة قد أدركت معنى الحضارة و مفهومها بكل أبعادها و أنها عملت بالدرجة الأولى على إنشاء حضارة راقية أكثر مما كانت تعمل على التوسع

---

[٢] المصدر السابق ص/٣٣/ .

السياسي و الغزو الخارجي . و نقول هنا إن الحكمة السلطانية التي تهتم بالدرجة الأولى بالوضع الداخلي أكثر من الوضع الخارجي ، سوف تعمل و بكل تأكيد على التركيز على نفسية و شخصية المواطن الذي يعيش ضمن نطاق سلطانها و حدود دولتها . و لذلك فإن الحكمة السلطانية المصرية القديمة قد راعت تماماً كل ما يتفاعل بشكل منطقي مع طبيعة و نفسية الإنسان المصري سواء من خلال الطبيعة المحيطة به أم من خلال حالة الاستقرار السياسي و الجيوسياسي تحديداً .

لقد ارتأت هذه الحكمة السلطانية بوصفها أنها كانت ترى نفسها أيضاً ضمن نطاق الحكمة الإلهية و أمام حالة الازدهار و الاستقرار العام في مصر سواء من حيث عوامل الطبيعة أم من حيث عدم التعرض للحروب الخارجية و من حيث تفاؤل الإنسان المصري كنتيجة لذلك و الذي كان العامل الأساس في طاعته و التزامه و حبه للعمل ، ارتأت أن تحافظ على هذه النفسية المنضبطة لهذا الإنسان و تحتويها بحيث تمنعها من الانفلات بأن تطرح مفهوم الموت كحجر أساس في الديانة و العقيدة المصرية . و حياة أخرى جديدة للإنسان المصري متممة لحياته الأولى في الدنيا . ليس ذلك فقط بل إن هذه الحكمة قد جعلت حياة ما بعد الموت تتحدد بطبيعتها و معالمها تبعاً لما يعمله الإنسان في حياته الأولى التي يعيشها في الدنيا . فقرنت سعادته و رفاهيته في عالم ما بعد الموت و الذي أطلقت عليه اسم (العالم السفلي،)بطاعته و خضوعه و إتقانه لعمله في عالم الحياة الدنيا . فأحكمت بذلك سيطرتها و قبضتها على حياة الإنسان المصري و تصرفاته و سهل عليها قيادته . و قبل الولوج في الأمر السياسي و الاجتماعي و الأمر الديني مرة أخرى ، نقدم خلاصة عامة عن طبيعة الديانة المصرية بعامة . و نعود إلى كلام (واليس بدج) الذي ذكرنا سابقاً عن الديانة المصرية و طبيعة علاقة الإنسان المصري بها ، و نقول إن كلامه كان صحيحاً و معبراً عن توحيد إلهي عميق و متطور يتوافق تماماً مع مفاهيم اللاهوت و التوحيد في الأديان السماوية الثلاثة . و هذا الأمر كان حجر الأساس في المعتقد المصري القديم و الذي اندمجت معه أو تفرعت منه فيما بعد معتقدات و مفاهيم أخرى كانت من ضمن الفكر و المنطلق الجغرافي المصري . و هذا الانطباع العام للديانة المصرية ، بقي هو حجر الأساس بالرغم من تعدد الآلهة الأخرى التي هي أدنى مستوى من الإله الواحد الكبير . و هذا الانطباع الراقي للتوحيد الإلهي ، ارتأت الحكمة السلطانية الإبقاء عليه لأمرين اثنين ، الأول لأنه يشكل الوعاء الذي يحفظ جميع التصورات و المعتقدات الدينية المستجدة و المتأتية مع مرور الزمن بحفظها ضمن البوتقة الإقليمية المصرية و ضمن إطار عقلية فكرية دينية واحدة ، و هو أمر مهم جداً لقيام الحضارة و لولا ذلك لما قامت الحضارة المصرية بجوانبها كافة . الأمر الثاني هو أنه يشكل حافزاً قوياً لاستقرار و ثبات عقلية الإنسان المصري و في الوقت نفسه يكون دعامة لمفهوم ألوهية الحكام

المصريين من الفراعنة أو غيرهم الذين يدعون أنهم آلهة أو يمثلون الآلهة . و لهذا فقد قال أستيندروف " إن كل هذه الآلهة كانت تعد مظاهر خاصة لمعبود واحد أو بعبارة أخرى أسماء لإله واحد فرد صمد "[1] و قال واليس بدج في هذا الصدد " كلما حاول المصريون إقامة نظام جديد من الآلهة ، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى أخذ الآلهة المحلية القديمة في اعتبارهم و إيجاد محل لها في النظام الجديد ، و كانوا يفعلون ذلك بأن يجعلوا هذه الآلهة أعضاء في ثواليث أو في جملة مؤلفة من تسعة آلهة صارت تدعى فيما بعد بالتاسوعات "[1] . تلك المقولات الوصفية و التحليلية توجز الهاجس الذي كان ينتاب الحكمة اللطانية المصرية القديمة للمحافظة على الاستقرار الفكري العقائدي لأنه كان يمثل بالنسبة لها الركيزة الأساس لقيام الحضارة ، حضارة الدولة و المجتمع . و قد أدركت الحكمة السلطانية المصرية أهمية دور الآلهة كوسيط بين الإنسان المصري و بين بناء حضارة الدولة المصرية . و لذلك فقد برزت فكرة ما بعد الموت أو الحياة الآخرة أو العالم السفلي لدى الإنسان المصري . و الحقيقة إن مقولة و فكرة حياة ما بعد الموت كانت دائماً تطرح عامة من قبل المؤرخين و الباحثين و المختصين بالحضارة المصرية القديمة على أنها من نتاج الشعب المصري . أي أن مفهوم الحياة الأخرى بعد الموت[2] كان غالباً ما يتم طرحه كمفهوم ذاتي ضمن الإيمان الديني الطبيعي للإنسان المصري ، فكان بمجمل جوانيه التحليلية و التأريخية يتناول الإنسان المصري العادي أو الشعوب المصرية ، و يصور موضوع العالم السفلي و فكره و حياة ما بعد الموت كفكرة أتت من صميم عقل الفرد المصري العادي . و لكننا عندما نتحدث عن الأمر من منظور فكرة الكتاب و منهجيته ألا و هي الحكمة ، فإننا نرى رأياً مغايراً لذلك ، أو على الأقل نسمح لأنفسنا بطرح مفهوم الحكمة السلطانية و علاقتها بهذا الأمر كأداة رئيسية و سبب أساس في وجوده و من ثم وضعه كحجر أساس آخر في العقيدة الدينية للإنسان المصري القديم . و نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة من مقولة (أرنولد توينبي) (بالرغم من أنه لم يتطرق لذلك أبداً) التي يقول فيها إنه " كان للمصريين توق لضمانة الحياة الأبدية لأنفسهم بعد الموت و قد تابعوا هذه الغاية التي تلي الوفاة بجد يفوق جهدهم في ملاحقة أي غاية قد تتحقق في مدى الحياة البشرية " . ثم يأتي برستد ليقول إنه كان يعتقد في المرحلة الأولى بأن فكرة الحياة بعد الموت تشمل الملوك أو الفراعنة فقط ، ثم امتدت بعد ذلك و في مراحل لاحقة لتضم المقربين من الملك ليكونوا هم أيضاً من الخالدين في عالم السماء . أما عظماء البلاد أي

---

[1] ديانة قدماء المصريين ص/٣٣/ .

[1] الديانة الفرعونية ص/٩٧/ .

[2] يجب التفريق هنا بين مفهوم يوم القيامة أو الحساب في الأديان السماوية و بين الحياة الأخرى بعد الموت في الثقافة الدينية المصرية بمفهومها المفصل و المعقد .

الملك و بطانته فقد كان بمقدورهم أن يسكنوا حسب رغبتهم مع إله الشمس في مملكته السماوية الفاخرة و في المراحل اللاحقة في عهد أوزيريس أصبح الخلود يشمل الناس جميعاً إثر محاكمة عادلة تجريها لهم الآلهة بعد الموت "[٣] .

إن المقولة الأولى السابقة تبين لنا مفهوم الحياة الآخرة ، و تصوره على أساس أنه من المفرزات الفكرية لعقلية الإنسان المصري القديم و تأتي المقولة الثانية السابقة لتحدثنا عن مراحل تطور هذا المفهوم و كيفية انتقاله من الفراعنة إلى عامة الشعب ع بر فترات زمنية من المؤكد أنها كتبت نتيجة لظروف سياسية و اجتماعية و حتى اقتصادية فرضت التغييرات فيه . و لكن المقولة الثابتة تعبر بشكل واضح عن أن فكرة حياة ما بعد الموت ليست من بنات أفكار الإنسان المصري العادي ، لأنها تحمل في طياتها دلالة واضحة على منح تلك الحياة رهبتها من قبل من له صلاحية بذلك ألا و هو الفرعون أو الملك و الذي كان في بداية الأمر هو المختص بذلك و هو الوحيد المعني بالحياة الأخرى بعد الموت و الذي يحق له ولوجها . و لذلك فإنه و بوصفه كان في بعض الأحيان إلهاً أو ابن إله ، فإنه منطقياً هو الوحيد المخول بإعطاء هذا الامتياز لغيره و ذلك حسب ما تقتضيه ظروف المصلحة العامة . و قد نتساءل هنا عن الحكمة الإلهية و دورها في هذا المجال .. ألا يمكن أن تكون هي من أراد لهذا المفهوم أن يتم و أن يكون له دوره و مكانته في شرائع و عقائد الإنسان المصري القديم ؟؟ في الواقع إن هذا الأمر هو بالنسبة لنا مستبعد تماماً ، لأن ذلك و قياساً إلى الشرائع السماوية المعتمدة ، ينفي أولاً صفة العدل عن الإرادة و العقل الإلهي و ثانياً ينفي الثبات في الإرادة و القرار . فضلاً عن أن مفهوم تطور حياة ما بعد الموت أو العالم السفلي من كونه مختصاً بالملك أو الفرعون إلى الإنسان العادي و ارتباطه بالإله أوزيريس ، يحمل في طياته بذور المصلحة العامة البشرية و الحاجة إلى ضرورة التوافق مع ظروف معينة مرتبطة بعوامل و أسباب سياسية أو اجتماعية و هو ما لا يمكن أن تتصف به الحكمة الإلهية إجمالاً . و لكننا نقول إن مفهوم الحياة الأخرى بعد الموت ، أو العالم الآخر ، لا بد من أن يكون قد طرح من قبل الحكمة الإلهية لأنه كمبدأ ، يشكل حجر الأساس في معظم الأديان الأرض قديمها و حديثها و لا يمكن لأي دين أن يستقيم إلا به خاصة إذا كان عنصر الآلهة موجود فيه . و لذلك فلا بد من أن موضوع الحياة ما بعد الموت قد وجد في صميم الديانة المصرية التوحيدية القديمة خارج نطاق عبث الحكمة السلطانية ، و لكن بأسلوب غير الأسلوب الذي صورته لنا الكتابات الدينية الهيروغليفية في المنحوتات و أوراق البردي . و بعامة فإن ما نريد الخلاصة إليه من طرح أمر الحياة بعد الموت في منهج الديانة المصرية القديمة ، هو أنه كان للحكمتين

---

[٣] الفكر السياسي و أساطير السرق القديم ص/٢٠٢/ .

الإلهية و السلطانية غاية من طرحه . و الحكمة الإلهية على الأرجح كانت أول من طرحه[1] بعامته و غير مفصّل بهذا الكم الواسع و الدقيق ، و كان جل غايتها في ذلك هو أن يخاف الإنسان في حياته الدنيا و يرهب ربه و خالقه فيعمل كل ما بوسعه لإرضائه و يكون عمله في هذه الدينا لأجله و لأجل إرادته و مشيئته التي أرادها له . و كذلك فإن الحكمة السلطانية عندما طرحت مفهوم الموت و حياة ما بعد الموت . فإنها استقته من الحكمة الإلهية ، و لكنها لم تقبل به كما هو ، بل قامت بتعديله و إضافة الكثير من المؤثرات التي تجلت بالحوادث و التفاصيل التي توضح لهذا الإنسان ما سيحل به منذ لحظة موته إلى خط النهاية حيث مصيره النهائي و الأبدي و الذي توافقت فيه هنا مع الحكمة الإلهية ، حيث إنه إما سيذهب إلى الجحيم و إما إلى النعيم ، أي أن هذه الحكمة السلطانية حافظت على مفهوم حياة الآخرة الذي طرحته الحكمة الإلهية فقط في بدايته و نهايته و تركت لنفسها حق التعديل و الإضافة فيما بين ذلك ، و كانت غايتها من هذا كله هو أن يخاف الإنسان في هذه الدنيا على طريقتها هي و لأجل إرادتها هي ، و ما تريده هي من هذا الإنسان أن يقوم به و يعمل ما بوسعه لتحقيقه . و بذلك أحكمت هذه الحكمة سيطرتها على الإنسان المصري القديم و جعلتها خاضعاً لإرادتها و سلطانها المطلقين إلى درجة وصلت حد الطغيان و الظلم الاجتماعي في مراحل عدة ، كان أن قامت عليه الحضارة المصرية.

لقد واجهت الحكمة السلطانية المصرية مشاكل اجتماعية و سياسية جسيمة في بداية تأسيسها لطور الدولة و الحضارة ، و استفادت من عامل مهم جداً و هو عامل الاستقرار الذي ساعدها على استخلاص العبر و الدروس من الأخطاء التي قد تحصل معها . و كانت أهم إشكالية لديها فيما نرى ، هي التنظيم و محاولة تقسيم المجتمع المصري إلى فئات و جماعات ، لكل منها دوره الخاص به ، و فضلاً عن ذلك فهي لم تقع على ما يبدو نتيجة لهذا الاستقرار تحت وطأة مفهوم اتخاذ القرارات الطارئة . على عكس الحكمة السلطانية في بلاد ما بين النهرين التي لم يتوفر لديها عامل الاستقرار بأشكاله السياسية أو الاجتماعية كافة و حتى الجيوبوليتيكية أيضاً ، حيث لم تترك الغزوات المتكررة و لا الهجرات المتتابعة المتلاحقة مجالاً لها لتوطين الإنسان العادي على أمور معينة ثابتة ، فضلاً عن أنها هي نفسها لم تكن ثابتة بل كانت عرضة للتغير من وقت لآخر ، حيث تأتي سلطة جديدة خارج إطار السلطة السابقة فكرياً و دينياً و تحاول جاهدة صياغة مفاهيم و أسس جديدة لإنشاء المشروع الخاص بها . و لهذا فإن عامل الاستقرار أتاح للفئة الحاكمة المصرية التي كانت بشكل عام ثابتة إلا فيما ندر ، دراسة شخصية الإنسان المصري التي كانت هي الأخرى بدورها ثابتة ، و انتقاء أهم المفردات و الأدوات المناسبة لها و له لتشكيل

[1] لا يوجد لدينا معلومات واضحة و كافية حول هذا الشأن إلا بالاستنتاج من خلال الديانات السماوية و غيرها .

حضارة عريقة ، فضلاً عن عامل الاستقرار الذي أتاح لها أيضاً التمتع بميزة التراكمات الفكرية و العقلية السابقة التي ورثتها عن أسلافها و التي كانت بشكل أو بآخر ، متجانسة معها من حيث الفكر و النوع و الطريقة و وحدة العنصر إن جاز التعبير .

لقد اعتمدت الحكمة السلطانية المصرية القديمة على الآلهة بشكل مطلق لتسيير إرادتها و مشيئتها و ذلك كله سخرته لخدمة حضارة الدولة التي أرادتها . و نستطيع تبعاً لذلك أن نقول إن الحكم الملكي الإلهي المطلق في مصر القديمة ، هو الوحيد تاريخياً و عالمياً من بين كل أنظمة الحكم الملكية المطلقة في العالم و عبر التاريخ ، الذي استطاع أن يؤسس لحضارة عالمية أغنت كل حضارات العالم التي تلتها ، لا بل أن يكون هذا النظام هو حجر الأساس لهذه الحضارة . فغالباً ما كان يقرن مع النظام الملكي الإلهي المطلق ، صفة التخلف الجمود و التحجر ، و التي كانت صيغة ملازمة له عبر قرون طويلة متعددة امتدت حتى الآن .

البنية السياسية : لقد كان الأمر السياسي العام في بلاد مصر القديمة مرتبطاً مباشرة بالأمر الديني الإلهي ، لدرجة وصل معها أحياناً إلى حد الاندماج إما في شخصية الفراعنة و إما في شخصية الآلهة التي كانت تحكم مصر من قبل . و هذا الاندماج أو الارتباط بين الصفتين ، الإلهية و السلطانية ، كان يجد طريقه حتى في بقية أجزاء التسلسل الهرمي للسلطة الإدارية و السياسية في مصر ، فكان الفرعون المتربع على أعلى هرم السلطة السياسية ، هو نفسه المتربع على أعلى هرم السلطة الدينية . أما المراتب الأخرى التي كانت دون مرتبة الفرعون ، فكانت تتميز إما بوجود مرتبتين متساويتين في الأهمية و التأثير و تتصف إحداهما بالطابع الديني و الأخرى بالطابع السياسي و هما مكملتان لبعضهما بعضاً ، و إما بمرتبة واحدة تتميز بهاتين الصفتين معاً . الحالة الأولى تمثلت بوجود طبقة الكهانة و طبقة القادة العسكريين الكبار أو قادة الجيوش . و هاتان الطبقتان كانتا من أهم طبقات المجتمع المصري القديم حساسية و خطورة . فطبقة الكهنة كانت هي الطبقة التي تطبق التعاليم الدينية ، و هي صلة الوصل بين الناس و الآلهة و هي التي تحرص و تسهر على تعاليم الآلهة و نشرها في البلاد و تطبيقها ، و هم المسؤولون عن تأمين حياة الميت في القبر . و قد عد هنري برستد أن منصب الكهانة في مصر القديمة كان له أدوار خطيرة في بعض الأحيان ، وصلت إلى حد استلام السلطة حيث كان الكهان فضلاً عن ذلك يحصلون على الأموال و الهبات و التبرعات و القرابين التي تقدم للآلهة و الذين كانوا هم الموكلين باستلامها ، و كانوا هم الموكلين بجميع الهبات الموقوفة للآلهة ، من أراضٍ و أموال و ماشية .و مع مرور الزمن ازداد أعداد الكهنة و ازدادت في الوقت نفسه الأموال و الهبات و

الأراضي و الأوقاف الموضوعة تحت تصرفهم ، مما زاد دورهم و قوتهم . و كلما ازداد اعتقاد الإنسان المصري القديم بالسحر و التعاويذ التي تحمل قوى سحرية تفيدهم في حياة ما بعد الموت ، ازداد الاعتماد على الكهان و ازدادت قوتهم و سلطة تأثيرهم ، فضلاً عن سيطرتهم على المعابد و المدافن التي كان لها وجود قوي في مصر و التي حظيت باهتمام و عناية الإنسان المصري القديم ، بدءاً من الفرعون نفسه و حتى الأفراد . و تبعاً لذلك وصلت سلطة الكهنة في بعض المراحل إلى سلطة تضاحي سلطة الفرعون ، حتى في المجالات السياسية . و هذا ما جعل الملك تحتومس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ينصب رئيس كهنة آمون رئيساً لجميع كهنة مصر ، أي أنه صار الرئيس الديني للدولة . و بالرغم من اضطهاد الفرعون آخناتون الذي وضع أول ديانة توحيدية صافية في مصر القديمة ، بالرغم من اضطهاده لكهنة آمون ، فقد استطاع هؤلاء أن يستعيدوا كامل نفوذهم بعد ذلك ، حتى إنه أصبح لكاهن آمون الأعظم ، القدرة على جعل منصبه وراثياً . لذلك لم يكن في مقدور البلاد أن تقاوم تلك السياسة الكهنوتية التي كانت بمنزلة دولة داخل دولة ، حتى صارت حكومة كهانة فقط ، في حوالي سنة / ١١٠٠ / قبل الميلاد حين سلم فرعون صولجانه إلى رئيس القوة الحاكمة التي صارت هي حكومة المعبد ، و تسلم الكثير من الكهان الوظائف الإدارية و حكم الأقاليم . فاختلطت الوظيفة الإدارية بالوظيفة الكهنوتية[١] .

أما طبقة القادة العسكريين ، فقد كانت هي الأخرى تلعب دوراً مهماً و خطيراً في الدولة المصرية . و قد برزت أهمية هذه الطبقة نتيجة لطبيعة دورها المتمثل في حماية الدولة من الخطر الخارجي و الغزو الذي يحتمل أن يتهددها . و تعود بداية ظهور هذه الفئة إلى بداية حكم الجماعات الأولى المحلية و التي عهد إليها تنفيذ النظام و القانون المتفق عليه (أي الإكراه) . و مع مرور الوقت ازدادت مكانة هؤلاء القادة و نفوذهم و ذلك تبعاً للظروف السياسية السائدة في مختلف مراحل دولة مصر القديمة التي تجلت أكثرها بالحروب مع الخارج ، سواء لغزو الدول المجاورة أم لصد غزو هذه الدول . و هذا الأمر قادهم إلى نيل ثقة الفراعنة و رضاهم ، لأن أمن البلاد الداخلي و الخارجي يتوقف عليهم ، حيث كانت الثورات الداخلية و الاضطرابات تهدد نظام الحكم و البلد بعامة ، و لذلك فقد منح الفراعنة هذه الطبقة الأراضي الكبيرة الواسعة و الامتيازات و الاقطاعيات و حكم بعض المناطق و الأقاليم . و نتيجة لهذا و في بعض المراحل ، وصل نفوذ و قوة هؤلاء القادة إلى تهديد سلطة الدولة نفها [١] و عرش الفرعون نفسه ، و

---

[١] فجر الضمير ص/٣٥٠/ .

[١] المصدر السابق – الفكر السياسي و أساطير الشرق القديم .

نجحوا بالانقلاب على بعض الفراعنة و الاستيلاء على السلطة ، كما في حالة القائد العسكري (حورمحب) الذي استولى على السلطة و الحكم في عهد الفرعون أو الملك أمنحوتب الرابع [٢] . و قد تكررت هذه الحالة اكثر من مرة و في مراحل عدة مختلفة ، أدت إلى تأسيس سلالات و أسر حاكمة على مصر من غير الفراعنة . و هذه الأسر و السلالات الحاكمة ، ميزت تاريخ مصر القديم و تركت عليه بصماتها الخاصة .

هذه الازدواجية و التقاطع ، نراها أيضاً خارج نطاق العاصمة في الدولة المصرية التي تمثل نقطة النظام الديني السياسي المركزية ، حيث كانت المدن البعيدة نسبياً عن العاصمة المركزية تتمتع كل منها بوجود معابدها و هياكلها الدينية الخاصة بها ، بل كان لكل منها إلهها الخاص بها و الذي يميزها عن باقي المدن و آلهتها ، و لكن ... و لكن هذه الآلهة كانت كلها في الغالب تعبيراً عن الإله (رع) و تجلياً من تجلياته و صوره .

لقد تعاملت الحكمة السلطانية المصرية مع كل التغييرات الاجتماعو السياسية حتى الجيوبوليتيكية الحاصلة زمنياً ، ببراعة فائقة استطاعت خلالها السيطرة على تلك التغيرات و التعامل معها بما يخدم حضارة الدولة المصرية كيانها السياسي ، فعملت على تناغم تلك الأحداث و التغييرات بكل مفرزاتها الدينية و العقائدية مع المفهوم التوحيدي الإلهي الذي ارتأت أنه الضابط الوحيد لفرض هيمنتها و إرادتها ، و في الوقت نفسه فرض الاستقرار قدر الإمكان . لقد سمحت الحكمة السلطانية بتعدد الآلهة في المدن بما يتوافق و طبيعة كل مدينة من حيث المكان و البيئة الجغرافية و النفسية و الفكرية و حتى الجنسية ، و لكنها ضمنت لنفسها السيطرة على هذه المدن جميعها بما فيها من بعض الاختلافات الفكرية ، بوضعها كلها ضمن بوتقة توحيدية متجانسة . و لكن كيف تمكنت هذه القوى الحاكمة من فعل ذلك ؟؟ و بأية وسيلة آلية تمكنت من تنفيذ ما تصبو إليه من إنشاء دولة قوية واحدة ذات حضارة عظيمة لم تتأثر كما حصل مع غيرها من الحضارات بتقلبات الظروف السياسية و الاجتماعية و الديموغرافية ، بل بقيت محافظة على الأقل على وحدة ثقافتها العامة و أراضيها (و إن تعرضت في بعض الفترات للغزو و الاضطرابات الداخلية) من التشتت و الضياع ؟؟ في الواقع و كما ذكرنا سابقاً ، فإنه من الصعب التحدث عن التاريخ المصري القديم (عامة) بنوع من التفصيل و التأريخ و التحليل الدقيق للأحداث الحاصلة و المفاصل الخفية التي رافقت مراحله الزمنية ، و كان لها أثر كبير في تغيير مجرى و مسار حكم بعض الأنظمة و الأسر الفرعونية ، لأن الكتابات التاريخية الأثرية التي عثر عليها حتى الآن ، لم تعط هذه الصورة الواضحة المفصلة عن الوقائع و الأحداث كما هو الحال

[٢] إن استيلاء الكهنة و القادة على السلطة في مصر ، كان سببه الرئيسي هو ضعف الملوك أو الفراعنة بالدرجة الأولى .

في حضارة بلاد الرافدين . اما لأن هذه الكتابات ركزت أساساً على الأمور الدينية الجنائزية ، و إما لأن الكتابة الهيروغليفية كانت تتم عامة غالباً على أو راق البردي و جلود الماعز و هي مواد قابلة للتلف و الضياع مع مرور الزمن .

إن غموض بعض المراحل و الأحداث التاريخية قد لا يمنعنا من التحليل المنطقي و العقلي للوصول إلى تفسير قد يكون معقولاً و مقبولاً . و لا نستطيع ذلك إلا من خلال منهج الكتاب نفسه و فكرته ، أي من العلاقة بين الحكمتين الإلهية و السلطانية .

إن الحكمة السلطانية المصرية القديمة لم يكن لديها منذ البداية أية حلول ناجعة يمكن أن تؤدي إلى حماية وحدة إقليم مصر و الحفاظ على تراث سكانه العقائدي ، لأن بلاد مصر شأنها شأن البلدان المجاورة ، من حيث الغزو و التغيرات الاجتماعية و الجيوبوليتيكية ، فلماذا تميزت الحكمة السلطانية المصرية عن نظيراتها الأخريات في الحضارات الأخرى ، بالحفاظ على المنطقة التي تبسط سلطانها عليها ؟؟ لقد تميزت الحكمة السلطانية المصرية ، لأنها كانت الأقدر على التعامل مع مفهوم الحكمة الإلهية و الأقدر على تطويع ما أتى عن طريق الإرادة الإلهية و إعادة صياغته من جديد بما يلجم العقل و التفكير لدى الإنسان المصري القديم و يبقيه ضمن إطار ومجال إرادة الحكمة السلطانية ، أي أنها ببساطة استطاعت أن تقف خلف الحكمة و الإرادة الإلهية و توظف هذه الإرادة و التعاليم الإلهية حسب رغبتها و الغاية التي تريد الوصول إليها . و نستدل على هذا الأمر من أن الحكمة السلطانية في بلاد الرافدين قد أدمجت نفسها مراراً و في أحايين كثيرة و عبر مراحل زمنية مختلفة مع الآلهة و حاولت تسويق إرادتها عبر إرادة و رغبة الآلهة لدى عموم الناس و لكنها لم تفلح كما أفلحت الحكمة السلطانية المصرية . و السبب في ذلك لا نستطيع تحديده على وجه الدقة ، و هو حلقة غامضة مفقودة ليس من الهين و السهل نبشها و قراءتها ، و كل ما يمكننا استنتاجه هو أنه كان للحكمة الإلهية دور كبير في ذلك و هو دور تحدد من خلال تعامل الحكمة السلطانية معها و مدى مهارة و قدرة هذه الحكم السلطانية في تسويق و إرادة الحكمة الإلهية و غاياتها لدى العامة من الناس بحيث تقوم الحضارة بمقوماتها العمرانية و العلمية و الاجتماعية كافة . و هذا كله اعتمد بالدرجة الأولى على مفهوم التوافق و التناغم ليس فقط بين الآلهة المركزية التي تربعت على قمة الهرم الإلهي ، و بين بقية الآلهة المنتشرة في المدن الأخرى ، بل بين الآلهة التي كان لها رتبة و موقع قوي حسب وظائفها و مهامها و أدواتها . و هذه المهمة بالذات كانت تقع على عاتق الكهنةفالكهنة في مدينة منف مثلاً ، كانوا يقولون إن الأرض الطافية و التي أسموها (تا – تنن) هي بعينها الإله (بتاح) نفسه . و من أجل ذلك سمي هذا الإله باسم (تا – تنن) . ثم أراد الكهنة أن يرفعو بإله مدينتهم إلى الصدارة ، فلما لم تسعفهم

الفرصة ، حيث كان هنالك إله آخر انتشرت تعاليمه بشكل قوي و تغلغلت في نفوس عدد أكبر من أنصار إلههم ، أضفوا على هذا ألإله ذي العباد الكثيرين من صفات إلههم المحلي و مناقبه [1] .

هذه المقولة يمكن تعميمها أيضاً على حال المدينة المصرية المقدسة هليوبوليس عندما تحدث كهنها عن تاريخ بدء الخليقة و التكوين فقالوا " عندما تكون إله الشمس (آتوم) في المياه ألأبدية قبل أن تتكون السماء و الأرض و قبل أن تخلق الدودة أو العلقة ، لم يجد مكاناً ما يقف فيه ، فوقف فوق التل ثم صعد فوق حجر الين ين . و بعدئذ وجد نفسه وحيداً و فكر في أن يخلق له زملاء ، فحمل من نفسه و بعد هذا الحمل تفل ، فكان الإله شو و الآلهة تفنوت و أنجب هذان الألهان إله الأرض كب و آلهة السماء نوت و هذان الأخيران أنجبا أوزيريس و ست و نفتيس و إيزيس . و يبدو واضحاً من أسماء هذين المعبودين أنهما خلقا بالطريقة التي ذكرناها فالاسمان مشتقان من كلمتين قديمتين بمعنى البصق "[2] . ليس هذا فقط بل إننا نرى أن عنصر الجغرافيا قد لعب دوره أيضاً في هذا المجال ، حيث إن المصالح السياسية المتضاربة في فترة من فترات تاريخ مصر القديم حتمت على الحكمة السلطانية ربط الحوادث الإلهية بالمفاهيم الجيوسياسية و أحداثهاالحاصلة في مصر ، حيث نقرأ في إحدى الكتابات التي تحدث عن تاريخ مدينة منف ، أن أوزيريس توجه إلى الدنيا السفلى و ذلك بعد أن انتشلته أيدي (إيزيش و نفتيس) . و في هذه المدينة أيضاً حاول (كب) أبو أوزيريس أن يصلح بين الإله حوريس ابن الإله أوزيريس و بين الإله ست الذي قتل (أوزيريس)و كانت عملية الـ مصالحة بين هذين الإلهين المتعادلين ، بأن أعطى الإله كب لحوريس مصر السفلى و أعطى الثاني مصر العليا ، بينما في منفيس أعطى حوريس حفيده من ابنه الأول حكم البلاد بأجمعها[1] .

يتضح مما سبق أن الحكمة السلطانية المصرية اتبعت أسلوب التقريب بين المذاهب (إذا صحت التسمية) لضمان استمرارية الحضارة المصرية و التي ارتأت أنه لن يمكنها القيام بذلك إلا بضمان وحدة الأراضي المصرية من الناحية السياسية و التي لن تتم إلا بضمان التقريب بين هذه المذاهب و المعتقدات الدينية السائدة في تلك الفترة ليس ذلك فقط بل إننا نرى من خلال قرا ءتنا للتاريخ المصري القديم ، أن الحكمة السلطانية المصرية القديمة قد اعتمدت هذا المبدأ حتى عندما كانت تتعرض للاحتكاك بوسط خارجي أو دخيل عليها ، سواء من خلال تعرض مصر للغزو ، أو غزو الفراعنة للبلدان المجاورة " فلم يحدث في التاريخ المصري القديم عامة أن رأى المصريون سكان البلاد المغلوبة سواء أكانوا من الزنوج أم الأسيويين على نبذ معبوداتهم الوطنية

---

[1] ديانة مصر القديمة ص/١٠٣/ .

[2] المصدر السابق .

[1] المصدر السابق ص/١٠٨/ .

و اعتناق ديانة الفاتحين لهم إلا في أثناء الفترة الأخيرة التي حكم فيها الملك الزائغ أمنحوتب الرابع ، بل على العكس أقروا المغلوبين على ديانتهم القومية و لم يتعرضوا لها "[٢] . و كذلك الأمر عندما غزا البطالسة و غيرهم مصر حافظوا على المعتقدات الدينية المصرية القديمة مع عدم صد ديانة غيرهم . كذلك الأمر مع الديانات الخارجية الوافدة إليهم ، كالمسيحية مثلاً التي دخلت مصر في فترة من الفترات حيث ذكر بدج أن " المصريين ظلوا يحنطون موتاهم حتى بعد أن اعتنقوا المسيحية ، و ظلوا زمناً طويلاً يخلطون بين صفات إلههم و بين صفات الله القدير و المسيح . و ما كان المصريون ليتخلوا طواعية منهم عن الاعتقاد بوجوب تحنيط الجسد لكي يضمن الميت لنفسه الحياة الأبدية ، لولا أن المسيحية برغم أنها تدعوا إلى عقيدة البعث نفسها التي يدعو إليها المصريون ، ذهبت خطوة أخرى إلى الأمام و أصرت على عدم الحاجة إلى تحنيط الأموات ، فقد ناشد القديس انطوني الكبير أتباعه ألا يحنطوا جثمانه و لا يحفظوه في بيت ، بل طلب منهم أن يدفنوه و لا يخبروا إنساناً عن مكان دفنه لئلا يعمد م حبوه إلى نبش جثته و تحنيطها على مجرى عادتهم ، يحنطون جثمان من يعدونه قديساً . لقد وجد المصريون المسيحيون في أوزيريس النموذج الأصلي للمسيح و رأوا في الصور و التماثيل التي تمثل إيزيس و هي ترضع طفلها حورس ، نموذج مريم العذراء وابنها .و لذلك ما وجدت المسيحية شعباً في العالم مهيأ العقل كلياً لتقبل تعاليمها كما وجدته في شعب مصر "[٣] .

مما تقدم يمكننا الاستنتاج أن الحكمة السلطانية المصرية كانت تعتمد دائماً مفهوم التوافق و محاولة إيجاد قواسم مشتركة بين مختلف العقائد الدينية سواء الوافدة منها إلى أرض مصر أو الناشئة منه ضمن الإقليم المصري نتيجة للتطورات الزمنية و الظروف الاجتماعية و السياسية و ذلك ضماناً لوحدة الأرض و الشخصية و العادات الاجتماعية . أي باختصار نستطيع القول إن الحكمة السلطانية في مصر كان لديها نظرة قومية مصرية عدتها أنها الضمان لاستمرارية الحضارة و في الوقت نفسه عدت أن المفهوم الإلهي التوحيدي العام هو الضامن لأمن الحضارة و القومية المصرية . و لن نستغرب كثيراً إذا عرفنا بعد ذلك أن الاسكندر المقدوني عندما غزا مصر ، رحب به الكهنة المصريون و أطلقوا عليه لقب ابن الإله (رع) . و ذلك ليس من باب الخيانة ، بل من باب الحفاظ على هذا التراث الكبير الذي بنته الحكمة السلطانية على امتداد قرون طويلة . و هذا التصرف نرى له شبيهاً إلى حد ما لدى الحكمة السلطانية في بلاد الرافدين ، حيث كان الملوك و الحكام هناك عندما ينتصرون على مناوئيهم الداخليين أو الخارجيين أو يفتحون

---

[٢] ديانة قدماء المصريين ص/١٢١/ .

[٣] الديان الفرعونية ص/٨٥/ .

المدن و الممالك المجاورة ، كانوا يراعون إلى حد كبير آلهة هذه المدن و الممالك إلى درجة الإبقاء عليه أحياناً كما هي في معابدها و حتى المشاركة في بعض طقوسها . و لعلنا نلاحظ أن داريوس الفارسي عندما دخل إلى مصر ، اهتم بآلهتها كثيراً و قرب إليه الكهنة المصريين و حاول أن يتعلم بعضاً من طقوس ديانتهم و قام بتشييد معبدٍ للإله آمون تتفق نقوشه و زخارفه مع الديانة المصرية . و قد بادله الكهنة المصريون هذا الجميل و العرفان و الاعتراف بآلهتهم فعينوه إلهاً و عبدوه[1] . حيث يقول ديودور إن المصريين قد عبدوا داريوس في أيام حياته و جعلوه إلهاً . و قد وجد في متحف برلين شاهداً يمثل درايوس و هو يعبد على هيئة صقر . و في عهد داريوس الثاني ، أغار الحاكم الفارسي لصالح الكهنة المصريين ضد اليهود فأمر بإحراق معبد اليهود و هدمه غير عابئ ببكاء اليهود الذين ارتدوا ملابس الحزن و صاموا مع نسائهم و أولادهم منذ ذلك الوقت[2] .

و لكن هل أثبتت الحكمة السلطانية المصرية القديمة قدرتها دائماً على المناورة بين ما هو ديني و ما هو دنيوي ، و محاولة التوفيق بينهما و إيجاد رابط معين يجمعهما معاً ؟؟ في الواقع و من خلال قراءة التاريخ المصري القديم ، نرى أن الـ حكمة السلطانية المصرية غالباً ما نجحت في التعامل مع التغيرات الإديولوجية و السياسية ، سواء المرتبطة بالدين أم بظرف خارجي ، إلا في حالات نادرة جداً و أهمها هي ظهور الديانة التوحيدية الصافية أي ديانة آخناتون و هي ديانة توحيدية قامت في مصر خلال فترة الدولة الـ حديثة التي امتدت من / ١٥٨٠ – ١٠٩٠ / قبل الميلاد . و جاءت هذه الديانة التوحيدية على يد الفرعون آخناتون الذي تولى العرش سنة / ١٣٧٩ – ١٣٦٢ / قبل الميلاد و قد سميت هذه الديانة باسمه ، و قد جاءت بشكل فجائي مع مجيء هذا الفرعون لتزيل كل الشوائب الدينية التي سبقت فترة استلام حكم الفرعون الشاب آخناتون ، حيث يقول أدولف إرمان عن ذلك إنه " على ما يبدو كان لظهور هذه الديانة أسباب بعيدة و هي أن الناس كانوا يضيقون بالحياة في ظروف موروثة عن العهود السابقة و التي تظهر كأكاذيب ، فلم يعد الناس يريدون الكتابة بلغة قد شاخت منذ أمد طويل و كانوا قد ملوا خدمة ديانة تجر وراءها أشياء لا تعني شيئاً لأناس يعقلون (و ربما كانت هذه حركة من الطبقات المثقفة) و كانوا يودون عبادة و حب الالهة التي يرونها و يحسون بأفضالها ، أي الشمس . و من تسبيحاتهم لهذا الإله المتجسد في قرص الشمس **[أنت الذي تجعل أحشاء المرأة تثمر و تضع النطفة في الرجل / أنت الذي تطعم الأبن في بطن أمه و تهدئه كموضع في بطن الأم / أنت الذي تعطي**

---

[1] ديانة مصر القديمة ص/٣٧٠/ .

[2] المصدر السابق .

الروح لمن تخلقه حتى تحييه عندما يخرج من بطن أمه في يوم ولادته و تفتح فمه للكلام و تقوم بما يلزمه / الفرخ يزقزق و هو ما يزال في البيضة فيها تعطيه روحاً حتى يبقى على قيد الحياة و عندما تعطيه القوة ليكسرها ، يخرج و يعدو على رجليه بمجرد خروجه / كم هي أعمالك أيها الإله الوحيد الذي لا يوجد آخر إلى جواره / كم هي طيبة أفكارك يا سيد الأبدية][٣]

.

بعد ذلك تندلع ثورة عارمة ضد الإله آمون الذي كان يمثل الإله الأوحد لفترات ما قبل حكم الفرعون آخناتون الذي يقوم و بطريقة راديكالية فجائية بمحي كل أثر للإله آمون في المعابد و في أسماء الناس و يفرض ذلك على الكهنة ، حتى هو قام بتطبيق ذلك على نفسه حيث كان اسمه السابق (أمنحوتب) أي آمون مسرور ، إلى (آخن آتون) أي هذا يرضي الشمس و حصل الأمر في درجة وصلت بهذه الديانة ، أن أصبح من المستحيل أن تقوم إلى جانب الإله الجديد الذي أطلق عليه اسم (آتون) ، آلهة أخرى . فهو يجب أن يكون الإله الواحد الحقيقي . و أضحى من الكفر الاعتقاد بوجود إله غيره إلى جانبه ، فتم محي كل الآثار و المعالم و الصور التي تدل آلهة أخرى . و قام الفرعون آخناتون ببناء عاصمة جديدة لمصر لم يسمح فيها بوجود إله سوى إله الشمس . و قد بنيت هذه المدينة في منطقة تل العمارنة و هي تتوسط مصر من كل الجهات إذا ما قيست مساحتها . و قد أعلن الملك أنه لم يأخذ فكرة مكان إقامة العاصمة الجديدة من أحد من مستشاريه ، بل من الإله نفسه و أن هذا المكان لم يكن يوجد فيه آلهة من قبل ، حيث رفع الملك الفرعون يديه إلى السماء و قال مخاطباً الإله " سأبني آخن آتون لآتون ربي في هذا المكان و لن أبني آخن آتون أقرب إلى الجنوب أو إلى الشمال أو إلى الشرق أو إلى الغرب و لن أتجاوز علامات الحدود لا في الجنوب و لا في الشمال و لن أبني كذلك في الغرب بل في الشرق حيث تظهر الشمس . و إذا قالت لي الملكة إنه يوجد في مكان آخر موقع أجمل من هذا يليق بآخن آتون فلن ألتفت إلى كلامها و إذا قال لي المستشارون أو أي شخص آخر مثل ذلك فلن أستمع إلى كلامهم . هذه آخن آتون و هو الذي أرادها "[١] .

لقد كانت ديانة آخناتون التوحيدية تحولاً لاهوتياً مفاجئاً للحكمة السلطانية المصرية الدينية . و تميزت بأنها فعلاً ديانة توحيدية خالصة دعت إلى إله واحد ، فقد أطلقت عليه اسم آتون بدلاً من اسم الإله السابق آمون ، و الفرق بين هذه الديانة و سابقاتها و ما تلاها أنها لم تشر إلى إلهها إلا بالرمز فقط و هو قرص الشمس و عدته إلهاً خفياً غير معروف ، و تبعاً لذلك فإنها ألغت كل

---

[٣] تاريخ مصر القديم ص/١٣٨/ .

[١] المصدر السابق .

مظاهر الصور و الرموز التي تشير إلى شيء آخر غير هذا الإله ، و هذا ما يتضح جلياً من خلال آثار تل العمارنة . و هذه الديانة لم تجامل أو تناور في مجال التكوين أو الخلق أو التجلي ، و لم تراع أية آلهة أخرى ، بل ركزت بشكل واضح و صريح على وحدانية إله واحد أشارت إليه بالاسم و الرمز فقط . هذه الديانة كانت حركة سريعة مباغتة و مفاجئة للحكمة السلطانية المصرية ، جاءت مع تسلم الفرعون آخناتون الحكم في مصر .

في هذا التطور الذي يمكننا أن نصفه بالإيديولوجي اللاهوتي ، نرى أن الحكمة السلطانية المصرية[٢] وقفت عاجزة تماماً و مشلولة عن القيام بأية حركة أو الإتيان بأي فعل من شأنه أن يعمل على التوافق و التقريب ، لأسباب عدة ، أبرزها : **أولاً** كما ذكرنا ، كانت هذه الحركة تحولاً مفاجئاً و مباغتاً و سريعاً ، أي دون أية مقدمات . **ثانياً** إن هذا التطور جاء تطوراً داخلياً أخذ طابع الثورة الإيديولوجية ضد مفاهيم هذه الحكمة السلطانية نفسها و لم يقبل بأية مهادنة معها أو مراعاة لمعتقداتها ، و ذلك خلاف العرف السائد في تلك الفترة و الذي يقضي بمراعاة معتقدات الطرف الآخر و آلهته ، شأن بقية الحكم السلطانية التي كانت تفعل ذلك ، بل عمل على إلغاء و محو كل أسس و مرتكزات هذه الحكمة السلطانية ، الروحية و الإلهية . **ثالثاً** إن هذا التطور و التحول الإيديولوجي الديني ، قامت به حكم سلطانية جديدة جاءت أو خرجت من رحم الحكمة السلطانية القديمة ، و هذه الحكمة السلطانية الجديدة كانت في مرتبة أعلى من مرتبة الحكمة السلطانية القديمة .. حيث إنها كانت عبارة عن فرعون مقابل كهنة أو بمعنى آخر ، سلطة تمثل الآلهة مقابل سلطة تمثل الوسيط المؤدي للآلهة . فهي عرفياً ليس لديها فرصة أو صلاحية للاعتراض ، بل واجب عليها التنفيذ فقط و الطاعة . فضلاً عن أن هذا الأمر قد أتاها من الأعلى و ليس من الأسفل ، فهي معتادة على التعامل مع التطورات التابعة لها من المستويات الدنيا ، و لم يخطر ببالها أن الأمر سيأتيها من الأعلى و من حيث لا تحتسب . و لذلك لم يبق أمامها خيارٌ إلا الطاعة و الامتثال ، و لم يعد لها مناص و بد من التنفيذ و السكوت حتى وفاة الفرعون الموحد آخناتون . و هنا يخطر لنا أن نتساءل عن ماهية الحكمة السلطانية التي جاءت بديانة قرص الشمس آتون التوحيدية و ما مدى علاقتها مع الحكمة الإلهية أو ما مدى تفاعلها مع هذه الحكمة و كيفية تسويقها ؟؟ .

في الواقع و قبل كل شيء لا بد لنا من إلقاء بعض الضوء على الفترة التي سبقت ظهور هذه الديانة و لو بشكل سريع ، حيث كان للمؤرخين دياكوف و كوفاليف رأياً في ذلك[٣] و هو أنه في

---

[٢] تجد الإشارة إلى أن مفهوم الحكمة السلطانية يندرج أيضاً في الإطار الديني و لا يقتصر على الإطار السياسي فقط .

[٣] الحضارات القديمة ج ١ . ص/١٤٢/ .

أيام حكم خلفاء تحوتمس الثالث بدأت تنضج أزمة سياسية في الدولة المصرية العسكرية التي كانت كنتيجة للفتوحات المصرية في بلدان آسيا و منها سورية الطبيعية ، و التي قادها تحوتمس الثالث و التي أدت إلى تغيير في بنية النظام المصري القديم من حيث الطبيعة الاجتماعية و الديموغرافية حتى الاقتصادية بسبب استجرار عشرات الآلاف من العبيد و المواشي ، و إرسال الحملات العسكرية إلى المناطق السورية ، درءاً لقيام أي تمرد أو عصيان . و نتيجة لذلك فقد بدأ ينشب صراع بين الملوك و القواد الصغار لبلدان المحتلة و في الوقت نفسه أدى ذلك إلى نوع من التغيرات الديموغرافية الطفيفة تمثلت كما ذكرنا آنفاً باستجرار العبيد و غيرهم ، أو بهجرة بعض القبائل و الأقوام الذين كانوا يحملون معهم معتقداتهم الدينية الخاصة بهم و منها ما كان توحيدياً خالصاً (كاليهود) ، فضلاً عن تمرد الحثيين في سورية . و لما لم تكن القوات المصرية المرابطة في تلك البلدان تكفي لتهدئة الثورات و التمردات ، و لم يستطع الفراعنة تهدئة الملوك الصغار المتنازعين هنالك ، بسبب استحالة بقاء القوات الضخمة المجندة من السكان الأحرار . و لم يستطيعوا أن يرسلوا إلى سورية قوات إضافية من مصر ، لأن الوضع كان مضطرباً في البلاد المصرية نفسها حيث كان هناك سخط و تبرم من النظام الاجتماعي الفاسد الذي يقوم على العبودية و القهر و الظلم الاجتماعي ، و الذي على ما يبدو كان مسؤولاً عنه ، إضافة إلى الحكام و الملوك ، كهنة الإله آمون الذين كان لهم نفوذهم و إقطاعياتهم و الذين كانوا قد بدؤوا يواجَهون بتذمر من قبل الرعية على تصرفاتهم . و هنا حاول الفرعون أمنوفيس الثالث (آخناتون) مقاومة ذلك الوضع و حاول مع أحد مساعديه إنقاذ السلطة و الحكم من تسلط و نفوذ كهنة آمون و الطبقات المسيطرة الذين كانوا يتعمدون على عبادة الإله آمون التي كانت بالنسبة لهم دعماً إيديولوجياً مهماً . و لكن هذا الفرعون كان يطمح في السيطرة على السلطتين السياسية و الدينية و ذلك بالاعتماد على فئات الشعب الدنيا و التي على ما يبدو قد وقفت إلى جانبه .

و حسب المؤرخين فإنه على ما يبدو لم يكن ممكناً تحقيق الهدف الذي سعى إليه الفرعون إلا بإصلاح ديني جذري فحاول بداية معارضة آمون بإله الشمس (رع) ذي الشعبية القوية جداً ، فصنع له معبداً و هيكلاً في مدينة طيبة . و لكن هذه الطريقة على ما يبدو لم تؤت ثمارها كثيراً ، فما كان من هذا الفرعون إلا أن قطع العلاقة نهائياً مع كل كهنة الآلهة القديمة بما فيها آمون و (رع) ، و أقام إلهاً واحداً فقط لمصر هو قرص الشمس آتون و أغلق كل المعابد المناوئة لإلهه . و عندما حاول كهنة آمون مع بعض النبلاء محاربته ، قمعهم بالحديد و النار و ظلت عبادة آتون قائمة حتى موته .

من خلال ما يتبدى لنا من الكلام السابق ، نستطيع أن ندرك أن ديانة آتون التوحيدية التي جاء بها الفرعون آخناتون ، لم تقفز إلى السطح هكذا فجأة و بلا مقدمات (و لو أنها تبدو لوهلة كذلك) بل كان لها مقدمات سياسية اجتماعية أدت إلى ظهورها . و الواقع أن الأحداث السياسية و الاجتماعية الداخلية و الخارجية ، تبين لنا بشكل واضح و جلي آلية الارتباط بين الحكمة السلطانية و الحكم الإلهية التي أوجدت هذه الديانة التوحيدية ، و العلاقة بينهما . و هنا لا بد من التنويه إلى أمر خطير و مهم جداً ، ربما يقع فيه إشكاليته بعض المؤرخين عندما يصنفون و يؤرخون لهذه الديانة و غيرها عامة ، و هو أنه من الناحية الإيمانية اللاهوتية العقائدية ليس من الضرورة أن يكون ظهور ديانة آخناتون التوحيدية كنتيجة للأحداث و التغيرات السياسية و الاجتماعية ... ليس من الضرورة أن يكون أحد الأدلة و المعايير على نفي صفة الحقيقة الإلهية الصحيحة فيها و ذلك لسبب بسيط و هو أن معظم الأديان و حتى السماوية منها ظهرت كنتيجة لسبب ما ، دفع الله إلى إرسال نبي أو رسول . أي أن الخلاصة برأينا هي أن الأسباب و العوامل الدنيوية المؤدية إلى ظهور ديانة معينة ، قد لا تنفي بالضرورة وجود العنصر الإلهي الحقيقي . لقد وجدت ديانة آخناتون أو آتون التوحيدية الصرفة عن طريق حكمة سلطانية تجسدت في شخص الفرعون آخناتون . و لن يكلفنا عسيراً معرفة كيفية العلاقة إذا عرفنا أن الحكمة السلطانية هي نفسها من صرح عن هذه العلاقة بشكل واضح . و في الأحوال كافة ، فإن ذلك يدلنا كيف أن الحكمة السلطانية المصرية و غيرها ، كان تعتمد بشكل أساس و مباشر على الآلهة في حلها لجميع معضلات الحياة اليومية التي تواجهها في قيادتها لمن هم تحت حكمها و ظلها .

لقد بدأ الأمر في ظل اضطرابات اجتماعية داخل مصر و إضرابات سياسية خارجها . و شكل ذلك أزمة و معضلة للقوى السياسية الحاكمة و التي تتبنى عقيدة الإله آمون و تتوافق مع حكمته الإلهية ، و هذه المشكلات هددت نظام الحكم في مصر برمته . و بما أن السلطة الحاكمة المصرية عامة قد سوقت نفسها للعامة منذ أمد بعيد ، بأنها وسيطة للآلهة و منفذة لآوامرها و رغباتها و تحقيق غاياتها ، و في أحيان أخرى تسوق نفسها على أنها هي ذاتها الحكمة الإلهية . و في كلتا الحالتين كانت الصورة المتعارف عليها لدى عامة أفراد الشعب المصري هي أن هذه الحكمة السلطانية قادرة على حل جميع المشاكل و المعضلات التي تعترضهم و تعترض البلاد المصرية . و لذلك فإن هذه الحكم السلطانية عندما تعرضت لهذه الأزمات و المشاكل السياسية و الاجتماعية المتعددة و المتراكمة التي هددت الاستقرار العام في مصر و لم تستطع التعامل معها أو الالتفاف عليها أو محاولة إيجاد نوع من التوافق فيما بينها . فإن ذلك أدى إلى أن تتهدد مكانة الآلهة نفسها التي كان يتربع على قمة هرم القدرة و السلطة فيها الإله آمون . و عندما تهتز

صورة الآلهة العليا و تتهدد مكانتها و تبدو و كأنها عاجزة عن فعل أي شيء ، فإن ذلك سيؤدي طبعاً إلى التفكير بحل آخر جذري و مختلف ، و لكنه في الأحوال كافة لا يخرج عن نطاق الآلهة .

كان لا بد لذلك الأمر و الواقع الحرج من أن يفرز حكمة سلطانية جديدة تسعى جاهدة لتغيير الوضع القائم . بداية لجأت هذه الحكمة السلطانية الجديدة إلى تطبيق أسلوب نظيرتها السابقة نفسه ، أي محاولة التوافق و إيجاد البديل ا لمناسب للتغيير و الذي يمكن أن تقبله عقلية الإنسان المصري و تألف وجوده ، و هو الإله (رع) ، فحاولت وضع هذا الإله الذي كان ما يزال محافظاً على شعبيته و نفوذه في مصر ، كثقل مضاد للإله آمون ، لأن هذه الحكمة السلطانية الجديدة أدركت على ما يبدو أنه لا يمكن إزالة مفهوم ما أو محاربته إلا بمفهوم شبيه له و يعادله في القوة إن لم يكن أقوى . و لكن الحكمة السلطانية الآخرى المتمثلة بكهنة آمون ، قد أدركت الخطر الذي يتهددها و لجات إلى المقاومة .

و عندما أدركت الحكمة السلطانية الجديدة المتمثلة بالفرعون آخناتون ، عدم جدوى هذا الأسلوب الذي تتقنه الحكمة السلطانية القديمة أكثر منها ، لجأت إلى أسلوب آخر جديد كل الجدة على هذه الأخيرة ، و حتى على تاريخ مصر ككل . هذه العملية تذكر بالآية القرآنية التي تقول (**فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون _ إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات و الأرض حنيفاً و ما أنا من المشركين**) (الأنعام ٧٨ – ٧٩) . والاستشهاد بهذه الآية هنا ، جاء من حيث الطريقة و المنهج . فعندما أعيت الفرعون آخناتون الوسيلة و رأى عجز جميع الوسائل السابقة عن إيجاد الحل الناجع ، ظهرت لديه فكرة التوحيد ، تماماً كما هو الحال عند النبي إبراهيم . و لكن هل ظهرت فكرة التوحيد هذه لديه هو نفسه أو أنه لجأ إليها مقتبساً إياها من بعض الديانات التوحيدية كالديانة اليهودية مثلاً ؟؟ في الواقع إن كلا الاحتمالين مفتوحان و قابلان للمناقشة .أما إذا عد نا إلى الخطاب الرسمي الديني الذي أعلنته هذه الحكمة السلطانية الجديدة ، فسنرى أنه بحسب رواية الفرعون آخناتون ، فإن الإله آتون هو الذي ظهر له و أعلن عن نفسه و طالبه بتنفيذ الإصلاحات . و نلاحظ من قراءة التاريخ المصري القديم ، أن الفرعون آخناتون لم يلجأ إلى إعلان ديانته التوحيدية إلا بعد أن أصبح فرعوناً . و هذا يبرز القاعدة الأساس في العرف القديم عامة و المصري خاصة و هو أن اعتماد أي امر سياسي و اجتماعي عام ، يحتاج إلى أعلى سلطة في الهرم السياسي و أعلى سلطة في الهرم الديني في الوقت نفسه . أي اجتماع الحكمة اللاإلهية و السلطانية معاً . و ربما لهذا السبب ندرك كثرة الحديث عن فرعون في القرآن الكريم . و الشرعية القوية التي أضفتها الحكمة

السلطانية على المفهوم التوحيدي الخالص لديانتها تلك ، هو أنها لم تعط لنفسها أية صفة إلهية ، فلم يدّع الفرعون آخناتون أنه إله (بالرغم من كون منصبه في العرف المصري يعطيه صفة الألوهية) أو ابن إله أو جزء من إله ، بل فصل نفسه إما بكل ذكاء و حكمة و إما بكل تقوى و ورع ، و اكتفى باعطاء نفسه منصب كبير الكهنة .. كهنة آتون . و باتباعه لأوامر الإله آتون الحرفية أكسب نفسه رداء النبوة .

و قد بلغ من قوة ديانة آتون وانتشارها ، أنها كانت واضحة تماماً من حيث تعريفها لمظاهر الطقوس الدينية و في الوقت نفسه عرفت عن مفهوم الحكمة الإلهية و السلطانية التابعة لها . و بالرغم من كل محاولات الحكمة السلطانية القديمة مقاومة الوضع الجديد الذي يهدد بإزالتها نهائياً إن استمر على ما هو عليه ، إلا أن كل جهودها باءت بالفشل و ذلك لكونها تتعامل مع حكمة سلطانية إلهية منظمة و لها ديانة رسمية بمقوماتها و أركانها كافة ، و مدعومة من قبل الطبقة العامة المضطهدة و التي عانت من الظلم الاجتماعي و الفساد الإداري و الحكومي . و قد لجأ كهنة آمون إلى استخدام الآلهة في محاربتهم للفرعون آخناتون حيث حاول هؤلاء زيادة تأجيج الغضب الشعبي و الاضطرابات الداخلية بنشر إشاعات و أخبار عن غضب الآلهة على مصر و التهديدات التي تتوعد بها بسبب الوضع الجديد الطارئ . و لكن كل ذلك باء بالفشل و خاصة خلال فترة حكم الفرعون آخناتون . و لم يفلح هؤلاء في استعادة مكانتهم و موقعهم مرة أخرى و لم يعملوا على إزالة ديانة آخناتون إلا بعد وفاة الفرعون نفسه ، حيث اضطر خليفته توت عنج آتون إلى مهادنة كهنة آمون و السير في ركابهم ، فغير اسمه إلى توت عنج آمون و غادر مدينة آخناتون إلى طيبة و دخل في ديانة آمون من جديد . و هذا ما يبين لنا بشكل واضح كيف أن الحكمة السلطانية كانت هي العامل الأساس في وجود الأمر الديني ، و الفيصل في إبراز الحكمة الإلهية و صوغها و إظهارها ، حيث إن عماد وجود ديانة آتون التوحيدية ، كان هو الفرعون نفسه و بمجرد رحيله تضعضعت أركان هذه الديانة و من ثم جرى محاربتها و إزالتها فيما بعد و عادت من جديد عبادة الالهة السابقة .

إذن بعد القضاء على ديانة آتون ، عادت ديانة آمون و بقوة . و حسب رأي أدولف إرمان فإن أنصار آمون و قد أحسوا بقوة الديانة التوحيدية السابقة ، فإنهم قد أضفوا شيئاً من التوحيد إلى ديانة الإله آمون[1] . خاصة بعد سحب البساط من تحت أرجلهم و تعرضهم إلى خطر داهم مزلزل كان كفيل ربما بإزالتهم و استئصال شأفتهم .. هم و ديانتهم ، لو طال الأمد بحياة الفرعون

[1] تاريخ مصر القديمة ص/١٥٣/ .

آخناتون ، أو كان خليفته الذي تلاه بمثل حنكته و رباطة جأشه . و لذلك فإن هذا الأمر كان شبيهاً بالمثل القائل " الضربة التي لا تقتلك ... تقويك " .

لقد كان كابوس فترة آخناتون النسبة لهؤلاء ، بمنزلة درس و مراجعة للأخطاء . و لذلك فقد سارعوا عند استلامهم زمام الأمور ، إلى تلافي جميع أخطائهم السابقة و تعويض جميع نواقص ديانتهم و سد ثغراتها بما افتقرت إليه من أمور توحيدية ، و تطعيمها ببعض المفاهيم التوحيدية الموجودة في ديانة آتون ، و من نحو ذلك ، هذا النشيد الذي وضعوه تمجيداً للإله آمون **[و لم يسم آمون بالخفي لغير ما سبب ، فهو كائن مليء بالأسرار ، تجهل حتى الآلهة مظهره الحقيقي و صورته ليست منتشرة في الكتب و هو محجب بالأسرار حتى لا يستطاع الكشف عن بهائه و روعته . و هو كبير حتى لا يستطاع تكوين فكرة عن ماهيته . و مع ذلك فإن التوسل لاسمه لا يجلب البركة دائماً لأن له كذلك اسماً سرياً يجهله المرء و هو فظيع لدرجة أن من يلفظ هذا الاسم يخر صريعاً . و ليس يستطع إله ما أن يناديه بهذا الاسم]** . كما وضع لأجل آمون هذا النشيد أيضاً **[إن آمون هو أصل كل شيء . إنه ولد في البدء و ليس هناك إله آخر قبله . و لم يكن معه إله آخر ليشير إلى صورته . لم تكن له أم تمنحه اسمه و لا أب ليكون أصلاً و ليقول ها أنذا . إن كل شيء آخر صدر عنه . التاسوع و الآلهة جميعاً كانوا متصلين بجسده حين خلق الآلهة الأولين في صورته كبتاح تاتنن . و على ذلك فليس هناك في الواقع سوى كائن إلهي واحد هو آمون]**[٢] .

باتت واضحة بصمات الحكمة السلطانية في هذه الأناشيد و الغاية التي أ رادتها . و هي هنا حلت معضلتين أساستين أو قامت بأمرين معاً ، فهي أولاً أضفت صفات توحيدية بحتة شبيهة تقريباً بما كانت ديانة آتون تصف إلهها به . و ثانياً أرادت أن تضع حكمة الإنسان في موضع المقصر و العاجز حين التطرق إلى الآله آمون ، فأوجدت حلاً و قناعة كافيين لمسألة التفكير بالإله ، و وضعت حداً لذلك .

لقد استفادت الحكمة السلطانية من ذلك و وضعت طوقاً محكماً حول نفسها و حول ديانتها . و بمجرد إطلاقها صفة الخفاء و الغموض على الإله آمون ، جعلته خارج إطار التناول و ختمت على ذلك بأن من يفكر أو يلفظ اسمه الحقيقي يخر صريعاً . ليس ذلك فقط بل إن هذه الحكمة قد أعادت النظر في مفهوم التوافق و التناغم و الانسجام في تعاملها مع الآلهة المحلية . ففصلت الآله آمون حتى عن هذه الآلهة و عدته فوقها جميعاً و لا يمكن لها الاشتراك معه و ذلك من عبارة (تجهل حتى الآلهة مظهره الحقيقي – و من يلفظ هذا الاسم يخر صريعاً و ليس يستطيع إله ما أن

---

[٢] المصدر السابق .

يناديه بهذا الاسم) تدل هذه التعابير دلالة واضحة على الفصل الكامل لآمون إن بقية الآلهة و على دونيتها اتجاهه و تأتي عبارة (و على ذلك فليس هناك في الواقع سوى كائن واحد هو آمون) لتفصل الجدل القائم بشأن ذلك .

لم تعد الحكمة السلطانية بعد هذه الضربة القوية التي تلقتها و التي كادت أن تودي بها . لم تعد تتمادى كثيراً في محاباة طبقة العامة سواء من الناس أم من الآلهة و لأنها أدركت خطورة ذلك أو ربما لسبب آخر و هو برأينا قد يكون له نصيب من الصحة ، و هو أن كهنة آمون و بعدما لاحظوا انجذاب طبقة العامة لديانة أخناتون و تعلقهم بها و إعراضهم عن ديانة آمون بالرغم من تقربها لآلهتهم المحلية في بعض الأحيان ، أدركوا خطأهم الفادح و أدركوا أن حكمتهم تلك كانت ناقصة و لم تقدم حلولاً ناجعة . و لذلك ما إن استعاد هؤلاء زمام الأمور حتى قاموا بهذه الخطوة و رفعوا إلههم آمون فوق كل الآلهة المحلية و ميزوه عنها كردة فعل و عقاب على أتباعها . و في عجالة هذه الطروحات ، يتبادر إلى الذهن سوآل وجيه و هو لماذا لم يكتب لديانة آخناتون النجاح و الاستمرار ؟؟!! .

في الواقع لقد تحدث المؤرخون كثيراً في هذا المجال و وضعوا رؤيتهم و تصوراتهم لذلك ، فبعضهم قال إن ديانة آخناتون التوحيدية فشلت لأنها كانت مصطنعة و لم تستفد منها أية شريحة[1] و بعضهم الآخر عدها موجة عابرة ليس لها أساس .. الخ . و لكننا نقول إن ديانة آتون لم تستمر لأنها كانت مجسدة بشكل حكمة سلطانية كاملة تطرح نفسها و لأول مرة على أنها مدعومة بحكمة إلهية كاملة ، بل لم تستمر لأنها في الواقع كانت صراعاً شرساً مميتاً بين حكمتين سلطانيتين قويتين و كل منهما له مرتكزاته و آراؤه من الحكمة الإلهية . و هنا أيضاً و نتيجة لهذا الاستنتاج ، يبرز لدينا سوآل آخر و هو هل جاءت ديانة آتون هكذا دون مقدمات عن طريق الوحي الإلهي إلى الفرعون آخناتون ، أو أنها كانت موجودة من قبل بشكل أو بآخر و لكنها كانت من أسرار الكهنة و الفراعنة التي لم تكن لتذاع على عامة الناس و ذلك مراعاة لمصالح الحكمة السلطانية و غاياتها و نتيجة لأمور ارتأت هذه الحكمة أنه من الأصلح لقيادة الناس و توجيههم القيام بها و إخفاء أسس حكمية توحيدية معينة ، أم أن ديانة آتون كانت مستمدة أو متأثرة بديانة توحيدة سبقتها كاليهودية مثلاً ؟؟ لأن ما يجدر ذكره هنا هو أن آخناتون قد ظهر بعد النبي إبراهيم الخليل الذي قدم إلى مصر ، بحوالي ستمئة عام تقريباً و تبعاً لذلك لا يمكن أن تكون دعواته هذه للوحدانية هي الأولى في تاريخ البشر و هذا الأمر يقودنا إلى الاستنتاج بأن ديان آخناتون قد استقت مصادرها من الديانة اليهودية ، حيث جاءت عبارات بعض الأناشيد في

---

[1] الحضارات القديمة ج١ ، ص/١٤٣/ .

ديانة آخناتون مطابقة تماماً لبعض عبارات الأسفار اليهودية و منها المزمور / ١٠٤ / و فيما يلي مقارنة بينهما[٢]

تراتيل آخناتون	المزمور / ١٠٤ /
العالم يقبع في الظلام كما الأموات و خرج كل أسد من عرينه و لدغت الأفاعي كلها .. يسود الظلام	تجعل ظلمة فيصير ليل فيه يدب كل حيوان من الوعر و الأشبال تزمجرلتخطف و لتلتمس من الله طعامها (٢٠ : ٢١)
عندما تشرق الشمس في الأفق تطرد الظلام ... حينئذ يخرج الجميع في العالم كله إلى أعمالهم	تشرق الشمس فتجتمع و في مآويها تربض .. الإنسان يخرج إلى عمله و إلى شغله إلى المساء (٢٢ : ٢٣)
ازدهر الشجر و النبات و زقزقت الطيور في في مناقعها و رقصت كل الأغنام و هي واقفة على أرجلها	تشبع أشجار الرب ... حيث تعيش هناك العصافير ... الجبال العالية ملجأ للوعول (١٦ : ١٨)
و أقلعت السفائن صاعدة و نازلة و أن السمك في النهر ليقفز أمامك و إن أشعتك لفي وسط البحر العظيم	هذا البحر الكبير الواسع الأطراف ... صغار حيوان مع كبار هناك تجري السفن (٢٥ : ٢٦)
ما أعظم أعمالك الكثيرة يا رب .. إنك خلقت الأرض بإرادتك و البشر و البهائم كل ما هو	ما أعظم أعمالك يا رب صنعت الأرض ملآنة من غناك

[٢] العرب و اليهود في التاريخ ص/٣١٤/ .

على الأرض	(٢٤)
أنت خلقت النيل في السماء لكي ينزل عليهم فيحدث الفيضانات من أعلى الجبال و يروي الحقول نيل السماء لخدمة الغرباء و البهائم في كل بلد	الساقي الجبال من علاليه من ثمر أعمالك تشبع الأرض المنبت عشباً للبهائم و خضرة لخدمة الأعشاب (١٣ : ١٤)
أنت صنعت السماء البعيدة الأطراف لترتفع فيها .. عند بزوغ الشمس يمتد نورك في الآفاق ثم تقود الدنيا بيدك لأنك أنت خالقها ، فعندما تستيقظ تعم الحياة و عندما ترقد يعم السكون أنت تبعث الحياة في الإنسان	صنعت القمر لمواقيت . الشمس تعرف مغربها كلها . إياك تترجى لترزقها قوتها في حينه . تعطيها فتلتقط . تفتح يديك فتشبع خيراً . يجب وجهك فترتاع أرواحها فتموت و إلى ترابها تعود (٢٧ : ٢٩)

في الختام ربما كان هذا من أعراف تاريخ الديانات المصرية القديمة بعامة . و لكن الفرعون آخناتون عندما رأى ظروف البلاد المضطربة و فشل حكمة آمون الظاهرية بشقيها الإلهي و السلطاني ، في معالجة المشاكل التي تعصف بمصر و تذمر الناس منها ، اضطر إلى إشهار الديانة التوحيدية الباطنة علها تساعد على حل الوضع ، مما أثار غضب و تذمر الكهنة من هذا التصرف الطائش فدخلوا في حرب معه . و لعل ما يدلل على هذا الأمر و يؤيده ، هو أن الفرعون آخناتون حاول في البداية إيجاد حل وسيط و هو إدخال الإله (رع) و الذي هو إله معروف للمصريين و منافس قوي للإله آمون . و إلا فلماذا لم يلجأ الفرعون إلى ديانته التوحيدية مباشرة و دون مقدمات طالما أنها أوحيت إليه ؟؟!! أحد التفاسير المقبولة هو أنه ربما حاول تجربة سبل أخرى قبل أن يلجأ إلى السبيل الأخير و هو إشهار و إعلان الديانة التوحيدية السريةأو الباطنية و التي لا يعرفها إلا القلة فقط ، فهل كانت ديانة آتون سراً اضطرت الحكمة السلطانية المصرية لكشفه ؟؟ ذلك ما لا يمكن الجزم به و تناوله إلا من باب التكهن و الافتراض . و لكن بالأحوال كافة تكشف لنا كل حوادث و مفرزات ظهور ديانة آتون و نهايتها و ما نتج عنها ، تكشف كيف كانت عملية التزوير أو الضلال تتم و كيف كان تحوير المعتقدات يحصل .

اليونان

تتميز اليونان بتنوع طبيعتها الجغرافية وتتوضع في مكان يتوسط قارتي آسيا وأوروبة ويطل على البحر الأبيض المتوسط من جهة الشمال ، ويأتي تنوع طبيعة اليونان الجغرافية من كونها تحتوي على الجبال والسهول والبحار وتحتوي كذلك على الوديان و فيها الأنهار فضلاً عن خصوبة أرضها واعتدال مناخها مما جعلها محط أطماع الغزاة والمستعمرين منذ القدم وموطن قدم للهجرة إليها واستيطان بعض الأقوام فيها منذ القديم ،من وسط أوربا وشرقها و غلب على أكثرية هذه الشعوب الطابع الهندوأوربي [1] . ويلاحظ في طبيعة جغرافية اليونان الاختلاف والانفصال بعضها عن بعض بموانع جغرافية فكان من الصعوبة بمكان الاتصال فيما بينها بسهولة . ولذلك فقد أوجد هذا الوضع حالة من تشكل كيانات متميزة بعض الشيء بعضها عن بعض من الناحية السياسية والاجتماعية .

والحقيقة إن تاريخ اليونان الذي عرف التحضر وبداية تشكيل التجمعات الواعية المنظمة قد بدأ منذ نزوح الجماعات والأقوام إلى الأرض اليونانية . و مع تطور الزمن واستمرار عملية النزوح على فترات مختلفة إلى أرض اليونان نتيجة لظروف اقتصادية كالقحط وقلة موارد الزرع ، أو سياسية كالغزو ، بدأت عملية الاختلاط و التمازج بين السكان الوافدين والسكان المحليين وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت إلى جانب عملية الاختلاط عملية تلاقح الأفكار فأدى ذلك إلى إطلاع اليونانيين على حضارات الشعوب الأخرى وخاصة الفينيقية والعراقية والمصرية فنشأ هناك نوع من اختلاط الثقافات كالمينوية والمسينية والدورية مع الثقافات الفينيقية والبابلية والفرعونية . [2] وكان أول مجتمع حضري متمدن نشأ في اليونان هو في جزيرة كريت . [3] وقد نشأ هذا المجتمع نتيجة للنزوح الذي جاء من شمال اليونان بسبب الغزو الذي تعرضت له اليونان من القبائل الدورية . وبالرغم من أن موقع جزيرة كريت يتمتع بميزة استراتيجية حيث يتوسط الطريق الواصلة ما بين المرافئ السورية والمصرية والإيطالية واليونانية مما جعلها تحتل

---

[1] الفكر السياسي في العصور القديمة ص ١٢

[2] المصدر السابق ص ٢٢

[3] تاريخ البشرية

مركزاً تجارياً هاماً ، فإن بعض المؤرخين يعتقدون بأن حضارة المجتمع التي تكونت في جزيرة كريت ربما تكون قد تأثرت بحضارات الدول المجاورة لها وخاصة مصر وسورية اللتين سبقتاها زمنياً في حقل ومجال التحضر الإنساني الوثيق . ولكن المشكلة الرئيسة والمزمنة التي كانت تعاني منها بلاد اليونان عامة هي الغزو المتكرر وخاصة من القبائل الهمجية البربرية ولذلك فقد تعرضت جزيرة كريت لغزو بربري من الشمال ، ثم تلا ذلك كارثة طبيعية مدمرة تمثلت بالبركان الذي ثار فيها ليدمر كل أثر و معلم للحضارة .

على أن التهديد الكبير الذي كان يتهدد الإغريقيين كان يأتي من الفرس وهذا ما أسفر عن حروب طويلة بين الإغريق والفرس صبغت التاريخ اليوناني بآثارها [٤] حيث كثيراً ما كان يتم تبادل الغزوات بين الفريقين ويحتل أحدهما أرض الآخر ولعل بداية التهديد والغزو الفارسي لبلاد اليونان بدأ في عهد الملك الفارسي قورش الذي أنشأ دولة قوية أخذت تقضم المدن والممالك المجاورة لها حتى وصلت إلى مصر وآسيا ومن ثم اتجهت نحو اليونان . وبعد حملات متعددة ومريرة تمكن الفرس من احتلال أثينة أقوى مدن اليونان ليعود اليونانيون بعد ذلك ويستعيدوا زمام الأمور فانتصروا على الفرس في معركة سلاميس عام ٤٧٩ ق.م والتي وضعت حداً للخط البياني لفتوحات الفرس في اليونان الذي بدأ يميل وينحدر نحو الأسفل ليشهد أسوأ مرحلة فيه وهي مرحلة غزو الإسكندر لبلاد فارس .

من الناحية السياسية نستطيع القول إن النظام السياسي في بلاد اليونان عامة كان يقوم على نظام المدن وهو ما ميزه عن بقية الأنظمة السياسية في البلدان المجاورة. حيث كانت كل مدينة تعد مملكة مستقلة وكياناً سياسياً قائماً بحد ذاته ، وله خصوصياته التي تميزه عن غيره من بقية المدن اليونانية، ليس ذلك فحسب بل إن هذه المدن كانت تدخل مراحل تاريخية معينة ، في حروب ضد بعضها بعضاً من أجل السيطرة والتحكم وأحياناً في تحالفات مدنية من أجل صد خطر خارجي . وهذه المدن بالعرف التاريخي أطلق عليها اسم دولة المدينة ومن أبرزها مدن أثينا وإسبرطة اللتين شهدتا فيما بينهما صراعاً متبادلاً للسيطرة على المدن اليونانية . أما الأحلاف فمن أبرزها هو حلف ديلوس الذي نشأ بعد انتصار الاثينيين على الفرس في معركة سلاميس . وكما ذكرنا آنفاً فإن الوضع الجغرافي و اختلاف التضاريس في اليونان ساعد على تكريس مفهوم دولة المدينة وانتشاره .

لقد أسهمت الحضارة اليونانية كما مثيلاتها المصرية والفينيقية والعراقية بتقديم أرقى العلوم والمفاهيم والمصطلحات إلى الحضارة البشرية عامة وإلى الأن . ويعود فضل الحضارة

---

[٤] المصادر السابقة .

اليونانية في أنها قدمت إلى العالم الأسس الأولى للعلوم بشقيها الإنساني والمعرفي فكانت أول حضارة تتطرق إلى مفهوم العقل بشكل مباشر ، وتفتح الباب أمام النظريات والتطبيقات العلمية والتي لا تزال موجودة إلى الآن في عالمنا المعاصر . وفضلاً عن ذلك فإن الحضارة اليونانية كانت أول من فتح وأوجد علم الفلسفة والتأمل أي مفهوم الحكمة ونستطيع القول و دون موارية إنها أول حضارة تعطي الحكمة الإنسانية حقها وتفيها ما تستحقه من البحث والتحليل وأول من حدد العقل كمفهوم منفصل عن بقية المفاهيم الاخرى والتي يمكن أن تتفاعل فيه كما حصل مع الحضارتين السورية والمصرية . لقد كانت الحضارة اليونانية أول حضارة تعتمد مبدأ الدراسة والتحليل للمفاهيم والمصطلحات الشائعة اليوم كالدين والسياسة والاجتماع والهندسة وغيرها وقامت بدراستها وتحليلها وعزلها عن بعضها عن بعض ليس ذلك فحسب بل إن أغلى وأجمل وأثمن شيء قدمته الحضارة اليونانية للإنسانية هو مفهوم الديمقراطية بمعناها الواسع و العريض وبكل ما تحمله الكلمة من معنى . فقد شهدت بلاد اليونان قديماً أرقى مفاهيم الحرية السياسية والفكرية والعقلية ليس فحسب من حيث النظرية والتحليل ، بل من حيث الفعل والتطبيق . لقد قامت الحضارة اليونانية أساساً على مبدأ دراسة الكون والطبيعة وحتى النفس الإنسانية ، من منظار العقل والمحاولة قدر الإمكان عزل ذلك عن العامل أو المؤثر الإلهي ، فتمت دراسة مظاهر الكون والطبيعة والنفس الإنسانية وتقديم التفسيرات لإشكالاتها بمعزل عن العامل اللاهوتي . وبرأينا إن الحكمة الإغريقية القديمة قد نأت بنفسها عن إشكالية العنصر اللاهوتي في تفسير وتبرير الأمر السياسي والاجتماعي ، لأنه حتماً قد تهيأ لها الاطلاع على حضارات وثقافات الشعوب المجاورة والسابقة لها (حضارياً) وخاصة حضارة الساحل السوري وما بين النهرين ووادي النيل . ومن المؤكد أن الحكمة الإغريقية قد تحصلت على كل أو معظم الإشكاليات التي كانت تمر بها حضارات وثقافات تلك البلدان ذات البعد الديني والسياسي والاجتماعي . ولسبب ما قد يكون مرتبطا بالعامل النفسي أو الجنسي أو الجغرافي أو بعامل التمييز والإتيان بكل ماهو جديد . قررت هذه الحكمة أن تلغي الجانب الديني اللاهوتي الذي يسيطر على كل جوانب تلك الحضارات بأبعادها ومقدماتها الزمنية المتمثلة بالأحداث السياسية والاجتماعية كافة . بل قررت هذه الحكمة السلطانية الإغريقية وبكل بساطة فصل الأمر الديني عن الأمر العقلي. ولكن ذلك على ما يبدو لم يكن بالأمر السهل أو يمكن وصفه من جهة أخرى بأنه كان نتيجة لمخاض عسير تمثل بصراع فكري سياسي و حتى اجتماعي بين أنصار ومؤيدي الآلهة و بين مناهضيها أو على الأقل غير المكترثين بأمرها. ونحن لن نألوا جهداً كبيراً عندما نقرأ تاريخ وفترة هذا المخاض الذي نشأ في بداية الحظوة اليونانية الفكرية و خاصة في فترة ظهور أولى المدارس الفكرية والفلسفية حيث كانت الآلهة آنذاك لا تزال

تحظى بتأثير واحترام قوي في عقلية الإنسان الإغريقي . وقد استخدمت قضية الإساءة للآلهة كنتيجة قوية ومنطقية في تلك الفترة لضرب الخصوم السياسيين أو الفكريين و إبعادهم عن الساحة أو حتى إعدامهم كما حصل لحاكم أثينا بركليز و زوجته أسبازيا أو كما حصل لسقراط . يقول (ول ديورانت) عن عملية إقصاء بركليز عن السياسة [1] . إنه لما وصلت (أسبازيا) إلى أثينا عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد افتتحت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة وأخذت تشجع بجرأة عظيمة خروج النساء من عزلتهن واختلاطهن بالرجال وتربيتهن تربية عالية فالتحقت بمدرستها كثيرات من فتيات الطبقات العليا . وأرسل كثيرون من الأزواج زوجاتهم ليدرسن معها وكان الرجال أيضاً يستمعون إلى محاضراتها ومن بينهم بركليز وسقراط . ويقول سقراط إنه تعلم منها فن البلاغة . وجاء بركليز بأسبازيا إلى بيته ، غير أن قانون الذي سنه في عام /٤٥١ / قبل الميلاد ، لم يكن يبيح له أن يتخذها زوجة . أما أسبازيا فقد جعلت بيته أشبه بالندوات تناقش فيه الفنون والعلوم والآداب والفلسفة وشؤون الحكم والسياسة في أثينة ، مناقشة تجمع بين هذه النواحي المختلفة وتؤثر كل منهما في الأخرى .

وما لبثت أسبازيا أن أصبحت ملكة أثينة غير المتوجة تشيع فيها آخر أنماط الحياة الاجتماعية وعنها تأخذ نساء المدينة أفكار الحرية العقلية والأخلاقية التي يتطلعن إليها . فكان هذا كله صدمة قوية لمشاعر المحافظين من الأهلين فأخذوا يهاجمونها ويهاجمون صديقاتها ومن يحضر ندواتها كالفيلسوف انكساغورس الذين وجهوا له تهمة تتعلق بالدين ووجهوا إلى أسبازيا تهمة دينية مضمونها أنها لا تخضع لأوامر الدين وأنها جهرت بعدم تعظيمها الآلهة اليونان . فقدمت للمحاكمة ونظرت قضيتها أمام ألف وخمسمائة من القضاة . ودافع عنها بركليز دفاعاً مجيداً استخدم فيه كل ما وهب من بلاغة ، بل إنه استخدم دموعه نفسها ولكن دعواه رفضت . ومنذ ذلك الوقت بدأ بركليز يفقد سيطرته على الشعب الأثيني . ولما وافته المنية بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ، كان قد أصبح رجلاً مهدماً كسير القلب والجسم" . وكذلك سقراط الذي وجهت له تهمة الاستهزاء بآلهة أثينة وعدم الاعتراف بها وإفساد الشباب . وحكم عليه بالموت عن طريق تجرع كأس السم .

إننا في خضم هذا الشرح نستطيع أن نؤول هذا المخاض بأنه كان نتيجة للإشكالية الحاصلة بين مفهومين أو قضيتين .. قضية علاقة الحضارة اليونانية بالحضارة المجاورة والسابقة لها و أبرزها الفينيقية والمصرية والتي كان لها أثر ملحوظ لا يمكن إنكاره في وجود الحضارة اليونانية . وقضية محاولة الانقلاب والانعتاق من هذه العلاقة وفصم عراها وإكساب الحضارة

---

[1] قصة الحضارة ، المجلد ٨- ص ١٨

الإغريقية استقلالية تميزها عن باقي الحضارات . فعلى ما يبدو أن اتصال الإغريق في بداياتهم بثقافات وحضارات تلك الشعوب قد ساعد على إدخال مفهوم الآلهة ، ذلك" بشهادة معظم اليونانيين الذين قالوا بإن عناصر كثيرة عن حضاراتهم قد جاءتهم من الخارج عن مصر أو فينيقيا . وقد عزت بعض رواياتهم التاريخية الفضل في نشأة الكثير من المدن الإغريقية إلى الفينيقيين والمصريين مثال الأمير الفينيقي قدموس أو مثال دانوس كما أكد اليونانيون بأنهم أخذوا عن المصريين والفينيقيين دياناتهم وآلهتهم . إذ قال المؤرخ الإغريقي هيرودوت " لقد جاءت أسماء الآلهة كلها تقريباً من مصر إلى بلاد اليونان " . كما أكد أيضاً بأن ديانة ديونيسيوس أتت من مصر وكذلك ذكر العديد من المؤرخين بأن الآلهة اليونانية الشهيرة أفروديت أتت إلى اليونان من الآلهة السورية عشتار كما أكد برست بأن ا لبابليين قد وضعوا الأسس التي ساد عليها علماء اليونان فيما بعد علم الفلك.

وفي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد أخذ اليونانيون الألفباء الفينيقية التي كان لها دور مهم في تكوين الأدب والفكر الإغريقي ويقول أرنولد توينبي في هذا الخصوص : لقد كان تقبل الإغريق للألفباء الفينيقية وتطويرها ذا نتائج مذهلة بالنسبة للأدب والفكر الهلليني " [٢] . لقد كان من الطبيعي تماماً أن يقترن موضوع الآلهة بالنسبة للشعوب القديمة ومنها اليونانيون بالأسطورة .

و منذ بروز الآلهة عند الإغريق برزت الأساطير اليو نانية كالأوديسة والألياذة التي تشرح وتحدد مفهوم الآلهة للإنسان اليوناني ، لأن الأسطورة بالنسبة لإنسان ذلك الزمن كانت أساساً للتفسير المنطقي و القبول العقلي بنشأةالكون و خلق الآلهة له وغايتها من الخلق . ونتيجة ذلك كله ، هو احترام الإنسان الإغريقي للآلهة وتقديره لها ، وذلك برأينا لأسباب عدة : أولاً إن هذا الأمر جاء في بداية تشكل الحضارة وقدوم الثقافات إلى اليونان في وقت كان الإنسان الإغريقي لا يزال متخلفاً عن ركب تلك الشعوب ، فلم يكن لديه المجال التعليمي والمنطقي لمعارضة هذه العلوم ، وتراكمالخبرات والمعارف التي تد فعه لتحليلها ومناقشتها التي تدفع ذلك الإنسان إلى القبول والميل إلى التسليم ، أو الرفض . ثالثاً :إن الحكمة السلطانية اليونانية الوليدة شأنها شأن نظيراتها السورية والمصرية ، كانت تهدف أولاً وأخيراً إلى قيادة المجتمع اليوناني فقبلت مؤقتاً بذلك كونها لم تكن قد شكلت بعد لنفسها العوامل الفكرية والعقلية والمنطقية التي تؤمن لها قيادة هذه المجتمع حسب ما ترتأيه هي .

ولكن وبعد فترة زمنية معينة استكملت فيها كامل شروط تشكل المجتمع الإغريقي وشروط البحث والتفكير بدأت تظهر مناهج جديدة اختلفت جذرياًعن كل ماهو م تعارف عليه ومألوف

---

[٢] الفكر السياسي في العصر القديمة ص ٢٤- فجر الضمير- تاريخ البشرية ص ١٧٠ .

لدى ثقافات وحضارات الشعوب القديمة . بدأت تظهر المدارس الفكرية التي أرست دعائم مجتمع يوناني متميز عن كل المجتمعات المجاورة له و أعطى للعالم كله حضارة راقية متميزة بمفاهيمها وأسسها الاجتماعية والسياسية والفكرية . وهنا لنا أن نتساءل لماذا انحت الحكمة السلطانية الإغريقية بنفسها عن نظيراتها من البلدان المجاورة ؟؟ !! لماذا لم تعتمد أسلوب تلكم الحكم السلطانية نفسه في قيادة مجتمعاتها وشعوبها و بخاصة وأنه أسلوب أثبت نجاحه عبر عشرات القرون السابقة ؟؟ في الواقع لا يمكننا تحديد السبب على وجه الدقة ولكن هناك أسباب عدة ربما تكون قد لعبت دوراً في ذلك . بعضهم قال إن خلاصة ثقافات وحضارات الشعوب المجاورة للإغريق قد جاءتهم جاهزة بكل تراكماتها التاريخية ، ففتحت المجال أمام العقل الإغريقي للنظر فيها وتطويرها [1] ووفرت عليه عناء الوقت والزمن في إعادة إنتاجها ، فكانت بذلك أرضية انطلاق له في عالم التطوير وإضافة ماهو جديدعليها . وهذا الأمر يمكن قبوله منطقياً ولكنا نضيف شيئاً آخر ربما يكون قد ساعد على اعتماد مبدأ التحليل العقلي لمظاهر الطبيعة الخارجية والداخلية بالنسبة للإنسان الإغريقي ، وهو مبدأ حرية التفكير وحرية الرأي الذي كان لسبب ما من سمات الإنسان الإغريقي . و السبب الرئيس برأينا هنا هو أن الحكمة السلطانية الإغريقية لم تكن حكمة كهنوتية كما كان الحال لدى الحكم السلطانية في سورية ومصر . ليس ذلك فحسب بل حتى إن مفهوم رجل الدين في المجتمع اليوناني لم يكن بهذا الظهور والقوة كما في تلك البلدان . ولا نستطيع أن نعزو ذلك إلا لأن الحاكم اليوناني لم يكن إلى هذه الدرجة الكبيرة مضطراً لأن يحكم شعبه باسم الدين ، ولم يكن مضطراً لأن يجعل من نفسه إلهاً أو نصف إله أو مبعوثاً من قبل الإله أو رئيس كهنة كما هو الحال بالنسبة للحاكم في مصر القديمة أو بلاد ما بين النهرين . ولكن و في الأحوال كافة فإن الحضارة الإغريقية قد تميزت بأنها اعتمدت على مبدأ الحرية .. حرية الدين وحرية الفكر ، فسار هذان المفهومان في مسار بناء وإنشاء المدماك الرئيس للحضارة الإغريقية ولـ لحكمة السلطانية وإن تفاوتا بعضهما عن بعض من حيث التأثير والقوة والحضور في المجتمع وعقلية الإنسان الإغريقي خلال الخط البياني الزمني التاريخي .

و في الأحوال كافة نقول إن الرؤية الفكرية وحتى السياسية التي ميزت الحضارة الإغريقية كانت السبب الأساس في إضعاف نفوذ رجال الدين بل وفي غياب هذا المفهوم كله في بعض الأحيان . فهل جاءت هذه الحرية نتيجة لظروف سيكولوجية أو جغرافية معينة ، أو أنها كانت خطوة موفقة ومغامرة كبيرة ناجحة بحال من الأحوال قامت بها وأوجدتها الحكمة السلطانية

---

[1] الفكر السياسي في العصور القديمة ص /٢٥/ .

الإغريقية ؟؟؟ هذا ما لا نستطيع التكهن به على وجه الدقة ولكن لا بد لنا في هذا الخصوص من أن نعقب على ذلك بالقول إن هذه الحرية لم تكن لتلغي فكرة وجود الآلهة من عقلية وذهن الإنسان الإغريقي . بل لعلها ربما ساهمت في وجود الآلهة وحرية الاعتقاد .

ويرينا تاريخ اليونان قبل الميلاد وكيف أن كثيراً من الأدباء والمفكرين والفلاسفة كانوا يحترمون ويجلون الآلهة ويحسبون لها حساباً . فقد حدث في أثناء تمثيل إحدى المسرحيات حوالي سنة ٥٠٠ قبل الميلاد أن سقطت المقاعد الخشبية التي كان النظارة يجلسون عليها وأن أصيب بعضهم بجروح واستولى الذعر على بعضهم الآخر فقام الاثينيون بعد هذا ببناء مسرح من الحجر على المنحدر الجنوبي للأكروبولتيس وهبوه للإله ديونيس " [1] بالرغم من المفارقة التي ميزت هذا المسرح حيث مثلت عليه فيما بعد المسرحيات التي شكلت الصراع بين مفهوم الدين والأسطورة الإغريقيين ، وبين الفلسفة الحديثة التي أتى بها الفلاسفة الإغريق .

وفي الواقع فإننا لن نستطيع أن نقبل مفهوم سيطرة الآلهة وإلقاءها بظلالها على عقلية الإنسان الإغريقي وحياته اليومية السياسية والاجتماعية إلا من خلال طبيعة نظام المدينة – الدولة في اليونان القديمة ، والذي كان سائداً حتى في بعض مناطق البلدان المجاورة لليونان كمدن الساحل السوري مثلاً . ومن خلال إطلاعنا على تاريخ اليونان القديم بل حتى على المدونات التاريخية التي تحدثت بعامة عن نظام المدينة – الدولة سواء في اليونان أم في غيرها نخلص إلى الاستنتاج أن مفهوم الآلهة لم يوضع بسبب اختلاف العقائد أو اللغة أو العرف أو التراث ...الخ بين هذه المدينة وغيرها من المدن ، بل وضع أساساً من أجل تمييز هذه المدينة سياسياً عن غيرها و من أجل وضع أبناء هذه المدينة ضمن بوتقة إدارية واحدة وتأطيرهم في مجتمع متجانس دينياً ، تسهيلاً لإدارة وتنظيم شؤون هذه المدينة . وهذا الأمر يقودنا إلى تساؤل سابق لأوانه وسنتطرق إليه مجدداً و هو هل كان اتهام بعض المناوئين فكرياً وسياسياً من قبل خصومهم بالإساءة إلى آلهة المدينة ، هو إكراماً لعين الآلهة أو أكراماً للأمن القومي الذي يهدد هذه المدينة (إذا جازت التسمية) أو درءاً للخطر المحتمل الذي يهدد نظام المجتمع الكلاسيكي الذي تقوم عليه هذه المدينة. هذا الأمر ربما قد يفسر لنا لماذا يتحمس للآلهة أشخاصاً لا يعبدونها .

الدين في اليونان القديمة[2] :

---

[1] قصة الحضارة – المجلد السابع ص ٢٤٦

[2] السرد التاريخي لحوادث هذه الفقرة مستقى عن قصة الحضارة – المجلد ٦- الباب الثامن .

إن الدارس لتاريخ اليونان سيلحظ أن أول مظاهر عبادة الآلهة وظهورها لدى الإنسان الإغريقي القديم ، كانت من خلال الظواهر والحوادث الطبيعية . شأنها في ذلك شأن كل المناطق المجاورة لها. وفي البدايات الأولى لتكوين المجتمع اليوناني القديم ، كان لكل أسرة إله خاص بها وكان أفراد الأسرة يوقدون ناراً لأجله تبقى مشتعلة دائماً ويقربون له الطعام والشراب قبل كل وجبة يضاف إلى ذلك أن بعض الأمور الأساس الحاصلة في حياة هذه الأسرة من ولادة وموت وغيرها كان يجري لها طقوس معينة أمام تلك النار وهذا الأمر أدى بالتدريج إلى إكساب الصفات والأعمال الأساس والهمة في التجمعات اليونانية القديمة بعداً إلهياً ويلاحظ ديورانت أن أب الأسرة في بدايات المجتمع اليوناني ، كاكاهن هذه الأسرة و إن كنا نميل إلى الظن أن له صفة شبيهة بصفة الكاهن وليس كاهناً بمعنى الكلمة لأن مفهوم الكهانة بنظرنا مرتبط بالأمور والمفاهيم الدينية الأكثر تعقيداً والمتعلقة بالأمور التنظيمية الأكثر اتساعاً وشمولاً من مفهوم الأسرة .

ومع تطور نظام الجماعة لدى التجمعات الإغريقية إلى نظام المجتمع والمدينة ، تطور المفهوم الإلهي أيضاً متماشياً مع التغيرات الاجتماعيةالحاصلة ليكون هناك إله للمدينة ، ويتطور معه مفهوم الأب في الأسرة إلى مفهوم الحاكم أو الأركون لهذه المدينة . كذلك يصف ديورانت هذا الحاكم بأنه كاهن المدينة أو كبير الكهنة في دين الدولة . و نتفق مع ديورانت في ذلك لأنه في ظل النظام المجتمعي المتطور الذي رافقه تطور في مفهوم الآلهة ، يمكن أن ينشأ مفهوم الكهانة ولكننا نعود ونكرر بأن مفهوم الكهانة في اليونان القديمة بعامة لم يكن كما كان عليه الحال في بلاد الرافدين أو وادي النيل ، بل كان يتضاءل مع تقدم الزمن وإننا لنعتقد جازمين أنه لو كان مفهوم الكهانة لدى الإغريق كما هو الحال في بلاد الرافدين ومصر لما ظهرت تلك المدارس الفكرية الراقية والتي أعطت العالم والحضارة البشرية أرقى المفاهيم والمصطلحات الاجتماعية والسياسية والتي لا تزال تطبق حتى يومنا هذا.

لقد كان من الطبيعي أن يترافق الأمر الديني مع الأمر الاجتماعي في بلاد اليونان ويتطور معه جنباً إلى جنب . فنظام الأسرة تطور إلىنظام المدينة و رب الأسرة تطور إلى حاكم ، والنار المقدسة التي كانت توضع في المنزل تحولت إلى نار مقدسة توضع في إحدى ساحات المدينة ، والطقوس التي كانت تمارس من قبل كل أسرة أمام نارها المقدسة أضحت طقوساً جماعية يمارسها مواطنوهذه المدينة أمام النار المقدسة العامة . كان من الطبيعي أن يتطور الأمران معاً لأنهما كانا يشكلان وحدة واحدة في نظر الإنسان الإغريقيبداية الأمر . ولعلنا نستطيع أن نفسر ذلك أيضاً بأن الأمر الاجتماعيهو أقرب إلى الأمر الديني من الأمر السياسي . الذي لم

يكن قد ظهر وبناء عليه فهل نستطيع أن نفسر تضاءل مفهوم الآلهة ورهبتها وقدرتها وتأثيرها في عقلية الإنسان الإغريقي فيما بعد لأن الحكمة السلطانية الإغريقية قد تحولت من حكمة سلطانية إلهية أو دينية ، إلى حكمة سلطانية سياسية ؟؟ أي أن هذه الحكمة استعاضت عن حكم الشعب وقيادة الدولة والمجتمع بواسطة الحكمة الإلهية ، بحكم هذا المجتمع بواسطة فن السياسة ؟؟ هذا ما لا يمكن التكهن به بدقة والإحاطة بكامل تفاصيله .

وبالعودة إلى الديانات الإغريقية فلسوف نرى أن حياة سكان المدن الإغريقية مرهونة بآلهة هذه المدن. فكان إذا خرجت مدينة ما للحرب حملت معها في مقدمة جيشها صورة إلهها وشعاره أو الرمز الذي يشير إليه وكأن الإقدام على أية خطوة حساسة ومهمة في حياة هذه المدينة تستوجب على أهلها استشارة إله المدينة وسؤاله عما يحدث في المستقبل . وكان يفترض بهذا الإله أن يحمي هذه المدينة ويصونها ويدخل الحرب معها إذا ما دخلت في الحرب . ويذكر ديورانت أن إله المدينة الإغريقية كان يتجلى لأهلها أحياناً (كما يبدو لهم) في مقدمة الجيش أو فوق رماح الجنود ليعقد لهم النصر . وأدى ذلك إلى أن تنسحب آثار المعركة من نصر أو هزيمة إلى الآلهة نفسها حين تتحول القضية برمتها إلى غلبة إله على إله.

والحقيقة أن نظرية أو مقولة وجود إله على رأس جيش في الحرب ربما تشير في طياتها إلى وجود ديانة توحيدية معينة اشتقت منها هذه الفكرة خاصة وإن هذه المقولة موجودة في أعراف ديانات بلاد الرافدين ومصر القديمة بل وحتى في الأديان السماوية حيث جاء في القرآن الكريم (**إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين**) (آل عمران ١٢٤) . (**بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين**) (آل عمران ١٢٥) . كذلك في العهد القديم وردت الكثير من الإصحاحات حول ذلك منها **[وكان أيهافي يسير أمامهم نهاراً في عمود من سحاب ليهديهم في الطريق وليلاً في عمود من نار يضيئ لهم فواصلوا السير نهاراً وليلاً]** (سفر الخروج ١٣:٢١) . **[ولن يقدر أحد أن يقاومك كل أيام حياتك لأني سأكون معك كما كنت مع موسى لن أهملك ولن أتركك]** يشوع (٦ : ١) **[وفيما كان يشوع قريباً من أريحا تطلع أمامه وإذا به يشاهد رجلاً ينصب في مواجهة شاهراً سيفه بيده فاتجه إليه يشوع وسأله هل أنت منا أو من أعدائنا ؟ فأجابه لا إنما أنا رئيس جند الرب وقد أقبلت الآن ...]** . يسوع (٤ / ١٤ : ٥) .

وكما هي الحال في بلاد الرافدين ومصر كان ، هنالك آلهة متعددة في اليونان وكل منهما كانت تمثل شيئاً معيناً لدى الإنسان الإغريقي سواء في مظاهر الطبيعة أو الحيوان . ولعل اليونانيين قد تفوقوا على نظرائهم المصريين أو السوريين في هذا المجال ، فأكثروا من ربط الآلهة عندهم

بأمور حياتهم العامة فكان لأنواع الرق والفنون بل وحتى الصفات الإنسانية آلهة خاصة بها. وهنا يقول ديورانت متسائلاً عن عدم وجود مفهوم الكهنة في بلاد اليونان معللاً ذلك (ونحن نتفق معه) بعدم توافق مفهوم الكهنة مع هذه الكثرة الكثيرة من الآلهة المتعددة . وكما هي الحال أيضاً في بلاد الرافدين ومصر ، ربط الإغريق موضوع آلهتهم بالأسطورة فكانت الأساطير عندهم متعددة وبشكل كبير جداً وكانت الغاية من الأسطورة في البداية هو أن تشرح للناس عن آلهة المدينة ولماذا هي آلهة المدينة وكيف نشأت ولماذا يجب على الناس احترامها . وهذه الأساطير التي وصفها ديورانت بأنها " كانت من وضع شعراء الدواوين وزخارفهم " تحولت إلى أساسيات المعتقدات الدينية لدى الإغريق ، بل وكما يقول ديورانت فلسفتهم وآدابهم وتاريخهم . وقد وصل احترام الإغريق لآلهتهم وخشيتهم منها (في ذروة الاعتقاد الديني) إلى حد جعلها تتدخل في كل شيء يخصهم ويخص مدينتهم . وكانوا يعدون الكوارث الطبيعية التي تحل بمدنهم كالزلازل والبراكين وتدمرها في بعض الأحيان (كما حصل لجزيرة كريت) أن سببها غضب الآلهة على بني البشر ، فكانوا على استعداد لفعل أي شيء يرضي هذه الآلهة ويمنع عنهم غضبها ، من تقديم القرابين الكبيرة وبناء المعابد الخاصة بهذه الآلهة . فعلى سبيل المثال كان إله الغزو أو الحرب عندهم هو نفسه إله السماء وهو المسؤول عن إرسال المطر والرعد والبرق . فكان الاسبرطيون يضحون له بالخيل وما شابه . أما كبير آلهة مدينة برودوس الإله هليوس ، فكان أهل المدينة يعظمونه ويهابونه ويلقون إليه في البحر في مناسبات معينة عدداً من الجياد وعربة ليستخدمها عند الحاجة . وعندما انتشرت عبادة الشمس في فترة من الفترات في مدينة أثينا تعرض أحد الفلاسفة للتهديد بالموت لأنه عد أن الشمس عبارة عن جرم سماوي ومجردة كرة من النار. وكذلك الأمر عندما عد اليونانيون أن هناك إلهاً للتكاثر والتناسل ، نحوا إلى احترام الأعضاء التناسلية الذكرية وصورها في منحوتاتهم وأشعارهم في الاحتفالات الدينية وعدت هذه الأمور دليلاً على الدين والتقوى[١] . وعندما وصلت بعض الحيوانات كالثور والأفعى إلى مرتبة الآلهة في فترة من الفترات ، جرى تعظيمها وتقديم القرابين لها. وعد اليونان في بداية المعتقد الديني أيضاً أن هناك آلهة مخيفة تعيش تحت الأرض ولها تأثير قوي في الإنسان فراحوا يعبدونها بطقوس مصحوبة بالتوبة والخوف والفزع[٢] .

وإذا بحثنا عن مكان الحكمة السلطانية في كل ما سبق وجدنا أن آثارها وتصرفاتها كانت بالدرجة الأولى من خلال علاقتها بالطبيعة وعواملها المؤثرة على المدينة وعلى أهلها بالدرجة الأولى

---

[١] قصة الحضارة ، المجلد ٦ ص /٣٢٢/ .

[٢] المرجع السابق ص /٣٢٢/ .

ولا نستطيع القول إن الأمر السياسي قد وجد له مكاناً وحيزاً في تفكير هذه الحكمة السلطانية ، لأنه لم ينضج بعد . وهنا لابد لنا من القول أيضاً إن الحكمة السلطانية القائدة للمدينة أو الجماعة كان جل اهتمامها وتفكيرها هو إرضاء الآلهة أكثر من محاولة التأثير في العامة وتنظيمهم وذلك لسببين أولاً : إن هذه الحكمة في بدايات تفكيرها بالكون والوجود اصطدمت فكرياً مع الطبيعة نفسها ومع عواملها المدمرة أو المفيدة التي كانت هي نفسها وأتباعها خاضعين لها فكرياً من منطلق الاعتقاد بأنها هي صاحبة القرار والإرادة بسبب عدم تطور الفكر الثقافي والمعرفي والسياسي لإدراك المزيد من التفسير حول نشوء الظواهر الطبيعية . ثانياً عدم وصول هذه الحكمة بعد إلى الحد الذي يخولها إدراك أهمية ربط العلاقة بين الأحداث السياسية وإرادة الآلهة ومشيئتها ، وهو أمر لا ينجح عملياً إلا بعد تراكم الخبرات والوعي الفكري المرتبط حتماً بعامل الزمن . ولذلك فلابد لنا والحالة هذه من أن نصل إلى نتيجة مهمة أو فرضية محتملة إذا جاز لنا التعبير وهي برأينا أن مبدأ فكرة خلق الآلهة أو ظهورها وكيفية خلقها للكون لم يأت من البدايات الأولى لنشوء الدين عامة سواء في اليونان أم غيرها من بلدان الحضارة ، بل جاء في مرحلة لاحقة وبالذات نتيجة لتطور الأمر السياسي والاجتماعي لأن الإنسان بداية كان محور تفكيره وهمه هو .. لماذا يحصل ذلك لي؟؟ من أين أتيت ومن أنا ؟؟ . ومن ثم وبعد تطور المفهوم العقلي لديه بتطور الزمن ، أخذ يتساءل من أين جاء الخالق وكيف جاء . لأن الهمجي والبدائي برأينا من المستحيل أن يفكر بمنشأ وخلق غيره قبل أن يفكر بمنشئه هو. وذلك أمر ربما اقتضته الحكمة الإلهية ، و لم يكن بمقدور الحكمة السلطانية الوصول إليه بعد. ولذلك فإن الحكمة السلطانية الإغريقية شانها شأن بقية الحكم السلطانية ، عندما وصلت إلى مرحلة تطورت فيها الأحداث السياسية ، بدأت تفكر بخلق ونشأة الكون لتستطيع تجيير ذلك لمصلحتها وتنظيمها وقيادتها للمجتمع ولانها ربما أدركت شيئاً من أسرار الطبيعة فبدأت تبحث عن أسرار الخالق .

نشأة الخلق والآلهة بالمنظور اليوناني :

إن القارئ للتراث الديني لليونان القديمة والمطلع على تدوين خلق الآلهة وبدء التكوين لا يرى هذا الاختلاف الكبير بينها وبين بدء التكوين لدى بلاد ما بين النهرين . وحقيقة بداية نشوء الآلهة أو الآلهة الأولى يعود إلى عدة روايات[1] منها من قال إن الآلهة عامة تكونت من اجتماع العالم العلوي وهو السماء والعالم السفلي وهو الأرض وكانت هي الآلهة الأولى وعندما جاء الجيل الثاني من الآلهة وأنجبوا آلهة أخرى بدأ الصراع مع الآلهة الأولى وانتصروا عليها وهم الآلهة زيوس وأبولو وهرمس وفي بداية أخرى كانت الآلهة الأولى ممثلة بالإله أوتياموس والذي عدته

[1] راجع قصة الحضارة المجلد ٦ ابتداء من ص /٣٢٨/ والفكر الإغريقي ابتداء من ص /٢٤/ .

الأساطير اليونانية العنصر الأصلي الموجود قبل الكون والمحيط به بعد وجوده ومنه تخلق الكائنات وإليه تعود. وفي أسطورة انسياب الآلة لهزيود تقرأ فيها أن الكون تكون نتيجة لاجتماع ثلاثة أشياء أولها (الخاووس) وهو الخواء أو الفراغ وثانيها (جي) وهي الأرض وثالثها (أيروس) و يعني الحب . والدين عده هزيود القوة الكونية التي تخرج منها الأشياء ، وفي مجال هذه العناصر الثلاثة ظهرت الآلهة وبعد ذلك فكل ما جاء إلى الوجود من كائنات فهو نتيجة للتوالد الناتج عن الإله أوقيانوس والآلهة ثيثيس حيث ظهرت عناصر الأرض من جبال وأنهار وبحار وغيرها. وهناك رواية أخرى تقول إن الأرض خرجت مباشرة من الفراغ ومن طريقة الآلهة أيروس خرج عنها قبة الفضاء وهي السماء وقامت آلهة الليل أو الظلمة التي عدتها بعض الأساطير السائدة على العالم قامت بخلق الإله أثير إله النور المشع والنار وعن طريق جماع الأرض بالسماء ظهرت الآلهة القوية الفاعلة وفيها الإله أوقيانوس إله المياه الأولية. وكان هناك إله اللهب الكوني هيبرون الذي تزوج من الآلهة تيا وأنجب منها الشمس والقمر . وهكذا يستمر توالد وتكاثر الآلهة بالطريقة ذاتها لتخرج لنا آلهة متعددة تمثل مجمل مظاهر الطبيعة والصفات والأفعال .

ولديورانت رواية مختلفة بعض الشيء حيث يقول إن زيوس كان على رأس النظام الإلهي في مرحلة من المراحل وقسم وأخوته العالم فيما بينهم ووزعوه بطريقة القرعة فكانت السماء من نصيب زيوس والبحار من نصيب بوسيدن أما هيديز فأخذ باطن الأرض وليس في أساطير اليونان ذكر لخلق العالم فقد وجدت الأرض قبل أن توجد الآلهة ولم تخلق الآلهة الإنسان من حمأ بل خلقته من تزاوج الذكر منها بالإناث أو بتزاوج من أبنائها غير الخالدين كما أن الآلهة (التي يسميها أولمبية) ليست قادرة على كل شيء وعارفة بكل شيء بل إن كل واحد منها يحدد سلطات الآخر ويعارضه أحياناً"[٢]. ولكن يبقى زيوس هو أكبرها وأقواها ولو أنه يستشيرها أحياناً ويأخذ برأيها مع بقاء القرار الأخير له .

وبكل بساطة فإن اليونان قدموا المبرر لسلسلة الآلة المتتالية والمتعددة بالتوالد والتزاوج ومن هذا التوالد نشأت المفاهيم الجديدة والتي تمثل كل منها بإله كإله الحرب وإله الموسيقا و آلهة الشفاء والحصاد والذرة والمحاصيل والحب... وغيرها . لكن وما يميز موضوع الآلهة عند اليونان عن غيرها عن البلدان الأخرى المجاورة ذات الحضارة . هو ان الآلهة اليونانية قد تم تجسيدها وتصويرها ونحتها على شكل إنسان طبيعي ونادراً ما كانت تمثل بشكل حيوان ربما لأن

[٢] قصة الحضارة ، المرجع السابق ص /٣٢٩/ .

الإغريق قد أدركوا مبكراً فضل الإنسان على الحيوان وميزته وعلوة عنه وإدراكهم أن الإنسان هو سيد المخلوقات و الأرض ، وهو من نسل الآلهة.

والآلهة عند اليونان تمر بأطوار متعددة عبر تاريخها تتدرج من الغضب إلى القوة أو الضعف أو عن آلهة ثانوية إلى آلهة أولى ومن آلهة عنيفة هائجة إلى آلهة سيدة وقورة تمتلك ناصية الحكمة التي هي موضوع كتابنا الآن . فزيوس مثلاً لم يكن أول الآلهة ولكنه بعد فترة تحول إلى سيد الآلهة وحسب بعض الأساطير فإنه كان يخدع في بعض الأحيان من قبل بعض الآلهة وقد مر في أطوار حياته بأن كان إله السماء والجبال ومنزل المطر . وفي مراحل أخرى كان إله حرب حيث تدخل في حرب طروادة وحصارها وبعد ذلك " وبالتدريج أصبح حاكم الآلهة والبشر الهادي القوي الجالس فوق أولمبس" [١] الملتحمي الوقور رأس النظام الأخلاقي ومصدره في العالم كله يثبت الإيمان ويعاقب الخائنين وهو أخيراً المصدر الأعلى للأحكام ومع ذلك فله عيب وحيد وهو أنه كان مغرماً بالنساء ويجد نفسه عاجزاً عن مقاومة إغرائهن وهذا الإله زيوس لديه على ما يبدو وحسب الميثولوجيا اليونانية لائحة طويلة بعشيقاته أو خليلاته اللواتي أنجبن منه آله أخرى أو أبطالاً أسطوريين . وكانت حبيبته أو زوجته الأولى تسمى ديوني وعندما استقر في جبل الأولمبس اتخذ زوجة أخرى هي متيس وكانت هذه بحكم الأساطير اليونانية آلهية الكيل والعقل والحكمة وعندما تراءت إليه الأبناء بان أولادها سينزلونه عن عرشه يقوم بابتلاعها ويأخذ منها صفاتها فيصبح هو نفسه إله الحكمة وعندما تكون متيس في جوفه تلد له الآلهة أثينا . وعندما يحس هو بالوحدة والحاجة إلى الجمال يتزوج ثميس وتلد له الساعات الاثني عشر ويتزوج بعدها يوريتوم وتلد له آلهة اللطافة الثلاثة ثم يتزوج نموسيني وتلد له ربات الشعر التسع وبعدها يتزوج ليتو وينجب منها الإلهين أبلو وأرتميس ثم يتزوج أخته دمتر وينجب منها برسفوني ويتزوج من اخته هيرا وينجب منها الإله هيبن وبعد ذلك ينشب الخلاف فيما بينهما لأن اليونان على ما يبدو قد بدؤوا يحترمونها أكثر منه لكونها آلهة الزواج والأمومة وحامية الروابط الزوجية . فيعمد إلى إهانتها بأن يتزوج هذه المرة من نساء آدميات فكانت نيوبي أولاهن وآخرهن ألكمينا اللواتي ولدن له عدداً من العباقرة النخباء والأبطال الأسطوريين [٢]وربما تميز اليونان عن غيرهم بآلهة غريبة وتحمل شيئاً من الطرافة كالإله هرمس أو

---

(١) جبل في سلسلة جبال أولومبوس الواقعة على مقربة من خليج سالونيك في عفاطعة تساليا ببلاد اليونان القديمة ويناهز ارتفاعه ٢٠٠٠ م وقد عدت الأساطير اليونانية بمنزلة مقر للآلهة والجدير بالذكر أنه يوجد في الولايات المتحدة الأمريكية كذلك سلسلة من الجبال تسمى الجبال الأولمبية وأعلاها جبل يسمى أولمبس ويبلغ ارتفاعه حوالي ٢٥٠٠ م. وهذه السلسلة موجودة في الجزء الشمالي من ولاية واشنطن الأمريكية .

[٢] قصة الحضارة ص ٣٣ المجلد ٦.

ميركوري الذي كان في بادئ أمره حجراً وتتم عبادته من قبل الإغريق القدماء كما تعبد الحجارة وتحول فيما بعد إلى الحجر الطويل المسمى بالشاهد والذي كان يوضع على قبور الإغريق حيث مثل روح الديمومة الموجودة في هذا الحجر وتحول بعد ذلك إلى حجر الحدود المسؤولة عن حدود أي شيء وحراستها وفي فترة من فترات تحول عضو الذكورة عندٍ الرجال إلى رمز له حيث يوضع نحت له أمام البيوت في أثينة . ويحدثنا ديورانت أن عملية إزالة هذا النحت قد أدى حسب المعتقدات السائدة إلى خسارة أثينا في حربها مع سراقوصة. وبعد فترة تحول إلى إله المسافرين وبعدها إلى إله الحظ والتجارة والدهاء، ومن ثم أصبح إله المكاييل والموازين والطريف أنه تحول أيضاً إلى حامي اللصوص والسارقين والكاذبين ، لنراه مرة أخرى وقد أضحى الملاك المكلف بنقل الرسائل بين الآلهة وبين البشر وأخرى حامي الرياضيين وأخرى غيرها إله الفصاحة والبلاغة . [٣]

إن المشكلة في دراسة العقائد والأساطير اليونانية القديمة هو هذا الكم الهائل من الآلهة والتغيرات والتحولات المتعددة في صفاتها ، بل وضمن كثرة الأساطير التي لا تحصى و حجم بعضها الهائل والضخم الذي قد يصل إلى الآلاف الأبيات [٣] كالألياذة والأوديسة . وفي خضم هذه الآلهة الكثيرة العدد والكثيرة الصفات المتحولة والمتغيرة فإننا ربما لن نستطيع تحديد الحكمة الإلهية المتعلقة بها بحيز أو مكان أو مفهوم معين بل سنجعلها كلها ضمن إطار ومفهوم الآلهة عامة.

مما تقدم نخلص إلى نتيجة واحدة وهي أن جميع سجلات وحوادث الآلهة التي تحدثت عنها الأساطير اليونانية كانت من صنع الإنسان الإغريقي نفسه ولا نستطيع أن نعزو هذا الحكم الهائل والخليط و المزيج الموزاييكي العجيب إلا من خلال أمرين أو منظورين اثنين هما الحرية وتلقي الثقافات .

إن الأمر الأول وهو الحرية .. نستطيع ومن خلال دراستنا لتاريخ اليونان القديم ككل أن نقول إنه أمر تميزت به الشخصية الإغريقية عامة عن باقي شخصيات الحضارة الأخرى . نستطيع القول بكل ثقة إنه لولا هذه الحرية ، لما كان هناك هذا العدد الهائل الكبير في الآلهة بل حتى إننا لنلحظ أن هناك نوعاً من الحرية لدى الآلهة الإغريقية نفسها ممزوج بنوع من الفلتان أو التسيب ولكن ليس ذلك التسيب و الفلتان الفوضويين الهمجيين ، بل المنظمين الواعيين.. ذلك كله أيضاً لا تفسير له بالنسبة لنا إلا بوجود آلهة للحب وللمفاهيم الأخلاقية السامية و هذا لن يتأتى إلا من

---

[٣] المرجع السابق .

[٣] لن نضع هنا الأساطير كاملة نظرة لحجمها الكبير و اختلافها بمفاهيم كثيرة .

خلال صنع و ثقافة الحكمة البشرية الإغريقية ونحن هنا في هذه الحضارة بالذات لن نقول الحكمة السلطانية بل من العدل والإنصاف أن نقول إنها الحكمة الإغريقية المتميزة . لقد كان هناك شيء ما يضبط إيقاع هذه الآلهة المتعددة المتقلبة الأطوار والصفات و حتى المزاج فيحول بين ذلك وبين شيوع الفلتان الفوضوي الهمجي في بلاد اليونان القديمة لأن الآلهة بشكل أو بآخر تؤثر كمفهوم أو كحقيقة واقعة في أفراد الشعب الخاضع لها فكرياً ونفسياً وعقائدياً . وبناء عليه كان من المفترض وفق هذا السياق أن نرى تاريخ اليونان القديمة تاريخ غوغاء وهمج وبرابرة ليس لديهم أدنى أثر للصفات الأخلاقية الاجتماعية المنظمة ولا أدنى حس للمشاعر العاطفية النبيلة الجياشة . وهذا ما لم نلحظه في تاريخ اليونان كلها ، بل على العكس نلاحظ قمة المبادئ الوطنية التي تمثل المدينة وقمة الانضباط والتنظيم . ولا يمكننا قبول هذا الأمر إلا إذا فسرناه من منطلق أن الأساطير الدينية كلها كانت نابعة ومتأتية من الفكر و الوجدان البشري الإغريقي ولعلنا نلمس صحة ذلك إذا عرفنا من هم أصحاب ومؤلفو الأساطير الدينية في اليونان القديمة ، وقسم منهم كانوا شعراء وقسم فلاسفة . وهذا كله أيضاً لا يتضح إلا إذا عرفنا ان الحكمة السلطانية الإغريقية لم تكن سلطانية بشكل كامل وإنما كانت حكماً متعددة كثيرة لكل منها رأي ونظرة في الحياة وفي الكون .

ولكن إذا كانت هذه الحكمة قد انتفت عنها الصفة السلطانية فإن الصفة السياسية أو الأثر السلبي كان مميزاً لها بشكل أو بآخر. ولذلك فقد كانت السياسية حاضرة في الأساطير اليونانية بشكل قوي جداً وهذا الأمر لن ندركه إلا إذا تطرقنا إلى العامل الثاني في قضية صناعة الإنسان الإغريقي للأساطير الدينية وهو تلقي الثقافات والمفاهيم الحضارية من الخارج . وهذا العامل من المؤكد أنه كان له تأثير قوي جداً في تعدد المفاهيم والآلهة والأفكار.. فقد وفدت إلى اليونان ثقافات عدة مثلت تراث شعوب عدة وكانت خلاصة حضارات تلك الشعوب وأهمها الحضارة الفينيقية والحضارة البابلية والحضارة الفارسية والحضارة المصرية زائد الشعوب التي وفدت إلى اليونان الهندية من الشمال والتي إذا كان من المرجح أنها لم تحمل معها حضارة معينة بحد ذاتها فإنها حملت معها أفكاراً وعادات وتراثاً معينين . وهذا المزيج الموزاييكي أو الفسيفسائي القادم إلى بلاد اليونان كان سببه إما اقتصادياً كتبادل التجارة و إما سياسياً كالغزو المتبادل ولكن برأينا لم يكن بكافة الأحوال اجتماعياً لان الإغريق بعامة ظلوا يحتفظون بنظام اجتماعي خاص بهم و ميزهم عن غيرهم وهو نظام المدينة المستقل . وفي ظل هذا النظام انصهرت جميع الثقافات الوافدة إلى الأرض اليونانية وتمازجت بعضها مع بعض لتشكيل هذا المزيج المتنوع من تعدد الآلهة والأفكار وهذا الأمر لم يكن ليتم لولا الحرية التي قامت عليها صفة الشخصية

اليونانية وميزت الحكمة اليونانية بعامة وربما نستطيع التوصل هنا إلى مقولة إن الحكمة الإغريقية ولسبب ما أدركت أن سر نجاحها وقوتها يمكن في تبنيها لمفهوم الحرية وهذا أمر لا يدل إلا على أن الحكمة الإغريقية أدركت أن هناك علاقة وثيقة بين مفهوم الحرية والإنسان الإغريقي ، أو أنها أدركت أن لا خطر عليها من تبني هذا المفهوم ، أو سبقت بذلك مثيلاتها في الحضارات الأخرى ، أو أنها أدركت بطريقة ما أنها لا تستطيع مجاراة الحضارات الأخرى التي اشتملت كل شيء ، من احتكارها لمفهوم الآلهة وتوحيدها إلى احتكارها للمفاهيم العلمية التقنية كالصناعة والزراعة وغيرها ، فلم يبق هنالك مجال للحكمة الإغريقية لتنافس فيه ، ففتحت باب الحرية لمواطنيها علهم يأتون بشيء جديد . افعلوا ما تريدون وفكروا كما تشاؤون ، اصنعوا آلهة كما يحلو لكم .. المهم أن تأتوا بشيء جديد يميزنا عن غيرنا عن باقي الشعوب والأمم ويجعلنا نقف معهم بالموازاة في مضمار الحضارة فهل كان هذا الأمر عبارة عن صراع الحكم السلطانية فيما بينها من منطلق صراع الحضارات ؟؟ وإن الحكمة السلطانية الإغريقية عندما أحست بتفوق الحكم السلطانية الأخرى عليها لجأت إلى الشعب ولعلها هنا قد لاحظت نأي تلك الحكم عن شعوبها وفصل نفسها عنهم وعدم احتياجها لهم ، فقررت هي أن تجرب العكس علها تخرج بنتيجة وفعلاً كان الأمر كذلك ؟؟ .

فالحكم السلطانية في بلاد الرافدين ووادي النيل كونت نفسها نتيجة تراكم الخبرات السابقة لأسلافها من التأمل واستخلاص العبر والدروس سواء الدينية منها أم الدنيوية والتوصل نتيجة لذلك إلى العلوم الدينية والعلمية فقادت وسيّرت شعوبها إلى الغاية التي تريدها وأمنت لنفسها الحضارات الخاصة بها . لقد نشأت تلكم الحكم السلطانية من مقولة إن أول من حكم كان أول من لاحظ وفكر وسبق الآخرين إلى ذلك . أما الحكمة الإغريقية فقد نقلت العكس برأينا ، فهي وبعد أن وعت على نفسها في مرحلة كان فيها زمن التأمل البدائي قد ولى لأن معظم الاكتشافات والاختراعات الأولية التي يحتاجها الفكر الإنساني لقيام حضارة ما ، قد وجدت وتم اكتشافها في أدوات وعلوم ودين غيرها بواسطة الحكم السلطانية التي سبقتها وطورت نفسها ، فلجأت إلى شعب ولعله إذا جاز لنا التخيل ، قد تكون هذه الحكمة درست طبيعة وآلية منهج تلك الحكم السلطانية فاكتشفت أن مبدأ العلاقة بين السلطة الحاكمة و شعوبها و ما توصلت إليه ، كان يتعمد على مبدأ المركزية في التأمل و التوصل إلى القوانين و الآراء بكل أشكالها . فاعتمدت هي أسلوباً مغايراً و هي مبدأ اللامركزية في استنباط الحكمة والقوانين ، وحتى التفكير بالآلهة فألقت هذه المهمة على عاتق مواطني المدينة أنفسهم ليتولوا هم عملية البحث والتفكير واستنباط الحكم والمعارف ، فكان أن خرجت المدارس الفكرية الفلسفية وكان أن فتح باب التفكير العقلي العملي

البعيد عن الأساطير التي كانت تشكل أدباً آخر مقتبساً عن أساطير الحضارات المجاورة . وبدأ لأول مرة مفهوم العقل العلمي المجرد المستخلص من الشوائب يطغى على ما عداه من أساليب تقديم التفسيرات والمبررات لمظاهر الكون والطبيعة والإنسان . ولأول مرة بدأ الاتجاه ينحو عن البحث في الآلهة ونشوئها إلى البحث في الإنسان ونفسه الداخلية وملاقاته مع الإنسان الآخر فكان ما ميز الحضارة الإغريقية هو اختراع المفاهيم الفكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية بل وحتى البيئة الإنسانية . إن فضل الحضارة الإغريقية على العالم هو أنها مثلت لنا المفاهيم بشكل مجرد . إن مجمل هذه النظرية كلها تقودنا إلى السؤال التالي .. هل كان تطور المدارس الفكرية الفلسفية التي قدمت أرقى المفاهيم للعالم والبشرية والتي ما زال يعمل فيها حتى الآن ، كان نتيجة لكون الحكمة السلطانية الإغريقية بعامة وبعد أن فتحت باب العقل والتفكير للإنسان العادي فقدت السيطرة عليه ولم يعد بإمكانها إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء . أو أنها استخرجت هذه الطريقة والأسلوب وراقت لها فشجعت عليها و ركبت هي نفسها موجتها لتضيع في طياتها فيما بعد ؟؟ ذلك سؤال من الصعب التكهن بإجابته . ولذلك فإننا هنا في هذا الكتاب لن نضيع وقتنا في البحث بالأساطير الإغريقية بقدر ما سنضيعه بالبحث في المدارس الفكرية الإغريقية لأن الإنسان الإغريقي بكل بساطة قد فعل ذلك.

الفكر اليوناني (الفلسفة) :

لعل أعظم ما تميزت به الحضارة الإغريقية و أفضل ما قدمته إلى العالم و إلى الحضارة البشرية عامة ، هوالمفاهيم الفلسفية والفكرية التي اشتقت منه وكان هذا العلم هو الأساس الذي بنيت عليه وتأثرت فيه سائر العلوم والنظريات الفكرية والفلسفية التي عرفتها وأنشأتها الحركات والتيارات العالمية الأخرى التي تلت الحضارة الإغريقية . بل نستطيع القول ودون موارية إنه حتى الحضارات اللاحقة للحضارة الإغريقية ، ما كانت لتقوم أو لتوطد بنيانها العلمي والفكري لولا ارتكازها واستنادها على المفاهيم العلمية للحضارة الإغريقية . وهذا كلام برأينا لا يجانب الحقيقة والموضوعية عامة .

والفلسفة كاسم هي كلمة يونانية ومعناها محبة الحكمة (موضوع كتابنا) . إذاً كانت الحكمة بمعناها العلمي الواضح والصريح قد أخذت أبعادها في عقلية وذهن الإنسان الإغريقي ولا نستطيع هنا أن نقرر ما إذا كان مفهوم الحكمة هذا في بداياته ناتجاً عن حكمة سلطانية إغريقية اكتشفته وأدركته من خلال نفسها وإدراكها لذاتها أم أنه ناتج عن حكمة ليست سلطانية بالضرورة اكتشفته وأماطت اللثام عنه وقدمته للحكمة السلطانية كأداة تعريف .

ولكن ما يمكن قراءته في التاريخ اليوناني عامة هو أن المدارس الفكرية وليس النخب الحاكمة ، هي أول من أرسى قواعد ومفهوم الفلسفة أو حب الحكمة . و أول من تحدث عن هذا الأمر وحاول الدخول فيه هو طاليس الذي قدم أولى المحاولات المذكورة تاريخياً لتفسير الوجود. أما الفلسفة كعلم فهي تقوم على البحث عن المبادئ الأساس ومحاولة الكشف عن ماهية الأشياء وأصولها وعللها وعلاقة بعضها ببعض . ويعود منشأ الفلسفة كما يقول أرسطو إلى الدهشة والاستغراب اللذين وقع بهما الإنسان في أول عهده بالطبيعة واللذين حملاه على أن يتفلسف فقد جاء الإنسان إلى الوجود و وجد نفسه في دنيا عجيبة حافلة بالألغاز فمن أرض إلى سماء إلى كوكب ونجوم وولادة وموت وهكذا راح يتساءل لماذا وكيف؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ و كمقدمة مختصرة نقول إن أولى المدارس الفلسفية الفكرية هي الأيونية والسفسطائية اللتان حاولتا تفسير الظواهر الطبيعية والكون والإنسان تفسيراً علمياً بحتاً استناداً على مبدأ المادة والقوى الطبيعية و فيما بعد نحت المدرسة السفسطائية في أواخر عهدها إلى علم المنطق والكلام والجدل وجاءت المدرسة الفيتاغورثية بعد ذلك والتي قالت إن الحقيقة هي في جوهرها و صلبها حالة رياضية بحتة وان العدد هو أساس أي شيء . وجاءت المدرسة الإيلية التي قالت إن الوجود هو واحد وشككت في حقيقة الحركة أو التغيير وكذلك مدرسة النظرية الذرية التي قالت إن المادة كلها تتألف من ذرات متجانسة في طبيعتها ليأتي بعد ذلك أساطين الفلسفة الإغريقية الثلاثة سقراط وأفلاطون وأرسطو ويضعوا الحضارة الإغريقية في قمة أوجها وفي فترتها الذهبية ، لتتالى المدارس الفكرية بعد ذلك ومنها الرواقية والأبيقورية وآخرها المدرسة الأفلاطونية المحدثة والتي ظهرت في الإسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث للميلاد و كان لها أثر مهم في المفاهيم الدينية التي ظهرت فيما بعد وخاصة في القرون الوسطى .

لقد كان فضل الحضارة الإغريقية على العالم بأنها أرست مفهوم الحكمة الإنسانية الحقيقية الأصيلة بمختلف خواصها واستخلصتها من كل الشوائب الأخرى التي امتزجت معها لتصيغها في قوالب ومفاهيم فكرية لم تكن لتوجد في كل الحضارات التي سبقتها وتقدمها كآراء ونظريات إلى العالم مصحوبة بنظريات علمية رياضية وهندسية لا يزال يعمل بها إلى اليوم . بينما دفنت أفكار و نظريات الحكم السلطانية التي سبقتها في مقابر ملوكها وأصحابها كأسرار ينبغي ألا تعرف ولم تعرف إلا عندما أزيل التراب عنها بمحض المصادفة واحتاج فك طلاسمها ورموزها المقرونة بالأنانية المجحفة المتعاقبة ، إلى جهود جبارة كبيرة .

لقد تميزت الحضارة الإغريقية بدورها عندما انفردت بتقديم نظريات أخلاقية اجتماعية قالت بالعودة إلى الحياة الطبيعية وقالت إن الفضيلة هي الخير الأوحد و جاهرت بعدائها للاسترقاق

والاستعباد والمطالبة بالحرية الشخصية والمساواة بين الناس ، من نظرة عالمية و حل مختلف المشكلات الإنسانية . وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

أمام هذه الحقائق لابد لنا من أن نتساءل هل أخطأت الحكم السلطانية السورية والمصرية بنقل أساطيرها إلى اليونان ؟؟ أو أنها كانت عارفة ومدركة لعواقب أفعالها (إذا كانت فعلاً هي السبب) ؟؟ أو أن هذه الحكم لم تكن تريد لعلومها وثقافاتها ونظرياتها الخاصة بها الخروج ولكن لسبب لا يزال مجهولاً انتقلت هذه المعارف إلى الإغريق؟؟ وهل الفلسفة كعلم ومفهوم كان موجوداً لدى هذه الحكم السلطانية ولكنها أبقته سراً لديها وعندما وصل إلى الحكمة السلطانية الإغريقية أفشته وسمحت بتداوله بين الناس؟؟ أو أن الحكمة الإغريقية ربما لم تقتنع بتفسيرات الحكم السلطانية المجاورة لها حول الكون والآلهة والطبيعة والأشياء فآثرت طرح ذلك على الشعب اليوناني؟؟ أو أن مناخ الحرية السائد كان هو السبب ؟؟ أو أن العوامل الحربية السياسية لعبت دورها في ذلك ؟؟ وهل محاولة غزو اليونان كانت بسبب تصرفات الحكمة السلطانية اليونانية الطائشة (من وجهة نظر بقية الحكم السلطانية) ؟؟ أو أن كل ما حصل كان عبارة عن حكمة إلهية حقيقية خفيفة كانت لها غاية ربما ستتضح لنا فيما بعد؟؟ ذلك كله أسئلة استنتاجية من الصعب جداً التكهن بأجوبتها .

وتجدر الإشارة بنا هنا إلى وجود تعاليم دينية سرية لمعتقدات معينة كان يحرم على أهلها وأتباعها البوح بها تحت طائلة الموت . وكانت هذه الديانة تمارس في معابد معينة وأطلق عليها بعضهم اسم الديانة الإليوزينية .[1] ويحدثنا التاريخ عن أن المسرحي اليوناني إسكلس كاد أن يلقى حتفه في أثناء عرضه لإحدى مسرحياته وذلك لأن الجمهور اعتقد أنه أفشى بعض أسرار هذه الديانة [2] وهذا ما يفسر لنا تأثير الإغريق في بداية أمرهم بسلوكيات أسلافهم من المصريين والسوريين لناحية حفظ العلوم وعدم إلقائها جزافاً لمن لا يستحقها . وفي إحدى مسرحيات إسكلس نفسه واسمها مسرحية بروميثيوس المقيد نرى الإشارة إلى لمسات الحكمة السلطانية الإغريقية وتأثرها بمبدأ عدم إلقاء الحكمة لمن لا يستحق ولكن بصياغة إلهية هذه المرة حيث يظهر لنا غضب الآلهة من إفشاء أسرار معينة إلى بني البشر ومنها النار فنرى كيف أن الإله زيوس غضب على الإله بروميثيوس لأنه علم الإنسان كيفية استخدام النار فيأمر الإله هفستس بحبسه وتقييده بالأغلال والأصفاد عقاباً له على ذلك ويقول على لسام هفستس **[يا ابن ثميس يا حصيف الرأي يا حكيم / لقد كتبت عليك أن تشد بالأغلال ، إلى هذه الصخرة العالية التي لا يرقاها الإنسان ولا**

---

[1] قصة الحضارة – المجلد ٧ ص ٢٥٢

[2] المصدر السابق نفسه

تسمع فيها صوت آدمي/ أو ترى وجه أحد ممن كنت تحبهم/ وحين تذبل زهرة جمالك / محترقة في حر الشمس اللافح الصافي، وسيقبل الليل مزداناً بالنجوم/ وتتسلى بظلاله فإذا طلعت الشمس، بددت بأشعتها صقيع الصباح/ ولكن شعورك الحاضر يقض مضجعك / مهما يكن ما تتعرض له من أخطار/ لان أحداً لا يمد يده لحل وثاقك / إن هذا هو الذي تجنيه من حبك لبني الإنسان/ لأن زيوس شديد صارم ، ولأن الملوك المحدثين قساة غلاظ الأكباد] .

ولكننا نرى أن الإله بروميثيوس وهو مكبل بالأصفار والأغلال يرد عليه ويبرر فعلته هذه بأنه نقل الحضارة إلى هؤلاء البشر التعساء الذين لم يعرفوا شيئاً ويصفهم قائلاً إنهم يعيشون كالنمل الأخرق تحت الثرى في الكهوف الخاوية التي لا تدخلها أشعة الشمس ولا تصل إليها دلائل على حلول الشتاء ولكنهم (أي البشر) كانوا يعملون كل شيء وهم عمى البصائرلا يخضعون لقانون حتى علمتهم كيف تشرق النجوم وتغرب في أماكن خافية على عقولهم واخترعت لهم العدد باعث الفلسفة وعلمتهم تركيب الحروف ووهبت لهم الذاكرة ، صانعة كل شيء وأم التفكير وكنت أول من سخر ذلك الحيوان لخدمة الإنسان وأنا الذي اخترعت كل هذه الفنون لبني الإنسان لا أجد وسيلة أنجي بها نفسي .[1] إن ظاهر المسرحية في الواقع يشير إلى تمييز الآلهة عن بني الإنسان ولكنه في حقيقة الأمر يعبر عن صراع بين المفهوم الديني التقليدي وبين المفهوم الفكري العقلي الوليد ولو كان الأمر بصورة غير مباشرة .

فلطالما كانت الأسطورة في الحضارات القديمة عامة هي تعبير عن واقع حياتي معين إما ديني و إما سياسي أو اجتماعي . إنه صراع ما لكسر احتكار الحكمة السلطانية لأفكار وقوانين القيادة وتعبير عن حالة زمنية تراكمت فيها الأفكار ضمن حيز ونطاق تراتبي طبقي مع مرور الزمن حتى ولدت ضغطاً أدى إلى الانفجار تماماً كما يتفاعل نجم مع نفسه وينكمش لينفجر في النهاية إلى شظايا وأجزاء في الفضاء الخارجي .

لقد مثلت الآلهة المحافظة على الأسرار هنا الحكمة السلطانية الإغريقية أو أية حكمة سلطانية معينة تريد الحفاظ على مكتسباتها الفكرية التي حصلت عليها بجدها وتعبها وكدها عبر مئات السنين واستطاعات فيها قيادة شعبها وأبنائها ضمن أفضل الشروط والمعايير وذلك حسب منظورها هي . وهي هنا ترى بأن إطلاع العوام عديمي الخبرة والتجربة على هذه الأمور والقوانين المعينة ربما من شأنه أن يتسبب بالفوضى والفلتان . ولذلك فإنه من الحكمة أن تبقى المراتب الفكرية والعقلية مرتبطة بالمراتب القيادية والطبقية . ولكن المفارقة هنا أن قراراً معاكساً قد جاء من حكمة سلطانية أخرى تختبئ خلف حكمة إلهية ممثلة بالإله بروميثيوس أي أن

---

[1] المرجع السابق ص ٥٨

منع إفشاء الأسرار المعرفية جاء من حكمة سلطانية مختبئة خلف حكمة إلهية وعملية تسريب الأسرار جاءت من حكمة سلطانية مختبئة خلف حكمة إلهية وهذا الأمر نراه واضحاً تماماً من العبارة التي يخاطب فيها الإله هفستس الإله بروميثيوس الذي أفشا أسرار العلوم والمعارف للإنسان قائلاً له [يا ابن ثميس يا حصيف الرأي يا حكيم] الكلام واضح تماماً فالذي قام بتسريب أسرار العلوم والمعارف هو إله حصيف الرأي وحكيم وبشهادة أسياده وحكامه من الآلهة إذا فكيف يقوم هذا الإله المفترض والموصوف بالحكمة وحصافة الرأي بهذه الفعلة من غير دراية وتدبير وغاية ؟؟؟ لو أن هذا الأمر قام به شخص لا يتصف بالحكمة ولا بالدراية لكان من الممكن قبوله على أنه غلطة دون وعي أو قصد ولكن الذي قام به هو إله حكيم وذو رأي سديد بليغ إن هناك غاية من وراء ذلك وهي خلط الأوراق وإعادة ترتيبها من جديد . ولا نستطيع الاستدلال من هذا الأمر إلا على وجود انقلاب أو انشقاق في أوساط الحكم السلطانية حول تغيير النظام الاجتماعي برمته وبعوامله ومعتقداته الفكرية كافة من دين وسياسة ومجتمع . هو انقسام هذه الحكم إلى فريقين فريق يريد المنع ويعرف لماذا يريد المنع وفريق يريد السماح ويعرف لماذا يريد السماح ، ولا أدل على هذا الخلاف من صورة العقاب الذي تعرض له الإله بروميثيوس . وبالأحوال كافة ومن خلال قراءاتنا لتاريخ الحضارة الإغريقية و بخاصة في الفترة الأولى من مراحلها ، نرى أن الإنسان الأغريقي أو الحكمة الإغريقية كان لديها مزيج هائل ومعقد من المفاهيم الوافدة المتشابكة من أساطير وآلهة و روحانيات وعلوم فكرية دينية وخرافات أو معتقدات زائفة فكان عليها (أي الحكمة) أن تفرز هذه المفاهيم كل على حده وتحاول فصلها بعضها عن بعض واعتماد الصحيح والمنطقي منها لجعله كبداية انطلاق وبحث . فكان لزاماً عليها أن تمر بمخاض عسير انطلقت فيه من الكليات في البحث إلى الجزئيات.

لقد كان من الصحيح بالنسبة لهذه الحكمة هو العلوم البحتة التي وصلت إليها من الحضارات السورية والمصرية كعلم الفلك والحساب وغيرها أما المنطقي فكانت هو العلوم الدينية التي تتكلم عن نشأة الكون والآلهة مجسدة بالأساطير والعقائد الفكرية المتمثلة بنظريات معينة لها أدلة وبراهين على الأقل ، لاهوتية ومنطقية أي لا تحمل في طياتها بذور تناقضات . وبالأحوال كافة فإن الأمر كان أيضاً أشبه بمحاولة انعتاق عسيرة من المرحلة الميتافيزيقية إلى المرحلة العقلانية الوضعية. ولذلك لم تلبث أن بدأت تظهر أول الأفكار والمدارس الفلسفية وبالأحوال كافة أيضاً نقول إن الفلسفة الإغريقية كانت بمنزلة عملية انقلاب أو ردة (وإن كان الانقلاب أصح) على كل أو معظم المفاهيم والأفكار التي سبقتها وإن كانت قد تأثرت فيها بعض الشيء. إن صعوبة محاولة التوفيق أو المقارنة بين مفهوم الحكمة السلطانية الإغريقية وبين الحكمة

الإلهية الإغريقية هو من الصعوبة بمكان لأسباب عدة .. أولاً إن الحكمة السلطانية الإغريقية و بخاصة في المراحل اللاحقة لنشوء دولة المدينة و بداية ظهور الوعي الفكري السياسي الاجتماعي والعقلي بوضع لا يمكن مقارنتها بالحكم السلطانية ، لأنها أمام هذه المفاهيم الفكرية الوليدة وأمام الحرية التي منحتها لمواطنيها قد أضحت مفهوماً باهتاً لا يمكن لنا تقييمه أو أخذه بعين الاعتبار إلا من المنظور السياسي فقط. ثانياً إن طبيعة الفكر الفلسفي الذي بدأ ينشأ في بلاد اليونان هي طبيعة عالمية بحتة أخذت تنأى بنفسها شيئاً فشيئاً عن مفهوم الآلهة وحتى عندما عادت وطرحت نظرتها وتفسيرها لنشأة الكون والآلهة فيه فإنها مثلت ذلك بمعيار عقلي بحت وعلني واضح لم يعد بالإمكان التلاعب فيه أو تأويله أو الاحتماء به لغاية دنيوية بعد أن دخل فيه على وجه الخصوص المفهوم الرياضي (الرياضيات) والمنطقي وهذا ما يلغي أية إمكانية لمحاولة المناورة والتأويل العاطفي العشوائي ، فأصبحت العلاقة هنا هي علاقة صح أو خطأ .. مقبول أو غير مقبول أي باختصار استبدال التأويل السياسي الديني بالتأويل العقلي الحسابي المشوب بشيء من البراغمانية الفكرية . ثالثاً تميز هذا الفكر الفلسفي بأنه قد ابتعد ليس عن المفهوم الديني الأسطوري فحسب بل حتى عن الأحداث السياسية التي كانت تتعرض لها المدن اليونانية أي أنه كان فكراً متجرداً نأى بنفسه عن المؤثرات السياسية والدينية وفي الوقت نفسه غدا هو المفسر والمعبر عن هذا الأحداث بمنطقه ومنظوره هو . و لذلك أضحت عملية الربط بين مفهوم الحكمة الإلهية والحكمة السلطانية أمراً صعباً . رابعاً : إن المفهوم الديني الأسطوري أو الحكمة الإلهية الإغريقية قد أضحيا ضعيفين بعد بروز التيار الفكري الإغريقي ولم يعد بالإمكان حصره في حيز واحد أو فكر معين أو أسطورة ما . و لم يعد بالإمكان الدخول إلى الأمر الديني أو الامر السياسي إلا من خلال الفكر الفلسفي نفسه أي أن دراستنا للعلاقة بين الحكمة الإلهية والحكمة السلطانية في اليونان القديمة ستكون من خلال هذا الفكر نفسه .

المدارس الفكرية اليونانية :

إن أصول وجذور المدارس الفكرية الفلسفية في اليونان يعود إلى الفترة التي بدأ فيها العقل الإغريقي يتحلل من التفسيرات والتبريرات التي قدمتها الأساطير القديمة لنشأة الكون لعوامل ومظاهر الطبيعة ولوجود الإنسان نفسه ولا ندري إن كان العامل السياسي البحت قد لعب دوره في هذا المجال حين انتصر الأثينيون على الفرس في معركة سلاميس في بدايات القرن الخامس قبل الميلاد وحين خسروا الحرب أيضاً مع الفرس فكان هذا التذبذب في نتائج المعارك يستبعد أي أثر لدور الآلهة في ذلك .

في هذه الفترة أخذ العقل الإغريقي يعد هذه التفسيرات الأسطورية لكل ما يتساءل عنه هي ليست منطقية وليست كافية لتقديم المسوغات التي تقنعه بصحة أجوبتها (أي الأساطير) عن هذه التساؤلات . فبدأت عملية البحث من الحلول أو الأجوبة البديلة والصحيحة وأخذ ما يسمى بمفهوم الاستدلال المنطقي بالظهور تدريجياً وبدأت عملية البحث في البداية من خلال الأشياء المادية الموجودة في الطبيعة ويحدثنا تاريخ اليونان القديم عن أول محاولة عقلية اعتمدت المنهج المنطقي في البحث في نشأة الكون والطبيعة و كانت على يد طاليس الذي أسس ما يعرف بالمدرسة الأيونية وكانت هي أولى المدارس الفلسفية وقد قال طاليس إن الماء هو أساس الوجود في هذا الكون وإليه يرجع أصل كل الأشياء ثم جاء الفيلسوف انكسمندر الذي قال إن أصل الكون والخلق هو غير محدد ولا نهائي أما الماء فقد تعرض لبعض التغيرات والتحولات قسم منه تحول إلى مادة صلبة بسبب الحرارة و شكل الأرض وقسم منه تحول إلى بخار فشكل الغيوم أما الرياح فقد تكونت بسبب تفاوت الحرارة ، وقال أيضاً إن أصل الكائنات الحية يعود إلى منشأ مائي وأول ما ظهر منها هو الكائنات البحرية من سمك وغيره ليتحول قسم منها إلى كائنات برية نتيجة جفاف بعضها ومنها الإنسان . ثم جاء بعده انكزمينس الذي رأى أن منشأ تشكل الكون هو الهواء وبعده جاء أكزينوفان الذي قال إن المنشأ الأول للكون والأشياء هو التراب وقال إن النار هي الأساس في منشأ الطين والماء أما هيراقليطس فقد قال إن النار هي الأساس في منشأ كل الأشياء ليأتي الفيلسوف امبيدوقليس ويجمع بين كل هذه النظريات قائلاً إن أصل الوجود والكون يقع في اجتماع العناصر السابقة الماء والهواء والتراب والنار. ولعلنا نلاحظ أن هذه النظريات جميعها شبيهة بالأساطير التي ظهرت في مصر القديمة وبلاد الرافدين ، ولكنها تميزت عنها بأمر واحد وهي أنها لم تلحظ أي دور للآلهة في عملية تشكيل الكون .

بعد هذا بدأ الفكر الفلسفي اليوناني يتحول من التفكير بمظاهر الطبيعة والكون إلى التفكير بالإنسان ذاته وسبر أغوار النفس البشرية ودراسة حتى العقل البشري نفسه ، وترافق ذلك كله مع دراسة العلوم النظرية والتطبيقية البحتة كعلم الرياضيات والهندسة والطب التي أثارت اهتمام الفلاسفة الإغريق بشكل كبير وكانت محل اهتمامتهم وتقديرهم ، و وصلت معهم إلى درجة أن أصبحوا يبحثون وينظرون حتى إلى مفهوم الآلهة من منظار هذا العلوم إلى جانب علم الفلسفة ، وتكفي مقولة الفيلسوف الإغريق ديمقريطس " إن الكشف عن برهان واحد في الهندسة خير لي من الحصول على عرش فارس "[1] وقد سمي هذا الفيلسوف من قبل أصدقائه ومعارفه باسم الحكمة ذاتها (Soplia) وفي هذا دليل على أن مفهوم الحكمة العقلية البحتة وليست السلطانية

[1] قصة الحضارة المجلد ٧ ص ٢٠١

أضحى هو الشيء الذي يمكن بواسطته الوصول إلى معرفة الأشياء ، سواء الإلهية أم المادية أم الاعتبارية أو المعنوية ويكفينا هنا أيضاً كلام الفيلسوف الإغريقي أنبادوقليس الذي ومن خلال العقل وصل إلى مفهوم توحيدي إلهي حين قال " لن نستطيع أن نقرب الله منا قرباً يمكننا من أن ندركه بأعيننا ونمسكه بأيدينا ذاك أنه ليس له رأس بشري ملتصق بأعضاء جسمه وليس له ذراعان متفرقتان تتدليان من كتفيه وليس له قدمان ولا ركبتان ، ولا أعضاء مكسوة بالشعر . إنه كله عقل لا غير . عقل مقدس لا ينطبق عليه وصف . يومض في طياته العالم كله . وميض الفكر الخاطف "[1] ثم نراه يسخر من أولئك الذين يدعون معرفة الله قائلاً " يعرفون أن ما يعملون به ليس إلا الصغائر التي يمر عليها كل واحد منهم في أثناء تجواله في هذا العالم ومع هذا تراهم جميعاً يفخرون بأنهم عرفوا كل شيء ألا ما أشد حمقهم وأكثر غرورهم . ذلك إن هذا الكلي الذي يفخرون بمعرفته لم تره عين ولم تسمعه أذن ، ولا يمكن أن يدركه عقل إنسان "[2] . و الملفت للنظر أن هذا الفيلسوف قد أظهر في أواخر حياته تمسكاً بالدين وأخذ يدعو الناس إلى الابتعاد عن الخطيئة التي برأيه طردوا بسببها من السماء وهذا ما يتوافق مع الأديان السماوية ولعله هنا قد اطلع على الديانة اليهودية التي كانت موجودة في تلك الفترة فتأثر بها وتقول بعض الروايات عنه إنه أحيا امرأة كانت قد ماتت .

لقد أرادت الحكمة الإغريقية بعامة أن تشق طريقها إلى معرفة الله والخلق والكون والإنسان بمعزل عن بقية الحكم السلطانية التي سبقتها أو عاصرتها في البلدان المجاورة لها ذات الحضارات السامية . فاتبعت طريقاً مختلفاً شذت به عن كل طرق هذه الحكم السلطانية وأساليبها . ولعل نظريات عواقب الحصول على المعرفة أو الأسرار المعرفية من شخص لا يجوز له الحصول عليها أو إعطاؤها لمن لا يستحقها خارج الأحوال التقليدية المتبعة لدى الحكم السلطانية تلك كما حصل مع برميثيوس ، قد جعل الحكمة الإغريقية تنحو إلى الحصول على المعرفة ذاتياً وعن طريق العمل ويبدو أن المشاكل لم تنته بالرغم من اتباع هذا الأسلوب . هذه المشاكل تجلت بشكل رئيس بالصراع بين مفهوم الدين والفلسفة ومن المؤكد أن الأمر السياسي كان له دور في ذلك ولو بشكل غير مباشر. هذه الأمور كلها هي التي غيرت مفهوم الحكمة الإغريقية وجعلته مختلفاً بشكل جذري عن مفهوم الحكم السلطانية في الحضارات ، والبداية كانت عندما دخل المفهوم الديمقراطي في الحياة السياسية والاجتماعية في نظام المدينة الإغريقية مترافقاً مع مفهوم الحرية الفكري وهذان المفهومان بالذات جعلا مفهوم العلاقة بين الحكم والإله يتقلص

---

[1] المصدر السابق ص ٢٠٩

[2] المصدر السابق ص ٢٠٩

إلى أدنى حدوده بل وفي مراحل معينة إلى إلغائه تماماً . ليحل محل العلاقة بين الحكم والشعب . وجاء النظام الانتخابي الذي اخترعته الحضارة الإغريقية وخدمته للعالم ، ليزيد الطين بلة في هذه العلاقة حيث أصبح الشعب هنا مصدراً للسلطات ومن الطبيعي و الحال هذه أن تنتفي أية علاقة بين الحكمة الإلهية والحكمة السلطانية ، وفي الوقت نفسه لا يمكننا القول إن الأمر قد تحول إلى علاقة بين حكمة سلطانية وحكمة شعبية لأن الحكمة السلطانية قد فقدت مغزاها التقليدي وأفرغت من مضمونها بسبب أنها أصبحت مقيدة بانتخاب الشعب لها وعزلها عند أي قرار تتخذه يخالف آراء الشعب ، ولم يعد لها مناص من أن تتحول إلى مجرد حكمة سياسية بحتة تبرز مهاراتها وقراراتها الصائبة في كيفية حل المشاكل الحياتية اليومية أو الأزمات السياسية مع بقية المدن أو الدول الأخرى ، وأصبح الأمر كله بيد الحكمة الشعبية ولعل أبلغ دليل على ذلك هو أننا نقرأ في التاريخ اليوناني القديم أن قانون الانتخاب الشعبي الديمقراطي قد وضع أشخاصاً أميين بسطاء في موقع القيادة وحكم المدينة . و وصل الأمر في بعض مراحل تاريخ المدينة اليوناني إلى أن انتخاب الحكام وغيرهم من طبقة الساسة والقادة كان يتم عن طريق القرعة ، فلم يعد هناك مجال للبحث في أمر حكمة إلهية أو سلطانية اللهم إلا إذا عددنا أن هذا الأمر كله كان يسير في إطاره العام الشامل وفق مشيئة حكمة إلهية خفية معينة تريد بهذه الطريقة فرض أمر ما أو تهيئة لحدوثه وحصوله . هذه الديمقراطية والحرية الفكرية تميزت بها مدينة أثينا بعامة وكان هذا الأمر مدعاة لتشوب الحروب بينها وبين بعض المدن اليونانية الأخرى . وفي ظل هذه الأوضاع نشأت المدارس الفكرية و أولها المدرسة السفسطائية .

المدرسة السفسطائية :

إن كلمة سفسطائي أو سفسطة مشتقة من الكلمة اليونانية سوفوسوفيا (Sopho sophia) وتعني تعليم الحكمة أو معلم الحكمة وهي مترادفة مع كلمة الفلسفة التي هي أيضاً مشتقة من أصلها اليوناني فيلوسوفيا (Philosophia) والتي تعني محبة الحكمة . إذاً فإن كلمة الفلسفة لا تبعد في معناها كثيراً عن كلمة السفسطة (كما هو دارج الآن) . فالموضوع هو الحكمة بمعناها الواضح والصريح وهو المفهوم الذي خرج لأول مرة في معناه كعلم وكتعريف بهذا الوضوح في الحضارة الإغريقية والفكر الإغريقي ويمكن أن تعد المدرسة السفسطائية من أوائل المدارس الفكرية العقلية والفلسفية في اليونان القديمة ، ولا نستطيع أن نقول إنها أول من قام باعتماد

المنهج العلمي والعقلي لأن هذه المحاولات قد حصلت قبل ظهور هذه المدرسة[1] . و لكن المدرسة السفسطائية كانت هي أول من قام بعملية التحول الفكري .. من التفكير بالطبيعة إلى التفكير بالإنسان نفسه . أي من دراسة مظاهر الكون والطبيعة إلى دراسة الشخصية الإنسانية والتفكير الإنساني . أي أنها باختصار ركزت على الإنسان عادة إياه أساس الوجود ومعيار التمييز بين الأشياء . وقد برزت أهمية المدرسة السفسطائية في أن مدينة أثينا كانت ستبقى مدينة غير متسامحة ولا مجال للتفكير فيها لو لم تقم فيها طبقة دولية من التجار ولم يعد إليها جماعة السفسطائيين [2] . و أول ما ميز السفسطائيين هو أن لقبهم أو طبقتهم كانت اسماً على مسمى فمن كلمة السفسطة (تعليم الحكمة) قد انطبق تماماً على رواد هذه المدرسة وأساطيرها حيث كانوا في الأساس معلمين ومدرسين للعلوم والمعارف ليس ذلك فحسب بل كانوا يتقاضون أجوراً مرتفعة على ذلك و كان معظم تلاميذهم من الأغنياء . وقد كان بروتاغورس وهو من أشهر أعلام ومفكري المدرسة السفسطائية يطلب عشرة آلاف دراخمة لكي يعلم تلميذاً واحداً وكذلك الفيلسوف غورغياس [3] . وبالرغم من أن السفسطائيين قد وجهت لهم انتقادات كثيرة فيما بعد واتهموا بتهم عدة منها أنهم اهتموا بالجدل الكلامي فقط ليس غير وأن غايتهم هي إفحام الخصوم ، فإنه لابد لنا من القول إن المدرسة السفسطائية كانت أول من فتح باب العلم والعقل واسعاً على مصراعيه وأول من دشن علم الفلسفة بشكله الحقيقي . و بسبب هذه المدرسة ظهر الفلاسفة الكبار العظام .. سقراط وأفلاطون وأرسطو والذين بالرغم من معارضهم الفكرية لها إلا أنهم تأثروا فيها بشكل أو بآخر ونسجل للسفسطائيين أيضاً أنهم بارتكازهم على مفهوم الإنسان واعتباره الأساس قالوا إنه لا يمكن أن توجد أية حقيقة فوق العقل وعدوا أن الحواس الإنسانية هي أساس البحث والوصول إلى الحقيقة . ليس ذلك فحسب بل إن السفسطائيين كانوا أول من وضع علم النحو و فقه اللغة و أول من قسم الأسماء إلى مذكرة ومؤنثة وغير مذكرة ولا مؤنثة وأول من وضع أسساً لما يسمى بالموسوعات حين قسموا العلوم المعاصرة إلى أقسام كعلم الرياضيات و الطبيعة و السياسة و الخطابة و غيرها .

و السفسطائيون هم أول من استخدم المنطق في اللغة وهم أول من طبق مفهوم التحليل في البحث على الأشياء جميعها وأول من قال برفض التقاليد والعادات والأعراف والتراث الديني أو السياسي وحتى الفكري ما لم يكن مدعوماً بشواهد الحس والعقل والمنطق . لكن ما أخذ عليهم بشكل جدي هو أنهم قد وجهوا ضربة قوية إلى الأخلاق الإنسانية حيث وضعوها ضمن سياق

---

[1] كلمة المدرسة هنا لاتعني بناء وصفي مكاني بقدر ما تعني مفهوم فكري

[2] قصة الحضارة المجلد ٧ ص ٢١١

[3] المصدر السابق ص ٢١٢

قوانين ونظرتهم إلى الطبيعة والأشياء فأصبحت عندهم قابلة للبحث والنقاش وقابلة لأن تكون مفيدة وضرورية أو غير مفيدة وليست بذي حاجة ماسة للاستخدام وربما يكون ذلك دون قصد منهم للإساءة إلى الأخلاق عن عمد أو الآلهة حين نظروا إليها من المنظار نفسه ولكنهم وبالأحوال كافة ، و كما يقول ديورانت " كفاهم فخراً أنهم كانوا حافزاً قوياً لطلب المعرفة وأنهم جعلوا التفكير سنة العصر وأنهم جاؤوا من أركان العالم اليوناني كافة إلى أثينة بأفكار جديدة وأسباب التفكير جديدة وأيقظوا فيها الوعي الفلسفي والنضوج الذهني ولولاهم لما وجد سقراط ولا أفلاطون ولا أرسطو . [1]

ولعلنا هنا نضيف سابقة جديدة ربما تكون المدرسة السفسطائية قد انفردت بها وهي سابقة تعليم الحكمة وكسر الطقوس المفروض عليها والذي جعلها حكراً على فئة معينة . ولا ندري هنا إن كانت هذه الخطوة بحد ذاتها عملاً حكيماً أو لا ، و لكننا نكتفي بأن نقول إنها سابقة وربما تكون هذه السابقة حتى و إن كانت مقابل أجر مالي كبير، ربما تكون هي السبب في فتح الباب واسعاً على مصراعيه لظهور هذا الكم الكبير من المفكرين و الفلاسفة الإغريق . وإذا دققنا أكثر في ملابسات وظروف نشوء المدرسة السفسطائية ، السياسية والاجتماعية ، فلسوف نرى أن الغاية من وراء تعليم الحكمة هو تحييد أي دور للحكمة الإلهية والأمر الديني في الأحداث السياسية والاجتماعية الحاصلة في اليونان القديمة وجعل الأمر كله محصوراً في الحكمة البشرية نفسها سواء أكانت سلطانية أم لا ولكن على ما يبدو فإن الغاية كانت تشكيل وتأسيس حكمة سلطانية مستقلة بنفسها وظاهرة للعيان وهي التي تقرر كيفية تسيير الناس والمجتمع في المدينة الإغريقية ويتضح ذلك كله من الأجور العالية التي كان يطلبها السفسطائيون من تلاميذهم لتعليمهم الحكمة ، وهذا الأمر لم يكن ليتحمل أعباءه ويتجسم عناءه غير الأغنياء فحسب أي النخبة الراقية الميسورة في المجتمع اليوناني والتي تكون عادة من التجار، وأمام هذه الحالة لا يسعنا إلا القول إن العملية برمتها كانت تهدف إلى تفسير شكل الحكمة السلطانية من حكمة سلطانية مرتبطة بالآلهة والدين بعامة ويدخل في قوامها الكهنة والعرافون وحتى الحكام ، إلى حكمة سلطانية أخرى لاعلاقة لها بالدين نهائياً . و في هذه الحال لا نستطيع القول إن الحكمة قد ظهرت في فئة معينة إلى عامة الشعب والناس بل خرجت من فئة إلى فئة . أي أن العملية برمتها ظلت فئوية أي أن الحكمة يجب أن تكون دائماً محصورة بفئة . وهذا ربما أراده السفسطائيون ولكن نفذوه تحت ستار الأجر العالي وتحملوا في سبيل ذلك التهم والانتقادات الكثيرة .

---

[1] المرجع السابق

لقد أراد السفسطائيين لمفهوم السفسطة (تعليم الحكمة) أن يتميز عن مفهوم الفلسفة (حب الحكمة) وهذا أمر يمكننا تفسيره إذا أمعنا النظر في كلا المفهومين ، إن مفهوم تعليم الحكمة يعني في مضمونه احتكار الحكمة وحصرها في فئة معينة من حيث المصدر أو المنطلق فعملية التعليم تعني حصول العلم من مصدر معين ومجدد وتعني أيضاً الخضوع لمشيئة هذا المصدر والتأثر فيها بشكل أو بآخر وبالتالي يستطيع هذا المصدر أن يوجه المتلقي للحكمة كما يشاء وكما يريد ، أما مفهوم حب الحكمة فهو عكس التعليم تماماً فهو يعني في طياته انتفاء التحديد الفئوي في اخذ الحكمة والاعتماد على الحرية المطلقة في الاختيار ، و النظرة إلى هذا العلم أو الحكمة أصبح عملية بحث و طلب للحكمة كيفما كانت وخارج نطاق التأثر والتأثير. وأن يكون هنالك حب للحكمة قبل أن يكون هنالك تعليم لها ولهذا فقد نتجت الحكمة هنا من تعليم الحكمة أي أن الفلسفة قد خرجت من رحم السفسطة .

لقد كان مفهوم حب الفلسفة انقلاباً على مفهوم تعليم الحكمة أو بأحسن الأحوال تطويراً له وتعديلاً ، فهل أدرك السفسطائيون بحكمتهم ما يؤول إليه عملهم هذا ؟؟ أي أن حكمتهم لم تسعفهم هذه المرة وخرج الأمر من يدهم ؟؟ هذا أيضاً جواب جديد يضاف إلى الأجوبة التي لا نستطيع التكهن بها . ولكن وبالأحوال كافة فإن السفسطائيين قد فتحوا الباب واسعاً أمام ظهور فكر فلسفي عقلي متنور ترك أثره الواضح في الحضارة الإغريقية القديمة . و أول من دشن هذه المرحلة الفكرية هو سقراط .

سقراط :

يعد سقراط بحق ، أول من وضع علم الفلسفة بناء على منهج علمي عقلي بحت يقوم على الاستدلال والمنطق ، بعيداً عن أية مصالح مادية أو غايات معينة . واختلف سقراط عن السفسطائيين في أنه وضع الضوابط لأي بحث فكري فلسفي بحيث لم يعد منفلتاً من عقاله كما كانت الحال عليه لدى المدرسة السفسطائية . وأول ما وجه نقده إليه كان المفهوم الديمقراطي المتحرر من أية قيم وضوابط . و فضل عليه الحكم الارستقراطي حيث عده بالرغم من سيئاته ، قائماً على حدود وضوابط وثوابت أساسية في الحكم ولكنه في الوقت نفسه لم ينفِ الحكم الديمقراطي ويلغه من فكره ، بل على العكس حفظ له الكثير من إيجابياته وميزاته وفي الواقع فقد قرن سقراط السياسة والحكم و حتى بقية العلوم الاجتماعية عامة ، بالأخلاق والفضيلة . ومن باب آخر فإن سقراط قال أيضاً إن المعرفة والحكمة لا يمكن التوصل إليهما إلا عن طريق الإمكانيات الذاتية والجهد الشخصي والعناء في سبيل ذلك و كأننا به قد نادى بعدم احتكار الحكمة والمعرفة حتى في أحسن حالاتها لدى السفسطائيين وهو مفهوم تعليم الحكمة .

وقد تميز سقراط عن بقية الفلاسفة بأنه كان يعطي من نفسه مثالاً لكل كلامه وآرائه وأقواله ، فقد تميز بحبه للبساطة في أشكالها كافة ، كبساطة العيش والأكل والملبس وتمتعه بالجلد والصبر والقدرة الهائلة على التحمل . وضبط النفس وشجاعة الإقدام[1] . ولعل هذا الأمر بالذات ما جعل أتباعه ومريديه وأصدقاءه بل وحتى عامة الناس يجلونه ويحترمونه وقد بلغ من شدة وقوفه عند كلامه وضرب نفسه مثلاً للآخرين ، أنه عندما حكم عليه بالموت رفض الهرب حين سنحت له الفرصة وتقبل حكم الإعدام بكل شجاعة من مبدأ شعاره القائل باحترام القانون فأعطى بذلك مثلاً رائعاً لتطبيق القناعة بمنطق وفكر معين . حيث كان معظم الفلاسفة الذين سبقوه والذين أتوا من بعده يهربون عند شعورهم بالخطر وربما كان سقراط هو أول رجل يموت من أجل فكره وفلسفته . لقد قامت فلسفة سقراط على أسس وركائز[2] عدة أهمها السؤال والشك وتعريف الأشياء مهما كانت بذاتها ، فكان بداية منطق البحث عنده هو السؤال ماهو الخير وما هو الشر؟ ماهي الحكمة وما هو الجهل ؟ ماهو الإيمان وما هو الكفر؟ ماهي الشجاعة وما هو الخوف ؟ وقد أضاف العقل أي مجموعة الإدراكات الحسية في البحث ومعرفة الأشياء ، كما أنه اتخذ الشك وسيلة للوصول إلى الحقيقة والمنطق . ولعل أفضل ما في فلسفته هو أنه لم يعتمد مبدأ الحكم المطلق على الأشياء أي أنه كان يقر بمبدأ عدم الوصول إلى الحقيقة المطلقة ومن هنا فقد كانت له مقولة شهيرة هي " أعرف شيئاً واحداً وهو أنني ، لا أعرف شيئاً " ولهذا فهو لم يعمد إلى نفي بعض الأشياء أو المفاهيم كما كان يفعل السفسطائيون ، بل كان يصل إلى مرحلة يقف فيها عند حدود المعرفة ومن أمثلة ذلك الدين والآلهة فهو لم ينف الآلهة والدين من مبدأ عدم إدراك الحواس لها بل أقر نوعاً ما بوجودها من مبدأ العقل حيث عد أن مظاهر الطبيعة والكون تدل على وجود شيء ما أو خالق لهذا الكون وذلك من خلال التناسق الكوني بين الكواكب والنجوم و الليل والنهار وبقية مظاهر الطبيعة ليصل إلى نتيجة أن ذلك كله لا يمكنه أن يتم مصادفة وأن تقوم به علة غير عاقلة ، واكتفى بفلسفته وتفكيره عند هذا الحد .

وكانت بعض تصرفاته وأقواله تدل على إيمانه بالآلهة ومنها إعلامه أن كل فلسفة ومعرفته تقوم على إيحاء غامض من شيء لا يعرفه وصفه بالروح الخفية وبأنه إشارة من السماء[1] وفضلاً عن ذلك فإن مبدأ الجهل بالشيء عند سقراط لا يعني نفي الشيء بل كان ذلك أحياناً مدعاة لتثبيت وجود ذلك الشيء كقوله مثلاً " إذا جاز لي أن أدعي بأني أكثر حكمة من غيري فسبب ذلك أني لا أعتقد أن عندي كثيراً من العلم بالدار الآخرة ، و أنا في واقع الأمر لا علم لي

---

[1] الفكر السياسي في العصور القديمة ص ١ - قصة الحضارة المجلد ٧ ص ٢٢٥

[2] المصادر السابقة

[1] قصة الحضارة المجلد ٧ ص ٢٣٣

بها على الإطلاق" أو قوله " إن الآلهة لا نعرف عنها شيئاً"[٢] وكلامه أيضاً عن أن الخير ليس خيراً لان الآلهة ترضى عنه بل أن الآلهة ترضى عن الخير لأنه خير وأن الأمر الصالح هو صالح لشيء ما . و قد جسد سقراط مفهوم جديد للحكمة و هو أن الحكمة السلطانية أو البشرية هي حكمة لها حدود ، و هو بحديثه عن الآلهة وعدم نفيه لها قد أقر بوجودها ، وبإقراره بعجزه عن معرفتها ، فقد أقر بشكل غير مباشر بوجود حكمة إلهية هي فوق الحكمة السلطانية البشرية وبهذا يكون سقراط قد أسس بشكل من الأشكال لمفهوم احتواء الحكمة الإلهية للحكمة البشرية و لعل كلامه عن وحي أو إلهام له من السماء هو كناية أبلغ من التصريح عن توجيه الحكمة الإلهية للحكمة البشرية وإن الحكمة السلطانية البشرية هي نتيجة لإرادة ومشيئة الحكمة الإلهية . بل ولعل رفضه الهرب وتجرعه كأس السم هدف ، هو توجيه روحي من هذه الحكمة الإلهية لتثبيت المبادئ والأفكار التي طرحها وعلمها لتلاميذه بحيث يجعل من نفسه مثلاً سامياً لاعتناق وتنفيذ المبادئ وهنا لابد لنا من استنتاج أمر خطير جداً وهو أن سقراط بفعلته هذه قد فرق بشكل كبير بين الموت من أجل المبادئ وبين عدم الهروب من الموت لأجل تفسيرها فسقراط لم يلق بنفسه في آتون الهلاك والموت من أجل مبادئه وأفكاره ولكن عندما حكم عليه بالموت من أجل تغيير أفكاره تقبله بوصفه أمراً لا مناص منه وجاء نتيجة لمناقشته هيئة المحكمة حول أفكاره مناقشة منطقية سليمة أثبتت من خلالها حججه ومواقفه بحيث جاء الحكم عليه نتيجة التصويت بأغلبية ضئيلة والنقطة الثانية المهمة جداً في هذا المضمار هي أن سقراط تقبل الموت نتيجة لاحترامه القوانين الصادرة عن هيئة المحكمة حتى وإن كانت جائِزة ، أي أنه لم يطلب الموت وسيسعى إليه لتثبيت مواقفه بل رحب به من أجل تثبيت احترامه للغير حتى لو كان خصمه . وهنا وفي هذه النقطة بالذات ربما تكون الحكمة الإلهية قد لعبت دورها في التأسيس لمرحلة جديدة وإطار جديد تسير بموجبه الحكمة السلطانية أو البشرية . و لا نستطيع أن نتبين ذلك إلا من خلال التهمة التي وجهت لسقراط والتي أعدم بسببها ألا وهي الإساءة للآلهة وحين نعرف من خلال قراءة سيرة سقراط وتاريخ حياته بعامة أنه لم يسء للآلهة بل وكان يعترف بوجودها فإننا نخلص إلى أن التهمة التي وجهت إليه كانت سياسة بالدرجة الأولى ، فقد كان سقراط ينتقد أشكال الحكم الديمقراطية والأوليغاركية[١] مما هيج ضده طبقة السياسيين الممثلين لأنظمة الحكم تلك ، فبدؤوا يثيرون نقمة الناس عليه . وبعد فترة وجه له بعض السياسيين تهمتين رئيستين هما التهجم على الآلهة وإفساد عقول الشباب والتهمة الثانية كانت إيجاد آلهة جديدة التهمة الأولى كانت غير صحيحة أما التهمة الثانية فكان فيها وجهة نظر من مبدأ أنه عرّف عن آلهه جديدة حينما قال

---

[٢] نفس المصدر السابق

[١] الأوليغاركية : نظام يقوم على حكم طبقة الأغنياء وهو شبيه لنظام الحكم الارستقراطي .

بوجود وحي وإلهام من السماء ينتابه وبأن الآلهة لا يمكن أن نعرف عنها شيئاً وهذا الكلام لا يخلو بطبيعة الحال من ملامح توحيدية وهو هنا يذكرنا ببعض القواسم المشتركة مع أمر ديانة أختانون في مصر وخاصة إذا عرفنا أن سقراط انتقد أشكال الحكم الاستقراطية[1] والأوليغاركية .

والواقع صراحة هو أن فلسفة سقراط و منهجه كانا يشكلان تهديداً قوياً لحكمة سلطانية كلاسيكية تقوم على نظام حكم شبيهة بنظام الحكم السلطانية في بلاد مصر والرافدين ، فالنظام الارستقراطي والأوليغاركي ، يتفقان عموماً مع أنظمة الحكم في تلك البلدان . مع فارق بسيط هو أن تلك الأنظمة ربطت نفسها بالآلهة مباشرة جاعلة من نفسها ومن الآلهة منظومة قيادية واحدة بينما كان الأمر مختلفاً لدى أنظمة الحكم في أثينا خلال تلك الفترة حيث وبوصفها مستوردة للأساطير و لمفهوم وأسماء الآلهة من تلك البلدان ، فإنها لم تستطع أن تمثل و تحتكر تلك الآلهة لنفسها وخاصة بعد دخول المفهوم الديمقراطي في الحكم والذي قطع أية صلة بالآلهة من حيث الارتباط بها وإن لم ينفها كمفهوم موجود . ولذلك فإن الحكمة الكلاسيكية المرتكزة على أشكال الحكم تلك .. الديمقراطية والأوليغاركية والارستقراطية والتي فقدت ميزة دمج نفسها مع الآلهة إما بسبب النظام الديمقراطي أو بسبب بقاء المرجعية الدينية أو البابوية ، في بلاد مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين على ما يبدو، لم يعد لها مناص من أن تطرح نفسها كحامية لمفهوم الآلهة اياً كانت هذه الآلهة ، لسببين أساسين بسيطين الأول هو أنها فتحت على نفسها باب الديمقراطية و الذي على ما يبدو لم تستطع إغلاقه والذي بدأ مع السفسطائيين ، خاصة إذا علمنا أنهم أتوا إلى أثينا من الخارج وأن مفكريهم تعرضوا للاضطهاد بسبب الآلهة نفسها . الثاني إن هذه الحكمة لم توجد لها أرضية فكرية يمكنها الاعتماد عليها سوى الآلهة ، أما الفلسفة التي نشأت مع السفسطائيين فقد كانت حكمة جديدة مستقلة هددت بشكل غير مباشر الحكمة السلطانية الإغريقية في تلك الفترة ولم تستطع هذه الحكمة السلطانية ترويض هذه الحكمة الجديدة الناشئة وجعلها كأرضية داعمة لها. فلم يعد لها سوى مفهوم الآلهة لتستقر عليه وتعمل جاهدة على دعم أسسه ومقوماته فكانت تلجأ إليه بسبب أو دون سبب للدفاع عن نفسها وبقاء وجودها ولعل هذا الأمر بالذات ربما يفسر لنا لماذا وجهت هذه التهمة العجيبة الغريبة لسقراط ألا وهي تهمة الإساءة للآلهة .

لقد كان الأمر في الحقيقة عبارة عن مواجهة حكمة سلطانية كلاسيكية مع حكمة عقلية جديدة . والحقيقة أن الحكمة السلطانية التقليدية قد نجحت بهذه الطريقة مع كل الفلاسفة السابقين إلا

[1] الارستقراطية : حكومة النخبة وتتألف من طبقة نبلاء وراثية أو طبقة عليا متمتعة بامتيازات معينة.

مع سقراط ، وذلك بسبب أن كل الفلاسفة الذين كانت توجه لهم تهمة الإساءة إلى الآلهة كانوا يفرون من أثينا فيثبتون بذلك شيئاً من مصداقية خصومهم أما سقراط فقد فاجأ الجميع بعدم فراره وإصراره على تجرع كأس السم من مبدأ احترام القوانين في سابقة خطيرة مفاجئة سحبت البساط من تحت خصومه وبناء على ذلك ربما لانتفاجأ إذا استنتجنا أن تسهيل فراره وإعطاءه مهلة شهر لتنفيذ الحكم و طلب تلاميذه منه بالفرار ، ربما كان خطة مدبرة من خصوم سقراط السياسيين للقضاء عليه فكرياً وليس جسدياً. ولكن وعلى ما يبدو فإن حكمة سقراط الفلسفية هنا كانت أقوى من حكمة خصومه السلطانية ، فأصر على الموت وهو مدرك تماماً نتائج فعلته تلك وربما تكون الحكمة الإلهية قد لعبت دورها في الإيحاء لسقراط للقيام بذلك تهيئة لأمر ما تخبئه ، ولا يسعنا في النهاية إلا أن نذكر مقولة تلميذ أفلاطون عنه " كان سقراط بحق أعقل وأعدل وأحسن من عرفت من الناس في حياتي كلها " [١] .

أفلاطون :

ولد أفلاطون في مدينة أثينا لعائلة غنية وذات حسب ونسب ، فوالده يعود نسبه إلى ملوك أثينة الأوائل وكذلك أمه تعود بنسبها إلى المشرع اليوناني صولون وكان بعض أقربائه سياسيين مشهورين في أثينة وكان اسمه الحقيقي هو أرسطوقليس ولكنه لقب بأفلاطون أو بلوتون platon بسبب امتلاء جسده وقوة بنيته [٢] . ومنذ صغره برع أفلاطون في شتى العلوم ومنها الموسيقى والشعر والرياضيات و كتابة القصص وعندما شب عن الطوق شارك في معظم المعارك الحربية فاشتهر أيضاً بالبسالة والشجاعة . ولكنه بعد فترة وصل إلى مفترق طرق في الاختيار بين الأدب وبين العلوم الأخرى و منها السياسية حيث كان قد تعرف على سقراط ، فاختار طريق الفلسفة وأصبح تلميذاً عند سقراط وقام بحرق قصائده وكتبه الأدبية واتبع سبيل الفلسفة على يد أستاذه سقراط .

و لكن ونتيجة لظروف عدة تجلت باضطرابات سياسة في أثينا وفي إعدام أستاذه سقراط . آثر أفلاطون الخروج عن أثينا إلى بقية المدن اليونانية الأخرى لطلب العلم ومن هناك انتقل إلى مصر حيث بقي فيها فترة تعلم خلالها بعض العلوم والمعارف على يد كهنة عين شمس ومنها علم الفلك والرياضيات وكانت له هناك فرصة الاحتكاك المباشر والمهم بكل الإنتاجات الفكرية للحضارة المصرية و بخاصة في ميدان الحكم والأخلاق[٣] والدين وما توصلوا إليه من فكر

---

[١] قصة الحضارة المجلد ٧ ص ٢٢٧

[٢] المرجع السابق ص ٤٦٨

[٣] الفكر السياسي في العصور القديمة ص ١١٥

التوحيد التي أتى به اخناتون والتي تجددت مع الفكر التوراتي ، ليعود بعد ذلك إلى اليونان نتيجة لحرب بين مدينتي أثينة واسبارطة . وهناك أسس لفلسفته الخاصة به ولعلنا هنا نقول إن ذهابه إلى الدول المجاورة والاطلاع على حضاراتها وثقافاتها ومنها مصر ، كان له تأثير كبير على فلسفته ، و ربما كان هذا الأمر هو الأساس لعده علم الهندسة علماً لا يقتصر على الحساب والأرض فحسب بل هو تدريب عقلي خالص وطريق يصل به العقل إلى الله وربما لأجل ذلك أيضاً وضع فوق الأكاديمية التي بناها عبارته الشهيرة **" لن يدخل هذا المكان إنسان بلا هندسة "** . من الواضح والمنطقي أن أفلاطون عندما ذهب إلى تلك البلدان ومنها مصر. قد اطلع ليس فحسب على العلوم والمعارف فحسب بل على مفهوم الحكمة السلطانية وأسسها وبنائها وآلية وطبيعة علاقتها مع مفهوم الحكمة الإلهية . وبرأينا أنه قد ذهب لهذا الغرض فحسب أو على الأقل كان هذا الأمر يشكل هاجساً فكرياً لديه خاصة وأنه قد ذهب إلى مصر وهو مشبع بحكمة وفلسفة سقراط وغيره من فلاسفة الإغريق والأرجح لدينا أنه لم يذهب إلى هناك بصفته فيلسوف وعالم بل بصفته طالب علم . وذلك كله ألقى بظلاله على عقيدته وآرائه الفكرية والفلسفية ولذلك يلاحظ المطلع على كتاباته أنها لم تكن واحدة بل كانت مختلفة وحسب الفترة والتجربة والمكان الذي عاشها فيها .

بعد عودته من مصر واستقراره في أثينة لبعض الوقت ، ارتحل أفلاطون مجدداً لطلب العلم ولكن هذه المرة إلى جنوب إيطاليا وبالذات لكل مدينة تاراس حيث انتشرت فلسفة فيثاغورث بشكل واسع فيها وبعد مكوثه في تاراس ، عرف بوجوده ملك سراقوصة ، إذ كان صديت أفلاطون قد ذاع تقريباً وعندما ذهب أفلاطون إلى سراقوصة لطلب العلم ، تعرف على قريب الملك ديونيسيوس واسمه ديون حيث عرفه على الملك نفسه فجعله الملك مستشاراً له لعله يستفيد من تجربته ولكن على ما يبدو فإن أفكار أفلاطون لم تعجب الملك فباعه في سوق النخاسة في جزيرة (أمينا) فأعتقه أحد أصدقائه القدامى حيث اشتراه وأعاده إلى أثينا وهناك بنى أفلاطون بمساعدة عدد من أصدقائه مدرسة خاصة به لتعليم الفلسفة أطلق عليها اسم الأكاديمية وهو اسم ما زال يعمل به حتى الآن وهو مشتق من اسم إله يوناني قديم يدعى أكاديموس Academus[1] وبقي في هذه المدرسة يعلم فيها حتى دعاه ابن ملك سراقوسة السابق (الذي خلف أبيه) إلى الجزيرة وذلك إصلاحاً لخطوألده السابق بحق أفلاطون وليستفيد من خبرتهفي الوقت نفسه ودفع في سبيل تلك الأموال الطائلة . فقبل أفلاطون هذا العرض و سافر مرة أخرى إلى سراقوسة وكان على ما يبدو يحلم بتطبيق نظريته بخصوص المدينة الفاضلة أو المثالية التي كانت قد

[1] لعله يكون هو نفسه قدموس السوري الذي قدم الكثير من المعارف والعلوم للإغريق

استحوذت على تفكيره . ولكن بعد أن قضى فترة هناك ، ساءت الأمور بينه وبين الملك الابن الذي قرر على ما يبدو أن يبيع أفلاطون في سوق العبيد كما فعل أبوه من قبل ولكن أفلاطون فر من سراقوسة عائداً إلى أثينا بعد أن فشلت مدينته الفاضلة في أن تجد حيزاً للتنفيذ . و قد حرم على نفسه الخروج بعد ذلك من أكاديميته في أثينا حيث بقي فيها حتى وفاته .

لقد برز مفهوم الحكمة السلطانية عند أفلاطون نتيجة لقناعاته بأن كل أشكال الحكم الذي رآها وعايشها واطلع عليها لم تكن لتمثل في نظره الحل الأمثل لقيادة وتوجيه المجتمع الذي ظل في رأيه مجتمع المدينة . و مفهوم الحكمة هذا كان واضحاً تمام الوضوح لدى أفلاطون . و برأينا أن فكرة المدينة الفاضلة كانت موجودة في ذهن أفلاطون منذ فترة طويلة وأنه في مخيلته ، كان يراه اجتماع مفهوم الحكمة السلطانية مع الحكمة الإلهية في أر قىأشكاله وأكمل صور ه ، أو بمعنى آخر في صورته الحقيقة المثالية وأنه قرر قبل طرح مشروعه هذا استقصاء عوامله وصوره كافة في الحضارات المجاورة ومنها المصرية والبابلية والفينيقية . لقد كان مفهوم المدينة الفاضلة بالنسبة لأفلاطون هو تشكل حكم يجمع بين جميع الإيجابيات من مفاهيم الحكم السلطانية المرتبطة بالمفهوم الحضاري بما فيها بلاد اليونان .

في البداية اتجه أفلاطون إلى محاولة التوفيق بين متلف الأفكار والفلسفية الفكرية الـ تي تحصل عليها سواء في اليونان أ م في المناطق المجاورة . فحاول الجمع بين الأفكار والمفاهيم الدينية وبين الأفكار والمفاهيم الفلسفية من المناهج المتعارضة والمختلفة ومنها مثلاً السفسطائية والفيثاغورثية وغيرها . وانطلق في ذلك من مبدأ أن الحقائق الجزئية تكون طريقاً للوصول إلى الحقيقة الكاملة من خلال الجمع والتنسيق بين الجزئيات عبر إخضاع المحسوس للمعقول والحادث للضروري والثنوي للأساسي [1] . ثم بعد ذلك اتجه إلى محاولة التوفيق بين الفلسفة المثالية والعمل السياسي فاتجه إلى إيجاد علاقة بين مفهوم الفلسفة ودراسة النفس الانسانية والأخلاق ، وبين السياسة والمناهج السياسية المتغلغة في الحياة اليومية وذلك كله كان يصب في جمهورية المدينة الفاضلة التي أراد لها أن تظهر إلى الوجود والتي ربطها وحدد سماتها بالمثالية . و في محاولاته كلها كان يعتمد على المنطق الذي يعده هو الأساس في قبول أو عدم قبول المفاهيم لدرجة أنه عده أبا العلوم حيث قال فيه " لست واثقاً قط من أنه يوجد من بين العلوم علم كالمنطق[2] " .

---

[1] الفكر السياسي في العصور القديمة ص ١٢٢ – قصة الحضارة

[2] قصة الحضارة

لقد ابتدأت المثالية عند أفلاطون بالأشياء قبل أن تنتقل إلى المفاهيم حيث عد النظر إلى الأشياء بعامة يكون بطريق الجمع العام ويتم تصنيفها حسب التشابه فيما بينها والقواسم المشتركة التي تجمعها ليتم بعد ذلك التعبير عن الصنف باسمه العام فعندما نقول رجل مثلاً فإنه يتبادر إلى الذهن صورة وشكل الرجل بعامة وليس فلاناً بعينه أو شجرة حيث يتبادر إلى الذهن فوراً الشجرة بشكلها العام ، فليس شجرة بعينها لها نوع و فصيلة محددة حتى الأشياء أو المفاهيم التي ليس لها وجود حسي مادي ملموس ، تخضع بنظر أفلاطون لشيء يشبه هذا القانون كفعل الخير والفضيلة والشر وغيرها ولذلك فقد طرح افلاطون ميلسمى بمفهوم أو عالم المثل وانطلق هذا المفهوم من مبدأ أن المدركات العقلية الكلية هي الحقائق الثابتة والأساس لكل ما يمكن أن يرى من أشياء حيث تكون هذه الأشياء نفسها عبارة عن صورة خادعة أو غير حقيقية أو مشوهة مقارنة بحقائقها وصورها الأساس الموجودة في العالم الحقيقي ، وكلما كانت هذه الأشياء قريبة من صورها الحقيقية في العالم الخارجي ، كان العقل قادراً على استيعابها و فهمها بشكل افضل .

و العالم الحقيقي هذا ، الذي وصفه أفلاطون بأنه عالم المثل الذي يحوي الثوابت والصفات المجردة والكلية والمطلقة والثابتة إلى الأبد ، يقول فيه إن النفس قد عاشت في فترة من الفترات في هذا العالم المثالي والحقيقي وبذلك فقط استطاع العقل البشري أن يعرف ويميز كل هذه الأشياء وهذا الأمر ربما نلاحظ له شبيهاً بالقرآن في الآية التي تقول (**لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**) (ق – ٢٢) .

ويرى أفلاطون أنه يوجد في العقل شكل حقيقي واحد ومثال لكل الأشياء التي نراها ونعانيها أمامنا . فعندما نرى أمامنا شجرة مثلاً فسوف يكون لها في العقل صورة شجرة حقيقة شاملة بينما الشجرة التي نراها امامنا هي شجرة من آلاف أنواع الشجر ، ومن خلال الصورة الحقيقة الموجودة في العقل ، يقرر العقل ويحكم على أنه ما نراه أمامنا هو شجرة وهكذا نستطيع أن نعمم هذا المثل على كل الأشياء الأخرى المادية وغير المادية فحتى المفاهيم والاشياء المعنوية الاعتبارية تخضع حسب وجهة نظر أفلاطون إلى المثال السابق نفسه حيث يكون لها عالم أو صورة متتالية تحددها وتعرفها للعقل ، كمفهوم الجمال الذي يقول فيه أفلاطون إن الجمال الذي نراه متجسداً في شيء ما في الطبيعة كصورة أو إنسان أو شيء ما هو شكل من أشكال تحديده للجمال وهذا الجمال الذي نراه هو غير الجمال الذي يوجد في العالم الحقيقي أو المثلي وهكذا نسحب الأمر على مفاهيم أخرى كالشر أو الطول أو القوة أو العدل ... الخ . فلكل شيء أو مفهوم من تلك الأشياء والمفاهيم صورة أو مثل حقيقي في عالم المثل .

و حتى هذه الأشياء أو الصورة الحقيقية الموجودة في عالم المثل هي نفسها أيضا لها صورة حقيقية مثلية تمثل فئات معينة منها وهذه الصور كذلك لها صور أخرى تمثلها ضمن مفهوم تراتيب تسلسلي هرمي حتى يصل الأمر إلى مثل واحد لا مثل له وهو الذي تنبثق عنه جميع الأمثال والصور وهذا المثال الأعلى عده بعضهم في الأديان السماوية اللاحقة أنه هو الله ، و ربما يكون أفلاطون هو نفسه قد عده كذلك حيث عد أن " الله هو المحرك الأول الذي لا يتحرك يحرك كل شيء وينظمه حسب القوانين والأشكال الأزلية وهي الأفكار التي لا تتبدل والتي تكون الكلمة أو الحكمة الآلهية أو عقل الله "[1] .

إن فكرة المثال الواحد أو الأعلى نرى لها شبيهاً مرافقاً في الأديان السماوية فمثلاً في القرآن الأيات التالية (**ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم**) (النحل – ٦٠) . (**و هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم**) (الروم – ٢٧) .

في هذا التصور السابق الذي يظهره أفلاطون يتضح مفهوم الحكمة الإلهية بشكل واضح وجلي حيث تم إبرازها على أنها هي الحاوية لكل التصرفات والأفعال والايرادات وذلك لأنه عنها تصدر كل الصور و الأمثلة ، ليس المادية فحسب بل حتى المعنوية التي تندرج تحت إطارها كل أشكال المفاهيم الفكرية وتبعاً لذلك الكلام فإن تفكير أي حكمة سلطانية واعتقادها واستنباطها بأي مفهوم فكري ، سيكون عبارة عن صورة من صور العالم المثلي الحقيقي الأعلى، وعالم الآلهة . و في سبيل ذلك ، سعى أفلاطون جاهداً إلى محاولة جعل العلاقة بين مفهوم الآلهة و المفاهيم الحياتية اليومية والسياسية والاجتماعية ، أكثر توافقاً وانسجاماً وذلك فقد جعل مفهوم الحكمة السلطانية مرتبطاً بمفهوم الحكمة الإلهية ولكن ليس بهذا الشكل الفج المباشر الذي يربط السياسي بالإلهي كما هو الحال لدى الحكم السلطانية في مصر وبلاد الرافدين حيث يمكن أن يتسبب ذلك بتنفير منطقي عقلي من قبول هذا الأمر لدى الانسان الإغريقي الذي تشبع بمبادئ و أفكار الفلسفة عامة وطبقاً لهذا فقد ركز أفلاطون على محاولة الربط بين الأمر السياسي وبين أمور تنبثق من الآلهة نفسها ، فعد أن الفضيلة هي الأساس في أي أمر وهي التي يجب أن تكون هدف النفس الإنسانية وقسم هذه الفضيلة إلى أربعة فضائل أو لها و أهمها فضيلة الحكمة وهي الفضيلة التي تتسم بها النفس العاقلة المفكرة ومركزها الرأس . ثانياً فضيلة الشجاعة وهي فضيلة النفس المساعدة للعقل في السيطرة على النفس الغازية الشهوانية ومركزها الصدر . ثالثاً فضيلة العفة وهي فضيلة النفس الغازية المطلقة للأهواء مما يهدئ النفس ويحرر العقل ومركزها أسفل البطن

---

[1] قصة الحضارة ص ٤٧٩

رابعاً فضيلة العدالة وهي التي تعطي كل ذي حق حقه وتنشأ من تناسق الفضائل السابقة جميعها[1] وهذا الفضائل تخضع بعضها لبعض بالتسلسل وبدءاً من الفضيلة الأخيرة إلى التي قبلها وصولاً إلى فضيلة الحكمة التي تخضع لها جميع الفضائل .

لقد أراد أفلاطون بهذا القانون الذي وضعه ، إنشاء نظام جديد لمفهوم العلاقة بين الحكمة السلطانية والحكمة الإلهية وهو نظام تقع فيه قواسم مشتركة كجزء بينه وبين أنظمة الحكم في الحضارات البابلية والفينيقية والمصرية من حيث وجود العلاقة القوية بين الحكمة السلطانية والحكمة الإلهية . و لكن الأمر عند أفلاطون يتميز بوجود ضابط قوي ومنظم يستند إلى أسس أخلاقية وعلمية وهو ضابط الفضيلة التي تميز هذه الصفات كلها وضابط العدل الذي تقوم عليه أسسها .لقد كانت عملية توصيف دقيقة لمفهوم الحكمتين السلطانية والإلهية و بخاصة الحكمة السلطانية من حيث تحديد مسارها وآلية عملها . و قد لعبت التناقضات السياسية التي عاشها أفلاطون في اليونان دورها في التأثير فيه ودفعه نحو التفكير في النموذج المثالي لنظام حكم يجتمع فيه معاً الدين والسياسة ... الإله والحاكم . و كذلك اطلاعه على أنظمة الحكم في البلدان المجاورة وثقافاتها الفكرية من دينية وسياسية ، قد صب أيضاً في هذا المجال . وطبقاً لذلك فقد أراد أفلاطون نظام مجتمع أو نظام مدينة خالياً من مظاهر البؤس والفساد والخرافات ، قائماً في نخبته العليا على الفلاسفة والمعرفة حيث يعول أفلاطون في هذه المسألة على الحاكم بشكل كبير ، الذي بحسب وجهة نظره يجب أن يكون بالإضافة إلى خبرته بالمجالات وبالعلوم والفنون السياسية يجب عليه أيضاً أن يلم بعلم الفلسفة كاملاً وهنا يتحدث أفلاطون عن مفهوم الملك الفيلسوف فيقول (لا يمكن زوال تعاسة الدولة وشقاء النوع الإنساني مالم يملك الفلاسفة أو يتفلسف الملوك والحكام فلسفة صحيحة تامة أي مالم تتخذ القوتان السياسية والفلسفية في شخص واحد[1] وأهمية الحاكم أو الملك عند أفلاطون تنبع من اعتباره أنه هو مصدر السلطات وهو أداة تطوير المجتمع بشكل دائم حيث إن صلاحياته وامتيازاته تتجاوز الأعراف والتقاليد والتقانات الجامدة التي تعيق سير المجتمع وتطوره مهما كان نوعها ، دينية أم سياسية أم اجتماعية . و هنا يقترب أفلاطون من مفهوم الحق الإلهي الملكي ولكن يشترط وجود الفضيلة والعدل فيه .

لقد أراد افلاطون للملك أو الحاكم في مدينته الفاضلة المثالية أن يزيل عن نفسه كل أثر أو مظهر من مظاهر الآله والتمييز الطبقي من بقية أفراد الشعب ، بل أن ينزل إلى منسوب لا يميزه عن أي مواطن في المدينة سواء من حيث المسكن أم المأكل أم الملبس أم المشرب وأن لا يكون له أي

---

[1] الفكر السياسي في العصور القديمة ص ١٣٤

[1] الفكر السياسي في العصور القديمة

نوع من الملكية الخاصة . و لكن على ما يبدو فإن أفلاطون لم يوفق في كل طروحاته هذه التي تجلت في مدينته الفاضلة المثالية وبقيت هذه الطروحات عبارة عن مجرد آراء نظرية غير قابلة للتطبيق ولا مكان لها في الحياة العلمية السياسية والشائكة . و لعل هذا الأمر بخاصة يفسر لنا صدام أفلاطون مع الملكين ديونيسوس الأب والابن في سرقوصة وقيامهما بسجنه وبيعه في سوق العبيد والنخاسة كعبد غير مأجور وبالرغم من كونهما قد طلباه أكثر من مرة للقدوم إليها والعمل كمستشار في البلاط الملكي في سراقوصة ودفعا المال الكثير من أجل ذلك . إذ لا يعقل أن يقدم ملك على استقدام فيلسوف بارع ومحنك مثل افلاطون ويدفع له الكثير إلا إذا كان يعرفه حق المعرفة ، و من غير المعقول أن يصطدم به بعد كل هذا إلا من أجل أمر جوهري ومحدد ويهدد وجوده هو نفسه أو بتعبير آخر يهدد وجود الحكمة السلطانية القائمة ، وذلك على ما يبدو تجلى في الشروط القاسية المثالية التي وضعها أفلاطون لتحقيق العلاقة المثلى بين الحكمة السلطانية والحكمة الإلهية وذلك عندما اشترط على الحكمة السلطانية التي تتحلى بصفتين هما الفضيلة والعدل وعلى الملك أن يتخلى عن كل المظاهر والأدوات التي تميزه عن غيره من أفراد الشعب .

و لكن وفي الواقع فإن هذين الشرطين المستحيلين ، كانا كافيين لضرب أية حكمة سلطانية وتجريدها من مقومات وعوامل وجودها وبقائها كافة . و السبب في ذلك يعود إلى أن إضفاء صفتي العدل و الفضيلة على مفهوم الحكمة يعني تقليص إمكانية المناورة لدى هذه الحكمة إلى الحدود الدنيا وبالتالي ستفقد هذه الحكمة ميزتها كحكمة لأنه قد يكون من الحكمة أحياناً عدم استخدام الفضيلة أو من الحكمة عدم تطبيق العدل و بخاصة في مجال السياسة وفضلاً عن ذلك فإن أفلاطون قد جرد أصحاب الحكمة السلطانية من معظم صلاحياتهم السياسية الاعتبارية وكذلك قلص مجال المناورة عندهم إلى أدنى حدوده عندما جعلهم مواطنين عاديين ، بل أدنى من ذلك ، أي ليس لهم حق الملكية أو التفرد عن الغير وبالتالي فقد جرد الحكمة السلطانية من هيبتها ولذلك فقد كانت كل آرائه حول مدينته الفاضلة المثالية بالنسبة إلى الملوك والحكام هي مغامرة خطرة غير مأمونة الجانب بحال من الأحوال .

لقد تطرق أفلاطون في تقييمه الحكمة السلطانية إلى حد جعلها خارج نطاق الواقع والمألوف وجعلها أقرب إلى الحكمة المثالية التي ربما تخيلها في عالم المثل ولعلنا لا نفاجأ بعد ذلك إذا علمنا أن أفلاطون في أواخر حياته كان قد أعاد النظر في مفهوم مدينته الفاضلة .

إننا نتساءل هنا هل لنا أن نوجه العتاب و اللوم إلى الحكم السلطانية التي أعدمت سقراط وباعت أفلاطون عبداً في سوق النخاسة ؟؟ ربما قد لا نستطيع فعل شيء من هذا القبيل لأنه من غير المعقول أن تقوم أية حكمة سلطانية ما بالادعاء أنها وصلت إلى نتيجة مفادها أنها الآن عرفت

أنها لا تعرف شيئاً ولا يمكن لحكمة السلطانية ما أن تقوم بتطبيق الفضيلة والعدل كاملين غير منقوصين و لكن يمكنها إدعاء ذلك . ولهذا فقد أجرى أفلاطون في أواخر سني عمره تعديلاً على مفهوم المدينة والفاضلة واستبداله بمفهوم احترام وتطبيق القانون . وبالرغم من اعتماد سقراط وأفلاطون على مفهوم الآلهة والقبول به لا بل و عده أساساً وسبباً رئيساً في وجود أي نظام مجتمعي سياسي فإن ذلك لم يشفع لهما لدى الحكم السلطانية لأن هذين الفيلسوفين وبكل بساطة قد فصلا مفهوم الحكمة السلطانية عن مفهوم الحكمة الإلهية .

المشكلة الثانية التي وقع فيها أفلاطون في صراعه مع الحكمة السلطانية التقليدية هي أنه قد حدد كل شيء سلفاً سواء في المجال السياسي أم الاجتماعي بدءاً من طريقة مأكل وملبس الحكام وعدد أعضاء مجلس الحكم و كيفية عملهم وانتهاء بولادة الأطفال بتربيتهم ، لا بل وصل به الأمر إلى القول (إن الدولة هي التي تقرر أي الآلهة تعبد وكيف ومتى تعبد وكل من يتردد في الخضوع لهذا الدين الرسمي يسجن فإن أصر على عدم الخضوع له يقتل) وقد علق ديورانت على ذلك بالقول إنه كان من الأفضل لأفلاطون أن يموت قبل أن يوجه هذه التهمة لسقراط وأن يمهد هذا التمهيد لجميع محاكم التفتيش في المستقبل وأنه انتهى في آخر الأمر كرجل يقمع كل تفكير حر ويعتقد بأن الفلسفة يجب أن يقضى عليها لكي يعيش الانسان ولو أن مدينته الفاضلة تحققت فعلاً لكن هو أول ضحاياها.[1] وفي ذلك لم يعد هناك مغزى أو فائدة من وجود مفهوم الحكمة لأن كل شيء في السياسة و المجتمع قد حدد سلفاً وبالتالي فأين ستجد هذه الحكمة السلطانية مجالها لتبدع وتبرع فيه ؟؟ هذه المسائل الفكرية جميعها حاول أرسطو تلميذ أفلاطون تلافيها.

أرسطو :

ولد ارسطو في شمال اليونان بمدينة تسمى (ستاكيرا) وكان أبوه الطبيب الخاص لأمينتاس الثاني والد الملك فيليب ملك مقدونية وكان أرسطوا قد تلقى بعضاً من علومه وهو صغير على يد أبيه وعندما شب عن الطوق أرسله أبوه إلى أفلاطون ليتعلم منه .

كان أرسطو قد تعلم عن والده العلوم التشريعية الطبيعية أما عند أفلاطون فقد تعلم العلوم الفلسفية وهنا يقول ديورانت إنه برزت لدى أرسطو من جراء ذلك نزعتان نزعة صوفية و أخرى مادية طبيعية وهاتان النزعتان بدا أنهما قد أخذتا حيزاً قوياً في عقل وذهن أرسطو ومثلا نقيضين مختلفتين لازما أرسطو بعامة في طروحاته وأفكاره . و كان أرسطو مثار إعجاب واهتمام أستاذه

[1] قصة الحضارة المجلد ص ٤٩١

أفلاطون الذي كان في الوقت نفسه مثار إعجاب و اهتمام تلميذه . و لذلك فعندما مات أفلاطون شيد له أرسطو مقاماً وكرمه تكريماً عظيماً وصل به إلى حد الآلهة .

بعد موت أفلاطون ذهب أرسطو إلى الملك هرمياس حاكم مدينة أسوس وتزوج من ابنته بيثياس . ولكن بعد اغتيال الفرس للملك هرمياس غادر أرسطو مع زوجته ابنة الملك إلى مدينة لسيوس حيث قضى فيها فترة وبعدها أرسل إليه الملك فيليب ملك مقدونية ودعاه ليقوم بتعليم ابنه الاسكندر ، فارتحل إلى مقدونية وأقام فيها حوالي أربع سنوات و هويقوم بتعليم الاسكندر . ثم طلب منه الملك فيليب الإشراف على إعادة بناء مدينة اسطرخوس التي دمرتها الحرب وبعد أن أعاد أرسطو بناء المدينة طلب إليه الملك فيليب أن يضع القوانين والشرائع لهذه المدينة ويقول ديورانت هنا إنه قام بهذه الأعمال كلها خير قيام وبشكل أرضى أهل المدينة ، فأخذت منذ ذلك الحين تحيي ذكرى هذا التعمير بإقامة عيد له في كل عام . بعد ذلك عاد أرسطو إلى أثينة وأنشأ فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة والأخلاق والشؤون السياسية وأنشأ فيها حديقة للحيوان ومتحفاً للتاريخ الطبيعي . و لكن بعد وفاة الاسكندر وانقلاب أثينا ضد المقدونيين قام خصوم الاسكندر بمحاولة تصفية حسابهم مع أرسطوا وتكرار العملية نفسها التي حصلت مع سقراط فوجهوا له تهمة الزندقة وطلبوا محاكمته على أساس هذه التهمة ففر إلى خارج أثينا إلى (إليكيس) حيث مات بعد فترة . و قد ميزت أرسطو صفة جميلة تدل على اهتمامه بالتعليم وهي أنه كان أحياناً يؤلف الكتب ويهديها لأشخاص معينين ولغاية معينة كما فعل مع ابنه نيقوماخوس الذي أنجبمن زوجته الثانية وأهداه كتابه باسم الاخلاق كما ألف كتابين واحد في فن الحكم والآخر في الاستعمار أهداهما إلى تلميذه الاسكندر المقدوني .

يعد أرسطو أعظم فلاسفة اليونان ويتميز بأن فكره وفلسفته ومؤلفاته لا يزال يعمل بها إلى الآن وكانت الأساس الذي قامت عليه فلسفات أخرى لاحقة منها الفلسفة المسيحية والإسلامية وقد أطلق عليه لقب المعلم الاول و السبب في ذلك هو أنه كان أول من اتبع أسلوب التخصيص والمنهجة في بحوثه كافة وأضفى عليها شيئاً من الطابع العلمي العقلي البحت أو أسلوب الأدلة أو إثبات الدليل للوصول إلى صحة الشيء المراد بحثه أو نفيه أو إثبات عدم صحته وهذا ما يعرف بعلم المنطق ... المنطق الذي يختلف عن الجدل والروحانيات في التفسير . وقد ترجمت كتابات أرسطو إلى العديد من اللغات العلمية ومنها اللغة العربية وذلك منذ قرون عدة . و فضلاً عن ذلك فإن أرسطو تميز فكره عن فكر الفيلسوفين السابقين سقراط وأفلاطون في أنه كان يعتمد في بحثه على المراقبة والمشاهدة والتجربة على عكس سقراط و أفلاطون اللذين كانا أحياناً يلجأان إلى الماورائيات أو الروحانيات المجردة لتبرير بعض الحوادث والأمور أو إلى المثاليات كما

فعل أفلاطون . ليس ذلك فقط بل إن أرسطو اراد لنهاية بحثه وملاحظاته ودراسته لمفهوم أو أمر ما ، أن تصل إلى ما يسمى باليقين أي الوصول في النهاية إلى قناعة عقلية منطقية ثابتة في الحكم على قضية ما سواء بالإثبات أ م النفي أم الوصف ..الخ . وقد اتبع أرسطو طريقة أسلافه و بخاصة أفلاطون بالجمع بين العلوم السابقة كافة ، المتأتية من حضارات عدة واستخلاص الصحيح و المنطقي فيها وتطعيمه بنظرياته وآرائه وأفكاره وطريقته في البحث . فقد عد أرسطو أنه دون وجود المنطق لا يمكن الوصول لأية نتيجة صحيحة يمكن الاطمئنان لها ، و أية قضية لا تحوي في طيات بحثها ودراستها أسساً منطقية ، لا يجوز التسليم بها . ولعلنا قد لا نفاجأ بعد ذلك إذا علمنا أن أرسطو قد وجه " أولى انتقاداته الفلسفية إلى نظرية المثل عند أستاذه افلاطون والتي كان قد بدأ بها في المرحلة الانتقالية من كتابه حيث لم يجد فيها أرسطو الطريق الموصل إلى المعرفة الحقيقة ، بل وجد أنه يتوجب من أجل الوصول إلى هذه المعرفة اتباع منهج علم المنطق الذي يدل على أن المعرفة تنبع من الواقع المادي الواقعي الفعلي ولا تكمن في الفكر المفارق له[1] .

الدين والروحانيات عند أرسطو :

إن أرسطو في دراسته للنفس البشرية بعامة يتحرر قليلاً من قيود العلم والمنطق ويتجه نحو الروحانيات وهو هنا ينظر إلى النفس البشرية على أنها الصورة الفطرية المقدرة لهذا الإنسان و قد قسم النفس الانسانية إلى ثلاث فئات أو درجات وهي نفس نامية ونفس حاسة ونفس ناطقة فقد عد أن النبات و الحيوان والانسان جميعهم يشتركون في النفس النامية التي تنمو مع نمو الجسد أو الجسم ، أما النفس الحاسة فيشترك فيها الانسان و الحيوان فقط ، حيث إن الحيوان لديه بشكل ما القدرة على التفكير البدائي وذلك بتعريفه للنفس الانسانية فيما يواجه إعاقة في الطبيعة . أما النفس الناطقة أو الفاعلة العاقلة فهي بحسب أرسطو سمة يتميز بها الانسان وحده فحسب مقارنة مع بقية الكائنات الحية ، و هذه النفس بخاصة عدها أرسطو منبعثة من قوة الكون الخالقة العاقلة وهي الله . و تبعاً لذلك فإن هذه النفس لا تموت بل تبقى حية . و قد عد ارسطوا أن الله هو صورة العالم وحقيقته الفعلية مثلما أن الروح هي صورة لجسم الإنسان وقال أرسطو أيضاً بأن كل علة تحدث في الأرض تعود بشكل أو بآخر إلى العلة الأولى التي لا علة لها وكل الحركات ايضاً ترجع في النهاية إلى المحرك الأول الذي لا محرك له وهو الله . و الله ليس هو خالق العالم المادي بل هو

[1] الفكر السياسي في العصور القديمة ص٢١١

صورته وهو لا يحرك هذا العالم بقدر ما يوجهه وهو حسب أرسطو يحركه كما يحرك الحب الحبيب[٢] .

و يتابع أرسطو القول إن الله فكر خالص وروح عاقل يتبدى في الصورة السريرية التي تكون جوهر العالم والله في وقت واحد . و هنا نلحظ أن أرسطو يقترب شيئاً ما من مفهوم أستاذه أفلاطون حول الفضلية وأنواعها حين قسمها إلى أربعة أنواع [٣] كما نلحظ أنه يقترب أيضاً من مفهوم أستاذه بالنسبة لعالم المثل عندما تحدث عن موضوع الصورة وسوف نجد أيضاً أنه توافق معه عندما تحدث عن مفهوم الأخلاق وقال إن " الطبيعة لا تطلب إلينا أن نشغل أوقاتنا بالأعمال الطيبة فحسب بل تتطلب فوق ذلك أن نكون قادرين على أن نستمتع بفراغنابأشرف الوسائل "[١] وعد أن ثمة لذة في تأمل عمل من أعمال الفن الحقيقية . و من الشواهد الدالة على رقي الحضارة ، أن تقدم للروح أعمالاً خلقية بهذا التأمل .

و بالرغم من كونه قد اعتمد الفضيلة والأخلاق كمنهج عام في الحياة فإن أرسطو لم تكن غايته الأساس وهدفه النهائي أن يجعل الانسان خيراً وينحو إلى الخير ، بل أن يكون سعيداً أو يبحث عن السعادة . و لكنه بالرغم من كل ذلك لا يلغي دور الفضيلة بل يعدها حكمة عملية وهي تقدير الانسان بعقله لما فيه خير وهي في العادة وسط بين نقيضين . فالانسان بحاجة إلى الذكاء لمعرفة هذا الوسط . و لذلك عد أرسطو أفضل الأعمال و أسماها ، العمل الذي تعمله نفس الانسان مع عقله وقال إن أسعد الناس حظاً هو الذي يجمع بين قدر من الرخاء وقدر من العلم والتفكير وهذا الرجل هو أقرب الناس إلى الآلهة .

السياسية عند أرسطو :

لقد نظر أرسطو إلى السياسة من منطلق نظرته العامة إلى المفاهيم وذلك من حيث الغاية التي تحققها ، فعد تبعاً لذلك أن لمفهوم السياسة غاية يجب تحقيقها وهذا الغاية حسب مفهوم ونظرة أرسطو هي تأمين السعادة لأفراد المجتمع ، وهذا الأمر يقع بالدرجة الأولى على عاتق الدولة التي من واجبها ولزاماً عليها أن تقيم هذا المجتمع المنشود لرعاياها ومواطنيها . وقد عد أن

---

[٢] قصة الحضارة المجلد ٧ ص٥٠٦

[٣] نفس المصدر السابق

[١] نفس المصدر السابق

الدولة كمفهوم قابل للتعريف هي " مجموعة من المواطنين ذات عدد كاف لتحقيق جميع أغراض الحياة" [1] .

ونشوء الدولة ككيان ، هو أمر طبيعي بالنسبة لأرسطو ، و السبب بنظره هو أن " الإنسان بطبيعته حيوان سياسي وأنه بشكل غريزي يجتمع ويتعامل مع أفراد بني جنسه " ولكنه عاد وعرف الدول بطريقة قد تدعو إلى الريبة والالتباس حين قال إن " الدولة سابقة بطبيعتها على الأسرة وعلى الفرد " حيث إن الإنسان كما يعرفه أرسطو يولد في مجتمع منظم من قبل ، ويشكله في صورة .. وهذا يعد بنظرنا حاملاً في طياته الكثير من علامات الاستفهام .

لقد انكب أرسطو في فترة من فترات حياته على دراسة أشكال الحكم كلها في بلاد اليونان فخلص اعتماد ثلاثة أشكال من الحكم وهي :

الحكم الملكي - الحكم الارستقراطي - الحكم الديمقراطي أو الجمهوري . وهو في تقسيمه هذا ، لم يفاضل بعامة بين هذه الأنظمة الثلاث بل عد أن لكل منهما إيجابياته وسلبياته التي تحوله إلى نظام آخر وبتسمية أخرى ، و ذلك حسب الحكومة أو السلطة العليا القائمة على هذا النظام والتي هي حسب رأي أرسطو بيت القصد في تحويل أي نظام من هذه الأنظمة من جيد إلى فاسد وبالعكس .

فالنظام الملكي هو نظام جيد إذا قام على العدل والسياسة الصالحة للرعية . و لكنه يتحول إلى نظام ديكتاتوري عندما يسعى الملك إلى تحقيق مصلحته الفردية على حساب مصالح الدولة والرعية ويتجاهل كل مصلحة عامة ، كذلك نظام الحكم الارستقراطي القائم على حكم الأعيان هو نظام حكم إيجابي إذا كانت هذه الأقلية من النخبة الداعية المثقفة والحكيمة في الوقت نفسه بحيث ترعى مصالح العامة كما ترعى مصالحها، ولكنه يتحوي إلى حكم أوليغاركي عندما يتحول هؤلاء الأعيان إلى أقلية في الأغنياء والذين لا يهمهم سوى تحقيق مصالحهم وأرباحهم على حساب مصالح العامة كيفما اتفق الأمر . بينما يكون نظام الحكم الديمقراطي الجمهوري نظاماً جيداً وفاضلاً في حال تم اختيار الحاكم الكفؤ المؤهل للقيادة والمجتمع بفضيلة الأخلاق والعدل . ولكنه يتحول إلى أسوأ أنواع الحكم عندما تتسلط الأكثرية الجاهلة الفقيرة على القيادة بحكم الأصوات وتقدم شخصاً غير مؤهلاً للقيادة ولا يمتلك الخبرة الكافية و إن كانت لديه الفضيلة والمبادئ . وفي هذه الحالة يتحول نظام الحكم إلى حكومة غوغاء ، فتسود الفوضى . و في هذه الأنظمة جميعها كان أرسطو يعد شخصية الحاكم هي التي تلعب الدور الرئيس والأساس في

---

[1] قصة الحضارة- المجلد ٧ ص ٥٠٩

ظهور أحد أشكال أنظمة الحكم تلك ، فكل نظام حكم من هذه الأنظمة الثلاث هو نظام جيد و مثالي إذا كانت السلطة الحاكمية أو الحاكم تعمل للمصلحة العامة قبل مطلحها هي . و الصفة التي يجب أن يتحلى بها هذا الحاكم ليكون مؤهلاً لقيادة المجتمع ويسوسه بالطريقة الناجعة هي الحكمة فالفضيلة والعدل والأخلاق لن تكون كافية لتدبير شؤون الدولة والمجتمع و بخاصة فيما يتعلق بالأزمات الخارجية والعلاقات مع الجوار بل أكثر اختصاصها يعود إلى تأمين حقوق الأفراد بشكل سليم وعادل ، بينما الحكمة تبحث في تطبيق الحل الأمثل والأفضل والأضمن لأمن الدولة والمجتمع سواء من الناحية الخارجية أم الداخلية ولذلك فإن الحكمة حسب منظور أرسطو لن تتوضع في الأشخاص العاديين أو الذين لا يمكنهم أن يتحصلوا عليها بسبب ظروفهم المادية والمهنية والتي قد تمنعهم من ذلك حيث إن الحكم " يتطلب كفاية خاصة ودراية خاصة وليس في مقدور من يعيش عيشة الصالح البسيط أو الخادم الأجير أن يحصل على التفوق المطلوب "[1] فالناس بنظر أرسطو غير متساويين وهو يقول في هذا الصدد إن "العدل في ا لمساواة " ، ولكن هذا لا يكون إلا بين الأكفاء " وكما أن الطبقة الشعبية قد تتمرد وتثور إذا كان هناك تطرف في عدم المساواة على درجة كبيرة لا تحتمل ، فكذلك الطبقة العليا قد تفعل الشيء نفسه إذا تم فرض مساواة شاملة بشكل غير معقول وغير منضبط . و أرسطو في كل كلامه هذا كان يروم الاعتدال والحل الوسط أو السياسة المعتدلة .

و في تناوله لمفهوم الطبقات الاجتماعية في المجتمع عد أرسطو أن الطبقة المتوسط هي أوفر الطبقات حظاً للعب دور صمام الأمان والاستقرار في المجتمع وكلما كانت هذه الطبقة موجودة بقوة في المجتمع وتحظى بجميع حقوقها ومستلزمات وجودها ، كان المجتمع محافظاً على استقراره ومحصناً من الثورات والاضطرابات التي يمكن أن تنشأ فيه وتحاول تغييره أو تغيير نظام الدولة وشكل الحكومة . و طبقاً لذلك فإن على كل حكم يقوم أن يراعي وضع الطبقة الوسطى في المجتمع .

وفي غمره وصفه وتقسيمه لأراضي الدولة أو المدينة وطريقة توزيعهبالشكل الأمثل ، لحظ أرسطو مكاناً للآلهة في ذلك فهو عندما قسم حسب منظوره أراضي الدولة (نظرياً)إلى جز أين ، جزء خاص بالدولة وجزء خاص بالأفراد ، قسم الجزء الخاص بالدولة إلى جز أين خصص أحدهما كوقف لخدمة الآلهة .

من الواضح عند قراءة كتابات ومؤلفات أرسطو أنه كان بشكل من الأشكال يسير على منهج أستاذه أفلاطون وعلى منهج معلم أستاذ ه سقراط وإن كان قد اختلف معها بقوة في أمور معينة

---

[1] المصدر السابق ص ٥١١

ولكن يبقى ذلك في التفاصيل وليس في الخطوط العريضة . لقد كانت غاية أرسطو الأساس هي تأطير العلاقة بين الأمر الديني والأمر السياسي في مجال واحد يخرج به إلى إيجاد دولة على غرار الجمهورية المثالية لأفلاطون ولكنها تختلف عنها بكونها نموذجية وليست مثالية وتأخذ بعين الاعتبار الواقع المادي والسياسي الملموس ، وكونها أكثر مرونة لناحية أشكال الحكم والسلطة وعلاقة هذه السلطة مع مواضيعها .

لقد بدت الحكمة الإلهية في رؤية ونظرة أرسطو وكتاباته ، كأنها لا تتجلى وتتضح غاياتها إلا من خلال العقل البشري وفي سياق ذلك كله كانت العلاقة بين الحكمة الإلهية والحكمة السلطانية هي نتيجة لمبادرة من الحكمة السلطانية أو البشرية نفسها فلا يمكن الوصول إلى الله أو الاقتراب من إرادة الله إلا بمبادرة من الإنسان نفسه وذلك على عكس مفهوم العلاقة بين الحكمة الإلهية والحكمة السلطانية في الحضارات الفينيقية أو البابلية أو المصرية التي كانت المبادرة فيها من قبل الحكمة الإلهية أي أن كل أشكال الحكم والتسلط (بمعنى السلطة) والسياسة الحاكمة البشرية هي حتماً نتاج حكمة إلهية أرادتها وقررتها وجعلت الحاكم إما إلهاً و إما نصف أو جزء إله و إما مشتقاً من الآلهة برابطة النسبة والقرابة ، أو مكلفاًمن قبلها مباشر ةمع الانتباه إلى أن ذ لك كله كان بإعلان رسمي وتصميم من قبل السلطة الحاكمة أي الحكمة السلطانية . إنما ماهو مدى مصداقية هذا الأمر فذلك ما لا يمكن الحزم والبت فيه بدقة . بينما في الحضارة الإغريقية عامة ولدى أساطين الفلسفة الإغريقية الثلاث سقراط وأفلاطون وأرسطو ،جاء الأمر معكوساً تماماً فالعلاقة بين الحكمة الإلهية والحكمة السلطانية جاءت بمبادرة من الإنسان نفسه ، الإنسان العاقل الفيلسوف أو الحاكم . أي أنه على الحكمة السلطانية أن تبحث هي نفسها عن أهداف وغايات الحكمة الإلهيةلكن هذه المرة عن طريق المنهج العقلي المنطقي السليم وفي الوقت نفسه أن تحتفظ لنفسها بمسافة أمان كافية تفصلها عن الحكمة الإلهية ، بحيث لا تنسلخ عن الآلهة كلياً يجعلها تخرج عن حدود المنطق في وجود الآلهة المحركة لهذا الكون ، و لا أن تندمج معها في مفهوم وإطار واحد يجعلها أيضاً وفي الوقت نفسه تخرج عن حدود المنطق والعقل في تقبل أمر لم يعد ممكناً لرأي إنسان عاقل يعايش الأحداث السياسية الاجتماعية الحاصلة في تلك المنطقة .

قد كان أرسطو في قمة روحانياته الدينية يضع العقل والمنطق أساساً لـ لبحث والتدبير للوصول إلى يقين عقلي تطمئن إليه العقول . وعندما عد أن الله صورة العالم والكون أجمع فإنه وضع بذلك حداً للتعامل مع الحكمة الإلهية والأمر الإلهي حتى في مبادرة الحكمة السلطانية في التعرف على غاية هذه الحكمة الإلهية لأن هذا الثبات الفكري الفلسفي المتمثل بسقراط وأفلاطون وأرسطو وبخاصة أفلاطون وأرسطو كان يمثل رأس الحكمة السلطانية الفكرية في اليونان القديمة

وذلك بوصفهم قد قدموا الحلول والتصورات المثالية والناجعة بنظرهم ، حول كيفية الحكم وأشكاله و بكون هذه الحكم السلطانية الفكرية قد وضعت حداً صارماً وواضحاً للعلاقة بين السلطة الحاكمة وبين الآلهة تتميز بتقديم فروض الطاعة الدينية الشكلية للآلهة مهما كانت وفصلها عن أي أمر سياسي أي فصل الدين عن الدولة . وهذا على ما يبدو لم يرق للحكمة السلطانية التقليدية صاحبة السيادة الحقيقية والقرار الفعلي فدخلت في صراع مع هذه الحكمة السلطانية الفكرية منعتها فيه من أن تتبوأ موقع القرار العسكري ومنعتها من التحول إلى مراكز قوى حقيقية تشكل تهديداً مباشراً لها ، بالرغم من محاولة الحكمة السلطانية الفكرية التقرب من الحكمة السلطانية الكلاسيكية والتأثير فيها فكرياً كما في حالة أفلاطون مع ملكي سراقوسة وحالة أرسطو مع الإسكندر الأكبر .

و يبدو والحالة هذه أن الحكمة السلطانية الكلاسيكية كانت أكثر حكمة من نظرتيها الفكرية في الحفاظ إلى مصالحها وعوامل وجودها وبقائها وبالرغم من أن أرسطو قد وضع الحلول السياسية الناجعة للحكام في كيفية قيادة المجتمعات والممالك ووضعه مؤلفات ومصنفات كاملة حول السياسة ومن الحكم وبالرغم من ابتعاده ونأيه بنفسه بعض الشيء عن سلفيه السابقين سقراط و أفلاطون ، بكونه كان أكثر واقعية و سياسة في أفكاره و نظرياته حول السياسة و المجتمع و أشكال الحكم ، فإنه لم يفلح في استمالة الحكام و السياسيين التقليديين إلى آرائه و أفكاره تلك و لم يفلح في وضعها حيز التنفيذ كما هي بحذافيرها . فالحكمة السلطانية التقليدية الإغريقية ، كان لديها خط عام عريض ورثته عن أسلافها المصريين و البابليين و الفينيقيين ، و هو أنه لا بد لها من أن تربط نفسها مع الحكمة الإلهية التقليدية بشكل أو بآخر . فحتى الإسكندر المقدوني الكبير ، و بالرغم من تتلمذه على يد أرسطو و احترامه و تبجيله المنقطع النظير له ، فإنه سلك لنفسه في الحكم و السياسة خصوصية و مجالاً خاصين به .

إن هذه القضية لتجعلنا نطرح على أنفسنا سؤالاً و هو لماذا نجح أساطين الفلسفة اليونانية في آرائهم و أفكارهم و نظرياتهم العلمية و الفلسفية و الفكرية كلها ، و لكنهم لم يستطيعوا فرض آرائهم و نظرياتهم السياسية الخاصة بهم بالرغم من تقدير اليونانيين لهم عامة و تبجيلهم و احترامهم لمجمل أفكارهم و فلسفاتهم تلك ؟؟!! الجواب برأينا هو أنهم كانوا يصطدمون بمحصلة آراء و أفكار و نظريات تراكمت على مدى قرون عدة و شكلت جداراً بيتونياً مسلحاً و صلباً ، بحيث أصبح لا ينفع معها فكر و لا فلسفة ، مهما بلغت من قوة الإقناع و المنطق . و لذلك لم يكن بالإمكان تغيير و تعديل كل هذه التراكمات الصلبة إلا بالفعل المادي الملموس و القوة ا لعسكرية

صاحبة الإكراه القسري . و هذا ما حصل بالفعل مع مجيء أول فاتح تاريخي كبير في العالم و هو الإسكندر الأكبر .

الاسكندر المقدوني الكبير

التاريخ دائماً تحركه الأحداث و تصبغه بمجرياتها . و لكن الأحداث الكبيرة و الخطيرة التي لا تأتي دائماً ، هي التي تحول مجرى هذا التاريخ .

إن القارئ لسيرة و حياة الاسكندر المقدوني ، و المطلع على فتوحاته و أعماله ، يدرك بما لا يدع مجالاً للشك أن الاسكندر هو أول من أرسى دعائم العولمة في العالم .

لقد كانت فتوحات الاسكندر حركة غيرت مجرى التاريخ ، و بداية لظهور و تشكيل الامبراطوريات العالمية الضخمة التي كانت حالة طارئة جديدة في تاريخ البشرية ، و أسست لنظام عالمي جديد .

إن الآراء و النظريات الفلسفية سواء الفكرية و السياسية ، نادراً ما وجدت لنفسها سبيلاً إلى تغيير نظام عالمي أو إقليمي ، لأنها عامة كانت تصطدم مع مراكز قوى متأصلة و لها جذورها الفكرية و الدينية الممتدة عبر عقود طويلة من الزمن ، تقودها حكم سلطانية عتيقة محنكة ورثت كماً هائلاً من تراكم الخبرات السياسية و الدينية و التي صقلتها تجارب الحياة اليومية . و بخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار مفهوم الآلهة و العامل الديني القوي الموجود في وجدان العوام من الناس و التي ربطت هذه الحكم السلطانية نفسها به مباشرة عبر أجيال و قرون عدة بحيث شكلت بذلك حالة طبيعية و منطقية و بديهية في عقول الناس ، وقلعة منيعة ، فكرياً و مادياً و اعتبارياً ، لا يمكن اختراقها إلا بالقصف و التدمير المادي .

إن نتاج التراكم الفكري هذا ذي البعدين الديني و السياسي الذي بنته الحكم السلطانية التقليدية على قرون عدة و المتمثل بنظام المدينة أو المملكة الخاضعة لإله معين ، قد تحول إلى حالة عامة شاملة في مختلف الأصقاع لأنه بدأ بهذا النمط منذ تشكل أول حكمة سلطانية في العالم ، ثم انتشر كدائرة جغرافية متسعة باطراد ، و ذلك لسبب منطقي بسيط و هو أنه لا يمكن أن يخطر في بال أي إنسان وعى الأمر السياسي و الاجتماعي في بدايته ، أن يفكر بالإمبرطوريات العالمية ، بل حتى بنظام المجتمع و المدينة . و تبعاً لذلك لم يكن بالإمكان التفكير في نظام يحل كبديل له . و لهذا السبب كانت جميع النظريات الفلسفية السياسية يتم طرحها و تداولها ضمن بوتقة و إطار هذا النظام السياسي الكلاسيكي و منها نظريات سقراط و إفلاطون و أرسطو . حتى جاء الإسكندر المقدوني فقلب كل هذا رأساً على عقب ، و هيأ المجال و الأسباب لنشوء حضارات و دول و أنظمة سياسية جديدة .

ولد الإسكندر حوالي سنة / ٣٥٤ / قبل الميلاد في بلاط والده الملك فيليب ملك مقدونية ، في مرحلة تاريخية كان فيها نظام المدينة – الدولة في اليونان على أشده ، و كانت الحروب و النزاعات بين المدن اليونانية متفاقمة لسيطرة بعضها على بعض . و منذ نعومة أظفاره ، اهتم به والده الملك فيليب اهتماماً بالغاً ، فعهد به إلى أحد المربين و اسمه ليونداس فقام بتربيته تربية رياضية و بدنية صارمة و بعدها عهد به أبوه إلى أحد الأدباء و اسمه ليسموخوس ليتعلم منه الأدب و الشعر . و عندما استوى عوده و شب عن الطوق ، استدعى الملك فيليب صديقه الفيلسوف اليوناني أرسطو إلى مقدونية و طلب منه تعليم الاسكندر العلوم الفلسفية و الفكرية و السياسية كافة ، فبقي تحت يد أرسطو بضعاً من السنين نجح أرسطو خلالها نجاحاً باهراً في تعليمه . و لذلك لم يبلغ الاسكندر العقد الثاني من عمره حتى كان عنوان الرجل المثالي في كل شيء ، و حسب رواية ديورانت[١] فإنه كان يجيد كل ضروب الألعاب الرياضية . و كان عدّاء سريعاً و فارساً جريئاً و مبارزاً ماهراً . و كان يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة . و كانت لديه قدرات حربية و جسمانية هائلة . فكان ينزل من مركبته ثم يصعد إليها و هي تجري بأقصى سرعة لها . و كان في الصيد يواجه السباع و الوحوش الضارية بمفرده ، فوصل إلى درجة قال فيها أبوه الملك فيليب ذات مرة مخاطباً إياه " أي بني إن مقدونية لا تتسع لك فابحث لنفسك عن مملكة أوسع منها و أجدر بك "[١] . و يبدو أن هذا الكلام كما قيل ، كان نبوءة صدقت فيما بعد .

و بالرغم من كل تلك المهارات و القدرات القتالية الحربية ، فإن فلسفة و أخلاق أرسطو ، كانت تلقي بظلالها عليه ، فكان مثالاً للأخلاق الرفيعة السامية . و قد قال مرة لبعض الأمراء و ذوي المراتب العالية في المجتمع " عجيب أمركم كيف لم تدلكم تجاربكم على أن من يعملون ينامون نوماً أعمق من نوم من يعمل لهم غيرهم و هل لا تزالون بحاجة إلى من يدلكم على أعظم ما نحتاجه بعد انتصارنا هو أن نتجنب الرذائل و أسباب الضعف التي كان يتصف بها من غلبناهم على أمرهم "[٢] . كان الإسكندر يعتمد الفضيلة في الأمور الجنسية و الأخلاق العامة . و كان يتمتع بشهامة و عفة في هذا المجال حيث جاءه رجاله ذات مرة بامرأة جميلة حسناء إلى خيمته في منتصف الليل ، و عندما سألها عن سبب تأخرها إلى هذا الوقت أجابته بأنه كان عليها الانتظار حتى ينام زوجها ، فصرفها الاسكندر من فوره و عنف رجاله قائلاً لهم إنه ليس رجلاً زانياً . و كان في صداقته وفياً مخلصاً فضلاً عن اشتهاره بالصفح و العفو . و قد بلغ اشتهاره بالنبل و الأخلاق أن أعداءه كانوا يلقون بأنفسهم أسرى بين يديه . و فضلاً عن ذلك فقد كان

---

[١] قصة الحضارة ، المجلد /٧/ ، ص/٥١٦/ .

[١] المصدر السابق .

[٢] المصدر السابق .

شغوفاً بالدراسة و القراءة . و كان في قرارة نفسه يتمنى أن يكون مفكراً . و قد قال عنه الفيلسوف فلوطرخس أنه " كان شديد الشغف بالعلم شغفاً يزداد على مر الأيام . وكان مولعاً بجميع أنواع المعارف محباً لقراءة جميع أنواع الكتب . و كان من أسباب سروره بعد أن يقضي يومه في الحرب و القتال ، أن يسهر إلى منتصف الليل ليتحدث إلى العلماء " . و قد قال ذات مرة مخاطباً أستاذه أرسطو في رسالة وجهها إليه " خير لي أن أتفوق على غيري في العلوم من ان أتفوق عليهم في اتساع الملك و قوة السلطان " .

تولى الإسكندر العرش بعد مقتل أبيه الملك فيليب في مؤامرة ، و كان في العشرين من عمره . و قد ثارت عليه الممالك التي ضمها والده إلى مقدونية التي هي نفسها حوت بعض الجهات التي كانت تتآمر عليه لعزله أو قتله . فبدأ من مقدونية نفسها كما يقول المثل " الأقربون أولى بالمعروف " قضى على كل حركات التآمر و قتل زعماءها ، ثم اتجه بعدها بخطة و طريقة متواصلة ، كان على ما يبدو قد هيأها القدر أو الحكمة الإلهية ، إلى العمل و هو في أعين خصومه و أعدائه و حتى أصدقائه ، شاباً مراهقاً لا يمكن ان يتأتى منه شيء يذكر ، لا بل يتوقع منه الفشل الذاتي . فاتجه إلى المدن و الممالك التي أعلنت عصيانها فأخضعها واحدة تلو الأخرى و قضى على كل مظاهر العصيان فيها ، ثم اتجه إلى أثينة التي هادنته على الفور و أعلنت تقربها منه ، ففتحها لتخضع له بعدها جميع مناطق اليونان ما عدا إسبرطة ثم اتجه بعد ذلك بسرعة هائلة إلى آسية الوسطى حيث وصل إلى نهر الدانوب و تابع تقدمه حتى وصل إلى بلاد الصرب فهزم جيوشهم . و هنا خانت أثينا عهدها معه بعد ترامي الشائعات عن مقتله ، فأعلنت العصيان من جديد و أخذت تتآمر مع الفرس و تحرض المدن المجاورة ضده ، فكان هذا بنظر الإسكندر خيانة عظمى و جريمة لا تغتفر ، فعاد أدراجه إلى بلاد اليونان مرة أخرى و هاجم جيوش المتمردين و هزمها شر هزيمة ثم دخل إلى المدن الثائرة و دمرها و أعمل السيف في رقاب أهلها . و لكن يبدو أن الفضيلة و الأخلاق التي تربى عليها قد فعلت أثرها في نفسه حيث أعلن ندمه فيما بعد عن هذا التصرف الذي نجت بسببه أثينا من التعرض لمصير مماثل لتلك المدن ، حيث لم يكن قد وصلها بعد ، فبقي مع ذلك يظهر محبته و احترامه المعهودين لها و قام بتعويض المدن الأخرى التي بطش بها ، و قال مخاطباً أهل أثينا قولته التي تنم عن قائد عسكري و سياسي يمتلك الكثير من نواصي الحكمة " أيها الأثينيون هل تعلمون أي اخطار أعرض نفسي لها لأكون خليقاً بمجدكم "[٣] .

---

[٣] المصدر السابق .

بعد ذلك أخذ الإسكندر يستعد لغزو آسيا و بلاد فارس ، فالتقى بجيش الفرس الذي بلغ تعداده حوالي ستمئة ألف رجل و كانوا تحت قيادة الملك الفارسي دارا ، و مني جيش الفرس بهزيمة شنعاء فر على أثرها الملك الفارسي دارا تاركاً عائلته و أمواله . و بعد ذلك اتجه الإسكندر إلى سورية حيث دخل مدنها واحدة تلو أخرى و منها دمشق حتى وصل إلى مدينة صور التي قاومته مقاومة عنيفة و كانت تابعة للفينيقيين ، ففتحها و نكل بأهلها ثم تابع زحفه نحو فلسطين فدخلها و فتح مدنها . و قد قاومته غزة بضراوة و لكنها لقيت مصيراً مشابهاً لمصير مدينة صور . و استمر الإسكندر بالزحف حتى وصل إلى مصر حيث لم يلق مقاومة تذكر و رحب به المصريون و أكرموه إكراماً بالغاً وصل إلى درجة أن عده كهنتهم ابن الإله آمون و توجوه فرعوناً مقدساً . و هناك بنى الإسكندر مدينة الإسكندرية التي سميت باسمه و اقام فيها المعابد الدينية التي عبدت فيها آلهة اليونان و المصريين معاً ، ليعود بعد ذلك بجيشه إلى آسية و يلتقي مع الملك الفارسي دارا مرة أخرى . و مرة ثانية يهزم جيش الفرش هزيمة نكراء و يقتل الملك دارا نفسه . دخل الإسكندر على إثر ذلك مدينة بابل و اتبع معها سياسة شبيهة بتلك التي اتبعها في مصر حيث أظهر احترامه و ولاءه لآلهة المدينة . بعدها توغل بجيشه في بلاد فارس و دخل مدنها كلها حتى وصل إلى قصر دارا نفسه و أكمل بعد ذلك توغله ، فهاجم القبائل المتاخمة لدولة فارس من جهة آسيا و أخضعها جميعاً ليبدأ بعد ذلك إكمال بناء إمبراطوريته العظيمة بوصوله إلى جبال هملايا و الالتفاف منها نحو الهند و فتحها و توغله فيها حتى وصل إلى بلاد السند و منها إلى المحيط الهندي حيث أبحر منه و سار بمحاذاة الساحل نحو صحراء روسيا و بلوشستان منشئاً بذلك أعظم إمبراطورية في التاريخ . و خلال فتوحاته هذه كلها ، كان مضرب الأمثال بالشجاعة و البسالة و الفداء و تقديم نفسه لجنوده كمثال القائد الذي يضحي بنفسه من أجل الوصول إلى هدفه . و ربما كان هذا عاملاً حاسماً في رفع معنويات جنوده و استبسالهم في المعركة للفوز و النصر مهما كانت موازين القوى و الكم مختلفة لصالح أعدائهم .

فعندما وصل إلى جبال هملايا و اتجه نحو السند ، كان جنوده قد تعبوا من القتال و ملوه و تقاعسوا عن التقدم في مجاهل بلاد بعيدة في آخر الأرض ، فعاد الإسكندر أدراجه إلى معسكره شاقاً طريقه وسط قبائل معادية له بشجاعة و بسالة لم يملك جنوده حيالها حين رأوها إلا أن يبكوا بحرقة عن تقاعسهم تجاه قائدهم . كذلك الأمر عندما وصل إلى مدينة ماليا العظيمة المنيعة ، ذات الأسوار الهائلة ، فتبرع هو و اثنان فقط من جنوده بالدخول إليها ، وعندما تسلقوا أسوارها ، تحطم السلم الذي صعدوا عليه و وجدوا أنفسهم محاطين بالأعداء من كل جانب ، فحارب الإسكندر و رفيقاه الاثنان بكل بسالة و شجاعة حتى سقط على الأرض مثخناً بجراحه . و في هذه الأثناء كان جيشه قد اقتحم المدينة و أخذ أفراده واحداً بعد الآخر يضحون بحياتهم دفاعاً عن

قائدهم . و عندما انتهت المعركة ، نقل الإسكندر إلى خيمته مثخناً بجراحه البليغة و قضى أشهراً في النقاهة .

إن الذي يطلع على حياة الإسكندر المقدوني و تاريخ فتوحاته منذ بدايتها و حتى نهايتها ، ليقف حيراناً مدهوشاً لا يجد تفسيراً لكل ذلك . و نحن عندما نقرأ سيرة هذا الشخص و حياته من بدايتها إلى نهايتها ، نقف حيارى لا نستطيع أن نقدم تفسيراً منطقياً يستند إلى كل ما أتت به الحكم السلطانية في ذلك العصر ، أو إلى أية نظرية سياسية أو اجتماعية أو تاريخية يمكن صوغها منذ ظهور أشكال الحكم الأولى و حتى ظهور الإسكندر المقدوني . و لا يمكن تفسير ذلك إلا من خلال حكمة إلهية خفية أرادت التغيير و التأسيس لمرحلة ما و نظام ما .

فقد كانت ظاهرة الإسكندر ، ظاهرة مفاجئة مباغتة و دون مقدمات .. حالة منفصلة و معزولة ليس لها أي ارتباط بظروف سياسية أو دينية معينة . و عنصر المباغتة فيها تمثل بأمور أربعة .. أولاً لم يخطر ببال أحد مهما بلغ من الحكمة و الفراسة و الذكاء ، أن فتى مراهقاً لم يتجاوز العشرين من سني عمره و لم تعركه السياسة بعد ، يمكن أن يقوم بهذا العمل الجبار الهائل ، خاصة بعد توليه القيادة و زمام الأمور فجأة إثر مقتل والده الملك فيليب . الأمر الثاني هو أنه قام بفتوحاته تلك كلها ، أيضاً بشكل مفاجئ و دون مقدمات ، بل و منذ استلامه المفاجئ للحكم . الأمر الثالث هو أن تلك الفتوحات كلها منذ بدايتها و حتى نهايتها ، كانت متواصلة من دون انقطاع و من دون أن تفصلها فترات زمنية معينة و ذلك على خلاف كل نظيراتها التي سبقتها من الأحداث العسكرية الحاصلة في الشرق القديم . الأمر الرابع و المهم و الملفت للانتباه هو أن كل تلك المراحل و الأعمال العسكرية و المعارك التي قام بها الإسكندر خلال فتوحاته ، كتب لها النجاح الساحق التام و على امتداد أحد عشر سنة و جلها كانت مع جيوش دول عريقة متمرسة و هو أمر غريب و محير و مثير للاستغراب .

إن استعراضنا لهذه الفتوحات التي نتج عنها قيام إمبراطورية ضخمة هائلة ، و العوامل التي اتصفت بها ، تحدونا إلى القول إن هناك شيئاً غير طبيعي خارج قدرة العقل البشري على تصوره ، كان يحصل . و أن هناك حكمة خارقة غير طبيعية ، هي التي وجهت كل هذه الأحداث ، و أن هذه الحكمة اعتمدت عنصر المباغتة و المفاجأة في هذا المشروع (إذا جازت التسمية) لضمان نجاحه و تحقيق الغاية و الهدف المراد منه . و عنصر المفاجأة و المباغتة ، كان الهدف منه هو ضمان أن لا تقوم أية جهة أو مراكز قوى أو بكل أدق حكمة سلطانية أخرى بتعطيل هذا المشروع و محاولة إيقافه عن طريق التخطيط المسبق ، أي أن هذه الحكمة المجهولة جاءت الحكم السلطانية جميعها من حيث لا يحتسبون ، فاختارت مملكة مقدونية البعيدة عن الأنظار و غير المتربعة على مركز القرار كما هو الحال في أثينا أو إسبرطة ، و اختارت شاباً مغموراً في

سن المراهقة ، بعيداً عن الشبهات في أن يكون له طموح سياسي ، و زجت به في معارك ضارية و فتوحات كبيرة طويلة الأمد و متواصلة دون أي انقطاع ، كي لا تترك المجال لأية حكمة سلطانية أخرى بالتقاط أنفاسها و محاولة تدارك الأمر و الاستفادة من أي ظرف سياسي أو عسكري أو تهيئة أي أمر اجتماعي أو ديني قد يعرقل هذا المشروع . فأوحت إلى الإسكندر أن يحترم كل آلهة البلدان التي يفتحها و يضمها إلى مملكته و بذلك أعطت إبرة مخدرة مسكنة لكل تلك الحكم السلطانية التي كانت عيونها مفتوحة على الأمر الديني أكثر منه على الأمر السياسي و الاجتماعي الذي كان على ما يبدو هو غاية هذه الحكمة المجهولة و الذي قام به الإسكندر المقدوني بكل براعة و إتقان . و حسبنا أن نعرف أن حركة و مشروع الإسكندر هذا ، كان مباغتاً و مفاجئاً حتى على أستاذه أرسطو و الذي هو المعلم الأكبر و فيلسوف اليونان الشهير ، و يبدو ذلك واضحاً من خلال أن أرسطو لم يتطرق في كل كتاباته و نظرياته إلى هذا المشروع الكبير الضخم ، لسبب يعود برأينا إلى أن أرسطو لم يملك من قبل أية معطيات أو تصورات فكرية و فلسفية حول إمكانية قيام إمبراطورية عالمية هائلة مترامية الأطراف . أي بكل بساطة ، كان هذا المشروع فوق قدرات أرسطو التحليلية و التنظيرية ، و لذلك آثر أن يكون متفرجاً شأنه شأن كل المتفرجين على هذا الإعصار و الطوفان المفاجئ الذي ضرب كل هذه المساحات الهائلة .

و إذا نظرنا إلى فتوحات الإسكندر من منظار آخر غير عنصر المفاجأة و المباغتة ، لظهر لنا أن حروب الإسكندر و فتوحاته استهدفت أمرين اثنين ، الأول أنها استهدفت أساساً الدول و الممالك ذات الحضارات السياسية الدينية و هي المملكة الفارسية و أراضي بلاد ما بين النهرين و سورية حيث الحضارة الفينيقية و بلاد مصر ، أي أنها استهدفت مراكز القوى الأساس في العالم أو مراكز ثقل الحكم السلطانية الإقليمية . الأمر الثاني أنها استهدفت العامل الاجتماعي الثقافي و السياسي و تجاهلت بشكل أو بآخر الأمر الديني ، لا بل حابته و سايرته في أحيان كثيرة .

هذه المعطيات السابقة كلها ، لا بد أنها تدل على وجود حكمة ما ، مجهولة و لكنها قوية جداً و مستواها من المؤكد أنه فوق مستوى بقية الحكم السلطانية ، لأنه من المستحيل و غير المنطقي أن يكون هذا المشروع .. هكذا !! .. مصادفة !! . و حول ماهية أو شخصية هذه الحكمة ، لا نملك إلا أن نقول إن هذه الحكمة هي إما حكمة إلهية محضة و إما حكمة قريبة من الآلهة . و هنا فإننا نستبعد أن يكون أرسطو نفسه هو صاحب هذه الحكمة لأنه لا يوجد أي أثر أو دليل في كل آرائه و كتاباته ما يدل على ذلك ، بل على العكس ، كانت كلها حول نظام المدينة بعامة .

و إذا عدنا إلى نظرياته و آرائه حول قيام دولة ما ، لرأينا أن أقصى ما كان يطالب به و يعده مثالياً بنظره لقيام أفضل أنظمة الحكم ، هو مدينة أو مملكة محدودة ، حيث حدد صفات معينة لموقع هذه الدولة النموذجية بنظره ، كأن تكون في موقع يسهل فيه الدفاع عنها و أن يكون

محصناً و في الوقت نفسه يسهل الهجوم منه ، و أن يكون لديها قوة بحرية تستطيع الدفاع عنها و أن تكون العاصمة فيها بحيث يسهل دخول و خروج السكان منها . لا بل إنه تحدث عن وجوب أن يكون عدد سكان هذه الدولة محدوداً و أن يجري إجهاض النساء إذا تجاوز عدد الأولاد حداً معيناً ، و هذا كله ينطبق على مدينة أو مملكة محدودة و ليس على إمبراطورية عالمية هائلة شاسعة مترامية الأطراف و الأصقاع .

و كذلك فإنه يستبعد أن يكون الإسكندر المقدوني شخصياً هو صاحب هذه الحكمة ، لأنه أولاً تلقى معظم علومه و معارفه من أستاذه أرسطو و الذي كما ذكرنا لم يكن يملك أدنى تصور عن كيان و شكل إمبراطورية كبيرة . كما أن سن الإسكندر الصغيرة عند استلامه زمام الحكم و القيادة ، قد تؤهله لخوض المعارك و الحروب ، و لكنها حتماً لا تؤهله لأن يفكر بطريقة و مشروع يحتاج إلى تراكمات سنين طويلة للوصول إلى وضع قواعد و أسس نظرية و فكرية له . لكننا لا نستبعد وجود حكمة ما قد تكون إلهية توحي إليه و توجهه كما كان الحال مع سقراط الذي كان يقول بوجود وحي من السماء يوحي إليه بأفكاره . و الجدير بالذكر هنا هو وجود إشارات للإسكندر المقدوني في الكتب السماوية . ففي التوراة و العهد القديم وجدت بعض الإصحاحات التي تذكره بالاسم و تذكر أعماله و فتوحاته و قوته منها **[إن الإسكندر بن فيليبس المكدوني بعد خروجه من أرض كتيم و إيقاعه بداريوس ملك فارس و ماداي ، ملك مكانه و هو أول من ملك على اليونان]** (سفر المكابيين الأول ١ : ١) . **[فآثروا الإسكندر لأنه بداهم بكلام السلام و بقوا على مناصرته كل الأيام]** (سفر المكابيين الأول ١٠ : ٤٧) . **[و جمع الإسكندر جيوشاً عظيمة و نزل باتجاه ديميتريوس . فانتشب القتال بين الملكين فانهزم جيش ديميتريوس فتعقبه الإسكندر و هجم عليهم]** (المكابيين الأول ١٠ / ٤٨ – ٤٩) . **[ثم بعث الإسكندر رسلاً إلى بطلماوس ملك مصر بهذا الكلام]** (المكابيين ١٠ : ٥١) . **[فلاقاه الإسكندر الملك فأعطاه كلوبطرة ابنته و أقام عرسها في بطليماس على عادة الملوك باحتفال عظيم]** (المكابيين الأول ١٠ : ٥٨) .

و في القرآن الكريم وردت بعض الآيات قيل في التفاسير[1] أنها إشارة إلى الإسكندر المقدوني و هي (**و يسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً _ إنا مكنا له في الأرض و آتيناه من كل شيء سبباً _ فأتبع سبباً _ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة و وجدعندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب و إما أن تتخذ فيهم حسناً**) (الكهف ٨٣ – ٨٦) .

---

[1] انظر تفسير الجلالين و القرطبي و ابن كثير و غيرهم .

نلاحظ من سياق الإصحاحات السابقة ، ذكر الإسكندر المقدوني بالاسم شخصياً و توصيف لقوته و قدراته و فتوحاته و كذلك سياسته و حنكته في التقرب من شعوب الممالك التي فتحها معتبرة إياه ملكاً و ليس نبياً (ربما لأنه ليس من نسل إبراهيم) . بينما آيات القرآن الكريم تحدثت عنه بصفته قد تلقى دعماً مباشراً و غير مباشر من الله و الإيحاء له بكيفية التصرف ، و تنفيذه هو لهذا الإيحاء ، و ذلك من آية (فأتبع سبباً) . كذلك تتحدث هذه الآيات عن قوته و سلطانه و اتساع رقعة مملكته بشكل غير مسبوق و ذلك من عبارة (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) و ربما هو المحيط الهندي الذي وصل إليه أو مكان ما في مصر القديمة .

و في التاريخ العربي نرى أنه كان للإسكندر المقدوني حضور قوي في الثقافة و الأدبيات العربية بوصفه إمبراطوراً فاتحاً يقترب من الأسطورة حيث جاء في أحد الكتب [٢] " في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد شهدت بلاد العرب و خاصة الشمالية منها زحفاً عسكرياً غريباً على رأسه رجل جبار غريب الأطوار هو الإسكندر الكبير الذي قضى بسرعة البرق على الإمبراطورية الفارسية زعيمة بلاد الشرق و استولى على أرض واسعة مؤسساً إمبراطورية يونانية تضم بلاد الرافدين و مصر و الهلال الخصيب و تنفذ من خلال هذه الأرض على البحر الحمر و الخليج العربي و الجزيرة العربية . إن الدراسات تشير إلى أن أول يوناني اتصل بالعرب و كان له علاقات معهم هو الإسكندر الكبير الذي اراد احتلال جزيرة العرب إما طمعاً بالتوسع و إما ليجعل نفسه إلهاً ثالثاً للعرب ، حيث إن العرب كانوا يتعبدون لإلهين هما أورانوس و ديونيسوس بالإضافة إلى جميع الكواكب ، و قد بادر الإسكندر إلى تطبيق هذا المشروع و لكن المنية عاجلته و هو في شرخ شبابه " .

و في الأدبيات السياسية العربية نرى أحد ملوك العرب في الجاهليهو التبع اليماني يـ ترنم الشعر و ينشد قائلاً :

قد كان ذو القرنين قبل مسلماً ملكاً تدين له الملوك و تسجد

بلغ المغارب و المشارق يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد .

هذه الأبيات الشعرية توافق تماماً مدلول الآيات القرآنية السابقة حول الإسكندر و هي هنا توضح بأنه ملك و التوافق واضح بين عبارة القرآن الكريم (آتيناه من كل شيء سبباً فاتبع سبباً) و بين عبارة التبع اليماني (يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد) . و التبع اليماني هذا عاش قبل الإسلام و لم يدركه .

---

[٢] أديان العرب قبل الإسلام .

إن هذه الشهادات كلها ، من العهد القديم و القرآن الكريم و التاريخ و التراث العربي و الأجنبي ، تدل على وجود حكمة قادرة قوية لا يمكن إدراكها ، كانت تقف وراء الإسكندر المقدوني لتحقيق مشروع العالمية . و لعل عبارة التبع اليماني (يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد) تدل دلالة قوية على هذا الأمر . و هذا ما سوف نلاحظه إذا دققنا في أعمال و أفعال الإسكندر المقدوني من منظور الأمر الاجتماعي و الثقافي في البلدان و الممالك الكثيرة التي فتحها . يقول ديورانت في هذا الصدد " إن ارسطو قد علم الإسكندر أن يعامل اليونانيين معاملة الأحرار و أن يعامل البرابرة (أي غير اليونانيين) معاملة العبيد " .

و لكن الإسكندر في دخوله إلى أرض بابل و بلاد فارس ، فوجئ بالحضارة الفكرية التي رآها هناك و حصل لديه نوع من الشك في أقوال أستاذه ارسطو ، و لذلك لم تتحصل لديه القناعة الكافية لتطبيق هذا الكلام ، فقرر أن لا يحكم هذه البلدان بوصفه ملكاً يونانياً أو فاتحاً غازياً ، بل عمل على استرضاء شعوب هذه البلدان و سلمهم مناصب و مواقع هامة في مناطقهم . و يوماً بعد يوم كان إعجابه و احترامه يزداد لرعاياه الجدد ، و بدأ يبتعد عن آراء و نظريات أستاذه أرسطو في الحكم و السياسة شيئاً فشيئاً لأنه أدرك أنه أضحى أمام واقع سياسي جديد و مفاجئ له و يختلف كلياً عما سبق و قرأه أو رآه أو تعلمه في بلاد اليونان و لا ينطبق عليه لا من الناحية النظرية و لا العملية . و لذلك بدأت تراوده الأفكار بالتأسيس لحكمة سلطانية جديدة تحكم هذه الإمبراطورية الهائلة المترامية الأطراف فبدأ بمشروع المزج بين حضارات و ثقافات و ربما أديان شعوب هذه الإمبرطورية ، و منها الشعب اليوناني الذي جعله على قدم المساواة مع تلك الشعوب ، فكان يتزوج من بنات ملوك و رؤساء كهنة تلك البلدان و منهن ابنة دارا ملك الفرس . ليس ذلك فقط بل كان يأمر جنوده بالزواج الرسمي من نساء البلدان المفتوحة فقام بذلك عشرات الآلاف منهم و من اليونانيين . و قيل إنه ذات مرة احتفل بيوم واحد بعشرة آلاف عرس لجنوده و ضباطه و نساء فارسيات و بابليات . و كان الإسكندر يهب كل من يتزوج من جنوده و ضباطه من إمرأة غير يونانية مهوراً عالية . و فضلاً عن ذلك فقد بدأ يشجع الهجرات المتبادلة بين الشعوب التي كان يحكمها و خفف كثيراً من حدة التفاوت بين الطبقات الاجتماعية و عمل على نشر الثقافة اليونانية في كثير من المدن الشرقية حتى قيل إنه جمع ثلاثين ألفاً من شباب الفرس و علمهم الثقافة اليونانية و دربهم على فنون الحرب اليونانية و في الوقت نفسه أعطى من نفسه مثلاً لجنوده و ضباطه باتباع الأساليب و الطرق الشرقية . فكان يمارس كل عادات هذه الشعوب من مأكل و مشرب و ثياب و في هذا الصدد يقول ديورانت إن ذلك كان إما " خطأ وقع فيه لشدة تواضعه أو لعله كان جزءاً من خطة موضوعة " و نحن نرجح الأمر الثاني و في ذلك قال فلوطرخس أيضاً " لعله أراد بذلك أن ييسر تحضير الفرس لأن أكبر ما يؤثر في الناس هو اتباع

عاداتهم و قد اتبع خطاً وسطاً بين الأساليب الفارسية و كيّف عاداته بحيث خلت من التفاخر الذي هو من مميزات الأولين "[1] .

و في الجانب الديني اتبع لنفسه سياسة دينية كنفس الـ سياسة الاجتماعية التي اتبعها مع الشعوب التي خضعت له ، فتقبل فكرة تأليه تلك الشعوب له و جعله إلهاً أو ابن إله . فأشاع بين الناس أنه ابن للإله آمون أو زيوس و غيرهم ، حسب معتقد كل شعب . و برأينا أن اعتبار نفسه إلهاً ، لم يكن عن قناعة منه بذلك الأمر بقدر ما كان غاية سياسية للتعامل مع تلك الشعوب ، أي أنه ساير تلك الحكم السلطانية نوعاً ما في سياساتها لضمان السيطرة عليها و إخضاعها . و قد عد المؤرخان اليونانيان فلوطرخس و أريان " أن الإسكندر قد ألّه نفسه ليتخذ ذلك التأليه وسيلة تيسر له حكم سكان إمبراطوريته المختلفي الأجناس و الذين يؤمنون بالخرافات "[2] و لعله كما قال ديورانت " كان يحس أن مهمة توحيد العالمين المتعاديين تصبح سهلة إذا قبلت الطبقات العليا من أهلها دعوى ربوبيته و عظمته الطبقات الدنيا و قدسته . و لعله قد فكر في أن يتغلب على ما تثيره الأديان المختلفة في الإمبراطورية من نزعة انفصالية بأن ينشر فيها حول شخصيته أسطورة مقدسة و ديناً عاماً تؤمن به جميع شعوب هذه الإمبراطورية "[3].

و قد جاء في إحدى مسرحيات لوشيان اليوناني و اسمها (محاورات الموتى) حوار للإسكندر مع والده الملك فيليب بهذا الشأن حيث يخاطبه الملك فيليب قائلاً " لا تستطيع يا إسكندر أن تنكر أنك ولدي ، و لو أنك كنت ابن آمون لما جاز عليك الموت ، فيجيب الإسكندر قائلاً : لقد كنت طوال الوقت أعرف أنك أبي و لم أقبل قول الوحي إلا لأنني ظننته خطة سياسية صالحة ، ذلك أن البرابرة حين عرفوا أن الذي أمامهم هو إله امتنعوا عن القتال و قد يسر ذلك لي هزيمتهم و فتح بلادهم " .

يوضح سياق الكلام السابق بشكل جلي لا لبس فيه أن الإسكندر قد اعتمد أسلوب الحكم السلطانية الكلاسيكية في المشرق لتمرير مشروعه و سياسته التي يريد بثها في ارجاء إمبرطوريته كافة ، قد كان في قرارة نفسه يعرف سلفاً بطلان الأسس العقائدية التي قامت عليها تلك الحكم السلطانية و العلاقة بينها و بين الحكمة الإلهية . و لكنه و مع ذلك اعتمدها كأساس ربما يكون أولياً في تعامله مع شعوب و عوام تلك الحكم السلطانية لتحقيق الانتصار في معاركه الحربية بأقل التكاليف أولاً ، و لضمان الاستقرار في إمبراطوريته ثانياً ، هذا إذا نظرنا إلى الأمور من منظار الإسكندر نفسه . و تأتي هنا عبارته في رده على أبيه (و لم أقبل قول الوحي إلا لأنني ظننته

---

[1] قصة الحضارة ، المجلد /٧/ ، ص/٥٣٢/ .

[2] المصدر السابق .

[3] المصدر السابق .

خطة سياسية صالحة) لتعطي دلالة واضحة على وجود حكمة خفية كانت تسيّر الإسكندر في فتوحاته و تضع له الخطط و البرامج لإنجاز مشروعها . و حسبنا أن نعرف اليونانيين كانوا يدركون و يعرفون حق المعرفة ان الإسكندر ليس إلهاً أو ابن إله و إنه إنما كان يسير ضمن منهج مناورة سياسية لبسط نفوذه و سلطانه .

اما إذا نظرنا إلى الأمر من منظور الحكم السلطانية التي فاجأها الإسكندر المقدوني في عقر دارها ، فإننا نرجح هنا و بقوة أنها كانت تعرف أن الإسكندر ليس إلهاً أو ابن إله ، كما تعرف هي نفسها أنها ليس ذلك ، و لكنها عندما أدركت عجزها عسكرياً عن مقاومة هذا الغازي الفاتح الذي أتاها من حيث لا تحتسب .. لم يعد أمامها مناص من مهادنته و رأت أن خير سبيل لذلك هو إسباغ صفاتها عليه و جعل حكمته السلطانية المجهولة بنظرها ، مؤاتية و شبيهة بها هي نفسها . و تبعاً لذلك فإننا قد لا نستغرب إذا ما علمنا أن الكهنة المصريين عدوا الإسكندر ابناً للإله آمون بمجرد دخوله أرض مصر . و هنا لا بد من أن نقف مع الآية القرآنية التي جاء فيها (**حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة و وجدعندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب و إما أن تتخذ فيهم حسناً**) لنقول إنها ربما (و نقول ربما) تناولت هذه القضية بالذات ، و المقصود بهؤلاء القوم هم كهنة عين شمس الذين عرضوا عليه لقب ابن الإله آمون و عبارة (إما أن تعذب و إما أن تتخذ فيهم حسناً) هي خيار من الله له بالتصرف حيال هذا الأمر المنكر و المخالف للإرادة الإلهية و الله معروف بالعدل و من غير الممكن أن يطلب العذاب و الرآفة في الوقت نفسه هكذا جزافاً إلا إذا كان هناك أمر يستنكره الله ، و لكن لظرف و مشيئة إلهية خاصة به وحده و لا يعلمها إلا هو ، ترك للإسكندر حرية التصرف وفق تقديراته و ما يحقق النجاح لمشروعه .

من كل ما سبق يتبين لنا أن الحكم السلطانية المشرقية أدركت بخبرتها و تجاربها ، أن هذه الحكمة السلطانية الجديدة و الغريبة عنها و القادمة من بلاد اليونان و حاملة معها الثقافة اليونانية ذات الأفكار الديمقراطية الفلسفية ، قد تحدث تغيرات إيديولوجية و ثقافية لدى شعوبها الخاضعة لسلطانها فكرياً و دينياً . و هي على ما يبدو قد أدركت أن الرهان العسكري بالنسبة لها هو رهان خاسر سلفاً و لذلك رأت أن أفضل وسيلة للتعامل مع هذه الحكمة السلطانية الوافدة هو تحويرها و صبغها بصفاتها ، فتضمن على الأقل بقاء الوضع الإيديولوجي بمختلف جوانبه و خاصة الديني منه ، على حاله ، لأن الأمر الديني بنظرها هو أهم و أخطر من أي أمر آخر ، سواء السياسي أو الاجتماعي اللذان إذا تبدلا أو تغيرا ، فإنه يمكن استرجاعهما بواسطة الأمر الديني نفسه الذي يعد بالنسبة لهذا الحكم السلطانية المخزون الرئيس لكل التراث الثقافي و الفكر السياسي و الاجتماعي ، بينما إذا تبدل الأمر الديني أو تم إلغاؤه من قبل الأفكار اليونانية الديمقراطية و غير المتحمسة

للدين و لمفهوم الآلهة ، فسوف يذهب كل شيء و لا يمكن استرجاع أية ثقافة أو مفهوم آخر . و سيكون لزاماً على هذه الحكم السلطانية الزوال و في أحسن الأحوال ، التضاؤل إلى حد التهميش و الشلل التام .

و لهذا فإن الحكم السلطانية الكلاسيكية كانت تستطيع المغامرة بكل شيء إلا الأمر الديني التقليدي والذي هو عامل وجودها الأساس . و ربما نخلص من هذا كله إلى أنه كان هناك نوع من لعبة القط و الفأر بين الحكمة السلطانية الشرقية و الحكمة السلطانية الغربية ، فالأولى أرادت تحوير و صبغ الثانية بصفاتها و ميزاتها حفاظاً على الأمر الديني ، و الثانية قبلت هذا الأمر ليس لقناعة منها به بل لتمرير مشروعها و هدفها الأساس الخفي و الذي هو مزج الثقافات و العقائد و الشعوب بعضها مع بعض و التهيئة لنظام عالمي جديد . و إذا علمنا أن الإسكندر قد بعث برسائل و أخبار إلى كل البلدان التي خضعت لسلطانه ، بأنه اصبح ابن إله ، ما عدا مقدونية التي كان أهلها يعرفونه حق المعرفة و يعرفون أباه الملك فيليب ، لاتضحت لنا الصورة بشكل أعمق و بانت لنا الغاية الكامنة خلف إدعاء الإسكندر أو بالأحرى قبوله لمبدأ الألوهية التي أسبغت عليه . و فضلاً عن ذلك فإن الإسكندر قد عرف عنه خلال فتوحاته في المشرق ، أنه كان يقدم القرابين لآلهة البلدان التي يفتحها و يظهر لها الاحترام و التبجيل .

من كل ما تقدم نخلص إلى أن هذه التراكمات الاجتماعية و السياسية و الدينية و الفكرية التي بدأت منذ تطور الفكر البشري ، كانت كلها تتشكل و تـ نمو في ظل و إطار مدى جغرافي محدد يقف سداً منيعاً أمام نشوء كيان أو تفاهم عالمي بين الشعوب . و هذا الحاجز تحول فيما بعد إلى حاجز فكري و نفسي بديهي في مخيلة عقل إنسان هذه المرحلة التاريخية . و لكن و عندما وصل العقل البشري إلى مرحلة قد استوعب فيها كل المفاهيم الفكرية الدينية و السياسية الاجتماعية ، كان لزاماً على ما يبدو أن ينتقل إلى مرحلة متقدمة و متطورة يتم فيها تعارف الشعوب بعضها مع بعض لتنتج حضارة عامة شاملة ، أي الانتقال من مفهوم المدينة المحلي إلى مفهوم المدينة العالمية (إذا صحت التسمية) . ففي التوراة نجد **[و لئلا ترفع عينيك إلى السماء و تنظر الشمس و القمر و النجوم كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء]** (سفر التثنية ٤ : ١٩) . **[ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله و ليس آخر]** (الملوك الأول ٨ : ٦٠) . **[... أمام الرب لأنه جاء ليدين الأرض بدين المسكونة بالعدل و الشعوب بأمانته]** (المزمور ٩٦ : ١٣) . **[فيقضي بين شعوب كثيرين ينصف لأمم قوية فيطبعون بسيوفهم سككاً و رماحهم مناجل و لا ترفع أمة على أمة سيفاً و لا يتعلمون الحرب فيما بعد]** (ميخا ٤ : ٣) . **[فإنه فرقكم بين الأمم الذين يجهلونه لكي تنجزوا بمعجزاته و تعرفوهم أن لا إله قادر على كل شيء سواه]** (طوبيا ١٣ : ٤) .

و في العهد الجديد جاء **[إن الأمم شركاء في الميراث و الجسد ...]** (أفسس ٣ : ٦) . **[بعد هذا نظرت و إذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعده من كل الأمم و القبائل و ا لشعوب و الألسنة واقفوان أمام العرش]** (الرؤيا ٧ : ٩) و

و في القرآن الكريم نرى الأمر واضحاً تماماً و بدعوة صريحة في الآية التالية **(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرو أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)** (الحجرات – ١٣) .

و لا نستطيع القول إن هذا التقدير و المشيئة كان نابعاً من صلب حكمة سلطانية ، لأن من قام به هو الإسكندر المقدوني الذي لم يكن ليمثل حالة الحكمة السلطانية الحاملة لتراكم الخبرات و التجارب الزمنية السابقة . و ربما كنا سنتقبل هذا الأمر لو أن من قام بهذه الفتوحات الهائلة هو دارا الفارسي مثلاً أو الفرعون المصري ، لأنهم أصحاب حكم سلطانية تمثل حضارات إنسانية متراكمة ، بينما كان الإسكندر يمثل مدينة مقدونية التي لم تكن لترتقي إلى مصاف تلك الحضارات و لا حتى إلى الحضارة اليونانية ، لا بل إنها كانت تستحوذ على شيء من صفات البربرية . و حتى الإسكندر نفسه قد أقر بهذا الأمر قائلاً لرجلين يونانيين ذات مرة " ألا تشعران حين تجلسان في صحبة المقدونيين بأنكما أشبه بإلهين بين خلائق الهمج ؟؟ " . و أمام ذلك لا يسعنا القول إلا أن هناك حكمة عليا راقية ربما قد تكون حكمة إلهية أو ما شابه ، هي التي دبرت الانتقال من مرحلة تاريخية بشرية إلى مرحلة أخرى ، و هيأت الإسكندر و دعمته للقيام بهذه الخطوة الجبارة .

و نستدل على ذلك من منظار آخر و هو أن الحكم السلطانية في بلاد الرافدين و مصر كلها ، كان لديها محاولات عسكرية عدة لتوسيع رقعة الممالك و الأراضي الخاضعة لسلطانهما و نشر الثقافة الفكرية و الدينية الخاصة بكل منهما ، و لكنهما وصلتا إلى مجال محدود معين لم تفلحا في تجاوزه بالرغم من أن كل منهما قد غزا الآخر و حاول غزو اليونان .

لقد كانت فتوحات الإسكندر المقدوني ، مرحلة تم فيها تكسير الحواجز الثقافية الفكرية و النفسية بين شعوب حوض المتوسط و ما تاخمها من بلاد الهند و إفغانستان . و كأننا بها كانت الغاية منها التهيئة لمشروع عالمي قد يكون ديناً سماوياً أو ما شابه أو توطئة لتقبل فكر ما هيأ له أن يكون عالمياً و قابلاً للانتشار في أرجاء المعمورة ، لأن هذه الفتوحات و ما رافقها من محاولة المزج بين الثقافات و التراث الفكري و الخصائص الاجتماعية و حتى الدينية بين مختلف شعوب هذه الإمبراطورية ، كانت تفتح السبيل أمام تفكير و مخيلة أي إنسان يعيش في أية منطقة من هذه المناطق ، أن يقر و يعترف بوجود أخ له في الجانب الآخر ، و يشترك معه بصفات عدة و لا يختلف عنه إلا في النزر اليسير من العادات و التقاليد . و الأمر الثاني الذي منحته هذه الفتوحات

لأول مرة ، هو إحساس الإنسان الفرد في المجتمع بميزة التساوي قانونياً بينه و بين رجل آخر لا يتكلم لغته و لا يمارس عاداته ، في الحقوق و الواجبات و أنهما يجتمعان في بوتقة إمبراطورية واحدة عليهم هم القيام بواجباتها وتحمل أعبائها .

لقد جاءت هذه الحكمة المجهولة لا لتفسر نشوء الكون و الآلهة في الأرض ، بل لتبرر إمكانية قيام و نشوء نظام دولي عالمي جديد في الذهنية السياسية و الاجتماعية للإنسان في ذلك الوقت .

و بالمقابل فإن هذه الحكمة المجهولة قد أظهرت لنا أمراً آخر على جانب كبير من الخطورة و هو أن كل تلك الحكم السلطانية التقليدية ، على استعداد لتفعل أي شيء ، فقط في سبيل الحفاظ على مكاسبها و وجودها و مرتكزاتها الاجتماعية ، بل و مستعدة لتضع آلهة جديدة إلى جانب الآلهة التي تدعي صلاتها بها و اتباعها لها ، كما فعلت مع الإسكندر حين جعلته إلها أو ابن للإله . و بذلك انحدرت إلى مستوى أفقدها المصداقية أمام شعوبها و لو بشكل كامن و غير مباشر ، و ظهرت أمامهم عبارة عن طبقة أو فئة حاكمة (دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً) لا يهمها سوى مصالحها و امتيازاتها . و هذا ما سوف يؤثر فيها لاحقاً و يفقدها قدسيتها و طوطميتها و هالتها أمام شعوبها و يجعلهم غير مكترثين لبقائها أو ذهابها أو تعديلها أو تبديلها . و هي حسب ما يتراءى لنا من خلال ذلك ، إن كانت ستبقى ، فإن ذلك مرده إلى أن الأمر السياسي كان بحاجة لها لدعم وجوده و ليس الآلهة كما كان الاعتقاد سائداً ، و هو الحال نفسه مع الإسكندر أيضاً حينما أبقى عليها لضمان الاستقرار في إمبراطوريته و لو لفترة مؤقتة .

لقد أظهرت هذه الفتوحات ارتباط الحكم السلطانيةالدينية و ا لاجتماعية بالحكام السياسيين أكثر منه ارتباطها بالآلهة . و لعل موت الإسكندر المفاجئ أيضاً و هو لا يزال في شرخ شبابه ، قد وجه ضربة فكرية و عقائدية قوية لهذه الحكم السلطانية ، فهي و بعد أن وضعت بيضها كله في سلته و عدته إلهاً أو ابن إله و ربطت نفسها به من خلال ذلك ، رحل الإسكندر فجأة ككائن بشري و تركها متلبسة بحمل المأزق الفكري اللقيط أمام جمهورها و شعوبها ، لا تستطيع العودة إلى الوراء و التراجع عن مواقفها ، بل بقيت مشلولة عاجزة أمام التيارات العالمية الفكرية الوليدة لتجتاحها و يظهر بعد ذلك العصر الهلنستي و الروماني العالميين . و ما يؤيد صحة مقولتنا تلك هو أن الحضارة المصرية بمعالمها الدينية و الفكرية قد اندثرت في تلك الفترة تقريباً و زالت من الوجود ، فهل كان ذلك من باب المصادفة أم له علاقة بما سبق ؟؟ .

لقد أثبتت الأحداث و الوقائع التاريخية أن أي تغيير عالمي ، لا تقوم به فلسفة أو فكر بقدر ما يقوم به طوفان تقوده حكمة قادرة مقتدرة ، إما طوفان طبيعي مائي و إما طوفان عسكري حربي . و شرط هذا الطوفان أن تكون وراءه هذه الحكمة ، لأنها إن لم تكن كذلك ، فإنه سيسقط حكماً .. عاجلاً أم آجلاً و لن يترك وراءه أي أثر إيجابي ، تماماً كما كان الأمر فيما بعد مع بعض الفاتحين

. و أي طوفان لا يقدم شيئاً جديداً و يترك أثراً إيجابياً ، هو بالتأكيد طوفان تقوده حكمة سلطانية بشرية تقليدية ، كما كان الأمر مع هؤلاء الفاتحين أنفسهم الذين جاؤوا فيما بعد و فتحوا البلدان بحد سيوفهم إما طلباً للذهب و النساء ، و إما تحت ستار نشر ثقافات و أفكار معينة .

لقد انتهى عصر نظام الدولة – المدينة أو المملكة المحدودة الذي تميز بخصوصيته و تجانس المواطنية فيه و في الدولة ، من الناحية الثقافية و الفكرية و الدينية و الاجتماعية و السياسية ، ليأتي نظام المملكة الواسعة أو الإمبراطورية الكبيرة ذات الأراضي الشاسعة المترامية الأطراف و التي تضم شعوباً و ثقافات و عقائد و أديانا و آلهة مختلفة ، تحت سلطة حاكمية مركزية واحدة . لقد ذهب عصر الإنغلاق الفكري و الثقافي ليحل محله عصر التزاوج الفكري و الثقافي تحت إط ار الإمبراطوري ة الواح دة الذي اس تمر بظه ور الدول ة الروماني ة و التي تع د تط ويراً لإمبراطورية الإسكندر و وريثة لها في الوقت نفسه ، لأنها استحوذت على معظم الأراضي إن لم تكن كلها و توسعت بها في مناطق جديدة . و تطويراً لهذه الإمبراطورية لأنها طورت المفاهيم الإغريقية التي صبغت الإدارة العامة فيها و في الوقت نفسه أوجدت و استحدثت مفاهيم جديدة أخرى ، و كل هذا بالتعاون – في مرحلة من المراحل – مع المفكرين اليونانيين الذين هاجروا إلى رومة . ثم استحدثت و طورت لنفسها و من ذاتها مفاهيم أخرى قدمتها إلى الحضارة الإنسانية و أهمها مفهوم و علم القانون و الأنظمة الإدارية المتطورة سواء الاجتماعية أم السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية . ففي عهد الدولة الرومانية ، ظهر لأول مرة مفهوم المساواة بين بني البشر واضحاً ، كما ظهر مفهوم المواطنية الرومانية بالإضافة إلى مفهوم الانفتاح على الشعوب الأخرى و خاصةالخاضعة لسلطان الدولة الرومانية .

و خير من مثل الاتجاه الحضاري المنفتح هذا ، هو القائد الروماني سكيبيون [1] حيث إنه بعد الانتصار على دولة قرطاجة المنيعة و دولة مقدونية المعتدة بنفسها ، برز تيار فكري روماني عد أنه في سبيل ضمان الاستقرار و الهدوء و الولاء و الطاعة في أرجاء الإمبراطورية الرومانية ، لا بد من تطبيق سياسة مهادنة معتدلة تجاه الشعوب الخاضعة لسلطان رومة و إيجاد نوع من المساواة و التقارب بين هذه الشعوب و بين الرومانيين . و قام هذا التيار بالدعوة إلى العلاقات الأخوية الإنسانية و المساواة بين البشر . و لم يكن هذا التيار عشوائياً و مجرد وجهات نظر ، بل على العكس كان تياراً منظماً ، جمع في طياته كوادر متخصصة قديرة ، أي شكلاً من أشكال الحكمة المنظمة ، حيث ضم بين جنباته عدداً لابأس به من المفكرين الرومانيين المميزين و عدداً مماثلاً من المفكرين الفلاسفة الإغريق كفريق استشاري متخصص . فقام هؤلاء بدراسات و

[1] انظر قصة الحضارة المجلد /٩/ - الفكر السياسي في العصور القديمة ص/٣٢٩/ .

بحوث تخصصية حول الشعوب الخاضعة لروما و دراسة تاريخها و قدموا أفكاراً متعددة جاهزة للتطبيق بالنسبة لهذا الأمر . و ربطوا ذلك كله بمفهوم الآلهة " بوصفه أمراً فرضته الآلهة من دون انتظار رأي البشر و موافقتهم "[1] . و هذه الدراسات ركزت على الإنسان بخاصة " ككائن بشري طبيعي دون التمييز بين إنسان و آخر سواء باللون أو الجنس أو البشرة " حيث عدت أن كل البشر و الناس هم أخوة و لا يجوز تمييز بعضهم عن بعض و يجب أن تجمعهم الفضيلة و الأخلاق و المبادئ العليا السامية .

من الواضح في هذا السياق ، بروز سياسة العولمة المنظمة و الأكثر حداثة و تقنية من عولمة الإسكندر المقدوني التي كانت فاتحة العولمات في العالم و أولها .

إن المنهج هنا هو واحد و لكن الأسلوب و الطريقة مختلفتان . ففي فترة الإسكندر لم يكن هناك هذا الفريق أو الطاقم الكامل المتكامل المختص و الذي يضع الاستراتيجيات العامة للعلاقة مع الشعوب ، بل بدا الأمر و كأنه أشبه بحالة فردية نوعاً ما تمثلت بالإسكندر المقدوني . و تعليل هذا الأمر يعود ربما إلى أنها المرة الأولى في تاريخ البشرية التي يحدث فيها بناء و تشكيل إمبراطورية هائلة بهذا الحجم و بالتالي لا يوجد هنالك أية دراسات فكرية مسبقة حول ذلك الموضوع ، و كل دراسة أو نظرية أو فلسفة تأتي في هذا المجال ، سوف تكون تالية له و مستقيه أفكاره من الحوادث الناتجة عنه و الناجمة بسببه . بينما في الحالة الرومانية كانت الأفكار و النظريات جاهزة تقريباً بشكلها الخام الأولي و لا تحتاج سوى إلى البلورة و الصقل و شيء من التفاصيل المنطقية .

الاختلاف الثاني هو في طريقة وجود الآلهة ، حيث إنه في حالة الإسكندر كانت الالهة الحقيقية (إن وجدت) في الواقع مختفية و غير ظاهرة للعيان و لذلك برزت الآلهة الظاهرية في شخص الإسكندر نفسه الذي استخدم هذا الأسلوب لتثبيت نفسه و إمبراطوريته كواقع شرعي مقبول . بينما في الدولة الرومانية لم يكن بالإمكان اعتماد مفهوم الآلهة كشخص ، ربما لوجود طاقم فكري فلسفي يتبنى الأمور العقلية المنطقية التي يجب تقديمها للناس و الشعوب أو ربما لآن نموذج الإسكندر الإله لم يعد مسوغاً و مقبولاً لدى الناس بسبب موته المفاجئ و لما يتجاوز الثلاثينات من عمره بالرغم من تقديمه للناس كإله ، و لذلك عبرت هذه الحكمة السلطانية العالمية الجديدة عن علاقة الأمر السياسي بالأمر الديني ، بأن هذه هي رغبة و إرادة الآلهة في شكل و صيغة بديا أكثر منطقية و قبولاً .

---

[1] المصدر السابق ص/٣٢٩/ .

القسم الثاني

الأديان السماوية

تميزت الأديان السماوية عن بقية الديانات ، بمفهوم الرسالة الإلهية و النبي أو الرسول المبلغ و المؤدي لهذه الرسالة . و هذه الأديان شكلت بمفاهيمها و شرائعها إعلاناً رسمياً من الله للبشر و تعريفه تعالى بنفسه بواسطة كلامه هو ، الذي تجلى في الكتب السماوية لهذه الديانات و هي أولاً اليهودية ثم المسيحية و أخيراً الإسلام . حيث نزل كلام الله تعالى في الكتب الثلاثة التوراة و الإنجيل و القرآن الكريم . و فيما بعد وضعت التوراة و الأسفار التي ارتبطت بها مع الإنجيل في كتاب واحد هو الكتاب المقدس الذي انقسم إلى قسمين .. العهد القديم الذي مثل التوراة و الأسفار المرتبطة بها ، و العهد الجديد الذي ضم الأناجيل الأربعة .

و الأديان السماوية هي أديان توحيدية محضة تدعو إلى إله واحد هو الله تعالى خالق الكون و مدبر له و خالق للإنسان و موجه له . و قد ضمت بين دفات كتبها ، الشرائع الإلهية الواضحة و المحددة لبني البشر و التي حوت مفاهيم جديدة على الفكر و الحياة الإنسانية ، حيث ظهر مفهوم الحلال و الحرام بأبعاده الواضحة و الصريحة و الذي جسد الإرادة و الرغبة الإلهية في بعض تصرفات و أفعال الإنسان و الذي لم يكن موجوداً بهذا المعنى أو الشكل الواضح و الدقيق فيما قبل ذلك . كما ظهر أيضاً مفهوم الأخلاق العامة من بابها الواسع العريض و مفهوم العلاقات الإنسانية العامة . فلأول مرة بدأت تظهر عبارات مثل (الشعوب – الناس – الأمم) كما ظهرت أيضاً القواعد الاجتماعية و الأسرية ، و ظهرت صفات الله تعالى . و هذا كله صيغ ضمن خطاب الله نفسه لبني البشر و الذي أنزله في الكتب السماوية . يضاف إلى هذا كله ، ظهور أمر جديد ، هام و جوهري و هو أن عقيدة التوحيد الإلهية في الأديان السماوية ، قد اقتضت نفي مفهوم الشرك تماماً و نفي وجود آلهة أخرى بجانب الله تعالى ، بأي شكل من الأشكال و تحت أية صيغة كانت ، ليحل محل هذه الآلهة المتعددة مفهوم الملائكة الخاضعين لسلطان الله و المنفذين لأوامره . و قد ظهروا في الكتب السماوية قائمين بأعمال و أدوار و وظائف اختص بها كل منهم على حدة ، كما كانت للآلهة المتعددة في الحضارات القديمة في الحضارات و الأديان القديمة ، أدوار و وظائف .

إن من بين المفاهيم العديدة التي طرحتها الاديان السماوية ، مفهوم الحكمة الذي ظهر كمصطلح منفرد في بعض الأحيان ، و له خصوصياته المميزة . أو كصفة من صفات الله اتسم بها في أعماله و تقديراته و أفعاله (جل و علا) . و في أحيان أخرى كصفة أعطاها الله لأشخاص معينين ، منهم من كان ذا سلطان و ارتبط عمله و تاريخه بصفة قيادية أي تم تمييزه بشكل قدرة على إدارة دفة الحكم ، و منهم من أعطي الحكمة دون أن يكون له صفة قيادية بالضرورة . و في مواطن أخرى نرى مفهوم الحكمة و قد ظهر بشكل مستتر تحت غطاء أعمال و تصرفات و أمور جرت بمقتض هذه الحكمة . و هي إما كانت منسوبة إلى الله و إما إلى الإنسان .

هذا كله يقودنا إلى وجود حكمتين أساستين في الكتب السماوية هما ، الحكمة الإلهية التي جرى التعبير عنها بأساليب و أشكال مختلفة . و الحكمة السلطانية التي جرى التعبير عنها وطرحها كذلك بعدة أشكال ، وفي الوقت نفسه جرى التعبير أيضاً عن العلاقة بين هاتين الحكمتين في بعض المواقع تجدر الإشارة هنا إلى أنه في إطار الكتب السماوية ، ظهرت حكمة سلطانية أيضاً ، وجدت أو أوجدت لنفسها مكاناً في تاريخ و أحداث كل دين سماوي على حدة . و بشكل عام سيتم الكلام عن العلاقة بين الحكمة الإلهية و الحكمة السلطانية من خلال الكتب السماوية نفسها للتعبير عن كيفية رؤية هذه الكتب لهذه العلاقة . و في مواضع معينة ، سيكون البحث من خلال الأحداث و الوقائع التاريخية للتعبير عن كيفية رؤية الحكمة السلطانية الكلاسيكية لهذه العلاقة و كيفية ربط نفسها بها .

جاءت الأديان السماوية في أصولها الفكرية و التشريعية و العقائدية لتقطع العلاقة و الصلة بين الله و السلطان من الناحية الروحية المباشرة ، كما كان الحال عليه في الأديان القديمة ، لتقتصر العلاقة من خلال الكتب و الشرائع و التعاليم السماوية التي أضحت هي الوسيط في العلاقة بين السلطان و بين الله ، بل حتى بين سائر الناس و بين الله إلا في حالات استثنائية جداً جرى فيها تسمية الأشخاص بأسمائهم .

و نود أن نلفت نظر القارئ أننا سنتكلم عن كل ديانة سماوية كما عبرت هي عن نفسها و عن أشخاصها ، حسب ما ورد في الكتب الخاصة بها ، أي سيكون الكلام من داخل هذه الديانة نفسها و ليس من خارجها ، كي لا يحصل لغط و التباس عند القارئ في حال قراءته بعض الفقرات و العبارات في الكتاب ، و يذهب بفكره بعيداً .

الديانة اليهودية

الديانة اليهودية هي أولى الديانات السماوية الثلاث وهي تبدأ رسمياً مع النبي موسى (ع) ولكنها وحسب التوراة وأسفار العهد القديم ، تعود بجذورها إلى النبي إبراهيم (ع) الذي ورد ذكره في الأسفار الخمسة الأولى وخاصةً في السفر الأول ، سفر التكوين ، ليتكرر بعد ذلك في الأسفار التي تلته . ويضاف إلى التوراة وباقي العهد القديم ، كتاب التلمود والذي هو كتاب متمم ومكمل للعهد القديم من حيث الشرح والتفسير ولكنه منفصل عنه من ناحية التدوين . ويتألف العهد القديم من أسفار عدة أهمها وأولها الأسفار الخمسة وهي سفر التكوين – سفر الخروج – سفر اللاويين – سفر العدد – سفر التثنية . وهذه الأسفار شكلت في مضمونها التوراة وأطلق عليها في بعض المراحل كتب موسى كما جاءت في بعض الكتابات اليونانية تحت اسم pentatichus أو (بنتاتيك) التي تعني الكتاب ذا الأسفار الخمسة [1] . وتأتي بعد هذه الأسفار الخمسة التي شكلت أساس كتاب التوراة في الديانة اليهودية والشرائع التي أتى بها موسى (ع) تأتي أسفار أخرى متعددة .

وتتصف أسفار التوراة والعهد القديم عامة بصفة أساسية وهي أن كل سفر يتحدث عن مفهوم معين أو مرتبط بمفهوم أو قضية معينة . فسفر التكوين سمي كذلك لأنه تحدث عن نشأة الكون وخلقه وخلق الكائنات . أما سفر الخروج فسمي كذلك لأنه تحدث عن خروج بني إسرائيل أو اليهود من مصر بقيادة موسى . وسفر العدد سمي بهذا الاسم لأنه تحدث عن تعداد اليهود

[1] العرب واليهود في التاريخ .

وإحصاء بعض الأمور المتعلقة بهم . وكذلك سفر اللاويين المرتبط باللاويين الذين ينتسبون إلى لاوي بن يعقوب وهو سبط من الأسباط وقيل إنهم من نسل هارون أيضاً وهكذا ..

و بعامة يقسم العهد القديم إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي : التوراة و النبينم (الأنبياء) و الكاتوبين (الكتب) . أما التلمود فهو الجزء الآخر أو الشق الثاني من شرائع الديانة اليهودية والتي نقلها كبار الأحبار اليهود وقاموا بشرحها وتفسيرها . وكلمة تلمود في اللغة العبرية جاءت من كلمة (لاماد) والتي تعني التعليم . وكما هو الحال في العهد القديم فإن التلمود يقسم إلى قسمين رئيسين هما مشناه وتعني النص ، والقسم الآخر جماره وتعني الشرح والتفسير . وقد عد بعضهم أن تعاليم الجمارة جاءت من النبي موسى التي أعطاها إلى اليهود بشكل شفهي وبعضهم الآخر عد أن التلمود كله أعطاه الله لموسى بشكل شفهي في سيناء . ويعد التلمود اليوم بالنسبة لبعض الباحثين والمثقفين العرب والإسلاميين مادةً خصبة للهجوم على اليهود ونقد الفكر اليهودي في حين يدلل بعضهم اليوم وفق دراسة علمية منطقية على هشاشة وضعف هذا الأمر حيث جاء في دراسة أنه [٢] " في إحصاء جرى سنة ١٩٨٧ تبين أن (٨٤ %) من الإسرائيليين لم يقرؤوا التلمود ولم يطلعوا على جزء منه حتى إن مارتن بوير وهو أهم مفكر ديني يهودي في العصر الحديث ومن كبار مفسرين العهد القديم لم يرَ التلمود إلا عندما تلقاه هديةً في عيد ميلاده الستين وهو لم يقرأه البتة . وفضلاً عن ذلك فإن دراسة التلمود كانت مسألة شاقة للغاية وتتطلب معرفة اللغتين العبرية والآرامية ولم يكن يقرأ التلمود إلا كبار أعضاء النخبة التي تعلمت في المراكز الدينية حتى أن صغار الحاخامات لم يكونوا ليعرفوا ما جاء فيه . فالتلمود كان دائماً كتاب الاستقراطية الحاخامية وهو مكتوب أساساً بأسلوب مركب وبلغة لا يعرفها الناس وفضلاً عن ذلك فقد عادت الحركات اليهودية الجديدة

[٢] الموسوعة اليهودية – مجلة الاجتهاد العدد /٤٩/ ص/٢٥٦/ .

كالصوفية والمشيحانية والقرائية التلمود ورفضته . واليوم ما زال بعض الكتبة العرب كلما أراد أن يتحدث عن اليهود تراه يعود إلى نصوص متفرقة في التلمود ليقيم منها عمارته الخطابية المتهاوية . وللعلم فإن التلمود لم يترجم إلى العربية حتى الآن وبعض الفقرات التي يجدها بعضهم متناثرة هنا وهناك ما هي إلا ملتقطات من بطون الكتب لا تقيم أوداً ولا تغني من جوع " .

ولكن ومع ذلك فقد ذكر أن هناك تلمودين [١]أحدهما يسمى التلمود الفلسطيني أو الأورشاليمي وقد كتب باللغة الآرامية الغربية وتم تدوينه في فلسطين وأشرف على ما يبدوا عليه مجموعة من كبار فقهاء كبار اليهود عرفوا باسم التنائيم وتعني المعلم تحت زعامة الحبر الكبير يهوذا بن شمعون المسمى بالربن الأقدس وهو سابع رؤساء المجمع اليهودي الأعلى المسمى بالسنهدرين والذي ذكر أن المشناه وهي أحد أقسام التلمود قد جمعت تحت إشرافه وهذا التلمود قد ضاع الكثير من أجزائه . أما التلمود الثاني فهو التلمود البابلي الذي كتب في العراق حيث ذهب قسم من اليهود إلى هناك بعد اضطهاد الرومان لهم في فلسطين وهناك أنشؤوا مدارس متعددة بإشراف مجموعة من رجال الدين اليهود سموا بالأمورائيم وهي كلمة عبرية تعني المعلمين أو الشارحين . وفي مناخ الحرية الدينية الذي على ما يبدوا كان سائداً في العراق في تلك الفترة قدم هؤلاء الأمورائيم شروحاً أكثر موضوعية وتفصيلاً للعهد القديم وهذه الشروح والكتابات شكلت أساس التلمود البابلي الذي تم وضعه حوالي سنة ٤٩٠ م [٢] وقد خلف الأمورائيم بعد ذلك مجموعة سميت بـ (ريش جالوتا) أو رأس جالوت . وبناء على ما تقدم

---

[١] العرب واليهود في التاريخ ص / ٢٩٣/ .

[٢] المصدر السابق .

فسوف تكون دراستنا لموضوع الحكمة في اليهودية والتاريخ اليهودي من التوراة العامة نفسها فقط [٣] .

عامة تتميز التوراة بأنها كتاب جامع لليهودية يجمع في أسفاره أصـــول المعتقـــ دات والعقائـــد الدينية اليهودية وفي الوقت نفسه تاريخ أحداث ووقائع اليهود سواءً في فلسطين عندما شـــكلوا دولة اسرائيل وما قبلها وما بعدها ، وفي العراق عندما تم سبيهم إلى بابل وغيـــر ذلـــك مـــن أحداث أخرى متفرقة مما يتيح لنا استخلاص الأمر الديني بأبعاده كافـــة واســـتخلاص ا لأمـــر السياسي والتاريخي مما قد يغنينا ربما عن أي كتاب آخر .

إن بداية التوراة تحدثنا عن الله وبدء خلق الكون من سفر التكوين في الفقـــرات الأولـــى فـــي الإصحاح الأول على الشكل التالي [**في البـــدء خلـــق الله الســـموات والأرض / وإذ كانـــت الأرض مشوشة ومقفرة وتكتنف وجه المياه وإذ كان روح الله يرفرف على سطح الميـــاه / أمر الله ليكون نور فكان نور / ورأى الله النور فاستحسنه وفصل بينه وبين الظلام / وسمى الله النور نهاراً أما الظلام فسماه ليلاً / وهكذا جاء مساء أعقبه صباح فكان اليوم الأول / ثم أمر الله ليكن جلد يحجز بين مياه ومياه / فخلق الله الجلد وفرق بين المياه التـــي تحملهـــا السحب والمياه التي تغمر الأرض وهكذا كان/ وسمى الله اليابسة أرضاً والميـــاه المجتمعـــة بحاراً ورأى الله ذلك فاستحسنه / وأمر الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً مبذراً وشجراً مثمـــراً فيه بذره الذي ينتج ثمراً كجنسه في الأرض وهكذا كان / فأنبتت الأرض بالأعشاب والبقـــول التي تحمل بذورا من جنسها ورأى الله ذلك فاستحسنه / وجاء مساء أعقبـــه صـــباح فكـــان اليوم الثالث ثم أمر الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفرق بين النهار والليل فتكون علامات لتحديد أزمنة وأيام وسنين / وتكون أيضاً أنوار في جلد لتضيء الأرض وهكذا كان / وخلق**

[٣] يطلق اسم التوراة أحياناً على أسفار العهد القديم كلها .

الله نورين عظيمين . النور الأكبر ليشرق في النهار والنور الأصغر ليضيء في الليل كما خلق النجوم أيضاً / وجعلها الله في جلد السماء لتضيء الأرض / لتتحكم بالنهار وبالليل ولتفرق بين النور والظلام ورأى الله ذلك فاستحسنه / وجاء مساء أعقبه صباح فكان اليوم الرابع ثم أمر الله : لتذخر المياه بشتى الحيوانات الحية ولتحلق الطيور فوق الأرض عبر فضاء السماء / وهكذا خلق الله الحيوانات المائية الضخمة والكائنات الحية التي اكتظت بها المياه كلاً حسب أجناسها وأيضاً الطيور وفقا لأنواعها ورأى الله ذلك فاستحسنه / وباركها الله قائلا أنتجي وتكاثري واملأي مياه البحار ولتتكاثر الطيور فوق الأرض / ثم جاء مساء أعقبه صباح فكان اليوم الخامس / ثم أمر الله لتخرج كائنات حية كلاً حسب جنسها من بهائم وزواحف ووحوش وفقاً لأنواعها وهكذا كان / فخلق الله وحوش الأرض والبهائم والزواحف كلاً حسب نوعها ورأى الله ذلك فاستحسنه / ثم قال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا فيتسلط على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى الأرض وعلى كل زاحف يزحف عليها / فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكر وأنثى خلقهم / وباركهم الله قائلاً لهم أثمروا وتكاثروا واملؤوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يتحرك على الأرض / ..... ورأى الله ما خلقه فاستحسنه جداً ثم جاء مساء أعقبه صباح فكان اليوم السادس] .

ثم يأتي الاصحاح الثاني ليعيد لنا تفسير ماجرى في الإصحاح الأول بشكل آخر فيقول

[وهكذا اكتملت السموات والأرض بكل ما فيها / وفي اليوم السابع أتم الله عمله الذي قام به فاستراح من جميع أعمال الخلق / هذا وصف مبدئي للسموات والأرض يوم خلقها الرب الإله / ولم يكن قد نبت بعد في الأرض شجر بري و عشب بري ... ولم يكن هناك إنسان

ليفلحها / ... ثم جبل الرب الإله آدم من تراب الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية / وأقام الرب الإله جنةً في شرق عدن ووضع فيها آدم الذي جبله / ... ثم قال الرب الإله ليس مستحسناً أن يبقى آدم وحيداً سأصنع له معيناً نظيره / وكان الرب الإله قد جبل من التراب كل وحوش البرية وطيور الفضاء وأحضرها إلى آدم ليرى بأي أسماء يدعوها فصار كل اسم أطلقه آدم على كل مخلوق حي أسماً له / ... فأوقع الرب الإله آدم في نوم عميق ثم تناول ضلعاً من أضلاعه وسد مكانها باللحم / وعمل من هذه الضلع امرأةً أحضرها إلى آدم] . ويخبرنا الإصحاح نفسه أنه و قبل خلق حواء ، نهى الله آدم عن أكل شجرة معينة حيث يقول

[وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليفلحها ويعتني بها / وأمر الرب الإله آدم قائلاً : كل ما تشاء من جميع أشجار الجنة / ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لأنك حين تأكل منها حتماً تموت] .

في نظرة سريعة على فقرات الإصحاح الأول والثاني من سفر التكوين التي تتحدث عن بداية خلق الكون والإنسان ، نلاحظ ما يلي .. أن أول شيء تحدثنا عنه التوراة وكان موجوداً ، هو روح الله وسطح المياه والظلمة . بعد ذلك تأتي عملية الخلق التي قام بها الله ، وكان أول ما خلق هو السماوات والأرض وهنا نلاحظ أن الذي قام بعملية الخلق هو الله وليس روح الله . وكأن هناك نوع من التفريق أوردته التوراة حول روح الله الكامنة وذاته الخفية غير المعلومة التي تمثل الأزل والسكون ، وبين الله المحرك والفاعل وذلك من حيث الصفات والأفعال . ونلاحظ أيضاً أن الظلام كان موجوداً مع روح الله فوق سطح المياه ولم تشمله عملية الخلق . بعد ذلك تتم عملية خلق النور والفصل بينه وبين الظلام ومن ثم تسمية النور نهاراً وتسمية الظلام ليلاً . وعملية تسمية الظلام بالليل توحي لنا بسلطة الله أو روح الله على الظلام وأنه

أعلى منه مرتبة أو هو خالق له بالأساس . كما توحي لنا بعملية تغير صفات وأطـوار أكثـر منها عملية تسمية . وذلك كله نتج عنه مفهوم اليوم الذي من المؤكد أنه ليس بمعنى اليوم الذي نفهمه نحن والذي جاء بعد عملية تبادل المساء مع الصباح أو الليل مع النهار أو الضـوء مـع الظلام . وهذه العملية (أي اليوم) كانت تتكرر في كل عملية خلق يقوم بها الله بحيث تفصـل بينها وتعطي لكل منها تراتبية معينة في غاية لا يعلمها إلا الله .

بعد ذلك أي في الأيام التي تعقب اليوم الأول تظهر صيغة جديدة للخلق والتكوين وهي صـيغة " أمر الله " . مما ينحو بالإشارة ربما إلى ظهور كائنات أخرى كلفها الله بالمشاركة في عمليـة التكوين و الترتيب ، قد تكون ملائكته أو غيرها . أو ظهور أمر مستجد لم يكـن فـي اليـوم الأول ، حيث يأمر الله بأن تتجمع المياه التي تحت إلى مكان واحد و تظهر اليابسـة ، و ذلـك في إشارة إلى أن الأرض كانت مغطاة كلها بالماء و من ثم تشـكلت المحيطـات و اليابسـة . لتتابع بعد ذلك عملية تشكل الكواكب و النجوم و الشمس ، مع تحديد دور لكل منها في النظـام الكوني الوليد ، لتظهر بعد ذلك الكائنات .

هذا كله نستشف منه التهيئة لظهور الإنسان على الأرض و إيجاد المناخ و المكان الملائمـين لوجوده مادياً ، فكان أن ظهر الإنسان و مكنه الله من السيطرة على كل الكائنات الحية التـي تعيش معه في الأرض . و في هذا السياق يظهر لنا مفهوم جديد و هو مفهوم المباركة من الله التي خص بها فريقين فقط هما الكائنات المائية و الإنسان . هذا الأمر يشـبه علـى حـد مـا المفهوم القرآني حينما حلل الله تعالى كل طعام البر و كرم الإنسان . بينمـا أخـرج الكائنـات البرية من مجال الحلال بشكل كامل ، و جعل فيها المحرمات و المحللات . كمـا تبـين لنـا فقرات الإصحاح الأول أيضاً ، قضية الاستحسان ، إي أن الله عندما كان يخلق أو يكـون أو يصنع شيئاً ، لم يكن يتابع في عملية الخلق و التكوين التالية حتى يقيّم ما كان قد فعله . و هذا

الأمر نراه جلياً في القرآن الكريم في مواطن متعددة منها { **الذي أحسن كل شـــيء خلقـــه و بدأ خلق الإنسان من طين** } (السجدة – ٧) . و لعل أمر الاستحسان الذي ورد فـــي ســـفر التكوين ، هو الأمر بجعله مستحسناً . و في هذا الإصحاح أيضاً نرى أن خلق الإنســـان كـــان على صورة الله . و يخبرنا الإصحاح الثاني أنه في اليوم السابع أتم الله عملية التكوين و خلـــق الإنسان و الكون و الكائنات كلها ، و أنه استراح في هذا اليوم من جميع ما عمله .

و يبدو لنا مفهوم الاستراحة هنا ، أقرب إلى الانقطاع أو الفصل منه إلى عملية راحة جـــاءت نتيجة لتعب أو جهد و ذلك من عبارة (استراح من جميع ما عمله) و كأنه في أثنـــاء عمليـــة الخلق و التكوين ، كان هناك نوع من التمازج أو الاتصال بشكل ما بين الخالق و المخلـــوق ، و في اليوم السابع تم الفصل فيما بينهما . و بعد خلق حواء يحدد الله للإنسان دوره و طبيعـــة عمله و يحرم عليه أمراً واحداً عندما يكون في الجنة ، و هو ألا يأكل من شجرة معرفة الخير و الشر . أما عملية تسمية الكائنات ، فقد كانت من مهمة آدم الذي سمى هو نفسه هذه الكائنات . و بعد ذلك يأتي الأمر الإلهي لآدم بحرية التصرف في الجنة ما عدا شجرة معرفة الخيـــر و الشر حيث أمره الله أن لا يأكل منها بعد أن حددها و وصفها له مخبراً إياه أن مغبة ذلك العمل هو الموت المحتم و لكن حواء التي خلقها الله فيما بعد من ضلع آدم ، وقعت تحـــت إغـــراء الحية التي أغوتها بالأكل من ثمار الشجرة المحرمة و إطعام آدم منها ، فكان من نتيجة ذلـــك أن طرد الله آدم من الجنة و قال مخاطباً لهم جميعاً حسب فقرات الإصـــحاح الثالـــث [**فقـــال الرب للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من بين جميع البهائم و من جميع وحوش البريـــة ، على بطنك تسعين و من التراب تأكلين طوال حياتك / و أثير عداوة دائمة بينك و بين المرأة و كذلك بين نسليكما ، هو يسحق رأسك و أنت تلدغين عقبه / ثم قال للمرأة أكثـــر تكثيـــراً أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولاد و إلى زوجك يكون اشتياقك و هو يتسلط عليك / و قال**

لآدم لأنك أذعنت لقول امرأتك و أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها فالأرض ملعونة بسببك و بالمشقة تقتات منها طوال عمرك / شوكاً و حسكاً تنبت لك و أنت تأكل عشب الحقل / بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض ، فمن التراب أخذت و إلى التراب تعود] .

القارئ للإصحاح الثاني يلاحظ أن الله لم يصدر حكمه على آدم وزوجته وعلى الحية إلا بعد محاورة استجوابية جرت بينه وبين آدم أولاً أدت إلى اعتراف آدم بذنبه أمام الله ، و محاورة أخرى مع حواء . و الملاحظ أن هذه المحاورة قد استثنيت الحية منها . بينما كان النطق بالحكم موجهاً إلى الحية أولاً و من ثم على حواء و أخيراً إلى آدم بطريقة عكسية .

لقد صورت التوراة الموت الذي حذر الله آدم منه ، بمعرفة الخير من الشر و تحمله لهذه المسؤولية الجسيمة التي أدت به و زوجته إلى الخروج من الجنة التي كان يقطن بها و التي كانت تعفيه من أية مسؤولية في معرفة الخير و الشر . و النزول إلى الحياة الدنيوية التي تحوي هذين النقيضين ، بالإضافة إلى التناقضات الثنائية الأخرى . و في الوقت نفسه صرح الله أن آدم قد أصبح فعلاً يميز بين الخير و الشر و أنه أصبح يحوي شيئاً من الآلهة في نفسه أو روحه ، و ذلك من الفقرة / ٢٣ / من الإصحاح الثاني التي تقول [**ثم قال الرب الإله . ها الإنسان قد صار كواحد منا يميز بين الخير و الشر و قد يمد يده و يتناول من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد] .**

إن مفهوم الحكمة يبدو واضحاً بين سطور هذين الإصحاحين ، بدءاً من طريقة خلق الله للكون و المظاهر الأولية فيه و الذي يظهر معاني الحكمة الإلهية و هي تخطط لخلق الكون خطوة خطوة ، و في كل خطوة تنظر إلى ما خلقت لتقوم بالخطوة التالية من الخلق ، وفق عملية مرتبة من الاستحسان و المباركة . و يلاحظ أن مفهوم الحكمة قد لا يرتبط بالعلم أو الذكاء ،

لأن الله طلب من آدم أن يسمي كل الكائنات الحية بأسمائها و أحضرها إليه ليرى كيف سيسميها ، و أنه استحسن على ما يبدو تسمية آدم لها ، لأنه لم يرد نفي لذلك في الإصحاح . و مع هذا فإن آدم الذي سمى كل هذه الكائنات بأسمائها ، بقي لا يعرف الخير و الشر و الذي يبدو أنهما مرتبطان بنوع من حكمة معينة . هنا يتبادر إلى الذهن أسئلة متعددة .. لماذا طلب الله من آدم ألا يأكل من شجرة معرفة الخير و الشر ؟؟ و هل كان طلبه هذا أبدياً أو أنه كان لفترة مؤقتة هي مجرد اختبار لآدم ؟؟ أو لأن معرفة الخير و الشر بالنسبة لآدم ستنقلب وبالاً عليه ؟؟ أو هي نوع من الحكمة لم يكن الله يريدها لآدم ، كأن تكون مثلاً حكمة سلطانية لن يحتاجها آدم في الجنة ، و هذا الأمر بالذات يعززه إنزال الله له إلى الأرض الدنيوية ، و جعله يرى الأمور على حقيقتها و يكون له ذرية و نسل ؟؟ أسئلة من الصعب التكهن بها و لكنها تقودنا إلى سوآل آخر حول شجرة الحياة التي وردت في الإصحاح الثاني حيث جاء في الآية رقم /١٠/ منه [**و استنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة بهية للنظر و لذيذة للأكل و غرس أيضاً شجرة الحياة و شجرة معرفة الخير و الشر وسط الجنة**] . و مما سبق في الآية رقم / ٢٣ / التي قبلها من الإصحاح الثالث التي ورد ذكرها سابقاً ، يلاحظ أن شجرة الحياة كانت بالنسبة إلى الله أهم من شجرة المعرفة ، و هي بشكل غير مباشر ، أهم أيضاً بالنسبة لآدم لأنه يحيا بها إلى الأبد . و لكن و مع ذلك فإن الله لم يحذر آدم منها بل حذره من شجرة المعرفة ، و لم يكن لديه خشية من أن يأكل آدم منها إلا بعد أن أكل من شجرة التمييز بين الخير و الشر ، لأن احتمال أن يأكل آدم من شجرة الحياة ، كان وارداً جداً ، فهل يقودنا هذا الاستنتاج بأن شجرة الحياة لا يمكن لثمرها أن يأتي مفعوله إلا بعد الأكل من شجرة المعرفة ، أي أنها لن تصبح مفعلة لآدم حتى لو أكل منها ، ما لم يأكل من شجرة المعرفة و التمييز بين

الخير و الشر أو الحكمة . و بمعنى آخر فإن الطريق إلى شجرة الحياة يمر من شجرة المعرفة و الحكمة أي أن الحكمة هي الطريق إلى الحياة .

في النهاية تحصل آدم على المعرفة و الحكمة بشقيها الإيجابي و السلبي و نزل الأرض البرية المقفرة ليورث هذه الحكمة بشقيها الاثنين إلى أولاده و ذريته من بعده . و قد تكون قصة قايين و هابيل التي ذكرت في الإصحاح الرابع ، تعطي وصفاً لشيء من هذا القبيل ، حيث مثل قايين جانب الشر و هابيل جانب الخير . بعد ذلك و بدءاً من الإصحاح الخامس ، يتحدث سفر التكوين عن أولاد آدم و ذريته بما يشبه السجل ، حيث دون فيه أسماءهم . و يبدأ التفصيل فيهم عند نوح في الإصحاح السادس ، فيذكر قصة الطوفان لتأتي بعدها قصة إبرام أو إبراهيم بشيء أكثر تفصيلاً من السابق و بطريقة يبدأ منها التأريخ لنشأة بني إسرائيل و الأحداث و الوقائع المتعلقة بهم ، سواء الدينية أو الاجتماعية أو السياسية و ذلك حسب المنظور التوراتي .

لقد ارتبط التاريخ اليهودي عامة بمفاهيم ثلاثة حددته و ميزته و أكسبته خصوصياته . وهذه المفاهيم ارتبطت بعضها مع بعض ضمن إطار واحد و بشكل متناغم متداخل و هي .. الدين – الشعب – الدولة . و يعود تداخل هذه المفاهيم الثلاثة بعضها مع بعض إلى أن كلاً منها وجد كنتيجة محتواة ضمن المفهومين الآخرين و كإطار حاضن لهما في الوقت نفسه . فمفهوم الدولة أو الأرض ظهر في التوراة كأمر إلهي بنص ديني و كانت الدولة هي الحاضنة و الحامية للدين اليهودي بسبب ارتباط معظم ملوك إسرائيل (حسب المنظور التوراتي) بالله إما كأنبياء و إما كرجال دين كبار . و هذا الأمر انسحب أيضاً على كلا المفهومين الآخرين ، الدين و الشعب و بالطريقة نفسها .

و قد وصف ويل ديورانت الديانة و الحياة الاجتماعية اليهودية [1] بأنها كانت تتمحور حـــول " فكرة وجود إله واحد قادر يسيطر على كل ناحية من نواحي الحياة اليهودية و كل لحظة مـــن لحظاتها . و كان مجلس الكبراء يفرض القوانين الأخلاقية و الآداب الاجتماعية بجميع دقائقها و يشرف على تنفيذها إشرافاً تاماً . و كانت أسباب اللهو و التسلية و الألعاب قليلة و محـــدودة . و كان الزواج بغير اليهود محرماً و كذلك العزوبة و قتل الأطفال . و من ثم كـــان اليهـــود يلدون كثيراً و يربون جميع أبنائهم . و ظلوا طوال العصور القديمة يتكاثرون رغم الحروب و المجاعات ، حتى بلغ عددهم في الإمبرطورية الرومانية أيام قيصـــر ، ســـبعة ملايـــين . و تفاوت الطبقات كان ضعيفاً نسبياً . و كان الدين اليهودي يعيـــب علـــى الطقـــوس اليونانيـــة استرسالها في الخضوع لخيال الشعب و يزدريها لهذا السبب . و كـــان الربـــانيون يواجهـــون طقوس الشرق الهلينية بإنشاء هذه النغمة التي لا تزال تردد حتى اليوم في كل كنيس يهودي [**اسمعي يا إسرائيل .. الرب إلهنا .. الرب واحد**] و كانت ثلاثة قوى تحمي اليهود مـــن هـــذا الهجوم القوي على عقلهم و حواسهم و هي ما وقع عليهم مـــن الاضـــطهاد أيـــام أنتيخـــوس الرابع[1] ، و حماية رومة ، و سلطان القانون اليهودي و هيبته ، لأنه كان في اعتقـــاد اليهـــود وحياً منزلاً من عند الله ، . و تجمع الأتقياء من اليهود كما تتجمع الكريات البيضاء فـــي الـــدم لحماية الجسم من جراثيم الأمراض . و ألفوا هيئة من الصفوة المختارة أطلقوا عليهـــا اســـم (المتقين) حيث بدأت هذه الجماعة حوالي عام / ٣٠٠ / قبل الميلاد بعهد بسيط قيدوا أنفسهم به ، ثم ذهبوا فيما بعد مدفوعين بسيكولوجية الحرب المحتومة إلى أبعد حدود التزمت . فحرمـــوا جميع الملذات و عدوها استسلاماً للشيطان و لليونان . و قد عجب منهم اليونان أشد العجب و

---

[1] قصة الحضارة المجلد /٨/ ، ص/٥٣/ .

[1] قائد سلوقي أكره اليهود في فلسطين على اتباع الأعراف اليونانية .

ضموهم إلى زمرة الفلاسفة الزاهدين العرايا العجيبين الذين التقت بهم جيوش الإسكندر في بلاد الهند " .

و من خلال قراءة التاريخ اليهودي ، تتضح لنا صورة أن اليهود عامة و خاصة الفئات المتنفذة دينياً و اجتماعياً منهم ، كانت تتمسك بهذا المبدأ أو الثالوث المذكور آنفاً ، و تعد أن أي خلل في أحد مفاهيم عن المفهومين الآخرين أو التخلي عنه و خاصة الدين ، يؤدي إلى دمار و انقراض اليهود و انصهارهم في بوتقة حضارات و ثقافات الدول و الشعوب الحاكمة أو المجاورة لهم . و لعل سفري المكابيين الأول و الثاني يقدمان فكرة توضيحية عن تعرض اليهود لفرض ثقافات الأمم و الشعوب الأخرى عليهم قسراً و بحد السيف ، و مقاومتهم عامة لهذه الثقافات . و ربما هذا الأمر يفسر لنا وجود هذه الثقافات في تراثهم و كتبهم ، و أحد أهم رموز المقاومة تلك ، هو مكابي[٢] الذي نسب إليه على ما يبدو سفري المكابيين الأول و الثاني .

و تعود القصة في بدايتها إلى أنتيخوس الرابع الذي كان يريد فرض الثقافة اليونانية و ثقافة العصر الهلنستي على اليهود الذين يحتفظون بنوع من الغيتو الثقافي و الديني يناقض المفهوم و الثقافة الهلينية التي نشأت على أنقاض إمبراطورية الإسكندر المقدوني الكبير ، ففرض الأنظمة و الثقافة اليونانية على أصقاع مملكته السلوقية . و قام نائبه في فلسطين بهذه المهمة ، و كان يهودياً ، فقام هذا بفرض فكرة توحيد الإلهين يهوه و زيوس اليوناني ، و غير من عادات وطقوس المعابد اليهودية و افتتح نوعاً من المدارس و النوادي الرياضية اليونانية في أورشليم ، و فرض على الشبان اليهود المشاركة فيها وفقاً لقوانينها . فكان بعضهم يشارك في الألعاب الأولمبية و هو عار تماماً حسب الأعراف اليونانية .

---

[٢] سفر المكابيين الأول و الثاني – قصة الحضارة .

إزاء هذا الحدث الطارئ تنبهت بعض الفئات الدينية اليهودية إلى هذا الخطر الذي عدته يهـــدد الدين و الكيان اليهودي من أساسه ، فعمدت إلى مقاومته . و لما هزم القائد الروماني بوبليوس ، انتيخوس الرابع في مصر ، و اضطره إلى الخروج منها ، ثار اليهود في فلسطين و هاجموا أعوان أنتيخوس في أورشليم و قتلوا بعضهم و أعادوا هيكلهم إلى ســيرته الأولـــى . و لكـــن أنتيخوس هاجم أورشليم و قتل الآلاف من اليهود و عاث في الهيكل فساداً و أخذ كل محتوياته و أعاد رجال الذين فروا إلى أورشليم مرة أخرى و طلب منهم هذه المرة أن يجبـــروا اليهـــود كلهم على الثقافة الهلينية و أن يعبد الإله زيوس في الهيكل و يقام له مذبح يوناني . و اســـتبدل بالقرابين القديمة ، قرابين من الخنازير . و حرم تقديس يوم السبت و العطلـــة فيـــه ، و منـــع الاحتفال بالأعياد اليهودية . و أمر بإعدام كل من يقوم بعملية الختان التي كانت ســـمة مـــن سمات الديانة اليهودية ، و حرم جميع طقوس الدين اليهودي و أجبـــر اليهـــود علـــى إتبـــاع الأعراف اليونانية . و من كان يخالف ذلك ، كان مصيره الموت . و فرضـــت نتيجـــة لـــذلك الثقافة اليونانية الهلينية بكل أشكالها و مظاهرها على اليهود الذين هرب بعضهم إلـــى الجبـــال الوعرة و احتفظوا بعاداتهم و طقوسهم اليهودية ، مختبئين في الكهوف . و مع ذلك فإنهم لـــم ينجوا في بعض الأحيان من مطاردة جنود أنتيخوس الذين عثروا ذات مرة علـــى مجموعـــة كبيرة من الرجال اليهود مع عوائلهم و أطفالهم في أحد الكهوف ، فقتلوهم . و قد عـــد بعـــض المؤرخين مثل ديورانت أن هذه الحوادث أسهمت في أن تصبح اليهودية قومية و ديناً معـــاً و تنحو نحو العزلة لتحمي و تحافظ على نفسها و تثبت قواعدها و تأصل جذورها .

و قد برز من بين هؤلاء الذين فروا إلى الجبال ، رجل دين يدعى متثيـــاس ، و كـــان يعـــود بنسبه إلى أسباط هارون . هذا الرجل قاوم التغيرات الدينية و الثقافية التي فرضت على بنـــي قومه ، مقاومة شرسة . و حدث أن جاء ذات مرة نائب الملك أنتيخوس إلى المنطقة التي كـــان

فيها و طلب من أهلها تقديم القرابين للإله اليوناني زيوس . فرفض متثياس هذا الأمـــر و قـــام بقتل الموفد و أعلن عن قيام ثورة عصيان مسلحة و قام بجمع عدد لا بأس به من الأتبـــاع و تحصن بهم في أحد الجبال القريبة ، و لم يلبث بعد ذلك أن توفي فخلفه ابن له يســـمى مكـــابي الذي قاوم أنتيخوس مقاومة عنيفة و انتصر على الجيوش التي كان يرسلها لإخضـــاعهم فـــي معارك عدة عنيفة دامية ، و عمل على تطبيق الشريعة بشكل صارم . و عنـــدما دخـــل إلـــى أورشليم ، أزال من الهيكل كل مظاهر الثقافة و الدين اليونانيين و أعاد له صبغته اليهودية من جديد و أقام شعائر الدين اليهودي مرة أخرى [1] . و كانت هذه الخطوة فيما يبدو بالنسبة إليـــه دافعاً لتشكيل كيان سياسي يهودي مستقل ، لدرجة أنه عندما طرح خليفة أنتيخـــوس المهادنـــة معه و عرض على اليهود أن يسمح لهم بإقامة شعائرهم كاملة بشرط التخلي عـــن الحـــرب ، فوافق قسم من اليهود على ذلك و لكن مكابي أعلن بأن اليهود لن يتحقـــق لهـــم ذلـــك إلا إذا أنشؤوا كياناً سياسياً و دينياً مستقلاً ، و كان هذا بالنسبة لليونانيين طرحاً غير مقبـــول أبـــداً ، فعادت الحرب من جديد ليقتل مكابي هذه المرة بعد أن سار إليه جيش جرار و قتل من بعـــده أخوته الثلاثة بينما استطاع الأخير منهم أن يحصل من الرومان على اعتراف باستقلال اليهود . فكان من نتيجة ذلك أن أصبح حاخاماً أكبر و قائداً عسكرياً و تم إصدار عملة للدولة الجديدة .

إن الأحداث الآنفة الذكر تعبر عن مدى العلاقة الوثيقة بين الدين و السياســـة فـــي الأعـــراف اليهودية . فكان كبار اليهود يعدون أن أي ثقافة أو مفهوم غريب و دخيل على ما عهدوه قائماً في مجتمعاتهم ، يمثل خطراً داهماً على وجودهم نفسه . و قد توافرت عوامـــل عـــدة تـــدعم سيطرة هذه القضية عليهم أهمها هو الخطاب الديني التوراتي الذي جاء إليهم و احتـــوى فـــي

[1] هذه الحادثة لا يزال اليهود إلى اليوم يحتفلون بها و تعد من الأعياد المهمة بالنسبة لهم .

مضمونه أبعاداً اجتماعية و سياسية ارتبطت بوثاق محكم بالدين ، شكل لهم بعد ذلك مع الأحداث السياسية و التاريخية التي تعرضوا لها و عايشوها ، مفهوم قومي خاص بهم . ليس ذلك فقط بل حتى المفهوم القومي ، كان موجوداً في التوراة لديهم . و نستدل على ذلك من فقرات عدة وردت في الأسفار التوراتية منها **[فيصرخ اللاويون و يقولون لجميع قوم إسرائيل بصوت عال ملعون الإنسان الذي يصنع تمثالاً منحوتاً أو مسبوكاً رجساً لدى الرب .... و يجيب جميع الشعب و يقولون آمين]** (التثنية ٢٧ : ١٤) . **[من يقول إن لبني إسرائيل طاقة بمقاومة الملك نبوخذ نصر و جيوشه و هم قوم لا سلاح لهم و لا قوة و لا خبرة في أمر الحرب]** . (يهوديت ٥ : ٢٧) . **[أيها الرب القدير إله إسرائيل اسمع صلاة قوم إسرائيل ...]** (سفر باروخ ٣ : ٤) .

هذا كله كان يصاغ أحياناً على شكل عهد و ميثاق بين الله و بين اليهود **[فتختنون في كم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني و بينكم]** (سفر التكوين ١٧ : ١١) . **[احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم إلهكم الذي قطعه معكم ...]** (التثنية ٤ : ٢٣) . **[فيقولون لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعه معهم حين أخرجهم من أرض مصر]** (التثنية ٢٩ : ٢٥) . **[و يكون المأخوذ بالحرام يحرق بالنار هو و كل ماله لأنه تعدى عهد الرب]** (يشوع ٧ : ١٥) . **[حينما تتعدون عهد الرب إلهكم الذي أمركم به ... يحمى غضب الرب عليكم فتبيدون سريعاً عن الأرض الصالحة التي أعطاكم]** (يشوع ٢٣ : ١٦) و غيرها الكثير من الآيات و الفقرات التي تظهر فيها صيغة التحذير الصارم من الإخلال بالعهد و التهديد و الوعيد بعقاب شديد من جراء ذلك . و هذا كله يدعو إلى القول إن هذا الأمر قد أدى إلى نشوء حكمة سلطانية قوية اكتسبت شرعية دينية مباشرة و سلطة سياسية استمدتها من تلك

الشرعية التي نصت عليها صراحة في بعض إصحاحات التوراة ، و هذا ما سوف نتطرق إليه لاحقاً .

ثم جاء مفهوم العهد و الميثاق ليثبت هذه العلاقة و يجعلها بمنزلة عمود الدين لـــدى الإنســـان اليهودي ، بحيث أصبحت معممة على كل فرد في المجتمع اليهودي ، خاصـــة و أن بعـــض شخصيات و رموز هذه الحكمة السلطانية كانوا أنبياء و رسلاً من عند الله و جميعهم اتخـــذوا موقع القيادة للشعب اليهودي . و فضلاً عن ذلك فإن هذه الحكمة السلطانية كانت ترى نفســـها في أحايين كثيرة أنها تتحمل مسؤوليتين ، مسؤولية أمام الله و مسؤولية أمام شـــعبها . و كـــان منهجها هو جعل مسؤوليتها أمام شعبها تابعة لمسؤوليتها أمام الله و مشتقة منها . أمـــا عنـــدما كانت تتعرض للهزات و الكوارث السياسية الضـــاغطة عليهـــا مـــن كـــل الجهـــات و مـــن إمبراطوريات و ممالك قوية عتيدة ، فإنها كانت تضطر أحياناً للمشي بحرج و دقة على الحبل الفاصل بين المسؤوليتين بحيث تستطيع التوفيق بينهما ، فأحياناً كانت تقطع الشـــوط و أحيانـــاً كانت تقع .

و المشكلة الرئيسة برأينا التي كانت سبباً في ذلك ، هـــي موقـــع فلســـطين الهـــام ذو الأرض الاستراتيجية الخصبة بين عدة حضارات و ممالك و دول قويـــة متصـــارعة فيمـــا بينهـــا ، كالمصريين و البابليين و الفرس و الإغريق و الرومان ، كانت تنظر إلى فلسطين كـــأرض و موقع أكثر من نظرتها إلى من فيها من السكان . و كانت تعد أن الديانة اليهودية شأنها شـــأن باقي الديانات المحلية الأخرى ، حيث يمكن تبادل الولاء للآلهة فيهـــا بشـــكل طبيعـــي بحكـــم المنتصر سياسياً و عسكرياً ، و لم تفطن إلى صبغة الوحيد السماوية التي شكلت عماد الديانـــة اليهودية و إلى الصيغة الممنهجة التي بنيت عليها هذه الديانة و التي قامت على أســـاس إلـــه واحد و شعب واحد متجانس و مرتبط برابطة الدم و النسل ، و كتاب سماوي منزل و وجـــود

أرض محددة بعينها و ذاتها . و ذلك كله صيغ في قالب و إطار واحد لم يكن مفهوماً لبقية شعوب الدول و الممالك المجاورة و التي لم تصلها عقيدة التوحيد السماوي . و ربما كانت المشكلة من منظور آخر ، هي بين أقوام يعتقدون بحرية التنقل بين آلهة متعددة يرنون إليها و تنزل إليهم و يغيرون أسماءها و صفاتها و أشخاصها من دون أن يخشوا بطشها و أذاها ، و علاقتهم معها تعكسها قوانين مطاطية عامة تتغير طبقاً للظروف و الحاجات و طبقاً لصراع الآلهة نفسها ، و بين قوم ارتبطوا بعهد مع إله واحد ليس له شركاء و له قوانين ثابتة محددة و أي إخلال بها أو بهذا العهد فإنهم معرضون لعقابه و عذابه الشديدين اللذين قد يصلان أحياناً إلى حد التدمير الكامل ، و بالتالي فإن هذه القضية قد أفرزت نوعاً من سوء الفهم أو ما يسمى حوار الطرشان في ذلك . أي أن هذه الشعوب و الدول الآنفة الذكر ، كانت ترى في وضع اليهود خطراً عليها أكثر مما ترى أنهم شعب مرتبط بعقيدة سماوية لا يمكنه التخلي عنها أو الزحزحة عن مضمونها . و هذا ما يتضح لنا من استقراء التاريخ اليهودي عامة منذ بدايته حتى تدمير الهيكل نهائياً على يد الرومان .

لقد شكل اليهود بدينهم السماوي الجديد ذي الكتاب و العهد و الإله الواحد و الذي لم تعهده شعوب التاريخ من قبل ، شكلوا خرقاً للبروتوكول العام المتعارف عليه في التاريخ القديم حيث كان الطرف المنتصر في الحروب إما أن يفرض آلهته على الشعوب المغلوبة و إما أن يجعلها إلى جانب آلهتها أو ينصب هو الآخر نفسه إلهاً عليها ، و بدورها تلك الشعوب لم تر عامة ، حرجاً في تقبل هذا الأمر عامة لأن مفهوم تعدد الآلهة وكثرتها و كثرة تخصصاتها المهنية ، كانت أمراً مألوفاً و طبيعياً . و لعل الحادثة الكارثية التي جرت بين الحاكم اليوناني أنتيخوس و اليهود ، تدلل بشكل قوي على هذه الفكرة . فالرجل و حسب التاريخ ، لم يأت إلى فلسطين من أجل اليهود ، بل من أجل فلسطين نفسها التي كانت تحت حكم المصريين ، لأنها كانت

بالنسبة إليه مصدر تموين للإمبراطورية السلوقية . و المفارقة العجيبة هنا ، هي أن اليهود قد رحبوا بحكم اليونانيين عليهم و الذين كانوا على ما يبدو مثال الديمقراطيـــة و قلـــة الاهتمـــام بالآلهة ، فساعدوا أنتيخوس الثالث على دخول البلاد ليحررهم من حكم المصريين ذوي الديانة المتشددة و التي حارب فراعنتها الديانة اليهودية . و عندما جاء أنتوخيوس الرابع إياه إلـــى و فرض على اليهود ضرائب باهظة تمثلت بأن يدفعوا ثلث ما تنتجه محاصيلهم الزراعيـــة إلـــى الدولة و نصف ما تنتجه الأشجار ، رضوا بذلك و دفعوا المطلوب منهم من دون أي تذمر أو احتجاج . و لكنه عندما دخل المجال الديني و الثقافي الاجتماعي ، قال له اليهود (ســـتوب .. ستوب) و اعترضوا متمردين على هذا القرار . و عندما فرض عليهم ذلك بـــالقوة ، عـــادوا مرة أخرى إلى المصريين و البطالمة و وقعت المعارك المذكورة بينـــه و بيـــنهم . حتـــى أن متثياس اليهودي عندما حوصر في الجبال و فرض عليه اتباع العادات و الطقوس اليونانيـــة ، رفض بشدة هذا الأمر في صورة عرضها سفر المكابيين الأول على الشكل التـــالي [**فأجـــاب متثياس بصوت عظيم و قال إنه و إن طاعت للملك كل الأمم التي في دار مملكته و ارتد كـــل واحد عن دين آبائه و رضي بأوامره / فأنا و بني و أخوي نسلك في عهد آبائنا الأولـــين / فحاشا لنا أن نترك الشريعة و الأحكام / إننا لن نسمع لكلام الملك فنحيد عن ديننـــا يمنـــة و يسرة / و لما فرغ من هذا الكلام أقبل رجل يهودي على عيون الجميع ليذبح علـــى المـــذبح على مقتضى أمر الملك / فلما رأى متثياس ذلك غار و ارتعش حقواه و استشـــاط غضـــباً و فاقاً للشريعة فوثب عليه و قتله على المذبح / و في ذلك الوقت قتل أيضاً رجل الملك الـــذي كان يجبر على الذبح و هدم المذبح / و صاح متثياس في المدينة بصوت عظيم قائلاً كل من غار على الشريعة و حافظ على العهد فليخرج ورائي / و هرب هو و بنوه إلـــى الجبـــال و تركوا كل مالهم في المدينة]** .

لقد وجد اليهود الذين حملوا ديانتهم التوحيدية و كتابها المقدس و العهد الذي قطعوه ، وجـدوا أنفسهم في وجه المدفع أمام إمبراطوريات و ممالك قوية لم تتفهم و تتقبل خصوصياتهم الدينية و لا فكرة و مفهوم العهد الذي ربطهم مع الله . لقد كان الاخـتلاف و الصـراع الفكـري و الدموي حقيقة بين حكمة سلطانية تعد نفسها مرتبطة مع الله بعهد إلهي تم إبرامه ، و وعد منه بأرض جغرافية و حماية و سيادة مطلقتين مقابل الالتزام بهذا العهد ، و بين حكم سلطانية تعد نفسها أيضاً وريثة الآلهة و أحياناً آلهة و غير معنية بهذا العهد . و التاريخ اليهودي عامة قـد يعطينا فكرة توضيحية عن ذلك الأمر .

التاريخ اليهودي :

إن التاريخ اليهودي حسب المنظور التوراتي ، قد حدد سلالة الخلق لبني إسرائيل منذ عهد آدم ، حيث جاء في الإصحاح الخامس و ما بعده في سفر التكوين ، سجل كامـل بمواليـد آدم و ذريته ، جرى فيه تعداد لذريته و سلالته من ذكر المدة التي عاشوا فيهـا و التفرعـات التـي انشقوا منها ، تخلل ذلك قصة النبي نوح و الطوفان و من ثم تعداد لسـلالة نـوح و أبنائـه و الأقوام و الأمم التي نشأت منهم مع ذكر لقصة برج بابل حيث جعل الله ألسنة الشعوب مختلفة و تفرقوا في أصقاع الأرض لتستمر عملية تعداد النسب ، و لكن هـذه المـرة اختصـت بـه التوراة أبناء سام فقط و ذلك في الإصحاح الحادي عشر . و تنتهي عملية تعداد النسـب عنـد إبراهيم أو إبرام الذي كان حسب ذكر التوراة ابن تارح ابن ناحور ابن سروج ابـن فـالج ... حتى سام .

و في الإصحاح الثاني عشر من السفر المذكور تبدأ قصة إبراهيم التي كانـت برأينـا تشـكل الملامح الأولى للشعب اليهودي حسب المنظور التوراتي ، لأن التوراة عند هذه النقطة بالذات

من ذلك الإصحاح ، تبدأ بسرد الوقائع و الأحداث الاجتماعية و التاريخية و تبدأ في الوقت نفسه بالتقليل من تعداد نسب و ذرية الأنبياء و الصالحين و غيرهم .

و تخبرنا التوراة في الإصحاح ذاته أن تارح والد إبرام كان يقطن أرض أور الكلدانيين ، فارتحل منها إلى أرض كنعان و معه ابنه إبرام و حفيده لوط من ابنه هازان . و لكنه وصل إلى أرض حاران واستقر فيها و ما لبث بعد ذلك أن توفي و له من العمر مائتان و خمس سنين . بعد ذلك مباشرة تبدأ الخطوة الأولى في تكوين تاريخ الشعب اليهودي ، حين يطلب الرب من إبرام ترك أرضه و الرحيل إلى أرض أخرى ، في الفقرة الأولى من الإصحاح الثاني عشر التي تقول [**و قال الرب لإبرام اترك أرضك و عشيرتك و بيت أبيك و اذهب إلى الأرض التي أريك / فأجعل منك أمة كبيرة و أباركك و أعظم اسمك و تكون بركة لكثيرين و أبارك مباركيك و ألعن لاعنيك و تتبارك بك جميع أمم الأرض**] . هذه الآية بنظرنا تعد أساس التاريخ اليهودي كله لأنها تؤسس لتشكيل قومية منفصلة متجانسة (فأجعل منك أمة كبيرة) كما أنها تؤسس أيضاً لمفهوم الأرض التي أعطاها الله في التوراة لبني إسرائيل (اذهب إلى الأرض التي أريك) بالرغم من أنها تؤسس أيضاً لمفهوم تمييز بني إسرائيل (و أبارك مباركيك و ألعن لاعنيك) . و نعتقد أن مفهوم صفاء العرق و الجنس عند الشعب اليهودي ربما يكون قد جاء من هذه الآية أيضاً و ذلك من عبارة (اترك أرضك و عشيرتك و بيت أبيك .... فأجعل منك أمة عظيمة) . فالغاية هنا هي تأسيس أمة و شعب من نسل إبرام و من معه لأن الرب لم يقل صراحة و أجعل من نسلك بل قال و أجعل منك .

ثم وصل إبرام [1]إلى موضع يقال له شكيم في سهل مورة حيث كان الكنعانيون يقطنون تلك الأرض . و هنا جاء النص الإلهي صراحة بإعطائه أرضاً ليقطن فيها هو و ذريته **[و ظهر الرب لإبرام و قال له " سأعطي هذه الأرض لذريتك فبنى إبرام هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له]** (سفر التكوين ١٢ : ٨) و يستقر إبرام في تلك المنطقة ، و لكن و بعد فترة تعم البلاد المجاعة فيذهب إلى مصر . و هنا تصف التوراة فعل إبرام هذا بكلمة ملفتة للإنتباه و هي (التغريب) حيث جاء في النص التوراتي **[و عمت تلك البلاد مجاعة فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب فيها لأن المجاعة كانت شديدة في الأرض]** (سفر التكوين ١٢ : ١١) . و كأن المعنى هنا هو أن كل أرض غير تلك الأرض التي أعطاها الرب لإبرام في النص التوراتي ، هي أرض غريبة بالنسبة له .

يقضي إبرام فترة في مصر و يجني ثروة طائلة قوامها الماشية و الذهب و الفضة . و بعد ذلك يعود إلى الأرض التي منحت له و التي سمتها التوراة هذه المرة " بيت إيل " و كان ابن أخيه لوط على ما يبدو مرافقاً له في كل رحلاته تلك . ثم يفترق عنه بعد ذلك بناء على طلب إبرام نفسه و يذهب إلى أرض سدوم . و لا تذكر التوراة هنا أية نزاعات أو إشكالات بين إبرام و لوط و بين الكنعانيين و غيرهم .

بعد استقرار إبرام لفترة طويلة ، يضطر للزواج من جاريته المصرية هاجر ، لأن زوجته سارة لم تستطع إنجاب أولاد له ، فتحمل هاجر منه و تنجب له إسماعيل ، ثم تنجب له سارة إسحاق بعد ظهور الرب له . و في كل هذه السيرة لا يظهر أي أثر واضح في التوراة إلى وقائع و صراعات بين اليهود و بين جيرانهم من الشعوب و لا حتى شيء من الكره أو البغض ، بل نلاحظ في بعض الأحيان نوعاً من التودد و المسالمة كما في حالة إبرام مع

[1] التاريخ هنا سيكون حسب ما أوردته التوراة و بشكل مختصر .

الملك ملكي صادق في الإصحاح الرابع عشر أو مع الملك أبيمالك في الإصحاح العشرين من سفر التكوين .

و لكن أول إشارة إلى الصراع و البغض و الكره ، ظهرت في الإصحاح الرابع و العشرين من السفر عينه عندما بعث إبراهيم [٢] كبير خدمه إلى الأرض التي قضى فيها أول ترحاله ليجد زوجة لابنه إسحق ، و عندما وفق الخادم في مهمته تلك و عثر على الفتاة المطلوبة و قبل أخوتها الزواج و أرسلوها معه إلى أرض إبراهيم ، جاء ذكر وداعهم لها في الإصحاح [**و باركوا رفقة قائلين لها أنت أختنا فلتتكاثري لتصيري ألوف ألوف و لترث ذريتك مدن مبغضيها**] (التكوين ٢٤ : ٦١) .

و لكن أول نزاع حقيقي بين اليهود و جيرانهم ، ظهر عندما أراد إسحاق بسبب القحط و الجوع الارتحال إلى أرض مصر ، و في الطريق في مدينة تدعى جرار و كانت تابعة لأبيمالك ملك الفلسطينيين . ظهر الرب له (حسب التوراة) قائلاً [**لا تمض إلى أرض مصر بل امكث في الأرض التي أعينها لك أقم في هذه الأرض فأكون معك و أباركك**] (التكوين ٢٦ : ٣) و يتابع الإصحاح حياة إسحق قائلاً [**و زرع إسحاق في تلك الأرض فحصد في تلك السنة مئة ضعف لأن الله باركه / و عظم شأن الرجل و تزايد غناه و أصبح واسع الثراء و النفوذ / و صارت له ماشية غنم و قطعان بقر و عبيد كثيرون فحسده الفلسطينيون / و ردم الفلسطينيون بالتراب جميع الآبار التي حفرها عبيد أبيه في أيام إبراهيم / و قال أبيمالك لإسحق ارحل عنا لأنك أصبحت أكثر قوة منا / فانصرف إسحق من هناك وضرب خيامه في وادي جرار حيث أقام**] (التكوين ٢٦/ ١٣ – ١٨) . ثم يدور نزاع بين إسحاق و

[٢] أصبح اسمه إبراهيم اعتباراً من الإصحاح السابع عشر حيث بدل الرب اسمه من إبرام إلى إبراهيم .

بين الفسطينيين (حسب التوراة) حول الآبار التي تم حفرها و لكنه يحل بطرقة سلمية على ما يبدو و يتم عقد اتفاق صلح بين إسحاق و أبيمالك .

بعد إسحاق يتم الأمر لابنه يعقوب الذي حصل على بركة والده بدل أخيه عيسو الأكبر و ظهر الرب ليعقوب في المنام في أثناء ذهابه للزواج من ابنة خاله لابان و قال له **[أنا هو الرب إله أبيك إبراهيم و إله إسحق إن الأرض التي ترقد عليها الآن أعطيها لك و لذريتك]** (التكوين ٢٨ : ١٤) . بعد ذلك يصل يعقوب إلى أرض خاله لابان و يتزوج من ابنتيه ليئة و راحيل التي تكون عاقراً ، فيلد من ليئة أبناء عدة و يلد من جارية راحيل التي زوجته إياها ، و في النهاية تحمل راحيل و تلد له النبي يوسف . ثم يحصل خلاف بين يعقوب و خاله لابان ، فيعود إلى أرض أبيه إسحاق مع زوجاته و أولاده و مواشيه ليستقر هناك .

عند هذه النقطة تخبر التوراة في الإصحاح الرابع و الثلاثين عن أول معركة حربة بين اليهود و بين جيرانهم و ذلك بسبب ابنة يعقوب و اسمها دينة حيث جاء في الإصحاح **[و خرجت دينة ابنة ليئة التي أنجبها ليعقوب لتتعرف على بنات المنطقة المحيطة / فرآهما شكيم بن حمور الحوي رئيس المنطقة فاخذها و اغتصبها و لوث شرفها / و وفد حمور والد شكيم على يعقوب ليخاطبه بشأن دينة / و أتى بنو يعقوب من الحقل عندما سمعوا بالأمر و قد استشاطوا غضباً و غيظاً لأن شكيم قد ارتكب فاحشة في إسرائيل بمضاجعة ابنة يعقوب هو أمر محظور / و قال حمور لقد تعلقت نفس ابني شكيم بابنتكم فأطلب إليكم أن تزوجوه منها / صاهرونا و زوجونا بناتكم و تزوجوا من بناتنا / و اسكنوا معنا فها هي الأرض أمامكم اقيموا بها و اتجروا و تملكوا]** (التكوين ٣٤ و ما بعد) . و لكن أبناء يعقوب يطلبون من حمور و رجاله الاختتان كشرط للزواج ، و عندما يفعل هؤلاء ذلك ، يقوم اثنان من أبناء يعقوب بالدخول إلى المدينة و قتلهم و استرجاع أختهم التي بنظرهم قد لوث شرفها . و

يستنكر يعقوب هذا الفعل الشنيع و يقول لولديه شمعون و لاوي اللذان قاما به [**لقد جلبتما علي الشقاء و كراهية الكنعانيين و الفرزيين الساكنين في هذه البلاد و ها أنا نفر قليل فيتألبون علي و يقتلونني فأبيد أنا و بنيّ / فقالا له أنظير زانية يعامل أختنا ؟**] (التكوين ٣٤ / ٣٠ – ٣١) .

و يضطر يعقوب بعد ذلك إلى الرحيل إلى بيت إيل بأمر من الله و هناك غير الله اسمه من يعقوب إلى إسرائيل و جدد عهده معه . بعد ذلك تتحدث التوراة عن موت راحيل زوجة يعقوب و موت إسحاق والده ، ثم تأتي إلى قصة يوسف التي تمثل تحولاً هاماً في أوضاع الشعب اليهودي من ناحية الحكم و السياسة ، حيث إن مفهوم الملوك أو الملك لم يكن قد ظهر بعد في التاريخ اليهودي ، بل و حتى الحاكم . إذ كان الشعب اليهودي مجرد قبائل متجمعة قريبة بعضها من بعض جغرافياً و تخضع كل منها عادة لشيخ كبير في السن مهمته تطبيق عهد الرب مع آبائه و أجداده ، و ذلك بعد أن تكاثروا و تفرقوا .

و تبدأ قصة يوسف و هو أصغر و آخر اخوته ، برؤيته حلماً يظهر فيه هو و أخوته و قد حزم كل منهم حزمة في الحقل ، ثم سجدت باقي الحزم لحزمته ، و بعدها رأى حلماً آخر و هو أن أخوته هم أنفسهم قد سجدوا له . فأدى هذا إلى كره أخوته له و تدبيرهم موآمرة لقتله . و عندما ذهب إليهم في أحد الأيام حيث كانوا يرعون أغنامهم ألقوا به في إحدى الآبار و عادوا إلى ديارهم . و لكن قوم من الإسماعيليين انتشلوا يوسف و ذهبوا به إلى مصر حيث باعوه إلى أحد موظفي فرعون و اسمه (فوطيفار) فمكث عنده يوسف في البيت كمدبر لشؤونه . و لكن زوجة الرجل المصري راودته عن نفسه و عندما رفض الإذعان لطلبها اتهمته بمحاولة اغتصابها فزج به في السجن الخاص بفرعون . و اتفق أن كان بالسجن معه رجلان من خدم فرعون و حلم كل منهما حلماً في ليلة واحدة و لم يعرفا ما هو تفسير الحلمين

، فقام يوسف و فسر لكل واحد منهما حلمه حيث كان بالنسبة لأحدهما الخروج من السجن و للأخر الموت المحتم ، ثم طلب من الذي سيفرج عنه ، المساعدة عند فرعون لإطلاق سراحه ، فتحقق تفسير الحلمين ، و لكن الرجل الذي أطلق سراحه ، نسي أمر يوسف ، إلى أن حلم الفرعون ذاته هذه المرة حلماً غريباً و لم يستطع أحد من كهنته و سحرته تفسيره . و في هذا الشأن وردت عبارة الحكمة في الآية التي تتحدث عن هذه القضية **[و لما كان الصباح استولى الانزعاج على فرعون فأرسل و استدعى جميع سحرة مصر و كل حكمائها و سرد عليهم حلمه فلم يجد من يفسره له]** (التكوين ٤١ : ٩) .

يستشف من الفقرة السابقة أن الحكماء كان لهم دور مهم في تدبير شؤون و سياسة مصر ، حسب التوراة ، و أن الحكمة كانت تبرز في كل أمر خطير يتعلق بالمملكة . هنا تذكر رئيس سقاة فرعون الذي كان في السجن مع يوسف ، كيف فسر يوسف له حلمه ، فأخبر فرعون بالقصة و تم استدعاء يوسف ليفسر الحلم . و عندما مثل يوسف أمام الفرعون أخبره بتفسير حلمه و أن مصر قادمة على سنين من الجوع و القحط و عليه أن يدبر أمره من الآن . و نتيجة لذلك قام فرعون بتعيين يوسف كمسؤول كبير في المملكة للتصدي لهذه المشكلة و عد ذلك نوعاً من الحكمة عندما قال له حسب الإصحاح **[من حيث إن الله قد أطلعك على كل هذا فليس هناك بصير و حكيم نظيرك / لذلك أوليك على بيتي و يذعن شعبي لكل أمر تصدره و لن يكون أعظم منك سواي أنا صاحب العرش]** (التكوين ٤١ / ٤٠ – ٤١) .

لقد كانت نظرة فرعون حسب الفقرات السابقة ، أن الحكمة التي لدى يوسف مصدرها الله ، أي أن الحكمة البشرية المدبرة لسياسة و أصول الحكم حسب النظرة المصرية و التوراتية معاً ، لها علاقة بالحكمة الإلهية حتماً . و لقد صدع فرعون لذلك و سلم يوسف أعلى منصب في مصر بحيث لم يبق أعلى منه إلا الفرعون نفسه ، و هذا دليل على أن الحكمة كان لها الدور

الأول الأساس في صفات الشخصية القيادية ، و يدل على إدراك المصريين القدماء لمفهوم الحكمة و قدسيتها ، خاصة إذا ارتبطت بالأمر الإلهي .

يباشر يوسف عمله في منصبه القيادي الخطير و الهام و يثبت جدارة و استحقاق له ، و بخاصة عندما تأتي سنوات الجفاف و الجوع و القحط ، حيث قام بتخزين كميات هائلة من الحبوب و الأطعمة في المستودعات . و لم يقتصر الجوع على أرض مصر فقط ، بل تعداه إلى أرض فلسطين . و هنا يبعث يعقوب أولاده إلى مصر ليشتروا القمح . و هناك تعرف يوسف عليهم و لكنهم لم يعرفوه . و سألهم عن أمرهم فعرفوه على أنفسهم و ذكروا له عددهم كاملاً و أخبروه أنهم فقدوا أخاً لهم اسمه يوسف و الآخر صغير بقي عند أبيهم ، فأعطاهم يوسف طلبهم و أخذ واحداً منهم رهينة لكي يعودوا و معهم أخوهم الصغير و اسمه بنيامين ، فعادوا إلى أبيهم يعقوب و عندما نفذ القمح مرة أخرى ، طلب منهم يعقوب العودة إلى مصر ثانية و لكنهم أخبروه بموضوع أخيهم بنيامين و أنهم مضطرون لأخذه معهم نزولاً عند رغبة الحاكم المصري الذي لم يعرفوه ، فوافق يعقوب بعد أن أخذ ضماناً و عهداً من ابنه يهوذا بإعادة بنيامين . و عندما وصلوا إلى مصر أكرمهم يوسف و لكنه قام بحركة اختبار لهم فاحتفظ بأخيه بنيامين مدعياً أنه سرق منه آنيته الفضية ، فجثا أخوته أمامه ضارعين متوسلين و تكلم يهوذا بالنيابة عنهم و أخبره بقصة والدهم و العهد الذي قطعه عليه و أخذ يرجوه و يتوسل إليه أن يأخذه بدلاً من بنيامين . و هنا كشف لهم يوسف عن حقيقته و قال لهم كما في التوراة **[و قال يوسف لأخوته أنا يوسف فهل أبي ما زال حياً ؟ فلم يستطع أخوته أن يجيبوه لأنهم امتلؤوا رعباً منه / فقال يوسف لأخوته ادنوا مني فاقتربوا منه فقال أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر / فلا تتأسفوا الآن و لا يصعب عليكم أنكم بعتموني إلى هنا لأن الله أرسلني أمامكم حفاظاً على حياتكم / فقد صار للمجاعة في هذه الأرض سنتان و**

بقيت خمس سنوات لن يكون فيها فلاحة و لا حصاد / و قد أرسلني الله أمامكم ليجعل لكم بقية في الأرض و ينقذ حياتكم بخلاص عظيم / فلستم أنتم الذين ارسلتموني إلى هنا بل الله الذي جعلني مستشاراً لفرعون و سيداً لكل بيته و متسلطاً على جميع أرض مصر] (التكوين ٤٥ / ٤ – ٩) .

بعد ذلك يطلب يوسف حضور أبيه و أخوته ليعيشوا معه ، فيتم الأمر و تكون هذه نقطة تحول في تاريخ الهجرات اليهودية و بداية وجود اليهود في مصر بشكل فعلي .

لقد أسست هذه الحادثة (قصة يوسف) لموضوع تشكيل الدولة اليهودية و تطوير أساليب الحكم ، من الأسلوب القبلي البسيط إلى أسلوب المجتمع المنظم الذي يدار من قبل هيئة حكومية لها جيش و مؤسسات و على رأس هذه السلطة كلها ، حاكم أو ملك يحكم من قبل الله بنص ديني . و لعل الآيات السابقة تبين هذا المدلول ، فهي تظهر أن الله هو من دبر كل ما حصل ليوسف و جعل أخوته يلقونه في البئر و من ثم ليؤخذ إلى مصر و يحصل له ما حصل . و ذلك كله من أجل حماية بني إسرائيل من الموت جوعاً . إذاً فهي حكمة إلهية شاءت و قررت و لم يكن الإنسان إلا أداة تنفيذ فقط و ذلك من عبارة يوسف لأخوته (لستم أنتم الذين أرسلتموني إلى هنا بل الله) .

لقد كان يوسف في مصر يمثل الحكمة . و من الواضح أن الموضوع برمته هو تهيئة حكمة إلهية لظهور حكمة سلطانية ، و الظاهر لنا من سياق الآيات السابقة هو أن هدف الحكمة الإلهية التي ألقت بيوسف في البئر و ذهبت إلى مصر ، هو إنقاذ بني إسرائيل من الهلاك جوعاً بسبب الجفاف و القحط . و لكن و برأينا فإنه ربما كان هنالك غاية أخرى للحكمة الإلهية من ذلك الأمر و هو كما ذكرنا إنشاء حكمة سلطانية يهودية تقوم بإنشاء دولة و قيادة

مركزية قوية ملمة بأصول و قواعد الحكم و السلطة ، لأن اليهود في فلسطين شأنهم شأن بقية من معهم ، لا يمكن أن يتعرضوا للفناء بسبب الجفاف و إلا لمات جميع من كان يقطن فلسطين في تلك الفترة ، و كان من الطبيعي في ذلك الظرف العصيب أن يهاجر اليهود إلى مصر طلباً للمؤونة سواء أكان يوسف موجوداً أم غير موجود فيها . و ذلك نراه من إحدى فقرات الإصحاح المذكور و هي [**و أقبل أهل البلدان الأخرى إلى مصر ليبتاعوا لأن المجاعة كانت شديدة في كل أرض**] (التكوين ٤١ : ٥٨) فالمجاعة لم تقتصر على اليهود فقط ، بل تعدتهم إلى غيرهم أيضاً . و من هنا نستنتج أن كلام يوسف في التوراة ربما كان المقصود به شيئاً آخر غير إخراج اليهود من أزمةالقحط و الجفاف ، خصوصاً و أنه قال لهم حسب الإصحاح نفسه (و قد أرسلني الله أمامكم ليجعل لكم بقية في الأرض و ينقذ حياتكم بخلاص عظيم) . إن عبارة خلاص عظيم ، يبدو أن لها مدلولاً آخر أكبر من مدلول الإنقاذ من الجوع . لقد كانت الغاية هي إنشاء كيان دولة و أو مجتمع ، و هذا الأمر على ما يبدو ، لم يكن اليهود بوضعهم الراهن ليستطيعوا القيام به ، و ذلك لكونهم محاطين بمجموعة من الممالك و الشعوب الأخرى و مرتبطين بعهد مع الله . أي أن مفهوم الدولة لم يكن قد تبلور في أذهانهم . و يبدو حسب المنظور التوراتي نفسه أن هذا الأمر ربما كان على المدى البعيد ، يشكل عليهم خطراً جسيماً من الشعوب الأخرى أو لغاية نشر التعاليم اليهودية على نطاق أوسع . و ما يدعم هذا القول هو أن يوسف عندما أدار الحكومة المصرية و جمع الضرائب من الشعب ، أعفى الكهنة المصريين فقط من ذلك . و تذكر التوراة أن يوسف هو أول من فرض ضريبة الخمس على الشعب المصري ما عدا الكهنة [**و من ذلك الحين إلى يومنا هذا جعل يوسف فريضة الخمس هذه ضريبة على كل أرض مصر تجبى لفرعون باستثناء أرض الكهنة التي لم تصبح ملكاً لفرعون**] (التكوين ٤٧ : ٢٧) . و تتحدث التوراة عن أنه كان

لكهنة مصر وضع خاص ، فعندما اشترى يوسف أرض مصر ، كان للكهنة حسب التـــوراة " مخصصات معينة أجراها لهم فرعون فكانوا يأكلون منها " .

لقد كان ارتحال بني إسرائيل إلى مصر و احتكاكهم المباشر مـــع المصـــريين و اضـــطلاعهم بشؤون الحكم من أعلى مستوياتها إلى أدناها ، هو بمنزلة نقلة نوعية لهم تمثلت على الأرجـــح بوضعهم ضمن نطاق و رعاية دولة قوية ذات حكم رسمي و سلطة مركزية ، لأمر يخصـــهم هم أنفسهم . و يستبعد تبعاً لذلك ، حسب صيغة الخطاب التوراتي أن تكون الغاية هـــي لـــدمج الشعبين معاً و تزاوجهما في بوتقة فكرية و ثقافية و دينية واحدة . و هذا ما نراه من التـــوراة نفسها عندما نقرأ أن يوسف عندما وفد عليه أخوته في المرة الثانية و أعد لهم مائدة من الطعام و الشراب ، قام بعزلهم عن الموظفين المصريين الـــذين كـــانوا حاضـــرين ، لأن التقاليـــد و الأعراف تقتضي حسبما ورد في التوراة **[ثم غسل وجهه و خـــرج و تجلـــد و قـــال قـــدموا الطعام / فقدموا له وحده و لهم وحدهم و للمصريين الآكلين معه وحدهم إذ أنه محظور على المصريين أن يأكلوا مع العبرانيين لأن ذلك رجس عندهم]** (التكوين ٤٣ / ٣٢ : ٣٣) . و لم تحدد التوراة هنا من يعد الآخر محظوراً بالنسبة له . و لكن من الواضح من ذلـــك مفهـــوم تمييز اليهود كشعب ، عن المصريين . و لذلك و مما سبق يبقى خيار تهيئة اليهـــود لامـــتلاك حكمة سلطانية خاصة بهم و مرتبطة مع الحكمة الإلهية و ناتجة عنها و من تـــدبيرها ، هـــو المرجح ، لأن هذه الحكمة الإلهية هي نفسها التي ستعيدهم إلى فلسطين مرة أخـــرى و لكـــن بصورة شعب منظم يقوده نبي أيضاً هو موسى ، لتأسيس كيان اجتماعي و دولة خاصين بهـــم و هو ما تكلم عنه سفر الخروج .

الخروج من مصر :

يخبرنا سفر الخروج عن أن اليهود بعد أن ذهبوا إلى مصر أيام يوسف ، قد بقوا فيها و تكاثروا و ازدادوا عدداً **[و نما بنو إسرائيل و توالدوا و تكاثروا و عظموا جداً حتى اكتظت بهم الأرض]** (سفر الخروج ١ : ٨) . و سفر الخروج يتحدث في بداياته مباشرة عن النبي موسى و الفترة التي عاشها . و الفترة التي عاشها اليهود منذ وفاة يوسف و حتى موسى لا يوجد لها ذكر في السفرين ، فالتوراة تنتقل مباشرة من وفاة يوسف إلى ظهور موسى ، و هذا يدلل على أن الفترة التي عاشها اليهود[1] في مصر كانت على الأرجح فترة استقرار و سلام بينهم و بين المصريين و الشعوب المجاورة .

ثم يتحدث السفر عن ظهور فرعون أو ملك جديد على مصر ، نظرإلى بني إسرائيل على إنهم مصدر خطر و يقول للمصريين **[ها بنو إسرائيل أكثر منا و أعظم قوة / فلنتآمر عليهم لكيلا يتكاثروا و ينضموا إلى أعدائنا إذا نشب قتال و يحاربونا ثم يخرجوا من الأرض]** (سفر الخروج ١ / ١٠ : ١١) . و إزاء ذلك بدأ المصريون يذيقون بني إسرائيل شتى أنواع العذاب و يستعبدونهم . و مع ذلك فإن اليهود استمروا في النمو و التكاثر ، مما حدا بفرعون مصر إلى أن يطلب من قابلتين يهوديتين أن تقتلا كل الأطفال اليهود الذكور في حال ولادتهم . و لكن و على ما يبدو فإن هاتين القابلتين لم تمتثلا لأوامر الفرعون و تملصتا منه بطريقة معينة ، فأصدر الفرعون أمره إلى المصريين بأن يرموا كل ذكر يهودي يولد ، في النهر ، أما البنات فيتم استحياؤهن .

في هذه الفترة و الظروف العصيبة ، يولد موسى النبي ، و تخبرنا التوراة أنه من أصل لاوي لجهة والديه الاثنين . و لما ولدته أمه خبأته عندها لفترة خوفاً من القتل ، و لكنها بعد فترة و من خوفها أن ينكشف أمرها ، لفت موسى بورق البردي و وضعته على ضفة النهر . و

[1] ننوه هنا أننا نعتمد كلمة (اليهود) عامة في كل ما تتحدث عنه التوراة .

صادف بعد ذلك أن جاءت ابنة فرعون لتستحم في النهر ، فرأت الطفل و أشفقت عليه و عرفت أنه من العبرانيين ، فجاءت أخته التي كانت تراقبه و قالت لها إنها تعرف مرضعة يمكن أن تتولى عملية إرضاع الطفل ، فوافقت الأميرة المصرية و جاءت الفتاة بأم الطفل نفسها لترضعه . و لما كبر الطفل أعادته إلى ابنة فرعون مرة أخرى . و هنا تحدثنا التوراة أن ابنة فرعون هي التي أسمته موسى و معناه (المنتشل) **[و لما كبر الولد ردته إلى ابنة فرعون فتبنته و دعته موسى قائلة اني انتشلته من الماء]** (سفر الخروج ٢ : ١١) . إذاً فاسم موسى حسب التوراة هو اسم مصري و ليس يهودي و عندما يكبر موسى و يصبح فتياً يذهب إلى بني قومه ليشاهد أعمالهم في السخرة (و هذا يدل على معرفته بأنه يهودي) فشاهد أحد المصريين يضرب رجلاً يهودياً فقام بقتل الرجل المصري و دفنه في الرمال . و في اليوم التالي خرج مرة أخرى فشاهد رجلين يهوديين يتضاربان ، فقال لأحدهما " لماذا تضرب صاحبك ؟ فأجابه الرجل و من أقامك رئيساً و قاضياً علينا ؟؟ هل ستقتلني كما قتلت المصري ؟؟ " و هنا فزع موسى فزعاً شديداً و أدرك أن الخبر انتشر في المدينة و أنه لا بد سيصل إلى الفرعون ، و فعلاً وصل الخبر إلى الفرعون فطلب موسى ليقتله ، و لكن موسى كان قد هرب إلى ارض مديان و هناك تعرف على ابنتي كاهن مديان اللتين وردتا إلى نبع الماء لسقي أغنامهن ، و لكن الرعاة الموجودين هناك لم يسمحوا لهن بذلك ، و هذه نقطة غريبة تدعونا إلى التساؤل . لماذا يمنع الرعاة الفتاتين من الماء و هما ابنتا الكاهن ؟؟ الأمر الذي يقودنا إلى الاعتقاد بأن الرعاة ربما كانوا من المصريين الذين يطبقون تعاليم فرعون بالتنكيل باليهود . و إزاء هذا الأمر يقوم موسى بمساعدة الفتاتين و يسقي لهن أغنامهن ، فتقوم الفتاتان بإخبار أبيهما بالقصة و بدوره الرجل يدعو موسى إلى منزله و يزوجه من إحدى ابنتيه ، فتنجب له ولداً يسميه جرشوه و معناه الغريب .

في أحد الأيام و عندما كان موسى يرعى أغنام والد زوجته في منطقة خارج مديان ، تسمى جبل الله ، يتجلى له ملاك الرب على شكل نار وسط عليقة . و أتاه صوت الرب بأن يخلع نعليه لأنه في مكان مقدس ثم يعرفه عن نفسه ، فيقوم موسى بتغطية وجهه خوفاً من رؤية الله كي لا يموت . ثم يطلب الله منه الذهاب إلى فرعون و إخراج شعبه من مصر . و عندما تخوف موسى من هذه الفكرة بسبب قوة و بطش فرعون ، أخبره الله أنه سيكون معه و أخبره بأن يذهب إلى شيوخ إسرائيل و يخبرهم بأنه قد أرسله إليهم [**اذهب و اجمع شيوخ إسرائيل و قل لهم إن الرب إله آبائكم إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب قد تجلى لي قائلاً إنني حقاً قد تفقدتكم و شهدت ما أصابكم في مصر**] (سفر الخروج ٣٠ : ١٥) . و اعطى الله موسى مجموعة من البراهين و الأدلة لكي يصدقه اليهود ، فأعطاه القدرة على تحويل العصا إلى أفعى و تحويل لون يده و تحويل الماء إلى دم و بجعل لسانه فصيحاً و يدعمه بأخيه اللاوي هارون ، فيعود موسى إلى مصر و يلتقي بأخيه هارون عند موقع يسمى جبل الرب و ينطلقان إلى قومهم و يعرض عليه هارون ماذكره الله لموسى ثم يريهم موسى البراهين التي أعطاها الله له ، فيصدقوه . و بعد ذلك ينطلق موسى و هارون إلى فرعون و يطلبان منه إطلاق بني إسرائيل ليتمكنوا من الاحتفال بطقوسهم . و لكن الفرعون المصري يرفض هذا الطلب و يزيد من ضغط العمل على اليهود بشكل أكبر . و هنا يطلب اليهود من موسى التدخل لدى الله ، فيأمر الله موسى إعادة الكرة مرة اخرى و يطلب من فرعون إطلاق سراح اليهود و لكن فرعون يزداد في عناده و يأبى التنفيذ و يطلب من موسى إثبات برهانه ، فيقوم هارون بإلقاء عصاه أمام فرعون لتتحول إلى ثعبان كبير . و حسب التوراة [**فاستدعى فرعون حكماءه و سحرته فصنع سحرة مصر على غرار ذلك بسحره / فطرح كل واحد منهم عصاه فتحولت**

إلى حية . غير أن عصا هارون ابتلعت عصيهم / لكن قلب فرعون ازداد تصلباً فلم يستمع لهما] (الخروج ٧ / ١٢ : ١٤) .

يلاحظ مما سبق أن فرعون قد استدعى حكماءه أيضاً إلى جانب السحرة ، أي أن الحكمة قد تدخلت هنا أيضاً . و لكن ابتلاع عصا هارون لعصي الحكماء و السحرة ، يعطي الانطباع بأن الحكمة المصاحبة لموسى و هارون هي أكبر و أقوى من حكمة فرعون رجاله . و كلمة الابتلاع ربما تعني بأن كل حكمة هؤلاء هي ضمن أو جزء من الحكمة المصاحبة أو المعطاة لموسى و محتواه فيها ، و بخاصة و إننا نرى آية في الإصحاح المذكور نفسه يقول الله فيها لموسى **[حالما ترجع إلى مصر تذكر أن تجري أمام فرعون جميع العجائب التي منحتك القوة على إجرائها و لكنني سأقسي قلبه لكي لا يطلق الشعب]** (الخروج ٤ : ٢٢) . و كأن الحكمة الإلهية قد تدخلت هنا أيضاً لغاية ما لكي لا يقبل فرعون . و لعل المراد بذلك هو أن يطلع جميع الناس على معجزات موسى فيصدقوه ، لأنه لو قبل فرعون بطلب موسى من فوره لربما يعد الناس أن موسى و هارون بمفردهما قد أقنعا فرعون و لا يظهر دور الله أمام اليهود أو المصريين .

هذا الأمر هذا الأمر يطرح لنا إمكانية قبول فرعون لطلب موسى لولا تدخل من الله ، و بخاصة و أن الفرعون السابق قد قبل بيوسف بعد أن عجز حكماؤه أمام حكمة يوسف . و يتبين لنا ذلك أيضاً من الضربات التي وجهها الرب إلى فرعون و الأرض المصرية . فكانت الضربة الأولى ضربة الدم حيث تحولت جميع أنهار المصريين و مياههم إلى دماء و جرى ذلك أمام ناظري فرعون ، و لكنه لم يتأثر ، فجاءت الضربة الثانية بالضفادع التي ملئت كل أرض مصر . وهنا على ما يبدو يحس فرعون بالخطر و بقوة إله موسى ، فيطلب منه أن يدعو الله لإزالة الضفادع ، و عندما يفعل موسى ذلك ينكث الفرعون بوعوده و يعود إلى

سابق عهده مع اليهود ، فتأتي ضربات أخرى من الله تمثلت بالذباب و البعوض و الظـــلام و إهلاك المواشي و غيرها و تتخللها طلبات استرحام من فرعون و وعد بإطلاق سراح اليهود ، لا يلبث أن يتم نقضه .

و قد أدرك السحرة قوة موسى و صدقه ، فطلبوا من فرعون السماح له بالمغادرة هو و شعبه و تنفيذ طلباتهم درءاً للخطر و الهلاك . و لكن فرعون كان يستمر كل مرة في عنـــاده حتـــى سمح لهم في النهاية بالمغادرة بعد أن أمات الله الأولاد البكور في مصر . و لكن عندما يخرج بنو إسرائيل ، يتعقبهم فرعون بجيشه ، و عند وصولهم إلى البحر يقوم موسى بـــأمر مـــن الله بشق مياه البحر فيعبر اليهود إلى الجهة الأخرى و عندما يدخل وراءهم المصـــريون ، تطبـــق عليهم المياه من كل جانب و يعود البحر كما كان ، فيهلك الجيش المصري .

تصور لنا التوراة مشاهد المعجزات التي أتى بها موسى أمام فرعون و الضربات التي وجهها الرب لمصر ، كصراع دموي رهيب بين حكمتين إلهيتين سلطانيتين في الوقت نفسه . صراع أشبه بكسر عظام لفرض السيطرة و الوجود . حكمة موسى و هارون الإلهية المدعومـــة مـــن الله و التي جعلت من فرعون قاسي القلب ، و حكمة فرعون الإلهية السلطانية التي ترى نفسها أعلى الحكم و تجمع بين الأمرين السياسي و الديني . و بين هاتين الحكمتين ، وقفت الحكمـــة السلطانية اليهودية التقليدية متفرجة بخوف و وجل تراقب الصراع الـــدموي متـــرددة . و قـــد وقفت على مسافة متساوية بين الطرفين لخوفها من تميل كفة الصراع إلى فرعـــون ، فتـــدفع الثمن هذه المرة غالياً ... غالياً جداً . و هذا ما نراه في التوراة عندما غضب رؤساء العمـــال اليهود على موسى و هارون بسبب ضغط فرعون عليهم [**فوجد رؤساء عمال بني إســـرائيل أنفسهم في ورطة سيئة بعد أن قيل لهم انتجوا من لبنكم فريضة كل يوم لا تنقضـــوا منهـــا شيئاً / و صادفوا موسى و هارون و هما واقفان في انتظارهم عنـــد خـــروجهم مـــن لـــدن**

فرعون / فقالوا لهما لينظر إليكما الرب و يقض لقد كرهتمـــا بنـــا فرعـــون و حاشـــيته و أعطيتماهم سيفاً في أيدياهم ليقتلونا] (الخروج ٥ / ٢٠ : ٢٢) .

لقد وقفت هذه الحكمة السلطانية بين صراع هاتين الحكمتين ، بين حكمة إلهية سلطانية متمثلـــة بفرعون و تريد الإسراع في حسم المعركة لأن ذلك في صالحها ، و مثلت هذا الأمر بالضغط الشديد على اليهود . و بين حكمة إلهية وسلطانية متمثلة بالرب و موسى ، تريد سلب الموقف من الفرعون بتطويل عملية الضربات التي يتلقاها ليكون عبرة لغيره و يعرف النـــاس حقيقـــة ذلك بشكل مجرد . و ذلك يحدوا إلى القول إن الحكمة الإلهية التي وقفت مع موســـى و أيدتـــه بمعجزاته ، كانت تهيئ لبداية نشر الدين التوحيدي السماوية بحركة روحية دينيـــة و ماديـــة عسكرية . و يبدو ذلك واضحاً بين سطور فقرات التوراة **[فأقسي قلب فرعون حتـــى يســـعى وراءكم فأعظم آننئذ بالقضاء على فرعون و على جيشه و يعرف المصريون اني أنا الـــرب . و هكذا فعل الإسرائيليون]** (الخروج ١٤ : ٥) . يضاف إلى ذلـــك أن الله عنـــدما أعطـــى وصاياه لموسى ، عممها أيضاً على غير بني إسرائيل **[و إذا عزم غريـــب مقـــيم أن يحتفـــل بفصح الرب فليختن كل ذكر من أهل بيته ثم يحتفل به فيكون آننئذ كمولود الأرض / فتســـود هذه الشريعة على المواطن و الدخيل المقيم بينكم / ففعل جميع بني إسرائيل تماماً كما أمـــر الرب موسى و هارون]** (الخروج ١٢ / ٤٩ : ٥٠) . **[و قال الرب لموسى أقتل فرعـــون لأني قد قسيت قلبه و قلوب حاشيته لكي أجري آياتي هذه بينهم]** (الخروج ١٠ – ١) .

و يبدو أن هذا الأمر قد فعل فعله حتى في قلوب المصريين **[و كذلك حاول السحرة بسحرهم ليخرجوا البعوض فاخفقوا / و كان البعوض منتشراً على الناس و البهائم / فقـــال الســـحرة لفرعون هو فعل الله]** (الخروج ٨ / ١٨ : ١٩) .

إذاً كان هنالك مشروع إلهي . و هذا المشروع يلزم له مد ة زمنية معينة تكون مقترنة بأفعال و براهين و معجزات تبين قصور الجنس البشري عن التعامل معها أو ردها ، و لا سبيل لحلها ألا بالتسليم لها و لشروطها . و يتضح من سياق الفقرات السابقة أن الغاية كانت تتمثل في خروج بني إسرائيل و عودتهم إلى الأرض التي أخبرهم الله عنها . و أيضاً في نشر المفهوم التوحيدي السماوي و لذلك فإن موافقة فرعون المبدئية المحتملة لطلبات موسى منذ البداية ، ربما كانت ستؤدي إلى تنفيذ الشق الأول فقط من هذه الغاية و هو الخروج ، و عدم تحقيق الغاية الثانية و هي نشر دين التوحيد الذي لا يتم إلا من خلال لفت انتباه المصريين إلى وجود إله قوي أقوى من كل ما عرفوه من آلهة . و ذلك بدوره ما كان ليتم لولا كل تلك الضربات القاسية التي كيلت لهم و التي بينت لهم عجز كل آلهتهم و سحرتهم و حكمائهم عن ردها ، و التي تمثلت بالنهاية بالقضاء على جيش الفرعون نفسه و هو رمز الآلهة في البحر . و لذلك فإن موافقة فرعون المبدئية ، كانت ستخرب كل هذه الخطط . و لهذا ربما نستطيع أن نفسر لماذا كان الرب يقسي قلب فرعون و يمنعه من الموافقة ، منذ بداية المشروع . و هذه القضية برمتها ، نرى لها وجوداً في القرآن الكريم أيضاً حيث جاء فيه **(و جاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون و جنوده بغياً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل و أنا من المسلمين _ الآن و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين _ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية و إن كثيرون من الناس عن آياتنا لغافلون)**(يونس ٩٠ – ٩٢) .

يلاحظ من سياق الآية القرآنية بقاء فرعون على قيد الحياة و نجاته ليكون بمنزلة عبرة للمصريين . و هو لم يؤمن إلا بعد أن رمى جميع أوراقه و لم يبق بيده شيء ليلعب به و كاد أن يلقى حتفه ، صاح هنا في هذه النقطة معلناً إيمانه برب بني إسرائيل ، و هو أمر مشابه

جداً لما ورد في التوراة التي لن تعلن صراحة عن موت فرعون شخصياً ، بل تم القضاء على جيشه فقط . و لعل هذا يدل على انتهاء تقسية الله لقلب فرعون الذي انتهت مهمته و دوره عند هذا الحد معلناً إيمانه ، فكافأه الله بنجاته و أوكل إليه دور آخر جديد و هو أن يكون آية و عبرة لغيره لانتشار مفهوم التوحيد .

و كلا الحكمتين المتصارعتين ، حكمة الله ممثلة بموسى و حكمة فرعون يمكن النظر إليهما على أنهما حكمتان إلهيتان ، ففي التوراة نرى أن الله قد جعل موسى إله بالنسبة لهارون حين قال له عن هارون [**أليس هارون اللاوي أخاك ؟ أنا أعلم أنه يحسن الكلام و ها هو أيضاً قادم للقائك و حالما يراك يبتهج قلبه / فتحدثه و تلقن فمه الكلام فأعينكما على القول و أعلمكما ماذا تفعلان / فيخاطب هو الشعب عنك و يكون بمثابة فم و أنت تكون بمثابة إله**] (الخروج ٤ / ١٥ : ١٧) . و هما أيضاً حكمتان سلطانيتان ، لأن موسى و هارون توليا قيادة الشعب الإسرائيلي و كذلك الفرعون لأنه ربما كان يرى نفسه بكل بساطة إلهاً ، و لذلك قادته حكمته تلك إلى الشعور بالخطر الداهم عند قدوم موسى و هارون إليه و إعلانهما أنهما موفدان من قبل الرب إله إسرائيل ، حسب بداية الإصحاح الخامس [**و بعد ذلك ذهب موسى و هارون و قالا لفرعون هذا ما يعلنه الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليحتفل لي بالبرية / فقال فرعون من هو الرب حتى أطيع أمره و أطلق إسرائيل ؟ أنا لا اعرف الرب و لن أطلق بني إسرائيل**] لذلك فإنه لم يكن من الهين و السهل على فرعون أن يتنازل بهذه السهولة علماً أن الخطاب الإلهي الذي كان موجهاً لفرعون عن طريق موسى ، هو فقط السماح لبني إسرائيل بالخروج إلى الصحراء ، و لم يأت بصيغة التهديد لمكانة فرعون أو إجباره على الخضوع عقائدياً لله أو اتباع دين موسى . و مع ذلك فإن فرعون أدرك أن خضوعه لطلب

موسى ، و لو لمجرد السماح لبني إسرائيل بالاحتفال بطقوسهم ، هو تهديد لمكانته الروحيـــة ، لأنه بشكل من الإشكال ، نوع من الإذعان لموسى .

و لعلنا نتساءل في هذا السياق .. لماذا لم يكلف الله موسى أن يطلب مـــن فرعـــون عبادتـــه مباشرة ، بحيث لو قبل بذلك تكون المشكلة قد حلت ، و لو رفض ، تكال له الضربات السابقة نفسها ؟؟ الجواب هنا يعود إلى حكمة إلهية أرادت أن يتم تثبيت مفهوم التوحيد الإلهي بطريقـــة يقتنع و يؤمن بها الناس عن رغبة و قناعة ، لأن هذه الحكمة تعرف أن فرعون سيرفض حتماً طلب موسى بعبادته و لذلك فإنه لو تم توجيه تلك الضربات ، لأخذ الأمر منطق الإكراه بالدين و أصبح الله هنا مثله مثل بقية الآلهة السابقة في طريقـــة العقـــاب و التـــدمير (و إن كانـــت موجودة في الأديان السماوية) و لاصطبغ مفهوم التوحيد الإلهي بهذه الصبغة التي لا تريـــدها هذه الحكمة . و لذلك فقد تم توجيه تلك الضربات من منطلق أن فرعون لا يريد السماح لليهود بالاحتفال بطقوسهم و ديانتهم ، ليعرف الناس أن سبب المشكلة هو فرعـــون نفســـه و ليكـــون اعتناقهم دين التوحيد من غير إكراه . الأمر الثاني ربما يكون له حضوره أيضـــاً ، و هـــو أن الحكمة الإلهية ارتأت أن لا تعرف عن نفسها عن طريق حكمة سلطانية مثل فرعون الذي لـــو آمن من فوره لأدى ذلك إلى احتمال حدوث خلط و لبس عند الناس من أن يكون هو رأس هذه الحكمة و شيئاً فشيئاً تتم عبادته هو على الطريقة اليهودية . و لذلك كله فإن أفضـــل طريقـــة لإقناع الناس هو أن يؤمن فرعون بعد كل هذا القصف العنيف .

هنالك وجهة نظر أخرى يمكن استشفافها من خلف سطور التوراة و لا نعلم مدى صـــحتها . و هي أن الفرعون كان رجلاً مؤمناً حقاً و يعتقد نفسه رجل الله على الأرض ، لكنه في لحظـــة طيش و غرور لم يقبل بأن يحل موسى محله أو لم يقتنع أن إله موسى ، ألهـــه هـــو أيضـــاً ،

فساقه غروره إلى العناد و الصلب و التجبر . فكلام الله عن تقسيته قلب فرعون يحتمل هذا الاتجاه بشكل قوي .

بعد هلاك جيش فرعون ، يخرج اليهود مع موسى في رحلة طويلة عبر الصحراء تخللتها بعض المشاحنات بين موسى و قومه بسبب الحر و القيظ و القحط في الصحراء و نفاذ صبرهم و خوفهم على أنفسهم ، فكان الرب يمدهم بالماء و الطعام . و تتحدث التوراة هنا عن أول معركة حربية حقيقية جرت بين بني إسرائيل و بين قوم يسمون العمالقة ، كان النصر فيها لبني إسرائيل بمساعدة الرب عن طريق عصا موسى نفسها التي عندما كان يرفعها للأعلى ، تميل كفة الصراع لصالح اليهود ، و عندما يخفضها من التعب ، تميل الكفة لصالح العمالقة ، فأخذ هارون و حور حجراً و وضعاه تحت موسى ليجلس عليه ثم أسند كل واحد منهما يد موسى التي فيها العصا لكي لا تنزل إلى الأسفل .

بعد ذلك استمر الشعب بالمسير . و عندما وصلوا إلى أرض سيناء ، صعد موسى إلى الجبل و كلم الرب الذي أعطاه الوصايا العشر و في الوقت نفسه أعطاه أيضاً أحكاماً خاصة بالعبيد و أحكاماً خاصة بالقاتل و المعتدي و أحكاماً خاصة بالمواشي و بالسرقة و الأملاك . و أخرى مختصة بالعلاقات العامة و أحكام مختصة بالعدل و الرحمة . و ختم كل ذلك بشرائع السبت و الاحتفالات السنوية . و وعد الله موسى بحماية شعبه و قومه إن هم امتثلوا لأوامره و تعاليمه . و ختم ذلك كله بإثبات العهد حيث قال الله لموسى [**اصعد إلي أنت و هارون و ناداب و أبيهو و سبعون من شيوخ إسرائيل و ليسجد هؤلاء من بعيد / لا يقترب إلي أحد سواك أما الآخرون فيمكثون بعيدين و حذار أن يصعد الشعب معك**] (سفر الخروج ٢٤ : ٢) . بعد ذلك أمر الله موسى أن يصعد إلى الجبل ليكتب له هذه الوصايا و الشرائع على لوحي حجر [**و قال الرب لموسى اصعد إلى الجبل و امكث هناك لأعطيك الوصايا و الشرائع التي كتبتها**

على لوحي حجر لتلقنها لهم] (سفر الخروج ٢٤ : ١٢) فصعد موسى و أخذ معه يشوع و طلب من بين إسرائيل انتظاره و أبقى معهم هارون و حور . و في الجبل طلب الرب من موسى مواصفات المسكن الذي يجب على بني إسرائيل إقامته و رداء الكاهن و كيفية صنع تابوت العهد و مواصفات مائدة الخبز المقدس و وصف منارة المبنى و سقف الـ مسكن و جدرانه و الستار و مذبح المحرقات و أردية الكهنة و ملابس القضاة و الجبة التي يضعونها على رؤسهم و مواصفات الأضاحي و الضرائب الملقاة على عاتق بني إسرائيل حيث جاء في التوراة **[و خاطب الرب موسى عندما تقوم بإحصاء بني إسرائيل ، يقدم كل من تحصيه فدية عن نفسه للرب لئلا يصيبهم وباء عند إحصائهم / فيعطي كل محص نصف شاقل من الفضة تقدمة للرب / كل من جاز عليه الإحصاء من ابن عشرين سنة فما فوق يعطي تقدمة للرب / فلا يعطي الغني أكثر من نصف شاقل و لا يدفع الفقير أقل منها لأنها تقدمة الرب للتكفير عن نفوسكم]** (سفر الخروج ٣٠ / ١٢ – ١٥) . و أضيف إلى ذلك أيضاً كيفية الاغتسال و الطهارة و كيفية تركيب البخور لينتهي الامر كله بيوم السبت الذي وضعه الله علامة على العهد بينه و بين بني إسرائيل . و فيه طلب منهم عدم القيام بأي عمل .

و لكن و في هذه الفترة و بينما موسى يتلقى وصايا الرب ، يحصل إشكال خطير في شعبه الذي ينتظره . حيث إنه لما تأخر موسى عليهم ، قام البعض منهم بصياغة عجل ذهبي و أخذوا يعبدونه ، فقطع الله الاجتماع مع موسى و أمره أن ينزل على الفور ليرى شعبه . فنزل موسى غاضباً . و عندما اقترب من المخيم و رأى العجل ، كسر الوصايا و حطم العجل و أذابه في النار و طلب من الذين بقوا على عقيدتهم أن يتبعوه فكانوا اللاويين و أمرهم موسى أن يطهروا المكان من كل مظاهر الفسق و المجون ففعلوا .

و صعد موسى مرة أخرى إلى الجبل ليطلب مغفرة الرب و تجديد العهد معه ففعل الرب و تجلى له بهيئة سحاب و أعاد عليه الوصايا و الشرائع . و نزل موسى بعد ذلك إلى قومه و تم صنع المسكن المقدس و تابوت العهد الذي وضعت فيه الوصايا العشر لينتهي بذلك سفر الخروج و يبدأ سفر اللاويين و الذي يشتمل في معظمه على الذبائح و الأضاحي و الطقوس الدينية و الشرائع الأخلاقية ، ليبدأ بعده سفر العدد الذي تحدث عن تعداد بني إسرائيل و بطونهم و أفخاذهم . و يحدثنا الأصحاح الثالث عشر عن اقتراب بني إسرائيل من أرض كنعان حيث يقوم موسى بناء على طلب الرب بإرسال العيون لاستطلاع الأرض . و هنا يحدث الإشكال مرة أخرى بين موسى و قومه حيث يعود المستطلعون و يخبرون الشعب بأن أرض كنعان تحوي شعوباً قوية لا يمكن محاربتها ، فيتردد الشعب في الدخول و يتمرد بعضهم على موسى . و يحاول موسى الاستغفار لهم عند الرب فيغفر الرب لهم و لكن يعاقب المتمردين منهم فقط كما جاء في الإصحاح [**أنا الرب قد تكلمت و هذا ما سأعاقب به هذه الجماعة الشريرة المتآمرة علي في هذه الصحراء يفنون و يموتون / أما الكشافون الذين أرسلهم موسى لاستكشاف الأرض فقد رجعوا و أثاروا عليه الشعب بما روجوه من أخبار سيئة عن الأرض / فقد أماتهم الرب بالوبأ عقاباً لهم / و لم يعش منهم إلا يشوع بن نون و كالب بن يفنة**] (العدد ١٤ / ٣٥ : ٣٧) . هذا الأمر يتلوه سوء فهم لوجستي أو تكتيكي حيث يعتقد بعض بني إسرائيل أن عليهم التقدم مباشرة نحو الأرض التي وعدهم الله بهما ، فيقررون الذهاب دون أمر موسى أو الرب ، فيحذرهم موسى من مغبة ذلك العمل من دون أمر واضح مباشر و دون وجود تابوت عهد الرب ، ولكنهم يخالفون الأوامر و يتقدمون من دون وجود تابوت عهد الرب معهم ، فيحصل اشتباك بينهم و بين العمالقة و يخسرون المعركة .

هذه الحادثة تتلوها حادثة أخرى تتمثل في حدوث عصيان من فئة قليلة من بني إسرائيل على موسى و هارون و يعدون أنفسهم أولى بالتعامل مع الرب من موسى و يقررون صنع محجرة خاصة بهم ليقدموها للرب . و عندما يفعلون ذلك يطلب الرب من موسى و هارون و من تبعهم أن يبتعدوا عن المكان الذي ستقدم فيه هذه الفئة[1] . و عندما ابتعد موسى و أتباعه عنهم ، انشقت الأرض و ابتلعت قسماً منهم بينما ضربت نار من السماء القسم الآخر و أحرقتهم ، و كانت هذه إشارة من الرب إلى أن من يحق له أن يبخر في حضرة الرب هم فقط اللاويون من نسل هارون . و يعلن الرب ذلك رسمياً على الملأ حيث يخاطب هارون في بداية الإصحاح الثامن عشر قائلاً **[أنت و أبناؤك و بيت أبيك مسؤولون عما يصيب المقدس من تدنيس و أنت أبناؤك معك تتحملون مسؤولية من يرتكب في حق الكهنوت / و استعن بأخوتك من سبط لاوي سبط أبيك فينضموا إليك و يؤازروك أنت و أبناؤك / و لكن إياهم الاقتراب من أواني المقدس و من المذبح لئلا يموتوا جميعاً و أنتم معهم / لينضموا إليك قائمين بخدمة الخيمة و كل ما يناط بهم من واجبات للعناية بها و لكن لا يقترب منها من ليس منكم / فأنتم الكهنة الذين تقومون على خدمة المقدس و المذبح لئلا ينصب السخط على بين إسرائيل / فقد اخترت أخوتكم اللاويين من بين الإسرائيليين ليكونوا لكم عطية من الرب ليعتنوا بخدمة خيمة الاجتماع]** .

بعد ذلك يحدد الرب نصيب الكهنة و اللاويين من الضرائب و ما عليهم تقديمهم للرب . ثم يتقدم موسى و بني إسرائيل حتى يصلوا إلى حدود مملكة أدوم فيطلب موسى من ملكها شخصياً (بواسطة رسول) أن يسمح لهم بالمرور في أراضيه عامة . فيرفض الملك ، و يكرر موسى الطلب و يتعهد له بأن لا يمسوا أي شيء في المدينة و يظلوا على الطريق فقط

[1] ذكرت التوراة أن عددهم حوالي مئتين و خمسين شخصاً .

حتى يخرجوا ، و حتى ماء الشرب يدفعون ثمنه لهم . و لكن الملك يرفض ذلك و يأمر جيشه بالتأهب ، فيتنحى بني إسرائيل عن الطريق و يسلكون طريق آخر . و في الطريق يموت هارون ، فيطلب الرب من موسى أن يخلفه ابنه أليعازر .

بعد وفاة هارون تبدأ أول معركة بين الكنعانيين و بني إسرائيل ، فعندما عرف ملك عراد الكنعاني أن الإسرائيليين قادمون ، هب لقتالهم ، فطلب اليهود المساعدة من الرب الذي استجاب لدعائهم ، فهزموا الكنعانيين . و عندما تذمر بعض اليهود من موسى بسبب قلة الماء ، أرسل عليهم الرب أفاعي سامة لتلدغهم ، فطلبوا من موسى الاستغفار لهم ، فغفر الرب لهم . و تقدم الإسرائيليون بعدها صوب مدين موآب . و هنا تتحدث التوراة عن أن أول معركة حربية يستملك فيها اليهود الأرض حيث بعثوا إلى الملك سيحون ملك الآموريين يطلبون منه المرور في أرضه قائلين له حسب التوراة [**دعنا نجترأ أرضك فلا نميل إلى حقل و لا إلى كرم و لا نشرب ماء بئر بل نسير في الطريق العامة المخصصة للسفر حتى نعبر حدودك / فلم يأذن سيحون للإسرائيليين بالمرور في تخومه بل حشد جيشه و خرج للقائهم إلى الصحراء و حاربهم عند ياهص / فهزمه الإسرائيليون بحد السيف و استولوا على بلاده من أرنون إلى يبوق حتى حدود العمونيين و لم يتجاوزوها لمناعتها / و امتلك الإسرائيليون كل مدن الأموريين و من جملتها حشبون و ضواحيها و أقاموا فيها / لأن حشبون كانت عاصمة سيحون ملك الأموريين الذي كان قد حارب ملك موآب السباق و استولى على أراضيه كلها حتى أرنون**] (العدد ٢١ / ٢١ : ٢٦) .

ثم تتحدث التوراة عن أن الإسرائيليين نزلوا في سهول موآب فبعث ملك موآب خلف أحد الكهنة اليهود و اسمه بلعام ليحصل منه على بركة الله حتى ينتصر على الإسرائيليين . و لكن الله يمنع بلعام مرات عدة من فعل ذلك و يجعله يمنح بركته لبني إسرائيل . ثم يقسم موسى

الأرض على أسباط إسرائيل بأمر من الرب و بعد ذلك يتقدم الإسرائيليون بقيادة موسى و أمر الرب ، إلى الأردن . و يحدد الرب لموسى الأرض التي يجب أن تكون لبني إسرائيل حيث جاء في التوراة [**و قال الرب لموسى أوص بني إسرائيل و قل لهم إنكم داخلون إلى أرض كنعان و هذه هي حدود الأرض التي تكون نصيباً لكم**] (العدد ٣٤ : ٤) ثم يحدد الرب لموسى حدود الأرض و يطلب منه تقسيمها على الأسباط و يحدد له أيضاً طريقة بناء المدن . و بعد أن يزداد عدد الإسرائيليين ، يطلب موسى إليهم أن يعين منهم قادة ليعينوه في مهام القيادة و الحكم ، و يطلب أن تكون أهم ميزة فيهم هي الحكمة حيث خاطبهم قائلاً [**فاختاروا من أسباطكم رجالاً حكماء عقلاء من ذوي المقام فأجعلهم قادة لكم / فأجبتموني قائلين إن ما تقترح علينا أن نفعله أمر صائب / فاخترت رؤساء أسباطكم رجالاً حكماء من ذوي المقام**] (سفر التثنية ١ / ١٣ : ١٥) .

و عندما تقترب وفاة موسى ، يعين خليفة له بناء على أمر من الرب ، و هو يشوع ، ثم يعود و يكرر الوصايا و النصائح و المواعظ أمام بني إسرائيل . و عندما يموت ، تنتقل الخلافة من بعده حسب الوصية إلى يشوع بن نون الذي وصفته التوراة بأنه " قد امتلأ من روح الحكمة بعد أن وضع موسى يده عليه " . و يبدأ تاريخ يشوع ، بالسفر الخاص به و هو في معظمه كله حروب بين بني إسرائيل و الكنعانيين و الآموريين و اليبوسيين وغيرهم . و يكون انتصار بني إسرائيل في هذه الحروب (حسب التوراة) مشروطاً باتباع تعاليم الرب ، و هي في هذا المجال تعاليم حربية و طقوس خاصة بها . و بعد موت يشوع ، تؤول مقاليد الأمور إلى يهوذا بأمر من الرب و من ثم إلى القضاة من بعده . و هذا كله رافقه حروب بين الإسرائيليين و بين جيرانهم ، تمت فيها السيطرة على الأرض بمعظمها (حسب التوراة) للإسرائيلين و كان انتصارهم على جيرانهم أو هزيمتهم معهم مرهوناً تبعاً لتطبيقهم تعاليم

الرب . فعند التزامهم بها ، كان النصر العسكري حليفهم و كانوا يخضعون جيرانهم لهم ، أما عند انحرافهم عن تعاليم و وصايا الرب ، فكانوا يتعرضون لهزيمة أمام جيرانهم و يصبحون خاضعين لهم .

و منذ موت يشوع بن نون و حتى بداية حكم داود ، كانت القوة الفردية الذاتية عامة ، هي العامل الرئيس في وصول الشخص إلى الحكم لدى اليهود و في أحيان أخَر كانت الإرادة الإلهية تتدخل في تعيين الحكام و الملوك . و التوراة بالمجمل تخبرنا أن معظم هذه التعينات كانت أمراً إلهياً .

إذاً فقد كانت العلاقة بين السلطة الحاكمة و بين الرب علاقة مباشرة و تتم بالتعيين من قبل الرب و اختياره لشخص من الأشخاص ليكون الحاكم القائد المباشر للشعب الإسرائيلي . هذا الأمر أدى إلى أن يتمتع هذا الحاكم بالسلطتين الزمنية و الروحية معاً و يحكم حكماً مطلقاً . فالحكمة السلطانية اليهودية حسب هذا المفهوم ، تحكم بموجب وصاية حكمة إلهية مباشرة و بأمر من هذه الإرادة الإلهية ، و تعمل بمقتضى هذه الحكمة ، ليس ذلك فحسب بل إنها تتكلم مع الله و يمكن أن تحل عليها روح الله . و هي تحكم حتماً و حصراً بموجب أوامر و توصيات الحكمة الإلهية ، فهي ممثلة لها على الأرض يضاف إلى ذلك أيضاً أنها تمثل أيضاً دور الكهانة العليا و الأمر الديني إلى جانب الأمر السياسي و الاجتماعي . و لكن و مع كل ذلك ، فهي تختلف اختلافاً جذرياً عن بقية الحكم السلطانية التي تحكم و تقود شعوبها بموجب و مقتضى الامر الإلهي كما هو الحال عند الفراعنة المصريين و حكام بلاد ما بين النهرين ، لأسباب عدة .. أولاً إن الحكمة السلطانية اليهودية و حسب الخطاب التوراتي ، عليها أن تتقيد حرفياً و بدقة متناهية و صرامة شديدة بتعليمات الحكمة الإلهية ، و لا يمكنها أن تحيد عن ذلك قيد أنملة ، حتى في الأمور العادية البسيطة ، فهي حكمة سلطانية مقيدة بوثاق شديد و

أوامر إلهية ، و أي خلل في ذلك ، يعرضها إلى العقاب الفوري و القاسي أحياناً . فالنبي موسى و بالرغم من كل تمتعه بالامتيازات و الصلاحيات الإلهية ، هو و أخوه هارون فإنهما لمجرد غلطة واحدة ، تعرضا لعقاب إلهي تمثل بحرمانهما من دخول الأرض الموعودة و ذلك عندما لم يطلبا تفجر الماء من الصخرة بالطريقة الصحيحة حيث ضربا الصخرة مرتين ، فخاطبهما الرب في التوراة قائلاً [**من حيث إنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني على مرآى من بني إسرائيل فإنكما لن تدخلا هذا الشعب للأرض التي وهبتها لهم**] (العدد ٢٠ : ١٢) . و هذا الأمر انسحب برمته على كل القادة و الحكام الإسرائيلين حيث تكرر في أكثر من موضع في التوراة و على أكثر من شخصية إسرائيلية بارزة ، بينما من النادر جداً أن نرى هذا الأمر لدى بقية الحكم السلطانية التي عايشت بداية ظهور الحكمة السلطانية اليهودية و ما قبلها و خاصة في الحضارات القديمة ، حيث كانت تفعل ما يحلو لها باسم الآلهة دون التعرض لعقاب صريح أو واضح منها .

ثانياً العقاب الإلهي كان يطال ليس فقط الحكام و القادة اليهود ، بل الشعب أيضاً وذلك حين حدوث أخطاء معينة بحق الرب أو تقصير ما في مكان ما . و العقاب عدة كان يتمثل إما في هزيمة عسكرية أو انتشار مرض فتاك أو الإخضاع لشعوب أخرى . و لعل التهديد الذي جاء في سفر اللاويين حول العصيان و التهديد الإلهي من مغبة القيام به ، يعطي صورة واضحة عن هذا الأمر ، علماً أنه قد تم تطبيق العديد من هذه التهديدات في فترات متفاوتة من التاريخ اليهودي القديم ... جاء في السفر المذكور [**و لكن إن عصيتموني و لم تعملوا بكل هذه الوصايا / و تنكرتم لفرائضي و كرهتم أحكامي و لم تعملوا بكل وصاياي بل نكثتم ميثاقي / فإنني أبتليكم بالرعب المفاجئ و داء السل و الحمى التي تعمي العينين و تتلف النفس وتزرعون على غير طائل و ينهب أعداؤكم زرعكم / و انقلب عليكم فتنهزمون أمام أعدائكم**

و يتحكم بكم مبغضوكم و تهربون من غير طارد لكم] . بينما هذه التهديدات كلها لم توجهها الالهة في الحضارات المعاصرة لليهود في تلك الفترة ، لشعوبها أو الأفراد المنضوين تحت لوائها ، بل تركت تنفيذ الأحكام بهم إلى الحكمة السلطانية التقليدية التي تدير شؤونهم و مصالحهم . فالقوانين في تلك الحضارات هي قوانين وضعية بشرية .

ثالثاً : اختلاف مجال حرية التصرف و اتخاذ القرارات و المبادرة لدى الحكمة السلطانية اليهودية عنها لدى بقية الحكم الأخرى . فبينما كانت الحكم السلطانية المصرية أو البابلية أو الفينيقية أو الفارسية تفعل أي شيء يحلو لها و تجيره و أسبابه إلى الالهة ، كان مجال المناورة و المبادرة عند الحكمة السلطانية اليهودية ضيقاً جداً و هامش الحرية في اتخاذ القرارات شبه معدوم .

رابعاً : العلاقة بين الآلهة و بين السلطان في الحضارات السالفة الذكر ، لم تكن واضحة المعالم تماماً ، و سلطة الآلهة على السلطة التقليدية لم تكن متبلورة و ظاهرة للعيان لدى العامة ، بل كانت ضبابية مبهمة المعالم و الشكل ، و في أحيان عدة كانت ضئيلة أو معدومة أو غير مرئية وبالذات عندما كانت السلطة الحاكمة تعلن عن نفسها بأنها آلهة ، بينما في الحالة اليهودية كانت سلطة الرب على الحكام و الملوك و غيرهم واضحة تماماً و مسجلة ببنود دقيقة مطول و مفصلة و تعلن على الشعب و قادته علناً جهاراً .

و يلاحظ من خلال التوراة أن الحكمة الإلهية قد اتبعت مبدأ عدم ممالأة شعب على آخر حتى و لو كان من غير اليهود و ذلك بالرغم من أنها قد فضلت اليهود كشعب على غيرهم من الشعوب في إطار المعصية أو مخالفة الأوامر الإلهية . أي أنها قد اعتمدت العدل الإلهي كأساس رئيس في التعامل مع اليهود و غيرهم . و ذلك كله ضمن مجال تطبيق التعاليم الإلهية

، فعندما كان بعض اليهود يخطئ أو يتصرف تصرفات خارج التعاليم الإلهية ، كان العقاب الإلهي يطالهم من دون تساهل أو محاباة أو ممالأة ، و يطبق عليهم فوراً . و شواهد التوراة في هذه القضية كثيرة و في مواضيع عدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، أنه عندما عاد رسل موسى من ارض كنعان و أخبروه بقوة سكانها هناك ، تذمرت فئة من بني إسرائيل و أعلنت تمردها على موسى و هارون و على الرب و هموا برجمهما . و عندما حاول موسى الصفح عن هذه المجموعة قال له الرب [**إلى متى أصفح عن هذه الجماعة الشريرة المتذمرة علي ؟ لقد سمعت تذمرهم علي / فقل لهم حي أنا الرب لأنزلن بكم ما تكلمتم به في مسمعي / إذ تتساقط جثثكم في هذه الصحراء من ابن عشرين فما فوق ممن تم إحصاؤهم و تذمروا علي / لن تدخلوا الأرض التي وعدت رافعاً يدي بقسم أن أسكنكم فيها بقسم / غير أني سادخل إليها أولادكم ادعيتم أنهم سيصبحون أسرى فيتمتعون بالأرض التي احتقرتموها / أنا الرب قد تكلمت و هذا ما سأعاقب به هذه الجماعة الشريرة المتآمرة علي في هذه الصحراء يفنون و يموتون**] (العدد ١٤ / ٢٧ : ٣٥) . و عندما تذمروا مرة أخرى على موسى و هارون في موضع آخر ، قال الرب لموسى و هارون [**اخرجا من بين هذه الجماعة لأني سأفنيهم في لحظة ، فخرّا على وجهيهما / ثم قال موسى لهارون خذ المجمرة و ضع فيها ناراً من على المذبح و أيضاً بخوراً و أسرع إلى الجماعة لتكفر عنهم لأن الغضب المحتدم قد صدر عن الرب و تفشى فيهم الوباء / فنفذ هارون أمر موسى و أسرع إلى وسط الجماعة و إذا بالوباء قد بدأ يتفشى فيهم فوضع البخور و كفر عن الشعب / و وقف هارون بين الموتى و الأحياء فتوقف الوباء / فكان الذين هلكوا بالوباء اربعة عشر ألفاً و سبع مئة عدا الذين ماتوا بسبب قورح**[1]] . و عندما زنى بعض رجال بني إسرائيل

[1] أحد رؤساء و شيوخ إسرائيل الذين تمردوا على موسى .

مع النساء الموآبيات و سجدوا لآلهتهن ، غضب الرب عليهم و طلب من موسى إنزال القصاص بهم [**فقال الرب لموسى خذ جميع قادة عبدة البعل و اصلبهم و علقهم تحت وطأة حرارة الشمس أمام الرب فترتد شدة غضبه عن بني إسرائيل / فقال موسى لقضاة إسرائيل اقتلوا كل واحد من قومكم من المتعلقين بعبادة بعل فغور**] (العدد ٢٥ / ٤ : ٥) هذا الوضع كله الذي يستدعي تطبيق العقاب الفوري الصارم و الشديد من قبل السلطة الإلهية بحق أي مخالفة أو تقصير ، استدعى ايضاً عدم القدرة على التلاعب أو محاولة الخروج بأفكار أو تعاليم أو آراء أو تصرفات خارج ما أرادته الحكمة الإلهية التي خططت لذهاب الشعب اليهودي من أرض فلسطين إلى مصر و من ثم خروجه من مصر و عودته إليها . و هذه الحكمة كانت تراقب كل تفاصيل حياة الشعب الإسرائيلي بدءاً من الحكام و القادة ، نزولاً حتى أصغر فرد فيه ، فالجميع كانوا منصهرين ضمن بوتقة واحدة متجانسة و ضمن تسلسل هرمي .. تأتي الأوامر من الرب فتعمم و تطبق على الجميع .

و يلاحظ أيضاً في التاريخ اليهودي ، عدم وجود هذا التفاوت الطبقي الكبير بين الحكمة السلطانية اليهودية و بين رعاياها و شعبها ، قياساً إلى بقية الشعوب و الديانات الأخرى ، حيث إن التفاوت كان واضحاً و جلياً و بشكل وصل إلى درجة الظلم الاجتماعي الهائل و الذي كان يتسبب بمقتل عشرات الآلاف أو أكثر . هذا الأمر تبدى أكثر في مرحلة ما قبل ظهور مملكة إسرائيل بقيادة داؤود و من بعده ابنه سليمان . و بما أن الحكمة الإلهية في الديانة اليهودية كانت مسيطرة تماماً على الحكمة السلطانية و تسييرها بموجب أوامرها و مقتضى إرادتها ، فإن ذلك استوجب أن لا يكون هنالك أي دور حقيقي للحكمة السلطانية اليهودية ، بل هي فقط تطبق تعاليم هذه الحكمة ، و هذا الأمر أيضاً تجلى في التوراة حتى حدود بداية ملك داؤود و تسلمه سدة الحكم ، حيث كانت ظهورات الرب و أوامره و نواهيه

السياسية و العسكرية و الاجتماعية و الدينية و عقابه ، تتعدد و تتكرر بشكل ملحوظ حتى بداية سفر صموئيل الأول و ظهور داؤود و صراعه مع شاول . و هذا يعني بشكل من الأشكال ان تدخلها أصبح معدوماً بعد هذه المرحلة ، بل إنه انحصر فقط في الأمور و القضايا الهامة و الجوهرية و حكم الدولة ، لأن حكم داؤود يُعَد تشكيل دولة إسرائيل بكيانها الكامل وكل عوامل و مقومات الدولة . و يلاحظ في هذا السياق أن داؤود قد بدأ يأتي ذكره باسم الملك .

دولة أو مملكة إسرائيل :

إن مملكة إسرائيل في التوراة لم تتشكل بين ليلة و ضحاها ، بل جاء تشكلها ضمن حركة بطيئة و مخاض عسير تمثل في الصراع الدائم مع الفلسطينين . و لكن البداية الفعلية كانت مع شاول اليهودي الذي استلم زمام قيادة شعب إسرائيل . و برأينا أن بداية التشكل السياسي التاريخي لدولة أو مملكة إسرائيل في التوراة ، يظهر ابتداء من كتاب صموئيل الأول و الذي ذكر فيه ولادة صموئيل و الذي هو حسب التوراة ، نبي من أنبياء بني إسرائيل . و عند ولادته و بداية شبابه كان يحكم شعب إسرائيل أسرة (عالي) اليهودية . و لكن الأخطاء المتكررة التي قام بها بعض أفرادها ، جعل الرب يقرر إبادتهم و إحلال صموئيل الذي كان ملتزماً بتعاليم الرب ، مكانهم . و يتم هذا الأمر بظهور الرب لصموئيل في بادرة عبرت عنها التوراة بأنها قد أصبحت نادرة **[و خدم الصبي صموئيل الرب بإشراف عالي و كانت رسائل الرب نادرة في تلك الأيام و الروئ عزيزة / و بينما كان صموئيل راقداً في هيكل الرب الذي فيه تابوت الله و لم يكن سراج الله قد انطفأ بعد / دعا الرب صموئيل فأجاب نعم]** (سفر صموئيل ٣ / ١ : ٣) .

و بعد تجلي الرب أكثر من مرة لصموئيل و كلامه معه ، يخبره أنه سيزيل بيت (عـــالي) و ينصبه هو قاضياً أو رئيساً على إسرائيل و يتوج وعده هذا بأن يجعل الإسرائيليين يخســـرون في إحدى معاركهم مع الفلسطينيين . و عندما يستولي الفلسطينيون على تابوت العهد ، يـــدرك الإسرائيليون حراجة الموقف و وجود خلل و خطأ ما فيطلب منهم صموئيل التوبة و الامتنـــاع عن عبادة الآلهة الغريبة حيث يقول لهم [**إن كنتم حقاً قد تبتم من كل قلـــوبكم إلـــى الـــرب فانزعوا الآلهة الغريبة و أصنام العشتاروت من وسطكم و هيئوا قلوبكم للـــرب و اعبـــدوه وحده ، فينقذكم من قبضة الفلسطينيين /فتخلص بنـــو إســـرائ يل مـــن البعلـــيم و أصـــنام عشتاروت و عبدو الرب وحده**] (صموئيل الأول ٧ / ٣ : ٤) .

و عندما نفذ الإسرايليون ما طلبه منهم صموئيل عادوا و انتصروا على الفلسطينيين (حســـب التوراة) و عقدوا صلحاً مع الأموريين . و هنا و لأول مرة تظهر المطالبـــة بإنشـــاء كيـــان سياسي رسمي لليهود يتمثل بتنصيب ملك عليهم . هذه المطالبة جاءت من قبل الشعب نفســـه و بالأحرى من قبل رؤساء إسرائيل و شيوخها ، حيث جاؤوا إلى صموئيل عندما أصبح كبيراً طاعناً في السن و طلبوا منه أن ينصب عليهم ملكاً من بعده . و تخبرنا التوراة أن صـــموئيل لم يكن راضياً عن هذا الطرح الذي ربما كان يمثل بنظره دخول الأمر السياسي فـــي الأمـــر الديني و استخلاص الصفة الروحانية منه . و هذا ما أكده الرب أيضاً حين عدّ حسبما جاء في التوراة أن الأمر موجه ضده هو شخصياً [**فاجتمع شيوخ إسرائيل و جاؤوا إلى صموئيل في الرامة / و قالوا له ها أنت قد شخت و لم يسلك أبناؤك في طريقك فنصب علينا ملكاً يحكـــم علينا كبقية الشعوب / فاستاء صموئيل من طلبهم تنصيب ملك عليهم ليحكم بينهم و صـــلى إلى الرب / فقال له الرب لب للشعب طلبه و انزل عند رغبتهم لأنهم لم يرفضوك انـــت بـــل**

إياي رفضوا لكي لا أملك عليهم و هم يعاملوني الآن كما عاملوني منذ أن أصعدتهم من ديار مصر إلى هذا اليوم] .

تقودنا الفقرات السابقة إلى نتيجة هامة و خطيرة و هي أنه منذ دخول بني إسرائيل مصر و اختلاطهم مع أنظمة الحكم الكبيرة و الراقية إدارياً و سياسياً و قانونياً ، و وجود رجل منهم في سدة الحكم هناك ، كحاكم فعلي و آمر مباشر هو يوسف ، ظهر لديهم نوعان من الحكمة السلطانية ، حكمة سلطانية مرتبطة مباشرة مع الله و هي كانت موجودة منذ عهد إبراعيم . و حكمة سلطانية وليدة لم يكن لها على ما يبدو أي ارتباط مع الله . و لكنها استطعمت حلاوة أرض مصر و أبهة الحكم و السلطان فيها ، و رأت في يوسف السلطان الآمر المتسلط على كل موارد مصر و قراراتها السياسية و الاجتماعية ، نموذجاً حي يحتذى ، و مثالاً عملياً يطبق أمامها . فبدأت الفكرة من هنا . و من هنا أيضاً ربما يمكننا استنتاج سبب تذمر بعض بني إسرائيل من موسى و تمردهم عليه و على أخيه هارون منذ خروجهم من مصر و حتى اقترابهم من أرض الميعاد . و ذلك منذ حصول أدنى مشكلة لهم في مراحل الخروج تلك . و هؤلاء على ما يبدو كانوا يشكلون عماد الحكمة السلطانية الكلاسيكية اليهودية ، و هم ربما و باللاشعور كانوا دوماً يقومون بإجراء مقارنة بين يوسف و موسى .. يوسف الحاكم اليهودي الذي يمثل أبهة و عظمة الحكم المصري و نائب الفرعون الذي عرف كيف يكسب محبته و مودته و الذي أحضر بني إسرائيل من الجوع و القحط و الجدب إلى أرض الخير و العمران و الخصب و أعطاهم كما يريدون دون أدنى تعب أو عناء . وبين موسى المشاكس الذي أخرجهم من أرض مصر إلى الصحراء حيث الجوع و العطش و المرض نتيجة اصطدامه مع فرعون و مناكفته إياه بدلاً من أن يستميله ، و بخاصة و أنه كان يعيش عنده و في قصره كما هو الحال مع يوسف . و هذا التذمر كثيراً ما كان يرد في التوراة التي تحدثت عن تلك الفترة

. و هو كان تعبيراً عن صراع بين حكمتين سلطانيتين في الحل الأمثل لقيادة الشعب الإسرائيلي . صراع بين حكمة سلطانية ليس لها أي دور سوى اتباع تعاليم الحكمة الإلهية ، و بين حكمة سلطانية علمانية على ما يبدو ، تحاول أن توجد لها دوراً في قيادة الشعب الإسرائيلي بمعزل (و لو نسبي) عن الآلهة . و ما يدعم رأينا هذا هو كلام الرب لصموئيل في الإصحاح السابق [**لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا لكي لا أملك عليهم**] و هذا الأمر ليس له إلا معنى واحد و هو فصل الدين عن الدولة أو السياسة . أو بشكل آخر تحمل الحكمة السلطانية وحدها مسؤولية القيادة و السلطة ، فتصبح كبقية الحكم السلطانية التقليدية الأخرى في الدول المجاورة . و هذا الأمر يدلل عليه رغبة هذه الحكمة في تقليد أنظمة الحكم الأخرى و الاقتداء بها عندما قال أربابها لصموئيل [**نصب علينا ملكاً كبقية الشعوب**] و عبارة (كبقية الشعوب) بالذات تعني إلغاء الصفة التي تميز إسرائيل عن بقية الشعوب و هي صفة الإله القائد .

و عندما يحذر صموئيل رؤساء إسرائيل من مغبة ذلك العمل ، يصرون على قرارهم و يخاطبونه قائلين [**لا بل نصب علينا ملكاً فنكون كسائر الشعوب ، لنا ملك يقضي بيننا و يقودنا و يحارب معاركنا**] (صموئيل الأول ٨ : ١٩) .

و إذاً كان يوسف و الحياة التي عاشوها في مصر ، دافعاً قوياً لهذا الطلب ، فربما يكون هناك دافع آخر قوي أيضاً ، و هو تبادل الانتصارات و الهزائم بين اليهود و بقية الشعوب القاطنة في المنطقة و الذي ربما أثر في عقلية و قناعة هذه الفئة و عدت إلى حد ما أن أمور الحرب و القتال و السياسة هو ليس من اختصاص الآلهة ، و هذا ما نراه في عبارة (ملك يقضي بيننا و يقودنا و يحارب معاركنا) ، أي الاستغناء عن خدمات الآلهة في هذا المجال . و من الواضح هنا أن هذه الحكمة السلطانية التقليدية ليس لها علاقة بالرب ، و ربما يكون قد حصل

لديها التباس في الهزائم التي مني بها الإسرائيليون أمام جيرانهم ، ولم تعدها عقاباً من الله بقدر ما عدتها عجزاً أو شيئاً آخر ، و ربما عدت أن يوسف هو الذي أحضر اليهود إلى مصر و ليس الله . و هذا ما يفسر لنا سخط و غضب صموئيل عليها .

و في هذا السياق يبرز لنا في التوراة أمر مهم و غير متوقع و هو موافقة الرب على طلب هؤلاء ، فعندما عاد صموئيل و أخبره بإلحاحهم ، رد عليه الرب باقتضاب شديد ملفت للانتباه في التوراة ، قائلاً **[لب طلبهم و نصب عليهم ملكاً]** (صموئيل الأول ٨ : ٢١) و في هذا حكمة إلهية خفية ، فهل هي موافقة ضمنية من الله على فصل الدين عن الدولة و السياسية معاً و استخلاص شوائبهما من الدين للحفاظ عليه نقياً صافياً ، لأن المعهود في مثل هذه الأمور هو العقاب الإلهي القاسي و الشديد ، و لكن الرد هذه المرة جاء بالموافقة بالرغم من اعتبار الله أن هذه العملية موجهة ضده هو ؟؟؟ أم اعتبار أن مفهوم " شعب أو أرض إسرائيل " هو غير مفهوم الدولة ذات الكيات السياسي الرسمي ؟؟ أم هي مرحلة متقدمة تالية لمرحلة التأسيس الإلهية ؟؟ أم أن مفهوم الدولة الرسمي و الملك ، قد فرض نفسه كنتيجة حتمية للحروب و الصراعات القائمة بين اليهود و جيرانهم ؟؟ هذا مالا يمكن التكهن به و بجوابه على وجه الدقة .

و بعد موافقة الرب تتم عملية تدشين الدولة . و الملك هنا شخصية يهودية معينة من قبل الرب و هي شاول . و يتم الإعلان عن ذلك من قبل صموئيل نفسه و بإيعاز من الله و ابتداء من هذه النقطة التاريخية ، يبدأ دور الرب و ظهوره و تدخله ، في التضاؤل ، و لكنه لا ينقطع تماماً ، بل يبقى كما ذكر ، للقضايا و الأمور الهامة ، و منها تعيين الملك .

لقد بدأ تاريخ مملكة إسرائيل بالحروب و توسيع رقعة الدولة ، و لكن و في الوقت نفسه تبدأ المشاكل الداخلية . و عندما يخطئ شاول بحق الرب و يمارس أخطاء عدة بحق صموئيل ، تبدأ على الفور عملية البحث عن ملك آخر . وكانت أولى أخطاء شاول بحق صموئيل ، هي أنه قدم المحرقات و ذبائح السلام في المذبح ، قبل حضور صموئيل الذي كانت مهمته تنحصر في الأمور الدينية و موضوع الكهانة و نستدل من ذلك على أن نظام الحكم و القيادة في إسرائيل ، كان يقوم على منصب الملك المختص بالأمور السياسية و العسكرية و الحربية و سائر الأمور الاجتماعية والاقتصادية ... و على منصب المرشد أو الموجه الأعلى المختص بالأمور الدينية المحضة و التوجيهات الإرشادية العامة . و لكل من هذين الموقفين صلاحياته الخاصة به و التي لا يجوز للآخر أن يتعدى عليها وبمعنى آخر ، فإن الرب عندما وافق على تشكيل حكمة سلطانية كلاسيكية لدى شعب إسرائيل ، فإنه أبقى على الحكمة السلطانية الروحية و جعلها الوسيط بينه و بين الحكمة التقليدية . و لهذا فعندما حاول شاول تقديم المحرقات و الذبائح بغياب صموئيل و التي هي من اختصاص عمله (أي صموئيل) فإن ذلك عُدَ بمنزلة تعدي على صلاحياته ، تماماً عندما يتعدى رئيس وزراء على صلاحيات رئيس الدولة . و لذلك فعندما أتى صموئيل و فوجئ بتصرف شاول هذا ، استهجن الأمر و سأله حسبما جاء في التوراة [**ماذا فعلت ؟ فأجابه شاول رأيت أن الشعب تفرق عني و أنت لم تحضر في موعدك و الفلسطينيون محتشدون في مخماس / فقلت إن الفلسطينيين متأهبون الآن للهجوم علي في الجلجال و أنا لم أتضرع إلى الرب بعد طلباً لعونه فوجدت نفسي مرغماً على تقريب المحرقة**] (صموئيل الأول ١٣ : ١١) و لكن هذا الجواب على ما يبدو لم يعجب صموئيل كثيراً ، و لم يكن مقتنعاً به كفاية ، فقال لشاول [**لقد تصرفت بحماقة فأنت قد عصيت وصية الرب إلهك التي أمرك بها و لو أطعته لثبت ملكك على**

إسرائيل إلى الأبد / اما الآن فلأنك لم تطع ما أمرك الرب به فإن ملكك لن يدوم لأن الرب قد اختار لنفسه رجلاً حسب قلبه و أمره أن يصبح رئيساً على شعبه] (صموئيل الأول ١٣ / ١٣ : ١٤) .

و تتزايد بعد ذلك أخطاء شاول الدينية و يعصي أوامر و توجيهات الرب ، فيعلن الرب لصموئيل أنه قرر تعيين ملك آخر غير شاول . و يقع اختيار الرب على داؤود بن يسء ، أحد شيوخ إسرائيل و كان راعياً للغنم ، فيمسحه صموئيل بالزيت ، ليحل عليه روح الرب ، و بعد ذلك و نتيجة لتدبير حكمة إلهية ، يخدم داؤود عند شاول ، و حين ينتصر على جليات الجبار ، يعظم قدره في عيون الإسرائيليين و يبدأ الصراع بينه و بين شاول الذي يشعر بالخطر ، فيحاول التخلص منه بشتى الطرق و لكنه يخفق في ذلك ، لأن الرب كان مع داؤود الذي شكل لنفسه فرقة كوماندوس خاصة قوامها ثلاثة آلاف رجل . و مع ذلك يظل داؤود على ولائه لشاول بوصفه معيناً من قبل الرب . و عندما قتل شاول في إحدى حروبه مع جيرانه ، نصب الإسرائيليون داؤود ملكاً عليهم .

عمل داؤود على تقوية دعائم ملكه و تقوية مملكة إسرائيل و نظام الدولة ، فعمل على حل الخلافات الداخلية و توحيد أسباط إسرائيل جميعاً . و ذلك بإخضاعه بيت شاول و أتباعه إليه و بقيةالعشائر و القبائل الإسرائيلية المتمردة . و من ثم التفت لمحاربة جيوش الممالك المحيطة به ، فهومهم جميعاً و وطد ملك إسرائيل . و لكنه يرتكب خطأ بحق قائد جيشه أوريا ، فيورطه في معركة خاسرة من أجل امراة ، مما يثير استياء الرب منه ، فيبادر إلى التوبة ، و لكن الرب يعاقبه بتسليط بعض أبنائه (هو أبشالوم) عليه بحيث هدد ملكه . و لكن داؤود و بعد معارك عدة ، يستعيد السيطرة على مقاليد الحكم و يتعرض بعدها لعدة تمردات داخلية خطيرة ، فيقمعها كلها و يفرض الاستقرار في مملكته . و لكنه عندما يشيخ و يطعن في السن

، يحاول ابنه أدونيا ، تنصيب نفسه ملكاً ، ولكن و حسب التوراة فإن تنصيب الملك لا بد لـــه من قرار إلهي أو من ينوب عن الرب ، لكي يتم الأمر . و كما كان النبي في عهد شاول هـــو صموئيل ، فإنه في عهد داؤود كان يسمى ناثان . و ناثان النبي هذا ، يقرر أن ســـليمان بـــن داؤود هو الملك ، و أدونيا قد دعا لنفسه بالملك دون استشارة والده أو النبي ناثـــان ، حســـ بما جاء في التوراة **[و تساءل ناثان هل قلت يا سيدي الملك إن أدونيا يملك من بعدي و يخلفني على عرشي ؟ لأنه قد مضى اليوم و ذبح ثيراناً و مسمنات و غنماً يوفره و دعا جميع أبناء الملك و رؤساء الجيش و أبناثار الكاهن . و هاهم يحتفلون آكلين شاربين أمامـــه هـــاتفين ليحيى الملك أدونيا . أما أنا و صادوق الكاهن فلم يدعنا]** (سفر الملـــوك الأول ١ / ٢٤ : ٢٦) .

يبدو لنا هنا أن الحكمة الإلهية لا يمكن تجاهلها و لها حصة الأسد في ترشيح الملك و تعينـــه ، لأن وجودها حسب سياق الخطاب التوراتي ، كان لا بد منه لضبط الشعب الإسرائيلي و منعه من التشرذم ، خاصة في ظل اختلاطه بالشعوب الأخرى و عبادة بعض أفـــراده لآلهـــة هـــذه الشعوب ، في ظل حكمة سلطانية تسعى جاهدة بكل قوتها إلـــى اعتمـــاد المفهـــوم و الأمـــر السياسي البحت في القيادة و الحكم و ما يستجر ذلك من تبعات قد تشكل خطـــراً علـــى بنـــي إسرائيل أنفسهم . و لهذا فقد كان للحكمة الإلهية اليهودية ، رأي خـــاص بهـــا مختلـــف عـــن الحكمة السلطانية اليهودية ، بل و حتى عن أنبياء بني إسرائيل . و مثال هذا في التوراة عندما اعتقد صموئيل أن إلياب بن يسء – و كان ذا هيئة قوية و جميلة – أنه هو من اختاره الـــرب . و لكن إرادة الرب جاءت معاكسة تماماً ، حيث اختار أخوه الأصغر داؤود **[و عندما أقبلوا و شاهد صموئيل إلياب بن يسء قال هذا هو مختار الرب / فقال الرب لصموئيل لا تلق بالاً**

إلى وسامته و طول قامته إذ ليس هذا من اخترته ، فنظرة الرب تختلف عن نظرة الإنسان] (صموئيل الأول ١٦ : ٦) .

إذاً عندما أشار ناثان النبي إلى سليمان ، اعتمده داؤود و قربه و عينه خليفة له . و عندما دنا أجله أوصى ابنه سليمان باتباع وصايا الرب و تطبيق شرائعه . و لأول مرة تطلق صفة الحكمة بشكل رسمي على ملك إسرائيل ، و لأول مرة يتم استكمال بناء أسس و مقومات الدولة اليهودية بكل أبعادها حيث جمعت حكمة سليمان الواسعة بين الأمر الإلهي و الأمر السياسي معاً . و قد نصت التوراة صراحة على أن هذه الحكمة اعطاه إياها الرب الذي تجلى لسليمان ليلاً في حلم و سأله ماذا يتمنى ؟ فقال سليمان **[أنا ما برحت فتى صغيراً غير متمرس بشؤون الحكم / و عبدك يتولى شعبك الذي اخترته / فهب عبدك قلباً فهيماً ليقضي به بين شعبك و أميز بين الخير و الشر لأنه من يستطيع أن يحكم شعبك العظيم هذا / فسر الرب بطلب سليمان هذا / و قال له لأنك قد طلبت هذا الأمر و لم تطلب حياة طويلة و لا غنى و لا انتقاماً من أعدائك بل سألت حكمة لتسوس شؤون الحكم / فإني سألبي طلبك فأهبك قلباً حكيماً مميزاً فلا يضاهيك أحد من قبل و لا من بعد]** (سفر الملوك الأول ٣ / ٩ : ١٢) .

يظهر مفهوم الحكمة واضحاً في الفقرات السابقة . و يتضح أكثر أنها هي أساس أي حكم سياسي . و دون هذه الحكمة ، لا يمكن لأي شخص أن يتسلط على أمور الدولة و قيادة الرعية . و إن سليمان عندما تولى دفة الحكم و جلس على كرسي الملك ، أدرك هذا الأمر و عرف أهمية الحكمة فطلبها من الرب عندما تجلى له . ثم يتحدث سفر الملوك الأول عن سرور الرب بهذا الطلب . و تأتي عبارة الرب **[لأنك قد طلبت هذا الأمر ... بل سألت حكمة]** لتدلنا على أهمية الحكمة عند الله و مكانتها لديه ، و لذلك وهب سليمان كل ما أراده و

قال له عبارته التي تحمل مغزى يدل على أهمية و مكانة الحكمة عنده حين قال له [**فلا يضاهيك أحد من قبل و لا من بعد**] . لقد كانت هذه المناسبة عبارة عن نقطة التقاء الحكمة السلطانية مع الحكمة الإلهية في شؤون القيادة و الحكم . و لم يكن هذا الالتقاء بمعنى الاتحاد بقدر ما هو بمعنى التوافق . و هذا التوافق نتج عنه أن أعطي سليمان امتيازاً و تفوقاً على غيره من الحكام و السلاطين لم يسبق له أو يتلوه نظير [**و وهب الله سليمان حكمة و فهماً فائقين و رحابة صدر غير متناهية / و تفوقت حكمة سليمان عل جميع أبناء المشرق و كل حكمة المصريين / فكان أكثر حكمة من جميع الناس ... / و ذاع صيته بين جميع الأمم المجاورة / و نطق بثلاثة آلاف مثل .. / فأقبل الناس من جميع الأمم ليستمعوا إلى حكمة سليمان موفدين من قبل ملوك الأرض الذين بلغتهم أخبار حكمته**] (سفر الملوك الأول ٤ / ٢٩ : ٣٤) .

و لم ينتج عن هذا التوافق ، تفوق حكمة سليمان السلطانية على حكمة المصريين و غيرها من الحكم ، بل نتج عنه أيضاً تقوية مملكة إسرائيل و بسط سلطانها على جيرانها من الممالك الأخرى و توطيد الأمن و الاستقرار فيها إلى جانب الرخاء و البحبوحة الاقتصادية حيث جاء في التوراة [**و امتد سلطان سليمان على جميع الممالك الواقعة ما بين نهر الفرات إلى أرض فلسطين و حتى تخوم مصر فكانت هذه الممالك تقدم له الجزية و تخضع له كل أيام حياته / و كانت متطلبات القصر اليومية من الطعام ثلاثين كر سميذ**[1] **و ستين كر دقيق و عشرة ثيران مسمنة و عشرين ثوراً من المراعي و مئة خروف فضلاً عن الأيائل و الغزلان و اليحامير و الأوز المسمن لأن سلطانه كان ممتداً على كل الأراضي الواقعة غربي نهر الفرات من تفسح إلى غزة و على ملوكها فكان السلام يحيط به من كل جانب / و تتمتع**

[1] يقدر بحوالي سبعة آلاف و مئتي لتر .

إسرائيل و يهوذا بالأمن طوال حياة سليمان فكان كل واحد يستمتع بالجلوس تحت ظلال كرمته و تينته من دان إلى بئر سبع / و كان لسليمان أربعون ألف مزود لخيل مركباته و إثنا عشر ألف فارس / و كان وكلاء المناطق كل في شهره يمدون الملك سليمان و كل من يأكل على مائدته بالمؤونة فلم يفتقروا إلى شيء] (سفر الملوك الأول ٤ / ٢١ : ٢٨) .

و توج هذا السلطان و القوة الذي وصلت فيه مملكة إسرائيل إلى أوج قوتها و ذروة مجدها ، ببناء الهيكل و هو بيت الله . و قد صورت التوراة بناء الهيكل بصورة تدل على القوة التي وصلت إليها مملكة إسرائيل و هي صورة أقرب في تشبيهها ببناء الإهرامات المصرية . و قد جاءت رواية التوراة على الشكل التالي **[و سخر الملك سليمان ثلاثين ألف رجل من أرجاء إسرائيل / فكان يرسل منهم عشرة آلاف إلى لبنان لمدة شهر واحد مناوبة فيقضون شهراً في لبنان و شهرين في بيوتهم / و فضلاً عن هؤلاء كان لسليمان سبعون ألفاً من حمالي الخشب و ثمانون ألفاً من قاطعي الحجارة في الجبل / ما عدا ثلاثة آلاف و ثلاث مئة من المشرفين على هؤلاء العمال / و بناء على أمر الملك قام العمال بقلع حجارة كبيرة هذبوها فصارت مربعة لاستخدامها في أساس بناء الهيكل / فنحتها بناؤو سليمان بمساعدة بنائي حيرام و أهل جبيل و هيؤوا الأخشاب و الحجارة لتشييد الهيكل]** (سفر الملوك الأول ٥ / ١٣ : ١٨) .

و جاءت عملية إكساء الهيكل بعد الانتهاء منه ، في التوراة ، بشكل بانت فيه كل مظاهر العظمة و الفخامة حيث صنع معظم أثاثه من الذهب الخالص و الخشب النفيس و الفضة و غيرها من معادن و مواد كريمة . وكذلك الأمر بالنسبة لقصر سليمان . و عاش سليمان عيشة لم يعشها ملك مثله ، و لكنه ما لبث بعد فترة أن بدأ يرتكب الأخطاء القاتلة بحق الرب حيث بدأ يقيم المعابد لآلهة الملوك المجاورين له و لآلهة نسائه من غير بني إسرائيل اللواتي تزوج

بهن . و لكن إله إسرائيل هو إله لا يتساهل أبداً بحق المخطئين ، و لا يمكن اللعب أو المزاح معه أبداً ، و يجري عقابه على المخطئين بحقه سواء من أبناء شعبه أم من غيرهم و بخاصة أولئك الذين أنعم عليهم و أعطاهم من نعمه و أغدق لهم العطاء . و هو مستقيم كحد السيف ، من الممكن أن يتساهل في أمور معينة ، و لكن ضمن حدود . أما إذا تعدى الخطأ مجاله إلى حدود الاستهانة به أو الإشراك معه ، فإنه يطبق العقاب و العدل و لا يأبه سواء أكان إسرائيلياً أم غير إسرائيلي ، أكان نبياً أم قائداً أم حاكماً أم عبداً صالحاً أم سيئاً ، حتى مملكة إسرائيل و التي هي عزيزة على الرب و على الشعب ، لا يتردد في إزالتها في منهج من العدل الصارم ، في حال ارتكب ملكها الخطأ بحقه . و قد ذكرت التوراة في مواضع عدة هذا الأمر منها [**فغضب الرب على سليمان لأن قلبه ضل عنه مع أنه تجلى له مرتين / و نهاه عن الغواية وراء آلهة أخرى فلم يطع وصيته / لهذا قال الله لسليمان لأنك انحرفت عن عهدي و لم تطع فرائضي التي أوصيتك بها فإني حتماً أمزق أوصال مملكتك و أعطيها لأحد عبيدك / إلا أنني لا أفعل هذا في أيامك من أجل داؤود أبيك بل من يد ابنك أمزقها / غير أني أبقي له سبطاً واحداً يملك عليه إكراماً لداؤود عبدي و من أجل أورشليم التي اخترتها**] (الملوك ١١ / ٩ : ١٣) . ليس ذلك فقط بل إن الله أثار مناوئي و خصوم سليمان ضده و فقرات الإصحاح السابق تحدثنا عن الانقسام التاريخي الخطير الذي حصل في مملكة إسرائيل حيث انقسمت إلى قسمين أو مملكتين .. مملكة إسرائيل و مملكة يهوذا التي حكمها ابن سليمان و اسمه رحبعام . أما مملكة إسرائيل فقد حكمها شخص يدعى يربعام بن نابـاط الإفرايمي و كان أحد رجالات سليمان و خدمه . فعندما كان في مهمة إلى حدود مصر تلقاه النبي أخيا الشيلوني في الطريق و أخبره بقرار الرب تجاه مملكة إسرائيل و أنها ستنقسم إلى قسمين و سيكون هو صاحب القسم الأكبر و الأقوى . و تتحقق إرادة الرب بعد وفاة سليمان حيث

يخلفه ابنه يربعام و لكنه يضيق الخناق على الشعب بالضرائب و العمل ، فيشير عليه شيوخ إسرائيل بالتخفيف من ذلك ، و لكنه يرفض طلبهم فيتمردون عليه و ينصبون يربعام ملكاً بدلاً منه فيهرب رحبعام إلى أورشليم حيث يناصره أفراد سبط يهوذا . و بالرغم من أن الله قد كرس يربعام ملكاً على إسرائيل فإنه عندما أخطأ بحقه و حق الشعب و الكهنة[1] ، لم يتردد الله في إنزال أقصى العقوبات بحقه و التي كانت القتل على يد مناوئ له . و عندما أرسل يربعام زوجته إلى النبي أخيا نفسه الذي بشره بالملك ، عله يشفي له ابنه و يثبت ملكه ، أجابها النبي بوحي من الرب [**اذهبي و بلغي يربعام قضاء الرب إله إسرائيل . لقد رفعتك من وسط الشعب و نصبتك رئيساً على شعبي إسرائيل / و مزقت المملكة عن بيت داؤود و وليتك عليها و لكنك لم تكن كعبدي داؤود الذي حفظ وصاياي و تبعني من كل قلبه ليصنع ما هو صالح في عيني / لقد ارتكبت من السيئات ما فاق جميع الذين كانوا قبلك فصنعت لنفسك آلهة أخرى أصناماً مسبوكة لتثير غيظي و قد طرحتني خلف ظهرك / لذلك ها أنا مزمع أن أبتلي بيتك بشر عظيم و أبيد كل ذكر من نسلك عبداً كان أم حراً و أفني بيتك كما تفني النار الروث الجاف فتأكل الكلاب كل من يموت لك في المدين و تنهش طيور السماء كل من يموت لك في الحقل / الآن الرب تكلم**] (سفر الملوك الأول ١٤ / ٧ : ١٠) .

و بعد موت يربعام ، بدأت الحروب بين مملكة إسرائيل و مملكة يهوذا ، و كانت حروباً خاطفة ، و في الوقت نفسه بدأت أرض إسرائيل عامة تتعرض للهجوم الخارجي من قبل المصريين و الفرس و اليونان . و أخطر هذه الهجمات هي التي قام بها ملك آشور شلمناسر على أرض إسرائيل و سبى أهلها إلى آشور . و توالت الغزوات من مصر و من اليونان ، و

[1] قام يربعام بتعيين كهنة من عامة الشعب و من غير سبط لاوي و هو ما يعد جريمة فظيعة في التوراة .

آخرها كان على يد الرومان الذين احتلوا البلاد كلها . و كانت تلك خاتمة الحياة السياسية الرسمية اليهودية .

إذا تتبعنا الأمر الديني و الأمر السياسي في التوراة إلى حد هذه النقطة ، نرى أن الحكمة الإلهية اليهودية قد اقتضت الجانب الديني المحض في بداية التكوين و الذي يقوم على الأمر الاجتماعي الذي كان لا بد منه لصياغة الديانة التوحيدية الجديدة في إطار و مفهوم الشعب حيث كان لا بد للدين الجديد من شعب خاص يؤمن بهيقوم بأعبائه و يتحمل طقوسه التوحيدية ، فجاء مفهوم الشعب أو القبيلة ليجسد هذا الأمر .

و الظاهر لنا أن الحكمة الإلهية كانت من البداية تريد شعباً خاصاً يتمتع بميزات و مؤهلات معينة ليقوم بأعباء هذه المهمة و هذا ربما يكون قد نتج من اختلاط الأمر الديني في بقية الديانات ، بالأمر السياسي المحض و تحويره و قولبته بما يتناسب مع هذا الأمر ، مما أدى إلى فقدان روحانية الأمر الديني الاجتماعي الذي أرادته الحكمة الإلهية عامة ، معزولاً عن الأمر السياسي . و عندما فشلت هذه التجربة على ما يبدو و على مدار قرون عدة امتدت لآلاف السنين ، ارتأت ربما هنا الحكمة الإلهية أن تختار هذه المرة شعباً خاصاً تنشئه على طريقتها و حسب رغبتها ليكون مثالاً و رمزاً للدخول في الدين التوحيدي الجديد ، و لم تعط هذا الشعب أي ميزة سياسية بل عمدت إلى محاولة جعله دائماً خارج منظومة الكيان السياسي الذي لا بد من أن يدخل في هذا الدين التوحيدي المحض ، و لذلك اقتصرت على الأمر الاجتماعي المجرد الذي تجلى في شعب مؤلف من قبيلة أو قبائل . و بدأ هذا الأمر بمجمله من نقطة ظهور الرب لإبراهيم . و بنظرنا أن مفهوم هذا الشعب كان رمزاً و مثالاً أكثر منه قومية أو عرقاً أو جنساً (مع عدم إغفال وجود القومية) و ذلك لعدة أسباب : أولاً قضية الترحال لهذا الشعب و التنقل من مكان لآخر و التي بدأت منذ بداية تشكيل و تكوين مفهوم

الشعب أو شعب الله المختار حيث أمر الله إبراهيم بالتنقل و الهجرة من المكان الذي هو فيه إلى أرض كنعان مروراً بعدة مناطق و ممالك و منها الأراضي المصرية ، و من ثم الهجرة إلى مصر في عهد يوسف ، و العودة منها إلى فلسطين مع موسى ، في عملية طويلة معقدة امتدت حسب التوراة لأكثر من ألف سنة كانت الغاية منها برأينا ، هي نشر ديانة التوحيد في كل هذه الأصقاع و زرع بذور الأفكار التوحيدية في المعتقدات و الأديان الأخرى . ثانياً : السماح لغير بني إسرائيل (إن صح عرقياً) باعتناق هذه الديانة التوحيدية و انسحاب كل الحقوق و الواجبات التي لبني إسرائيل ، عليهم . ثالثاً : عدم التفريق أبداً و بأي شكل من الأشكال بين بني إسرائيل و بين بقية الشعوب الأخرى من حيث القصاص و العقاب الذي كان يطال الطرفين و دون ممالأة أو تحيز بما فيهم كبار القادة و الأنبياء و الموجهين . و ربما لهذه الأسباب السابقة جميعاً ، كان الأمر الاجتماعي هو الأنسب من حيث الملازمة لهذا الشعب .

و هذه المرحلة عامة يمكن تسميتها بأنها مرحلة ما قبل موسى ، و فيها كانت الحكمة الإلهية هي الموجه العام و المدبر في العلن و في السر أحياناً لتسيير شؤون الشعب الإسرائيلي . و كان هناك حكمة سلطانية واحدة يتم تعيينها مباشرة و بقرار من الرب ، و هي حكمة اجتماعية أكثر منها سلطانية في معظم المراحل الزمنية لتلك الفترة ، ما عدا حكمة سلطانية سياسية بحتة ليست اجتماعية و هي التي تجلت وتجسدت في شخص يوسف بن يعقوب ، و هذه الشخصية بالذات حسب رأينا كانت هي السبب الرئيس في فتح المجال واسعاً أمام مصراعيه أمام الحكمة السلطانية اليهودية الثانية لكي تظهر إلى العلن و تكون نداً مرافقاً للحكمة السلطانية اليهودية الثانية لسبب بسيط و هو أن شخصية يوسف السلطانية السياسية الحاكمة ، وجدت و إلى جانبها حكمة سلطانية دينية اجتماعية محضة هي شخصية والده يعقوب و هي

ظاهرة نستطيع وصفها بأنها مستجدة مستحدثة لم يظهر مثلها من قبل لدى الإنسان اليهودي الذي و لأول مرة بدأ يرى يعقوب نبي الله و المعين من قبله و في الوقت نفسه يرى يوسف السلطان الحاكم الآمر الناهي المتسلط على كل قرارات و موارد أكبر دولة إقليمية في ذلك الوقت . و تجدر هنا ملاحظة مهمة جداً ربما قد تدلل على عدم استحباب إله إسرائيل للأمر السياسي و هو أن شخصية يوسف الحاكم السياسي المحض البعيد عن أي قرار ديني ، كانت خارج نطاق شعب إسرائيل تماماً .

إذاً كانت النتيجة أن بدأ الأمر السياسي يدغدغ خيال و عقل هذه الحكمة السلطانية الوليدة التي اكتشفتها التوراة مبكرة و عرفتها و حددتها و انتقدتها نقداً حاداً مباشراً و أظهرت لنا كيف أن الحكمة الإلهية اليهودية حاولت مراراً تحييدها في مواضع كثيرة متكررة ، و في أحيان أخرى كانت تدمرها تماماً و تقضي عليها ، و لكنها كانت تعود و تنبت من جديد في دلالة توراتية لا تعبر عن عجز الحكمة الإلهية في هذا الأمر بقدر ما هي إشارة إلى وجود قرار إلهي مسبق بأنه من العدل أن يكون الاختلاف موجوداً و لكن يجب معرفة ما يريده الله مما لا يريده . أي الإشارة إلى فصل الواقع المجسد المرئي عن الرمز و المثال الروحي .

و مما زاد في التباس الأمر لدى هذه الحكمة الجديدة ، هو ظهور موسى القائد اليهودي الذي تربى في كنف فرعون ، فأعاد التفكير و التذكير مجدداً بشخصية يوسف الذي كان وصفه مشابهاً له ، مع الاختلاف هنا بأن موسى قد امتلك زمام الحكمتين معاً ، الدينية و السياسية فهو معين و مكلف من قبل الله مباشرة و مؤيد بمعجزات خارقة هزت مصر كلها و دمرت جيش فرعون و في الوقت نفسه هو قائد سياسي و عسكري ، و هذا ما أدى عملياً إلى تكريس مفهوم الشعب بجوانبه المادية الحية و الواقعية أكثر منها جوانبه المعنوية و الرمزية ، و هو ما أدى إلى ظهور شرعية سياسية وقفت موقف الند للحكمة السلطانية التي عينها الرب . و

هي إن تفهمت كون هذه الحكمة معينة من قبل الرب ، فإنها لم تتفهم ربما لماذا لم تـنحُ هـذه الحكمة نحو الأمر السياسي و تتبناه بشكل كامل ، أو كانت تعد أن هـذه الحكمـة السـلطانية الدينية الاجتماعية قليلة الخبرة بالمجال السياسي البحت و لذلك ارتأت أنه يجب أن تقوم هيئـة أو كيان سياسي إلى جانب هذه الحكمة . و لذلك ربما نفسر لماذا كانت تتبرم دائماً من الحكمة السلطانية الدينية و تعلن تذمرها منها ، بدءاً بموسى و حتى بداية تشـكيل مملكـة إسـرائيل بكيانها السياسي . و بالرغم من أنها تعرضت للمقاومة و الرفض و الضـرب مـن الحكمـة الإلهية من دون رحمة و صلت في بعض المراحل إلى حد التدمير و الإبادة الكاملة ، إلا أنهـا كانت تعاود الظهور من جديد .

لقد أخذ مفهوم الحكمة عامة في التوراة مداه الكامل و الرسمي و الواضح و تجلى ذلـك بـأن التوراة قد خصصت له سفراً كاملاً سمي بسفر الحكمة و هو سفر تطـرق لمفهـوم الحكمـة بأبعادها كافة ، سواء الحكمة الإلهية أم السلطانية و أعطاها ميزة جعلها محور وجود الإنسـان على هذه الأرض ، و هي غايته و مطلبه . و سوف نستعرض آيات هذا السفر الذي خصص كله لأجل الحكمة و سمي باسمها .

[إن الحكمة لا تلج النفس الساعية بالمكر و لا تحل في الجسد المسترق للخطيئة / إن روح الحكمة محب للإنسان فلا يبرئ المجدف مما نطق لأن الله ناظر لكليتيه و رقيب لقلبه لا يغفل و سامع لفمه / الحكمة خير من القوة و الحكيم أفضل من الجبـار / و أنـتم أيهـا الملـوك فاسمعوا و تعقلوا و يا قضاة أقاصي الأرض اتعظوا / إليكم أيها الملوك توجيه كلامي لكـي تتعلموا الحكمة و لا تسقطوا / فإن الحكمة ذات بهاء و نضرة لا تذبل و مشاهدتها متسـيرة للذين يحبونها و وجدانها سهل على الذين يلتمسونها / فهي تسبق فتجلى للذين يبتغونهـا / و من ابتكر في طلبها لا يتعب لأنه يجدها جالسة عند أبوابه / فالتأمل فيها كمال الفطنـة و

من سهر لأجلها فلا يلبث له هم / لأنها تجول في طلب الذين هم أهل لها و تتمثل لهم في الطرق باسمة و تتلقاهم كلما تأملوا فيها / فأولها الخلوص في ابتغاء التأديب / و ابتغاء الحكمة يبلغ إلى الملكوت / فإن كنتم تلتذون بالعرش و الصولجان يا ملوك الشعوب فأكرموا الحكمة لكي تملكوا إلى الأبد / و أحبوا نور الحكمة يا حكام الشعوب / و أنا أخبركم ما الحكمة و كيف صدرت و لا أكتم عنكم الأسرار لكن أبحث عنها من أول كونها و أجعل معرفتها بينة و لا أتجاوز من الحق شيئاً / و لا أسير مع من يذوب حسداً لأن مثل هذا لا حظ له في الحكمة / إن كثرة الحكماء خلاص للعالم و الملك الفطن ثبات الشعب / فتأدبوا بأقوالي و استفيدوا بها / إنما أنا إنسان يموت مشاكل لسائر الناس من جنس أول من جبل من الأرض و قد صورت جسداً في جوف أمي / حينئذ تمنيت فأوتيت الفطنة و دعوت فحل علي روح الحكمة / ففضلتها على الصوالجة و العروش و لم أحسب الغنى شيئاً بالقياس إليها / و لم أعدل بها الحجر الكريم لأن جميع الذهب بإزائها قليل من الرمل ، و الفضة عندها تحسب طيناً / و أحببتها فوق العافية و الجمال و اتخذتها لي نوراً لأن ضوءها لا يغرب / فأوتيت معها كل صنف من الخير و نلت من يديها غنى لا يحصى / فتمتعت بهذه كلها لأن الحكمة قائدة لها و لم أعلم انها أم جميعها / تعلمتها بغير مكر و أشترك فيها بغير حسد و غناها لا أستره / إنها كنز للناس لا ينقص و الذين استفادوا منه اشتركوا في محبة الله لأن مواهب التأديب قربتهم إليه / و قد وهبني الله أن أبدي عما في نفسي و أن أجري في خاطري ما يليق بمواهبه فإنه هو المرشد إلى الحكمة و مثقف الحكماء / ... فتعلمت جميع المكنونات و الظواهر لأن الحكمة مهندسة كل شيء هي علمتني / فإن الروح الفهم القدوس المولود الوحيد ذا المزايا الكثيرة اللطيف السريع الحركة الفصيح الطاهر النير السليم المحب للخير الحديد الحر المحسن / المحب للبشر الثابت الراسخ المطمئن القدير

الرقيب الذي ينفذ جميع الأرواح الفهمة الطاهرة اللطيفة / لأن الحكمة أسرع حركة من كل متحرك فهي لطهارتها تلج و تنفذ في كل شيء / إنها بخار قوة و الله و صدور مجد القدير الخالص فلذلك لا يشوبها شيء نجس / إنها ضياء النور الأزلي و مرآة عمل الله النقية و صورة جودته / تقدر على كل شيء و هي واحدة و تجدد كل شيء و هي ثابتة في ذاتها و في كل جيل تحل في النفوس القدسية فتنشئ أحباء الله و أنبياء / لأن الله لا يحب أحداً إلا من يساكن الحكمة / إنها أبهى من الشمس و أسمى من كل مركز النجوم و إذا قيست بالنور تقدمت عليه / لأن النور يعقبه ليل أما الحكمة فلا يغلبها الشر / إنها تبلغ من غاية إلى غاية و تدبر كل شيء بالرفق / لقد أحببتها و التمستها منذ صباي و ابتغيت أن أتخذها لي عروساً و صرت لجمالها عاشقاً / فإن في نسبها مجداً لأنها تحيا عند الله و رب الجميع قد أحبها / فهي صاحبة أسرار علم الله و المتخيرة لأعماله / و إذا كان الغنى ملكاً نفيساً في الحياة فأي شيء أغنى من الحكمة صانعة الجميع / و إن كانت الفطنة هي التي تعمل فمن أحكم منها في هندسة الأكوان / لذلك عزمت أن أتخذها قرينة لحياتي علماً أنها تكون لي مشيرة بالصالحات و مفرجة لهمومي و كربي / فيكون لي بها مجد عند الجموع و كرامة عند الشيوخ على ما أنا فيه من الفناء / وأعد حاذقاً في القضاء و عجيباً أمام المقتدرين / إذا صحت ينتظرون و إذا نطقت يصغون و إذا افضت في الكلام يضعون أيديهم على أفواههم / و أنال بها الخلود و أخلف عند الذين بعدي ذكراً مؤبداً / فلما تفكرت في نفسي بهذه و تأملت في قلبي إن في قربى الحكمة خلوداً / و لما علمت بأني لا كون عفيفاً إن لم يهبني الله العفة و قد كان من الفطنة أن أعلم ممن هذه الموهبة ، توجهت إلى الرب و سألته من كل قلبي قائلاً / يا إله الآباء يا رب الرحمة يا صانع الجميع بكلمتك و فاطر الإنسان بحكمتك لكي يسود على الخلائق التي كونتها / و يسوس العالم بالقداسة و البر و يجري الحكمة

باستقامة النفس / هب لي الحكمة الجالسة إلى عرشك و لا ترذلني من بين بنيك / إن معك الحكمة العليمة بأعمالك و التي كانت حاضرة إذ صنعت العالم و هي عارفة ما المرضي في عينيك و المستقيم في وصاياك / فأرسلها من السماوات المقدسة و ابعثها من عرش مجدك ، حتى إذا حضرت تجد معي و أعلم ما المرضي لديك / فإنها تعلم و تفهم كل شيء فتكون لي في أفعالي مرشداً فطيناً و بعزها تحفظني / و من علم مشورتك لو لم تؤت الحكمة و تبعث روحك القدوس من الأعلى / فالحكمة هي التي خلصت كل من أرضاك يا رب منذ البدء / هي التي حفظت أول من جبل أباً للعالم لما خلق وحده / و أنقذته من زلته و أتته قوة ليتسلط على الجميع / و لما ارتد عنها الظالم في غضبه هلك في حنقه الذي كان به قاتل أخيه[1] / و لما غمر الطوفان الأرض بسببه عادت الحكمة فخلصتها بهدايتها للصديق في آله خشب حقيرة[2] / و الذين أهملوا الحكمة لم ينحصر ظلمهم لأنفسهم بجهلهم الصلاح و لكنهم خلفوا للناس ذكراً حماقتهم بحيث لم يستطيعوا كتمان ما زلوا فيه / و أما الذين خدموا الحكمة ، فأنقذتهم من كل نصب / و هي التي أنقذت شعباً مقدساً و ذرية لا وصمة فيها من أمة مضايقيهم / و حلت نفس عبد الرب و قاومت ملوكاً مرهوبين بعجائب و آيات / و جزت القديسين ثواب أتعابهم و قادتهم في طريق عجيب و كانت لهم ظلاً في النهار و ضياء نجوم في الليل / و عبرت بهم البحر الأحمر و أجارتهم المياه الغزيرة / أما أعداؤهم فاغرقتهم ثم قذفتهم من عمق الغمار على الشاطئ فسلب الصديقون المنافقين / و رنموا أسمك القدوس أيها الرب و حمدوا بقلب واحد يدك الناصرة / لأن الحكمة فتحت أفواه البكم و جعلت ألسنة الاطفال تفصح] .

---

[1] إشارة إلى قصة قابيل (أو قايين) و هابيل .

[2] هي إشارة إلى النبي نوح .

هذه الفقرات هي أجزاء متفرقة من سفر الحكمة و ليس كله . و بالإضافة لهذا السفر ، وردت الحكمة أيضاً في أسفار أخرى متعددة نختار منها ما جاء في سفر الأمثال [**الحكمة تنادي في الخارج في الشوارع تعطي صوتها / حتى تميل إلى أذنك الحكمة و تعطف قلبك على الفهم / إذا دخلت الحكمة قلبك ولدت المعرفة لنفسك / طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة و للرجل الذي ينال الفهم / اقتن الحكمة اقتن الفهم لا تنس و لا تعرض عن كلمات فمي / الحكمة هي الرأس فاقتن الحكمة و بكل مقتناك اقتن الفهم / أريتك طريق الحكمة هديتك سبل الاستقامة / ألعل الحكمة لا تنادي و الفهم لا يعطي صوته ؟؟!! / لأن الحكمة خير من اللآلئ و كل الجواهر لا تساويها / المستهزئ يطلب الحكمة و لا يجدها و المعرفة هينة للفهم / في قلب الفهيم تستقر الحكمة و ما في داخل الجهال يعرف / قنية الحكمة كم هي خير من الذهب و قنية الفهم تختار على الفضة**] . و في سفر الجامعة وردت تعاريف كثيرة للحكمة جاء فيها [**هذه الحكمة رأيتها أيضاً تحت الشمس و هي عظيمة عندي / فقلت الحكمة خير من القوة أما حكمة المسكين فمحتقرة و كلامه لا يسمع / الحكمة خير من أدوات الحرب أما خاطئ واحد فيفسد خيراً جزيلاً / الذباب الميت ينتن و يخمر طيب العطار ، جهالة قليلة أثقل من الحكمة و من الكرامة / إن كل الحديد و لم يسنن هو حده فليزد القوة أما الحكمة فنافعة للإنجاح / إن الحكمة لا تلج النفس الساعية بالمكر و لا تحل في الجسد المسترق للخطيئة**] . و في سفر سيراخ وردت تعابير و صفات كثيرة للحكمة عرفت عنها و صاغت مضمونها ، نذكر منها [**و من يستقصي الحكمة التي هي سابقة كل شيء / قبل كل شيء حيزت الحكمة و منذ الازل فهم الفطنة / ينبوع الحكمة كلمة الله في العلى و مسالكها الوصايا الأزلية / لمن انكشف أصل الحكمة و من علم دهاءها ؟؟ / لمن تجلت معرفة الحكمة و من أدرك كثرة خبرتها ؟؟ / محبة الرب هي الحكمة المجيدة / رأس الحكمة مخافة الله إنها تولدت في**

الرحم مع المؤمنين و جعلت عشها بين الناس مدى الدهر و ستسلم نفسها الـــى ذريـــتهم / كمال الحكمة مخافة الرب إنها تسكر بثمارها / إكليل الحكمة مخافة الرب إنها تنشئ السلام و الشفاء و العافية / و قد رأت الحكمة و احصتها و كلتاهما عطية من الله / الحكمة تسكب المعرفة و علم الفطنة و تعلي مجد الذين يملكونها / أصل الحكمة مخافة الـــرب و فروعهـــا طول الأيام / في ذخائر الحكمة العقل و العبادة عن معرفة أما عند الخطاة فالحكمة رجس / في ذخائر الحكمة أمثال المعرفة / فإن الحكمة و التأديب هما مخافة الرب و الذي يرضيه / الحكمة تنشئ لها بنين و الذين يلتمسونها تضمهم اليها / فإنما تعـــرف الحكمـــة بـــالكلام و التأديب بنطق اللسان / يا بني اتخذ التأديب منذ شبابك فتجد الحكمـــة الـــى مشـــيبك / لأن الحكمة هي كاسمها و لا تستبين لكثيرين و الذين يعرفونها تثبت فيهم الى مشاهدة الله / لا تدع البر أمام الرب و لا الحكمة لدى الملك / الحكمة و العلم و معرفة الشريعة مـــن عنـــد الرب المحبة و طرق الأعمال الصالحة من عنده / طوبى للرجل الذي يتأمل في الحكمـــة و يتحدث بها في عقله / لأن الخاطئ لم يرسله الرب إنما ينطق بالحمد ذو الحكمة و الـــرب ينجحه / كل عاقل يعرف الحكمة و يعترف لمن يجدها / ليست الحكمة علم الشـــر و حيـــث تكون مشورة الخطاة فليست هناك الفطنة / فإن من الشر ما هو رجس و من الجهـــال مـــن نقص حظه من الحكمة / الحكمة المكتومة و الكنز المدفون أي منفعـــة فيهمـــا / و غايـــة مخافة الرب الحكمة / الحكمة للأحمق كبيت مخرب و علم الجاهل كلام لا يفهم / الحكمـــة تمدح نفسها و تفتخر بين شعبها / الحكمة لا يستوفي معرفتها الأول و لا يستقصيها الآخر/ أنا الحكمة مفيضة الأنهار / كيف يحصل على الحكمـــة الـــذي يمســـك المحـــراث و يفتخـــر بالمنخس و يسوق البقر و يتردد في أعمالها و حديثه في أولاد الثيران / الخمـــر و الغنـــاء

يسران القلب لكن حب الحكمة فوق كليهما / إن الرب صنع كل شيء و أتى الاتقياء الحكمة / في صبائي قبل أن آتيه التمست الحكمة علانية في صلاتي] .

من خلال كل الإصحاحات السابقة ، يتبين لنا بأن مفهوم الحكمة هو داخل في كل شيء يختص بالحياة الإنسانية ، و هو أساسها و عمادها ، بل هو أساس الوجود كله و ينبع من الله مباشرة .

لقد عدت التوراة بعامة أن الحكمة هي كل متجانس إلى حد بعيد سواء الإلهية أم البشرية ، لأن الحكمة البشرية حسب المنظور التوراتي ، مشتقة و مستمدة من الحكمة الإلهية . و في التاريخ اليهودي كانت الحكمة السلطانية الدينية الاجتماعية ، تتبع مباشرة لأوامر و تعليمات الله ، و كانت تعبر عن تجسيد إرادة الله في الأرض . و إذا تتبعنا المسار التاريخي لبداية تشكيل الحكمة السلطانية اليهودية ، يتضح لنا أن غاية هذه الحكمة و دورها انحصر في صيانة شعب إسرائيل روحياً و عقائدياً . و المحاولة قدر الإمكان تجنيبهم الكوارث الحربية ، و في الوقت نفسه قيادتهم و تأمين الأرض الموعودة لهم إلهياً ، قدر الإمكان . و ذلك كله لا يتم حسب فقرات الإصحاحات و الأسفار السابقة إلا إذا تمتعت القيادات الروحية السلطانية بحكمة بالغة و قدرات خارقة تمكنها من معرفة الحركات الصائبة و الخطوات الناجعة لقيادة شعب إسرائيل نحو الهدف الرئيس و الغاية الأساس التي وضعت له . و تبعاً لذلك فإن الحكمة التي اختصت و تميزت بها هذه الفئة ، هي قدرات معرفية غيبية خارقة تريحها بنسبة معينة من عناء التفكير و تجشم التعب في معرفة القرار الصائب لأنها استمدت خبراتها و قدراتها العقلية و الذهنية من الآلهة مباشرة . بينما الحكمة السلطانية اليهودية السياسية ، كانت تعبيراً عن تجسيد إرادة شعب إسرائيل كأشخاص ماديين عاديين و صيانة هذا الشعب كقومية و عرق و جنس (فيزيولوجياً) و هي على ما يبدو لا تتلقى تعليماتها و أوامرها من الله ، بل أولت لنفسها القدرة

على محاكاة الواقع السياسي الاجتماعي البحت و عدته ذا أولوية على الواقع الديني الروحي ، و أن أرض إسرائيل هي بالدرجة الأولى موقع جيوسياسي .

و قد أبانت أسفار العهد القديم نقطة مهمة في هذا الشأن ، و هي أنه بالرغم من كون الحكمة السلطانية الروحية الإسرائيلية كانت منبثقة من الحكمة الإلهية ، فإنها لم تتطابق معها تماماً ، فكثيراً ما كان قرارالحكمة الإلهية يأتي مغايراً لما ترتئيه الحكمة السلطانية الروحية و كذلك الأمر فإن الحكمة السلطانية السياسية الإسرائيلية كانت أيضاً مغايرة لما ترتئيه الحكمة السلطانية الروحية .

و بالنهاية بقيت كل من الحكمتين السلطانيتين ، الروحية و السياسية خارج نطاق الحكمة الإلهية التي كانت لها الكلمة الفصل في خاتمة المطاف بالرغم من كون الحكمة السلطانية الإلهية تابعة لقرارات الحكمة الإلهية و مشتقة منها .

الديانة المسيحية

تتمحور الديانة المسيحية كلها بعامة حول شخصية السيد المسيح عيسى بن مريم (ع) التي تبدأ من ولادته . و هي في أساسها كله عبارة عن كلام السيد المسيح الذي كان يلقنه و يلقيه على مسمع من تلاميذه و حوارييه و مريديه و ما قام به من أفعال و تصرفات و معجزات على مدار فترة حياته القصيرة التي عاشها و التي ناهزت الثلاثين عاماً . و عيسى المسيح من منظور الديانة المسيحية أو النصرانية ، هو كلمة الله الذي نفخه ملاكه في مريم العذراء و هو عامة الأقنوم الثاني من الأقانيم الإلهية المسيحية الثلاثة و هي الأب .. الأبن .. الروح القدس .

تتجسد الديانية المسيحية كتابة ، في ما يسمى بالعهد الجديد و هو القسم أو الجزء الثاني من الكتاب المقدس . و العهد الجديد يقع في سبعة و عشرين سفراً أهمها الأناجيل الأربعة و هي إنجيل (متىّ) و إنجيل (مرقس) و إنجيل (لوقا) و إنجيل (يوحنا) . و كل إنجيل من هذه الأناجيل[1] قام بتدوينه الشخص الذي سمي باسمه ، و هو ما سمعه من كلام السيد المسيح . و تأتي بعد هذه الأناجيل كتب و رسائل تضمنت في قسم منها أقوال يسوع المسيح و عظاته . و في القسم الآخر ، أعمال و أقوال و آراء تلاميذه و بالأخص بطرس و بولس .

و يختلف الخطاب الإنجيلي المسيحي عما سبقه في الديانات الأخرى كونه لا يتطرق إلى معالجة خلق الكون و الإنسان و فعل الله الذي في السماوات من حيث الإرادة و الخطاب

[1] تجدر الإشارة إلى أن العهد الجديد يطلق عليه البعض اسم الإنجيل ، و هي كلمة مشتقة من أصل يوناني و تعني البشرى أو الخير السار .

المباشر كما هي الحال في الأديان السالفة ، بل كان الخطاب الإلهي يتم عادة بواسطة يسوع المسيح الذي تمحور حوله هو بعامة . كما اختلف الخطاب الإنجيلي المسيحي أيضاً عن بقية الأديان السابقة له ، بأنه لم يكن خطاباً سياسياً اجتماعياً ، بمعنى أنه لم يتطرق مباشرة إلى الأمور السياسية البحتة و المجردة و بهذا الكم الواسع ، و لم يختص بدولة أو مجتمع لأي فئة معينة ، ولم يأت دعماً لملك أو حاكم أو قائد عسكري ، بل كان ذا أولويات خطابية دينية أخلاقية ، و جاء ليخاطب النفس الإنسانية الفردية مباشرة . و شكل هيكله الأساس خطب يسوع المسيح أمام الناس و أمام تلامذته ، و رداً على تساؤلاتهم و استفساراتهم بما يتعلق بالنفس الإنسانية و انعتاقها من نير الأخطاء و الموبقات الدنيوية . و هذه القضية برمتها تؤدي بنا إلى صعوبة البحث في الأمر السياسي و استخلاصه و بالتالي صعوبة تحديد مواضع الحكمة السلطانية و مناقشة أهدافها و غاياتها و تصرفاتها لأن مفهوم السلطان بالأساس ليس له هذا الوجود الفعلي الذي يسمح بدراسته دراسة تحليلية مستفيضة . و السبب كما ذكرنا قبلاً ، هو وجود يسوع المسيح الذي جاء ليخاطب الفرد الإنساني مباشرة و الذي ألغى وجود أية حاجة لكيان سياسي يهتم بتطبيق النظرية الإلهية .

فالمسيحية من الأساس لم ترتكز على أية قوانين أو سلطات سياسية لتعبر عن نفسها و مكانتها و تفسر و تشرح قوانينها و شرائعها و لتكون واجهة تطبيقة لمفاهيمها و أفكارها . بل حتى مفهوم خلق الكون و العالم ، جاء في إنجيل واحد فقط من الأناجيل الأربعة في العهد الجديد و هو إنجيل يوحنا ، و بطريقة مقتضبة جداً تمحورت هي أيضاً حول شخصية يسوع المسيح ، حيث جاء في بداية هذا الإنجيل [**في البدء كان الكلمة و الكلمة كان عند الله و كان الكلمة هو الله / هو كان في البدء عند الله / به تكون كل شيء و بغيره لم يتكون أي شيء مما تكون / فيه كانت الحياة و الحياة هذه كانت نور الله / و النور يضيء في الظلام و الظلام لم**

يدرك النور / ظهر إنسان أرسله الله اسمه يوحنا / جاء يشهد للنور من أجل أن يؤمن الجميع بواسطته / لم يكن هو النور بل كان شاهداً للنور فالنور الحق الذي ينير كل إنسان كان آتياً إلى العالم / كان في العالم و به تكون العالم و لم يعرفه العالم / و قد جاء إلى من كانوا خاصته و لكن هؤلاء لم يقبلوه / أما الذين قبلوه أي الذين آمنوا باسمه فقد منحهم الحق في أن يصيروا أولاد الله / و هم الذين ولدوا ليس من دم و لا من رغبة جسد و لا من رغبة بشر بل من الله / و الكلمة صار بشراً و خيم بيننا و نحن رأينا مجده مجد ابن وحيد عند الأب و هو ممتلئ بالنعمة و الحق] (إنجيل يوحنا ١ / ١ : ١٤) .

يبدأ العهد الجديد بولادة المسيح و تخبرنا الأناجيل أن قصة المسيح شبيهة إلى حد ما بقصة النبي موسى من حيث وجود ملك أو حاكم يعرف من قبل ، بولادة النبي أو رسول الله ، فيأمر بقتل جميع الذكور الذين يولدون في تلك الفترة . و بحسب الإنجيل ، تبدأ ولادة المسيح بقدوم جماعة من المجوس من الشرق إلى أورشليم[1] يسألون عن ملك اليهود (أي المسيح) بعد أن رأوا نجماً في السماء **[و بعدما ولد يسوع في بيت لحم الواقعة في منطقة اليهودية على عهد الملك هيرودوس ، جاء إلى أورشليم بعض المجوس القادمين من الشرق / يسألون أين هو المولود ملك اليهود ؟ فقد رأينا نجمه طالعاً في الشرق فجئنا لنسجد له]** (متى ٢ / ١ : ٢) . و عندما يسمع هيرودوس ملك أورشليم بهذه الأنباء ، يستدعي إليه قوم المجوس و يوهمهم بأنه يريد أن يعرف من هو ملك اليهود لكي يسجد هو أيضاً ، فيصل هؤلاء إلى مكان يسوع و هو بعد مولود و يتعرفون عليه . و لكن يطلب منهم في حلم أن لا يعودوا إلى هيرودوس ، بل إلى بلادهم ، فيفعلون . ثم يظهر ملاك الرب و يطلب من يوسف خطيب مريم العذراء ، أن يهربوا من فلسطين إلى مصر و ذلك لأن هيرودوس ينوي قتل الطفل

[1] تجدر الإشارة إلى وجود رواية أخرى مشابهة لهذه الرواية في إنجيل لوقا ، و لكن رواية إنجيل متى هي الأشهر .

يسوع . ففعل يوسف ما أمر به و هرب إلى مصر . و عندما تترامى الأنباء إلى الملك هيرودوس بهرب المجوس ، يصدر أمراً بقتل جميع الأطفال الذكور في منطقة بيت لحم ، الذين تتراوح اعمارهم من السنتين فما دون .

ولم يرجع يوسف مع مريم و يسوع ، من مصر ، إلا بعد أن أخبرهم ملاك الرب بأن هيرودس قد مات **[لما مات هيرودوس إذا ملاك من الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر و قال له قم و ارجع بالصبي و أمه إلى أرض إسرائيل فقد مات الذين كانوا يسعون إلى قتله]** (متى ٢ : ١٩) . و عندما كبر المسيح و ذهب إلى نهر الأردن ، قام بتعميده يوحنا المعمدان . و منذ تلك اللحظة بدأ بالتبشير و الدعوة لرسالته الإلهية **[فلما تعمد يسوع صعد من الماء في الحال / و إذا صوت من السماوات يقول هذا هو ابني الحبيب الذي سررت به كل سرور]** (متى ٣ / ١٦ : ١٧) .

و قبل أن ندخل في بداية دعوة المسيح الإلهية ، يهمنا أن نعلق على موضوع ولادته و علاقته مع الملك هيرودوس حيث افتتح الإنجيل خطابه الديني و منذ بدايته بالصراع بين الحكمة السلطانية و الحكمة الإلهية . و هو صراع قد لا يبدو في حقيقته كذلك بالرغم من أن السلطة الحاكمة كانت هي البادئة في ذلك الصراع الذي أرادته صراع حياة أو موت .

في الواقع لقد كان هناك بالفعل حكمتان ، إحداهما إلهية و الأخرى سلطانية . و لكن الحكمة السلطانية المتمثلة بالملك هيرودوس ، قد صورت لها الحكمة الإلهية المتمثلة بيسوع المسيح على أنها حكمة سلطانية ، حيث جاءت صفة المسيح سياسية إذ تمثل بعبارة " ملك اليهود " و ذلك عندما جاء قوم المجوس و سألوا عنه واصفين إياه بالملك و طالبين السجود له . و إذا أحضرنا أي ملك و أخبرناه بالصيغة نفسها التي طرحها هؤلاء المجوس ، فلربما فعل مثلما

فعل هيرودوس . و لكننا هنا نرى وجوداً فاعلاً للحكمة الإلهية تمثل بإرسال قوم من المجوس ليبلغوا هذه الرسالة الشفهية الخطيرة و بالصيغة السياسية و ليس الدينية ، في غاية لا يمكننا التكهن بها . هذا الأمر يتضح بشكل جلي إذا ما تمت مقارنته بتعبير يوحنا المعمدان لأتباعه و مريديه المتعمدين عنده ، أو الرسالة الشفهية التي نقلها إليهم و التي جاءت مغايرة من حيث الصيغة و المضمون ، إذ قال لهم [**أنا أعمدكم بالماء لأجل التوبة و لكن الآتي بعدي هو أقدر مني و أنا لا أستحق أن أحمل حذائه ، هو سيعمدكم بالروح القدس و بالنار / فهو يحمل المذرى بيده و سينقي بيدره تماماً فيجمع قمحه إلى المخزن و أما التبن فيحرقه بنار لا تطفئ**] (متى ٣ : ١١) . واضح تماماً أن الصيغة التي أوردها القديس يوحنا المعمدان حول بشارته بالمسيح ، جاءت صيغة دينية بحتة تماماً و لا علاقة لها بالسياسة ، و تم توجيهها إلى أشخاص متدينين . بينا جاءت بشارة المجوس سياسية محضة و كان متلقيها يتربع على قمة الهرم السياسي .

إذاً جاءت منذ البداية بشارتان بالمسيح ، الأولى بشارة سياسية مجهولة المصدر (قوم من المجوس) و الثانية بشارة دينية روحية واضحة المصدر (يوحنا المعمدان) . و يخبرنا الإنجيل أن يسوع المسيح بعد تعميده ، صعد إلى البرية و هام أربعين يوماً ، و هناك تعرض لامتحان صعب من قبل إبليس ، اجتازه بنجاح ، و عندما نزل من البرية و سمع بمقتل يوحنا المعمدان ، باشر على الفور بدعوته . و كان أول من تبعه سمعان (أصبح القديس بطرس فيما بعد) و أخوه أندراوس ، و بعدها تبعه بقية التلاميذ . و كان يسوع يطوف القرى و المدن و يدعو الناس إلى الله و ارتبط مع دعوته هذه ، معجزات خارقة قام بها ليعرفه الناس و يؤمنوا به [**و كان يسوع ينتقل في منطقة الجليل كلها ، يعلم مجامع اليهود و ينادي ببشارة الملكوت و يشفي كل مرض و علة في الشعب / فذاع صيته في سورية كلها فحمل إليه**

الناس مرضاهم المعانين من الأمراض و الأوجاع على اختلافها و المسكونين بالشياطين و المصروعين و المشلولين ، فشفاهم جميعاً ، فتبعته جموع كبيرة من مناطق الجليل و المدن العشر و أورشليم و ما وراء الأردن] (متى ٤ / ٢٣ : ٢٥) .

و قد بدأت حقيقة تعاليم يسوع تتضح شياً فشيئاً من كلماته الخطابية أمام الناس ، حيث جمع الناس مرة على تلة جبل و قال لهم **[طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات / طوبى للحزانى فإنهم سيعزون طوبى للودعاء فإنهم سيرثون الأرض / طوبى للجياع و العطاش إلى البر فإنهم سيشبعون / طوبى للرحماء فإنهم سيرحمون / طوبى لأنقياء القلب فإنهم سيرون الله / طوبى للمضطهدين من أجل البر فإن لهم ملكوت السماوات / طوبى لكم من أهانكم الناس و اضطهدوكم و قالوا فيكم من أجلي كل سوء كاذبين / افرحوا و تهللوا فإن مكافأتكم في السماوات عظيمة فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم]** (متى ٥ / ٣ : ١٢) .

في الواقع إن القارئ لإنجيل متى و هو أول الأناجيل الأربعة في العهد الجديد ، يخلص إلى نتيجة مفادها أن موعظة الجبل هذه كانت حجر الأساس للديانة المسيحية من حيث العقائد و التشريع . و نستطيع أن نقول إنها شبيهة إلى حد بعيد بوصايا موسى العشر التي تلقاها على جبل الطور مع فارق بسيط هو أنها كانت هذه المرة شفهية غير مكتوبة و كانت أيضاً مباشرة و أمام أتباع يسوع ، ربما درءاً لإمكانية و احتمال ظهور عجل ذهبي جديد . و تحدد هذه الموعظة أيضاً موقف يسوع من الشريعة اليهودية حيث يقول **[لا تظنوا أني جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء بل جئت لأكمل / فالحق أقول لكم ، إلى أن تزول الأرض و السماء لن يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الشريعة حتى يتم كل شيء / فأي من خالف واحدة من هذه الوصايا الصغرى و علن الناس أن يفعلوا فعله يدعى الأصغر في ملكوت السماوات . و**

أما من عمل بها و علمها فيدعى عظيماً في ملكوت السماوات / فإني أقول لكم إن لـم يـزد بركم على بر الكتبة و الفريسيين[1] لن تدخلوا ملكوت السماوات أبداً] (متى ٥ / ١٧ : ٢٠) .

يلاحظ هنا أن يسوع المسيح قد عرّف تلك المواعظ بالوصايا ، أي أنها أساس و لب الشـرائع المسيحية ، لينتقل بعد هذه الفقرة إلى فقرة أخرى يتحدث فيها عن موضوع أخلاقـي بحـت ، حيث يقول **[من يقول لأخيه يا تافه يستحق المثول أمام المجلس الأعلى . و من يقـول يـا أحمق يستحق نار جهنم / فإذا جئت بتقدمتك إلى المذبح و هناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك / فاترك تقدمتك أمام المذبح و اذهب أولاً و صالح أخاك ثم ارجع و قدم تقدمتك / سارع إلى استرضاء خصمك و أنت معه في الطريق إلى المحكمة قبل أن يسلمك الخصم إلـى القاضـي فيسلمك القاضي إلى الشرطي فيلقيك في السجن / . الحق أقول لك إنك لن تخرج من السجن حتى توفي الفلس الأخير]** (متى ٥ / ٢١ : ٢٦) . و يتحدث بعد ذلك عن المحرمات الدينية كالزنى و الزكاة و الصدق و الصلاة و الصوم ، لينتقل بعد ذلك إلى مفهوم خطير جداً ، مـن الصعب تقبله لدى النفس الإنسانية ، و هو موضوع التعامل مع اخرين حيث يقـول مخاطبـاً الجموع الغفيرة **[و سمعتم أنه قيل قبل عين بعين و سن بسن / أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بمثله بل من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الخد الآخر / و من أراد محاكمتك ليأخـذ ثوبك فاترك له رداءك أيضاً / من سخرك أن تسير ميلاً فسر معه ميلين / و من طلب منـك شيئاً فاعطه و من جاء يقترض منك فلا ترده خائباً / و سمعتم أنه قيل تحب قريبك و تبغض عدوك / أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم و باركوا لاعنيكم و أحسنوا معاملة الذين يبغضونكم و صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يضطهدونكم / فتكونوا أبناء أبيكم الذي في السـماوات**

[1] فرقة دينية امتدت فترة وجودها من حوالي سنة /٢٠٠/ ق.م إلى /٢٠٠/ م .

فإنه يشرق بشمسه على الأشرار و الصالحين و يمطر على الأبرار و غير الأبرار] متى ٥ / ٣٨ : ٤٥) .

هذا النص يعد حجر أساس في تعاليم يسوع المسيح . و هو يعبر عن مفهوم جديد في العلاقات الإنسانية البشرية . و هو مفهوم تقبل الآخر مهما كان و كيفما كان ، بصرف النظر عن دينه أو لونه أو جنسه ، ليس ذلك فقط بل إنه يدعو إلى نوع من العولمة ، فهو يدعو إلى شيء خارج عن طبيعة النفس الإنسانية البشرية العاطفية ، و هو تقبل حتى العدو و المبغض ، و أوجد نوعاً من التقارب و القاسم المشترك مع الخصم و عد أن هذا نوعاً من التشبه بالله ، لأن الله يقبل الجميع **[فكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات لأنه يشرق بشمسه على الأشرار و يمطر على الأبرار و غير الأبرار]** .

بعد ذلك يعود يسوع المسيح ليؤسس مرة أخرى إلى المفهوم ذاته ، و لكن من منظور آخر ربما قد يشرح فيه السبب و المبرر للمفهوم السابق حيث يقول مخاطباً تلاميذه و أتباعه في مناسبة ثانية **[لا تظنوا أني جئت لأرسي سلاماً على الأرض ، ما جئت لأرسي سلاماً بل سيفاً / فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه و البنت مع أمها و الكنة مع حماتها و هكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته / من أحب أباه أو أمه أكثر مني فلا يستحقني و من أحب ابنه أو ابنته أكثر مني فلا يستحقني / و من لا يحمل صليبه و يتبعني لا يستحقني]** (متى ١٠ / ٣٤ : ٣٨) . و كأننا به هنا يقول إن الفقرة الثانية هي نتيجة للفقرة الأولى ، أي أن من يرد أن يعامل أعداءه و خصومه بالطريقة التي ذكرها المسيح ، فسيكون معرضاً حتماً لأن يصبح أصدقاؤه و أقرباؤه هم أعداءه . و عندما نعرف أن المسيح طلب منا أن نعامل أعداءنا و خصومنا و مبغضينا بأحسن معاملة و بأفضل مما نعامل به أصدقاءنا ، فهذا يعني بكل وضوح أنها عملية خلط أوراق قوية جداً للأمرين الاجتماعي و السياسي معاً . و هي

كفيلة بتهديد أنظمة و كيانات عدة ، اجتماعية و سياسية ، و هو ما يؤدي بشكل حتمي و أكيد إلى الصدام المباشر . و عندما قال يسوع (جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه و البنت مع أمها و هكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته) فإن ذلك يعني أن هذه المفاهيم الجديدة هي عسيرة الفهم و صعبة التقبل بالنسبة الإنسان العادي و المفاهيم التقليدية العادية السادة في المجتمعات البشرية . و هي رسالة واضحة تتنافى مع كل تقاليد و أعراف الحكم السلطانية التقليدية عبر التاريخ و الذي كان مفهوم العدو و الخصم بالنسبة إليها ، ركناً أساساً في تحديد هويتها و سبب غاية وجودها إلى جانب مفهوم الحفاظ على الرعية و قيادتها و حمايتها من هذا العدو المفترض .

هذه التعاليم و الأسس تنفي أي مبدأ للحروب و الصراعات السياسية و الاجتماعية و تلغي مفهوم التوسع و الفتوحات العسكرية و الغزو الخارجي ، و تلغي أي أثر لمفهوم التفاوت الطبقي الاجتماعي . و لا نستطيع هنا أن نفهم و نعرف مفهوم السلام الذي تلفظ به يسوع المسيح عندما قال (ما جئت لأرسي سلاماً بل سيفاً) إلا بمفهوم الرياء و المداهنة و التملق و مراعاة التقاليد و الأعراف و القوانين الاجتماعية و السياسية النافذة في تلك الحقبة و التي انتشرت في كل بقاع الأرض . و لا نستطيع أن نعرف مفهوم السيف إلا بالحد الذي يفصل بين الحق و الباطل . هذه الأسس الأولى التي ابتدأ بها يسوع المسيح دعوته ، وضعته فوراً على خط المواجهة و الصدام مع الحكم السلطانية التقليدية في المعمورة . و يتابع يسوع بعد ذلك دعوته و يتخذ لنفسه أسلوب التعليم و ضرب الأمثال ، و في الوقت نفسه يتابع على الخط الإنساني و النهج الأخلاقي سالكاً طريق النفس البشرية حيث يقول **[تعالوا إلي يا جميع المتعبين و الرازحين تحت الأحمال الثقيلة و أنا أريحكم / احملوا نيري عليكم و تتلمذوا على يدي لأني وديع و متواضع القلب فتجدوا الراحة لنفوسكم فإن نيري هين و حملي خفيف]**

(متى ١١ / ٢٨ : ٢٩) . و يعلن يسوع أن دعوته هي دعوة عالمية لا تنحصر في دولة معينة أو شعب معين أو قومية محددة ، بل هي لكل الأمم و الشعوب كما جاء في الإنجيل [**و لكن الفريسيين خروجوا و تآمروا على يسوع ليقتلوه / فعلم بذلك و انسحب من هناك و تبعته جموع كثيرة فشفاهم جميعاً / و حذرهم من أن يذيعوا أمره / ليتم ما قيل بلسان النبي إشعيا القائل / ها هو فتاي الذي اخترته حبيبي الذي سرت به نفسي سأضع روحي عليه فيعلن العدل للأمم / لا يخاصم و لا يصرخ و لا يسمع أحد صوته في الشوارع / قصبة مرضوضة لا يكسر و فتيلة مدخنة لا يطفئ حتى يقود العدل إلى النصر / و على اسمه تعلق الأمم رجاءها**] (متى ١٢ / ١٤ : ٢٠) .

توضح الفقرات السابقة أن المواجهة و الصراع قد بدأ بين يسوع و بين الفريسيين الذين أرادوا قتله و وضع حد له . و توضح طبيعة الخطاب الإلهي المسيحي لبني البشر عامة . و لكن المناظرات المتعددة التي كانت تجري بينه و بين الفريسيين على فترات متعاقبة ، قد وضعت أسساً أخرى للديانة المسيحية جاءت في المرتبة الثانية بعد الإعلان عن الخطوط العريضة و العامة لغاية و هدف يسوع المسيح و قد تمثلت بالأحكام العامة التشريعية حول الزواج و الطلاق و الأسرة و الصلاة و الصيام و غيرها و التي أعطت الشريعة النصرانية صفاتها و طقوسها و ميزاتها الخاصة كديانة رسمية . و هو (يسوع) حتى في وضعه للقوانين و الطقوس الدينية ، كان يمزج في طياتها مفاهيم أخلاقية روحية تدل على حكمة منقطعة النظير ، فعندما جاءه الفريسيون بإمرأة زانية و أوقفوها أمامه بحضور جمهور غفير و طلبوا منه أن يحكم عليها ، رد عليهم قائلاً [**من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر أولاً**] (يوحنا ٨ : ٧) في إشارة واضحة إلى ضعف النفس الإنسانية و عدم قدرتها على تجاوز الأخطاء أو الخلو منها . و لقد كان يسوع واثقاً كل الثقة من أنه لا يوجد أحد خال من الأخطاء . و قد

عبر بذلك عن مفهوم علاج النفس الذاتي قبل علاج الآخرين . و يلاحظ في حيثيات هذه الحادثة أمر مهم جداً ، و هو أنه بعد ذهاب هؤلاء القوم عن المرأة الزانية بعد سماعهم كلام المسيح ، نظر هو إليها و قال لها [**أين هم أيتها المرأة ؟ الم يحكم عليك أحد منهم ؟ / أجابت لا أحد يا سيد . فقال لها و لا أنا أحكم عليك ، اذهبي و لا تعودي تخطئين**] (يوحنا ٨ / ١٠ : ١١) .

للوهلة الأولى يبدو تناقض في أقوال يسوع ، فهو قال كل من لا يخطئ يحق له رجم المرأة الزانية ، و هو بوصفه كلمة الله و ابن الله فلا يخطئ أبداً و مع ذلك لم يرجم المرأة الزانية أو يحكم عليها . هذه المقولة تبين مفهوماً أخر من مفاهيم الديانة النصرانية و هو العفو و إعطاء الفرصة لتصحيح الخطأ .

و فضلاً عن ذلك كله ، يتحدث يسوع المسيح عن مفهوم آخر خطير ... خطير جداً ، و ربما لم يتطرق إليه أحد من قبل و يحمل في طياته أمراً ربما كان السبب في الخطأ و المشاكل الإنسانية .. مفهوم مرتبط بالتربية الفاسدة الذي يظهر من كلام المسيح ، التالي [**في تلك الساعة تقدم التلاميذ إلى يسوع يسألونه من هو الأعظم إذاً في ملكوت السماوات ؟ / فدعا إليه ولداً صغيراً و أوقفه وسطهم / و قال الحق أقول لكم إن كنتم لا تتحولون و تصيرون مثل الأولاد الصغار فلن تدخلوا ملكوت السماوات أبداً /فمن اتضع فصار مثل هذا الو لد الصغير فهو الأعظم في ملكوت السماوات / و من كان عثرة لأحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فأفضل له لو علق في عنقه حجر الرحى و أغرق في أعماق البحر / الويل للعَالَم من العثرات فلا بد أن تأتي العثرات / و لكن الويل لمن تأتي العثرات على يديه**] (متى ١٨ / ١ : ٧) .

الصيغة الإيضاحية التي تتحدث عنها الفقرات السابقة ، تدل على أن المحك الرئيس الذي يؤخذ بعين الاعتبار عند الله هو صفاء القلب و سلامة الطوية و العفوية الكاملة ، مـــن المؤكـــد أن المسيح لم يقصد هنا أن الأطفال (بعينهم) هم الذين يكونون في أعلى درجات الفردوس لأنهم لا بد سيكبرون و ستنتفي عنهم صفة الطفولة ، فضلاً عن أن الكبار كانوا في فترة من فتـــرات حياتهم الماضية ، أطفالاً . و لكن العبرة التي يقود إليها المسيح تلاميذه و أتباعه هي أن يتحلوا بصفات البراءة و العفة الطفولية و بالتواضع الأخلاقي ليتحدث بعد ذلك عن مفهـــوم خطيـــ ر جداً و هو التربية الفكرية الفاسدة للإنسان منذ الصغر و هو لعمرنا طرح يكفي يسوع المســـيح فخراً أن جاء به لأن هذه القضية بالذات هي التي تؤثر بشكل مباشر و غير مباشر في تثبيـــت كل العقائد و الإيديولوجيات و الأفكار المتصارعة ، سواء الدينية أم السياسية أو الاجتماعية و التي تكون السبب في تغذية كل الصراعات و الحروب و النزاعات الفكريـــة و العســـكرية و الدينية و غيرها في العالم ، و له الأثر الأكبر و الأعمق في تثبيت التعصب الـــديني الأعمـــى الذي لا يقبل لا فكراً و لا نقاشاً و لا منطقاً و لا جدالاً . و هذه نقطة لا تزال إلى اليوم تلقـــي بظلالها و آثارها السلبية على المعمورة . و لا زالت إلى الآن مطموسة لم تجد مـــن يتصـــدى لها فكرياً و أخلاقياً و يعمل على إزالة أسبابها و آثارها .

لقد كانت هذه دعوة صعبة من المسيح إلى إقصاء الحكمة السلطانية البشـــرية عـــن الحكمـــة الإلهية و الغاية الإلهية بنبذ أي شيء يتعارض مع الصدق و الوفاء و سلامة النيـــة و الطويـــة حيث لا مجال للف و الدوران و المراوغة في الوصول إلى الهدف . و هـــو هنـــا ربمـــا أراد الوصول إلى مفهوم فصل السياسة عن الدين و ليس إلغاء الأمر السياسي برمته لأنه في إحدى مناظراته و محاوراته مع الفريسيين ، تطرق إلى هذه النقطة حيث جـــاء الإنجيـــل [**فـــذهب الفريسيون وتأمروا كيف يوقعونه بكلمة يقولها / فأرسلوا إليه بعض تلاميذهم مع أعضـــاء**

حزب هيرودس يقولون له يا معلم نعلم أنك صادق و تعلم الناس طريق الله فـــي الحـــق و لا تبال بأحد لأنك لا تراعي مقامات الناس / فقل لنا إذاً ما رأيك أيحل أن تدفع الجزية للقيصـــر أم لا ؟ / فأدرك يسوع مكرهم و قال أيها المراؤون لماذا تجربونني ؟ / أروني عملة الجزية ، فقدموا له ديناراً / فسألهم و لمن هذه الصورة و هذا النقش ؟ / أجابوه للقيصر . فقال لهم إذاً اعطوا ما لقيصر للقيصر و ما لله لله] (متى ٢٢ / ١٥ : ٢١) .

إن رد يسوع الظاهري و حسب سياق الفقرات الإنجيلية السابقة يبدو مضـــمونه حـــول كيفيـــة تسديد الضرائب و المكوس للسلطة الحاكمة ، و لكنه في الأصل يتطرق إلى فصل كل المفاهيم السياسية الدنيوية عن المفاهيم الإلهية الروحية . فعبارة (ما لقيصر لقيصر) تعنـــي كـــل مـــا يتعلق بالسلطة الحاكمة و النظرية السياسية و كل عواملها و مقوماتها و امتداداتها و وجودها . و عبارة (ما لله لله) تعني كل ما يريده أو قاله أو طلبه الله سواء أكان ماديـــاً أم اقتصـــادياً أم غير ذلك . و لعله قد أعاد و ثبت كلامه هذا في مناسبة أخرى لاحقة مع الفريسيين حين سألوه **[يا معلم ما هي الوصية العظمى في الشريعة ؟ / فأجاب أحب الرب إلهك بكل قلبـــك و كـــل نفسك و كل فكرك / هذه هي الوصية العظمى الأولى / و الثانية مثلها ، أحب قريبك كنفســـك / بهاتين الوصيتين تتعلق الشريعة و كتب الأنبياء]** (متى ٢٢ / ٣٦ : ٣٩) .

تؤكد الآيات هنا على قضية حصر الدين كله وفق منظور المسيح بعمل الخير و الأخـــلاق ، و لكون المسيح قد أطلق على هذه الأفعال و الصفات تسمية الوصية العظمى الأولى ، و الوصية العظمى الثانية ، فإن ذلك يعني أنها تمثل اللب الجوهري و حجـــر الأســـاس فـــي الشـــريعة المسيحية . و تؤكد أيضاً على إغفال أي دور لأية قوة سلطانية بشرية يمكن أن تتدخل و تكون بمنزلة الوسيط بين الآلهة و الناس . و لم يكتف يسوع بإبعاد الطبقة السياسية عن الدين ، بـــل قام أيضاً بإبعاد الطبقة الكهنوتية أيضاً عن الشريعة ، أي أنه أقصى الحكمة السلطاني الدينيـــة

أيضاً عن الدين و هذا الأمر تجلى في مواقف عـدة و حـوادث مـع جماعـة الفريسـيين و الصدوقيين[1] . و في إحدى خطبه أمام جموع غفيرة من أتباعه و تلاميذه ، قـال مخاطبـاً و محذراً إياهم من هذه الفئة من الكهنة [**اعتلى الكتبة و الفريسيون كرسي موسى / فافعلوا كل ما يقولونه لكم و اعملوا به و لكن لا تعملوا مثل ما يعملون لأنهم يقولون و لا يفعلون / بل يحزمون أحمالاً ثقيلة لا تطاق و يضعونها على أكتاف الناس و لكنهم لا يريدون أن يحركوها بطرف الإصبع / و كل ما يعملونه فإنما يعملونه لكي يلفتوا نظر الناس إليهم ، فهم يعرضون عصائبهم و يطيلون أطراف أثوابهم / و يحبون أمـاكن الصـدارة فـي الـولائم و صـدور المجالس في المجامع / و أن تلقى عليهم التحيات في الساحات و أن يدعوهم الناس يا معلم يا معلم / أما أنتم فلا تقبلوا أن يدعوكم أحد يا معلم لأن معلمكم واحد و أنتم جميعاً إخوة / و لا تدعوا أحداً على الأرض أباكم لأن أباكم واحد و هو الأب الذي في السماوات / و لا تقبلوا أن يدعوكم أحد رؤساء لأن رئيسكم واحد و هو المسيح / و ليكن أكبركم خادماً لكـم / فـإن كل من يرفع نفسه يوضع و من يضع نفسه يرفع**] (متى ٢٣ / ١ : ١١) .

و لكنه يعود و يتابع خطبته ، مهاجماً هذه المرة تلك الفئة نفسها فيقول [**الويل لكم أيها الكتبـة و الفريسيون المراؤون فإنكم تعلقون ملكوت السماوات في وجوه الناس ، فلا أنتم تدخلون و لا تدعون الداخلين يدخلون / الويل لكم أيها الكتبة و الفريسيون المراؤون فـإنكم تلتهمـون بيوت الأرامل و تتذرعون بإطالة صلواتكم لذلك ستنزل بكم دينونة أقسى / الويل لكـم أيهـا الكتبة و الفريسيون المراؤون فإنكم تطوفون البحر و البر لتكسبوا متهوداً واحداً ، فإذا تهود جعلتموه اهلاً لجهنم ضعف ما أنتم عليه / الويل لكم أيها القادة العميان تقولون مـن أقسـم**

[1] فرقة دينية نشأت ما بين القرن الثاني قبل الميلاد و القرن الأول الميلادي . و قامت على فكرة رفض مبدأ خلود الروح و البعث أو الحشر . كما رفضت أيضاً وجود الملائكة و لم تتبن و تقر سوى بالأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم .

بالهيكل قسمه غير ملزم أما من أقسم بذهب الهيكل فقسمه ملزم / أيها الجهال و العميان أي الاثنين أعظم .. الذهب أم الهيكل الذي يجعل الذهب مقدساً / و تقولون من أقسم بالمذبح فقسمه غير ملزم أما من أقسم بالقربان الذي على المذبح فقسمه ملزم / أيها العميان أي الاثنين أعظم .. القربان أم المذبح الذي يجعل القربان مقدساً / فإن من أقسم بالمذبح فقد أقسم به و بكل ما فيه / و من أقسم بالهيكل فقد أقسم به و بالساكن فيه / و من أقسم بالسماء فقد أقسم بعرش الله و بالجالس عليه / الويل لكم أيها الكتبة و الفريسيون المراؤون فإنكم تؤدون حتى عشور النعنع و الشبث و الكمون و قد أهملتم أهم ما في الشريعة .. العدل و الرحمة و الأمانة . كان يجب أن تفعلوا هذا و لا تفعلوا تلك / أيها العميان إنكم تصفون الماء من البعوضة و لكنكم تبلعون الجمل / الويل لكم أيها الكتبة و الفريسيون فإنكم تنظفون الكأس و الصحفة من الخارج و لكنهما من الداخل ممتلئتان بما كسبتم بالنهب و الطمع / أيها الفريسي الأعمى نظف أولاً داخل الكأس ليصير خارجها أيضاً نظيفاً / الويل لكم أيها الكتبة و الفريسيون المراؤون فإنكم كالقبور المطلية بالكلس ، تبدو جميلة من الخارج و لكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتى و كل نجاسة / كذلك أنتم أيضاً تبدون للناس أبراراً و لكنكم من الداخل ممتلئون بالرياء و الفسق / الويل لكم أيها الكتبة و الفريسيون المراؤون فإنكم تبنون قبور الأنبياء و تزينون مدافن الأبرار] (متى ٢٣ / ١٣ : ٣٠) .

لقد أراد يسوع إقصاء كل ما من شأنه أن يكون دخيلاً على تعاليمه و عظاته الدينية التي أرادها أن تكون ديناً خالصاً مستخلصاً من كل الشوائب و المفاهيم السياسية الاجتماعية الطبقية ، بل و حتى الدينية المستحدثة و التي تتجسد بكل ما هو خارج عن نطاق الأخلاق و الآداب . لقد جاء يسوع ليقرن الدين بالأدب و الأخلاق و يجعلهما صنواناً واحداً لا يفترقان و كلاً منهما

عنواناً للآخر و دليل له و لا يمكن وجوده إلا بوجود الآخر . و بخاصة الجانب الديني الـذي هو أكثر ارتباطاً بالجانب الأخلاقي ، من ارتباط الجانب الأخلاقي بالجانب الديني ، لأن يسوع لم يخرج بقية الأمم الشعوب التي لها أديان أخرى ، من ربقة الأخلاق و الأدب .

و لكن هجومه على طبقة رجال الدين بالذات ، جعل العد التنازلي لعملية تصفيته و قتله ، تبدأ . و لذلك تم إعداد مؤامرة للقبض عليه و تقديمه لمحاكمة . و بينا كان في أحد البساتين ، جاء إليه بعض أتباع الكهنة و ثلة من جنود الرومان و معهم يهوذا أحد تلامذته ، فـدلهم عليـه و ألقي القبض على يسوع و سيق إلى رئيس الكهنة و من هناك تم تسليمه إلى بيلاطس الحـاكم الروماني . و تمت محاكمة يسوع و حكم عليه بالصلب بعد أن اتهم بالتجديف و التآمر علـى الهيكل و تخريب الدين . و تم تنفيذ الحكم فيه و صلبه . و لكن بعد ثلاثة أيام من دفنه ، يقـوم يسوع من قبره الذي تم إغلاقه عليه بإحكام و يظهر لتلاميذه و يطلـب مـنهم الـدعوة لـه و التبشير بتعاليمه ، ليتوارى عنهم بعد ذلك إلى السماء . **[و أما التلاميذ الأحد عشـر فـذهبوا إلى منطقة الجليل إلى الجبل الذي عينه لهم يسوع / فلما رأوه سجدوا له و لكـن بعضـهم شكوا / فتقدم يسوع و كلمهم قائلاً دفع إلي كل سلطان في السماء و على الأرض / فـاذهبوا إذاً و تلمذوا جميع الأمم و عمدوهم باسم الرب و الأبن و الروح القـدس / و علمـوهم أن يعملوا بكل ما أوصيتكم به و ها أنا معكم كل الأيام إلى انتهاء الزمان]** (متـى ٢٨ / ١٦ : ٢٠) . **[ثم إن الرب بعدما كلمهم رفع إلى السماء و جلس عـن يمـين الله / و أمـا هـم فانطلقوا يبشرون في كل مكان و الرب يعمل معهم و يؤيد الكلمة بالآيات الملازمـة لهـا]** (مرقس ١٦ : ١٩) .

و ابتداءً من هذه النقطة الزمنية ، تكون الديانة المسيحية قد اكتملت تماماً و أخـذت شـكلها و محتواها و صفاتها الكاملين . و ابتدأ عهد الدعوة و التبشير بها في كل أرجاء المعمـرة عـن

طريق تلاميذ يسوع المسيح . و أهمهم و أكثر عزماً كان بطرس و بولس . و يهمنا هنا أن نتطرق إلى الأسئلة التي وجهت ليسوع في سياق محاكمته و صلبه ، حيث جاء في الإنجيل [**فوقف رئيس الكهنة و سأله أما تجيب بشيء على ما يشهد به هذان عليك ؟ / و لكن يسوع ظل صامتاً ، فعاد رئيس الكهنة يسأله و قال استحلفك بالله كي تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله ؟ / فأجابه يسوع أنت قلت و أنا أقول لكم أيضاً أنكم منذ الآن سوف ترون ابن الإنسان جالساً عن يمين القدرة ثم آتياً على سحب السماء**] (متى ٢٦ / ٦٢ : ٦٤) .

[**و وقف يسوع أمام الحاكم و سأله الحاكم أأنت ملك اليهود ؟ أجابه أنت قلت / . كان رؤساء الكهنة و الشيوخ يوجهون ضده الاتهامات و هو صامت لا يرد / فقال له بيلاطس أما تسمع ما يشهدون به عليك ؟ / و لكن يسوع لم يجب الحاكم و لو بكلمة حتى تعجب الحاكم كثيراً**] (متى ٢٧ / ١١ : ١٣) .

[**فصلبوه ثم تقاسموا ثيابه فيما بينهم مقترعين عليها / و جلسوا هناك يحرسونه / و قد علقوا فوق رأسه لافتة تحمل تهمته مكتوباً عليها " هذا يسوع ملك اليهود "**] (متى ٢٧ / ٣٥ : ٣٧) .

بعد قرائتنا للعهد الجديد ، نجد أن التهمة الرئيسة التي ألصقت بيسوع ، هي أنه ملك إسرائيل ، و هي التهمة التي أدت إلى عملية صلبه ، و هذا ما نلاحظه من سياق تفاصيل الإنجيل و خاصة في الآيات التي تحدثت عن ذلك و منها على سبيل المثال لا الحصر الآيات السابقة . و هي التهمة الوحيدة و الرئيسة التي وجهت له من قبل المدعين عليه . و لكن يلاحظ أيضاً و من خلال الإنجيل ، أنه لم ترد عبارة أو فقرة واحدة تبين أن يسوع قد ادعى لنفسه أنه ملك اليهود ، أو أن تلاميذه قد أطلقوا عليه هذه الصفة أو اللقب ، ما عدا جهة واحدة فقط و هم

المجوس الذين جاؤوا من جهة مجهولة اكتفى الإنجيل بأن سماها " الشرق " . و هذه الرواية لم ترد سوى في إنجيل متى الذي يعرض لنا كيفية قدوم المجوس إلى أورشليم بطريقة غامضة مقتضبة جداً ، و كانهم جاؤوا ليلقوا بهذه الكلمة و يختفوا بعد ذلك بحيث لم يعد لهم ذكر أبداً . و لكن عبارة " ملك إسرائيل " قد أطلقت عليه مرتين في الإنجيل . الأولى عندما التقى يسوع في بداية دعوته بنثنائيل[1] الذي قال له **[يا معلم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل / فقال له يسوع هل آمنت لأني قلت لك أنني رأيتك تحت التينة ؟ سوف ترى أعظم من هذا / ثم قال له الحق أقول لكم أنكم سترون السماء مفتوحة و ملائكة الله يصعدون و ينزلون على ابن الإنسان]** (يوحنا ١ / ٤٩ : ٥١) . و المناسبة الثانية عندما أحيا لعازر من ألأموات ثم اتجه إلى أورشليم حيث استقبله بعض أتباعه قائلين **[أوصنا تبارك الآتي باسم الرب إنه ملك إسرائيل]** (يوحنا ١٢ : ١٣) .

يلاحظ مما سبق أن الدعوة الأولى ليسوع بأنه ملك إسرائيل ، جاءت من قبل نثنائيل الذي كان من أتباع يوحنا و هو من بني إسرائيل حسب إنجيل يوحنا نفسه ، و إذا تمعنا برد يسوع عليه ، نرى أنه ضمنياً قد نفى هذه الصفة عن نفسه و ذلك من قوله له " سوف ترى أعظم من هذا " و من تعريفه بعد ذلك عن نفسه بأنه " ابن الإنسان " . و نلاحظ في الفقرة الثانية أن عوام الشعب هم أيضاً من ناداه بذلك ، بينما في الإنجيل كله لا نرى رداً ليسوع أو تصريحاً يؤكد و يثبت فيه دعواهم تلك .

و الذي تبينه لنا الحوادث التاريخية آنذاك ، أن يسوع قد جاء في فترة كان فيها اليهود يعيشون في ظروف سياسية داخلية و خارجية ، يتوقون فيها إلى ظهور ملك من بني إسرائيل ينشء الدولة و يقيم نظام حكم ملكي فيها . و هذا الملك كان في نظر بعضهم يمثل الماشيح (المسيح

[1] من أتباع السيد المسيح و كان قبل ذلك من أتباع يوحنا المعمدان ثم التحق بالمسيح .

) المخلص نفسه المذكور في الأدبيات الدينية الإسرائيلية . و على ما يبدو فقد لعب عامل الاستعمار الأجنبي الخارجي لأرض إسرائيل[1] من رومان و إغريق و فرس و مصريين ، دوراً قوياً في تقوية هذا الشعور و بخاصة بعد انهيار مملكة إسرائيل . و هذا الشعور نتج عنه خلط الأمر السياسي (ملك اليهود) بالأمر الديني (الماشيح المخلص) . و لذلك فقد كان اليهود يتلهفون في هذه الفترة بالذات إلى ظهور هذا الشخص . و قد ظهرت لهم نماذج عدة عدوها أو ظنوا أنها يمكن أن تمثل هذه الشخصية . و قد نشطت بعض الجمعيات و الحركات في هذا المجال . و بعض الجماعات منهم كانت تبحث عن شخصية من هذا النوع لتسلم إليها زمام أمورها . و لذلك فقد نظر هؤلاء إلى يسوع و معجزاته على أنها هي الإشارة و أنه هو تلك الشخصية الموعودة و المؤهلة للقيام بهذا الدور .

في البداية سار كل شيء على ما يرام . فبداية يسوع المسيح و معجزاته كانت مطابقة و مناسبة لأحلام تلك الفرقة من الشعب ، و هي ظهور حكمة سياسية دينية سلطانية سترفع عنهم نير الرومان الجاثمين على صدورهم ، و بخاصة و أنه كان يعبر في مناسبات مختلفة عن أنه هو المسيح المنتظر حقاً . و من هنا نستطيع أن نفهم سبب و طبيعة عبارة " ملك اليهود " أو " ملك إسرائيل " الذي كان يناديه بها بعضهم ، فهي بشكل أو بآخر كانت تعبيراً عن الكبت و نوعاً من التنفيس المفاجئ و رغبة في تجنب الصدمة من كونه هو الملك و الحاكم . و لكن تملص أو تهرب يسوع من عبارات المجاملة الودية و القلبية تلك و عدم إجابته عليها و تأكيدها بشكل مباشر ، كان على ما يبدو يثير نوعاً من الخوف و الذعر و الشك في نفوس هؤلاء الفريسيين و غيرهم . و لذلك لجؤوا معه إلى أسلوب آخر و هو أسلوب المناظرات و الأسئلة الاستفهامية بحجة التعلم ليتأكدوا من شخصيته الحقيقية . و عندما اتضح لهم أن الرجل

---

[1] بالنسبة لليهود طبعاً .

بعيد كل البعد عن الأمر و المفهوم السياسي و لا يعتمد فقط مبدأ الفصل بين الدين و السياسة ، بل الطلاق الذي لا رجعة فيه ، بدأت المواجهة الفعلية بينهم و بينه . و مما زاد الطين بلة هو أن يسوع كان يرفض رفضاً قاطعاً مفهوم المملكة الأرضية و ينادي بمملكة سماوية تجمع أتباعه و مقلديه ، و هو ما عبر عنه " بملكوت السماء " و الذي كثيراً ما كان يتكرر في مواضع عدة من الإنجيل و كثيراً ما كان يسوع يردده و يعبر عنه و يعتبره هو المكان النهائي لجميع أتباعه و المؤمنين به و هو قال في الإنجيل مجيباً عندما سأله الحاكم الروماني بيلاطس عن مملكته **[مملكتي ليست من هذا العالم و لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان حراسي يجاهدون لكي لا أسلم]** (يوحنا ١٨ : ٣٦) و ملكوت السماء هذه التي كان ينادي بها يسوع دائماً ، كانت هي البديل لمملكة الأرض التي كان ينادي بها خصومه الفريسيين و غيرهم . و ملكوت السماء أو مملكة السماء كانت حسب قول يسوع ، لأناس معينين دون غيرهم **[طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات / طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات]** (متى ٥ / ٣ : ١٠) . و هو في بعض المناسبات كان يستثني الكتبة و الفريسيين من هذه المملكة عندما يقول مخاطباً أتباعه **[فإني أقول لكم إن لم يزد بركم على الكتبة و الفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات]** (متى ٥ : ٢٠) . و يعتبر أيضاً أن هذه المملكة هي التي فيها أنبياء بني إسرائيل **[و أقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق و المغارب و يتكئون مع إبراهيم و إسحق و يعقوب في ملكوت السماوات]** (متى ٨ : ١١) و هي مملكة جميع أفرادها من الذين لهم مقامات رفيعة سامية **[الحق أقول لكم لم يقم من بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان و لكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه]** (متى ١١ : ١١) . بعد ذلك يقدم يسوع أوصافاً و أمثلة عن مملكة السماء فيقول كما جاء في الإنجيل **[فقدم لهم مثالاً آخر قائلاً يشبه ملكوت السماوات إنساناً زرع زرعاً**

جيداً في حقله] (متى ١٣ : ٢٤) . **[يشبه ملكوت السماوات حبة خردل أخذها إنسان و زرعها في حقله]** (متى ١٣ : ٣١) . **[يشبه ملكوت السماوات خميرة أخذتها امرأة و خبأتها في ثلاثة أكياس دقيق حتى اختمر الجميع]** (متى ١٣ : ٣٣) . **[يشبه ملكوت السماوات كنزاً مخفياً في حقل وجده إنسان فأخفاه و من فرحه مضى و باع كل ما يملك له و اشترى ذلك الحقل]** (متى ١٣ : ٤٤) .

تعطي الآية الأخيرة وصفاً مميزا قدمه يسوع لهذه المملكة ، فبالرغم من كونه في الآيات الأولى عد أنه لا يمكن ولوج مملكة السماء تلك إلا بالعمل الصالح و الجيد المليء بالأخلاق ، إلا أنه في الفقرة الأخيرة عد بأن على الإنسان أن يضحي بكل شيء من أجل أن يصل إلى هذه المملكة .

لقد أقر يسوع المسيح بمفهوم المجتمع أو المملكة ، و لكنه سارع إلى إبعاد هذا المفهوم عن أيدي العابثين به و تحييده عن المؤولين له و المفسرين الذين يمكن أن يحيدوه إلى غير ما أنشئ لأجله فرفعه من الأرض إلى السماء مباشرة بحيث لا يمكن أن تصل إليه يد ، و جعل له شروطاً دقيقة واضحة و مختصة و لكنها صارمة و صعبة و بعيدة كل البعد عن أي مفهوم سياسي أو دنيوي . و بذلك يكون قد ألغى أي دور لأي حكمة سلطانية سياسية و نفاها من الوجود تماماً ، ليس ذلك فقط بل عدها عبئاً ثقيلاً و حاجزاً كبيراً في وجه من يريد الدخول إلى هذا الملكوت و ذلك عندما خاطب الفريسيين و الكهنة معتبراً إياهم يمنعون الناس من الدخول إلى ملكوت السماء و في الوقت نفسه يمنعون أنفسهم من الدخول .

في الواقع إذا ألقينا نظرة تقييمية إلى الوضع السياسي السائد في تلك الفترة حيث ولد يسوع لرأينا أن هناك سلطتين كانتا موجودتين في المنطقة ، الأولى هي السلطة السياسية الرومانية

المتمثلة بالحاكم الروماني بيلاطس التابع لإدارة رومة المركزية ، و هي سلطة كانت تفرض إرادتها الكاملة السياسية و الإدارية مع شيء من الجانب الاجتماعي و ذلك فقط ضمن مراعاة التقاليد الرومانية السائدة . أما السلطة الثانية فهي سلطة يهودية ، دينية و سياسية في الوقت نفسه ، تحصلت على استقلالها الديني و الاجتماعي تحت إطار السلطة الرومانية . إلا أنها كانت تسعى بكل جهدها و بكل ما أوتيت من قوة لتطبيق الأمر السياسي و الاستقلال به أيضاً . و لكن نير المحتل الروماني الجاثم فوق صدرها ، كان يمنعها من القيام بأي خطوة من هذا القبيل . و لذلك فقد كانت تلك السلطة تحت الرقابة الصارمة للسلطة الأولى السياسية و كانت تتعرض للتنكيل عند أي بادرة أو حركة يفهم منها النزوع نحو الاستقلال . و بالرغم من كل هذا ، فإن ذلك لم يمنعها من التفكير في الثورة على المحتل الروماني ، هذه الثورة التي كان لزاماً أن يقوم بها و يقودها حسب بعض المعتقدات اليهودية آنذاك ، الماشيح المخلص .

في ظل هذه الفترة التي عدها بعض المؤرخين فترة متقلقلة مضطربة ، جاء يسوع المسيح ليبشر بسلطة ثالثة خاصة به ، وضعها في السماء ، سلطة لا هي سياسية و لا هي اجتماعية ، و لم تتطرق إلى الأمر الاجتماعي أو السياسي بقدر ما تطرقت إلى الأمر الفردي الإنساني الأخلاقي . و مع ذلك فإنه دخل في صراع خطير مع السلطة الثانية المتمثلة بالفريسيين و الكتبة و الكهنة و الصدوقيين ، بينما السلطة الرومانية ربما لم تر فيه أي إشكال أو خطر يمكن أن يؤثر فيها . و يحدثنا ديورانت[1] عن تفسير آخر و هو أن هؤلاء قد قاوموا تعاليم و إصلاحات المسيح " و كان الذي أغضبهم بنوع خاص ، أن يروه يختلط بعمال رومة المبغضين . و كان كهنة الهيكل و أعضاء السنهدرين يرقبون نشاطه بعين الريبة و يروون في هذا النشاط ما كان يراه هيرودس في نشاط يوحنا و هو أنه ستار يخفي تحته قوة سياسية . و

[1] قصة الحضارة ، المجلد /١١/ ، ص/٢٣/ .

كانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الروماني بأنهم يتحللون مما هو مفروض عليهم من تبعات ليحافظوا بذلك على النظام الاجتماعي . و قد أوجسوا في نفوسهم خيفة من وعد المسيح بتدمير الهيكل و لم يكونوا واثقين من أن هذا التدمير إنما هو تدمير مجازي لا يقصد به حرفيته " . و يضيف ديورانت أن أتباعه كانوا لا يزالون حتى تلك اللحظة يعتقدون أنه مسيح سياسي سيقضي على سلطان رومة و يجعل الكلمة العليا لليهود . و يبدو لنا هنا أن الصدمة من موقف المسيح السلمي المهادن حتى للأعداء ، ذي الطابع الشمولي الإنشاني ، قد أدت إلى رد فعل عكسي ، فأصبحت الخشية منه بأن يؤدي موقفه هذا إلى سد الطريق أمام أية ثورة سياسية محتملة و فتح أنظار الرومان على ذلك .

و لكن الغريب أن الرومان حتى وقت صلبه و موته ، بل و حتى بعد قيامته ، لم يكونوا يرون فيه (على الأقل ظاهرياً) هذا الخطر المحتمل عليهم و على سلطانهم ، علماً أنهم و حسب الروايات التاريخية ، وضعوه لفترة قصيرة تحت رقابة سرية مشددة ، ثم ما لبثوا أن تركوه . و لكن دخوله مدينة أورشليم بعد أن انتشرت معجزاته و الاستقبال الشعبي له ، ربما يكون قد أثار بعض الجماعات اليهودية من أن يؤدي ذلك إلى أن يتم لفت أنظار الرومان إليهم و عد ذلك نوعاً من التهيئة لثورة ضد حكمهم ، فيكون ردهم هو القضاء على كل ما تتمتع به اليهودية من حكم ذاتي و حرية دينية . و لكن الرومان في النهاية ربما يكونون قد أحسوا كما أحس اليهود ، فقاموا بمحاكمته و صلبه ، و بخاصة أنهم كانوا في أوج قوتهم و مجدهم ، و إمبراطوريتهم في ذروة اتساعها ، ولم يكونوا بالتالي ، بحاجة إلى مزيد من القلائل لهم ، بنشوء إيديولوجيات جديدة ، حتى ولو كانت دينية .

هذه الفرضية تقودنا إلى احتمال أن الرومان أحسوا منذ البداية بخطر يسوع عليهم ، أي أن الحكمة السلطانية السياسية الرومانية أدركت منذ البداية أثر يسوع و قدرت احتمال الضرر

الذي يمكن أن يصيبها من جراء ذلك ، ولكن طريقتها في التعامل معه كانت مختلفة عن طريقة الحكمة السلطانية الدينية الاجتماعية المحلية المتمثلة بالكهنة و الفريسيين ، للأسباب التالية :

أولاً : هي حكمة سلطانية سياسية أكثر شمولاً ، ورثت خبرات الحكم السلطانية التي سبقتها ، من إغريقية و فارسية و مصرية ، فضلاً عن وراثتها لإمبراطورية الإسكندر الأكبر و ما نتج عنها من ممالك و دول كبيرة ضخمة .

ثانياً : هي حكمة سلطانية لها باع طويل في التعامل مع شعوب و حضارات كثيرة متنوعة و لديها اطلاع كامل على مشاكلها الاجتماعية و السياسية و الدينية فضلاً عن ثقافاتها و تراثها ، أي أن مجال البصيرة لديها أكبر و أوسع و بخاصة و أن هذا الأمر قد جاءها أيضاً عن طريق الوراثة من الحكم السلطانية السابقة بكل تراكماته و أحداثه التاريخية الطويلة .

ثالثاً : كونها حكمة سلطانية تبسط سلطانها على إمبراطورية واسعة شاسعة تضم خليطاً موزاييكياً متعدد الأعراق و الأديان و الثقافات ، تسعى لصهره و قولبته في إطار من العولمة المتجانسة . فهي على الأرجح لم تكن ترى خطر يسوع (إذا وجد فعلاً) عليها مباشرة أو على الإمبراطورية ، بل على حيز ضيق من مجال سلطانها لم يكن موجهاً ضدها بالأساس . و لذلك فقد غضت الطرف عنه ، ليس من باب التجاهل المطلق أو عدم الشعور بالخطر (إذا افترضنا شعورها بالخطر) بل من باب عدم الصدام المباشر معه .

رابعاً : كانت هذه السلطة المركزية تضع عينها على السلطة اليهودية التي تنشد الاستقلال السياسي ، و تراقبها لأنها كانت بنظرها هي الظاهرة على الشاشة مع كل مقوماتها و خصائصها ، بشكل واضح مجرد . بينما كانت دعوة يسوع بالنسبة لها حكمة سلطانية غامضة

مثالية أخلاقية ليس لها أي مشروع أو هدف سياسي أو برنامج عمل إيـديولوجي واضـح ، و لذلك فقد كانت فكرة الصدام المباشر معه غير واردة حالياً ، بـل كانـت الحكمـة السـلطانية اليهودية هي المرشحة للصدام أكثر .

خامساً : إن صدام يسوع المباشر مع الكهنة و الفريسيين و غيرهم ، ربما يكون قد أزاح عـن الحكمة السلطانية الرومانية عناء الصدام المباشر معه ، فتركوا الفريقين بعضـهما لـبعض ، ليستلموه جاهزاً فيما بعد و يقوموا بصلبه في عملية دراماتيكية لم تزح عـن كـاهلهم عـبء الصدام معه فحسب بل جريرة القتل . و هذا يحدونا إلى أن عمليـة بـيلاطس فـي محاولـة الهروب العلني من صلبه و الطلب من هؤلاء عدم صلبه و عرضه عليهم الا ختيار بينه و بين بارباس اليهودي[1] ، ما هي إلا تمثيلية ماهرة متقنة تنم عن خبرة سياسـية لحكمـة سـلطانية عركتها التجارب ، فقامت بكل بساطة باستدراج الحكمة السلطانية المتمثلة بالكهنة و الفريسيين و الصدوقيين إلى الفخ الذي نصبته لها بإحكام . و هذا الأمر نجد له دليلاً و أثراً في الإنجيـل نفسه إذ انه ما إن تمت الموافقة على صلب يسوع من قبل الجماهير المحلية الغضبة و الـذين مثلوا خصومه ، حتى قام الرومان بصب جميع أنواع العذاب و الإهانات عليه و التنكيـل بـه قبل صلبه و كأنهم كانوا ينتظرون ذلك بفارغ الصبر **[فأطلق لهم بارابـاس و أمـا يسـوع فجلده ثم سلمه للصلب / فاقتاد جنود الحاكم يسوع إلى دار الحكومة و جمعوا عليـه جنـود الكتيبة كلها / فجردوه من ثيابه و ألبسوه رداءاً قرمزياً / و جدلوا إكليلاً من شوك و ضعوه على رأسه و وضعوا قصبة في يده اليمنى و ركعوا أمامه يسخرون منه و هو يقولون سلام عليك يا ملك اليهود / و بصقوا عليه و أخذوا القصبة منه و ضربوه بها علـى رأسـه / و بعدما أوسعوه سخرية نزعوا عنه الرداء و ألبسوه ثيابه و سـاقوه إلـى الصـلب / و لمـا**

[1] أحد السجناء المحكومين لدى الرومان تم عرضه مع يسوع أمام الجمهور ليختاروا العفو عن أحدهما ، فاختاروه هو .

وصلوا إلى المكان الذي المعروف بالجلجثة و هو الذي يدعى مكان الجمجمة / أعطوا يسوع خمراً ممزوجة بمرارة ليشرب فلما ذاقها رفض أن يشربها / فصلبوه ثم تقاسموا ثيابه فيما بينهم مقترعين عليها] (متى ٢٧ / ٢٧ : ٣٥) . **[فاقتاده الجنود إلى داخل الدار أي دار الحكومة و جمعوا جنود الكتيبة كلهم / و ألبسوه رداء أرجواني و وضعوا على رأسه إكليلاً جدلوه من الشوك / و بدؤوا يحيونه قائلين سلام يا ملك اليهود / و يضربون رأسه بقصبة و يبصقون عليه و يسجدون له جاثين على ركبهم / و بعدما أوسعوه سخرية نزعوا رداء الأرجوان و ألبسوه ثيابه و ساقوه إلى الخارج ليصلبوه]** (مرقس ١٥ / ١٦ : ٢٠) . و ما يثير دهشتنا هنا ، هو موقف الحاكم الروماني من يسوع في أثناء المحاكمة و التي وردت في الإنجيل . فحسب رواية الإنجيل ، كان الحاكم الروماني متعاطفاً إلى أبعد الحدود مع يسوع ، لا بل و يريد إطلاق سراحه . و عندما طالبه جمهور خصومه الغاضب بصلبه ، قال لهم **[أخذ ماء و غسل يديه أمام الجميع و قال أنا بريء من دم هذا البار]** (متى ٢٧ : ٢٤) . **[فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة و الجموع لا أجد ذنباً في هذا الإنسان / و ها أنا بعدما فحصت الأمر أمامكم لم أجد في هذا الإنسان أي ذنب بما تتهمونه به و لا وجد هيرودس إذ رده إلينا]** (لوقا ٢٣ / ٤ : ١٤) .

إننا نتساءل هنا عن سر هذا التناقض الرهيب بين رأي هذا الحاكم الروماني بيسوع قبل صلبه و محاكمته و وصفه له بأنه بار و صالح و غير مذنب ، و بين هذه المعاملة القاسية المهينة و العذاب الرهيب الذ ي فرضه عليه بعد صدور الحكم بصلبه ، و لماذا لم يكتف بصلبه فقط طالما كانت هذه هي أقصى ما يريده خصومه بحقه ؟؟!!! و السوآل الآخر الذي يطرح نفسه ، هو كيف يعلن هذا الحاكم الروماني براءته من دم يسوع الذي وصفه بالبار ثم ينزل به أشد صنوف العذاب و التنكيل و الإهانة . إننا نستبعد هنا فكرة التناقض في الإنجيل بقدر ما نثبت

فكرة المراوغة السياسية للحكمة السلطانية الرومانية التي أرادت ضرب عصفورين بحجر واحد من جراء ذلك .. التخلص من مشاكل يسوع و خطره المستقبلي اللاحق و الذي كانت هي أول من اكتشفه بواسطة هيرودس ، و ضرب الحكمة السلطانية المناوئة له و جعل موقفها ضعيف جداً ، بإلقاء تبعة حكم صلب يسوع عليها .

أما إذا نظرنا إلى موقف الحكمة السلطانية الاجتماعية الدينية التي ناصبت يسوع العداء و اتخذت منه موقفاً سلبياً معادياً و مباشراً و معلناً ، فمن الواضح أنها كانت حكمة سلطانية ذات أفق جغرافي ضيق و محدود و لم تتحصل لديها الإمكانيات و لا المؤهلات التي تخرج بها عن النطاق التحليلي الآني و المباشر ، و تبعاً لذلك فهي لم تكن ترى في المسيح بداية الأمر إلا ملك اليهود و رمز الخلاص السياسي الإقليمي الضيق . و لكن عندما اتضح أن يسوع يتبنى مبدأ الخلاص الروحي الديني و ليس الخلاص السياسي الدنيوي ، انقلبت عليه لا إرادياً و باللاشعور و ناصبته العداء معتبرة إياه خطراً حقيقياً مادياً و مباشراً عليها هي بالذات . و ازداد الأمر سوءاً عندما بادلها يسوع العداء نفسه و هددها شخصياً و بشكل واضح . بينما الحكمة السلطانية الرومانية لم تكن ترى في يسوع خطراً آنياً حقيقياً ، بل خطراً مستقبلياً غير مباشر . و الحكمة السلطانية الدينية المتمثلة بالكهنة و غيرهم ، و إن كانت منظمة دينياً و اجتماعياً إلا أنها كانت متقلقلة مضطربة و غير مستقرة سياسياً ، و كان الأمر السياسي على ما يبدو بالنسبة لها ذا أولوية مطلقة و يتفوق على الأمر الديني . و نستنتج ذلك من تساهلها دينياً مع يسوع في بادئ الأمر ، و لكن الأمر السياسي لم تكن لتتساهل فيه و تتجاهله ، و بخاصة أنها ذاقت الأمرين بسببه عبر تاريخها الطويل . فهو كان ذا حساسية عالية مفرطة بالنسبة إليها . و لكن عندما بدا أن يسوع غير مهتم لهذا الأمر إطلاقاً و يعده مفصولاً عن الأمر الديني تماماً ، بدأت هذه الحكمة تجرده من الأمر الديني أيضاً و تعده مجدفاً بحق

الشريعة و الدين . و هي على ما يبدو و في قمة ضعفها و عجزها السياسيين ، لم تر بداً من الصدام المباشر مع يسوع ، و لم تر أن أعماله و تصرفاته موجهة إلا ضدها هي بالذات بالرغم من أن يسوع كان يصرح دائماً أن دعوته هي عالمية صرفة ، و لم تنتبه إلى أنه هو نفسه كان يشكل خطراً على الحكمة السلطانية الرومانية أيضاً . و ربما لو تركوه لبعض الوقت ، لجاء الرومان أنفسهم و اقتادوه . و لكن الحكمة الرومانية صاحبة الخبرة العميقة ، أدركت هذا الأمر و استثمرت صراع هؤلاء الفريسيين و الكتبة و الصدوقيين مع يسوع لتضرب الاثنين معاً و تتخلص من مشاكل عدة كثيرة يمكن أن تسبب لها إشكالات في قيادتها للإمبراطورية الكبيرة الضخمة التي تحكمها و تدير شؤونها .

لقد كان قيام مملكة يهودية ذات حيز جغرافي صغير هو هاجس الحكمة السلطانية المحلية المتمثلة بالكهنة و الفريسيين ، و بوصفها فاقدة التصرف بالأمر السياسي فإن مجال المناورة لديها حيال أي حدث سياسي أو ديني أو اجتماعي يطرأ عليها ، هو مجال ضيق و محدود و تتحدد أبعاده فقط بالقبول أو الرفض .. الشراكة أو المواجهة و بخاصة إذا كان هذا الحدث نابعاً من كيانها و يحمل شيئاً من فكرها و تراثها . و نتيجة لذلك لم يكن هناك خيار أمام هذه الحكمة السلطانية الدينية للتعامل مع يسوع ، إما بالقبول المباشر المتطرف أو بالرفض المباشر المتطرف ، إما أقصى القبول أو أقصى الرفض ، و هذا ما حصل فعلاً . و هي لم تكن ترى في يسوع إلا مشكلة داخلية بحتة و أكيدة و سريعة الاشتعال فضلاً عن كونها عويصة و معقدة و صعبة الحل و ذات آثار و نتائج وخيمة و وشيكة الحدوث ، بينما كانت الحكمة السلطانية الرومانية ترى في يسوع مشكلة مستقبلية محتملة الحصول و ذات نتائج آجلة تستمرئ الظروف و الأحداث الزمنية و المكانية لتتفاعل معها و تعطي نتائجها على الإمبراطورية الرومانية عامة . لأن تعاليم يسوع و عظاته و خطاباته الملهبة لمشاعر و ضمائر الجمهور

ذات النزعة الإنسانية العالمية ، كانت على الأرجح بالنسبة للسلطة الرومانية مشروع عولمة خطير و منافس لمشروع عولمة رومة و هذا للأسف ما لم تنتبه له حكمة الكهنة السلطانية المحلية . و لذلك و بالأحوال كافة فإننا نرجح اتفاق كل من الحكمتين السلطانية الدينية مع السياسية الرومانية على رفض الحكمة الروحية الاجتماعية البحتة التي تمثل بها يسوع المسيح . و إن خير طريقة لقفل ملفه و إيقاف مشروعه الإنساني العالمي هذا هو إنهاء حياته و وضع حد لها لأن كل تعاليمه الدينية تلك و مشروعه هذا ، كانا يتجسدان في شخصه هو بالذات ، و إن عملية تصفيته كفيلة بأن تنهي كل مشروعه هذا .

و لكن على ما يبدو فإن كلاً من الحكمتين السلطانيتين قد اخطأتا الحكم على الرجل ، لأن الحكمة التي كانت معه و التي مكنته من الرد بكل بديهية و منطق و ذكاء على أسئلة محاوريه و مجادليه الصعبة و العويصة المحرجة ، و مكنته من التعامل مع الناس و شفائهم من أمراضهم المستعصية و عاهاتهم المستديمة ، و مكنته من التنبؤ بما سيحل به من قبل الحكمتين السابقتين و من سيسلمه لهما .. هذه الحكمة من المؤكد أنها مكنته من تقديم و استحضار الحل الناجع و السليم في الرد على محاولة تصفيته و قتله .

و إذا عدنا إلى الإنجيل مرة أخرى ، نرى أن يسوع المسيح قد تفوق على كل منافسيه و خصومه و لعب معهم ورقته الأخيرة ببراعة الشخص العارف الواعي الذي أحاطت حكمته بحكمة خصومه و بخاصة الحكمة الرومانية المستترة . و في الواقع لا نبالغ إذا قلنا إن الصراع الحقيقي لم يكن بين يسوع و بين الكهنة و الكتبة و الفريسيين و الصدوقيين بالرغم من كونه كان صراعاً ظاهرياً ، بل كان في الحقيقة صراعاً مع الحكمة السلطانية الرومانية السياسية المهيمنة على أكبر إمبراطورية في العالم آنذاك . و بالرغم من كونه هو الصراع الحقيقي فإنه كان صراعاً خفياً أشبه بنوع من الحرب الباردة الخفية . و إذا توخينا الدقة أكثر

فإنه كان أشبه بلعبة عض الأصابع ، حيث لم يعلن أحدهما للآخر عداءه صراحة و علانيـــة ، بينما حصل هذا الأمر بين يسوع و بين الكهنة . لا بل إن كلام يسوع عن " ما لقيصر لقيصر و ما لله لله " كان بمنزلة إبرة مسكن للحكمة السلطانية الرومانيـــة . و قـــد أدركـــت الحكمـــة السلطانية الرومانية (ربما فيما بعد) بخبرتها العملية التجريبية أن تعـــاليم يســـوع و عظاتـــه كانت موجهة إليها هي بالذات . و لذلك وجهت جل اهتمامها إليه هو بالذات . و نحـــن علـــى يقين تام بأن يسوع بحكمته الكامنة المهيمنة ، أدرك ما توصلت إليه هذه الحكمة و لذلك عمـــل و بكل مهارة على توجيه أنظارها إليه هو بالذات و استمر في ذلك من بداية دعوتـــه و حتـــى عملية صلبه ، ليرمي بعد ذلك ورقته الرابحة التي أرادها أن تتيح لمشـــروعه الاســـتمرارية و الحياة و التوسع . و هذه الورقة جاءت في نهاية الإنجيل بعد قيامة يسوع و ظهوره لتلاميـــذه حيث جاء في آخر فقرة فيه [**و أما التلاميذ الأحد عشر فذهبوا إلى منطقة الجليل إلى الجبـــل الذي عينه لهم يسوع / فلما رأوه سجدوا له و لكن بعضهم شكوا / فتقدم يســـوع و كلمهـــم قائلاً دفع إلي كل سلطان في السماء و على الأرض / فاذهبوا إذاً و تلمذوا جميـــع الأمـــم و عمدوهم باسم الأب و الأبن و الروح القدس / و علموهم أن يعملوا بكل ما أوصـــيتكم بـــه و ها أنا معكم كل الأيام إلى انتهاء الزمان**] (متى ٢٨ / ١٦ : ٢٠) .

إن العبارات الأخيرة من الأنجيل ربما قد تقدم لنا تفسيرات كثيرة لأمور هامة و جوهرية فـــي حياة يسوع . و محطات و مفاصل مثيرة للاهتمام في تصرفاته . إنها ربما قد تفسر لنا لمـــاذا تحول يسوع بعد إلقاء القبض عليه ، إلى إنسان عاجز و غير قادر على تخليص نفسه و غيـــر قادر حتى على الإجابة على أسئلة الذين حاكموه ، حيث ظل صامتاً لا يتكلم ، في الوقت الذي كانوا يطلبون منه أن يخلص نفسه و أن يأتي بمعجزة و أن يتنبأ بما سيحدث له أو أن يخلـــص نفسه من الصليب و. لكن يسوع بقي صامتاً بلا حراك و لاجواب ، مـــتحملاً أســـوأ أنـــو اع

التعذيب و التنكيل و الإهانة التي لحقت به ، مظهراً قمة الضعف و عدم القدرة ليحمل بعد ذلك صليبه على كتفه و يمشي به إلى حيث صلب عليه . ربما قد تفسر لنا لماذا سهل يسوع عملية تسليمه و أشار إلى من سيسلمه و هو يهوذا . و تفسر أيضاً لماذا قال تلك العبـــارة الغامضـــة لتلميذه بطرس في أثناء العشاء الأخير حسبما جاء في الإنجيل **[الحق أقول لك إنك في هـــذه الليلة قبل أن يصيح الديك تكون قد أنكرتني ثلاث مرات / فقال بطرس لو كان علي أن أموت معك لما أنكرتك أبداً . و قال التلاميذ كلهم مثل هذا القول]** (متى ٢٦ / ٣٤ : ٣٥) .

لقد كانت دعوة يسوع و تعاليمه ، بمنزلة رسالة اراد إيصالها لأكبر عدد من الناس .. أرادهـــا أن تكون رسالة عالمية منذ البداية . تصل إلى الناس . و حتى يتم له هذا الأمر ، وجب عليـــه اعتماد أمرين اثنين ، الأول هو إعداد المشروع و الخطاب العام الكامل لهذه الرسالة و إتمـــام إنجازه و إكماله . و الثاني هو صيانة و حماية هذا المشروع تمهيداً لتطبيقه و نشره بين الناس .

البند الأول و هو بند إنجاز المشروع و إتمام صياغته و تشكيله ، لا يمكن أن يتم إلا و المسيح على قيد الحياة بمعنى أنه من المستحيل إذا مات يسوع أن يقوم أحد آخر بإكمال المشروع ، و لذلك لم يسلم يسوع نفسه للصلب إلا بعد أن أيقن أنه أتم رسالته و بلغها و وضعها في صـــدور من يحفظونها . أما البند الثاني و المتمثل بحماية هذه الرسالة و صيانتها ، فكان يتمثل فـــي أن يقوم يسوع بلفت الأنظار إليه وحده هو فقط دون غيره من تلامذته . و تم له ذلك بـــأن جعـــل نفسه الناطق الوحيد و المبلغ لهذه الرسالة ، و لم يعط هذا الدور لأي أحد من تلامذته . و فعلاً اتجهت الأنظار إليه هو فقط . و نستطيع القول إن يسوع إذا ضحى بنفســـه بالصـــلب حســـب المنظور المسيحي ، فإنه أيضاً ضحى بأن جعل و أوحى لغيره أنه هـــو الهـــدف الأســـاس و الرئيس الذي يجب ضربه و تدميره (إذا جاز التعبير) لكي يبعد الأنظار كلياً عن تلامذتـــه ، فلم يعط لهم أي دور في حياته كيلا يلفت الأنظار إليهم ، لأن مهمتهم كانت هي التبليـــغ و أداء

الرسالة بعد غيابه ، بينما كان دوره هو التعليم فقط و لذلك فقد حرص على أن يرافقوه في حله و ترحاله و تبعاً لذلك فقد جاءت معظم صفاته في الإنجيل بـ " المعلم " بينما كان دور التلاميذ هو التبشير و التبليغ . و لهذا فإننا نقرأ في الإنجيل ، أنه و عندما أتم يسوع تعليمه و شرح رسالته لتلاميذه ، استسلم و سلم نفسه للصلب كي تبدأ بعد ذلك مهمة تلاميذه . و حتى تكون العملية برمتها ناجحة و لا مجال لاحتمال الخطأ فيها و فتح ثغرات ، نلاحظ أنه و حسب فقرات الإنجيل لم يظهر لتلاميذه الذين نقص منهم واحد ، إلا بعد قيامته و في منطقة جبلية معزولة ليطلب منهم القيام بتبليغ الرسالة و كأنه اراد في إظهار الصورة المرئية للإنسان العاجز الضعيف المتحمل للضرب و الإهانة و عدم الإجابة على الأسئلة ، الإيحاء لخصومه الرومان بأنهم قد انتصروا أن مهمته فشلت .

فهل كان صلب يسوع و موته على الصليب هو لأجل خلاص البشرية أو لإتمام تبليغ الرسالة ؟؟ و هل يمكن أن يكون هناك خلاص للبشرية دون تبليغ الرسالة ؟؟ و هل العملية برمتها هي مجرد الإيمان بالصلب بقدر ما هي فهم للرسالة و تطبيقها ؟؟؟ .

لقد كان يسوع حريصاً على عدم حصول أي خطأ بعد غيابه أو في أثناء محاكمته . و عندما برز احتمال أن يقوم تلميذه بطرس بخطأ ما ، حين قال له إنه لن ينكره ، أجابه يسوع " الحق أقول لك إنك ستنكرني ثلاث مرات " و هذه القضية فهمها بعضهم بالمقلوب و بالوجه المعكوس ، لأنه في الواقع كان المطلوب أن لا يتعرف بطرس أو أحد تلاميذ يسوع ، عليه في أثناء المحاكمة الأمر الذي يؤدي إلى التعرف عليهم جميعاً و اعتقالهم و محاكمتهم معه و بالتالي فشل المشروع برمته . و طبقاً لذلك لا يمكننا فهم كلام يسوع لبطرس إلا بمعنى .. أنه عليك يا بطرس أن تنكرني و تتبرأ مني ظاهرياً كي لا تكشف نفسك و تتعرض للضرب و التعذيب الذي لن تتحمله يا بطرس و سيؤدي بك إلى الاعتراف و كشف كل رفاقك و تصفيتهم

و قتل مشروع تبليغ الرسالة في مهده و قبل أن يولد . و فعلاً سار الأمر كما تنبأ يسوع ، حيث تم الاشتباه ببطرس و التعرف عليه و لكنه بالكاد نجا بإعجوبة إذ أنكر معرفته بيسوع ثلاث مرات و بثقة تامة مطمئنة . و هذا يحدونا إلى الشك بأن كل التعذيب الذي تعرض له يسوع من قبل الرومان ، ربما يكون للإقرار عن تلاميذه ، و هي مقولة تطرح نفسها بقوة لناحية الاستنتاج المنطقي .

و تبقى عملية اختيار يهوذا ليقوم بمهمة التسليم و التي لا يمكن فهمها من خلال الواقع و التفكير المنطقي إلا بأن يسوع كان يرى لسبب ما أن يهوذا غير قادر على القيام بمهمة تبليغ الرسالة أو أنه غير مأمون الجانب في المرحلة اللاحقة لنشر الرسالة . و لذلك وقع عليه عاتق عملية التسليم . و ما يحدونا لهذا الأمر هو أن يسوع قد صرح في العشاء الأخير لتلاميذه بأنه سيسلم و قد حدد من سيسلمه و هو يهوذا . هذه العملية تستوجب أمراً منطقياً و هو أن يهوذا إما سينكرذلك و يحاول قدر الإمكان التملص ، أو أنه سيعمد إلى إخبار الرومان أو الكهنة بأن أمره قد انكشف و لم يعد صالحاً للقيام بهذه المهمة . و لكن الإنجيل لا يحدثنا عن أيه ردة فعل ليهوذا حيال هذه القضية ، فهل كانت مسألة يهوذا شبيهة بمسألة بطرس ؟؟؟ ذلك ما يصعب التكهن به .

إننا نظن بأن يسوع قد أدرك أهمية وجود الإمبراطورية الرومانية و معنى مفهوم العولمة الذي كانت تتبعه هذه الإمبراطورية . و لذلك أمر تلاميذه بعد قيامته أن ينتشروا في كل مكان من الإمبراطورية و ينشروا هذه التعاليم . لقد أراد يسوع أن يقطع الطريق على الحكمة السلطانية الرومانية و يسبقها و لو بخطوة واحدة ، فهو منذ الأساس كان هدفه مشروع الإمبراطورية الرومانية و ليس مشروع المملكة . مشروع إمبراطورية تنمو في ظل الإمبراطورية الرومانية و من خلالها و ليست مملكة إسرائيل الصغيرة الضيقة الأفق و المحدودة المجال السياسي و

الجغرافي . و لعل كلامه لنثنائيل يوحي بذلك عندما قال له إنه هو ملك إسرائيل ، فرد يسوع بأنه جاء لأمر أعظم من هذا .

و بطلب يسوع من تلاميذه الانتشار و التبليغ بالرسالة ، فإنه قد حقق بذلك أمرين اثنين .. الأول هو ضمان انتشار تعاليمه بأكبر كم ممكن و بأقل وقت ممكن . و الثاني هو حماية تلاميذه حيث إنهم إذا كانوا متفرقين ، خيراً لهم من أن يكونوا متجمعين في مكان و حيز واحد مما يسهل عملية تطويقهم و تدميرهم بينما من الصعب جداً استيعابهم إذا كانوا متفرقين و هكذا كان . و قبل أن يسلم يسوع الروح قال **[فلما تناول يسوع الخل قال قد تم كل شيء ثم أحنى رأسه و أسلم الروح]** (يوحنا ١٩ : ٣٠) .

انتهى الإنجيل بانتهاء حياة يسوع و قيامته و من ثم غيابه ليبدأ بعد ذلك عمل التلاميذ المبشرين و هي الفترة التي تحدث عنها كتاب أعمال الرسل[١] في العهد الجديد .

أعمال الرسل :

تتحدث أعمال الرسل بعامة عن بداية أعمال التبشير بعد غياب يسوع المسيح و دعوة الناس إلى تعاليمه . و هي تمثل في أساسها و جوهرها محاولة تلاميذ يسوع إرساء قواعد تشريعية للديانة المسيحية تشكل أسس و مقومات هذه الديانة بشكلها النهائي العام أو بمعنى آخر وضع اللمسات الأخيرة المفسرة و الشارحة لتعاليم و عظات يسوع المسيح . و بالمجمل فإن كتاب أعمال الرسل و إن تحدث عن مهام التبشير التي قام بها تلامذة يسوع فإنه بشكل رئيس اختص بشخصيتين اثنتيتن أحداهما هي بطرس و هو من تلاميذ يسوع الأوائل ، و الآخرى هي بولس

[١] هو أحد أجزاء العهد الجديد و يتحدث عن تبشير تلاميذ يسوع بعد غيابه .

و اسمه الحقيقي شاول و كان من أشد أعداء يسوع ، و لكن و نتيجة لتعرضه لحادث في أثناء سفره ، تحول إلى المسيحية .

تبدأ أعمال الرسل بحلول الروح القدس على تلاميذ المسيح و يبدأ بطرس العمل بشكل جدي . و تكون الدعوة في الهيكل حيث أخذ يدعو ليسوع و يذكر النـــاس بمعجزاتـــه و تصـــرفاته و أعماله و أقواله ، فكان في كل مرة يضم إليه أتباعاً جدداً . و حسب الكتاب المقدس فقد حلـــت عليه قدرة الإتيان بالمعجزات ، فكان يشفي المرضى ذوي الأمراض المستعصية و العاهـــات المستديمة و غيرهم ممن لا يرجى شفاؤهم ، و ذلك كله بالتزامن مع عظاته التي كـــان يلقيهـــا في الهيكل و التي كان فيها أحياناً يقرع الكهنة و الكتبة و الفريسيين ، و لكن هذا الأمـــر أدى إلى ظهور الصراع من جديد مع هؤلاء . و تجدد الاشتباك معهم ، فقاموا باعتقاله مرات عـــدة و استجوابه و تهديده بالقتل ، إلا أنه لم يرتدع عن القيام بمهمتـــه ، و جـــابههم بالنقاشـــات و الخطب البلاغية القوية التي كان يقرعهم بها . و كان من نتيجة هذه الخطب التي كان يرافقـــه فيها أحياناً يوحنا ، أن بدأت تتشكل النواة الأولى و القاعدة الشعبية للمسيحية التي بدأت تميزها كدين رسمي منفصل و مستقل عن غيره . و بدأ في الوقت نفسه ظهور نـــوع مـــن التنظـــيم الإداري و الاقتصادي لهذه الهيكلية . و كان يشرف على هذا التنظيم كله بطرس الـــذي كـــان بمنزلة القائد و الرئيس الفخري لهذه الجماعة المسيحية الأولى . و يبدو مـــن خـــلال أعمـــال الرسل أن الكلمة الأخيرة كانت له لكونه كان الأكثر تمتعاً بـــدعم و قـــوة الـــروح القـــدس و المعجزات التي كان يجريها .

و نستطيع القول إن بطرس قد مثل بعد المسيح ، الحكمة السلطانية الدينية التي تريد أن تبني و تؤسس لسلطة روحية دينية اجتماعية عالمية . و نستطيع القول أيضاً إن بطرس كان متلهفـــاً و متعطشاً لتطبيق تعاليم يسوع و خاصة البند الأخير الذي طلبه منهم بعد قيامتـــه و هـــو تبليـــغ

الدعوة . و بطرس الذي كان مرافقاً و ملازماً ليسوع ، كان من المؤكد أنه يعرف كل شاردة و واردة عن أسلوب و طريقة يسوع المعلم ، و لذلك فهو كان يدرك أن العيون كلها منصبة عليه و بخاصة كهنة الهيكل و الرومان ، و يدرك أن جولته مع الرومان لم تنته بعد و لكنها أيضاً كذلك لم تبدأ بعد . ولعله كان يخشى مصيراً مماثلاً لمصير معلمه و سيده يسوع ، ليس من باب الخوف المجرد من الألم ، بل الخوف من غيابه قبل أن يحقق شيئاً مما أراده يسوع . و لذلك فقد كان يسابق الزمن و يعمل على كسب الوقت .

لقد اتضح كل شيء أمام الحكمة السلطانية المسيحية المتمثلة ببطرس ، و لم يكن أمامها غير عامل الزمن و العامل المادي ، لأنها قد أدركت أنها أمام خطر الزوال و الاندثار ، و موتها يعني بكل بساطة قتل المسيحية في مهدها . فمن ناحية كسب الوقت ، كان بطرس و رفاقه يعملون ليل نهار . و كانوا إذا شعروا بالخطر يتهددهم من كل جانب ، كانوا يستعينون بالرب و يطلبون الدعاء و يسألونه الحماية ، أي أن الحكمة السلطانية المسيحية كانت تلجأ إلى الحكمة الإلهية طلباً للمعونة ، حسبما جاء في الكتاب المقدس [**و ما إن أطلق بطرس و يوحنا حتى رجعا إلى رفاقهما و أخبراهم بكل ما قاله لهما رؤساء الكهنة و الشيوخ / فتوجهوا بقلب واحد إلى الله بالدعاء قائلين يا خالق السماء و الأرض و البحر و كل ما فيهما / يا من قلت بالروح القدس على لسان عبدك داؤود لماذا ضجت الأمم ؟ و لماذا تآمرت الشعوب باطلاً ؟ / اجتمع ملوك الأرض و رؤساؤها و تحالفوا ليقاوموا الرب و مسيحه / و قد تحققت هذه الكلمات فعلاً ، إذ تحالف هيرودس و بيلاطس البنطي و الوثنيين و أسباط إسرائيل لمقاومة فتاك القدوس يسوع الذي جعلته مسيحاً / و عملوا به كل ما سبق أن رسمت يدك و قضت مشيئتك أن يكون / و الآن انظر يا رب إلى تهديدهم و هبنا نحن عبيدك**

أن نعلن كلامك بكل جرأة / و مد يدك للشفاء كي تجري معجـزات و عجائـب باسـم فتـاك القدوس يسوع] (أعمال الرسل ٤ / ٢٣ : ٣٠) .

إن ما يتضح من سياق الفقرات السابقة ، هو إدراك بطرس لكل أبعاد الصراع الحاصـل بـين يسوع و بين خصومه ، و إن هذا الصراع لم ينته بعد . و إدراكه لنشوء نوع مـن التحـالف ضده ، إدراكه أن رومة كانت منذ البداية تعمل ضد يسوع و تحاربه . و في الوقـت نفسـه أدرك بطرس أيضاً أن المعونة الإلهية ، هي ضمن ما يسمى بالقانون الإلهـي الـذي يحكـم الأرض ، أي أن القضية مهما كان حجمها ، فهي لن تجنح نحو الطوباوية المطلقة ، بل لا بـد لها من مسايرة الأمر الواقع .

و قد أدركت تلك الحكمة السلطانية الجديدة هذه القضية و عرفت أهميـة العامـل المـادي و الاقتصادي فأسست لنوع من الضرائب و التبرعات لتستطيع مجابهة الأمر الواقع و تأمين نوع من الاستقلالية و الحرية في حركة التبشير ، حيث جاء في العهد الجديـد **[و كـان الرسـل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع و قوة عظيمة تصحبها و نعمة عظيمة تحل على جميعهم / فلم يكن فيهم محتاج لأن من كان لهم حقول أو بيوت ، كانوا يبيعونها و يـأتون بثمنهـا / فيضعونه عند أقدام الرسل و هم يوزعونه على كل محتاج بقدر حاجته]** (أعمال الرسل ٤ / ٣٣ : ٣٤) .

و بلغ من أهمية العامل المادي ، أن بطرس لم يكن يتساهل مع أي خلل أو خطأ يقع في حـق الجماعة المالي أو ما يسمى بيت المال (إذا جاز التعبير) و ربما تكون قصـة حنانيـا التـي وردت في الكتاب المقدس ، دليلاً على ذلك حيث جاء فيه **[و لكن رجلاً اسمه حنانيا اتفق مع زوجته سفيرة / فباع حقلاً كان يملكه / و احتفظ لنفسه بجزء من الثمن بعلم من زوجتـه و**

جاء بما تبقى و وضعه عند أقدام الرسل / فقال له بطرس يا حنانيا لماذا سمحت للشـــيطان أن يملأ قلبك فكذبت على الروح القدس و احتفظت لنفسك بجزء من ثمن الحقل ؟ / أما كـــان بقي لك لو لم تبعه ؟ و بعد بيعه أما كان لك حق الاحتفاظ بثمنه ؟ لماذا قصدت في قلبـــك أن تغش ؟ إنك لم تكذب على الناس بل على الله / فما إن سمع حنانيا هذا الكلام حتى سقط على الأرض ميتاً فاستولت الرهبة الشديدة على جميع الذين عرفوا ذلك / و قام بعض الشـــبان و كفنوا حنانيا و حملوه إلى حيث دفنوه / و بعد نحو ثلاث ساعات حضرت زوجة حنانيا و هي لا تدري بما حدث / فسألها بطرس قولي لي أبهذا المبلغ بعتما الحقل ؟ / فأجابت نعم بهـــذا المبلغ / فقال لها بطرس لماذا اتفقت مع زوجك على امتحان روح الرب ؟ هاقد وصل الشبان الذين دفنوا زوجك إلى الباب و سيحملونك أيضاً / فوقعت حالاً عند قدمي بطرس و ماتـــت . و لما دخل الشبان وجدوها ميتة فحملوا جثتها و دفنوها إلى جوار زوجها / فاستولت الرهبة الشديدة على الكنيسة كلها و على كل من سمعوا بذلك الخبر] (أعمال الرسل ٥ / ١ : ١١) .

يتضح مما سبق أن بطرس قد أعطي سلطاناً كبيراً للتصرف ، و صلاحيات واســـعة اقترنـــت بتنفيذ أي حكم يراه مناسباً و الذي يعود إليه هو وحده تقديره . و لذلك فقد قرر منذ البداية أنـــه في سبيل الدعوة ، لا مجال للخطأ و التلاعب ، و خاصة في الأمور الأساس التي يقف عليهـــا مصير الأتباع أو الأمور الأمنية و المالية . ولذلك كان حريصاً على ما يبدو عند إنزال عقاب قاس و صارم من هذا النوع ، أن يعممه على الملأ ليتعظوا به و يكون عبرة لهم .

و يلاحظ أيضاً أن هذا الأمر قد اقترن بظهور مفهوم جديد و لأول مرة و هو مفهوم الكنيســـة الذي بدا يجد لنفسه حيزاً و مكاناً في الدين الجديد . و يبدو أن مفهوم الكنيسة كان بادئ الأمـــر

مفهوماً اعتبارياً معنوياً . و لم يكن يأخذ صفة الحيز المكاني أو يتجسد في بنـــاء[1] . و ربمـــا كان في بدايته رمزاً لتجمع كل أتباع يسوع و المؤمنين به ، أو ألإطار و الرابط المعنوي الذي تنضوي تحته كل العلاقات التنظيمية المادية و الاجتماعية للمسيحيين .

و نشوء هذا المفهوم ، مفهوم الكنيسة ، قد فرض على ما يبدو و من خلال تقدم ، نشوء مفهوم السلطة الحاكمة الدينية التي تدير و تقرر و تدبر و تفرض في الوقت نفسه أيضاً نشوء مفهـــوم الأتباع و الرعية الذين يجب عليهم لزاماً أن يخضعوا لهذه الســـلطة و إلا تعرضـــوا للعقـــاب الإلهي الصارم كما حدث مع حنانيا . و يبدو أن مفهوم الكنيسة قد برز في بداية الأمر كنتيجة لتزامن الحاجة مع إنشاء هيكل تنظيمي يضم تعاليم يسوع و أتباعه ضمن إطار واحد مع عـــدم القدرة على تجاوز خطوط و حدود معينة مع المناوئين و الخصوم الذين كانت لديهم الســـلطات الاجتماعية و السياسية و حتى العسكرية . فمن الصعوبة بمكان أن يتم بناء كنيسة تمثل مكـــان العبادة و أداء الطقوس الدينية و تكون مركز تجمع الأتباع . و لذلك فقد اتخذ بطـــرس القـــرار بإنشاء سلطة مركزية على ما يبدو حتى يتأتى له النجاح بمشروعه و القيام به على أكمل وجه . و لعله أراد لهذه السلطة أن تكون في بدايتها ، سلطة معنوية اعتبارية ، يرمز لها بالكنيسة . و بالرغم من أن مفهوم الكنيسة قد ورد من قبل في أثناء حياة المسيح فإنه لـــم يتشـــكل فـــي مظهره المعنوي الكامل إلا بعد غياب المسيح و ظهور بطرس كخليفة له . و لذلك فإن مفهـــوم الكنيسة بقي رمزاً تنظيمياً إدارياً و معنوياً ، أكثر منه مكاناً للعبادة و الصلاة ، بل ربما لم يكن في أساس نشوئه لهذه الغاية .

و من خلال إدراك بطرس للحرب و الخطر اللذين يتهددان تركة يسوع الدينية و الروحيـــة و الاجتماعية ، فإنه ربما قرر أن يوجد شيئاً من التنظيم لخوض معركة التبشـــير و نقلهـــا إلـــى

[1] تجدر الإشارة إلى أن بناء الكنائس عامة قد بدأ العمل به عندما تنصر الإمبراطور الروماني قسطنطين الأكبر عام / ٣١٣ / م .

الخارج ، إلى مركز الإمبراطورية الرومانية و إلى البلدان ذات الحضارات الراقيـــة الكبيـــرة كاليونان . و يبدو أن بطرس لم يكن ينقصه الذكاء ، فقام في البداية بحركة تمويهية بـــدا أنهـــا انطلت على خصومه الرومان حيث ركز جل اهتمامه على الهيكل في أورشليم ، فكان يمارس نشاطه هناك و بين جموع اليهود ، و لذلك فقد بدت حركته في أعين الرومان و كأنها حركـــة يهودية داخلية ، خصوصاً و أن الاشتباك و الصراع كان كله دائراً فقط بين الكهنة و بين نظام الكنيسة ، يضاف إلى ذلك أن بطرس ربما أراد أن يجد له موطئ قدم بين بعض اليهود و يزيد من أتباعه و في الوقت نفسه يبعد شبهات الرومان عنه . و لعلـــه أدرك بحدســـه القـــوي أن الرومان لن يغامروا مرة أخرى بعملية صلب جديدة طالما أن مجال عمله مختص باليهود فقط ، و هذا ما حصل فعلاً ، فقد بقي الرومان على الحياد و لم يدخلوا حتى هذه المرحلة مع خـــط المواجهة مع الكنيسة ، على الأقل بشكل ظاهري .

و مما ساعد بطرس على القيام بمهمته ، هو أنه كان يخاطب اليهود أحياناً من خلال التعاليم و الشريعة اليهودية ، و كان خطابه الديني تتم صياغته بحيث يوحي أن المتكلم هـــو يهـــودي ، فسهل ذلك عملية انضمام العديد من اليهود للكنيسة و اتباعهم لبطـــرس . لقـــد كانـــت حكمـــة بطرس السلطانية قوية و بعيدة النظر بما فيه الكفاية ، فقد أدركت أنها أمام هـــذه الحـــرب ، لا بد لها من المناورة بشتى الطرق و أنه من الصعب عليها اختراق هذا الطوق المحكـــم حولهـــا بالمواجهة المباشرة المجردة ، حتى و لو كانت مدعومة من قبل الروح القـــدس ، لأن الـــروح القدس و من خلال تاريخ أعمال الرسل ، لا يتصرف خارج القوانين و المنطق الإلهيـــين . و نستطيع القول هنا إن هذه المرحلة التي كان فيها بطرس يبشر بين اليهود و يضم إليه العديـــد منهم ، كانت مرحلة تأسيس المسيحية اليهودية أو اليهودية المسيحية و التي كانت على ما يبدو هي أساس المسيحية فيما بعد . و لعل هذا المفهوم هو الذي ساعد بطرس قلـــيلاً فـــي جهـــده

الجبار لإتمام مشروع يسوع . و نلاحظ في الإنجيل العام أنه و في إحدى المرات ، أنقذت حياة بطرس من الموت على يد أحد اليهود بسبب هذه القضية ، حيث إنه و بعد إحدى المناظرات بين بطرس و بعض الكهنة اليهود ، وصل النقاش ببطرس إلى درجة التهجم عليهم علناً ، فأرادوا قتله [**لما سمع المجتمعون هذا الكلام اشتد غضبهم و قرروا أن يقتلوا الرسل / و لكن أحد أعضاء المجلس و اسمه غمالائيل و هو معلم للشريعة يتبع المذهب الفريسي و يحترمه جميع الشعب . وقف و أمر أن يخرج الرسل بعض الوقت / ثم قال للمجتمعين يا بني إسرائيل حذار أن تنفذوا ما تنوون أن تعملوه بهؤلاء الرجال / فمنذ مدة قصيرة قام ثوداس و ادعى أنه شخص عظيم فتبعه نحو أربعمئة رجل و لكنه قتل و تفرق أتباعه و انتهى أمره / ثم قام يهوذا الجليلي في زمن الإحصاء و استمال عدداً كبيراً من الناس ليتبعوه و لكنه هلك أيضاً و تشتت أتباعه / فالآن أنصحكم أن تبتعدوا عن هؤلاء الرجال و تتركوهم و شأنهم ، فإن كان هذا المبدأ أو هذا العمل من عند الناس فلا بد أن يتهدم / و لكن إذا كان من عند الله فلن تتمكنوا أبداً من الوقوف في وجهه و إلا جعلتم من أنفسكم أعداء الله أيضاً / فعمل أعضاء المجلس بهذه النصيحة و استدعوا الرسل فجلدوهم و امروهم ألا يعلموا باسم يسوع ثم أطلقوهم**] (أعمال الرسل ٥ / ٣٣ : ٣٩)

يتضح مما سبق أن نظرة بعض اليهود على أتباع يسوع و تلاميذه ، كانت على أساس أنهم يهود بل من أنبياء اليهود الذين يدعون النبوة التي ربما يكون صادقة أو مزيفة . و هذا يدل دلالة قاطعة على أن مفهوم الكنيسة كان و لا يزال حتى هذه اللحظة ضمن الإطار و المنظور اليهودي و أن القضية برمتها ، لا يزال ينظر إليها على أنها قضية يهودية داخلية . و هذا الأمر بالذات ربما يكون هو السبب في تخفيف ضغط الرومان على المسيحية اليهودية الناشئة في تلك الفترة .

لقد أدرك بطرس أنه ورث عن يسوع حملاً كبيراً و عبئاً ثقيلاً من الصعب عليه تحمله أو القيام به ، فشحذ كل حكمته للنجاح في مهمته . و لذلك فقد أدرك أيضاً أنه لا بد له من التنظيم و الاعتماد على مفهوم الكنيسة الذي كان بشكل من الأشكال حكمة سلطانية مسيحية . لأن الانفلاش كان أكبر خطر يتهدد الجماعات المسيحية و لكن و في الوقت نفسه ، كان يتوجب على هذه الحكمة السلطانية أن تبقي خفية أو متخفية و غير ظاهرة للعيان بشكلها الفج ، فأدى ذلك إلى أن يكون مفهوم الكنيسة هو مفهوم اعتباري معنوي يشامل و غير محدد بمكان و حيز مكاني ملموس .

و بالرغم من كل تلك الأعمال و الاحتياطات ، يخبرنا سفر أعمال الرسل أن الحرب على المسيحية الوليدة قد أصبحت مستعرة ، و ازداد المناوئون و المحاربون لأتباع يسوع شأنهم في ذلك شأن أي دين آخر تعرض للحرب . و وصلت المواجهة بين الكنيسة و خصومها من الكهنة و الفريسيين إلى درجة حدت بالرسل إلى تشكيل هيئة جديدة تابعة لهم من المعلمين و المرشدين ، تقوم بالنيابة عنه بالاتصال بالناس في حال عدم وجود الرسل ، و كانت هذه مناسبة لدخول المناطق البعيدة كاليونان ، حيث جاء في السفر الخاص بالرسل **[و إذ تكاثر التلاميذ في تلك الأيام احتج اليهود اليونانيين على العبرانيين لأن أراملهم لم يكن يحصلن على نصيب من الإعانات اليومية / فدعا الرسل الإثنا عشر جماعة التلاميذ و قالوا لهم لا يصح أن نترك نحن كلمة الله لتقوم بتوزيع الإعانات / فاختاروا أيها الأخوة سبعة رجال منكم لهم شهادة حسنة ممتلئين من الروح القدس و الحكمة فنعينهم ليقوموا بهذه المهمة / أما نحن فنداوم على الصلاة و خدمة الكلمة / فاستحسنت الجماعة كلها هذا الرأي و وقع الاختيار على استفانوس و هو رجل مملوء من الإيمان و الروح القدس و فيليبس و بروخورس و بيكاتور و تيمون و برميناس و نيقولاس الإنطاكي المتهود / و قدموهم للرسل**

فصلوا و وضعوا أيديهم عليهم / فزادت كلمة الله انتشاراً و تكاثر عدد التلاميذ في أورشليم و أذعن للإيمان مجموعة كبيرة من الكهنة] (أعمال الرسل ٦ / ١ : ٧) .

لقد أدرك الرسل خطورة الوضع المحيط بهم و تعقيداته و آثروا عدم لفت الأنظار إليهم كونهم حجر الأساس في الديانة المسيحية . و لذلك فقد قرروا إنشاء هيئة بالنيابة عنهم ، درءاً لأي خطر مباشر قد يتعرضون له . و هذه الهيئة تحل محلهم في التعامل المباشر مع الناس . و يبدو أن الحكمة كانت مطلباً أساساً في صفات المندوبين ، حيث طلب الرسل أن يكون هؤلاء المندوبون ممتلئين من الروح القدس و الحكمة ، في لفتة جاءت فيها الحكمة مقترنة مع الروح القدس . في الواقع إن هذه المقولة تدعونا للاستنتاج بأن الذي كان مطلوباً في هذه الفترة العصيبة ، هو الإيمان الكلي المقترن بالتقوى و بعد النظر و التقدير و الذكاء في التعامل ، و التصرف المقترن بالحكمة . و يبدو في ظل هذه الظروف أن الإيمان وحده لم يكن كافياً للخلاص بل لا بد من وجود الحكمة .. الحكمة التي تعتمد الحل الأفضل المثالي للتعامل مع الخصم . و لذلك فقد تمت الاستعانة بأشخاص تتوفر فيهم هذه الصفات . و لكن على ما يبدو فإن حتى هذا الحل لم يكن كافياً لدرء الخطر عن المشروع المسيحي و عن الكنيسة ، لأن خصومها كانوا من القوة و الحكمة و الخبرة بمكان ، حيث لم يلبثوا أن قاموا باعتقال أستفانوس الذي وصفه الكتاب المقدس بأنه **[مملوء بالإيمان و القوة و كان يعمل عجائب و معجزات عظيمة بين الشعب]** (متى ٦ : ٨) . و بعد محاكمة قصيرة له ، حكم عليه بالرجم حتى الموت و نفذ فيه الحكم ، فكان هذا بمنزلة ضربة قوية وجهت للكنيسة تمثلت بضرب أحد أهم رجالاتها و الذين يمثلون قوى خارقة . و يبدو أن الطرف الآخر المناوئ للكنيسة كان قد أدرك ما تفكر به الحكمة السلطانية ، فعمد هو الآخر إلى توظيف رجال أشداء قادرين و محنكين لمجابهة المندوبين المسيحين الذين عينهم الرسل . و قد مثل هؤلاء الرجال شخص

اسمه شاول ، و بحسب الإنجيل ، كان هو الذي حكم على استفانوس بالإعدام . و كانت نتيجة هذه الجولة الخطيرة أن مناهضي الكنيسة بالنيابة قد انتصروا على مناصري الكنيسة بالنيابة . و يخبرنا سفر الرسل بأن هذه الجولة قد وجهت ضربة قوية للكنيسة حيث جاء فيه **[و كان شاول موافقاً على قتل استفانوس و في ذلك اليوم نفسه وقع اضطهاد شديد على الكنيسة التي في أورشليم فتشتت الإخوة جميعاً في نواحي اليهودية و السامرة و لم يبق في أورشليم إلا الرسل / و أما استفانوس فقد دفنه بعض الرجال الأتقياء و ناحوا عليه كثيراً / أما شاول فكان يحاول إبادة الكنيسة فيذهب من بيت إلى بيت و يجر الرجال و النساء و يلقيهم في السجن]** (أعمال الرسل ٨ / ١ - ٤) .

و لم يكتف خصوم الكنيسة بمحاربة أتباعها في أورشليم فقط بل تخطوا ذلك إلى المناطق المجاورة و كل مكان يعرفون أنهم موجودون فيه . و في هذه النقطة بالذات ، انتقلت الحكمة السلطانية المسيحة إلى موقع الدفاع و فقدان زمام المبادرة ، و أصبح مجال المناورة لديها محدود جداً . و وجدت نفسها في وضع حرج خصوصاً و أن خصومها قد نقلوا مكان المعركة إلى كل مكان يوجد لها أتباع فيه **[أما شاول فكان لا يزال يفور بالتهديد و القتل على تلاميذ الرب فذهب إلى رئيس الكهنة / و طلب منه رسائل إلى مجامع اليهود في دمشق لتسهل القبض على أتباع هذا الطريق من الرجال و النساء حيثما يجدهم ليسوقهم مقيدين إلى أورشليم]** (أعمال الرسل ٩ / ١ – ٢) .

و أمام هذا الوضع المتأزم و الذي وجدت فيه الحكمة السلطانية المسيحية نفسها محاصرة ، و إمكانياها قد أضحت محدودة ، تدخلت الحكمة الإلهية المسيحية لتعيد الأمور إلى نصابها و تغير الموقف رأساً على عقب . و إذا أدركت (حسب ما نستنتج) أنه يجب تطعيم الكنيسة من عناصر خارجية و من خارج أتباعها ، لجأت إلى استهداف القوة الضاربة و اليد اليمنى

للحكمة السلطانية المناوئة للكنيسة ألا و هو شاول ، فلم تخرجه من ساحة المعركة أو تحيّـده ، بل عملت على ضمه و تغيير موقفه من الكنيسة بزاوية / ١٨٠ / درجة ليصبح بذلك من أتباع الكنيسة و من المتحمسين لها . و حسب الإنجيل فإن هذه الحكمة قد استهدفته منفردة فيه و هو في طريقه إلى دمشق لمحاربة الكنيسة حيث جاء **[و فيما هو منطلق إلى دمشق و قد اقترب منها ، لمع حوله فجأة نور من السماء / فوقع إلى الأرض و سمع صوتاً يقول له شـاول .. شاول .. لماذا تضطهدني ؟ / فسأل من أنت يا سيد ؟ فجاءه الجواب أنا يسوع الـذي أنـت تضطهده ، صعب عليك أن ترفس المناخس / فقال و هو مرتعد يا رب ماذا تريد أن أفعـل ؟ فقال له الرب قم و ادخل المدينة فيقال لك ما يجب أن تفعله / و أما مرافقو شـاول فوقفـوا مذهولين لا ينطقون فقد سمعوا الصوت و لكنهم لم يروا أحداً / و عندما نهض شاول عـن الأرض فتح عينيه فوجد أنه لا يبصر فاقتادوه بيده و أدخلوه إلى دمشق / حيث بقي ثلاثـة أيام لا يبصر و لا يأكل و لا يشرب]** (أعمال الرسل ٩ / ٣ – ٩) .

لقد تدخلت الحكمة الإلهية المسيحية في نهاية المطاف ، فقامـت بعمليـة جراحيـة و ضـربة هجومية وقائية . و لكنها بالرغم من ذلك ، كانت متأنية في عملها هذا و غير متسرعة . فقـد انتظرت حتى تراكمت الأحداث و الوقائع ، و نضجت الأمور ، فقامت بحركة سريعة خاطفـة كان لها أثرها الإيجابي جداً لأتباع الكنيسة ، و السلبي لمناوئيها و خصومها . فكانت تلك نقطة تطور هامة في تاريخ الكنيسة كلها ، حيث انضم شاول إليهـا و صـار مـن أتبـاع يسـوع المتحمسين و المخلصين ، و قام بتغيير اسمه من شاول إلى بولس و بدأ بالدعوة إلى المسيحية .

و لكن هذه الحركة أيضاً ، استلزمت أن تصبح الكنيسة أكثر تنظيماً و تعقيداً في الوقت نفسه ، و أكثر اندماجاً بالواقع الحياتي و الاجتماعي ، حيث بدأت تأخذ الواقع الاجتماعي بكل تعقيداته

و إرهاصاته إلى جانب الطابع الروحي الديني . و في الوقت نفسه بدأت تجد لها موطئ قدم في مناطق عدة . و يبدو و الحالة هذه أن مفهوم الكنيسة قد بدأ يأخذ طابعاً تنظيمياً و شكلاً من أشكال الإدارة المحلية أو المركزية لكل منطقة و إن كان لا يزال محافظاً على شكله المعنوي الاعتباري حيث جاء في الإنجيل [**و في أثناء ذلك كانت الكنيسة في مناطق اليهودية و الجليل تتمتع بالسلام ، و كانت تنمو و تسير في تقوى الرب بمساندة الروح القدس**] (أعمال الرسل ٩ : ٣١) . علاوة على ذلك فإن الكنيسة بدأت تأخذ أيضاً شكل الواسطة بين الله و بين بني البشر [**أما الكنيسة فكانت ترفع الصلاة إلى الله من أجله**] (أعمال الرسل ١٢ : ٥) . و لم يقتصر الأمر على ذلك فقط حيث بدا أن تلك العملية كانت نقطة الانطلاق إلى المرحلة التالية من المشروع المسيحي ألا و هي بداية الانتشار الفعلي و ضم أتباع جدد من خارج اليهود حيث كان الأمر في البداية مقتصراً على اليهود فقط . و يبدو أن هذا الأمر كان يلقى معارضة من قبل اليهود المسيحيين ، فعندما عمّد بطرس أشخاصاً من غير اليهود ، اعترض عليه بعض الرسل و غيرهم ، فأخبرهم بوجوب ذلك و بأمر من الحكمة الإلهية [**و سمع الرسل و الأخوة في اليهودية أن غير اليهود أيضاً قبلوا كلمة الله / فما إن عاد بطرس إلى أورشليم حتى جادله دعاة الختان و عارضوه قائلين / كيف دخلت بين رجال غير مختونين و أكلت معهم / فشرح لهم بطرس ما حدث على التوالي / ... / فإن كان الله قد ساواهم بنا فأعطاهم الهبة التي أعطانا إذ آمنا بالرب يسوع المسيح فمن أكون أنا حتى أعيق الله ؟ / فلما سمع المعارضون هذا سكتوا و مجدوا الله قائلين إذاً قد أنعم الله أيضاً على غير اليهود بالتوبة لنوال الحياة**] (أعمال الرسل ١١ / ١ – ١٨) . و يبدو لنا أيضاً و حسب الإنجيل ، أن هؤلاء الذين دخلوا في الدين الجديد و الذين لم يكونوا من أورشليم ، قد بدأوا يبشرون لغير اليهود [**أما المؤمنون الذين تشتتوا بسبب الاضطهاد الذي دفع عليهم بعد**

موت استفانوس ، فمروا بفينيقية و قبرص و انطاكية و هم لا يبشرون بالكلمة إلا اليهـود / غير أن بعضاً منهم و هم أصلاً من قبرص و القيروان وصلوا إنطاكيـة أخـذوا يبشـرون اليونانيين أيضاً بالرب يسوع / فكانت يد الرب معهم . فآمن عدد كبير و اهتدوا إلى الـرب] (أعمال الرسل ١١ / ١٩ – ٢١) .

لقد أدركت الحكمة السلطانية المسيحية أنه لا يمكن للمسيحية الانتشار و التبشير بها في العـالم أجمع إلا بالخروج من البوتقة اليهودية و الخروج من حالة الاقتصار بالتبشير على اليهود فقط . و لعلها استمدت قرارها هذا من أوامر إلهية تلقاها بطرس عن طريق رؤيا حصـلت لـه ، عندما قال لمحاوريه المعترضين على ذلك " إن الله قد ساواهم بنـا " . و يلاحـظ أيضـاً أن العنصر القومي أو العرقي قد لعب دوره في هذا المجال ، حيث أخذ اليونـانيون و القبارصـة الذين تعمدوا و تلقوا البشارة و الكلمة .. أخذوا يبشرون بين أبناء جلدتهم . و لكن و بالأحوال كافة ، فإننا نصل إلى النتيجة التالية و هي أن هناك قراراً اتخـذ بتـدويل و عولمـة الـدين المسيحي ، و الانتقال من حالة المسيحية اليهودية ، إلى المسيحية المحضـة فقـط . و لكـن يتوجب علينا لزاماً القول هنا إنه لم يكن بالإمكان تهيئة الظروف و العوامل النفسية و الروحية و الاجتماعية و التنظيمية التي تحصلت عليها الكنيسة للانتقال إلى العالمية ، لـولا الحالـة و الظروف السابقة الذكر التي أنشأتها و خلقتها حالـة المسـيحية اليهوديـة ، أي أن المسـيحية العالمية نشأت من مفهوم المسيحية اليهودية و هي مدينة لها بذلك .

لقد قلنا في البداية إن بطرس بعد خلافته الاعتبارية ليسوع ، عمل على تركيـز جهـوده فـي الدعوة و التبشير بين أبناء جلدته من اليهود . بل و حتى إن يسوع ربما قد فعل الشيء نفسـه عندما قال لتلاميذه أن يتعاملوا في البداية مع اليهود **[هؤلاء الإثنا عشر رسولاً أرسلهم يسوع و قد أوصاهم قائلاً إلى طريق أمم لا تمضوا و إلى مدينة السامريين لا تدخلوا / بل اذهبـوا**

بالأحرى إلى الخراف الضالة إلى بيت إسرائيل] (متى ١٠ : ٥) . و عندما طلبت منه إحدى النساء الكنعانيات ، المعونة لشفاء ابنتها من مرض أصابها ، تردد بادئ الأمر و أجابها قائلاً **[ما أرسلت إلا إلى الخراف التائهة .. إلى بيت إسرائيل]** (متى ١٥ : ٢٤) و عبارة " ما أرسلت " يدل على أن هناك حكمة إلهية من وراء ذلك و هي التي أرادت لهذا الأمر أن يتم في البداية . و كيفما كان الأمر فإن الغاية منه كانت في البداية إنشاء قاعدة يهودية للدين المسيحي تكون هي الأساس في حمل لوائه ونشره بين الأمم . و يبدو أن هذا الأمر قد لاقى القبول في الأوساط اليهودية ، و بخاصة أنه كان مالوفاً و شائعاً بينهم حيث ظهر أنبياء كثر من إسرائيل حاولوا إدخال بعض التعديلات و الإصلاحات على الطائفة . و هذا كله ارتبط بمشروع قيام مملكة إسرائيل سواء من حيث الرفض أو القبول .

في البداية لاقى مشروع يسوع قبولاً في هذه الأوساط . و لكن هذا القبول جاء مشروطاً بأن يصبح الرجل " ملك اليهود " و يدير دفة القيادة للقيام بثورة تعيد مملكة إسرائيل ، فأعطي بذلك الضوء الأخضر . و لكن عندما بدا أنه (أي يسوع) يرى نفسه غير معني بهذا الأمر ، تم سحب الغطاء عنه ، و لكنه كان قد استقطب العديد من اليهود الذين أصبحوا من تلامذته و أتباعه ، فكانوا النواة الأولى و الأساس للديانة المسيحية أو ما يسمى بالمسيحية اليهودية ، إذاً نستطيع القول إنه في البداية كان هناك نوع من الشراكة بين ثلاثة حكم .. حكمة إلهية و حكمة سلطانية يهودية و حكمة سلطانية مسيحية . و لكن عندما اتضح أن مشروع قيام مملكة إسرائيل غير مدرج ضمن خطة أو بنود هذه الشراكة ، انسحبت الحكمة السلطانية اليهودية بهدوء من هذا المشروع لتتقلب عليه فيما بعد . و بالرغم من كل ذلك فإنه لم تنتفِ الحاجة إلى العنصر اليهودي في هذا المشروع لأن الحاجة على ما يبدو كانت ماسة إليه . و لهذا فقد تم

الإبقاء عليه و زيادته و لكن من دون حكمة سلطانية خاصة به ، بل حتى جرى تتبيعه إلى الحكمة السلطانية المسيحية التي تمثلت آنذاك بيسوع و من ثم بطرس .

و عندما تعرضت الحكمة السلطانية الممثلة بالكنيسة في عهد بطرس ، إلى الخطر و الضعف و التضعضع ، جرى الاستعانة أيضاً بالعنصر اليهودي مرة أخرى و الذي تمثل بشاول الذي أصبح بولس فيما بعد ، و هذا الأمر تم أيضاً بواسطة الحكمة الإلهية .

و نلاحظ أيضاً في الإنجيل في قسم أعمال الرسل ، أن الحكم السلطانية المسيحية كانت تلجأ في محاولات الدفاع عن نفسها ضد خصومها من كهنة الهيكل أو الفريسيين أو في مناقشاتهم معهم ، كانت تلجأ إلى التوراة و الكتب اليهودية ، فكان الرسل الذين يتعرضون للاعتقال أو المحاكمة ، يبدؤون خطبهم مع مناظريهم أو محاوريهم ، بإلقاء شيء من التاريخ اليهودي على مسامعهم و بطريقة توحي للسامع أنهم يهود . فعظة بطرس الأولى في الإنجيل ، جاءت في الأساس خطاباً لليهود [**فوقف بطرس مع الرسل الأحد عشر و خاطب الحاضرين بصوت عال و قال أيها اليهود و يا جميع المقيمين في أورشليم أصغوا إلى كلامي لتعلموا حقيقة الأمر**] (أعمال الرسل ٢ : ١٤) و في موضع آخر من الخطبة نفسها خاطبهم قائلاً [**فيا بني إسرائيل اسمعوا هذا الكلام**] و في مناسبة اخرى خاطب اليهود أيضاً معلناً أن إله إسرائيل هو نفسه إله يسوع أو الأب الذي في السماوات و هو الذي يهب المعجزات ، حين قال لهم [**يا بني إسرائيل لماذا تتعجبون مما حدث و لماذا تحدقون إلينا كأننا بقدرتنا أو بتقوانا جعلنا هذا الرجل يمشي / إن إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب إله آبانا قد مجد فتاه يسوع**] (أعمال الرسل ٢ : ١٢) .

و عندما تم القبض على استفانوس و هو من أنصار الكنيسة المتحمسين و الذي تـم اختبـاره بعناية من قبل الرسل ، و وصفه الإنجيل بأنه مملوء بالإيمان و التقـوى و يعمـل عجائـب و معجزات عظيمة بين الشعب ، وقف أمام محاكميه من الكهنة و أجاب عن أسئلتهم بـأن تكلـم عن التاريخ المدون في العهد القديم أو التوراة معتبراً أن إله إسرائيل هو إلـه يسـوع أو إلـه الكنيسة ، و معتبراً محاكميه بمنزلة أخوة و آباء له . و قد ابتدأ مرافعته بأن قال [**ايها الأخوة و الآباء اسمعوا ، ظهر إله المجد لأبينا إبراهيم و هو في بلاد ما بين النهرين قبل أن يرحـل ليسكن في حاران / و قال له اترك ارضك و عشيرتك و ارحل إلى الأرض التي أرشدك إليها**] (أعمال الرسل ٧ : ١) ليتابع بعد ذلك سرد الأسفار الأولى من العهد القـديم أمـامهم . و يبدو أنه كان عطوفاً عليهم حتى و هم يرجمونه حيث خاطب ربه قائلاً " يـا رب لا تحسـب عليهم هذه الخطيئة " .

من خلال مطالعتنا للكتاب المقدس بعامة و العهد الجديد بخاصة ، نرى أن الخـلاف الأسـاس الذي حصل بين الحكمة السلطانية اليهودية و الحكمة السلطانية المسـيحية و القطيعـة التـ ي حصلت بينهما ، كان سببه المباشر و بالدرجة الأولى هو مملكة إسرائيل ، أي انه كان خلافـاً سياسياً و فحوى مضمونه هو تمسك الحكمة الأولى بالعهد القديم عهد إله إسرائيل لشعبه بقيـام مملكة إسرائيل و إعطائهم الأرض الموعودة ، و تمسك الحكمة الثانية بالعهد الجديد الذي هـو عهد عالمي . لقد عملت المسيحية اليهودية على محاولة التوفيق بين العهـد القـديم و العهـد الجديد ، و لكن المشكلة الرئيسة و العقبة الكأداء التي كانت تقف في وجهها ، تمثلت بـأمرين اثنين .. **مملكة إسرائيل ، و اعتبار المسيح ابن الله أو الله** . و نلاحظ في الإنجيل أن الجمهور الذي كان يحضر محاكمة استفانوس ، ظل يتابع محاضرته بعين الرضا و الهـدوء و هو يسرد عليهم تاريخ بني إسرائيل في العهد القديم ، معترفاً بكل ما جاء فيه و بإله إسرائيل ،

حتى وصل إلى يسوع و عده ابن الله أو في مرتبة الله [**فلما سمع المجتمعون كلام استفانوس ملأ الغيظ قلوبهم و أخذوا يصرون بأسنانهم توعداً / فرفع استفانوس نظره إلى السماء و هو ممتلئ من الروح القدس ، فرأى مجد الله و يسوع واقفاً عن يمين الله / فقال إني أرى السماء مفتوحة و ابن الإنسان واقفاً عن يمين الله / فصاحوا صياحاً عظيماً شديداً و سدوا آذانهم و هجموا عليه هجمة واحدة / و دفعوه إلى خارج المدينة و أخذوا يرجمونه بالحجارة**] (أعمال الرسل ٧ / ٥٤ – ٥٨) .

و لعل صعوبة حل هذه المشكلة المستعصية ، كان أحد الأسباب التي حدت بالحكمة السلطانية المسيحية إلى التفكير أنه آن الأوان للاتجاه نحو العالمية و بداية العمل من أجل نشر المسيحية . و يبدو أن مجادلة بولس الأخيرة مع بعض اليهود ، كانت بمنزلة الإعلان عن بداية هذا المشروع حيث حذر هؤلاء من أن مشروع العولمة المسيحية أو المسيحية العالمية آت لا محالة و قد بدأ العمل به [**فخاطبهم بولس و برنابا بجرأة قائلين كان يجب أن نبلغكم أنتم أولاً كلمة الله و لكنكم رفضتموها فأظهرتم أنكم لا تستحقون الحياة الأبدية و ها نحن نتوجه إلى غير اليهود / فقد أوصانا الرب قائلاً قد جعلتك نوراً للأمم لتكون سبيل خلاص إلى أقصى الأرض / فلما سمع غير اليهود ذلك فرحوا جداً و مجدوا كلمة الرب و آمن جميع من أعدهم الله للحياة الأبدية / و هكذا انتشرت كلمة الرب في المنطقة كلها**] (أعمال الرسل ١٣ / ٤٦ – ٤٩) .

لقد كان هذا إعلاناً واضحاً عن الانتقال من مرحلة المسيحية اليهودية إلى المسيحية العالمية أو العهد الجديد . و جاءت عبارة بولس " ها نحن نتوجه إلى غير اليهود " لتؤكد هذا الانتقال و تؤسس لبداية الانطلاق لهذا المشروع . و يبدو أنه كان هناك انتظار طال أمده لهذا المشروع من قبل بعضهم و ذلك من عبارة " فلما سمع غير اليهود ذلك فرحوا جداً " .

لقد كانت الظروف و الأحداث كلها تسير نحو المسيحية العالمية . و كان هناك أتباع من غير اليهود قد دخلوا في المسيحية و أصبح لهم كلمتهم . و كان الأمر أشبه بالمفاوضات الشاقة بين الحكمتين الدينيتين انتهت إلى الفشل و ترسيخ ما يسمى بالعهد القديم و العهد الجديد اللذين هما بين أيدينا الآن ، بين دفتي الكتاب المقدس ، لتبدأ بعد ذلك عملية فك الارتباط بين هاتين الحكمتين . و لكن فك الارتباط هذا لم يكن بالأمر الهين و السهل حيث كان المفهومان المسيحي و اليهودي متداخلين بعضها مع بعض بشكل لا بأس به و بخاصة من الجانب المسيحي . وربما توضح لنا الفقرات التالية قوة هذا الترابط و المشاكل التي نشأت حول فكه [**و جاء بعض اليهود الذين كانوا قد آمنوا بالمسيح من منطقة اليهودية إلى إنطاكية و أخذوا يعلمون الأخوة قائلين لا يمكنكم أن تخلصوا ما لم تختتنوا حسب شريعة موسى / فجادلهم بولس و برنابا جدالاً عنيفاً . و بعد المناقشة قرر مؤمنو إنطاكية أن يذهب بولس و برنابا مع بعض المؤمنين ليقابلوا الرسل و الشيوخ في أورشليم و يبحثوا معهم هذه القضية / و بعدما ودعتهم الكنيسة سافروا إلى أورشليم مروراً بمدن فينيقية و السامرة مخبرين الأخوة فيها بأن غير اليهود أيضاً قد اهتدوا إلى المسيح فأشاعوا بذلك فرحاً كبيراً بين الأخوة جميعاً / و لما وصلوا إلى أورشليم رحبت بهم الكنيسة بمن فيها من رسل و شيوخ فأخبروهم بكل ما فعل الله بواسطتهم / و لكن بعض الذين كانوا على مذهب الفريسيين ثم آمنوا وقفوا و قالوا يجب أن يختتن المؤمنون من غير اليهود و يلزموا أن يعملوا بشريعة موسى / فعقد الرسل و الشيوخ اجتماعاً لدراسة هذه القضية . و بعد نقاش كثير وقف بطرس و قال أيها الأخوة انتم تعلمون انه منذ مدة طويلة شاء الله أن يسمع غير اليهود كلمة البشارة على لساني و يؤمنوا / و قد شهد الله العليم بما في القلوب على قبوله لهم إذ وهبهم الروح القدس كما وهبنا إياه / فهو لم يفرق بيننا و بينهم في شيء إذ طهر بالإيمان قلوبهم /**

فلماذا تعارضون الله فتحملون تلاميذ الرب عبئاً ثقيلاً عجز الآباء و عجزنا نحن عن حمله ؟ فنحن نؤمن بأننا نخلص كما يخلصون هم بنعمة الرب يسوع / عندئذ توقف الجدال بين الحاضرين و أخذوا يستمعون إلى برنابا و بولس و هما يخبرانهم بما أجراه الله بواسطتهما من علامات و عجائب بين غير اليهود / و بعد انتهائهما من الكلام قال يعقوب / استمعوا لي أيها الأخوة . أخبركم سمعان كيف تفقد الله منذ البداية غير اليهود ليتخذ من بينهم شعباً يحمل اسمه / و توافق هذا مع أقوال الأنبياء و كما جاء في الكتاب / سأعود من بعد هذا و أبني خيمة داؤود المنهدمة ثم أقيم أنقاضها و أبنيها من جديد / لكي يسعى إلى الرب باقي الناس و جميع الشعوب التي تحمل اسمي يقول الرب فاعل هذه الأمور / المعروفة لديه منذ الأول / لذلك أرى أن لا نضع عبئاً على المهتدين إلى الله من غير اليهود / بل نكتب إليهم رسالة نوصيهم فيها بأن يمتنعوا عن أكل الذبائح النجسة المقربة للأصنام و عن ارتكاب الزنى و عن تناول لحوم الحيوانات المخنوقة و عن الدم / فإن لموسى منذ القدم أتباعاً في كل مدينة يقرؤون شريعته و يبشرون بها في المجامع كل سبت / عند ذلك أجمع الرسل و الشيوخ و الجماعة كلها على اختيار رجلين من الأخوة يرسلونهما إلى إنطاكية مع بولس و برنابا فاختاروا يهوذا الملقب برسابا و سيلا و كان لهما مكانة رفيعة بين الأخوة و سلموهم هذه الرسالة] (أعمال الرسل ١٥ / ١ – ٢٣) .

من الفقرات السابقة نستطيع إدراك أبعاد و مفهوم المسيحية اليهودية التي كانت تنظر إلى يسوع و تعاليمه على أنها امتداد للتعاليم اليهودية ، و إلى أن هذه الفئة من الأتباع كانت ترى في يسوع أحد أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يظهرون من حين لآخر و يطالبون بإصلاحات اجتماعية و دينية في الطائفة . و ما نلاحظه أيضاً في تلك الفقرات ، هو أن الموافقة جاءت أخيراً و بعد نضال و نقاش و جدال عنيف و صعب ، تم خلاله بالكاد انتزاع هذه الموافقة التي

على ما يبدو و حسب الفقرات السابقة نفسها ، جاءت مشروطة بالتقيد ببعض شرائع موسى و التي حسب ما يفهم من العهد الجديد ، كانت تعبر عن التماهي و التوافق الذي كان يعتمده يسوع المسيح مع أنبياء بني إسرائيل و ذلك من مقولة الإنجيل " ما جئت لأنقض الشريعة " . و ابتداء من هذه النقطة ، تم البدء بمشروع العهد الجديد و القيام به و تصديره للخارج إلى العالم الذي كان في تلك الفترة تابعاً للإمبراطورية الرومانية . و تم الانفصال بين المسيحية و اليهودية . و هنا أيضاً و عند هذه النقطة بالذات أخذ الصراع يتحول تدريجياً من صراع بين الكنيسة و الكهنة اليهود ، إلى صراع بين الكنيسة و الدولة الرومانية ، حيث أخذ الطرف اليهودي يختفي ليحل محله طرف روماني تمثل بالسلطة المركزية الرومانية و بالدولة الرومانية نفسها ، أي أنه صراع تحول من صراع ديني – ديني ، إلى صراع ديني – سياسي . و لكنه هنا تحول إلى صراع أكثر عنفاً و أكثر شراسة و وحشية . وبدأت الحكمة السلطانية الدينية اليهودية تخرج من دائرة الصراع بهدوء كما خرجت من دائرة الشراكة سابقاً بهدوء ، لتدخل الحكمة السلطانية الرومانية بكل قوتها و عنفوانها و عظمتها و جبروتها ، لتدير الصراع بينها و بين الحكمة السلطانية المسيحية المتمثلة بالكنيسة .

و منذ أن بدأ الرسل بالانتقال إلى المناطق و المدن الخارجية ، أي خارج سورية الطبيعية ، و وضعوا أنفسهم فوراً على خط المواجهة المباشرة أمام السلطة الرومانية و مع السلطات الدينية الممثلة لآلهة تلك المدن . و لكن المواجهة الفعلية و الأساس ، كانت مع السلطة الرومانية . و كان أول مسرح للصراع ، هو مدينة مقدونية التي توجه إليها بولس في أول بداية فعلية للتبشير المسيحي العالمي . و حسبما جاء في الإنجيل فإن بولس قد ظهر له رجل في رؤيا و طلب منه الذهاب و التبشير في مقدونية التي وصفها الإنجيل بأنها " كبرى مدن مقاطعة مقدونية و مستعمرة اليونان " فاتجه بولس و تلميذه (سيلا) إلى هناك و بدأا

بالاحتكاك مع الأهالي و التبشير يبسوع المسيح . و ظهرت المشكلة عندما أتت إليهم عرافة كانت تدر على أسيادها مالاً كثيراً من مهنة العرافة و طلبت منهم تخليصها من مس و روح فيها ، فشفاها بولس و تعمدت تلك المرأة و انقطعت عن مهنتها و حسب الإنجيل **[لما رأى ساداتها أن مورد رزقهم قد انقطع ، قبضوا على بولس و سيلا و جروهما إلى ساحة المدينة للمحاكمة / و قدموهما إلى الحكام قائلين هذان الرجلان يثيران الفوضى في المدينة فهما يهوديان / يناديان بتقاليد لا تجوز لنا نحن الرومانيين أن نقبلها أو نعمل بها / فثار الجمع عليهما و مزق الحكام ثيابهما و أمروا بجلدهما / فجلدوهما كثيراً و ألقوهما في السجن]** (أعمال الرسل ١٦ / ١٩ – ٢٣) .

يتضح من ذلك أن هذا الصدام كان لأمر اجتماعي و هو لا يزال حتى الآن بالرغم من أنه صراع مسيحي – روماني ، إلا أنه كان صراعاً دينياً – دينياً لعب العامل الاقتصادي و الاجتماعي دورهما فيه و لذلك تدلنا الفقرات التالية من السفر نفسه أن الحاكم الروماني قد أطلق سراح بولس و رفيقه بعد ذلك ، ليذهبا و يبشرا في مدينة أخرى و بخاصة بعد أن علم أنهما يحملان الجنسية الرومانية . مما يدلل على مدى استفادة الرسل من مفهوم العولمة و المواطنة العالمية الذي كانت الإمبراطورية الرومانية تتبناه ، و يتضح لنا أيضاً أنه حتى و إن انفصلت المسيحية عن اليهودية ، فإنها كانت لا تزال في أعين الناس في المناطق الأخرى نوعاً من اليهودية ، و ذلك حين عد السكان بولس و رفيقه يهوديين و نظرا إلى تعاليمهما على أنها يهودية . و يتضح لنا أيضاً بعد هذه الحادثة أن هذا الصراع المسيحي – الروماني المصغر ، لم يلفت انتباه الإمبراطورية الرومانية أو الحكمة السلطانية الرومانية التي كان مجال نظرها واسعاً على امتداد إمبراطورية هائلة شاسعة مترامية الأطراف ، فلم تأخذه حسبما يبدو على محمل الجد ، و الأرجح أن سبب ذلك هو أنها كانت لا تزال تنظر إلى

المسيحية على أنها حركة يهودية داخلية . و الذي ساعد على هذا الأمر هو أن بعض اليهـود في المناطق البعيدة عن المركز ، أي أورشليم ، كانوا لا يزالون يرون المسيحية عدوة لهم . و تبعاً لذلك فإنه عندما ذهب بولس من مقدونية إلى مدن المناطق المجاورة كتسالوني و بولونيـة و بيريه و من ثم أثينة اليونانية نفسها و كورنثة القربية من رومة ، بدأت المشاكل بينه و بـين بعض اليهود . و لعل الفقرات التالية من السفر السابق التي تذكر حادثة كورنثة بين بـولس و جماعة من اليهود ، توضح الأمر جيداً **[ولما كان الحاكم الروماني غاليون يتولى الحكم على بلاد أخائية تجمع اليهود ضد بولس برأي واحد وساقوه الى المحكمة واشتكوا علية قـائلين هذا الرجل يحاول إقناع الناس بأن يعبدوا الله بطريقة تخالف شريعتنا / وكاد بولس أن يبـدأ دفاعه لولا أن غاليون قال لليهود أيها اليهود لو كانت القضية جريمة أو ذنباً لكنت احتملتكم كما يقضي العدل / و لكن ما دامت القضية جدلاً في ألفاظ و أسماء في شريعتكم فعلـيكم أن تعالجوها بأنفسكم . أنا لا أريد أن أحكم في هذه القضايا / ثم طردهم من المحكمة]** (أعمال الرسل ١٨ / ١٢ – ١٦) .

من الواضح أن السلطة الرومانية كانت تنظر إلى الحالة المسيحية الجديدة على أنهـا ظـاهرة يهودية قام بها أحد أنبياء بني إسرائيل مثل بقية الأنبياء الذين كانوا يسـبقونه و مثلـوا لـدى رؤسائهم و شيوخهم ، طفرات دينية ما لبث أن خبا بريقها و يبدو أن الرومـان قـد أصـبحوا بحكم خبراتهم مع الشعوب و حكمهم لهم فترات طويلة ، قد أصبحوا معتادين على هذا الأمر . و هذا ما يفسر لنا ذلك الموقف الطريف الذي ورد بالإنجيل حين تهيأ بولس للدفاع عن نفسـه بخطاب طويل مسهب من المؤكد أنه شحذ له كل قواه الفكرية ، و لكـن الحـاكم الرومـاني اختصر عليه الطريق و أراحه من هذا العناء و قام هو بالمرافعة بدلاً عنـه . و ربمـا نجـد لأنفسنا سبيلاً آخر للتفسير إذا اعتبرنا أن السلطات الرومانية كانت تدرك أبعاد الديانة المسيحية

و الآثار و النتائج المترتبة عليها بالنسبة للإمبراطورية الرومانية ، و لكنها كانت تأمل ربما في أن يتمكن اليهود من حل هذه المعضلة المستعصية بأنفسهم و يريحوهم من عناء ذلك ، و بخاصة و أن الرومان قد صلبوا يسوع بالأمس القريب ، بالإضافة إلى أن الجنسية الرومانية كانت ورقة رابحة بيد بولس الذي كانت يستخدمها عند أي خطر يتعرض له من قبل الرومان ، و هي ورقة كانت حسب الإنجيل ، ذات مفعول قوي جداً لدرجة أنها منعت عنه أي أذى من قبل الرومان و غالباً ما كانت تؤدي إلى إطلاق سراحه و رفيقه .

استمر الأمر على هذا المنوال حتى وصل بولس و رفيقه إلى مدينة أفسس حيث بدأت على ما يبدو الشرارة الأولى الفعلية بين المسيحية و الدولة الرومانية و تمثلت هذه الشرارة باضطراب خطير و صدام كبير وقع بين سكان المدينة و بولس و أتباعه من المدينة نفسها ، فحسب ما جاء في الإنجيل [**في تلك المدة وقع اضطراب خطير في أفسس بسبب الطريق / فإن صائغاً اسمه ديمتريوس كان يصنع نماذج فضية صغيرة لمعابد الآلهة أرطاميس ، فيعود ذلك عليه و على عماله بربح وفير / دعا عماله و أهل مهنته و قال لهم تعلمون أيها الرجال أن عيشنا الرغيد يعتمد على صناعتنا هذه / و قد رأيتم و سمعتم أن بولس هذا أضل عدداً كبيراً من الناس لا في أفسس وحدها بل في مقاطعة آسية كلها تقريباً و أقنعهم بأن الآلهة التي تصنعها الأيدي ليست بآلهة / و هذا لا يهدد صناعتنا بالكساد فحسب بل يعرض معبد أرطاميس آلهتنا العظمى لفقدان هيبته ، فنخشى أن تتلاشى كرامتها و تنهار عظمتها و هي التي يتعبد لها سكان آسيا جميعاً بل العالم / فلما سمع العمال هذا الكلام منه تملكهم الغضب و بدؤوا يصرخون .. عظيمة أرطاميس إلهة أهل أفسس / و عم الاضطراب المدينة كلها و هجم حشد كبير من الناس على غايوس و أرسترخس المقدونيين رفيقي بولس في السفر و جروهما إلى ساحة الملعب / و أراد بولس أن يواجه الجمهور و لكن التلاميذ منعوه من ذلك**

/ كما أرسل إليه أصدقاؤه من وجهاء آسية يرجون منه أن لا يعرض نفسه لخطر الذهاب إلى الملعب ... / و كان بين الجمهور يهودي اسمه إسكندر دفعه اليهود إلى الأمام و دعاه بعضهم إلى الكلام ، فاشار بيده يريد أن يلقي خطبة على الشعب كلمة دفاع / و لكن المحتشدين عرفوا أنه يهودي فأخذوا يهتفون معاً هتافاً واحداً ظلوا يرددونه نحو ساعتين : عظيمة أرطاميس إلهة أفسس] (أعمال الرسل ١٩ / ٢٣ – ٣٤) .

لقد استشعرت السلطة الدينية الإغريقية الخطر القادم إليها من الشرق و المتمثل بالمسيحية الوافدة إلى أوروبة و آسيا ، و أدركت أنها مهددة بالزوال إذا استفحلت هذه الدعوة ، بعد أن كثر أتباعها . و إدراكها لهذا الخطر الذي كان نابعاً من أن المسيحية سوف تنافسها عالمياً و أنها على ما يبدو كانت ديانة عالمية و ذلك من مقولة الرجل العقل المدبر لهذه التظاهرة ضد بولس و أتباعه حيث قال للمتظاهرين إن الآلهة أرطاميس يتعبد لها في العالم كله . و لسبب ما هذه المرة وقف اليهود إلى جانب أندادهم المسيحين ، ربما لأنهم كانوا يحاربون آلهة غريبة عنهم و تهدد مكانتهم هم أيضاً .

ينجو بولس مرة أخرى و يغادر المدينة متجهاً إلى كورنثة مرة أخرى و من هناك إلى أورشليم حيث كان ينتظره هناك مشروع محاكمة و تصفية ، لم ينقذه منهما سوى جذ سيته الرومانية و مرافعاته الخطابية الدفاعية التي كانت تأسر العقول و الألباب في بلاغتها . و مع ذلك لم يفلت من خصومه و مناوئيه بشكل كامل حيث زج به في السجن لمدة سنتين حظي خلالهما بمعاملة غير سيئة من الرومان . و لكن حين كثرت الدسائس و المؤامرات حوله لقتله و أحس بالخطر الداهم ، لعب ورقة الجنسية الرومانية للمرة الأخيرة و طلب نقله إلى رومة بصفته مواطناً رومانياً ليصار إلى محاكمته هناك و أمام القيصر الذي ذكرت بعض السجلات التاريخية أنه (لسوء حظه) كان نيرون . و في طريق سفره إلى رومة ، لم يكلّ بولس و لم

يمل في الدعوة و التبشير بيسوع و المسيحية . و عندما وصل إلى رومة ، وضع قيد الإقامة الجبرية في منزل خاص به و عومل و كأنه مواطن روماني له حق التصرف بأي شيء ما عدا الحرية التي كانت محدودة بالنسبة له . و هناك كان يؤمه الكثير من الزوار اليهود و غيرهم ، و كانت تحصل مناقشات حامية بينه و بينهم . و عندما وصل إلى المحاكمة أمام القيصر ، وجهت له تهمة غريبة و مفاجئة و هي " أنه كان يعمل ضد أحكام القيصر و يقول بوجود ملك عالمي آخر غير القيصر اسمه يسوع " . و كانت هذه التهمة في أعراف القوانين الرومانية آنذاك ، كافية لإنزال عقوبة الإعدام بحق المتهم .

و يبدو قوياً أيضاً أن السلطات الرومانية كانت في هذه النقطة بالذات قد اتخذت قرار محاربة المسيحية ، لأن التاريخ يذكر لنا أن بطرس قد حكم عليه بالموت أيضاً من قبل السلطات الرومانية و تم صلبه في العام نفسه الذي قتل فيه بولس و في المدة نفسها أيضاً ، حيث كان قد ذهب إلى رومة و أخذ يدعو و يبشر بالمسيح[١] . و بالفعل فإنه بعد هذه الحادثة ، نزلت السلطة الرومانية هذه المرة بكل ثقلها إلى ساحة المعركة و المواجهة المباشرة مع المسيحية و بدأت معها حرب تصفية دموية شرسة ، أدركت فيها أن المسيحية هي ليست حركة يهودية داخلية لا تلبث أن تنطفئ جذوتها و تذهب في غياهب النسيان كما تراءى لها .

و يبدو أيضاً أن السلطات الرومانية كانت تتوقع أن تقوم اليهودية بإقفال ملف المسيحية و حسم أمرها ، و لكن عندما أدركت أن الأمر لم يقفل على ما كانت تشتهي و تريد ، أدركت أن عليها التدخل هي بنفسها و بكل قوتها و لا بد لنا هنا أن نقول [٢] إن السلطة الرومانية المركزية على ما يبدو قد أدركت متأخرة مدى خطورة و تأثير المسيحية عليها ، و إنها

---

[١] قصة الحضارة ، المجلد /١١/ ، ص/٢٤٧/ .

[٢] ننوه في هذا الصدد إلى أننا نضع كل الاحمالات التحليلية القابلة للنقاش و الوجود كحالة تاريخية في كل مجالات بحث الكتاب ، حتى و لو كانت متناقضة في بعض الأحيان و قد يلاحظ القارئ ذلك . و لذلك وجب التنويه .

بالرغم مما فعلته و سوف تفعله من مجازر وحشية ، فإنها مـــن الناحيـــة التكتيكيـــة و لـــيس الإنسانية ، كانت في الموقف الدفاعي ، بينما المسيحية و بالرغم من كل ما تعرضت لـــه مـــن تنكيل و اضطهاد ، فإنها تكتيكياً كانت في موقع الهجوم و السبب هو أن التبشير وصـــل إلـــى عقر دار رومة نفسها . و قد قام عمودا المسيحية آنذاك ، بطرس و بـــولس ، بتنفيـــذ المهمـــة الملقاة على عاتقهما على أكمل وجه ، ليس ذلك فقط ، بل توج كل منهما نفسه بيسوع عنـــدما قتل كلاهما بالطريقة نفسها ... الأول و هو بطرس ، تلقى الأمرعياناً و مشاهدة من يســـوع و هو على وجه الأرض . و الثاني و هو بولس تلقى الأمر نفسه و لكن ليس عياناً بل خطاباً من السماء ، و كأنه كان سباقاً بين الاثنين للوصول إلى رومة التي على ما يبدو كانت هي هـــدف يسوع و الدين المسيحي .

و لقد وصل إليها بطرس بطريقة ما و هو حر طليق ، أما بولس الذي كان رهين الحبس فـــي أورشليم و دمشق ، فإنه لم يعدم الوسيلة إلى الوصول إلى رومـــة ، فلعـــب ورقـــة الجنســـية الرومانية لآخر مرة في رمية ناجحة صائبة عوضت عن كل الرميات السابقة حين طلـــب أن يحاكم أمام القيصر . و إننا على درجة قوية من الظن ، تقارب اليقين أنه لم يكن يأبه بنتيجـــة المحاكمة بقدر ما كان يريد تحقيق هدفه و هو الوصول إلى رومة ، إلى عش الدبابير نفســـه و التبشير فيه مهما كانت النتيجة و حتى لو أدت اللسعات التي ستنهال عليه ، إلى الموت الـــذي كان يتوقع حصوله في ظل حاكم طاغية مجنون هو نيرون . و يبقى بولس و طريقـــة حياتـــه التي عاشها و التي بشر فيها بين مختلف مدن العالم في طريقة عجيبة خارقـــة لا يمكـــن لأي إنسان أن يقوم بها متميزاً عن كل تلاميذ يسوع (مع احترامنا لهم جميعاً) ، كل ذلك يجعلنـــا نقول إن المسيحية العالمية مدينة لبولس في نشأتها و قيامتها ، بولس الطوربيد الجبـــار ، و أن الحكمة الإلهية كما جرت العادة ، لا تضع بيضها حيث يتوقع بني البشر .

لقد كان موت بولس و بطرس إيذاناً ببدء الحرب بين الكنيسة و روما . و حسب الوقائع و الأحداث التاريخية ، فإن الحرب على الكنيسة أو المسيحية من قبل الرومان ، قد جاءت في فترة حكم القيصر الروماني نيرون . و ربما أدركت الحكمة السلطانية المسيحية المتمثلة ببولس أن كل تبشيرها في كل مدن و مناطق آسية و أوروبا ، لا طائل منه ولا فائدة طالما أنها لم تصل إلى رومة .. رومة المركزو السيادة .. المركز الذي يضيء على العالم كله و يمثل بالنسبة له القلب الذي يضخ الدم في شرايينه منتشراً في أنحاء جسم الإمبراطورية كلها ليعود مرة أخرى إليه . و بمجرد دخول المسيحية إلى القلب ، تكون قد انتشرت في الجسم كله . و لذلك فعندما دخل بطرس و بولس ، رومة ، كل منهما بطريقته الخاصة و بدؤوا بالتبشير فيها ، أحست السلطة الرومانية العليا بالخطر ، و لكن بعد فوات الأوان و بعد أن بدأت الأعراض المسيحية تسري في دم و شرايين و أوردة الإمبراطورية ، و تظهر على جسمها و هيكلها الخارجي . و عندما بدأت السلطة الرومانية العمل ضد المسيحية ، ربما كان شيئاً من فوات الأوان قد بدأ يظهر أيضاً و في التاريخ[1] أن الحكومة الرومانية كانت في الغالب تتعامل مع الأديان الغير وثنية ، بشيء من التسامح ، فلم يكن يطلب من أرباب الشعائر الدينية سوى القيام ببعض اللفتات البسيطة التي تمجد الآلهة و الإمبرطور و لذلك فقد كانت السلطة الرومانية تنظر إلى اليهودية و المسيحية بشيء من الريبة ، كون هاتين الديانتين ترفضان إشراك أي شخص آخر مع الله . و مما زاد الطين بلة أنه ظهرت عادة عرفية جديدة في النظام الروماني و هي أنه يجب إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور كنوع من التدليل على الولاء للإمبراطورية الرومانية ، و أصبح هذا التقليد واجب التنفيذ على كل من يريد الحصول على المواطنية الرومانية . و جاء أيضاً مفهوم خضوع الدين للدولة في الأعراف

---

[1] قصة الحضارة ، ج/١١/ ، ص/٣٧٠/ .

الرومانية ليحدث إشكالاً خطيراً في هذا الموضوع ، فالكنيسة المسيحية كانت تـــرفض فكـــرة خضوع الدين للدولة و تعد أن عبادة الإمبراطور الروماني هي الشرك بعينه . و لـــذلك فقـــد أصدرت تعليمات صارمة بهذا الشأن إلى أتباعها طالبة منهم رفض هذه الأعراف مهما كانـــت الظروف و النتائج المترتبة على ذلك . و انطلاقاً من ذلك بدأت السلطة الرومانيـــة المركزيـــة تعتبر المسيحية حركة تعمل ضد النظام الروماني و الأعراف الرومانية الســـائدة . و يحـــدثنا ديورانت أن نوعاً من التفاهم و التعايش كان قائماً بين المسيحية و اليهودية من جهـــة و بـــين السلطة الرومانية من جهة أخرى ، حيث أعفا القانون الروماني في فترة من الفتـــرات اليهـــود من عبادة الإمبراطور و جرى ذلك على المسيحين في أول عهدهم لأنه على ما يبدو قد جرى اعتبارهم فرقة من اليهود . و لكن دخول المبشرين إلى رومة و في فترة الإمبراطور نيـــرون و مقتل الرسولين بطرس و بولس معاً ، قد فتح الشرارة الأولى للمعركـــة بـــين المســـيحـ ين و الدولة الرومانية .

لقد باشرت السلطة الحاكمة الرومانية عملها ضد المسيحيين مباشرة و بشكل مفاجئ ، فبـــدأت بمحاربتهم و قتلهم و إحراقهم و إلقائهم إلى الحيوانات المفترســـة كالســـباع ، لتلـــتهمهم فـــي الساحات العامة أمام جمهور غفير من المتفرجين و بحضور الإمبراطور أحياناً . و قد زجـــت السلطة الرومانية بكل قوتها في الحرب ضد المسيحيين ، فكانت تطـــاردهم و تلقـــي القـــبض عليهم أينما وجدوا وتمارس معهم القتل و التنكيل بلا هوادة في معركة بدا أنه لـــم يعـــد فيهـــا مجال للمناورة و الالتفاف و المسايرة من كل من الطرفين . و أصبحت معركة كسر عظـــام و حياة أو موت ، و أصبح كل طرف مكشوفاً للآخر تماماً . و لذلك فقد بدأ المسيحيون معركتهم هم أيضاً في صراع البقاء هذا ، وزجوا بأنفسهم و قواهم كلها فيها ، فأخذوا يهاجمون الســـلطة

الرومانية بالكلمة و يعدونها مصدر الفساد و الكفر و أنه سيحل بها العذاب و السقوط و التدمير .

و جاء في كتاب الرؤيا المنسوب للقديس يوحنا الذي يبدو أنه عاصر تلك الفترة ، هجوم عنيف على الدولة الرومانية و الحكام الرومانيين حيث وصف الإمبراطور الروماني نيرون بأنه الشيطان[٢] و بأن عهده هو عهد الشيطان و أنه لما خرج الشيطان و أتباعه على الله و غلبتهم الملائكة ، نزلوا إلى الأرض و تمثلوا بالرومانيين الوثنيين الذين يهاجمون المسيحيين . و تحدث الكتاب عن نيرون بأنه وحش و هو عدو المسيح و هو مسيح الشيطان مثلما يسوع هو مسيح الله . و أخذت رومة تظهر على أنها عدوة العالم ، و جرى وصفها بأنها " الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التي زنى معها ملوك الأرض و أنها زانية بابل و أن سكان الأرض قد سكروا من خمر زناها ، و أنها مصدر جميع الظلم و الفساد و الفسق و الوثنية و مركزها و قمتها "[٣] .

و يبدو سفر الرؤيا من خلال قراءته ، أنه قد جاء كرد فعل على كل ما يتعرض له المسيحيون من مصائب و ويلات . و قد حمل في طياته كل ردة الفعل المسيحية على هذه الضربة المؤلمة الرهيبة و المفاجئة من قبل الرومان ، فرد عليهم بكل التعابير و الصفات التي ربما كانوا يكنونها و يحملونها لرومة منذ أيام يسوع الأولى مروراً بصلبه و ما تعرضوا له بعد ذلك . و بدا هذا الكتاب و كأنه تفجير لكبت طال أمره و شعور ظل حبيساً فترة من الزمن اتسمت بالمداراة و المسايرة .

---

[٢] المصدر السابق .

[٣] المصدر السابق .

و الحقيقة أنه كما فوجئت السلطات الرومانية بالمسيحية تغزوها في عقـر دارهـا و تهـددها مباشرة ، فوجئت كذلك المسيحية بردة الفعل القوية و العنيفة عليها من قبل السلطة الرومانية . و يبدو أن ذلك قد شكل صدمة حقيقية ، فجاءت ردة الفعل المسيحية عليها بسفر يوحنـا الـذي عبرت فيه عن كل آلامها و رؤيتها و نظرتها للعالم . و ما يدل على ذلك أمـران ، الأول أن السفر المذكور هو آخر أسفار العهد الجديد و الثاني ، أن يسوع المسيح قد ظهر و لأول مـرة في هذا السفر بالذات ، بهيئة الغضب و هيئة المعاقب و المحاسب و الممتلئ غضباً و سـخطاً على كل الذين يرتكبون الجرائم و الموبقات بحق أتباعه و بحق تعاليمـه . و يحـدث يوحنـا صاحب السفر إياه و هو في قمة آلامه حيث كان منفياً في جزيرة بعيدة نائية ، أنه رأى يسوع و سمع صوته يناديه [**و عندما التفت نحو الصوت رأيت كائناً يشبه ابن الإنسان يقف وسـط سبع مناثر من ذهب و يرتدي ثوباً طويلاً إلى الرجلين يلف صدره بحزام من ذهـب / شـعر رأسه ناصع البياض كالصوف أو الثلج و عيناه كشعلة ملتهبة / رجلاه تلمعان كأنهما نحاس نقي مصقول بالنار و صوته يدوي كصوت شلال غزير / و وجهه يتوهج بـالنور كشـمس الظهيرة . و كان في يديه اليمنى سبعة نجوم و من فمه يخرج سـيف قـاطع ذو حـدين**] (سفرالرؤيا ١ / ١٢ – ١٦) .

يبدو واضحاً القوة و السطوة و الجبروت التي ظهر بها يسوع المسيح و هو غير ما كان العهد به في بقية الأناجيل السابقة . و تظهر الفقرات اللاحقة ، قوة مفهوم العدل عند يسـوع حيـث يطلب من يوحنا المعذب أن يبعث برسالة منه (أي يسوع) إلى رؤساء سبع كنـائس كـانوا حسب السفر ، من أشد المخلصين له و المتحملين للعذاب من أجله ، في سبع مدن قريبة مـن مركز السلطة الرومانية ، حيث بالرغم من ثنائه و إطرائه عليهم ، فإنه يذكرهم بأخطاء معينة بدرت منهم بقصد أو دون قصد و يطلب منهم تلافيها على الفور . و يذكرهم بـأن القصـاص

سيقع على كل من يخالف الشريعة و التعاليم سواء أكان مسيحياً أم غير مسيحي . و يلاحظ في هذا السفر أيضاً أنه قد شمل اليهود برحمته ، ربما لأنهم كانوا قد بدؤوا يتعرضون للاضطهاد أيضاً من قبل الرومان . و هنا لا بد لنا من أن نقف عند حادثة مهمة جداً ، جرت في تلك الفترة أيضاً و هي حادثة تدمير الهيكل اليهودي من قبل الرومان و تشتيت اليهود حوالي سنة / ٧٠ / ميلادية[١] . و هذا الأمر يقودنا إلى استحضار مفهوم الشراكة الذي نشأ بداية الأمر بين الحكم السلطانية الثلاث ، الرومانية و اليهودية و المسيحية ، حيث انسحبت منه الحكمة السلطانية اليهودية عندما أيقنت أن يسوع لم يأت ليقيم مملكة إسرائيل . و بقيت الحكمتان السلطانيتان الرومانية و المسيحية محافظتين على نوع من التفاهم الصامت و ترك مسافة أمان كافية بينهما .

و لكن عندما بدأت الحكمة السلطانية المسيحية تقترب كثيراً من مكان وجود و تمركز الحكمة السلطانية الرومانية ، قامت هذه الأخيرة على الفور بفض الشراكة و نقض التفاهم الصامت بينهما و بدأت مباشرة حملة تصفية عنيفة و لكنها على ما يبدو لم تلحظ أن الحكمة السلطانية اليهودية كانت قد فضت الشراكة هي الأخرى منذ أمد بعيد و أن لا علاقة لها بما يحدث . فربما عدت أن اليهودية و المسيحية شيئاً واحداً . أو ربما كان تمركز بعض الرسل المسيحيين في الهيكل و إلقاؤهم بعض خطبهم و مواعظهم فيه ، أو على الأقل تواجدهم فيه ، قد أدى إلى اعتباره من قبل الرومان على أنه الحاضنة التي تفرخ و تفقس المسيحيين الذين يغزون روما ، فقامت بتدميره . أو لأنها عدت الحكمة السلطانية اليهودية لم تتعامل كفاية مع المسيحية أو كانت متفقة معها . أو ربما ارتأت أن الفرصة مناسبة الآن و موآتية لتضرب عصفورين

[١] قام الرومان في تلك السنة بتجريد حملة عسكرية كبيرة دمرت الهيكل و قامت بتشريد اليهود و تشتيتهم في أرجاء العالم و ممارسة الاضطهاد ضدهم .

بحجر واحد و تتخلص من الديانتين التوحيديتين اللتين كانتا على خلاف عقائدي معها وسببتا لها الكثير من المشاكل . فهل تورطت الحكمة السلطانية اليهودية بشيء من هذا القبيل ؟؟ أو أنه تم توريطها عندما بادرت الحكمة السلطانية المسيحية و تجاوزت الخط الأحمر مع روما ، فأنزلت بها ضربة قاصمة ؟؟ و هل يمكن أن تكون قد دفعت ثمن عدم انفصالعها الكامل و التام مع المسيحية و أبقت على مفهوم المسيحية اليهودية حياً و فعالاً في عقول الناس لتكون كبش فداء هذا الأمر ؟؟ هذا ما لا يمكن التكهن بدقة .

و الظاهر أن سفر الرؤيا قد بادر على الفور إلى تعويض اليهود عن كل ما لحق بهم و لكن ... و لكن ليس في الأرض ، بل في السماء . و هو تعويض من المستبعد أن تكون الحكمة السلطانية اليهودية التي كان همها الأول و الأخير هو إنشاء مملكة إسرائيل في الأرض ، أن تكون قد عدته تعويضاً كافياً بعد هذه الضربة المؤلمة و القاسية و التي من الصعب تعويضها لا في الأرض و لا في السماء . حيث يتحدث كاتب السفر عن رؤيته السماء و العرش الجالس عليه شخص واحد و قد أحاط به الملائكة و القديسون و كتاب قيل له إنه لن يستطيع فتحه أحد **[و رأيت إلى يمين الجالس على العرش درج كتاب مخطوطاً من الداخل و الخارج و مختوماً بسبعة ختوم / و رأيت ملاكاً قوياً ينادي بأعلى صوته من هو المستحق أن يفك ختوم الكتاب و يفتحه ؟ / فلم يستطع أحد في السماء و لا على الأرض و لا تحت الأرض أن يفتح الكتاب أو ينظر إليه / و لكن شيخاً من الشيوخ قال لي لا تبك فقد انتصر الأسد الذي من سبط يهوذا الذي هو أصل داؤود و هو المستحق أن يفتح الكتاب و يفك ختومه السبعة]** (سفر الرؤيا ٥ / ١ – ٥) .

و يتحدث السفر عن أن الذي قام بفك الكتاب هو حمل مذبوح ، في إشارة واضحة إلى أن التضحية في سبيل يسوع هي الخلاص الأبدي الوحيد . و في هذا الكتاب بالذات يظهر العقاب

الإلهي الذي سيحل ببني البشر و برومة و الرومان بخاصة ، حيث يبدأ الحمل بفك رمـــوز و أختام الكتاب ، فجاء في الختم الثاني منه [**فخرج حصان أحمر أعطي راكبه ســـيفاً عظيمـــاً و منح سلطة نزع السلام من الأرض و جعل الناس يقتلون بعضهم بعضاً**] (سفر الرؤيـــا ٦ : ٤) .

و في الختم الرابع ظهر [**حصان لونه أخضر باهت اللون اسم راكبه الموت يتبعـــه حصـــان آخر اسم راكبه الهاوية و أعطيا سلطة إبادة ربع الأرض بالســـيف و الجـــوع و الوبـــاء و وحوش الأرض الضارية**] . و في الختم الخامس تظهر مطالبة المســـيحيين لله بـــأن ينـــتقم و يقتص من كل من أذاهم و قتلهم [**ثم فك الحمل الختم الخامس فرأيـــت مـــذبحاً تحتـــه أرواح الذين سفكت دماؤهم من أجل كلمة الله و من أجل الشهادة التي أدوهـــا / و هـــم يصـــرخون للرب بأعلى صوتهم حتى متى أيها السيد القدوس و الحق تؤخر معاقبة أهل الأرض على ما فعلوه بنا ؟ متى تنتقم منهم لدمائنا ؟/ فأعطي كل منهم ثوباً أبيض و قيل لهـــم أن يصـــبروا قليلاً إلى أن يكتمل عدد شركائهم العبيد و أخوتهم الذين سيقتلون مثلهم**] .

إن الحكمة السلطانية المسيحية و بعد أن تعرضت إلى هذه الحرب الشاملة و الشرسة ضـــدها بهدف استئصالها من الوجود ، لم يكن أمامها الوسائل الدفاعية للرد ، و لـــم يكـــن بحوزتهـــا أسلحة للدفاع عن نفسها سوى الإيمان القوي الذي بثته الكنيسة لدى أتباعها ، و لهـــذا جيـــرت حسابها على الله ، فجاء كتاب يوحنا ليعبر عن المأساة التي حلت بأتباع الكنيسة و ممثليها . و يبدو أن المسيحية قد رأت نفسها في عداء واضح مع معظم بني البشر ، و هذا الأمـــر يـــدلل على سلطة روما الواسعة و امتداد رقعة حكمها الجغرافية ، لأنها على ما يبدو أرادتها حـــرب إبادة و استئصال . و كان إحراق رومة من قبل نيرون ، الشرارة التي انـــدلع بســـببها لهيـــب المعركة التي لفحت بنارها اليهود أيضاً في حرب إبادة و استئصال ضدهم ربما كانت أقسى و

أبشع من المسيحيين ، حيث تم قتل مئات الآلاف منهم و أسر قسم منهم و تشتيت القسم الاخر في حروب طويلة الأمد ، بدأت فعلياً عام / ٦٨ / ميلادية و توجت نهايتها في عام / ٧٠ / ميلادية ، حيث سارت فيالقرومانية ضخمة إلى مدينة أورشليم و طلبوا من سكانها [١] الاستسلام . و لكن اليهود رفضوا و ظلوا يقاتلون لآخر رجل . و ازدحمت شوارع المدينة بجثث القتلى في المراحل الأخيرة من الحصار الذي دام خمسة أشهر . و لما استولى الرومان على نصف المدينة ، عرضوا على اليهود شروطاً معينة ، فلما رفضوها ، بدأت فرق الحراقين الرومان بإضرام النار في الهيكل ، حتى احترق بأكمله ، و قاتل الباقون من المدافعين عن المدينة و هم (حسب الروايات) فخورون بموتهم مبتسمون بشوشون . فمنهم من قتل بعضهم بعضاً خوفاً من الأسر و الوقوع بيد الرومان ، و منهم من ألقوا بأنفسهم على سيوفهم فماتوا من فورهم و منهم من قفز في اللهب . و لم يرحم الرومان أحداً منهم بل قتلوا كل من استطاعوا أن يقبضوا عليه من اليهود . و قيل إنه قتل حوالي سبعة و تسعين ألفاً و بيعوا في أسواق الرقيق . و مات كثيرون منهم في المجتلدات بعد أن سيقوا مرغمين إلى الألعاب التي أقيمت ضمن احتفالات النصر في المدن الرومانية . و هذا الأمر حصل مثله في بقية المدن التي وجد بها يهود .

و يبدو أن هذه الأحداث كلها قد ألقت بظلالها على كتاب الرؤيا في العهد الجديد حيث يصل الحمل إلى الختم السادس و يظهر فيه [**و إذا الأرض قد زلزلت زلزالاً عظيماً و الشمس اسودت فصارت كخرقة من شعر و صار القمر أحمر كالدم / و سقطت نجوم السماء على الأرض ... / و طويت السماء كما تطوى لفافة من ورق فتزحزحت الجبال و الجزر كلها من مواضعها / و ملوك الأرض و العظماء القواد الأغنياء و الأقوياء و العبيد و الأحرار كلهم**

---

[١] المصدر السابق ، ص/١٨٨/ .

اختبؤوا في المغاور و صخور الجبال / و هم يقولون للجبال و الصخور اسقطي علينا و اخفينا من وجه الجالس على العرش و من غضب الحمل / فإن يوم الغضب العظيم قد جاء و من يقوى على الوقوف أمامه] (سفر الرؤيا ٦ / ١٣ – ١٧) .

و يبدو أن المصائب و المآسي التي تعرض لها اليهود من قبل الرومان ، قد ظهر أثرها أيضاً في كتاب الرؤيا ، و تلقوا تعويضاً فيه على كل ما جرى لهم ، و ذلك في الختم السادس نفسه الذي يفكه الحمل ، حيث جاء **[ثم رأيت ملاكاً آخر قادماً من الشرق يحمل ختم الله الحي فنادى بصوت عال الملائكة الأربعة الذين عهد إليهم أن ينزلوا الضرر بالبر و البحر / انتظروا لا تضروا البر و لا البحر و لا الشجر إلى أن نضع ختم إلهنا على جباه عبيده / و سمعت أن عدد المختومين مئة و أربعة و أربعون ألفاً من جميع أسباط بني إسرائيل / من سبط يهوذا ختم إثنا عشر ألفاً و من سبط رأوبين إثنا عشر ألفاً ....]** .

و يحصي الكتاب اثني عشر ألفاً من كل سبط من أسباط بني إسرائيل و يليهم بعد ذلك كل من آمن بيسوع و اتبعه و تعذب و تألم أو مات و قتل من أجله . أما في الختم السابع ، فتبدأ عملية تخريب و تدمير الأرض **[و اشتد الملائكة السبعة أصحاب الأبواق السبعة لينفخوا فيها / و لما نفخ الملاك الأول في بوقه إذا برد و نار يخالطهما دم يسقطان إلى الأرض فاحترق ثلث الأشجار مع كل عشب أخضر / و لما نفخ الملاك الثاني في بوقه ألقي في البحر ما يشبه حبلاً عظيماً مشتعلاً ، فصار ثلث البحر دماً / فمات ثلث المخلوقات الحية التي فيه و تحطم ثلث السفن / ثم نفخ الملاك الثالث في بوقه فهوى من السماء نجم عظيم كأنه شعلة من نار و سقط على ثلث الأنهار و ينابيع المياه / و اسم هذا النجم العلقم ، فصار ثلث المياه مراً كالعلقم و مات كثيرون من الناس بسبب مرارة و المياه / و لما نفخ الملاك الرابع في**

بوقه حدثت ضربة لثلث الشمس و ثلث القمر و ثلث النجوم فأظلم ثلثها و فقد النهـــار ثلـــث ضيائه و كذلك الليل / ثم نظرت فرأيت نسراً يطير في وسط السماء و سمعته يصيح بصوت عال : الويل .. الويل .. الويل لسكان الأرض ما سيحدث لهم عندما ينفخ الملائكـــة الثلاثـــة الباقون في أبواقهم] (سفر الرؤيا ٨ / ٦ – ١٣) . **[و لما نفخ الملاك الخامس في بوقـــه رأيت نجماً قد هوى من السماء إلى الأرض و أعطي مفتاح الهاوية السحيقة / فلمـــا فتحهـــا اندفع دخان كأنه من آتون عظيم فأظلمت السمش و الجو من هـــذا الـــدخان / و طلـــع مـــن الدخان جراد على الأرض كلها و أعطي سلطة أن يلسع كالعقارب / و أمر أن لا يضر عشب الأرض و لا مزروعاتها و لا أشجارها بل فقط جميع من لـــيس علـــى جبـــاههم خـــتم الله / فيعذبهم دون أن يقتلهم مدة خمسة أشهر و الألم الذي يسببه يشبه لدغة العقـــرب / و فـــي أثناء تلك الشهور يحاول الناس أن يتخلصوا من حياتهم فلا يقدرون و يتمنـــون أن يموتـــوا لكن الموت يهرب منهم]** (سفر الرؤيا ٩ / ١ – ٦) .

و يتابع ذلك الكتاب سرد ما سيحصل بالأرض من الدمار و الخراب ، حيث يقتل معظم البشـــر من قبل جيش من الملائكة ، ليبدأ بعد ذلك يوم الحساب أو الدينونة .

من الواضح في ما سبق من الفقرات الآنفة الذكر ، أن كتاب الرؤيا قد أسقط روما على العـــالم كله ، و نظر إلى هذا العالم من خلال رومة نفسها ، لأنها كانت هي المســـيطرة . و عـــد أن المسيحيين و اليهود يتعرضون للإبادة من قبل كل العالم ، أي أنه جعلهم فـــي كفـــة ، و بقيـــة العالم في كفة أخرى . و ربما يزول غموض ذلك السبب إذا علمنـــا أن المســـيحيين عامـــة و اليهود بخاصة قد تعرضوا لعمليات إبادة منظمة في معظم المنـــاطق و المـــدن التـــي كـــانوا

يتواجدون فيها و التي كانت تتبع للسلطة الرومانية[1] و لذلك ربما يكون قد تراءى لهم أن العالم كله ضدهم و البشر جميعهم يحاربونهم . و لذلك فقد أبقى كتاب الرؤيا على عدد محدد من البشر الذين ينالهم الخلاص و هم اليهود و المسيحيون ، و هذا ما يلاحظ فيه حيث لا نرى أثراً لمفهوم المسيحية العالمية في مضمونه قياساً إلى بقية الكتب الأخرى .

و نستطيع أن ندرك أيضاً أن الكنيسة في حربها مع الدولة الرومانية ، كانت في وضع أعزل و مجردة من أية أدوات دفاعية أو مراكز قوى تعتمد عليها في صد الهجوم العنيف الشامل المركز . و لذلك لم يكن أمامها سوى التهديد و الوعيد الإلهي لتنذر به خصومها و محاربيها من كل ما سوف يحيق بهم جراء ما يفعلونه بها . و في الوقت نفسه تقوي عزيمة أتباعها و تضمهم إليها بقوة من خلال الجزاء و الثواب الذي سوف يلاقونه في الآخرة و يوم الحساب و الدينونة . و في الحقيقة فإن كتاب الرؤيا ربما يكون أول منهج فكري إيديولوجي و عقائدي لكيفية الدفاع عن الدين أو المذهب و العقيدة . و برأينا فإنه يؤسس معظم الأفكار العقائدية الجهادية في سبيل الدفاع و الاستبسال عن الدين . و يبدو أن هذا الكتاب قد أثر فعلاً في أتباع المسيحية و بخاصة و أنه قد وجه في الأساس إلى السبع كنائس الرئيسة آنذاك وطلب منها أن تتلوه على جميع رعاياها و التابعين لها في أقاصي البلدان . و يبدو لنا أن الحكمة التي صاغت هذا السفر كانت تدرك أن فترة العذاب و الاضطهاد التي حلت فجأة و من دون مقدمات على المسيحية ، سوف تدوم إلى أمد غير قصير . و لذلك فقد ارتأت أن يكون هذا السفر بمنزلة السند القوي و المانع للكنيسة عامة من السقوط و الإنهيار . يبدو لنا أيضاً أن هذه الحكمة ربما تكون قد أدركت و لسبب ما أن عامل الوقت و الزمن على المدى الطويل ، هو لصالحها و ليس لصالح السلطة الرومانية ، و لذلك آثرت أن تعطي الكنيسة و أتباعها

---

[1] المصدر السابق .

جرعة من الأمل القوي بالخلاص و أنهم في النهاية هم الذين سيرثون الأرض و ما عليها ، و سيحل عليهم سلام دائم و حياة أبدية لا موت فيها و ليس فيها حزن أو صراع و ألم . و في الوقت نفسه أدركت الحكمة السلطانية الرومانية أن عامل الوقت على المدى البعيد ليس في صالحها ، بل في صالح الكنيسة و لذلك اعتمدت مع الكنيسة ما يشبه سياسة الأرض المحروقة و الضربة الخاطفة أو الحرب الشاملة دون هدنة أو مجاملة أو مراعاة ، محاولة بذلك اجتثاث أكبر قدر من المسيحيين و إنزال ضربة قاصمة قاضية للكنيسة ، بحيث لا تقوم لها قائمة بعد ذلك . فكان من نتيجة ذلك كله أن حاولت الكنيسة و أتباعها التماسك قدر الإمكان أمام هذه العاصفة المرعبة و الريح الصرصر العاتية التي هبت في وجهها تريد اقتلاعها من جذورها ، فحثت أتباعها على الصمود و المقاومة و التضحية ، مهاجمة روما بكل الوسائل الفكرية و غير الفكرية و عدم التساهل في ذلك . و بدورها بدأت الحكمة السلطانية الرومانية حربها ضد الكنيسة دون رحمة و بحيث تنهيها بوقت قريب ، فبدأت بعمليات قتل و تصفية جميع رجال الدين و رؤساء الكنائس المسيحية الذين ألقي القبض عليهم ، سواء أكانوا صغاراً أم ذوي أعمار تناهز التسعين عاماً . و صدرت قوانين عدة حرمت الدين المسيحي و عدت أن الجهر به أو الإعلان عنه ، يعد بمنزلة جريمة فظيعة عقوبتها الإعدام ، أما من كان يشك به أنه مسيحي فكانت عقوبته في أحسن الحالات إما الجلد و إما النفي أو الحكم عليه بالعمل في المناجم . و كان إذا وقعت الشبهة على أحد بأنه مسيحي ، يوجه إليه سوآل من قبل المحكمة إذا كان مسيحياً ، فإذا أجاب بنعم و أصر على ذلك ، يعدم من فوره ، أما إذا أنكر أنه مسيحي فيتم إطلاق سراحه مع مراقبته عن كثب . و يتحدث ديورانت في موسوعته عن أن المعارضة للمسيحية في الإمبراطورية الرومانية و المدن القريبة من روما ، جاءت من قبل الشعب أكثر مما جاءت من قبل الدولة في بعض الأحيان . و لسوء حظ الكنيسة فإن بداية الحملة و الحرب

ضدها ، قد جاءت عهد إمبراطورين رومانيين لم يكونا يمتلكان ناصية الاتزان العقلي ، و هما كاليغولا[1] و نيرون[2] . و لكن نيرون كانت له حصة الأسد في اضطهاد المسيحية . و ما سبب في مشاركة بعض أفراد العامة في اضطهاد المسيحين ، هو أن هؤلاء من غير المسيحين كانت لهم آلهتهم الوثنية أيضاً التي يعبدونها و يرون فيها رمزاً للإمبراطورية ، يضاف إلى ذلك ، الحس القوي الروماني و الإغريقي لدى كم كبير من هؤلاء المواطنين و الشعوب ، بالاعتزاز بمآثر الإمبراطورية و إنجازاتها و قوانينها العلمانية العالمية الديمقراطية .

لقد وصل الاضطهاد الروماني للمسيحية أوجه عندما اشترك الحكام و العامة من الشعب في ذلك . و عندما كان الحكام يتهاونون لسبب ما في اضطهد المسيحية ، كان العوام يطالبونهم بذلك و يخرجون في مظاهرات . ففي مرحلة من المراحل ، طالب العوام حاكم ولاية آسية بإعدام المسيحيين ، فلبى طلبهم هذا و قام بإعدام أحد عشر شخصاً منهم ، و لكن هذا العمل على ما يبدو لم يهدأ من ثائرة هؤلاء الغوغاء ، فطالبوا بإعدام أحد الأساقفة الكبار و يدعي " بولي كارب " و قد ناهز التسعين من عمره ، فجاء به الجنود الرومان إلى الحاكم الروماني الذي قال له " سب و اشتم المسيح و سأصفح عنك " فرد عليه الرجل بهدوء و ابتسامة وقورة و صوت ضعيف " لقد ظللت خادماً له ستاً و ثمانين سنة لم يسئ فيها إلي قط ، فكيف أسب ملكي الذي أنجاني ؟؟ " . و كان هذا الجواب كافياً للأمر بقتله و تنفيذ الحكم فيه . و أحياناً كان العوام من الشعب هم من يقوم بالاضطهاد عند تلكؤ الحكام ، ففي سنة / ١٧٧ / ميلادية

---

[1] إمبراطور روماني أصيب باضطراب عقلي و تحول إلى طاغية و بدأ يتصرف تصرفات غريبة منها أنه بدأ بقتل أقرب الناس إليه و منهم أخته . كما أنه قام بتعيين حصانه قنصلاً عاماً و هو أرفع منصب في الدولة ، ثم عد نفسه إلها و طلب من الناس أن يعبدوه . اغتيل سنة / ٤١ / م .

[2] إمبراطور روماني تميز عهده بالطغيان و الوحشية ، و كان مضطرب الشخصية ، حيث خيل إليه أنه فنان و ممثل مسرحي شهير . قتل أمه و قتل أستاذه و مربيه و أحرق رومة متهماً المسيحيين بذلك . مات منتحراً .

ثار الغوغاء ثورة عنيفة على المسيحيين في مدن فيينـــة و بـــون و رجمـــوهم بالحجـــارة ، و صدرت الأوامر بقتل كل من يثبت أنه يعتنق المسيحية[٣] . و يبدو أن الظـــروف و الأحـــداث السياسية أو الطبيعية كانت تلعب دورها في تأجيج الصراع ضد المسيحيين لدى السذج و ذوي العقول البسيطة ، حيث كانوا يعتقدون أن كل ما يحل بالإمبراطورية الرومانية من كـــوارث و أمراض و أوبئة و فيضانات أو هزائم عسكرية في مناطق بعيدة ، كان سببه غضـــب الآلهـــة الرومانية و سخطها و الذي سببه هو التساهل مع المسيحيين و ديانتهم و آلهتهم .

لقد استمر الاضطهاد الروماني للمسيحية فترة طويلة ناهزت القرنين من الزمن ، قاسى فيهـــا المسيحيون من ضروب العذاب و القتل و الموت و التنكيل ، الكثير ، بدءاً من أعلى سلطة لهم ، إلى أدنى تابع و فرد . و لقد كانت هذه الفترة على ما يبدو لصالح الدولة الرومانية ، حيـــث تخلى الكثير منهم عن إيمانه المسيحي و بعضهم الآخر اضطر للمسايرة و المهادنة و الموافقة على شروط الدولة و قوانينها الإلهية ، و بعضهم الآخر ربما يكون قد تأثر بالحملـــة الفكريـــة النفسية التي شنتها السلطة الرومانية على الكنيسة . و لكن و ابتداءً مـــن نهايـــة تلـــك الفتـــرة المكفهرة القاتمة السوداء[٤] بدأت الكفة تميل لصالح المسيحية و الكنيسة ، حيـــث إن ضـــروب الاضطهاد و القتل و التعذيب تلك التي تعرض لها أتبـــاع الكنيســـة و حيـــث مثـــل صـــمود المسيحيين و بخاصة الكبار منهم سواء في السن أم في المراتب الكهنوتيـــة أمـــام التعـــذيب و الموت و عدم تزحزحهم قيد أنملة عن عقيدتهم ، درساً لصغار السن و المرتبة ، في الصـــمود و التضحية و في الوقت نفسه أكسبت هذه الأمور الوحشية التي تعرضت لها الكنيسة ، تعاطف الناس معها فيما بعد ، خصوصاً و أنها امتدت لزمن طويل و الذي هو كما ذكرنا ، كان لغيـــر

---

[٣] قصة الحضارة ، المجلد /١١/ ، ص/٣٧٥/ .

[٤] حوالي سنة /٣٠٠/ م .

صالح السلطات الرومانية ، فقد بدأ الوثنيون من مواطني الدولة الرومانية ، يشعرون بالتعاطف مع المسيحيين بسبب الأعمال التي تعرضوا لها و التي لم يظهر لها مثيل في الدولة الرومانية . فبعد أن كانوا في البداية يشجعون الدولة على محاربة المسيحية ، بدؤوا ينسحبون من الحرب معها ، و بعضهم يحاول حمايتها و بعضهم الآخر انضم إليها ، ربما بعد أن شاهدوا و عاينوا ثبات المسيحيين و قوة إيمانهم بدينهم في وجه الاضطهاد . و يبدو أن الحكمة السلطانية المسيحية قد حققت في نهاية الأمر هدفها بإطالة أمد المعركة و ثباتها فيها حتى كسبتها في النهاية . و يبدو أن سمة الصبر و المقاومة و طول المدة التي اعتمدتها الكنيسة ، قد أوحت للآخرين الذين يؤمنون بمبدأ صراع الآلهة ، أن إله المسيحيين إله قوي من الصعب هزيمته و أنها يستحق أن يقف بجدارة أمام آلهتهم .

و قد تجلى هذا الأمر في المرسوم الذي أصدره الإمبراطور جلريوس علم / ٣١١ / ميلادية و الذي قضى بالتسامح مع المسيحيين و الاعتراف بالمسيحية ديناً كباقي الأديان . و الطريف في الأمر أن هذا الإمبراطور قد طلب من المسيحيين أن يدعوا له في صلاتهم . و السبب الحقيقي و الدافع الرئيس لذلك هو مشورة زوجته التي طلبت منه أن " يصالح إله المسيحيين الذي يبدو أنه لا يهزم "[١] . و تحدث ديورانت في موسوعته عن أنه " ليس في تاريخ البشرية قصة أعظم من قصة فئة قليلة من المسيحيين توالت عليها ضروب الظلم و لاالاضطهاد و الازدراء على يد سلسلة طويلة من الأباطرة ، و لكنها صبرت على هذه المحن جميعها و استمسكت بدينها و تضاعف عددها و هي هادئة ساكنة تقيم النظام وقت أن كان أعداؤها ينشرون الفوضى ، تصد القوة و الوحشية بالأمل ، ثم تهزم آخر الأمر أقوى دولة عرفها التاريخ ، لقد

[١] قصة الحضارة ، مجلد /١١/ ، ص/٣٨١/ .

التقى قيصر و المسيح في المجتلد فانتصر المسيح على قيصر "[٢] . و برأينا أن ما ساعد أيضاً المسيحية على البقاء و الصمود لفترة طويلة ، هو أنها و قبل بدء المعركة بينها و بين الدولة الرومانية ، كانت قد نشرت عقائدها في مناطق شاسعة من الإمبراطورية الرومانية بواسطة بولس بالدرجة الأولى . و لذلك لم يكن من السهل على السلطات الرومانية حصر المسيحية في آتون جغرافي معين ، يضاف إلى ذلك أيضاً ، عقيدة و مفهوم التبشير الذي كانت تعتمده المسيحية و لكل الناس مهما كانت أجناسهم و فئاتهم و أعراقهم ، و التساهل معهم . و لذلك فقد بدأت الحكمة السلطانية المسيحية المعركة مع الدولة الرومانية – أو فُرضت عليها – و قد أمنت قاعدة عريضة من الأتباع و في مناطق جغرافية كثيرة و متعددة لا تدين كلها بدين وثني واحد ، بالإضافة إلى مجال مناورة واسع و كبير . و لولا ذلك كله ، لكانت قد خسرت المعركة من الجولة الأولى و حصل معها كما حصل مع الحكمة السلطانية اليهودية . و كل هذه التضحيات التي تميزت بها و الصبر الذي واظبت عليه ، ما كان ليحدث أثره و يكتب له النجاح ، لولا الميزات الأولى التي اعتمدتها و أنشأتها لنفسها .

لقد ضرب اليهود عبر تاريخهم مع الرومان مثالاً في التضحية و الثبات ، و لكن المشكلة مع الحكمة السلطانية اليهودية أنها في الأساس حصرت نفسها في مكان و حيز جغرافي محددين ، فضلاً عن أنها نأت بنفسها عن مبدأ و مفهوم التبشير بين الناس و حصرت اليهودية عموماً باليهود جنساً و عرقاً خصوصاً ، و لذلك فقد كانت هدفاً سهلاً و مكشوفاً للسلطة الرومانية و بالرغم من كل البطولات و أعمال التضحية التي قام بها اليهود في الدفاع عن أنفسهم ، فإنه لم يتح لهم أن يستثمروا عامل التضحية و الفداء هذا على المدى البعيد ، لأنه لا عامل الوقت و لا عامل المناورة كانا بيدهم و لا حتى عامل التنظيم الذي أجادوه ، لأنهم كانوا هدفاً واضحاً

---

[٢] المصدر السابق .

محدداً و سهلاً تم تحقيقه بمجرد تدمير الهيكل ، فضلاً عن عدم وجود عامل الحيز الجغرافي الكبير بيدهم ليتمكنوا من اعتماده و تسخيره لصالحهم .

و أمام هذه الظروف الفكرية و الدينية و العقائدية و الاجتماعية و الجغرافية و الإنسانية التي اعتمدتها الحكمة السلطانية المسيحية ، أذعنت اخيراً الحكمة السلطانية الرومانية و انهارت قواها تدريجياً و بدأت عزيمتها تخور شيئاً فشيئاً إلى أن خسرت جولة صراع دامية مريرة طويلة الأمد استمرت حوالي ثلاثة قرون مع الحكمة السلطانية المسيحية . و قد توجت المسيحية انتصارها الرسمي على الوثنية الرومانية ، بإعلان الإمبراطور الروماني قسطنطين ، اعتناقه المسيحية و من ثم اعتبارها دين الإمبراطورية الرسمي . و يمكننا و الحالة هذه تشبيه ما حصل بين الحكمتين السلطانيتين ، بملاكمين يتبارزان في حلبة ملاكمة أحدهما يهاجم الآخر و يكيل له اللكمات و الضربات بكل قوة و شراسة و عنف و بلا انقطاع ، و الآخر واقف يحاول اتقاء هذه الضربات و الدم يتفجر من معظم أنحاء جسده . و يظل الأمر هكذا حتى يصاب الملاكم المهاجم بالتعب و الإعياء و الإجهاد و تتشنج كل أوصاله و عضلاته فيسقط على الأرض و هو يلهث من التعب .

دين السلطة :

لقد توجت المسيحية انتصارها الكبير مع السلطة الرومانية باعتماد هذه الأخيرة الدين المسيحي ديناً رسمياً لها و قد جسد هذا الإعلان مجيء الإمبراطور الروماني قسطنطين و اعتلاءه سدة الحكم في رومة . و في الواقع فإن الأسباب الآنفة الذكر لانتصار المسيحية المؤزر و الاعتراف بها كدين رسمي للسلطة الرومانية ، يمكن اعتبارها من الأسباب البعيدة أو غير المباشرة ، أما الأسباب المباشرة لهذا الإعلان و الاعتراف بالمسيحية كدين رسمي

للإمبراطورية ، فتعود إلى جملة من الأحداث و الوقائع السياسية و العسكرية الداخلية التي حكمت ظروف السلطة الحاكمة في روما و الولايات الرئيسة فيها ، كمصر و سورية و كذلك الظروف التي جاءت بقسطنطين إمبراطوراً رومانياً .

و قد كان محور هذه الأسباب الرئيسة المباشرة ، هو ازدواجية الحكمة في السلطة الرومانية التي تحول فيما بعد إلى تعدد الحكام و القياصرة . و مثل ازدواجية الحكم هذه ، كلا القيصرين جلريوس و قتسطنطيون حيث مرت الإمبراطورية في هذه الفترة في ظروف حكم مضطربة تمثلت بخلع القياصرة أو الانقلاب عليهم ، إما من قبل الجنود أو القواد أو مجالس الشيوخ . و كانت ازدواجية الحكم هذه أو تعدديته ، تؤدي بشكل بديهي تلقائي إلى الصراع من أجل الانفراد بالسلطة أو فردية الحكم . و على ما يبدو فقد بدأ صراع خفي بين كل من جلريوس[1] و قتسطنطيوس للوصول إلى سدة الحكم المطلق و الانفراد بالسلطة . و صادف أن كان قسطنطين و هو ابن قتسطنطيوس ، يخدم في القطعات العسكرية التابعة لجلريوس ، ففرض هذا الأخير على الفتى الشاب نوعاً من الإقامة الجبرية الغير مباشرة ، ليتحكم بوالده بشكل أفضل . و لكن الضابط الشاب تمكن من الفرار و اختراق طوق الحصار العسكري الذي كان مضروباً حوله و عاد إلى أبيه . و هناك تسلم المناصب الرفيعة . و عندما توفي والده قنسطنطيوس ، نادى به الجند قيصراً ، ثم ما لبثوا أن نادوا به أغسطساً أو إمبراطوراً عاماً ، فاضطر جلريوس إلى الاعتراف به على مضض . و لكنه قام برد فعل وقائي ، فعين أحد القواد العسكريين أغسطساً و في الوقت نفسه قام قائدان آخران بالمنافسة على هذا المنصب العالي الرفيع ، فانقسمت الإمبراطورية تحت زعامة حوالي خمس أو ست أباطرة و كلهم يدعي الملك و يريده .

---

[1] انظر المصدر السابق .

كان قسطنطين هو الأقوى و الأوفر حظاً من بين كل هؤلاء ، و أكثرهم تمتعاً بثقة و ولاء جنوده . و لذلك سرعان ما نشبت الفوضى و الاضطراب في الإمبراطورية لتنشب بعدها المعارك بين هؤلاء القادة . و قد دارت أولى معارك قسطنطين الداخلية ، مع القيصر مكسميان ، فانتصر قسطنطين عليه . و بعد هذه المعركة مات جلريوس فبقي أمام قسطنطين أربعة قياصرة هم مكسمينس و مكسنتيوس و ليسنيوس . فبادر هو بالهجوم أولاً . و إذ تجمع خصومه هذه المرة ضده ، فقد كانت معركته التالية معهم هي الحاسمة و سيتقرر على أثرها مصيره السياسي و العسكري و ربما حياته و وجوده و جاء في الأخبار التاريخية [٢] أن العامل الديني المسيحي قد لعب دوراً حاسماً في انتصار قسطنطين على أعدائه و خصومه في المعركة الحاسمة التي خاضها معهم ، حيث قيل إنه رأى في يوم المعركة صليباً من نار في السماء و كتب عليه أنه انتصر أو سينتصر بواسطة هذا الصليب . و في اليوم التالي رأى في منامه شخصاً يطلب منه بأن يضع رمز الصليب على دروع جنوده و على الراية . و عندما نفذ ما أمر به ، كتب له الانتصار في المعركة التي حسمت كل الأمور لصالحه ، فقرر ابتداء من تلك اللحظة أن يتجه صوب المسيحية . و لم يلبث أن اتفق هو و حليفه ليسنيوس القيصر ، على إعلان مرسوم يقضي برفع الاضطهاد نهائياً عن المسيحيين و أن تعاد إليهم حقوقهم كاملة و جميع أملاكهم . و لكن ليسنيوس ما لبث أن نقض هذا الاتفاق و بدأ بحملة اضطهاد واسعة النطاق للمسيحيين في المناطق و المدن الخاضعة لسيطرته ، فوقعت الحرب بينه و بين قسطنطين الذي عد حامياً للمسيحية بينما عد ليسنيوس رمزاً للوثنية و حامياً لها .

و التقى الطرفان في معركة فاصلة كتب فيها النصر لقسطنطين الذي أصبح هو الحاكم المطلق ، فقضى على ليسنيوس و أعلن نفسه إمبراطوراً و أعلن على الملأ ايضاً اعتناقه الرسمي

---

[٢] المصدر السابق ، ص/٣٨٤/ .

للمسيحية و عدها بمنزلة دين رسمي للدولة داعياً رعاياه إلى اعتناقها . و لكنه في الوقت نفسه قال إن الناس أحرار فيما يعبدون .

إن قراءة واعية متأنية لسير الأحداث الحاصلة بدءاً من نشوء المسيحية و مروراً بالاضطهاد الذي تعرضت له من قبل الدولة الرومانية و انتهاء بإعلانها دين رسمي للدولة ، توحي لنا بأن الحكمة الإلهية إذا كان لها دور فعلي ، فإنها كانت غالباً ما تتدخل في اللحظات الحاسمة و المصيرية التي كانت تمر بها الكنيسة أو المسيحية عامة . و تدخلها هذا كان نادر الحدوث جداً و لكنه كان ذا أثر فعال و قوي في تغيير سير الاتجاه ، و نقطة تحول جذرية ، مثلما فعلت مع شاول الذي أصبح بولس و بعده مع قسطنطين . و لذلك فإن أهم تحولين (حسب رأينا) أصابا المسيحية و غيرا فيها حتى وصلت إلى شكلها هذا ، قد تمثلا بشخصي بولس و قسطنطين . و الملفت للنظر أنهما كانا في الأساس من خارج المسيحية و ليس من داخلها ، و مع ذلك فقد قامت عليهما دعائم المسيحية الكبرى[1] . فالأول قام بنشر الدين المسيحي في العالم كله بطريقة توربينية نفاثة لا تعرف الكلل و لا الملل مصحوبة بمجهود هائل جبار يثير الحيرة و الإعجاب و الاحترام المنقطع النظير لهذه الشخصية التي جبلت ربما على العناد الكبير و الفكر الثاقب و امتلاك ناصية الخوارق الطبيعية ، فكان سفير المسيحية التي قدمها للعالم كله و ختم مشروعه هذا بأن قدم نفسه قرباناً له في رومة . أما الثاني فقد جاء ليحمي و يثبت إنجازات الأول و يؤطرها و يقولبها في إطار سلطة و إمبراطورية و جيش يحامي عنها و يضفي عليها طابعي الشمولية الرسمية .

و في هذا المجال لا يمكننا أن نغفل أيضاً العامل السياسي و الاجتماعي و بشكل آخر ، العامل الجيوسياسي ، و بخاصة مع وجود مفهوم الإمبراطورية بأبعاده و مقوماته كافة . لأن كل

[1] لا يعني هذا أنه لم يكن للآخرين أي دور .

إمبراطورية عبر التاريخ لا يمكن أن تضمن لنفسها بقاء و ديمومة أكثر ، ما لم تأخذ بالحسبان العوامل الثلاثة . و تبعاً لذلك فإن إمبراطورية كالإمبراطورية الرومانية الهائلة الأبعاد و الشاسعة الامتداد و مترامية الأطراف و تحوي شعوباً و قوميات و أعراق و أديان متعددة مختلفة ، لم تكن بمنأى عن الاضطرابات السياسية و العسكرية و الثورات من قبل تلك الشعوب ، و بخاصة و أنها كانت تمثل في السابق دولاً و حكومات و ممالك كالفرس و السوريين و المصريين و اليونانيين و غيرهم . و هذا ما كان يحصل بالفعل ، فقد كانت الإمبراطورية الرومانية تتعرض للكثير من عمليات الانشقاق و محاولات الانفصال عنها من قبل بعض المناطق و بالذات تلك التي كان لها اعتزاز بماضيها و تاريخها .

هذا كله كان يكلف السلطة الرومانية المركزية ، الكثير من المعارك الضارية و الطويلة الأمد و على جبهات متعددة مفتوحة ، مما أنهك جسد الإمبراطورية . و طبقاً لذلك فإن أية حكمة سلطانية تقود إمبراطورية عالمية كبيرة ، سوف يكون همها الأول و الأخير هو الحفاظ على وحدة هذه الإمبراطورية و إيجاد أكبر قدر من التجانس بين شعوبها الذي يساعد على تقوية دعائم هذه الوحدة و في الوقت نفسه يخفف من حدة رفض هذه الشعوب للسلطة الرومانية المركزية .

و لسنا هنا في وارد الشك بأن الحكمة السلطانية الرومانية كانت تبحث عن عامل فكري أو عقائدي يزرع بذور التجانس بين شعوب الإمبراطورية الرومانية و يكون قاسماً مشتركاً بينهم و يربطهم بعضهم ببعض .

لقد بذلت السلطة الحاكمة الرومانية و على مدار عقود طويلة ، محاولات عدة لرأب التصدع و الانفلات اللذين يكمن أن يحصلا ، فحاولت إيجاد مجموعة من المفاهيم الفكرية و الإيديولوجية

التي من الممكن أن تجمع شعوبها فيما بينها ، فعملت في مراحل معينة على سن قوانين عامة تطبق في سائر ارجاء الإمبراطورية و على الجميع دون استثناء . و من أجل استرضاء جمهورها ، لجأت أيضاً إلى سن قانون المواطنة و عممته على سائر الشعوب الخاضعة لسلطانها ، فأصبح كل شخص يولد في أرض تابعة للإمبراطورية الرومانية ، و من أبوين يعيشان فيها ، أصبح لديه حق اكتساب الجنسية الرومانية . كما لجأت السلطة الرومانية أيضاً و في فترات معينة إلى إعطاء الشعوب الخاضعة لسلطانها نوعاً من الحكم الذاتي و إضفاء شيء من الديمقراطية العامة ذات الملامح المبهمة ، خارج رومة ، كما عمدت إلى التساهل في موضوع حرية الأديان طالما أنها لا تشكل خطر على السلطة السياسية المركزية أو خطر على وحدة الأراضي الرومانية .

و لكن ذلك و إن ثبت في بعض الحالات مفعوله ، إلا أنه و على المدى البعيد لم يكن ذا أثر فعال ، لذلك لجأت الحكمة السلطانية الرومانية إلى الدين أيضاً في محاولة لجعله أداة تثبيت دعائم الحكم و السلطان . فحاولت تسويق الالهة الإغريقية و تعميمها على الشعوب الخاضعة لسلطانها و تعميم مفهوم عبادة الإمبراطور لدى بقية الشعوب ليكون بمنزلة الولاء العقائدي و الفكري الإمبراطورية و لعلها قد استعارت تلك التجربة من الحكم السلطانية المصرية و العراقية و السورية السابقة التي ادعت الألوهية في تجربة أثبتت نجاحها في قيادة الشعوب . كما عمدت إلى إزالة أي ديانة أخرى يمكن أن تعترض طريقها ، كما في حالة الديانة اليهودية حيث نشبت صراعات و خلافات طويلة الأمد بين الرومان و اليهود لمحاولة إذابة الدين اليهودي و إخضاعه للآلهة الإغريقية و غيرها ، و لكن المقاومة العنيفة العنيدة الشرسة من قبل اليهود ، حالت دون تنفيذ هذا المشروع . و تكرر الأمر نفسه مع مجيء المسيحية . و لكن الحكمة السلطانية الرومانية و إن نجحت أخيراً في تحطيم الدين اليهودي من الناحية

النظرية الظاهرية المركزية و ذلك عن طريق تدمير الهيكل و تشتيت اليهود ، فإنها فشلت في ذلك مع الديانة المسيحية بالرغم من كل السبل التي اتبعها في ذلك و على مدار ثلاثة قرون .

إن الحكمة السلطانية الرومانية و إن فشلت في القضاء على المسيحية كدين ، فإن ذلك لا يعني أنها خسرت المعركة نهائياً و خرجت من المعادلة كلياً . و السبب هو أن خروجها من المعركة و هزيمتها فيها ، يتحدد بالهدف الذي كانت تحارب و تناضل لأجله ، ألا و هو الحفاظ على وحدة و كيان الإمبراطورية الرومانية و استمرار وجودها في أعلى قمة الهرم السلطوي السياسي . و هي و إن خسرت معركة القضاء المادي على الخصم ، إلا أنها كسبت معركة الذكاء . فقد أدركت الحكمة السلطانية الرومانية و بعد صراعها المرير مع المسيحية ، أنها تتعامل مع خصم غير مرئي و غير محدد بكيان أو هيكل أو تنظيم مادي ملموس أو جغرافي محدد .. خصم ليس له مملكة و لم يجعل لنفسه مملكة أو سلطان دنيوي . و هي كحكمة سلطانية خبرت تراث و ثقافات و عقائد شعوب أهل الأرض كلها و على مدار قرون عدة . أدركت و هي تلهث من التعب في محاولة القضاء على خصمها ، بأن هذا الخصم هو ما تبحث عنه و هو ضالتها المنشودة عبر سنين طويلة ، و أداتها في تثبيت أوصال الإمبراطورية ، لأنه يتصف بكل الصفات التي تؤهله لأن يكون هو الأداة في استمرارية الإمبراطورية و وحدتها . فهو دين شمولي متسامح ، مثل في صفوفه شرائح عريضة ، و لاقى انتشاراً واسعاً لدى كل شعوب الإمبراطورية ، فهو قاسم مشترك ممتاز بينها . و فضلاً عن ذلك أثبت مناعة و تحملاً لكل الصدمات و الضربات التي كيلت له و ثبت أمامها ، فهو إذاً مؤهل للاستمرارية و الثبات و البقاء . و أخيراً فهو دين لا يأبه لأمر الدول و الممالك و ليس غايته أن يقيم مملكة ، فمملكته في السماء و ليس في الأرض . و لذلك لا خطرً فعلياً منه يستوجب الخوف و التوجس .

و لذلك و بناء عليه ، قرت الحكمة السلطانية الرومانية أن تندمج مع هذا الدين الصلب المتين في عملية تزاوج أنتجت بكل بساطة إمبراطورية رومانية مسيحية ، مع بقاء كل شيء على حاله ، فقط تم استبدال الالهة الإغريقية بالمسيحية .

و يبدو أن اندماج المسيحية بالإغريقية قبل ذلك ، قد ساعد و سهل هذه المهمة على الحكمة السلطانية الرومانية ، فتمت العملية بكل سلاسة و انسيابية . و هنا في هذه النقطة يتبادر إلى الذهن سوآل ربما قد لا نحصل على إجابة دقيقة له و هو أنه ماذا سيكون جواب يسوع المسيح لو أن الإمبراطور الروماني في حينها جاء و طلب منه إعلان المسيحية ديناً للدولة الرومانية ؟؟؟ أو ماذا سيكون موقفه لو أن الإمبراطور الروماني الذي كان معاصراً له ، تبنى المسيحية دين للدولة الرومانية ؟؟ . في سرده التاريخي ، تساءل ديورانت حول قضية اعتناق الإمبراطور الروماني قسطنطين للمسيحية قائلاً " ترى هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية مخلصاً في عمله هذا ؟؟ و هل أقدم عليه عن عقيدة دينية ؟؟ و هل كان ذلك العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية ؟؟ أكيد الظن أن الرأي الأخير هو الصواب "[1] . و يتحدث ديورانت عن " أن قسطنطين لم يكن ليعنى بالفروق اللاهوتية التي كانت تضطرب بها المسيحية ، و لكنه كان يمنع الانشقاق خوفاً منه على وحدة الإمبراطورية الرومانية و محافظة عليها . و كان فضلاً عن ذلك يتعامل مع رجال الدين المسيحيين الكبار من أساقفة أو قسس أو رهبان على أنهم أعوانه السياسيين . فكان يطلب مشورتهم و يتبنى الرأي أو القرار الذي تتفق عليه أغلبيتهم . و لو أنه كان مسيحياً حقاً ، لكان مسيحياً أولاً و حاكما سياسياً بعدئذ . و لكن الآية انعكست في حال قسطنطين ، فكانت المسيحية عنده وسيلة لا غاية " .

---

[1] المصدر السابق ، ص/٣٨٧/ .

و على كل حال فإن ذلك يبقى في باب الرأي التاريخي لا أكثر و لا أقل . و لا يمكن تأكيده بما لا يدع مجالاً للشك . و لكن ما يمكننا الخلوص إليه و الاستنتاج بحدوثه ، هو بداية ظهور مفهوم الملكية المطلقة أو ما يسمى بحق الملوك المقدس الذي انسحب على مدى قرون عدة في أوروبا و الديانة المسيحية . و بذلك تكون الحكمة السلطانية الرومانية قد خطت خطوتها النهائية الناجحة ، بتبنيها للديانة المسيحية و تثبيت دعائم إمبراطوريتها وقوتها لسنوات طويلة لاحقة ، و أوجدت نوعاً من العلاقة الرصينة المتينة بين القياصرة و الأباطرة و بين الشعوب و البلدان التي يحكمونها . و ذلك تجلى بالولاء العقائدي و الفكري الديني الممزوج بالولاء السياسي للإمبراطور أو القيصر الذي ضمن بواسطة الملكية المطلقة ، شيئاً من ولاء و خضوع محكوميه له سواء بالمطلق أم بالنسبي . فهم و إن لم يكن ولاؤهم للإمبراطور ذا طابع سياسي ، فإنه سيكون ذا طابع ديني . و تحولت الحكمة السلطانية الرومانية إلى حكمة سلطانية مسيحية أخذت توطد دعائم و أركان حكمها و سلطانها ، بتثبيت و تعميم العلاقة الرسمية الجديدة بينها و بين الديانة المسيحية . و ذلك بدعمها المطلق لهذه الديانة و تشجيع وجودها و حرصها على عدم إحداث أي انشقاق أو خلاف في هذه الديانة ، لأن ذلك يؤدي بشكل أو بآخر إلى التصدع في جسم الإمبراطورية نفسها ، و هو ما يعبر بوضوح عن حاجة الأمر السياسي إلى الأمر الديني . تبعاً لذلك فإن أي خلاف ديني كان يقع بين رجال الدين ، كان في غالب الأحيان يستوجب تدخل الإمبراطور أو القيصر و الذي هو أعلى سلطة سياسية ، حيث كان قراره و حكمه ، يجنحان إلى اعتماد الحل المفضي إلى وحدة الكنيسة ، و هو بدوره كان عاملاً قوياً في تثبيت وحدة الإمبراطورية الرومانية . و أية محاولة لخروج عن إجماع الصف هذا ، كانت تتعرض للقمع و البتر .

فعندما نشب الخلاف بالرأي حول طبيعة المسيح و نشأت نتيجة لذلك حركة انشقاقية في الكنيسة على يد القس المصري آريوس ، تسبب ذلك في خلق أزمة و اضطراب كبيرين في هيكل الكنيسة المسيحية ، حيث انبرى فريق آخر ضد آراء و تصورات آريوس حول شخص المسيح و الإشارة إليه . و كان على رأس هذا الفريق الاسقف الكسندر الذي دعا إلى عقد مجلس مكون من كبار الأساقفة لمجابهة الحركة التي قام بها القس آريوس و الذي تـ زايد أتباعها ، و طالب بتجريد آريوس من مهامه و مناصبه كافة . و لكن قوة نفوذ آريوس و نفوذه لدى بعضهم ، حال دون تنفيذ ذلك القرار ، فتفاقمت المشكلة و ازداد الاضطراب من جراء ذلك ، حتى عم رقعة جغرافية لابأس بها . و وصل الأمر إلى الإمبراطور قسطنطين الذي انتابه جزع كبير من جراء ذلك ، فقام على الفور بمحاولة التوفيق بين الفريقين ، و بعث إليهما برسالة واحدة عبرت بشكل كامل عن ترابط الأمر السياسي مع الأمر الديني لدى الحكمة السلطانية الرومانية المسيحية جاء فيها " لقد اقترحت أن أرد جميع آراء الناس في الله إلى صورة واحدة لأنني قوي الاعتقاد بأني إذا استطعت أن أوحد آراءهم في هذا الموضوع ، سهل علي كثيراً تصريف الشؤون العامة . و يبدو لي أن سبب الخلاف بينكما صغير غير جدير بأن يثير هذا النزاع الشديد . فأنت يا الكسندر تريد أن تعرف رأي قساوستك في إحدى النقاط القانونية في جزء من سوآل هو في حد ذاته عديم الأهمية . و أما أنت يا آريوس فقد كان الواجب عليك إذا كانت لديك أفكار من هذا القبيل ، أن تظل صامتاً و لم يكن ثمة حاجة إلى إثارة هذه المسائل أمام الجماهير لأنها مسائل لا يثيرها إلا من ليس لديهم عمل ينشغلون به و لا يرجى منها إلا أن تزيد عقول الناس وحدة "[1] .

---

[1] المصدر السابق ، ص/٣٩٣/ .

لقد كان من الواضح في خطاب الإمبراطور قسطنطين إلى الأسقفين ، أن يربط الأمر السياسي الاجتماعي بالأمر الديني و يجعله مرهوناً به . و قد أراد بذلك أن يلفت انتباه هذين الاسقفين إلى جسامة خطورة تصرفاتهما تلك و تأثيرها في أفراد الشعب و العوام من الناس . لقد عدت الحكمة السلطانية السياسية الرومانية الخلاف الديني حول قضية جوهرية معينة لطبيعة المسيح (علماً أنها أظهرته للكاهنين بأنه بسيطاً) ، ممكناً بحال من الأحوال أن يتحول إلى خلاف سياسي يتسبب فيما بعد بتنافر و تمايز ديموغرافي جيوسياسي يؤدي إلى ضرب وحدة الإمبراطورية . ويبدو ذلك جلياً بشكل واضح في رسالته إلى الأسقفين المتصارعين عقائدياً ، حيث رأى أنه إذا استطاع أن يجمع آراء الناس في الله ضمن إطار و حيز واحد متجانس و يوحدها ، فإن ذلك سوف يسهل عليه إدارة شؤون الحكم و يهيئ له سلاسة القيادة و اتخاذ القرارات . و يتابع رسالته مقرعاً الأسقف آريوس لأنه فتح باب هذا الخلاف أمام الجمهور و أثار لهم هذه القضية . و لكن و على ما يبدو فإن هذه الرسالة لم تفعل فعلها في تخفيف حدة التوتر بين الرجلين ، و لفلفة الموضوع و عده أمراً ثانوياً هامشياً ، لأن مفهوم طبيعة و جوهر المسيح ، ليس أمراً ثانوياً في العرف الكنسي ، بل هو أمر هام و محوري و في صلب الديانة المسيحية و صلب الأساس العقائدي الفكري الكنسي . و هنا فقد تلاقت الحمكة السلطانية الرومانية مع الحكمة السلطانية المسيحية ، حيث إن الكنيسة قد عدت أن وحدة العقيدة حول طبيعة يسوع المسيح هو أمر أساس و حيوي للكنيسة نفسها و إن أي خلاف في الرأي حول هذه القضية ، سوف يؤدي إلى فرط عقد وحدة الكنيسة و زعزعة سلطاتها و بالتالي إضعاف دورها كسند للسلطة السياسية الرومانية . و لذلك فقد قرر الإمبراطور قسطنطين الدعوة إلى اجتماع عام عده المؤرخون أول اجتماع عام و شامل للكنيسة

المسيحية[٢] . و قد حضره جمع غفير من كبار رؤساء الكنائس في الإمبراطورية الرومانية و الأساقفة ، لحل النزاع الناشب بين الفريقين . و يلوح لنا من خلال قراءة المصادر التاريخية أن الإمبراطور الروماني قسطنطين ، كان همه بالدرجة الأولى الوصول إلى اتفاق يصون وحدة الكنيسة أو تبني رأي الأغلبية مهما يكن . و تبدى ذلك من خلال محاولاته الحثيثة في بداية المؤتمر لرأب الصدع بين الأطراف المتنازعة و افتتاحه المؤتمر بكلمة حث فيها المجتمعين أن يحافظوا على وحدة الكنيسة . و لكن عندما فشل المجتمعون في التوصل إلى اتفاق ، مال قسطنطين إلى رأي الأغلبية المخالفة لآريوس الذي قال بوجود طبيعتين للمسيح ، و صدر في ختام المؤتمر بيان رسمي وافق عليه الإمبراطور من فوره ، يتبنى الطبيعة الطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح ، جاء في مقدمته " نحن نؤمن بإله واحد هو الأب القادر على كل شيء ، خالق الأشياء كلها ، ما ظهر منها و ما بطن . و سيد واحد هو المسيح ابن الله المولود غير المخلوق من نفس جوهر الأب "[١] . و صدر بحق المخالفين[٢] لآراء و معتقدات و توجيهات هذا المؤتمر ، حكمان اثنان ، أحدهما ديني أصدرته الكنيسة و يقضي بلعن المخالفين و حرمانهم كنسياً ، و الآخر حكم سياسي تمثل بنفي هؤلاء من البلاد و إحراق كتبهم في الساحات العامة و الحكم بإعدام كل من يحتفظ و لو بنسخة واحدة منها .

و هكذا تدخلت الحكمة السلطانية الرومانية و ضبطت وحدة الكنيسة إلى حد بعيد (و إن لم يكن بشكل كامل) و عززت الاستقرار الكنسي للمسيحية الذي أسهم بشكل أو بآخر بالحفاظ على وحدة الإمبراطورية الرومانية و سلطتها المركزية و صيانتها فكرياً و عقائدياً ، بحيث أزيح عبء كبير عن كاهل الأمر السياسي للإمبراطورية و أضحى أقل تعقيداً من ذي قبل .

---

[٢] و هو مؤتمر أو مجمع نيقية الشهير .

[١] المصدر السابق .

[٢] هم آريوس و لفيف من مؤيديه .

و الحقيقة أن مؤتمراً مثل مؤتمر نيقية ، كان لا بد له من الحدوث و بخاصة بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية ، أو بالأحرى دخول الحكمة السلطانية السياسية الرومانية المجال اللاهوتي المسيحي إلى جانب الحكمة السلطانية الدينية المسيحية التي تمثلت بالبابا[٣] . الأول اتخذ جانباً مادياً سياسياً تجسد بسلطة الإكراه القانوني و العسكري ، و الثاني اتخذ جانباً روحياً عقائدياً تجسد بسلطة الخضوع الذاتي العقائدي من قبل أتباع الكنسية لشخص البابا . فربما تكون تلك الإزدواجية المفاجئة في القيادة المسيحية (حتى و إن كانت متناغمة و متوافقة في بداية أمرها) ربما تكون قد أثرت في ظهور و تبني النظرية الآريوسية حول طبيعة المسيح الثنائية أو المادية .

لقد دخلت الحكمة السلطانية الرومانية في صلب العقيدة المسيحية ، فحافظت على كيان و وحدة الإمبراطورية . و عندما أدى دخولها هذا إلى حدوث نوع من البلبلة و الاضطراب الفكري و العقائدي الذي قد يؤدي إلى زعزعة الاستقرار السياسي لكون الأمر السياسي قد أصبح مرتبطاً بالأمر الديني ، تدخلت الحكمة السلطانية الرومانية مرة أخرى لضبط الأمور و تبني مقولة الطبيعة الواحدة التي هي أكثر أمناً و سلامة و استقراراً من فكرة تعدد الطبائع ، و رسمت بالتالي المفهوم اللاهوتي المتمثل بالثالوث الأقدس ، و هذا كله نتج عنه فيما بعد ، الملكية المطلقة أو الحق الإلهي للملوك .

---

[٣] الجدير بالذكر أن البابا يعد أيضاً خليفة للقديس بطرس أو ممثلاً المسيح على الأرض .

الديانة الإسلامية

تمثل الديانة الإسلامية نموذجاً مختلفاً عن سابقتيها ، اليهودية و المسيحية من حيث تطور الأحداث المرتبطة بها بعد نشوئها و تشكلها و ما استتبع ذلك من تغيرات ديناميكية إقليمية ، سياسية كانت أم اجتماعية . و الاختلاف يكمن في أن الديانة الإسلامية قد شكلت لنفسها و بنفسها بعد وفاة الرسول محمد (ص) العوامل الداخلية و الذاتية لتشكيل الأطر السياسية و تكوين المجتمع و الكيان السياسي الخاص بها و بفترة زمنية قياسية إذا ما قورنت بالمسيحية و اليهودية ، و ابتدأت بعد ثلاثة عقود فحسب منذ بداية ظهورها و الدعوة إليها بواسطة الرسول (ص) ، لتقوم بعد ذلك بتغيير النظام السياسي و الاجتماعي ، بل و حتى الديموغرافي لمساحة جغرافية كبيرة امتدت على رقعة هائلة و شاسعة من الأرض . بينما استغرقت المسيحية حوالي ثلاثمئة و خمسين سنة منذ بداية ظهورها ، لتقوم بالتاثير في الوسط الجغرافي المحيط و اعتمدت على مصدر خارجي جلب إليها العنصر السياسي لتقوم هي بالتأثير فيه و بالتالي التأثير في الجغرافيا التي تخضع له ، و هو ما تمثل باعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية .

و كذلك اليهودية التي استمرت أكثر من ألفي سنة منذ بداية تأسيسها (إذا اعتبرنا أنها ابتدأت مع النبي إبراهيم) ، و بدأت مع قيام مؤسس مملكة إسرائيل بشكل رسمي و هو الملك شاول .

أما نقطة الخلاف الثانية فهي أن تأثير الديانة الإسلامية في الأفراد والمجتمعات قد اعتمد منهج التغيير الجذري وارتبط أساساً بالعمليات العسكرية والحربية التي تمثلت بالفتوحات الإسلامية التي نشأت حصراً بعد وفاة الرسول (ص) ونتج عن ذلك تغيير في العقائد و أنظمة الحكم التي شملها و طغى عليها المد الإسلامي ، بل و حتى الشخصيات و الرموز التي مثلت هذا الحكم ، بشكل إرادي أو شكل إجباري قسري و هو الغالب . و شمل ذلك مساحات جغرافية هائلة . بينما نرى المسيحية و إن انتشرت بعد غياب المسيح ، في العالم ، إلا أنها اتخذت الطابع التبشيري البحت و المجرد و نأت بنفسها عن الدخول في المعترك أو المتاهات السياسية و السلطة . و حتى عندما تفاعلت معها الحكمة السلطانية الرومانية بأعلى رمز يمثلها و هو الإمبراطور ، فإن ذلك لم يؤد إلى أي تغيير يذكر في العقائد التي إلى وقت غير قصير ، بقيت تتبع مفهوم حرية الرأي و المعتقد ، و بقي الأمر محصوراً ضمن نطاق و حدود سلطة الإمبراطورية الرومانية ، و بقيت رموز السلطة و الحكم كما هي و بقيت عملية نشر الدين المسيحي قائمة على التبشير فحسب و لم تعتمد الخيار العسكري وسيلة لنشر المسيحية ، لا بل إنه جرى نوع من فصل السلطات السياسية

عن الدينية بظهور ما يسمى " البابا " أي أن الإمبراطور الذي هو أعلى سلطة في الحكم و إن كان مسيحياً إلا أنه لا يمثل السلطة الدينية بحال من الأحوال .

و كذلك اليهودية ، فهي و بالرغم من كونها في الأدبيات و الفقه و الشرائع و النصوص الدينية قد ميزت الشعب اليهودي عن غيره من بقية الشعوب و نظرت في بعض الحالات إلى شعوب معينة كعدو أو خصم لا يريد الخير لليهود ، و أباحت الصراع الحربي و الحسم العسكري كطريقة من طرق التعامل معه ، فإنها أولاً لم تطرح ذلك كمفهوم للتبشير . و حتى قضية التبشير بمجمله و نشر الدين اليهودي ، لم تأخذ هذا الحيز الهام في الديانة اليهودية . ثانياً بقي مفهوم الحرب و القتال في العقيدة اليهودية من أجل الحصول على الأرض التي وعد الرب اليهود بها في التوراة ، و لم يتعد ذلك إلى أراض أخرى ، و بقي الأمر محصوراً في نطاق إقليمي ضيق و صغير .

و تتفق الديانة الإسلامية مع سابقتيها السماويتين من حيث النشأة الأولى و ظروف السياسة الاجتماعية التي أحاطت و رافقت هذا النشوء . فالديانات السماوية الثلاث جميعها توافقت من حيث ظهورها في وسط معاد لها و جو سياسي و اجتماعي قابلها بالرفض . فالنبي إبراهيم (ع) اصطدم في أول دعوته مع بني قومه و من ثم الملوك الذين ارتحل إلى أراضيهم و ممالكهم ، و لو بشكل غير مباشر . و كذلك كان الأمر مع موسى الذي جاء بالشرائع اليهودية الرسمية و الوصايا الإلهية المدونة ، إذ اصطدم منذ ولادته بشكل غير مباشر مع فرعون الذي أمر بقتل جميع الأطفال اليهود في مصر عندما علم بقدومه ، و اصطدم به بشكل مباشر و علني عندما بدأ بدعوته التوحيدية . و كذلك الأمر مع يسوع المسيح الذي اصطدم عند ولادته مع الملك هيرودس الذي أمر بقتل جميع الأطفال في بيت لحم عندما علم بقدومه . و بعد ذلك اصطدم المسيح مع الكهنة و الفريسيين و من ثم الرومان لينتهي الأمر بصلبه من قبل الرومان حسب ما جاء في الإنجيل ، و لتجد المسيحية بعد ذلك نفسها في مواجهة شرسة و قاتلة مع السلطة الرومانية .

و في الإسلام ، كان هنالك على ما يبدو معرفة من قبل بعضهم بقدوم النبي محمد (ص) قبل ولادته ، كما في حالة الرسل موسى و عيسى (ع).لكن لم يحدث هنا عمليات قتل لأطفال أو ما شابه ، ربما لأنه لم يوجد هناك ملك ليقوم بهذه المهمة التقليدية . و عندما بدأ الرسول (ص) دعوته إلى الإسلام ، كان أول من اصطدم به هو بني قومه و تحديداً من قبيلة قريش الذين شنوا عليه حرباً شعواء لا هوادة فيها . و لكنه انتصر عليهم في معظم المعارك التي هاجموه فيها ، حتى تسنى له دخول مكة .

و تتفق الديانة الإسلامية أيضاً مع نظيرتيها السماويتين في أن مؤسسيها الأوائل و هم موسى (ع) و عيسى (ع) و محمد (ص)، لم يؤسسوا دولاً أو كيانات سياسية خاصة بهم أو بدياناتهم [1] ، بل إن هذه الكيانات تشكلت بعد وفاتهم بفترات زمنية متفاوتة . فالنبي موسى (ع) و بالرغم من أنه قاد شعبه من مصر إلى أرض فلسطين مروراً بسيناء ، فإنه لم يشكل دولة أو يجعل من نفسه رئيس دولة أو مملكة ، و مملكة إسرائيل تشكلت بعده بسنين طويلة ، و عندما تمت المطالبة بإنشاء نظام سياسي للشعب اليهودي ، لم ينل ذلك استحسان الرب كما جاء في التوراة . و كذلك يسوع المسيح الذي كان يهرب هروباً من فكرة و مفهوم الدولة و الكيان السياسي أو المملكة و عد أن مملكته في السماء و ليست في الأرض ، و تسبب في عداوة الكهنة له من أجل ذلك . و كذلك الرسول محمد (ص) لم ينشئ دولة أو كياناً سياسياً و إنما تشكل الكيان السياسي للدولة الإسلامية بعد وفاته بعقود .

و قد جاءت الديانة الإسلامية في الفترة التي كانت فيها شبه الجزيرة العربية و بلاد الشام قد انتشرت فيهما أديان و عبادات متعددة أهمها المسيحية و اليهودية و عبادة الأوثان و الأحناف و الصابئة و المجوسية و غيرها . و هذه الأديان و المعتقدات قد تفاعلت بشكل كبير في مجتمع الجزيرة العربية ، وشكلت في بعض الأحيان جزءاً من تراثه و عاداته و حتى أحداثه . و سميت الفترة التي سبقت مباشرة ظهور الإسلام في الجزيرة العربية ، بفترة الجاهلية و هي فترة لا بد من الحديث عنها لكونها حوت أحداثاً و وقائع دينية ارتبطت بالمفهوم السياسي و الاجتماعي و بحروب و معارك حصلت في تلك الفترة . و لعل أهم الأحداث و الوقائع تلك ، قد ارتبطت بالديانتين المسيحية و اليهودية . و الممالك التي نشأت لأجلها أو بسببها أو ارتبطت أحداثها بها .

الجاهلية :

إذا قيل الجاهلية فأول ما يتبادر إلى الذهن الصحراء في شبه الجزيرة العربية بقبائلها العربية المنتشرة في كل مكان . وقد بقي العرب في شبة الجزيرة يتميزون عن باقي الشعوب الأخرى كالكلدانيين والآشوريين وغيرهم وذلك في فترات ما قبل الميلاد أما في الفترات القريبة من الإسلام أو الجاهلية التي سبقت الإسلام فقد حدثت هناك موجة تمازج وتقارب فيما بين الشعوب التي عاشت في تلك المنطقة وكانت فترة انتشرت فيها الأديان ومنها المسيحية ومن ثم اليهودية . وإذا كانت الحروب والنزاعات بين القبائل العربية قد أخذت طابعاً اقتصادياً بحتاً كالغزو بسبب الكلأ أو الماء أو الغنائم ، أوطابعاً اجتماعياً بحتاً كالثأر فإن الممالك العربية كانت أحياناً تنشب الصراعات فيما بينها أو بين غيرها من الممالك والدول الخارجية لأسباب دينية . ولعل مرد ذلك

[1] راجع في هذا الشأن كتابنا الزمن العربي الرديء ، فصل السياسة و ما بعد .

يعود إلى أن الإنسان العربي ذلك البدوي الذي يعيش في الصحراء ويتبع لقبيلة معينة ، نأى بنفسه عن السلطة والدين بعامة إما لأسباب فطرية بسيطة و إما بسبب الظروف البيئية الصحراوية والمعيشية التي حتمت عليه الارتحال بشكل متكرر طلباً للماء والغذاء والرعي . و من ناحية أخرى فإن عدم وجود وعي سماوي عامة لديه أو دين عقائدي أرضي قد لعب دوراً هاماً في هذا الصدد حيث إن الأوثان والأصنام التي كانت شائعة في حياته ومجتمعه القبلي ، لم تكن مصدر إلهام عقائدي إيماني لديه بقدر ما كانت حالة خوف أو عرف أو تقليد أو حاجة يومية روتينية . هذه الأسباب كلها أدت إلى أن تكون الحكمة السلطانية القبلية عبارة عن سلطة اجتماعية بحتة ، خف فيها دور الحكمة القيادية المجردة بشكل ملحوظ ، كونها أولاً كانت خارج نطاق الآحداث الدينية و السياسية الإقليمية ، و لم تدخل في منظومة حساب الحكم السلطانية الإقليمية أو العالمية في تلك الفترة إلا كمجرد بيدق ، نادراً ما يتم الحاجة إليه . و ثانياً لم تتوافر لها عوامل الإجهاد الفكري التخطيطي للقيادة و التوجيه ، لأن العصبية القبلية قد أراحتها تماماً من هذه المشكلة و وفرت عليها عناء ذلك . و لذلك فهي لم تدخل في ميزان مراكز القوى . بينما في الجانب الآخر ، نرى أن الممالك العربية و مراكز التجمعات المستقرة نوعاً ما في الصحراء العربية ، قد دخلت في حيز التأثير السلطوي و الديني و كذلك التأثير السياسي الديني الإقليمي ، لأنها كانت تمثل بالنسبة للقوى الإقليمية و العالمية الفاعلة ، نوعاً من مراكز القوى التي يمكن أن تدخل في حساب أية معادلة سياسية أو عسكرية و بخاصة إذا كانت بين قوتين كبيرتين ، كالرومان و الفرس . و هي الوقت ذاته تصلح لأن تكون كمركز للآراء و العقائد الدينية المعدة للاستيراد أو التصدير .

و إذا تناولنا أقدم النصوص العربية المؤرخة و التي تحدثت عن فترة الجاهلية في شبه الجزيرة العربية ، نجد أن الطابع الديني يغلب على أحداثها أو داخل فيها . و لعل قصة ربيعة بن نصر ملك اليمن و الرؤيا التي رآها في منامه ، توحي بشيء من هذا [1] . و ربيعة بن نصر هذا ، هو أحد ملوك التبابعة الذين حكموا في اليمن . و حدث في أحد الأيام أن رأى في منامه رؤيا أجفل منها و أوجس . فطلب من حكماء مملكته تفسيرها ، فقيل له إن اثنين من كبار المفسرين اليهود يدعيان سطيح و شلق هما القادران على تفسيرها ، فقام باستدعائهما و طلب منها تفسير منامه ، فأخبره كل منهما على حدة ، أن المنطقة ستتعرض لهجوم من الأحباش من إفريقية و سيحتلونها لفترة زمنية تمتد حوالي السبعين عاماً ، ثم يخرج عليهم بعد ذلك ملك عربي يدعى إرم بن ذي يزن ، من عدن ، فيحاربهم و يطردهم من البلاد و يأتي بعده – حسب تفسيرهما – " نبي زكي

[1] السيرة النبوية ، ص/١٢/ .

يأتيه الوحي من قبل العلي "[٢] و هو من ولد غالب بن فهر بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر . فلما سمع الملك ذلك ، أرسل أهل بيته كلهم إلى العراق و أسكنهم الحيرة . ثم ملك من بعده رجل يدعى حسان بن تبان (أو تبع) . و حسب السيرة ، فإن أباه تبع ، قدم ذات يوم على المدينة[٣] واستخلف عليها ولده الذي قتله أهلها ، فجمع تبان جيشاً كبيراً و سا ر لقتال أهل المدينة ، فبرز له الأنصار و قاتلوه و استمر القتال بينهم فترة معينة حتى جاء الملك حبران من أحبار اليهود من بني قريظة و النضير عندما سمعوا أنه يريد إهلاك المدينة ، و قالا له : أيها الملك لا تفعل ، فإنك إن أبيت إلا ما تريد ، حيل بينك و بينها و لم نأمن عليك عاجل العقوبة . فقال لهما و لم ذاك ؟؟! فقالا : هي مَهَاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان ، تكون داره و قراره . فتناهى عن ذلك و رأى أن لهما علماً و أعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة و اتبعهما على دينهما . و قد ذكرت أشعار عربية في هذه المناسبة[٤] .

بعد ذلك تحصل حادثة أخرى تؤدي إلى اعتناقه اليهودية حيث جاء في السيرة[٥] " قال ابن إسحق " و كان تبع و قومه ، أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجه إلى مكة و هي في طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عسفان ، أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إياس بن مضر ، فقالوا له :أيها الملك ، ألا ندلك إلى بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ و الزبرجد و الياقوت و الذهب و الفضة ؟ فقال : بلى . فقالوا : بيت بمكة يعبده أهله و يصلون عنده (و إنما أراد القوم ذلك لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك و بغى عنده) فأرسل الملك إلى الحبرين اليهوديين يستوضح الأمر منهما الأمر ، فقالا له : ما أراد القوم إلا هلاكك و هلاك جندك ، ما نعلم بيتاً لله اتخذه في الأرض لنفسه غيره ، و لئن فعلت ما دعوك إليه ، لتهلكن و ليهلكن من معك جميعاً . فقال لهما : ماذا تأمراننى أن أصنع إذا أقدمت إليه ؟ قالا له : تصنع عنده ما يصنع أهله و تطوف فيه و تعظمه و تكرمه و تحلق رأسك عنده و تذل له حتى تخرج من عنده . فقال لهما : و ما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أما و الله إنه لبيت أبينا إبراهيم و إنه لكما أخبرناك . و لكن أهله حالو بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله و بالدماء التي يهرقون عنده و هم نجس أهل شرك . فعرف الملك نصحهما و صدق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم و أرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة ، فطاف بالبيت و نحر عنده و حلق رأسه و أقام بمكة ستة أيام ينحر بها للناس و يطعم أهلها و يسقيهم العسل . و أري في المنام أن يكسو البيت ، فكساه الخصف (الثياب الغليظة

---

[٢] المقصود به هو الرسول (ص) .

[٣] يبدو أنها المدينة المنورة حسب ما يستشف من سيرة ابن هشام .

[٤] المصدر السابق ، ص/١٥/ .

[٥] المصدر السابق نفسه .

) . ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافر (ثياباً أجود) . و كان تبع هذا حسبما قيل ، أول من كسا البيت و أوصى به ولاته و أمرهم بتطهيره . و قد قالت في ذلك إحدى النساء العربيات و اسمها سبيعة بنت الأجب لابنها تحذره من حرمة البيت :

ابني لا تظلم بمكة لا الصغير و لا الكبير
و احفظ محارمها بني و لا يغرنك الغرور
الله أمنها و ما بنيت بعرصتها قصور
و لقد غزاها تبع فكسا بنيتها الحبير
و أذل ربي ملكه فيها فاوفى بالنذور

بعد ذلك غادر تبع مكة متجهاً إلى اليمن و قد أخذ معه الحبرين . و عندما وصل إلى هناك دعا قومه إلى اليهودية ، و لكنهم رفضوا و حاولوا منعه من دخول اليمن . فتحاكموا إلى النار حيث جرت الأعراف هناك أن النار تأكل الظالم و تترك صاحب الحق . و في اليوم المحدد جاء قوم تبع بأصنامهم و أوثانهم و وقفوا عند مخرج النار ، فأحرقتهم و أكلت أوثانهم . بعد ذلك جاء الحبران بمصاحفهما و وقفوا عند مخرج النار ، فلم تمسهم بسوء . و عند ذلك دخل قوم تبع باليهودية و هذا هو سبب وجود اليهودية باليمن (حسب السيرة النبوية) .

إن ما يمكن استنتاجه من مطالعة المصادر التاريخية الخاصة بتلك الفترة ، هو أن انتشار الأديان التوحيدية السماوية آنذاك ، لم يكن مرتبطاً بسبب سياسي فرضته مصلحة أو ضرورة سياسية ، بل كان ذا بعد روحي مباشر ، و إن كانت أداة الانتشار سياسية تمثلت بالملك أو الحاكم ، كالتبع ، أو روحية خالصة تجسدت بصراع الآلهة و الإيمان بالإله المنتصر كما في المسيحية التي انتشرت بداية أمرها في منطقة نجران على يد كاهن نصراني يقال له فيميون ، و كانت له براهين و معجزاتو كان ينتقل من قرية إلى قرية ، حتى وصل إلى نـ جران التي كان أهلها يعبدون نخلة كبيرة عندهم . و عندما رأوا أعاجيب ذلك الراهب ، سألوه عن دينه فأخبرهم و قال لهم : إنما أنتم في باطل و إن هذه النخلة لا تضر و لا تنفع و لو دعوت عليها الذي أعبد ، لأهلكها و هو الله وحده لا شريك له[1] فلما تحدوه في ذلك ، دعا عـ ليها ، فأرسل الله ريحاً اقتلعتها من أصلها و قذفتها بعيداً ، فدخل بنو نجران في النصرانية و منهم (حسب الطبري) انتقلت إلى باقي عرب الصحراء (الذين تنصروا) .

يتضح مما سبق أن دخول الأمر الديني التوحيدي ، لم يكن كنتيجة لتخطيط مسبق أو افتعال منظم من قبل حكمة سلطانية معينة ، أو نتيجة لتأثير و امتداد الحكم السلطانية السابقة و علاقتها مع

---

[1] تاريخ الطبري ، ج /١/ ، ص/٢٥٩/ . و هنالك رواية أخرى مشابهة للأولى .

ظهور و نشوء الأديان و الحراكات السياسية و الدول الناشئة ، بل كان نتيجة لفرض الحكمة الإلهية نفسها كمعجزة خارقة لا يمكن ردها أو صدها كما حصل مع تبع و قومه أو مع الراهب (فيميون) و أهل نجران . أو كان نتيجة لخوف من أحداث سياسية مستقبلية جرى تفسيرها و كانت خارج نطاق السلطة الحاكمة نفسها ، كالتفسير للأحداث و الوقائع السياسية و العسكرية التي ستحدث مستقبلاً و التي تجلت في الحلم الذي رآه الملك اليمني و جرى تفسيره على أساس وقوع أحداث عسكرية كان لا مناص من أخذها بعين الاعتبار من قبل السلطات السياسية الحاكمة و الذي أدى فيما يبدو إلى اعتناق هذه القوى السياسية للديانة الجديدة . و لا بد لنا من الإشارة في هذا المجال إلى أن المسيحية كانت منتشرة على نحو واسع في بلاد الشام و العراق و مصر و حتى الحبشة عن طريق التبشير الذي دعمته الحكومة الرومانية فيما بعد و قوته بين العرب كوسيلة من وسائل الاستقرار السياسي . و لذلك فقد كان من السهل أن تجد المسيحية طريقها حتى إلى الصحراء العربية ، و لكن في حالات نادرة جداً قياساً إلى المدن كما في حادثة فيميون النصرانية ، بينما انكفأت اليهودية على نفسها بعض الشيء ولم تجد لنفسها طريقاً للتوسع و الانتشار كما المسيحية ، ربما لأسباب عدة ، منها أنها تعرضت لضربة قاصمة قوية عند تدمير الهيكل على يد الرومان ، فأصبح اليهود الناجون من تلك الحملة ، جماعات متفرقة هاربة من بطش الرومان ، لا يهمها التبشير بقدر ما يهمها الأمان و النجاة . يضاف إلى ذلك انتفاء المرجعية الدينية لهم . أما السبب الآخر و الذي قد يكون أكثر قوة من الأول ، هو أن اليهود عامة ، لم يكونوا مهتمين بنشر ديانتهم و التبشير بها على غرار المسيحين ، و لكنهم في الوقت نفسه لكو ذوا يضنون أو يبخلون بها على من يريد دراستها أو الاضّلاع فيها أو حتى اعتناقها . و لعلنا نلاحظ أن اعتناق الملك تبع و قومه اليهودية ، كان بمبادرة منهم و ليس نتيجة لتبشير يهودي مباشر بينما كان الراهب (فيميون) هو من عرض على أهل نجران المسيحية و مع ذلك فإن كلتا الديانتين (اليهودية النصرانية) كانتا معروفتين لعرب البادية ، حتى أولئك الذين لم يعتنقوهما ، إذ تركتا لديهم انطباعاً إيجابياً أو على الأقل ليس سيئاً . يقول أحد شعراء الجاهلية و اسمه أوس بن حجر :

قد نمت عني بات البرق يسهرني كما استضاء يهودي بمصباح .

كذلك وصفت منطقة تيماء أو نسبت في بعض الأحيان إلى اليهودية ، حيث قال الشاعر الأعشى في ذلك :

و لا عادياً لم يمنع الموت ماله وورد بتيماء اليهودي أبلق .

و قصة السموأل اليهودي و وفائه مع امرئ القيس ، حين استودعه سلاحه في الحصن ، هي قصة معروفة ، حيث يقول السموأل مادحاً نفسه في ذلك :

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما ذم أقوام وفيت
و أوصى عادياً يوماً بأن لا تهدم يا سموأل ما بنيت
بنى لي عادياً حصناً حصيناً و ماء كلما شئت استقيت[1] .

و كان أحد وجهاء اليهود في المدينة له امرأة أسلمت ففارقته ثم اشتاقت إليه بعد فترة ، فأتته و طلبت منه اعتناق الإسلام ، فأبى الرجل و قال :

دعتني إلى الإسلام يوم لقيتها فقلت لها بل تعالي تهودي
فنحن على توراة موسى و دينه و نعم لعمري الدين دين محمد[2] .

كما جاء أيضاً ذكر أحبار مدين في الأشعار حيث قال الشاعر عنهم :

رهبان مدين و الذين عهدتهم يبكون من حذر العقاب قعودا
رهبان مدين لو رأوك تنزلوا و العصم في شعف الجبال الغادر[3] .

كذلك فقد كانت أماكن عبادة اليهود معروفة للعرب و تسمى بالمحراب ، حيث قال قيس بن الخطيم :

نمتها اليهود إلى قبة دوين السماء بمحرابها .

و كذلك فقد عرف العرب رجال الدين اليهود باسمائهم الفعلية ، كالأحبار و الربانيين و غير ذلك ، حيث قال أحد الشعراء :

كما خط عبرانيه بيمينه بتيماء حبر ثم عرض أسطرا .

و أيضاً فقد جاء ذكر لكتب اليهود المقدسة ، حيث يقول امرؤ القيس :

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان
لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني .

و انسحب هذا الأمر أيضاً على النصرانية التي كان لها دخول مشابه إلى حد ما لليهودية حيث كان للذين فروا من موجة الاضطهاد الروماني دور مهم في نشر المسيحية في بعض المناطق المتاخمة للجزيرة العربية . ثم جاء تحول الدولة الرومانية ليدعم هذا الاتجاه و يضفي عليه الطابع الرسمي الشرعي . و أدى ذلك إلى أن تقيم النصرانية لنفسها مراكز دينية في المناطق يخرج منها المبشرون إلى الجوار و لذلك فقد انتشرت المسيحية بشكل أقوى من نظيرتها اليهودية و كانت

---

[1] أديان العرب قبل الإسلام ، ص/٢٢٤/ .
[2] المصدر السابق .
[3] المصدر السابق . و الأبيات بمجملها من المصدر نفسه .

بالتالي معروفة لأهل البداوة من العرب ، فقد تحدث حسان بن ثابت عن بعض أصدقائه من النصارى فقال :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول .

و لكن الأمر الديني في المسيحية قد ارتبط في بعض الأحايين بالأمر السياسي ، إذ كانت السلطة المركزية في القسطنطينية و رومة ، تدعم المراكز و الكنائس الإقليمية و تحاول ربطها معها بأوثق الصلات . فذكر على سبيل المثال أن الإمبراطور قسطنطين قد أرسل أحد الأساقفة إلى بني حمير في اليمن لمحاولة التبشير بالمسيحية هلك [1] . و وصل الأمر إلى درجة إقامة كعبة نصرانية بنجران يفد إليها العرب النصارى من الأماكن القريبة و هي التي قال فيها الشاعر الأعشى :

و كعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها

تزور يزيداً و عبد المسيح و قيساً هم خير أربابها .

و شيئاً فشيئاً ، و نتيجة لأمور و احتكاكات سياسية معينة ، كان لا بد من حدوث الصدام بين الديانتين و بخاصة أنه أصبح لكل منهما في شبه الجزيرة العربية نظام سياسي يعتمد عليه . و ربما يكون النشاط التبشيري قد لعب دوراً في هذا المجال و بالذات عندما يبشر طرف ما في منطقة تكون عرفاً ، تابعة للطرف الآخر .

و كانت أول عملية اصطدام مباشر بين الديانتين ، هي خروج الملك اليهودي ذي نواس بجيشه إلى أرض نجران و طلبه من أهلها التهود أو القتل . و الواقع أنه لا تتوافر أخبار كثيرة عن الدوافع الحقيقية لذي نواس لهذا الأمر ، سوى أن أحد اليهود قدم إليه و أخبره أن أهل نجران قتلوا ولديه ظلماً ، فتحمس الرجل للثأر [2] . و لا يمكن تفسير ذلك على ما يبو إ لا بقوة التبشير المسيحي و وصوله إلى المناطق اليهودية في اليمن ، حيث رأى فيه أهلها هناك خطراً عليهم و بخاصة أن نجران و كعبتها قد أصبحتا مركز تجمع . و هذا من باب الاستنتاج و التخمين . أو لدخول العامل الاقتصادي التجاري و السياسي في الحسبان إذ إن الطرق التجارية كانت تمر في تلك المناطق . و لكن أهل نجران رفضوا هذا العرض ، فقام ذو نواس بقتل رؤسائهم و حفر لهم خندقاً في الأرض عرف باسم الأخدود و حرقهم فيه و أعمل السيف بمن أعمل[3] ، ففرمنهم رجل يقال له دوس ذو ثعلبان . و حسب الروايات ، ذهب إلى قيصر الروم و اخبره بما حصل لأهل

---

[1] المصدر السابق .

[2] الطبري ، ج/١/ .

[3] تاريخ الطبري ، ج/١/ ، ص/٢٦٠/ - السيرة النبوية ص/٢٣/ .

نجران ، فكتب قيصر إلى ملك الحبشة التي كانت نصرانية ، و أمره بالانتقام لأهل نجران ، فبعث ملك الحبشة جيشاً مؤلفاً من سبعين ألف رجل لمهاجمة ذي نواس باليمن و عين على رأسه قائداً اسمه أرياط و قيل أبرهة الأشرم و هو الأكثر شهرة . فوصل جيش ابرهة إلى اليمن و انتصر على جيش ذي نواس الذي اختفى أثره بعد ذلك ، لتبدأ بعدها عمليات قتل و تدمير منظمة باليمن من قبل الجيش الحبشي . و عندما استقر الأمر لأبرهة في اليمن ، بنى كنيسة كبيرة و جعلها بمنزلة الكعبة و طلب من كل العرب الوفود إليها الحج فيها .

إلى هنا ، يكون مراد الجيش الحبشي قد تحقق و شاءت الحكمة الإلهية أن يعود لأهل نجران حقهم و يدفع ذي نواس ثمن فعلته و تعديه عليهم . إلى هنا انتهت المسألة و وقفت عند هذا الحد . و لكن أبرهة على ما يبدو لم يشأ التوقف و قرر المضي قدماً في أحلامه و مشاريعه الدينية و السياسية ، متخطياً الخطوط الحمر الإلهية نفسها التي تخطاها ذو نواس ، و الوقوع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه هذا الأخير حينما قام بقتل أهالي نجران و تطهير اليمن من المسيحية و أخذ حجماً أكبر من حجمه . لقد بدأ أبرهة هو الآخر يأخذ حجماً أكبر من حجمه ، فأخذ يفكر بهدم الكعبة في مكة لتحويل الناس إلى كعبة نجران أو كعبته التي بناها حين قام بإنشاء كنيسته التي سماها القليس . و كتب إلى ملك الحبشة يقول له " إني قد بنيت لك ايها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك من قبلك ، و لست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب "[1] . و بدأ يعد العدة لمهاجمة الكعبة بيت الله الحرام في مكة ، التي بناها النبي إبراهيم الخليل و التي جاء ذكرها في مواضع عدة من القرآن الكريم منها **و إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت و إسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** (البقرة – ١٢٧) . **و إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً و طهر بيتي للطائفين و القائمين و الركع و السجود** (الحج – ٢٦) . و هذه القضية جاء ما يثبتها أيضاً في الأشعار الجاهلية ، إذ كان للكعبة مكانة كبيرة و شأن عظيم عند العرب بعامة ، سواء للحج أم لغيره ، حيث قال الحارث بن مضاض :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس و لم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها أبادنا صدوف الليالي و الجدود العواثر
و كنا لإسماعيل صهراً و وصلة و لما تدر علينا الدوائر
و كنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بذلك البيت و الخير ظاهر
و كنا ولاة البيت و القاطن الذي إليه يؤدي نذره كل محرم[2] .

---

[1] السيرة النبوية ، ص/٢٦/ .

[2] أديان العرب قبل الإسلام ، ص/٢١٠/ .

و فيه أيضاً قال الشاعر زهير بن أبي سلمى :

فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش و جرهم .

و فيه قال الشاعر العوف بن الأحوص :

و إني و الذي حجت قريش محارمه ما جمعت حراء .

و قال فيه النابغة الذبياني :

فلا ورب الذي قد زرته حججاً و ما هريق على الأنصاب من جسد .

و قال فيه لبيد :

فأقسم بالذي حججت قريش و موقف ذي الحجيج إلى الآل .

و قال فيه أيضاً أحد الشعراء الفرس :

و ما زلنا نحج البيت قدماً و نلقي بالأباطح آمنينا
و ساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق بأصيدينا
و طاف به و زمزم عند بئر اسماعيل تروي الشاربينا .

و قال فيه ورقة بن نوفل :

كفى حزناً كرى عليه كأنه لقاً بين أيدي الطائفين حريم[٣] .

المهم أن أبرهة قد جيّش جيشاً عظيماً كبيراً ، تقوده الفيلة ، و سار به باتجاه مكة لهدم الكعبة . و كان يدمر في طريقه كل من يقف في وجهه . و عندما ترامت الأنباء بقدوم أبرهة ، إلى عبد المطلب جد الرسول (ص) ، و كان المسؤول الأول عن سدانة الكعبة ، قال " للبيت رب سيحميه " . و ما إن وصل أبرهة إلى مكة و تهيأ لهدم الكعبة ، حتى أتاه الصاروخ الإلهي ، فقد استشرى في جيشه وباء الجدري و بدأ يفتك بجنوده واحداً تلو الآخر . و لم ينج هو نفسه من ذلك . و جاء تأويل ذلك في كتب السيرة ، بأن طيوراً جاءت من السماء و ضربت الجيش الحبشي بحجارة أصابت أبرهة نفسه بذلك المرض حتى هلك و تفرق جيشه . و قد جاء في القرآن الكريم ما يصور هذه الحادثة في سورة الفيل (**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل _ ألم يجعل كيدهم في تضليل _ و أرسل عليهم طيراً أبابيل _ ترميهم بحجارة من سجيل _ فجعلهم كعصف مأكول**) .

إن قراءة سريعة لتلك الأحداث ، منذ بداية دخول اليهودية إلى اليمن ، و النصرانية إلى نجران ، و حتى إبادة جيش أبرهة و هلاكه أمام جدران الكعبة ، تبين لنا طبيعة العلاقة بين الحكمة

---

[٣] المصدر السابق .

السلطانية و الحكمة الإلهية . و نلاحظ أن الحكمة السلطانية كانت هي المبادرة في كل الأحوال إلى الحكمة الإلهية ، سواء عن إيمان نتج عن مصلحة و ضرورة سياسية ، أ م عن خوف من القوى و القدرات الإلهية . و في كلتا الحالتين كانت الرغبة و المصلحة السياسية أو المادية تثبت حضورها دوماً . فالتبع اليماني اعتنق اليهودية نتيجة استقراء للأحداث السياسية المستقبلية . و ملك نجران فعل ذلك و اعتنق النصرانية ليتخلص من عبد الله بن تام ر تلميذ الراهب فيميون و تكون السيادة له هو . و في كلتا الحالتين أيضاً تماهت الحكمة الإلهية على ما يبدو مع تلك القوى السلطانية السياسية و لم تتدخل أو تفرض تغيرات معينة . و لكن ما إن بدأت هذه القوى تتجاوز الخطوط الحمر المرسومة لها ، حتى تدخلت هذه الحكمة و بطشت بالجميع و دمرتهم .

هذه القضية تذكرنا إلى حد ما بالأحداث الحاصلة في العهد القديم و خاصة الأسفار الأولى عندما كانت الحكمة الإلهية تتدخل لوضع الأمور في نصابها عند كل تجاوز للخط الأحمر أو الأزرق و لو عن طريق التدمير . و يبدو واضحاً من خلال استقراء الحوادث التاريخية لتلك الأحداث ، حضور الغاية و الأمر السياسي المتمثل بالمصالح الاقتصادية أو السياسية و لو تحت ستار ديني .

و قد جرى الحديث في بعض الكتب التاريخية عن تشكيك في صحة أو دقة المعلومات الواردة إلينا بشأن[1] انتشار اليهودية و النصرانية في شبه الجزيرة العربية و غيرها من الأديان ، و لكنها عدت حماية الطرق التجارية و حماية الرهبان و المسافرين في الصحراء و ما جاورها من مناطق ، سبباً رئيساً في تدخل السلطات السياسية في بث و دعم النشاط الديني التبشيري و بخاصة في بعض القبائل العربية و رؤسائها الذين كانوا يشكلون دعماً قوياً للإمبراطورية باعتناقهم المسيحية ، فضلاً عن الممالك الصغيرة . و ربما تكون هذه الأحداث و المصالح السياسية و الاقتصادية قد لعبت دوراً قوياً في الصدام المذكور . و بحسب راي المؤرخ نقولا زيادة فإن " ذو نواس ملك حمير قد اعتنق اليهودية كي يحارب بها المسيحية السياسية التي كانت تتمثل بدولة أكسوم و خلفها الدولة البيزنطية . و قد حارب ذو نواس المسيحية حرباً ضروس . فأزال جماعات مسيحية بأكملها من العاصمة ظفار و من السواحل ، ثم اتجه نحو نجران ليقوم باضطهاد منظم و قد أحس بأن هجوماً أكسومياً على بلاده كان على وشك الا نطلاق . و هذا ما أدى إلى الإسراع في الهجوم على اليمن "[2] .

إن عملية تدخل الحكمة الإلهية و بطشها بمراكز القوى السياسية الدينية ، بعد أن دعمتها في البداية ، يدل على أمور عدة و هي :

---

[1] المسيحية و العرب ، ص/١٦٦/ .

[2] المصدر السابق ، ص/١٦٥/ .

ـ إما أن أعمال هذه القوى السلطانية و تصرفاتها لم تكن ذات نية تكيلملة أ و طابع روحي بحت ، بل كان لها أهداف سياسية و مادية من وراء تقربها و علاقتها بالأمر الديني .

ـ و إما أن هذه القوى السياسية لم تحسن التعامل و التكيف مع الإرادة و الحكمة الإلهية ، لأنه من الأساس لم يكن لديها هذه الخبرة أو الدراية ، أو غابت عنها القيادات الروحية الدينية الحكيمة التي كانت توجه الحكم السلطانية التي كانت قبلها ، كالتبع اليماني الذي كان يتبع نصائح الحبرين اليهوديين ، بينما لم يلاحظ ذلك في عهد ذي نواس و كذلك أبرهة الحبشي الذي وصل إلى القيادة المسيحية بانقلابه على قائد جيشه أرياط و قتله و فرض نفسه بالقوة على ملك الحبشة النجاشي .

ـ إن هذه القوى المتصارعة ، جرى استدراجها بشكل خفي لتكون بمواجهة مع الإرادة الإلهية ، لتدميرها ، سواء بالنسبة لعملية ذو نواس أم لحملة أبرهة الحبشي إلى مكة . هذا الأمرعززه وجود أمور شبيهة سابقة ، تمثلت بمحاولات استدراج لبعض القوى السياسية الحاكمة لشيء من هذا القبيل . كما حصل مع الملك اليمني التبع ، حين أتاه نفر من هذيل و قالوا له " أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثر ... إلى أخر القصة المذكور في صفحات سابقة من هذا الفصل ، فأرسل الملك إلى الحبرين اليهوديين و سألهما عن ذلك ، فمنعاه و أخبراه بأن قصد القوم هو تدميره و إهلاكه بواسطة القدرة الإلهية ، و طلبا منه أن يقوم بزيارة الكعبة و تزيينها . و لهذا لا نستبعد أن تكون سورة الفيل في القرأن الكريم قد جاءت فضلاً عن كونها قصة تاريخية من قصص القرآن الكريم ، قد جاءت بمنزلة تحذير و نهي من محاولة استدراج ما ، لحدث ما ، في عهد الرسول (ص) .

أذن في ظل هذه الأحداث و الوقائع ، جاء الإسلام و ظهر في شبه الجزيرة العربية بدعوة من الرسول الكريم محمد بن عبد الله (ص) .

الإسلام :

يختلف مجيء الإسلام و ظهوره في شبه الجزيرة العربية ، عن الديانتين اليهودية و المسيحية ، بأمرين اثنين . أولاً و حسب الروايات التاريخية ، كان هناك توقع مسبق عند بعضهم بظهور نبي و دين جديد ، و كانت هنالك علامات معينة لتمييزه . ثانياً لم يبدأ ظهور الأمر الديني الرسمي مباشرة مع ولادة الرسول (ص) ، بل بقي أربعون عاماً بعد ولادته حتى أتاه الأمر الإلهي بالدعوة للإسلام ، عن طريق الوحي الذي تمثل بجبريل (ع) .

ولد الرسول (ص) في عام الفيل ، أي في السنة نفسها التي هلك فيها أبرهة الحبشي . و منذ ولادة الرسول (ص) و حتى بدء دعوته بالإسلام ، يندر أن توجد في التاريخ ، تفاصيل دقيقة و غزيرة

عن حياته (ص) إلا في الحوادث العامة كوفاة أبويه و كفالة جده عبد المطلب لـه ، ثم كفالة عمه أبي طالب له و ذهابه به إلى الشام و رؤية الراهب (بحيرا) لـه و معرفته به ، ثم زواجه من خديجة بنت خويلد . و طوال الفترة التي عاشها الرسول (ص) في قومه قبل نزول الوحي إليه ، كان متميزاً بأخلاقه الحميدة و صفاته الحسنة التي ندر من يحملها . و لهذا السبب ، كانت قريش تحترمه وتنظر إليه بعين الإكبار و التقدير و كانا يسمونه " الصادق الأمين " . و بالرغم من تنبؤ بعض اليهود الكهان بمجيء الرسول (ص) ، فإن الوحي لم ينزل عليه إلا في الأربعين من عمره . و قد بدأت الدعوة إلى الإسلام عندما ظهر جبريل للرسول (ص) و هو في غار حراء حيث كان يقصده دائماً للتعامل و السكينة .

ظهر جبريل فقال للرسول (ص) : اقرأ .. فقال : ما أنا بقارئ ؟؟ فكرر طلبه منه و كانت الإجابة نفسها . و في المرة الثالثة قال له (**اقرأ باسم ربك الذي خلق _ خلق الإنسان من علق _ اقرأ و ربك الأكرم _ لذي علم بالقلم _ علم الإنسان ما لم يعلم**) (العلق ١ – ٥) . و عندما غاب جبريل عن العيان ، نزل الرسول (ص) خائفاً و هو يرتجف من البرد . و عندما وصل إلى زوجه خديجة (ع) قال : زملوني .. زملوني .. دثروني .. دثروني . و روى لها ما حصل معه ، فأخذته خديجة إلى عمها ورقة بن نوفل و كان نصرانياً . و عندما روى له (ص) ما حدث معه ، قال له ورقة " و الذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة و لقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى و لتكَذّبنَ و لتؤذَين و لتخرجن و لتقاتلن[١] .. و لئن أدركت أنا ذلك اليوم ، لأنصرن الله نصراً يعلمه " . بعد ذلك أتى جبريل (ع) الرسول (ص) مرة أخرى و علمه شيئاً من الصلاة و الوضوء . و كان أول من آمن به هو زوجته خديجة (ع) ثم تلاها الإمام علي بن أبي طالب (ع) . و قد جاء في السيرة النبوية "أن الصلاة حين افترضت على الرسول (ص) ، أتاه جبريل (ع) و هو بمكة ، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي ، فانفجرت منه عيناً ، فتوضأ جبريل (ع) و الرسول (ص) ينظر إليه ، ليريه كيف الطهور للصلاة . ثم توضأ الرسول (ص) كما رأى جبريل (ع) يتوضأ . ثم قام جبريل (ع) فصلى به و صلى الرسول (ص) بصلاته . ثم انصرف جبريل (ع) . وجاء الرسول (ص) خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل (ع) ، فتوضأت كما توضأ لها الرسول (ص) ثم صلى بها الرسول (ص) كما صلى جبريل (ع) ، فصلت بصلاته "[٢] . " و كان أول من آمن برسول الله (ص) بعد خديجة و صلى معه و صدق بما جاءه من الله تعالى ، هو علي بن أبي طالب (ع) ابن عبد المطلب بن هاشم ، و هو ابن عشر سنين يومئذ . و كان رسول

---

[١] أي ستتعرض للأذى و المحاربة ، و الكلام هنا بصيغة المفعول به و ليس الفاعل .

[٢] السيرة النبوية ، ص/١٢٢/ .

الله إذا حضرت الصلاة ، خرج إلى شعاب مكة و خرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه ، أبي طالب و من جميع أعمامه و سائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا ، رجعا . فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا . ثم إن أبا طالب رآه يوماً يصلي فقال : أي بني ، ماهذا الدين الذي أنت عليه ؟؟! فقال يا أبت آمنت بالله و برسول الله و صدقته و صليت معه لله و اتبعته . فقال له أبوه : أما إنه لم يدلك إلا إلى خير ، فالزمه "[٣] .

و أسلم بعد علي (ع) زيد بن حارثة ثم أسلم أبو بكر الصديق (رض) و هو عبد الله بن أبي قحافة ، و قد أظهر إسلامه و حاول استمالة بعضهم إلى الدين الجديد ، فأسلم بسببه عثمان بن عفان و الزبير بن العوام و عبد الرحمن بن عوف و سعد بن أبي وقاص و غيرهم . و لقب أبو بكر بالصديق لأنه سارع إلى الإيمان برسول الله و تصديقه و نصرته و ملازمته . و توالى بعد ذلك عدد الداخلين في الإسلام . و كانت الدعوة إليه في الخفاء لمدة ثلاث سنوات ، حتى أتى أمر الله تعالى إلى الرسول (ص) . و قيل إن هذا الأمر قد جاء في الآيتين التاليتين (**فاصدع بما تؤمر و اعرض عن المشركين**) (الحجر – ٩٤) . (**و انذر عشيرتك الأقربين _ و اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين _ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون**) (الشعراء / ٢١٤ – ٢١٦) . فدعا الرسول (ص) قريش إلى جبل قريب من مكة و جاهر بدعوته هناك و دعاهم علناً إلى الله الواحد ، فعارضوه بالمجمل و بدؤوا بمحاربته بكل الطرق و محاربة أتباعه و كل من يدخل في الإسلام ، و حاولوا إيذاء الرسول (ص) نفسه أكثر من مرة و في أكثر من موضع ، و لكن عمه أبا طالب كان يحميه منهم و يدافع عنه .

و اشتد أذى المشركين للرسول (ص) و تعذيبهم لأتباعه من المسلمين و حصارهم لهم ، فأمر النبي أن يذهب بعض منهم إلى الحبشة و بعضهم الآخر إلى المدينة المنورة و كانت تسمى " يثرب " . فهاجر قسم كبير من أتباعه و بقي النبي في مكة يتحمل أذى المشركين و حصارهم و ضغطهم عليه و على كل من بقي في مكة من أتباعه ما عدا اثنين ، أبوبكر الصديق (رض) و علي بن أبي طالب (ع) .

و استمر الأمر على هذا المنوال ، حتى أعيت قريش الحيلة في حرب الرسول (ص) و صده ، فاتفقوا أخيراً على قتله ، و رتبوا لذلك خطة تقضي بأن يختاروا من كل قبيلة فتى قوياً ، و يذهب هؤلاء إلى الرسول (ص) و يضربوه بالسيف ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين القبائل ، فلا يستطيع بنو هاشم (عشيرة النبي) المطالبة بدمه . عند ذلك أتى الأمر الإلهي للرسول (ص) بالهجرة إلى المدينة ، فخرج من بيته ليلاً و جعل الإمام علي بن أبي طالب (ع) ينام في فراشه ،

---

[٣] المصدر السابق .

ثم اصطحب أبو بكر الصديق معه إلى المدينة و أحد أدلاء الصحراء و اسمه عبد الله بن أريقط . و طلب من أتباعه بعد ذلك أن يوافوه إليها .

إن الفترة التي عاشها الرسول (ص) في مكة بعد نزول الوحي عليه ، تعد نصف فترة الدعوة الإسلامية تقريباً ، حيث قضى الرسول (ص) نصفها الأول في مكة و النصف الثاني في المدينة المنورة . و يمكن القول إن نصف الإسلام كان في مكة و نصفه الآخر في المدينة ، فهنالك الكثير من الآيات أو السور القرآنية التي نزلت في مكة و سميت بالآيات أو السور المكية . أما التي نزلت في المدينة بعد هجرة الرسول (ص) إليها ، فسميت بالآيات أو السور المدنية .

لقد كانت الفترة المكية هي فترة التأسيس للديانة الإسلامية ولمشروع انتشارها فيما بعد . و إن معاودة إلقاء نظرة تحليلية على هذه المرحلة ، تبين لنا تدخل الحكمة الإلهية و تخطيطها (إن جاز التعبير) . و كون هذه الديانة هي آخر الديانات السماوية التوحيدية ، و الرسول (ص) هو آخر الأنبياء و الرسل و خاتمهم ، كان لا بد من الناحية المنطقية النظرية ، القبول بفكرة التدخل الإلهي لإنجاح مشروع هذه الديانة و انتشارها فيما بعد .

لقد بدأت الحكمة الإلهية[1] أولاً بتهيئة الأمر للديانة الإسلامية من بابين ، الأول هو إبعادها عن أي تدخل سياسي أو ديني من قبل أية حكمة سلطانية ، سواء أكانت دينية أم سياسية أم الاثنين معاً . و لذلك جاءت هذه الديانة في وقت و مكان تم فيه إقصاء أية قوى دينية تشكل مراكز قوى و ثقل ، سياسية ، على الأقل في المركز الجغرافي الأولي لبدء الدعوة لهذه الديانة و ما جاوره . فتم إزالة مملكة حمير التي كانت تدين باليهودية تحت حكم ذي نواس و من ثم تدمير جيش أبرهة الحبشي و هلاكه . و الغاية ربما تكون حماية الديانة الجديدة من أي تدخل عسكري سياسي أو ديني يجهضها في مهدها أو عند نشوئها . و لنا أن نتصور كيف كان الوضع سيكون لو أن الرسول (ص) جاء بدعوته في وقت كان لا يزال فيه ذو نواس الذي هاجم نجران النصرانية و أعمل السيف في أهلها فأضعفها إلى أبعد الحدود ، أو كان أبرهة الحبشي الذي أزال اليهودية لا يزال موجوداً بمملكته في اليمن . من المؤكد هنا أنه كانت ستتم مهاجمة مكة من قبل أحد الطرفين أو كليهما معاً و استئصال شأفة هذا الدين الجديد أو على الأقل و بالأحوال كافة سيبقى الإسلام محصوراً بمكة و ضواحيها فحسب . و لذلك فقد جاءت هذا الديانة في منطقة خلت فيها الساحة من أية قوى سياسية و دينية و أضحت في الوقت نفسه بعيدة جغرافياً عن متناول مراكز السلطة و القرار السياسي الديني ، كرومة و القسطنطينية و هو أمر لم يوجد في الديانتين اليهودية و

[1] نعيد القول إن الكلام عن الحكمة الإلهية ، هو من باب التخمين و الاستنتاج فحسب و الذي قد لا يكون دقيقاً مئة بالمئة ، لأنها برأينا أمر مجهول لا يمكن إدراكه أو معرفته .

المسيحية ، فموسى (ع) بشر بالشريعة اليهودية في ظل رحم مملكة مصرية ممتدة الأطراف ، يحكمها فرعون يعتقد نفسه إلهاً و تحت إمرته جيوش و أساطيل ، و الذي عندما علم بأمر موسى ، بادر فوراً إلى التعبئة العسكرية لإبادة شعبه من الوجود و القضاء على دينه و كان قبل ذلك قد أمر بقتل كل الأطفال اليهود . مما اضطر الحكمة الإلهية إلى التدخل السريع و المباشر و المبادرة إلى الرد على فرعون بالقصف السريع و العنيف و المركز ، و إخراج اليهود من مصر . و حتى بعد إنشاء اليهود لمملكتهم ، فإن ذلك كان ضمن ظل دولة مصرية قوية و دولة فارسية و أخرى يونانية و أخرى رومانية و تعرضوا للهجوم من كل مراكز القوى تلك بدءاً من نبوخذ نصر الذي سباهم إلى بابل مروراً باليونانيين و المصريين و انتهاء بالرومان الذين دمروا الهيكل . . و كذلك الأمر مع عيسى المسيح (ع) الذي ما إن أعلن عن ولادته برؤية نجمه في السماء ، حتى بادر هيرودس إلى قتل جميع الأطفال الذكور في المملكة . و عندما بدأ يسوع يبشر بتعاليمة ، و لاقت دعوته رواجاً ، كان ذلك في ظل حكم الإمبراطورية الرومانية التي بادرت فيما بعد إلى اعتقاله و صلبه – حسب الكتاب المقدس – و محاربة المسيحية و محاربة أتباعه من بعده ، حرباً ضروساً شرسة استمرت لمدة ثلاثة قرون ، دمرت خلالها الهيكل اليهودي و شردت اليهود . و قياساً إلى ذلك ، فإن الديانة الإسلامية جاءت في ظل ظروف جيوسياسية آمنة .و فضلاً عن هذ ا فقد كانت الحكمة الإلهية حريصة كل الحرص على عدم حدوث أي خطأ . و لذلك فقد بقي الرسول (ص) أربعين سنة لم يبشر بدعوته ، علماً أنه و حسب المصادر التاريخية ، قد تم التعرف عليه من قبل اليهود و غيرهم . و من ذلك قصته (ص) مع الراهب (بحيرا) حين تعرف عليه و هو صبي عندما سافر مع عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام ، و أعلم عمه أبا طالب بأنه نبي هذه الأمة . و كذلك قصته (ص) مع ورقة بن نوفل عندما أتاه جبريل (ع) . كما جاء في السيرة أيضاً أن رجلاً من يهود أهل الشام ، قدم على بني (هذل)من قريظة ، قبل الإسلام بسنين ، فنزل فيه م و حل بينهم ، و ظل هكذا حتى حضرته الوفاة ، فلما عرف أنه ميت ، قال لهم : يا معشر يهود .. ما ترونه أخرجني من أرض الخمر و الخمير إلى أرض البؤس و الجوع ؟ فقالوا له : انت أعلم . فقال : فإني قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أطل زمانه ، و هذه البلدة مهاجره . و كذلك قصة سلمان الفارسي و إسلامه ، التي وردت في السيرة حين ترك دين آبائه في بلاد فارس و ارتحل إلى الشام و نزل عند أحد رجال الدين النصارى و بقي عنده يتعلم منه ، فلما دنا أجل الرجل ، طلب منه سلمان أن يدله على رجل مثله يتعلم منه الدين ، فدله على راهب آخر . فارتحل سلمان إليه و مكث عنده فترة من الزمن . و عندما حضرته الوفاة ، طلب منه سلمان الطلب نفسه الذي طلبه من سلفه ، و حصل مثلما حصل في المرة السابقة . و عندما حضرت الوفاة الأسقف الثالث و طلب منه سلمان نفس الطلب ، أجابه الرجل " أي بني .. و الله ما أعلمه

أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه . و لكنه قد أظل زمان نبي و هو مبعوث بدين إبراهيم . يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما ، تحل به علامات لا تخفى .. يأكل الهدية و لا يأكل الصدقة و بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق به في تلك البلاد فافعل " .

هنا أيضاً شاءت الحكمة الإلهية أن يكون لها طريق مغاير لما حصل في الديانتين السابقتين ، فبقي الرسول (ص) أربعين عاماً بعد مجيئه و لم يبلغ بالدعوة ، و جعلت الذين عرفوه و تنبؤوا به ينتظرون أطول فترة ممكنة حتى يقطعوا الأمل منه ، أو حتى يموتوا قبل إدراكه أو لجعلهم في وضع محير لا يعرفون ماذا سيتصرفون حياله . فربما كانت حساباتهم و تكتيكاتهم قائمة على أن الرسول (ص) بمجرد مولده سيتكلم في المهد و يبدأ بالدعوة . الأمر الثاني هو أن الحكمة الإلهية هيأت أن يأتي الإسلام بحيث لا يصطدم مع سلطات سياسية قوية و لا مع ديانات معينة ، سواء أكانت سماوية أم غير ذلك لكي لا يحصل لبس أو إشكال أو تداخل فعيسى المسيح (ع) جاء و بشر في وسط يهودي توحيدي و كان أول صدامه مع رموز الديانة اليهودية ، و في أحسن الأحوال ظنه بعضهم يهودياً أو جاء ليقيم مملكة إسرائيل ، أو نبياً من أنبياء إسرائيل . و بعضهم الآخر أمن به و اعتنق دينه على هذا الأساس ، و حتى بعد غيابه بقي التداخل كما رأينا ، قوياً بين الديانتين اليهودية و المسيحية . و الخلاف الأساس الذي كان بينه و بين اليهود نشأ بالدرجة الأولى عندما رفض إقامة مملكة إسرائيل و صرح أنه لم يأت لهذا الغرض ، وليس لأجل خلاف ديني محض . و لعلنا نلاحظ أنه كان يأتي إلى الهيكل و يعظ فيه من دون أي إشكال . و لم ينشأ الخلاف إلا عندما تبين أنه لا يهتم كثيراً بالأمر السياسي أو القيام بالثورة على الرومان أو تنصيب نفسه ملكاً على اليهود . بينما جاء الإسلام في وسط بسيط نسبياً و خال من التعقيد الديني أو السياسي قياساً لما هو عليه في مصر القديمة أو أورشليم . ، فقد أتى في بيئة صحراوية بسيطة ، أهلها يعبدون الأوثان بشكل بدائي خال من قوة الإيمان و العقيدة ، و لا يحوي أي خطاب ديني أو فقهي ، و غير مرتبط بوضع سياسي . و لعل ولادة الرسول (ص) في العام نفسه الذي هلك فيه أبرهة و جيشه في مكة و لم يبق أي قوة سياسية دينية تؤثر في المشروع الإلهي ، يدعم هذه المقولة تماماً . و لذلك فقد كان صدام الرسول (ص) مع قومه (في البداية) أخف وطأة من صدام موسى (ع) مع ملك مصر أو عيسى (ع) مع الرومان ، ليس ذلك فحسب ، بل كان انطباع قومه عنه إيجابياً جداً و عرف عنه الصدق و الأمانة و غيرها من الأخلاق النبيلة السامية . و ربما تكون هذه الأربعون سنة ، هي تهيئة إلهية له لتترسخ قناعة الناس به ، و مما يدعم هذا القول هو أن قومه في بداية صراعهم معه، كانوا يتحاشون الصدام بشكل مباشر به ، أو يمهدون لذلك

بشتى أنواع السبل الدبلوماسية ، من قبيل نقاشهم معه و محاورتهم إياه ، أو طلبهم من عمه أبي طالب التدخل . و حتى عندما لجؤوا إلى الوسائل الأخيرة كالحرب و الصدام المباشر معه ، كانوا عبارة عن مجرد قبيلة منقسمة على نفسها بالدخول في الإسلام أو رفضه و غير مؤهلة لشن حرب مدمرة ضد الإسلام و أتباعه (اللهم إلا في المراحل المتقدمة من الصراع) .

ما بعد الهجرة :

كانت هجرة الرسول (ص) إلى المدينة بمنزلة تحول في طبيعة العلاقات الاجتماعية و الفئوية ، عما كان عليه الأمر في مكة ، حيث استقبل بمجرد وصوله ، استقبال القائد ، بكل احترام و تبجيل ، و كانت دعوته للإسلام قد سبقته إلى المدينة و بذلك أضحت المدينة المنورة أرضية مهئية لتقبل الإسلام و مركزاً لانتشاره .

و منذ وصوله إلى المدينة ، عمل الرسول (ص) على تقوية دعائم الدين الجديد و وضعه في الإطار العملي التطبيقي ، و كل ذلك عن طريق الوحي الإلهي الذي يتم بواسطة جبريل (ع) . فعند وصوله (ص) ، كان يريد مكاناً لإقامته ، فاجتمع عليه أهل المدينة كلهم ، يدعوه كل منهم للإقامة عنده و يعرض عليه بيته و منزله . و لكن الرسول (ص) بقي راكباً على راحلته و أرخى لها اللجام و تركها تسير وحدها ، فمضت في طريقها ، و عندما حاول القوم اعتراضها و تحييدها لتمضي إلى بيوتهم ، قال لهم (ص) " خلوا سبيلها فإنها مأمورة " فتركها القوم تسير على إرادتها ، فمضت حتى وقفت أمام بيت لغلامين يتيمين من بني النجار و بركت عنده ، فهمزها الرسول (ص) مرة أخرى ليتأكد من أن هذا هو المكان الذي اختير له ، فقامت الناقة و مشت لمسافة معينة ثم التفتت مرة أخرى و عادت أدراجها إلى المكان عينه الذي بركت فيه من قبل ، فاعتمد الرسول (ص) المكان و نزل عنده[1] . بعد ذلك أتاه الأمر الإلهي فبنى في المكان نفسه مسجداً و طلب من الجميع المشاركة في بنائه ، فأسهم الأنصار (أهل المدينة الأصليون) و المهاجرون (من مكة) في البناء ، و قيل إن الرسول (ص) بدأ بنفسه البناء و عندما رآه القوم ، أقبلوا للمساعدة و أخذ بعضهم يرتجز الشعر و يقول :

لئن قعدنا و النبي يعمل لذاك منا العمل المضلل
لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار و المهاجرة .

و يبدو أن البعض قد امتنع عن المشاركة في بناء المسجد حيث ذكر أن الإمام علي بن أبي طالب (ع) كان يرتجز الشعر و يقول في أثناء البناء :

---

[1] المصادر السابقة + البداية و النهاية ، ج/٢/ ، ص/١٨٦/ .

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً و قاعدا

عمن يرى عن الغبار حائدا .

و بعد اكتمال المسجد ، تمت فيه أول صلاة للجمعة . و كانت أول خطبة للرسول (ص) " أما بعد .. أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمن و الله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه و ليس له ترجمان و لا حاجب يحجبه دونه ، ألم يأتك رسولي فبلغك و آتيتك مالاً و أفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً و شمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظر قدامه فلا يرى غير جهنم . فمن استطاع أن يقي وجهه من النار و لو بشق من تمرة فليفعل ، من لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته "[٢] .

ثم جاءت خطبة الجمعة الثانية على الآتي " إن الحمد لله أحمده و أستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له . و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك و تعالى . قد أفلح من زينه الله في قلبه و أدخله في الإسلام بعد الكفر و اختاره على ما سواه من أحاديث الناس . إنه أحسن الحديث و أبلغه . أحبوا ما أحب الله من كل قلوبكم و لا تملوا كلام الله و ذكره ، لا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله ، يُختار و يُصطفى ، قد سماه الله خيرته من الأعمال و مصطفاه من العباد و الصالح من الحديث و من كل ما أوتي الناس من الحلال و الحرام . فاعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً و اتقوه حق تقاته و اصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم و تحابوا بروح الله يحبكم . إن الله يغضب أن يُنكث عهده و السلام عليكم "[١] . و هاتان الخطبتان ، تلاهما الكتاب الأساس الذي وضعه الرسول (ص) بين المهاجرين و الأنصار و اليهود و حدد فيه العلاقات الاجتماعية بينهم ، و قد جاء في بدايته " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبي ، بين المؤمنين المسلمين من قريش و يثرب و من تبعهم فلحق بهم " . بعد ذلك آخى الرسول (ص) بين المهاجرين و الأنصار . و جاء في تاريخ تلك الفترة[٢] أنه " لما اطمأن الرسول (ص) بالمدينة و اجتمع إليه إخوانه من المهاجرين و اجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام فقامت الصلاة و فرضت الزكاة و الصيام ، و فرض الحلال و الحرام و تبوأ الإسلام بين أظهرهم " .

---

[٢] السيرة النبوية ، ص/٢٥٣/ .

[١] المصدر السابق .

[٢] المصدر السابق .

لقد كان أمر الإسلام كله قائماً على الوحي الذي كان يأتي به جبريل (ع) إلى الرسول (ص) . و كان القرآن الكريم هو المصدر الأساس الأول و الرئيس في الإسلام و في التشريع ا لإسلامي و يلاحظ ذلك من كلام الرسول (ص) في الخطبة الأولى له . فالقرآن كلام الله المنزل ، و كل ما في الإسلام من تعاليم و شريعة يتبع له أو من المفترض أن يتبع له و لايخالفه . إن الحديث عن أية علاقة بين الحكمة الإلهية و السلطانية في الديانة الإسلامية ، يجب أن يـ تناول شقين أساسين يتمخض كل منهما عن مجال بحث خاص به ، و هما الأحداث التاريخية و القرآن الكريم .

الأحداث التاريخية :

تحولـ ت يثـ رب بعـ د هجـ رة الرسـ ول (ص) إليهـ ا ، إلـ ى المدينـ ة المنـ ورة ، و أصـ بحت مركـ زاً لاستمرار الإسلام و استكمال نشوئه و نزول القرآن . و بالرغم من أن القيادة و السلطة قد توطدتا للنبي (ص) ، فإن نظام القيادة الاجتماعية بقي نظاماً روحياً و بقيت الحكمة الإلهية و القرار الإلهي هما اللذان يسيران عمليةإتمام نزول القرآن و استكمال التعاليم الإلهية التي تجسدت فيه . و المتتبع بعين التحليل السليم لتاريخ نشوء الإ سلام في صدره ، منذ بدايته و حتى وفاة الرسول (ص) ، يدرك أن الغاية الأولى للحكمة أو المشيئة الإلهية ، هي نزول الديانة الإسلامية الحقة متجسدة بالقرآن الكريم ، و صيانتها من أي تلاعب ، بصيانة القرآن الكريم نفسه و حفظه من قبل الله جل و علا ، و ذلك من قوله تعالى (**إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون**) (الحجر – ٩) . و فضلاً عن ذلك لم يكن الرسول (ص) يمتلك أية صفة قيادية بحتة ، بل كانت وظيفته حسب القرآن الكريم ، وظيفة توجيه و بلاغ . و قد تحدثت آيات كثيرة عن هذه النقطة بالذات موضحة إياها بشكل لا لبس فيه ، و هي آيات كثيرة ، منها على سبيل المثال لا الحصر (**و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم و من ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً و سيجزي الله الشاكرين**) (آل عمران – ١٤٤) . (**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم و لكن رسول الله و خاتم النبيين و كان الله بكل شيء عليماً**) (الأحزاب – ٤٠) . (**ما على الرسول إلا البلاغ و الله يعلم ما تبدون و ما تكتمون**) (المائدة – ٩٩) . (**يا أيها النبي حسبك الله و من اتبعك من المؤمنين** (الأنفال – ٦٤) . **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً**) (الأحزاب – ٤٥) .

و تبعاً لذلك فقد كانت كل تصرفات الرسول (ص) و أعماله ، تابعة للأمر الإلهي الذي كان يتلقاه من الله عن طريق الوحي ، و هو ما نصت عليه الآيات التالية (**و النجم إذا هوى _ ما ضل صاحبكم و ما غوى _ و ما ينطق عن الهوى _ إن هو إلا وحي يوحى _ علمه شديد القوى**) (النجم ١ – ٤) . و في تاريخ السيرة النبوية نرى أنه حتى الأسئلة التي كانت توجه

للرسول (ص) ، كان الجواب عنها يتم عن طريق الوحي الإلهي ، أي أن الرسول (ص) كان يمهل السائل فترة معينة حتى يأتيه بالجواب ، و أحياناً كان يقول للقوم "ائتوني غداً لأ عطيكم النتيجة بإذن الله " . و تذكر إحدى الروايات أنه مرة قال لمن سأله ، أن يأتي في الغد من دون أن يقول عبارة " بإذن الله " فانقطع عنه الوحي و لم يأت الجواب . و نزلت في ذلك الآية التي تقول **(و لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً _ إلا أن يشاء الله و اذكر ربك إذا نسيت و قل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً)** (الكهف ٢٣ – ٢٤) . و جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية أن قريش بعثت النضر بن الحارث و عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد و صفوا لهم صفته و أخبروهم بقوله ، فإنهم أهل كتاب و عندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرج الرجلان إلى المدينة و هناك التقيا بأحبار اليهود و نقلا لهم رسالة قريش و سألوهم عن الرسول (ص) . فقال لهم الأحبار : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل و إلا فرجل متقول تروا رأيكم فيه ، اسألوه عن كذ ا و كذا و كذا . فعاد الرجلان إلى قريش و أخبروهم القصة ، فذهب وجهاء قريش إلى الرسول (ص) و سألوه ما طلب منهم فقال لهم (ص) : أخبركم غداً . و لم يستثن ، فانصرفوا عنه . و مكث الرسول (ص) خمس عشرة ليلة لم يأته وحي و امتنع عنه ، فقالت قريش : قد أخلف محمد ما وعدنا به . فحزن الرسول (ص) و اهتم و اغتم لذلك كثيراً و شق عليه ما يتكلم به القوم ، حتى جاءه جبريل (ع) بسورة الكهف و فيها الأجوبة جميعها و في الوقت نفسه عتاب من الله .

إننا على يقين من أن الرسول (ص) كان حريصاً كل الحرص على أن لا يأتي بأية بادرة تصرف أو فعل من دون أمر أو إذن أو وحي من الله تعالى . و لعل موضوع اختياره للمنزل الذي سيقيم فيه بالمدينة ، هو أكبر دليل على هذا ، و ذلك حينما ترك الناقة تسير وحدها و تختار المكان الذي يريده الله ، قائلاً للقوم " دعوها فإنها مأمورة " . فإذا كان على مستوى اختيار مجرد منزل للإقامة ، لم يكن هناك خيار لرسول الله (ص) في ذلك و كانت المشيئة الإلهية هي التي اختارت له النزل الذي سيقيم فيه . و ما تلا ذلك من كل العمليات و الأحداث التي قام بها الرسول (ص) كانت بأمر إلهي مباشر عن طريق الوحي .

إذاً لقد كانت الخطوة الثانية للحكمة الإلهية بعد تهيئة المناخ الجغرافي و الجيوسياسي و الجيوديني للإسلام ، أو بالأصح نزول القرآن ، كانت عزل الرسول (ص) عن أي تأثير خارجي ، ليس ذلك فحسب ، بل إنه و حسب الروايات و السير ، فقد جرى تهيئة الرسول (ص) فيزيولوجياً أيضاً لكي يكون له خصوصية تمنعه من التأثر بالناس أ و الوقوع في الخطأ ، من أجل الهدف الذي أرسل بسببه . فقد جاء في السيرة النبوية أن مرضعته حليمة السعدية حدثت فقالت " فو الله إنه بعد

مقدمنا بأشهر مع أخيه ، لفي بهم خلف بيوت لنا[1] . إذ أتانا أخوه (ابنها) يشتد فقال لي و لأبيه (زوجها) : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فاضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه . فخرجت أنا و أبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه ، فالتزمته و التزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يا بني ؟؟!! فقال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني و شقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو . فرجعنا إلى خبائنا و قال لي أبوه : يا حليمة قد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فالحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك عليه "[2] . و حسب التفسير فإن هذا الشيء الذي أخرج منه (ص) ، هو مكان الغضب و الانفعال و التأثر بالغير . و هذه التهيئة القوية و المركزة للرسول (ص) ، لا بد من أن يكون سببها أمراً عظيماً و كبيراً . و حسب القرآن الكريم فإن جميع حركات و تصرفات الرسول (ص) كانت مراقبة تماماً من قبل الله عز و جل ، منعاً له من أي زلل أو محاولة استدراج من قبل بعضهم للخطأ أو لتصرف غير مناسب .

و حادثة الغرانيق التي حصلت مع الرسول (ص) ، هي أحد الأمثلة الداعمة لتلك المقولة ، حيث جاء في السيرة[1] " لما رأى الرسول (ص) تولي قومه عنه و شق عليه ما يرى من مباعدتهم مما جاءهم به من الله ، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه و بين قومه . و كان يسره مع حبه قومه و حرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم ، حتى حدث بذلك نفسه و تمناه ، فأنزل الله عز و جل (**و النجم إذا هوى _ ما ضل صاحبكم و ما غوى _ و ما ينطق عن الهوى**) فلما انتهى إلى قوله تعالى **(أفرأيتم اللات و العزى _ و مناة الثالثة الأخرى)** ألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه و يتمنى أن يأتي به قومه و هو **(تلك الغرانيق العلى و إن شفاعتهم لترتجى)** فلما سمعت قريش ذلك ، فرحوا و سرهم و أعجبهم ما ذكر به آلهتهم . فأصاخوا السمع له ، فلما انتهى إلى السجدة منها و ختم السورة ، سجد فيها ، فسجد المسلمون سجود نبيهم تصديقاً لما جاء به و سجد من في المسجد من المشركين من قريش و غيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم ، فلم يبق في المسجد مؤمن و لا كافر إلا و سجد ، إلا الوليد بن المغيرة فإنه كان شيخاً كبيراً فلم يستطع السجود ، فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها . ثم تفرق الناس من المسجد و خرجت قريش و قد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم فقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر و زعم فيما يتلو أنها الغرانيق العلا و إن شفاعتهن ترتجى . و بلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب الرسول (ص) و قيل أسلمت قريش ، فنهض منهم رجال و تخلف آخرون . فأتي جبريل (ع) الرسول (ص) فقال يا محمد ماذا صنعت ؟؟ !! لقد تلوت

---

[1] أي ذهبا للعب على مسافة بعيدة خلف البيت .

[2] السيرة النبوية ، ص/٨٥/ .

[1] تجدر الإشارة إلى أن الشيعة الإمامية تنفي هذه الحادثة و لا تعتقد بصحتها كون الرسول (ص) منزه عن ذلك .

على الناس ما لم آتك به عن الله عز و جل ، و قلت ما لم يقل لك . فحزن الرسول (ص) عند ذلك حزناً شديداً و خاف من الله خوفاً كبيراً . فأنزل الله عز و جل و كان به رحيماً ، يعزيه و يخفض عليه الأمر و يخبره أنه لم يك قبله نبي و لا رسول تمنى كما تمنى و أحب كما أحب ، إلا و الشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى على لسانه . فنسخ الله ما ألقى الشيطان و أحكم آياته . أي فإنما أنت كبعض الأنبياء و الرسل . فأنزل الله عز و جل (**و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمانيه فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته و الله عليم حكيم**) (الحج – ٥٢)[٢] .

و بالرغم من اللغط الذي دار حول هذه الرواية ، فإنها تعبر بقوة و دلالة واضحة على مراقبة الحكمة الإلهية للرسول (ص) و حرصها الشديد على عدم حدوث أي خطأ أو خلل مهما كان بسيطاً . و فضلاً عن ذلك ، فإنها تعطي أيضاً دلالة أخرى و هي أنه لا مجاملة أو محاباة في أمر الهدف و الغاية الإلهية التي بعث الله الرسول (ص) لأجلها . و مهما كانت المصلحة كبيرة و عظيمة ، فإنه يتم رفضها و عدم قبولها بسبب كلمة واحدة خاطئة و غير صحيحة . و إذا تابعنا التأمل التدقيق في هذه الحادثة ، فربما نخرج بنتيجة و هي أن هذه الحادثة صحيحة فعلاً و أن الحكمة الإلهية أرادت من خلالها إيصال رسالة إلى من يهمه الأمر بأنه الدين الحق الصحيح ، و القرآن الكريم لا مجال للخطأ فيه أو المحاباة أو المجاملة أو المهادنة (من ناحية التعاليم) بأي شكل من الأشكال ، أي أن الحكمة الإلهية سمحت بتمرير هذه الأمنية التي القيت على الرسول (ص) ثم عادت و صححتها علناً بعد أن حصلت بالسر . و الملاحظ في هذه الرواية أن جبريل (ع) جاء بعد أن سجد جميع مشركي قريش و من تبعهم ، لله و اعترفوا بمحمد ، و وصل الخبر إلى الحبشة و تهيأ المسلمون هناك للعودة فرحين مستبشرين بعد أن فروا هاربين من بطش المشركين . و لكن الحكمة الإلهية عادت مرة أخرى و خلطت الأوراق من جديد و أعادت الأمور إلى نصابها كما كانت من قبل . و كانت وطأة عواقب هذا الأمر بعد حدوثه ، أشد ثقلاً و صعوبة منها لو أن المشيئة الإلهية تداركت أمر الغرانيق قبل أن يتلوها الرسول (ص) أو على الأقل قبل أن يسجد المشركون لله ذاته و يعقدوا نوعاً من شبه الاتفاق و الصلح و بداية تأسيس شراكة جديدة ، لأن الأمر سيبدو و كأنه نوع من التراجع و النكوث بالاتفاق . و إذا دققنا في السورة نفسها التي نزلت في هذا الشأن ، نرى في بدايتها حديثاً عن أن الرسول (ص) لا يخطئ أو يضلل (**و النجم إذا هوى _ ما ضل صاحبكم و ما غوى _ و ما ينطق عن الهوى _ إن هو إلا وحي يوحى**) . هذا الأمر ينحو إلى الاستنتاج إما بعدم صحة هذه الرواية من الأساس و هو ما يقوي وجهة نظر

---

[٢] الطبري ، ج/١/ ، ص/٣٣٩/ .

من ينفون حدوثها . فكيف لا ينطق الرسول (ص)عن الهوى و لا يضل ثم يتلفظ بالغرانيق ؟؟ !! و إما أن هذه الآيات هي جواب و تفسير لهذه الحادثة نفسها ، أي أن الرسول (ص) لم يخطئ و لم يضلل و إنما هي حكمة إلهية أرادت تحقيق ثلاثة أمور .. الأول هو أن الرسول (ص) مراقب مراقبة شديدة من الله تعالى . و الثاني هو أنه لا مجال للمهادنة أو المجاملة في كتاب الله عز و جل مهما كانت بسيطة . و لا مجال للحق و إن كان بحراً ، أن يختلط بذرة باطل و إن كانت قطرة . الثالث هو إثبات للناس و للعالم أجمع أن هذا القرآن هو ليس من صنع أو تأليف محمد كما يزعم أو يعتقد بعضهم ، بل هو من الله . و لو كان من عند محمد أو من البشر ، لبقيت آية الغرانيق موجودة ، و في أسوأ الأحوال لو أن الرسول (ص) كان هو كاتب القرآن ، ثم اكتشف الخطأ الذي وقع فيه ، لما كان صححه بهذه الطريقة التي ألبت عليه المشركين فيما بعد و زادت من عدائهم له ، بل كان على الأقل بقي بعض الوقت ثم أضاف بعد فترة زمنية (كي لا ينكشف الأمر) آية أخرى للفلفة الموضوع بشكل ودي . و لكن التصحيح جاء بشكل قاس و واضح و ملغ تماماً لهذه الآية ، لا بل إن ذكر أسماء الأصنام جاء بطريقة توحي بأنها لا تنفع شيئاً و لا تساوي عند الله شيئاً (**أفرايتم اللات و العزى _ و مناة الثالثة الأخرى _ ألكم الذكر و له الأنثى _ تلك إذاً قسمة ضيزى _ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم و آبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن و ما تهوى الأنفس و لقد جاءهم من ربهم الهدى _ أم للإنسان ما تمنى _ فلله الآخرة و الأولى _ و كم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى**) (النجم ١٩ – ٢٦) . إن هذه الكلمات القاسية و الرد العنيف ، من المستحيل أن يكونا من صنع البشر ، لأنه في ظرف عصيب كهذا ، سوف تتسبب بحرب أهلية فوراً ، كما يوحي بأن كاتب هذا الكلام (إن كان بشراً) هو شخص غير قدير و لا خبير لأنه قد أخطأ و تراجع عن كلامه بطريقة خاطئة أيضاً . و قد يؤدي إلى ارتداد بعض المسلمين عن الإسلام . و مع ذلك ، نزل هذا الرد القاسي و العنيف من الله على المشركين و على آلهتهم . و الدلالة الكبيرة هنا ، هي أن المشيئة الإلهية لا تقبل بأي شكل من الأشكال التحوير و الانحراف في الهدف و لو أدى ذلك إلى حرب أهلية أو إلى ارتداد كل المسلمين عن الإسلام . و إنه ... يا قوم مستعد لأن يدمر و يهلك و يبطش و يدع أي أمر مهما كان عزيزاً عليه ، كي لا تشوب الحق شائبة . و إن أكبر نبي و أكبر رسول و أكبر شعب و أكبر قوم و أكبر دولة لا تساوي عند الله شيئاً إذا تمت المحاولة للعب بالخطوط الحمراء العريضة و محاولة تحريف الحق . و هذا ما يذكرنا بما حصل في العهد القديم حينما قال الرب لسليمان إنه سيمزق مملكة إسرائيل نتيجة لخطأ

من سليمان . هذه المملكة العزيزة عليه و كانت هي الغاية المرجوة في الوعد الذي أعطاه الرب للأنبياء من إبراهيم إلى موسى و خلفائه[1] و التي كانت الحلم الحقيقي لليهود ، تخلى عنها الرب بلحظة واحدة و عدها أنها لا تساوي خطأ واحداً بحقه ، لأنه عزيز (تعالى الله عما يصف بعضهم علواً كبيرا) .

إن قضية مراقبة الله تعالى للرسول (ص) ، تستدعي أن تكون كل تصرفات و أفعال الرسول (ص) و أقواله ، هي مطابقة تماماً لمفهوم القرآن الكريم و روحه ، و في الوقت نفسه ، تثبيت للقرآن في قلوب الناس . و لذلك نلاحظ أن الله عز و جل كان ينبه الرسول (ص) عند أي تصرف أو فعل أو قول قد يؤدي إلى الانحراف بالخط الروحي المثالي للإسلام عن السكة الصحيحة و الهدف الذي جاء الرسول (ص) لأجله . و قد نزلت آيات عدة لتنبيه و تحذير الرسول (ص) من أي فعل أو تصرف من هذا القبيل ، قد يستدرجه إليه بعضهم ، منها (**يا أيها النبي اتق الله و لا تطع الكافرين و المنافقين إن الله كان عليماً حكيماً**) (الأحزاب – ١) . (**يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك و الله غفور رحيم**) (التحريم – ١) . (**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين**) (المائدة – ٦٧) . (**و لو تقول علينا بعض الأقاويل _ لأخذنا منه باليمين _ ثم لقطعنا منه الوتين _ فما منكم من أحد عنه حاجزين**) (الحاقة ٤٤- ٤٧) .

إن تأملاً عقلانياً في الآيات القرآنية السابقة التي تنبه الرسول (ص) و تحذره من مغبة أمر ما ، يؤدي إلى إدراك وجود نوع من الخطاب الموجه لغير الرسول (ص) و إشارة إلى غيره أيضاً ، بأن الرسول (ص) لا يمكن له أن يقع في الخطأ لأنه مراقب من الله تعالى و تجري عملية تنبيه و تحذير مسبقتين له لمنع حدوث أي أمر يتعارض مع الحكمة الإلهية . كما توحي هذه الآيات بمنع حدوث اختلاط بين الأمر الإلهي و الأمر السلطاني بأشكاله كافة الاجتماعية و السياسية . و أهم من كل هذا توحي أيضاً بأن القرآن ليس من عند الرسول (ص) لأنه من المستحيل أن يكون من عنده و تكون فيه هذه الآيات .

الحوادث و المعارك :

بعد أن استقر الرسول (ص) في المدينة ، وضع الأسس الأولى للإسلام من صلاة و علاقات اجتماعية و روحية بين المسلمين و الناس ، و بينهم و بين الله . و قد فرضت ظروف الاشتباك مجدداً مع المشركين من قريش ، نفسها . و القارئ للتاريخ و للسيرة النبوية و المستمع اليوم إلى

[1] طبعاً حسب العهد القديم .

الخطاب الديني الشائع في مجمل المذابر و وسائل الإعلام ، يرى للوهلة الأولى أن طرف المبادرة في عمليات الاشتباك تلك ، كان الرسول (ص) ، و أن كل المعارك الحربية تلك ، كانت هجومية و من قبل المسلمين . و للأسف تم تسويق هذه القضية و يتم تسويقها إلى الآن على هذا النحو .

إن ألقاء نظرة عقلانية متدبرة على الوقائع و الأحداث الحربية و التي تعرف بما يسمى الغزوات و هي تسمية لا تنطبق أبداً على سيرة الرسول (ص) و حياته و لا على منهج القرآن الكريم و لا الهدف الذي أرادته الحكمة الإلهية من نشر الإسلام ، و لذلك ، و انطلاقاً من قناعاتنا ، فإننا لن نذكر اسم " الغزوة " على أي من معارك الرسول (ص) .

إن تاريخ و وقائع أول معركة حديثة جرت بين المسلمين و المشركين و التي سميت " بمعركة بدر " يعطي صورة انطباعية واضحة عن أن هذه المعركة كانت معركة دفاعية بحتة ، و لم يكن لها بعامة ، أية علاقة بالدين الإسلامي بالرغم من نزول آيات قرآنية (حسب المفسرين) بشأنها . و العلاقة الوحيدة لها بالإسلام ، هي التطبيق للحالة الدفاعية التي نص عليها القرآن . و قصة هذه المعركة و حيثياتها ، تعود إلى بداية هجرة المسلمين من مكة حيث كان المهاجرون قد تركوا أموالهم و ممتلكاتهم و عقاراتهم ، فاستولى عليها مشركو مكة و حرموهم منها ، و بقي المسلمون في المدينة من دون مورد مالي يعيلهم أو أراض و مواشٍ تدر عليهم الرزق . و يلاحظ هنا أن الحكمة السلطانية الاجتماعية في قريش قد اعتمدت مبدأ الحرب الاقتصادية إلى جانب محاولات القمع المادي عندما كان المسلمون في مكة . لكن و بعد خروجهم من متناول اليد ، لجأ مشركو قريش إلى العامل الاقتصادي ، و السبب في ذلك هو عدم وجود سلطة مركزية سياسية رسمية ، فلم يكن بالإمكان تعبئة جيش منظم . و لذلك فقد كان هذا هو أنجع حل قامت به تلك الحكمة . و كان رد المسلمين على ذلك بالأسلوب نفسه ، أي محاولة إزالة هذه الحرب الاقتصادية ، و بخاصة و أن المشركين في مكة قد قاموا بحرب اقتصادية موجعة ضد بنو هاشم ، استمرت ثلاث سنوات ، عندما كان الرسول (ص) في مكة ، و أثرت فيهم تأثيراً كبيراً .

كان المسلمون يريدون استرداد قسم من أموالهم و ممتلكاتهم التي تركوها في مكة و استولى عليها المشركون . فترامت الأنباء إلى المدينة بقدوم قافلة لمشركي مكة و على رأسها أبو سفيان . فاجتمع المسلمون إلى الرسول (ص) و عرضوا عليه الخبر و طلبوا منه أن يخرج قوم منهم و يصادروا محتويات القافلة لاسترداد شيء من حقوقهم و أموالهم التي سلبها المشركون . و على ما يبدو فقد كانت هذه أول مرة يدور فيها نقاش بين الرسول (ص) و بين أتباعه حول حول كيفية التصرف حيال هذا الأمر . و حسب فهمنا للروايات التاريخية ، فإن الحكمة الإلهية آثرت عدم

التدخل هذه المرة أيضاً في هذا الموضوع و ابتعدت عن الأمر الذي يحمل في طياته بذوراً سياسية ، تركت للرسول (ص) حرية الاختيار . فقد جاء في السيرة النبوية أن الحباب بن المنذر بن الجموح سأل الرسول (ص) لاحقاً بعد قدوم جيش المشركين عن هذه القضية قائلاً " يا رسول الله ، هل هذا المنزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ؟؟ أم هو الرأي و الحرب و المكيدة ؟؟ فقال (ص) بل هو الرأي و الحرب و المكيدة "[1] . و بعد نقاش و جدال[2] ، استقر الرأي على أن تخرج مجموعة من المسلمين و يعترضوا القافلة و يأخذوا حقهم من الأموال و الممتلكات التي سلبت منهم في مكة دون التعرض لأي أحد في القافلة . فخرجت المجموعة . و لكن أبا سفيان رئيس القافلة علم بطريقة ما ، بقدوم المسلمين ، فقام بتغيير مسارالقافلة . و عندما وصلت مجموعة المسلمين ، لم يجدوا أي اثر للقافلة ، فعادوا أدراجهم من دون أن يقتفوا أثر القافلة ، و انتهت المسألة عند هذا الحد ، حيث إن الأمر الحربي العسكري لدى الرسول (ص) ، لم يكن وارداً حتى هذه اللحظة على الإطلاق .

و لكن المشركين في مكة لم يكن لديهم على ما يبدو وجهة النظر نفسها ، فعندما وصل أبو سفيان إلى مكة ، أعلم قريشاً بما حصل معه و أخذ يعد العدة للحرب ، علماً أن المسلمين لم يعترضوه بل لم يلتقوه أصلاً . و كل ما في الأمر أنه علم بقدومهم . و لم تلبث الأنباء أن ترامت إلى المدينة بتجهيز قريش للجيش و استنفارهم لملاحقة المسلمين . و هنا أيضاً جرى نقاش حول التصرف حيال هذه القضية ، و هذا يعطي دليلاً واضحاً على أن الإسلام ليس دين حرب و قتال ، و كل الأعمال الحربية و القتالية فيه ، هي ذات صبغة دفاعية عنه و ليست هجومية .

و استقر الرأي في النهاية على الدفاع عن النفس و المواجهة ، لأن جيش قريش لم يكن له مبرر لمهاجمة المسلمين ، سوى القضاء على الإسلام و المسلمين و قتل الرسول (ص) على الأرجح . و في الواقع فإن موضوع القافلة برأينا ، له شق آخر من الريبة و الاشتباه ، فلا يستبعد ابداً أن يكون الأمر كله مدبراً من قبل قريش للإيقاع بالرسول (ص) و استدراجه إلى معركة محسوبة و مقررة سلفاً و ذلك عن طريق أناس مدسوسين بين المسلمين أو في المدينة ، قاموا بالإبلاغ عن القافلة ثم قاموا بإبلاغ أبو سفيان بخروج المسلمين ، وهو ما يفسر سرعة تصرف أبي سفيان و من ثم تجهيزه لجيش من المشركين بزمن قياسي و سريع و انطلاقه إلى مهاجمة المسلمين .. لأنه من المستحيل أن يترك مشركو قريش ، الرسول (ص) و شأنه هكذا ، و بخاصة أنه استقر في

---

[1] السيرة النبوية ، ص/٣٢٣/ .

[2] هي المشورة و إبداء الرأي و ليس الاختلاف والتنابذ .

المدينة و بدأ بضم الأتباع إلى الدين الجديد ، و هم (المشركين) الذين طاردوا أتباعه إلى الحبشه .

و القضية التي برزت في سياق هذه الأحداث ، هي أن خروج جيش المشركين لمهاجمة المسلمين ، يعني أن القتال قد فرض على المسلمين فرضاً و أصبح لا مناص حتى من تفاديه ، فإما أن يدافعوا عن أنفسهم و إما أن يتعرضوا للسحق و الهلاك . و حسب الروايات التاريخية ، فإنه عندما قرر الرسول (ص) في نهاية الأمر القتال دفاعاً عن النفس و بدأ بتجهيز قواته ، أخذ بعضهم يثبطون الناس من المشاركة في صد هجوم قريش[٣] ، ربما لكي يكون المسلمون في أضعف حالاتهم و بالتالي يسهل على جيش قريش تدميرهم . و هنا تدخلت الحكمة الإلهية و دعمت قرار الرسول (ص) في موقفه الدفاعي ، و ذلك من باب صد الخطر الذي يهدد الإسلام و المشروع القرآني برمته ، من خلال الهجوم المفاجئ و الذي ليس له أدنى مبرر و الذي تقوم به قريش ، ورداً على المنافقين الذين يثبطون همم المسلمين في الدفاع عن أنفسهم ، فجاءت الآية القرآنية لهذا الظرف الدفاعي بالذات (**يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين و إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون**) (الأنفال – ٦٥) . و عندما التقى الفريقان في موقعة بدر ، كان ميزان القوى العسكري يميل لصالح مشركي مكة سواء من حيث الكم أو القدرة القتالية . فجيش المشركين كان عدده حوالي الألف رجل من المقاتلين المدربين ، بينما كان عديد المسلمين حوالي الثلاثمئة و هم من الفقراء . و مع ذلك فقد أسفرت الموقعة عن انتصار ساحق للمسلمين و مني المشركون بهزيمة شنعاء و قتل و أسر منهم الكثير . و يتضح من سياق القرآن الكريم ، أن القدرة الإلهية قد تدخلت لحسم المعركة لصالح المسلمين ، حيث أرسلت عدداً من الملائكة لمساعدتهم ، و أن المسلمين كانوا في موقف ضعيف جداً و أن هذه الحرب قد فرضت عليهم فرضاً و لم يختاروا هم لا زمانها و لا مكانها و لا توقيتها (**و لقد نصركم الله ببدر و أنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون _إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين _ بلى إن تصبروا و تتقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين**) (آل عمران ١٢٣ – ١٢٦) . (**إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق و اضربوا منهم كل بنان**) (الأنفال – ١٢)

توضح تلك الآيات أمرين مهمين جداً ، الأول هو أنه ما كان بإمكان المسلمين كسب معركة بدر لولا تدخل القدرة الإلهية ، و هي كانت محسومة سلفاً و حتماً لصالح المشركين لو لم يتم إرسال

---

[٣] انظر السيرة النبوية و الطبري و ابن كثير و غيرهم .

الملائكة للمشاركة بهذه الحرب .و يلاحظ أن عدد ا لملائكة وحده كان أكثر بثلاثة أضعاف من عدد جيش المشركين . الأمر الثاني هو أن إمداد الله تعالى جاء فقط نتيجة للهجوم الذي بادر به المشركون و ذلك من عبارة (و يأتوكم من فورهم هذا يمدكم ربكم) ، أي بمعنى أن الله تعالى لا يرسل جنوداً للحرب ، هكذا عبثاً و لحب الحرب بل فقط في الحالات الحرجة الصعبة التي يتعرض فيها المسلمون لخطر كبير لا يد لهم فيه و لا بأسبابه .

لقد كانت موقعة بدر مفصلاً تاريخياً هاماً و خطيراً في الوقائع الإسلامية ، و مؤسساً و لو بشكل غير مباشر لنظام الحكم في الإسلام.و كانت الباب لمحاولة خطيرة جد اً ، حاولت فيها الحكمة السلطانية الاجتماعية التغلغل و التدخل في الأمر الإلهي كتقليد كلاسيكي موروث عن بقية الحكم السلطانية و الأديان السابقة . و لكن الحكمة الإلهية كان قرارها واضحاً في هذا الشأن ، و هو منع تدخل أي أمر أو حكم اجتماعي و يتضح ذلك من خلال التـ عامل مع الأسرى الذين احتجزهم المسلمون في بدر ، حيث طالب بعضهم بقتلهم أو استعبادهم ، جرياً على الأعراف و التقاليد العسكرية . هذه القضية تفتح الباب واسعاً أمام دخول الأمر السياسي البشري ، و التهيئة لنشوء كيان سلطة سياسية حاكمة ، و هذا ما رفضته الحكمة الإلهية حيث جاء في القرآن (**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا و الله يريد الاخرة و الله عزيز حكيم _ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم _ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً و اتقوا الله إن الله غفور رحيم _ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم و يغفر لكم و الله غفور رحيم**) (الأنفال ٦٧ – ٧٠) .

لقد كانت معركة بدر ثغرة كبيرة لخلخلة الوضع الإلهي و دخول الأمر السلطاني السياسي فيه ، و حجر الأساس لتشكل الكيان السياسي للدولة الإسلامية فيما بعد ، و بالتالي حرف الدين الإسلامي عن الهدف الذي جاء لأجله لولا تدخل الحكمة الإلهية و الذي تمثل بمراقبة الرسول (ص) في كل أفعاله و تصرفاته و أقواله . و مثلما حدث في الأديان السابقة من محاولات تشكيل نظم و هياكل سلطانية سياسية تقود إلى بناء نظم الدولة ، حدث هنا أيضاً .

هذه القضية تقودنا إلى النتيجة التالية (بالرغم من افتقارها إلى براهينها اليقينية) و هو أن الحروب و المعارك القديمة التي كانت تحدث بين الجماعات البشرية ، كانت عاملاً قوياً لتشكيل الكيان السياسي المنظم و لفت الأنظار إليه و التنظير السياسي لقيامه ، كما أن نشوة الانتصار في هذه المعارك كانت تلعب الدور نفسه . لقد فسر بعضهم هذه الآيات بشكل معكوس تماماً حيث عدوا أن الإرادة الإلهية حسب هذه الآية ، جاءت بقتل الأسرى و أنها كانت بمنزلة عتاب شديد لرسول الله (ص) لأنه قبل بمفاداتهم . و هذا أمر لا يتفق أبداً و طبيعة سياق هذه الآية لأسباب عدة

.. أولاً إن عبارة (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حت يثخن في الأرض) هي واضحة تماماً و تعني أنه لا ينبغي لأي نبي أن يكون له أسرى حتى يقتلهم ، تماماً مثلما نقول ما كان لفلان أن يكون له مال حتى يبذره ، أي أن المال ليس للتبذير . و كذلك الأمر مع قضية الأسرى . أي ما كان لنبي أن يكون له أسرى لكي يقتلهم ، كما أن عادة قتل الأسرى و استعبادهم هي عادة حربية قديمة ، و مفهوم المفاداة هو مفهوم أرقى من القتل . ثانياً لو كانت الإرادة الإلهية هي بقتل الأسرى لنزل الأمر الإلهي بذلك من دون مواربة و لا خجل و جاءت الآية بقتل هؤلاء الأسرى ، و أصبح إله المسلمين مثل أي إله حربي آخر و هذا ما لا يمكن أن يكون . و كما سبق و أشرنا ، فإن الرسول (ص) كان مراقباً تماماً من قبل الله عز و جل ، و أي خروج عن خط الغاية الإلهية ، كان يتم تحذيره مسبقاً به ، فلماذا تنتظر الحكمة الإلهية أن يقوم الرسول (ص) بعمل يخالف إرادتها ثم تعاقبه و تلومه عليه و من ثم توافق على هذا العمل ؟؟ و ما هي غايتها من ذلك ؟؟ !!

كما أن الآية الأخيرة رقم / ٧٠ / تدلل على هذا الأمر بقوة (**يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم و يغفر لكم و الله غفور رحيم**) سياق هذه الآية يتحدث بشكل واضح عن إعطاء هؤلاء الأسارى فرصة أخرى لتغيير سلوكهم ، كما أن عبارة) (و الله غفور رحيم) هي منافية تماماً لمبدأ و منطق القتل و سفك الدماء و كيف يكون الله جل و علا غفوراً و رحيماً ثم يعاتب الرسول (ص)على عدم قتل الأسرى ؟؟؟؟ !!! و لكنها السياسية ... السياسية و حب السلطة و كرسي السلطان و الذهب و النساء . من المستحيل أن تناقض الحكمة الإلهية نفسها في أول الآيات و آخرها . ثالثاً : ثبت أن عملية مفاداة الأسرى كانت حلاً ناجعاً أفاد المسلمين فيما بعد و أعطى صورة إيجابية عن الإسلام . كما أسهم بدخول أعداد إضافية إليه حيث اعتنقه بعض الأسرى الذين اطلق سراحهم و بعضهم الآخر قام بنوع من عملية التبشير به بعد عودته إلى مكة ، و هو أمر من المستحيل أن يفوت الحكمة الإلهية .

إن الحكمة الإلهية لم تدمر الممالك المجاورة لموطن ظهور الإسلام ، و لم تبعث الرسول (ص) في صحراء قاحلة ذات كثافة سكانية قليلة قياساً إلى المدن في بلاد الشام و مصر و أوروبة و آسيا ، لكي تنشئ نظاماً سياسياً آخر ، كما أن طبيعة و صفات الرسول (ص) و الغاية التي جاء لأجلها ، تتنافى مع مبدأ القتل برمته حيث وصف الله تعالى رسوله قائلاً (**و إنك لعلى خلق عظيم**) (القلم – ٤) . (**و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**) (الأنبياء – ١٠٧) . و لكنها و كما ذكرنا ... السياسة .

لقد أرادت الحكمة الإلهية التعبير من حالة عدم قتل الأسرى ، التعبير عن أن مبدأ القتل هو فقط حالة دفاعية بحتة فحسب و ينتهي تماماً فور انتهائها و أن أية عملية قتل خارج نطاق الدفاع عن

النفس ، هي حتماً تأسيس لنظام سياسي و كيان سلطاني بحت ، و هو ما أرادت الحكمة الإلهية بتره تماماً و منعه من دخول الأمر الديني و منع امتزاجه بالغاية التي جاء لأجلها الرسول (ص) . و لو كان الأمر كذلك لكانت الحكمةالإلهية قد بعثت أحد الأنبياء أو الرسول (ص) في مملكة نجران أو مملكة اليمن و قام بمعجزات إلهية التحقوا على أثرها بالإسلام و تحولوا إلى ممالك إسلامية و انتهى الأمر . لأن ممالكهم بالأساس نشأت بالمعجزات و الظواهر الخارقة .

و لم تكتف الحكمة الإلهية الصارمة بحل موضوع و قضية الأسرى في بدر ، بل تعدت ذلك إلى نطاق توزيع الغنائم ، حيث نزل أمر الله تعالى فيها أيضاً ليحدد الطبيعة و الكيفية التي ستوزع بها هذه الغنائم بحيث تكون هي الأخرى بدورها معزولة عن أي أمر سياسي و تتبع للحالة الدفاعية البحتة أو حالة عدم التعدي على الآخرين و أملاكهم حيث جاء (**و اعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه و للرسول و لذي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله و ما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان و الله على كل شيء قدير**) (الأنفال – ٤١) . تتضح لنا الصورة جلية في المغزى ، و الغاية الإلهية في هذه الآية و هي إبعاد مفهوم الغنائم عن مفهوم الحرب و القتال ، فجاء أمر (و اعلموا) للتنبيه و التحذير ، ثم جاءت شراكة الله تعالى جل و علا في هذه الغنائم بالخمس و هو في القرآن الكريم الغني الملك القدير (**... و الله غني حميد**) (البقرة – ٢٦٣) . (**فإن الله غني عن العالمين**) (آل عمران – ٩٧) . (**... استغنى الله و الله غني حميد**) (التغابن – ٦) . جاءت هذه الشراكة إيحاءً و تنبيهاً بأنها شراكة ليست للحاجة ، بل هي شراكة روحية ناتجة عن غنيمة تأتي بالطرق الصحيحة التي يريدها الله عز و جل ، و ليست بطرق السلب و النهب و الغزو و سبي النساء و بيعهن جواري للذة و المتعة و أسر الرجال و الأطفال و جعلهم عبيداً . و من المستحيل أن يدخل الله في شراكة قائمة على الخطأ و الباطل و النية السيئة . و لم تكتف الحكمة الإلهية بذلك بل أدخلت اليتامى و المساكين و ابن السبيل . و لم يبق من مجال للتصرف إلا في الرسول و ذي القربى . فتم بذلك تجريد الغنيمة من أية فائدة مادية تجارية . و كل ذلك منعاً لدخول الأمر السياسي الحربي في الأمر الديني و بالتالي أصبح مجال المناورة أمام أية حكمة سلطانية قد تعتمد هذا المبدأ ضيقاً و محدوداً للغاية إذا لم يكن مغلقاً . و بالتالي فإن غنيمة بمقدار مئة قطعة نقدية يؤدي إلى أن يكون لله منها عشرون ، و أما الثمانون الباقية فتقسم إلى خمسة أقسام يعادل كل منها خمسة عشر يكون جلها للفقراء و المحتاجين و المساكين و يصبح مقدار حصة الغانم منها ضئيلة ، و هو أمر غير مشجع على الغنيمة إطلاقاً .

من خلال كل ما تقدم نخلص إلى أن موقعة بدر بمقدماتها و وقائعها و نتائجها و ما استتبعها من آيات قرآنية نزلت بها ، كانت من أهم الحوادث في الإسلام و هي معركة كانت في الظاهر مجرد صراع بين المسلمين و المشركين لاستحصال الأموال المنهوبة من المسلمين ، و لكنها من وراء الكواليس كانت صراعاً خفياً كبيراً بين الحكمة الإلهية و بين حكمة سلطانية أرادت في أقصى الحالات قلب الموازين لصالحها و القضاء على الإسلام ، و في أدناها ، تحوير معنى الإسلام و تسخيره لصالحها عاجلاً أم آجلاً . هذا كله يدعم فكرة أن معركة بدر من الأساس كان مهيئاً لها من قبل المشركين و كانت نتيجة خطة محكمة سرية قامت بها حكمة قريش السلطانية الذكية و صاحبة العقل المدبر ، في مكة .فتم تدبير أمر القا فلة كطعم للمسلمين لاصطيادهم في صحراء بدر . و عندما تدخلت الحكمة الإلهية و أرسلت قوى خفية ساعدت المسلمين في حربهم و تم القضاء على هذا المخطط ، برزت حكمة إلهية سلطانية أخرى من داخل المسلمين ربما كانت أمتداداً للمشركين في مكة و التي تمثلت بالمنافقين ، لمحاولة تغيير الأوضاع فكرياً و تأسيس كيان فكري سياسي ، و هنا أيضاً تدخلت الحكمة الإلهية و منعت أي تدخل بشري و قررت هي بنفسها و بأوامر مباشرة كيفية التصرف بالمعركة و الغنائم و الأسرى و هي لم تبعث ثلاثة آلاف من الملائكة مسومين لكي يتصرف المسلمون فيما بعد على هواهم و مزاجهم ، بل من أجل الغاية و الهدف الإلهي الذي أرادته هذه الحكمة ألا و هو إنزال القرآن الكريم كاملاً و من ثم الحفاظ عليه ليكون للناس كافة . والآية (**و لقد نصركم الله ببدر و أنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون**) تدل على شيء من هذا القبيل . و ما يدعم أيضاً نظرية المؤامرة السرية على الإسلام ، هو أن قريشاً بعد هزيمتها في بدر ، لم تقف مكتوفة الإيدي ، بل عادت مرة أخرى للتجهز للقتال في حرب قوية شرسة ، هي معركة أحد ، و جل ما ميزها هو أنها كانت حرب كسر عظام و كانت الغاية الأولى منها و الأكيدة ، هي قتل الرسول (ص) و من ثم القضاء على الإسلام نهائياً . فما إن عاد أبو سفيان إلى مكة مرة أخرى ، حتى بدأ يعد العدة لمحاربة الرسول (ص) . فلم تمض فنرة معينة حتى قام بتجهيز جيش من المشركين قوامه ثلاثة آلالاف رجل من خيرة المقاتلين و سار به إلى المدينة لمواجهة الرسول (ص) .

هذه الجولة كان المشركون قد حضروا تماماً لها و استفادوا من الدروس السابقة في معركة بدر و استخلصوا العبر منها تلافياً لكل الأخطاء التي ظنوا أنهم قد وقعوا فيها . ليس ذلك فحسب ، بل وضعوا على ما يبدو خطة لقتل و اغتيال خيرة مهرة المحاربين المسلمين الذين لاحظوا مهارتهم في الحرب و كان منهم حمزة بن عبد المطلب (عم الرسول) و الذي كان من أشجع محاربي الإسلام و هو الذي دافع عن الرسول (ص) في مكة و حماه و دافع عنه يوم بدر ، و باغتياله يوم

أحد ، فقد الرسول (ص) أهم مناصريه و مناصري الإسلام ، و سمي حمزة وقتها بـ " سيد الشهداء " .

سار أبو سفيان بجيش يناهز الثلاثة آلالاف مقاتل بكامل عدتهم و عتادهم . و عندما ترامت الأنباء إلى الرسول (ص) بقدوم جيش المشركين بقيادة أبي سفيان ، فضل البقاء في المدينة و قتالهم بها دفاعاً عن النفس لكن بعد مشورة مع أتباعه و أنصاره ، قرر الخروج لملاقاة جيش العدو القادم لمهاجمته ، خارج المدينة و تبعاً لذلك ، فقد وضع الرسول (ص) خطة للقتال مع المشركين و صدهم بعد أن تبين موقع المعركة و هو جبل أحد ، فقام بتعيين مجموعة من رماة السهام ناهز عددهم الخمسين ، على احدى الهضاب و طلب منهم التمركز الدائم في مواقعهم و عدم تركها تحت أي ظرف ، للدفاع عن مؤخرة جيش المسلمين الذي ناهز عدده حوالي السبعمئة رجل . و قد بلغ من مقدار نية قريش القضاء على الرسول (ص) و على الإسلام ، أنها تحالفت مع عدد من القبائل كبني كنانة و بن تهامة و بني النضير . و هؤلاء كانوا في المدينة .كما أخرجت قريش حسب تاريخ ابن هشام " عبيدها و جدها و حديدها و أحابيشها و من تبعها " فضلاً عن النساء اللواتي أخذن يشجعن رجالهم على قتال المسلمين و يهددن بقطع العلاقات الجنسية معهم وفراقهم إذا فروا من المعركة . و كانت المسؤولة عنهم هند بنت عتبة و هي زوجة أبي سفيان ، ترتجز الشعر و تقول :

ويها عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضرباً بكل بتار
نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق و نفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

من الواضح أن الأمر كان محبوكاً بعناية . و الحكمة السلطانية لقريش قد بقيت سنة كاملة و هي تخطط لهذا اليوم . و قد دعا الأنصار الرسول (ص) إلى الاستعانة بحلفائهم من اليهود في قتال المشركين ، لكنه لم يقبل[1] .

التقى جيش قريش بقيادة أبي سفيان ، جيش المسلمين بقيادة الرسول (ص) و اندلعت معركة شرسة رهيبة التحمت فيها الرجال و السيوف و الرماح ، وفيها كر المشركون على المسلمين بعنف و قوة و نفذوا مخططهم فقاموا باغتيال حمزة بن عبد المطلب بواسطة عبد أسود يقال له وحشي ، كان يترصده في المعركة ، و هذا كان مخططاً ثانوياً بالنسبة للمخطط الأول ألا و هو

[1] السيرة النبوية ، ص/٤١٢/ .

اغتيال الرسول (ص) نفسه . و على ما يبدو و من قراءة السير التاريخية ، كأنه كان هنالك سرية كاملة خاصة ، مهمتها و دورها انحصرا فقط في اغتيال الرسول (ص) ، لأنه ما إن بدأت المعركة و حمي وطيسها حتى تكالب عدد من المشركين على مكان الرسول (ص) بالذات ، و هاجموه بعنف و ضراوة منظمين . و أصيب الرسول (ص) في نفسه إصابات بالغة و جراح عميقة قاتلة ، حتى ظهر النداء في المعركة أنه قد مات . جاء في السيرة " و لما انكشف المسلمون (تقهقروا) أصاب منهم العدو . و كان يوم بلاء و تمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة حتى خلص العدو إلى الرسول (ص) (أي وصل إليه) فدُث بالحجارة حتى وقع لشقه فأصيبت رباعيته و شجه فلان في جبهته و ابن فلان جرح وجنته ، فدخلت حلقتان من الخوذة في وجنته ثم وقع الرسول (ص) في حفرة من الحفر التي نصبها المشركون كأشراك و فخاخ "[٢] . و عندما هم المشركون إليه ليجهزوا عليه ، أحاط به جماعة من المسلمين منهم الإمام علي بن أبي طالب و طلحة بن عبد الله و مالك بن سنان (حسب السيرة) يدافعون عنه حتى الموت ، و بلغ من شدة تكالب المشركين على قتل الرسول (ص) و الموت الذي حاق به ، أن قامت امرأة من المسلمين بالمشاركة في الدفاع عنه و اسمها أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، و قام قوم آخرون .. منهم شخص يدعى (أبو دجانة) و قد جعلوا أنفسهم دروعاً بشرية للنبي (ص) حيث جاء في السيرة أيضاً " و تترس دون النبي (ص) أبو دجانة بنفسه ، يقع النبل (السهام) في ظهره و هو منحن عليه حتى كثر فيه النبل . و رمى سعد بن أبي وقاص دون الرسول (ص) ، و قال سعد : فلقد رأيته يناولني النبل و هو يقول إرم فداك أبي و أمي ، حتى إنه ليناولني السهم ماله من نصل فيقول ارم به " .

هذه الواقعة أدت إلى أن ينتشر خبر مقتل الرسول (ص) إذ جاء في السيرة " انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب و طلحة بن عبد الله في رجال من المهاجرين و الأنصار و قد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم ؟؟ قالوا : قتل رسول الله (ص) . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله (ص) . ثم استقبل القوم حتى قتل " و بلغ من شدة ما أصاب الرسول (ص) أنه صعب على المسلمين التعرف عليه ، فجاء في السيرة " و كان أول من عرف رسول الله (ص) بعد الهزيمة و قول الناس : قتل رسول الله . كان كعب بن مالك ، قال : عرفت عينيه الشريفتين تزهران من تحت المغفر (الخوذة) فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين ابشروا هذا رسول الله (ص) ما زال حياً . فأشار إلي رسول الله (ص) أن اسكت . فلما عرف المسلمون رسول الله ، نهضوا به و نهض معهم نحو الشعب معه

---

[٢] المصدر السابق ، ص/٤٢١/ .

أبو بكر الصديق و عمر بن الخطاب و علي بن أبي طالب و طلحة بن عبيد الله و الزبير بن العوام و الحارث بن الصمة و رهط من المسلمين " . إن إشارة الرسول (ص) إلى الرجل بالصمت ، هي لكي لا يعود المشركون مرة أخرى و يجهزوا عليه ، و على الأرجح أنهم ظنوا أنهم قتلوه و أنه قد فارق الحياة فتركوه و انصرفوا عنه ، و هذا ما يؤكد بأن الخطة لقتله قبل الحرب كانت موجودة و مرسومة بدقة .

وبعد انسحاب المسلمين من أرض المعركة ، أقبل المشركون يمثلون بـ جثث القتلى من أتباع الرسول (ص) و جاء في السيرة " أن هند زوجة أبي سفيان و النسوة اللاتي معها ، كن يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله (ص) يجدعن الآذان و الأنوف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال و أنوفهم خلاخل و قلائد و عندما وصلت إلى جثة حمزة بن عبد المطلب ، بقرت بطنه و أخرجت كبده و مضغتها فلم تستسغها فلفظتها ، و جدعت أنفه و أذنيه . و جاء زوجها أبو سفيان يفعل الشيء نفسه و عندما وصل إلى جثة حمزة بن عبد المطلب و قد مثلت بها زوجته ، أخذ يضرب برمحه فكي حمزة و يقول " ذق عقق .. ذق عقق " فرآه أحد المشركين و اسمه الحليس بن زبان فصاح بأعلى صوته مستنكراً فعلته : يا بني كنانة انظروا هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون ، فقال له أبو سفيان مضطرباً : ويحك اكتمها عني فإنها كانت زلة " . ثم خرج أبو سفيان إلى أعلى الجبل وصاح بأعلى صوته قائلاً : انفحت فعال وإن الحرب سجال يوم بيوم بدر ، اعل هبل . فقال الرسول (ص) لعمر بن الخطاب : قم يا عمر فأجبه و قل له " الله أعلى و أجل ، لا سواء ، قتلانا في الجنة و قتلاكم في النار " فلما فعل عمر بن الخطاب (رض) ذلك ، سأله أبو سفيان " أنشدك الله يا عمر ، هل قتلنا محمداً ؟؟؟؟؟؟؟ " فقال له عمر (رض) : لا و إنه ليسمع كلامك الآن .

لقد نزلت معظم آيات القتال و الحرب في هذه المعركة [1] و منها (**و إذ غدوت من أهلك تبوئ المسلمين مقاعداً للقتال و الله سميع عليم**) (آل عمران – ١٢١) . (**و ما جعله الله إلا بشرى لكم و لتطمن قلوكم به و ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم**) (آل عمران – ١٢٦) . (**و لقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه و أنتم تنظرون**) (آل عمران – ١٤٣) . (**و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم و من ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً و سيجزي الله الشاكرين**) (آل عمران – ١٤٤) . (**و كأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله و ما ضعفوا و ما استكانوا و الله يحب الصابرين**) (آل عمران – ١٤٦) . (**و ما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا**

[1] حسب السير و التفاسير .

اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا و ثبت أقدامنا و انصرنا على القوم الكافرين) (آل عمران – ١٤٧) .

و تعود إحدى أسباب هزيمة المسلمين الرئيسة في أحد ، إلى أن الرماة الذين عينهم الرسول (ص) على إحدى الهضاب و طلب منهم الدفاع عنهم بالسهام و الثبات في أماكنهم سواء انتصر المسلمون في المعركة أم لم ينتصروا ، تركوا أماكنهم عندما رأوا الكفة قد مالت لصالح المسلمين و رأوا المشركين يتركون أمتعتهم ، فنزلوا ليجمعوا الغنائم ، فأوعز المشركون إلى سرية أخرى منهم بقيادة خالد بن الوليد ، كانت رابضة خلف الجبل ، بالهجوم على مؤخرة قوات المسلمين ، فكان أن مني المسلمون بهزيمة كبيرة و حسب التفاسير نزلت في هذه القضية آيات قرآنية منها (**و لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم و تنازعتهم في الأمر و عصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ... إذ تصعدون و لا تلوون على أحد و الرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم و لا ما أصابكم**) (آل عمران ١٥٢ – ١٥٣) .

تبرز هذه الآيات قضية جوهرية و مهمة في علاقة الله تعالى بالمسلمين في أثناء الحرب ، بل و حتى في الحياة العادية العامة ، إذ تعود لتكرر أن الغزو و القتال لأجل السلب و النهب و الغنيمة ، هو ممنوع و مرفوض بتاتاً من قبل الحكمة الإلهية و أن الله عز و جل و علا ، قادر لأجل هذه الغلطة أن ينزل الهزيمة بالمسلمين و يعرض حياة الرسول (ص) للخطر لكي يرى الناس مقدار إصراره على التقيد بالتعاليم الروحية و الأخلاقية العامة و عدم الميل عنها و لو بمقدار قيد أنملة و عدم السماح لأية حكمة سلطانية أو شهوة إنسانية بشرية بالتداخل و التمازج مع الأمر الإلهي . و تدل عبارة (إذ تحسوهم بإذنه) الواردة في بداية الآيات السابقة على أنه حتى النصر و تفوق المسلمين هو من عند الله و هو مشروط بالإرادة الإلهية و غاية الحكمة الإلهية و ليس هكذا جزافاً و قياساً إلى ميزان قوى و سيوف و رماح .

إن تركيز الحكمة الإلهية في الإسلام على الغاية الدفاعية البحتة في القتال ، هو أمر جوهري و مهم لتثبيت الجانب الروحاني و الأخلاقي عند الإنسان و منعه من التعدي على الآخر لأي سبب . و بالتالي إبعاد الجانب و الأمر السياسي تماماً و فصله نهائياً عن الأمر الروحي الإيماني و الديني . و لعل هذا ما حصل و تم تداركه بعد معركة أحد و ما أفرز عنها من تبعات و ملابسات ارتبطت معها كقضية بني النضير ، حيث إن هؤلاء قد وقفوا إلى جانب مشركي قريش و انضموا إليهم و ساندوهم ، و كان مبلغ خطورتهم أنهم كانوا في المدينة و بين ظهراني المسلمين ، و لم يكتفوا بهذا الحد ، بل حاولوا بعد معركة أحد قتل الرسول (ص) و ذلك بإلقاء حجر كبير عليه و

كلفوا لهذه المهمة أحد الأشخاص و لكن تم اكتشاف المؤامرة قبل وقوعها و ألقي القبض على الرجل و اعترف في أثناء التحقيق معه بما نسب إليه . و هنا وصل الأمر إلى نقطة أصبح لا مناص فيها من مهاجمة القوم ، فجهز الرسول (ص) حملة و هاجم حصونهم . و هنا أيضاً تدخلت الحكمة الإلهية و أمر الله الرسول (ص) بإجلائهم فقط و عدم قتلهم و فيهم نزلت الآية (**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا و ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا و قذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم و أيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار _ و لولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا و لهم في الآخرة عذاب النار _ ذلك بأنهم شاقوا الله و رسوله و من يشاق الله فإن الله شديد العقاب**) (الحشر ٢ – ٤) . و بعد حصار قوات المسلمين لبني النضير ، طلبوا من الرسول (صلى الله عليه وآله) أفة ، فسمح لهم بالجلاء عن حصونهم و مواقعهم إلى الجهة التي يرغبون ، كما سمح لهم بنقل كل ما تستطيع إبلهم و خيولهم و حميرهم حمله من متاعهم ، ففعلوا و خرج قسم منهم إلى الشام و قسم إلى خيبر ، و دائماً يذكر الله أنه هو السبب في النصر في أية معركة حربية و لا يد للمسلمين في ذلك (من مقدمة الآيتين السابقتين) . و أما من بقي من مخلفاتهم فقد قام الرسول (ص) بتوزيعها حسب الأمر الإلهي (**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله و للرسول و لذي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم و ما أتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا و اتقوا الله إن الله شديد العقاب**) (الحشر – ٧) . من الواضح وجود تشديد صارم مطلق و فرملة قوية لموضوع الحرب و الغنيمة بدءاً من الإعلان بأن الذي أخرج هؤلاء القوم و كان صاحب القرار ، هو الله (هو الذي أخرج الذين كفروا ..) ثم جاء الخطاب الإلهي للطرفين المتحاربين ، المهاجم و المدافع بأنهم لم يكونوا يتوقعون هذه النتيجة و أن الله هو من أرادها و اختارها لغاية معينة (ما ظننتم أن يخرجوا و ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم) أي أن الطرفين كانا مقتنعين بأن الحصون لا يمكن اختراقها . و بعد أن ربطت الحكمة الإلهية نفسها مباشرة بكل ما جرى من أحداث لحقت بهذه القضية ، من هجوم على هذه الحصون و إجلاء القوم عنها ، عادت لتتحدث عن موضوع توزيع الغنائم و ربطتها مباشرة و صارم بالجانب الأخلاقي الإنساني و تحدثت لأول مرة و بشكل واضح عن منع ظهور الأمر السياسي بين ثنايا الأمر الروحي الديني (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) ، لا بل تم الحديث و لأول مرة عن الأمر السياسي بهذا الشكل الواضح ، و هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي ترد فيها كلمة دولة و التي تعني في المعاجم قوة المال و الحرب ، أي السلطة السياسية . و لعل هذا المنع و بهذه الصراحة الواضحة ، جاء لأن المسلمين هذه المرة كانوا هم

المهاجمين بأمر وإذن الله ، المباشر . و غريزة التملك و التسييس عند الهجوم ، ربما تكون أقوى منها عند الدفاع و أشد .

و لكن و مع ذلك فإن المشاكل لم تنته بعد ، و الهجوم على الإسلام و التآمر عليه و على الرسول (ص) ، كان يزداد و يشتد وطأة ، فقد قرر المشركون هذه المرة بقيادة أبي سفيان أيضاً ، شن معركة هجومية شاملة ضد الرسول (ص) و ضد المسلمين في عقر دارهم بالمدينة و القضاء عليهم و سحقهم مرة واحدة و إلى الأبد . وهذه المرة جهزوا جيشاً جراراً (قياساً إلى جيوش القبائل هناك) قوامه عشرة آلالاف مقاتل و سميت المعركة بمعركة الخندق .

و قبل أن نوجز هذه المعركة ، لا بد من الإيجاز بأن الرسول (ص) كان دائماً يتعرض للهجوم و الأذى في دعوته للإسلام ، و لم يكن تصرفه حيال ذلك إلا تصرفاً دفاعياً في أشد الحالات أو متسامحاً رؤوفاً في أحسنها ، فقبل هجرته إلى يثرب ، ذهب إلى مدينة الطائف منفرداً وحده ، ليدعوا أهلها إلى الإسلام ، فسخروا منه و قالوا له " أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟؟ " . ثم سلطوا عليه سفهاءهم و عبيدهم و صبيانهم يسبونه و يصيحون به و يلكمونه و يضربونه حتى شجوا رأسه و أسالوا الدم من وجهه و آذوه شر آذى و كادوا أن يفتكوا به ، و قيل إن الرسول (ص) قال بعد أن أفلت من أيديهم و هو مخضب كله بالدماء رافعاً رأسه إلى السماء " اللهم اغفر للقوم فإنهم لا يعلمون " . و كذلك الأمر بعد أن هاجر الرسول (ص) إلى المدينة و اشتدت قوته فيها و نما أمر الإسلام ، فكثيراً ما كان الرسول (ص) يتعرض لعمليات غدر و نفاق يتم فيها استدراج خيرة أتباعه من المسلمين و اغتيالهم حتى في أيام السلم . و القوم الذين يغدرون به ، ليس بينه و بينهم أية عداوة أو مشاكل ، فقد ذكر ابن هشام أن قوماً من عضل و القارة ، أتوا الرسول (ص) و قالوا : يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا في الدين و يقرؤنا القرآن و يعلمونا شرائع الإسلام . فبعث الرسول (ص) معهم ستة من خيرة أتباعه ليعلموهم الإسلام ، فما إن انفردوا بهم في الصحراء حتى قتلوا قسماً منهم و باعوا القسم الآخر لمشركي مكة الذين قتلوهم . و في حادثة أخرى سميت بحادثة " بئر معونة " جاء أحد الأشخاص و يدعى أبا براء إلى الرسول (ص) و قال له لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك . فقال الرسول (ص) (و قد تعلم درساً قاسياً مما حصل معه في الحادثة السابقة) : إني أخاف عليهم أهل نجد . فقال الرجل : أنا جار لهم (أي أحميهم و أتبناهم) فليدعوا الناس إلى أمرك . فبعث الرسول (ص) أربعين رجلاً من خيرة أتباعه ، حتى وصلوا إلى مكان يدعى بئر معونة و من هناك بعثوا برسول منهم إلى زعيم القوم الذين يريدون الوصول إليهم و معه رسالة ، فما كان من الرجل إلا أن قتل الرسول من دون أن ينظر إلى الرسالة ، ثم جمع أقواماً و ذهبوا

إليهم و قتلوهم عن آخرهم . فلما وصل الخبر إلى الرسول (ص) اهتم و اغتم و قال " قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً " و هذا غيض من فيض على عمليات الاغتيال التي كانت تطال أتباع الرسول (ص) . هذه الحوادث كلها استمرت إلى وقت حدوث معركة الخندق أو معركة الأحزاب .

إن معركة الخندق هذه ، كانت من أشد المعارك خطراً على الإسلام و على الرسول (ص) . و هي تبرز في طياتها صورة قبيحة جداً لتدمير الإسلام و النية الأكيدة المستمرة في محاربته و القضاء عليه ، و تظهر بوضوح طبيعة المعادلة أو العلاقة الحربية القائمة و التي حددت آيات القتال و الحرب في القرآن الكريم . هذه المعادلة كانت قائمة على الهجوم من قبل قريش و المشركين و الكفار مقابل الدفاع من طرف الرسول (ص) و المسلمين و المؤمنين . و بالرغم من شدة خطورة هذه المعركة على الإسلام و المسلمين ، فإنه لم يحدث فيها اشتباك حقيقي فيما بينهم بمعنى المعركة الحربية كما كان الحال عليه في معركتي بدر و أحد ، بل كانت عبارة عن شبه حصار لقوات جيش المشركين بقيادة أبي سفيان و حلفائهم للمدينة ، تخللتها بعض المناوشات و الاشتباكات الفردية بين الطرفين . و في الوقت نفسه فإن هذه المعركة كانت بمنزلة مفترق الطرق أو ذروة الخط البياني لمن سيخسرها ، و من ثم الانحدار و الهزيمة النهائية . فبالنسبة للمسلمين ستكون هزيمة قاضية لهم لأنها أولاً ستكون الهزيمة الثانية لهم بعد معركة أحد التي خسروها . و ثانياً ، كان جيش العدو هذه المرة كبيراً و هائلاً (عشرة آلالاف مقاتل) و الصراع هنا هو وجود أو عدم وجود ، فضلاً عن أن قوات العدو تطوق المدينة كلها و لا مجال للمناورة أو الهرب .

أما بالنسبة لكفار و مشركي قريش ، فإنها ستكون هزيمة قاضية لهم إذا خسروها ، لأ نهم هذه المرة قد استجمعوا كل قواهم و ضموا لهم كل حلفائهم و القبائل المناصرة لهم ، فإذا تحطم هذا المجد و الجمع و القوة ، فإن ذلك يعني أن جيش المسلمين لا يهزم و سيكون من الصعب على المشركين إعادة تجميع قواهم من جديد على هذه الشاكلة التي كانوا عليها .

و تعود جذور نشأة هذه المعركة إلى النية الأكيدة في القضاء على الرسول (ص) و على الإسلام قضاءً نهائياً لا عودة عنه . و إلى اجتماع كل أعداء الرسول (ص) هذه المرة ضده في تكتل واحد حيث اجتمع بنو قريظة و بنو غطفان و بنو فزارة و قريش بقيادة أبي سفيان و القبائل الموالية لهم و اتفقوا على محاربة الرسول (ص) و قالوا في الاجتماع النهائي لهم " سنكون معاً عليه حتى نستأصله "[1] . النية و المخطط واضحان هنا تمام الوضوح و لا داعي للتأويل أكثر من ذلك . و عندما علم الرسول (ص) بهم استشار أتباعه في الأمر ، فأشار عليه بعضهم بالخروج لقتال المشركين و لكن الفكرة لم تقنع الرسول (ص) لأن ميزان القوى هذه المرة كان مختلاً تماماً

[1] السيرة النبوية .

و بشكل كبير لصالح المشركين ، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة ، فراقت الفكرة للرسول (ص) و أمر بمباشرة حفر الخندق . و ما إن وصل جيش المشركين و حلفاؤهم حتى فوجئوا بوجود الخندق يطوق المدينة . و يبدو أن قريشاً هذه المرة قد أرادت فعلاً استئصال الرسول (ص) و الإسلام ، واتبعوا لذلك كل الطرق الحربية و غير الحربية ، فحاولوا أن يستميلوا حلفاء الرسول (ص) من القبائل و العشائر و الأقوام و يبعدوهم عنه و يجعلوهم ينقضون اتفاقهم معه و استعانوا على ذلك بالمنافقين من المسلمين الذين كانوا مع الرسول (ص) بالمدينة .

و موضوع وجود المنافقين من أتباع الرسول (ص) و بين ظهراني المسلمين ، قد اقره القرآن الكريم بأكثر من موضع . و لعل هذه الآية الخطيرة تعبر عنه خير تعبير (**و ممن حولكم من الأعراب منافقون و من أهل المدينة مردوا على النفاق أنت لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم**) (التوبة – ١٠١) . فهي تدل عن وجود منافقين في دائرة الرسول (ص) من الصعب معرفتهم أو تمييزهم و إدراكهم ، لأنهم خبراء متمرسون بالنفاق و الدهاء ، أي وجود نوع من الحكمة السلطانية الخفية و الذكية و المحنكة و التي من الصعب التعامل معها . و قد ورد الكثير من الآيات في القرآن الكريم التي تتحدث عن المنافقين و تبرز صورهم و ضررهم و تصرفاتهم لدرجة أنه وردت سورة كاملة بالقرآن الكريم اسمها " سورة المنافقون "[٢] . و من هذه الآيات (**إذا جاءك المنافقون فقالوا نشهد إنك لرسول الله و الله يعلم إنك لرسوله و الله يشهد إن المنافقين لكاذبون**) (المنافقون – ١) . (**لقد ابتغوا الفتنة من قبل و قلبوا لك الأمور حتى إذا جاء الحق و ظهر أمر الله و هم كارهون**) (التوبة – ٤٨) . (**يا أيها النبي جاهد الكفار و المنافقين و اغلظ عليهم و مأواهم جهنم و بئس المصير**) (التوبة – ٧٣) . (**و إذ يقول المنافقون و الذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله و رسوله إلا غروراً**) (الأحزاب – ١٢) .

و قد نجح أعداء رسول الله (ص) في ثني أهم حلفائه أو الذين وقفوا على الحياد و منهم بنو قريظة . جاء في السيرة[١] " و جاء حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة و عهدهم . و كان قد وادع رسول الله (ص) على قومه ، فلما سمع كعب بحيي بن أخطب ، أغلق دونه باب الحصن ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له . فناداه حيي : و يحك يا كعب افتح لي . فقال كعب : ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم و إني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني و بينه و لم أر منه إلا وفاء و صدقاً . فقال حيي : ويحك افتح لي أكلمك . فقال ما أنا بفاعل .

---

[٢] لن نورد السورة هنا ، لأن ذلك ليس من منهج الكتاب بل نكتفي بإيراد متفرقات من القرآن الكريم .

[١] السيرة النبوية ، ص/٤٩٨/ .

فقال حيي : و الله إن أغلقت الحصن دوني إلا عن جشيشتك[٢] ، أن آكل منها . فأحفظ الرجل ففتح له الباب . فقال حيي : ويحك يا كعب لقد جئتك بعز الدهر و ببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها و سادتها حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة . و بغطفان على قادتها و ساداتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدوني و عاقدوني على أن لا يبرحوا حتى **نستأصل محمداً و من معه** . فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر و بجهام (سحاب) هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ، و يحك يا حيي دعني و ما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً و وفاء . فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة و الغارب حتى سمح له على أن أعطاه حيي عهداً من الله و ميثاقه : لئن رجعت قريش و غطفان و لم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك . فنقض كعب عهده و برئ مما كان بينه و بين رسول الله (ص) " .

إن الحوار السابق الذي جرى بين الرجلين و المهمة التي أتى من أجلها حيي و محاولاته الحثيثة لثني كعب عن الرسول (ص) و كلامه عن استئصال الرسول (ص) و الإسلام و عن تجييش القبائل ضده ، يبين الصورة الواضحة و النية الأكيدة الطويلة و المستمرة ، دون انقطاع ، و التخطيط المنظم الدؤوب للقضاء على الإسلام و الرسول (ص) ، و بالتالي إجهاض المشروع الإلهي المتمثل بإنزال القرآن الكريم كبلاغ أزلي للناس كافة . و تزامنت مع حركة الانقلاب هذه على الرسول (ص) أن بدأت البلبلة تدب في صفوف المسلمين أنفسهم و بدأ بعضهم يستأذن الرسول (ص) للعودة إلى بيوتهم بحجج و أعذار واهية . ويبدو من سلسلة الحوادث تلك و التي كانت بمجملها ليس في صالح الإسلام ، أنه كان هناك نوع من الحرب النفسية ضد المسلمين قد أثرت فيهم و فعلت فعلها فيهم لدرجة أن الرسول (ص) حاول إقامة الصلح مع بعض الذين جاؤوا لحربه . و من مضمون آيات القرآن نرى أن المنافقين كان لهم دور كبير في هذا الشأن بالإضافة إلى الأعداء من الكفار والمشركين لدرجة أنه كما ذكرنا نزلت سورة كاملة في القرآن الكريم باسم المنافقون ، و جاء ذكرهم أيضاً في سورة الأحزاب و هي السورة التي سميت بها معركة الخندق و التي سميت أيضاً بالأحزاب ، لاجتماع قبائل و أحزاب و عشائر عدة لمحاربة الرسول (ص) و الإسلام ، يضاف إلى ذلك أن المشركين قد ضربوا حصاراً قوياً محكماً و خانقاً على المدينة ، فبات المسلمون في وضع صعب و حرج و مضطرب . و لم يعدل كفة الميزان قليلاً و يخفف من وطأة الحرب النفسية على المسلمين و يقوي عزيمتهم و يثبتهم ، و في الوقت نفسه يحفف من حدة عزيمة أعدائهم ، إلا المبارزة التي جرت بين الإمام علي بن أبي طالب (ع) و عمرو بن ود

---

[٢] طعام يصنع من الحبوب المطحونة .

العامري[1] ، فحين اشتدت الوطأة على المسلمين و علموا أن لا طاقة لهم بمقاتلة عشرة آلالاف مقاتل من جيش العدو ، بدأ بعضهم بالفرار و التخلي عن الرسول (ص) ، و الآخر تأثر بالمنافقين ، و من تحالف مع الرسول (ص) من القبائل ، تخلى عنه . هنا أرادت قريش أن تضع القشة التي ستقصم ظهر بعير المسلمين ، حين استعصى عليها عبور الخندق . فأرسلت الحكمة السلطانية أشجع الفرسان العرب و يدعى عمرو بن ود العامري و كان حسب الروايات التاريخية صنديداً من صناديد العرب و فارساً لا يقهر ، أرسلوا معه سرية من الفرسان المشكرين . و قد جاء توقيت إرسال هذا الفارس و سريته من قبل الحكمة السلطانية في مكة ، مناسباً تماماً و في محله ، كما أن اختيارها لهذا الشخص بالذات و لهذه المهمة بالذات ، كان أيضاً مناسباً تماماً و في محله . و كما يقال " الرجل المناسب في المكان المناسب " . و من المؤكد أن هذه الحكمة السلطانية التي كان يمثلها أبو سفيان ، كان لديها علم تام بما يدور في معسكر الرسول (ص) و ما يحدث فيه من اضطرابات و انحلال و ضعف مستمر في الجيش ، فكانت مهمة عمرو بن ود العامري هي عبور الخندق بسريته و دعوة كبار فطاحل المسلمين إلى المبارزة و القتال ، وربما دعوة الرسول (ص) نفسه إلى القتال و قتله . و حسب الروايات التاريخية فإن سريته كانت مؤلفة من أشجع فرسان العرب أي ما يعرف بقوات النخبة . و نحن نرجح أن مهمة هذا الرجل كانت على الأرجح هي قتل الرسول (ص) في أحسن الحالات ، و في أسوئها إلقاء الرعب و الذعر في جيش المسلمين بعد قتل عدد من قادتهم ، و دفعهم إلى الاستسلام أو الفرار . و يبدو أن الأمر في البداية قد تم كما رسمته الحكمة السلطانية حيث استطاع عمرو بن ود عبور الخندق مع جماعته و وصل إلى جيش المسلمين و وقف أمامهم ثم صاح بأعلى صوته طالباً النزال . و لكن شخصية هذا الرجل و سطوته و قوته و الوضع الذي كان فيه المسلمون ، جعلهم يقبعون في أماكنهم من الخوف و لا يردون عليه . فجعل هذا الرجل يتبختر في مشيته على جواده و يصيح مرة أخرى في المسلمين طالباً المبارزة و يقول لهم بسخرية و صوت عال " ألا رجل ؟؟ أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ؟؟ " . فلم يرد عليه أحد من الخوف ، فعاد الرجل مرة أخرى و قد أصبح هذه المرة أكثر جرأة و وقاحة و أخذ يصيح " ألستم تزعمون أن قتلاكم في الجنة و قتلانا في النار " . فلم يرد عليه أحد ، فأخذ هذا الرجل و قد هبطت عليه موهبة الشعر و الخطابة ، يرتجز و يترنم بصوت عال و يقول :

و لقد بححت من النداء بجمعهم .. هل من مبارز ؟

---

[1] انظر موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ، ج/١/ ، ص/٢١٢/ .

في هذا الموقف العصيب و اللحظة الحرجة ، أخذ الرسول (ص) يدعو أتباعه إلى قتال عمرو و يقول " من لعمرو و أنا أضمن له الجنة " . و لكن رهبة ذلك الرجل على ما يبدو كانت قد أثرت في المسلمين ، فلم يتطوع أحد . و هنا قام الإمام علي بن أبي طالب (ع) و طلب من الرسول (ص) السماح له بمبارزة عمرو ، فامتنع الرسول (ص) قائلاً لعلي (ع) " اجلس .. إنه عمرو " . و كررها له مرتين . و في الثالثة سمح له ، فتقدم الإمام علي إلى عمرو بن ود .

هنا و حسب الروايات التاريخية ، فإن هذه المبارزة كانت مبارزة حاسمة مصيرية بالنسبة للكفار و المسلمين معاً و هي التي كانت ستحدد مصير الإسلام . في هذا الجو المضطرب المكفهر و المليء بالخيانة و الغدر و الخلخلة و الفرار و الجبن ، مع ضمانة الجنة ، و لهذا قال الرسول (ص) فيها " برز الإيمان كله إلى الشرك كله . و إن مبارزة علي بن أبي طالب لعمرو يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة . و ضربة علي يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين "[٢] . وقف الإمام علي بن أبي طالب (ع) أمام عمرو بن ود العامري و قال له : يا عمرو إنك كنت في الجاهلية تقول لا يدعونني أحد إلى ثلاث خصال إلا قبلتها أو واحدة منها . فقال عمرو : نعم . قال الإمام علي : فإني أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله و أن تسلم لرب العالمين . فقال عمرو : لا حاجة لي بذلك . فقال الإمام علي : أما إنها و الله كانت خيراً لك لو أخذتها و لكن هاهنا أخرى . قال عمرو : هاتها . قال الإمام : أن ترجع من حيث جئت . فقال عمرو : و اللات لا تحدث بهذا نساء قريش أبداً . فقال الإمام : فهاهنا أخرى . قال : و ما هي ؟ قال : أن تنزل فتقاتلني . فضحك عمرو و قال : إن هذه خصلة ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومني عليها ، انج بنفسك فإني أكره أن أهرق دمك . فرد الإمام على (ع) : و لكني و الله ما أكره أن أهرق دمك . فغضب عمرو و نزل و سل سيفه كأنه شعلة من نار ، ثم أقبل نحو الإمام علي مغضباً ، فاستقبله الإمام بدرقته فضربه عمرو في الدرقة ، فقدها و أبقى السيف فيها . و ضربه الإمام علي على حبل العاتق فسقط و ثار العجاج (الغبار) ثم سمع الرسول (ص) التكبير فعرف أن علياً قد قتل عَمراً . و جاء في المناقب لابن شهراشوب ، أن الإمام علي بعد أن ضرب عمراً و أسقطه أرضاً ، نحا بوجهه عنه لفترة وجيزة ثم عاد و اشتبك معه مرة أخرى و قتله و لم يقم بسلبه ، حيث كانت له درع ثمينة جداً لم ير مثلها لدى العرب . و عندما سأله الرسول (ص) و المسلمون فيما بعد عن هذا الموقف ، أجاب : إن عمراً بعد أن سقط على الأرض ، شتم أمي و تفل في وجهي ، فخشيت ان أضربه لحظ نفسي ، فتركته حتى سكن ما بي ، ثم قتلته في الله . و جاء في المستدرك على الصحيحين أن الإمام علي (ع) ترفع عن سلب عمرو درعه الثمينة إذ

---

[٢] انظر المستدرك على الصحيحين و تاريخ ابن كثير و غيرها .

كان يضرب بسيفه من أجل الحق ليس غير . هذه الحادثة أثرت تأثيراً كبيراً في قلب موازين الحرب النفسية بين قريش و المسلمين . و لم يخطئ بعض المؤرخين و الكتاب حين سمى ضربة الإمام علي بن أبي طالب لعمرو بن ود و التي سقط بسببها ، بـ " الضربة المصيرية " ، حيث عملت هذه المبارزة عملها في التأثير النفسي السيء لدى جيش العدو ، فقد فرت السرية التي كان يقودها عمرو بن ود و لحق بهم الإمام علي فقتل بعضهم و فر بعضهم الاخر إلى جيش العدو مذعورين . و قد ارتجز الإمام علي (ع) شعراً في مبارزته لعمرو بن ود قال فيه :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه و نصرت رب محمد بصوابي
فصدرت حين تركته متجدلاً كالجذع بين دكاك و روابي
و عففت عن أثوابه و لو أنني كنت المقطر بزني أثوابي
لا تحسبوا الله خاذل دينه و نبيه يا معشر الأحزاب

بعد هذه الحادثة التي قوت عزيمة المسلمين و أضعفت عزيمة أعدائهم النفسية ، جاءت حادثة أخرى أسهمت في تفريق شمل جيش المشركين و فرط الحلف القائم بين الأحزاب و القبائل المجتمعة على حرب الرسول (ص) . فقد قدم شخص من معسكر المشركين من قبيلة غطفان ، إلى الرسول (ص) و اسمه " نعيم بن مسعود " ، و أشهر إسلامه قائلاً : يا رسول الله إنني قد أسلمت و إن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت . فقال الرسول (ص) : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعةفخرج الرجل و ذهب إلى بني قريظة [1] فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودي لكم و خاصة ما بيني و بينكم . فقالوا صدقت لست عندنا بمتهم . فقال لهم: حلفاءكم ليسوا مثلكم و هم غرباء ، بينما البلد هنا هو بلدكم فيه أموالكم و أبناؤكم و نساؤكم و تقدرون أن تحولوا منه إلى غيره و إن قريشاً و غطفان قد جاؤوا لحرب محمد و قد ساندوهم عليه و بلدهم و أموالهم و نساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا غنيمة أصابوها و إن كان غير ذلك ، لحقوا ببلادهم و خلوا بينكم و بين الرجل ببلدكم و لا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم أن تقاتلوا محمداً معه حتى تناجزوه . فقالوا له : لقد أشرت بالرأي . ثم خرج حتى أتى قريشاً و قال لأبي سفيان قائد حلف الأحزاب و من معه :قد عرفتم ودي لكم و فراقي محمداً و إنه بلغني أن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه بمحمد و قرروا أن يكفروا عن خطئهم هذا بأن يسلموه عدداً من أشرافكم و وجهاء قومكم ليضرب أعناقهم . ثم خرج إلى قبيلة غطفان فقال لهم : يا معشر غطفان إنكم أصلي و عشيرتي و أحب الناس إلي و لا أراكم تتهمونني . قالوا : صدقت ، ما أنت

---

[1] تم الإسهاب في حوادث معركة الخندق لأنها كانت بنظرنا من أخطر المعارك على الإسلام و المسلمين و كانت من الحوادث التاريخية الهامة و المفصلية الخطرة في تاريخ الرسول (ص) و الإسلام .

عندنا بمتهم . فأخبرهم بمثل ما أخبر قريشاً و حذرهم . و كان هنالك على ما يبدو ، اتفاق بين قريش و غطفان و من معهم من القبائل و بين بني قريظة بأن يتحركوا من الداخل (أي بني قريظة) فلما بعثت قريش لهم بذلك ، طلب منهم بنو قريظة تسليم أشرافهم لهم ، فرفضت قريش و غطفان و انطلت الخدعة عليهم ، و حصلت خلخلة عظيمة في تحالفهم هذا و انقلبوا بعضهم على بعض . أي أن التحالف ضد الرسول (ص) قد تزعزع بنيانه و أصبح هشاً ضعيفاً . و بدأت الخلافات تجد طريقها إليهم . و هنا جاءت الضربة الثالثة و القاضية و هي ضربة إلهية هذه المرة . حيث أرسل الله تعالى عليهم في الليل إعصاراً قوياً شديد البرودة استمر أياماً عدة وكان كافياً لتبديد شملهم و انفراط عقدهم و تخرب عتادهم . وأمام هذه الضربات الثلاث القوية .. ضربة نفسية و ضربة تنظيمية و ضربة إلهية ، انفرط عقد المهاجمين و كانت خاتمتهم المأساوية بإعلان زعيمهم أبي سفيان الانسحاب تحت جنح الظلام حيث قام و صاح بهم في الليل : يا معشر قريش إنكم و الله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع و الخف و أخلفتنا بنو قريظة و بلغنا عنهم الذي نكره ، و لقينا من شدة الريح ما ترونه ، ما تطمئن لنا قدور و لا تقوم لنا نار و لا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جمله و هو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به . و توالى من بعده انسحاب الأحزاب و القبائل المهاجمة .

لقد قام مشروع الحكمة السلطانية القرشية المهاجمة للمشروع الإسلامي برمته ، على ثلاث أسس تكتيكية . أولاً : تشكيل كتلة عسكرية ضاربة و هجومية (قريش – غطفان – فزارة – بنو قريظة – و غيرهم) . ثانياً : ضم هذه الكتل بعضها إلى بعض في جيش واحد (عدا قريظة ، بحكم المكان) عن طريق إقامة حلف بينها . ثالثاً : شن حرب نفسية قوية و دعائية إعلامية ، مبرمجة و موجهة لإضعاف نفوس المسلمين . و لكن قيض لهذه الأسس الثلاث أن تتحطم و بالتسلسل الزمني المعكوس لحدوثها ، من قبل الحكمة الإلهية و الحكمة القيادية الإسلامية ، فكان أول رد قامت به هاتان الحكمتان ، على آخر أساس أو بند اعتمدته الحكمة السلطانية القرشية و هو الحرب النفسية التي مثلها عبور عمرو بن ود العامري للخندق مع سرية من رجاله و استعراض أنفسهم علناً أمام جيش المسلمين المدافع و المحَاصر ، و طلبه المبارزة و القتال علناً و جهاراً . و هذا نوع من الحرب النفسية القوية التي تضعف الخصم و تؤثر فيه مهما كان . كما أن كلامه أمام المسلمين بعجرفة و خيلاء " ألستم تزعمون أن قتلاكم في الجنة و قتلانا في النار ؟؟ و أين الجنة التي تزعمون ؟؟ " و غيرها من عبارات . هذا الكلام هو بحد ذاته من أخطر أنواع الحرب النفسية و بخاصة في مثل هكذا موقف لم يبرز له فيه أحد ، و هو على الأرجح كلام ملقن ، قد تم تلقينة لعمرو بن ود من قبل حكمة سلطانية ملمة بجوانب الأمور ، لأنه يضرب على الوتر

الحساس و الجوهري لصلب و لب الإسلام و هو الجنة و النار اللذان يجسدان مفهوم الآخرة في الإسلام و التي هي الركن الأساس و الغاية النهائية لكل مسلم ، بخاصةو أن بعض الروايات التاريخية تحدثت عن أن الرسول (ص) قال " من لعمرو و له الجنة ؟؟ " فلم يقم أحد . لدرجة أن عمرو بن ود قد تفتقت قريحته الشعرية في النهاية و أخذ يستشعر أمام القوم قائلاً بصوت عال أن صوته قد بح من النداء للنزال و لم يبرز له أحد .هذا الموقف المدر وس بعناية من قبل الحكمة السلطانية القرشية و التي أثبتت على ما يبدو ذكاءها و حنكتها و درايتها العميقة بالأمور ، كان كافياً لو استمر لساعتين أو ثلاث ، لأن يجعل المسلمين يفرون واحداً تلو الآخر و في الوقت نفسه تضعف عقيدتهم القتالية و حتى الدينية و إيمانهمالآ خرة أو على أحسن تقدير ، فإن مؤشر عقيدتهم القتالية الدفاعية عن الدين سوف يهبط إلى الصفر و بالتالي ستكون فرص صمودهم أمام أعداء الإسلام شبه معدومة . و من المؤكد أن الحكمة السلطانية لقريش أدركت هذا الجانب الخطر المتمثل بالعقيدة القتالية الإيمانية لدى المسلمين و التي جعلتهم ينتصرون في بدر و يصمدون في أحد و يحمون الرسول (ص) من موت محتم بدفاعهم عنه بأرواحهم و أجسادهم ، و لذلك قررت معالجته هذه المرة على طريقتها الخاصة بعد أن خبرته .

هنا في هذه اللحظة المصيرية الحاسمة برز الإمام علي بن أبي طالب (ع)ليقلب المعادلة ر أساً على عقب و يعيد خلط الأوراق من جديد لصالح المسلمين و الإسلام و يصد هذه الضربة النفسية القوية بحكمة بصيرة و نافذة ، قل نظيرها ، و ذلك من موقفه مع عمرو بن ود قبل نزاله ، حيث تقدم إليه و بيده السيف و الدرع ، و بدلاً من مبادرته بالقتال ، وقف أمامه و تصرف بحكمة بالغة تمثلت بالمحاورة الكلامية التي أجراها معه و التي كانت نوعاً من مناورة ذكية و حكمة قوية أدركت خلفية قدوم عمرو بن ود العامري و الخطورة الشديدة لعبوره الخندق ، فعرض عليه الإسلام و هو أمر لو قبله عمرو ، لكان أشد وطأة و وقعاً على جيش المشركين من قتله ، لأنه أولاً سيكون صدمة قوية لهم و ثانياً سيكسب المسلمون دعماً قوياً لهم ، فرفض عمرو هذا العرض ، فقدم له الإمام عرضاً آخر أخف ثقلاً و لكنه لا يقل شدة عن الأول بالنسبة للمشركين و هو أن يرجع عمرو من حيث أتى و هذا يعني فشله سياسياً (إذا جاز التعبير) في مهمته . و يلاحظ هنا أن عمراً أجاب الإمام علي بقوله " لا تحدث بهذا نساء قريش أبداً " و لم يتحدث عن الجيش أو القيادة التي أرسلته . و هذا دليل على أنه ربما لم يكن ملماً تمام الإلمام بمهمته ، بل على الأرجح كان ملقناً تلقيناً فقط و هو أمر أدركته حكمة الإمام علي بن أبي طالب (ع) ، أي أن عمراً لم يكن يدرك كامل أبعاد خطوته تلك و خطورة موقفه هذا . و قد أدركت حكمة الإمام علي (ع) هذا الأمر و عرفت أن عمرو بن ود هو شخص موجه أكثر منه حكمة تدير نفسها بنفسها ، فلم

يبادر إلى قتاله فوراً ، بل حاول معالجته و التحكم به و توجيهه ضد الحكمة السلطانية التي أرسلته . و عندما لم يفلح في ذلك ، وضعه أمام الأمر الواقع و هو التصفية و التدمير ، حيث لا مناص من ذلك أبداً لأن أي خيار غير هذه الخيارات الثلاث ، سيؤدي لا محالة إلى ضعضعة المسلمين و فرض الشروط عليهم أياً كانت . و نستنتج على الأرجح أن الإمام علي (ع) كان يدرك تماماً أنه سيقتل عمرو بن ود و أنه (أي عمرو) لن يكسب النزال أبداً . و لو كان الإمام علي لديه أدنى شك بقدرته على قتل عمرو ، لما طرح عليه موضوع النزال أبداً بل خيره بأمر آخر لأنه كان يدرك خطورة مهمة عمرو على نفسية و معنوية المسلمين و يدرك خطورة أبعاد أن يقتله عمرو نفسه بعد ذلك . و يدعم هذا الرأي ، إصراره على نزال عمرو بالرغم من منع الرسول (ص) له مرتين .

الأمر الثاني أو الضربة التالية على مشروع الحكمة السلطانية القرشية و هو التحالف بين الأحزاب تقودها هذه الحكمة ، جاء عن طريق الحيلة و الدهاء الذي تمثل بشخص نعيم بن مسعود و هو شخص واحد حيث أوقع بين هذه القبائل المتحالفة و عمل على نشوب الخلاف بينها لتأتي الضربة الثالثة من الله تعالى نفسه و على القوة العسكرية لهذا الحلف ، تمثلت في الأعاصير و الريح الشديدة التي بددت شملهم و خربت عتادهم .

في الواقع إننا نعتقد أن واقعة الخندق أو الأحزاب ، كانت أشد خطراً على الإسلام و المسلمين بكثير مما جاء في الكتب التاريخية التي لم تذكر سوى نسبة معينة مما حصل في الواقع . و من المؤكد أنه كان يوجد هنالك مفاصل و حوادث تاريخية خطيرة حصلت فيها و لم يتم ذكرها (ربما بسبب التقادم الزمني لتدوين السنة و التاريخ الإسلامي) و ما يجعلنا نعتقد ذلك هو نزول سورة كاملة في القرآن ، خاصة بهذه المعركة ، سميت بسورة الأحزاب و هي /٧٣/ آية ، وردت فيها معانٍ خطيرة حملت آثار و جسامة تلك الحوادث ، نذكر بعضاً منها (من دون ترتيب الآيات)

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها النبي اتق الله و لا تطع الكافرين و المنافقين إن الله كان عليماً حكيماً _ و اتبع ما يوحى إليك من رك إن الله كان بما تعملون خبيراً _ و توكل على الله و كفى بالله وكيلاً _ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنود لم تروها و كان الله بما تعملون بصيراً _ إذ جاءوكم من فوقكم و من أسفل منكم و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر تظنون بالله الظنون _ هنالك ابتلي المؤمنون و زلزلوا زلزالاً شديداً _ و إذ يقول المنافقون و الذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله و رسوله إلا غروراً _ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا و يستأذن فريق منكم النبي يقولون إن بيوتنا

عورة و ما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً _ لو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها و ما تلبثوا بها إلا يسيرا _ و لقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار و كان عهد الله مسؤولاً _ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل و إذاً لا تمتعون إلا قليلاً _ قد يعلم الله المعوقين و القائلين لإخوانهم هلم إلينا و لا يأتون البأس إلا قليلاً _ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا قط فأحبط الله أعمالهم و كان ذلك على الله يسيراً _ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا و إن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم و لو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً _ و لما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله و رسوله و صدق الله و رسوله و ما زادهم إلا إيماناً و تسليماً _ من المؤمنين رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدلوا تبديلاً _ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً و كفى الله المؤمنين القتال و كان الله قوياً عزيزاً _ و أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم و قذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون و تأسرون فريقاً _ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا و زينتها فتعالين أمتعكن و أسرحكن سراحاً جميلاً _ وإن كنتن تردن الله و رسوله و الدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً _ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين و كان ذلك على الله يسيراً _ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في نفسه مرض و قلن قولاً معروفاً _ لئن لم ينته المنافقون و الذين في قلوبهم مرض و المرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً _ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا و قتلوا تقتيلاً _ سنة الله في الذين خلوا من قبل و لن تجد لسنة الله تبديلاً) .

من معاني الآيات السابقة ، يتبين لنا شدة وطأة معركة الخندق على الإسلام و النية الأكيدة للحكمة السلطانية الاجتماعية في قريش المتزامنة مع القوة الهائلة و المنظمة للقضاء على الرسول (ص) و الإسلام و المسلمين . و ذلك من الوصف المخيف المرعب لما قامت به هذه الحكمة السلطانية و الذي ساقته تلك الآيات من السورة نفسها (**إذ جاؤوكم من فوقكم و من أسفل منكم و إذا زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنون بالله الظنون**) . (**هنالك ابتلي المؤمنون و زلزلوا زلزالاً شديداً**) . هاتان الآيتان تبينان الخطر الحقيقي الفعلي الذي حاق بالإسلام و الذي وصفه الله تعالى بأنه زلزال شديد . و يلاحظ في سورة الأحزاب أنه لم ترد كلمة المسلمين إلا مرة واحدة فحسب في السورة بينما وجه الخطاب كله للمؤمنين فحسب . و الخطاب الإلهي للمؤمنين وحدهم

دون غيرهم ، يبين مقدار قيمة الأشخاص الذين كان يتوجب عليهم حمل أواصر و تبعات تلك الموقعة على كاهلهم و هو تفريق حقيقي و واضح بين المسلم و المؤمن .. بين الإسلام و الإيمان .

بعد الانتهاء من هذه الموقعة و انسحاب المشركين و تبدد جيوشهم و أحلافهم ، كان لا بد من عقاب بني قريظة على ما فعلوه . و هنا أيضاً كان العقاب إلهياً و ليس من الرسول (ص) (**و أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم و قذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون و تأسرون فريقاً**) ٠ الأحزاب – ٢٦) . و كانت العقوبة على قدر خطورة وقعة الخندق و كبر هولها فتم قتل بعض من شاركوا إلى جانب جيش المشركين ، و أسر بعضهم الآخر و الحجر على ممتلكاتهم .

بعد موقعة الخندق برز الرسول (ص) كقوة مرهوبة الجانب في الجزيرة العربية و أصبح الإسلام أكثر أمناً و سلامة ، و بدأ المنحى البياني للخطر العسكري الذي يتهدد الرسول (ص) و الإسلام بالانحدار نحو الأسفل شيئاً فشيئاً ، و بدأ ميزان القوى يميل لصالح الرسول (ص) و الإسلام . و في الوقت نفسه ازدادت الدعوة للإسلام و ازداد عدد الداخلين فيه من القبائل العربية مع ذلك فإن هذا لم يمنع تعرض المسلمين لمناوشات و هجوم من بعض مناوئيهم من المشركين ، فيأتي الرد الدفاعي للرسول (ص) . و كل المعارك التي نشبت بين المسلمين و المشركين و غيرهم في عهد الرسول (ص) ، كانت دفاعية بحتة و لم تتم الدعوة فيها إلى الإسلام بالسيف و لم يكن المسلمون هم البادئين بالهجوم في أي منها . و من هذه المعارك ، معركة ذي كيان – السلاسل – بذي المصطلق – ذي قرد و غيرها . و لم ينج الرسول (ص) من إساءة المنافقين و المشركين في ذلك .

كان من نتائج قوة الرسول (ص) بعد موقعة الخندق ، ما عرف بصلح الحديبية بينه و بين قريش ، و تم الاتفاق فيه على السماح للمسلمين في العام القادم أن يأتوا و يحجوا بيت الله الحرام و قد كان من شهود صلح الحديبية من المسلمين أبو بكر الصديق (رض) و عمر بن الخطاب (رض) و عبد الرحمن بن عوف و علي بن أبي طالب (ع) و كان هو كاتب الصلح . و من المشركين سهيل بن عمرو و مكرز بن حفص . و يظهر من خلال السيرة النبوية أن عمر بن الخطاب (رض) لم يكن لديه أية ثقة بالمشركين (ربما بعد ما رآه من الأهوال و المصائب في معركة الخندق) فاقترح على الرسول (ص) عدم التوقيع على هذا الصلح و لكن الرسول (ص) شرح له الموقف و أعلمه بأنه من عند الله تعالى فقال عمر عن ذلك بكل تواضع " و الله ما زلت أتصدق و

أصوم و أصلي و أعتق ، من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً "[1] .

و جاء في حادثة كتابة الصلح ، أن الرسول (ص) دعا علي بن ابي طالب (ع) فقال له : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو (و هو من المشركين) : لا أعرف هذا و لكن اكتب " باسمك اللهم " . فقال الرسول (ص) لعلي : اكتب باسمك اللهم . فكتبها . ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله ، ما قاتلتك و لكن اكتب اسمك و اسم أبيك . فقال الرسول (ص) لعلي : اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم . و من جاء قريشاً ممن مع محمد ، لم يردوه عليه . و إن بيننا عيبة مكفوفة و أنه لا سلال و لا أغلال . وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد و عهده ، دخل فيه ، و من أحب أن يدخل في عقد قريش و عهدهم ، دخل فيه . فدخلت بعض القبائل في عهد الرسول (ص) كقبيلة خزاعة . و دخلت قبائل في عهد قريش كبني بكر . و من مفارقات صلح الحديبية أن ابن سهيل بن عمرو كان قد انضم إلى الإسلام ، فقال سهيل للرسول (ص) : يا محمد قد تم الصلح بيني و بينك قبل أن يأتيك هذا (أي ابنه) ، فقبل الرسول (ص) ذلك منه . فقام الرجل إلى ابنه فضربه ثم كبله ليأخذه معه إلى مكة فصاح الولد : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين ليفتنوني في ديني ؟؟ . فقال له الرسول (ص) : اصبر و احتسب فإن الله جاعل لك و لمن معك من المستضعفين فرجاً و مخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا و بين القوم صلحاً و اعطيناهم على ذلك و أعطونا على عهد الله و إنا لا نغدر بهم . فنفذ الولد أمر الرسول (ص) .

بعد ذلك بفترة وجيزة ، حصل خرق لصلح الحديبية من قبل المشركين ، فقد أغارت قبيلة بكر و هي حليفة قريش على قبيلة خزاعة و هي حليفة الرسول (ص) ، فقامت قريش بمساندة قبيلة بكر ضد قبيلة خزاعة و خرقت بذلك ميثاق صلح الحديبية بشكل فاضح . و هنا على ما يبدو بلغ السيل الزبى . ولم يعد الرسول (ص) يحتمل أكثر من ذلك . و كأننا به يقول : كفى .. إلى هنا وانتهى الأمر فجمع جيشاً تعداده عشرة آلالاف رجل و سار به إلى مكة و افتتحها من دون إراقة قطرة دم واحدة ، و هو دليل على انتفاء المفهوم و العامل الهجومي للإسلام ، علماً أن مركز الشرك ، كان فيها و كذلك مركز العداء و الأذية للرسول (ص) . و تم إلقاء القبض على أبي سفيان و رهط معه ، و خيروا بين الإسلام و الموت (و كان السيف فوق رؤوسهم) فاختاروا الإسلام . و إكراماً من الرسول (ص) و بعد كل ما فعله معه أبو سفيان و الذين آذوه من المشركين ، أعلن

---

[1] السيرة النبوية .

للناس أن " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن من أغلق دونه باب بيته فهو آمن و من دخل المسجد فهو آمن " . بعد ذلك جمع من قريش الذين بقوا على عنادهم و قال لهم "ما تظنون أني فاعل بكم ؟؟ " . فقالوا : خيراً ... أخ كريم و ابن أخ كريم . فقال لهم قولته الشهيرة " اذهبوا فأنتم الطلقاء " . ثم سار إلى الكعبة ، بيت الله الحرام و هدم الأصنام التي فيها .

و من مفارقات يوم فتح مكة ، أن الرسول (ص) بعث أول الأمر بسعد بن عبادة على رأس سرية إلى مكة ، فأخذ هذا الأخير يصيح و ينادي : اليوم يوم الملحمة .. اليوم تسبى الذراري و تستحل الحرمة . فأتى عمر بن الخطاب (رض) سريعاً إلى الرسول (ص) و أخبره بمقولة سعد ، فنادى الرسول (ص) نداء الرحمة و الرأفة و صاح " اليوم يوم المرحمة " . ثم دعى الإمام علي بن أبي طالب (ع) و قال له : أدرك سعداً و خذ الراية منه و كن مكانه . ففعل الإمام علي و سار هو إلى مكة بدلاً من سعد .

و لكن حتى بعد فتح مكة و ازدياد شوكة المسلمين قوة ، بقي الإسلام و المسلمون عرضة للخطر و الهجوم من بعض القبائل العربية القوية و أشهرها قبيلة هوازن . و كذلك أهل الطائف ، فكان من جراء ذلك ، أن وقعت معارك " حنين " و " مؤتة " و " تبوك " . و كانت معارك عنيفة شديدة ، حاق الخطر و الموت فيها في بعض الأحيان بالرسول (ص) . و كثيراً ما كان الرسول (ص) بعد المعارك يرد السبايا و الأسرى إلى أصحابها من القبائل المهزومة ، لأن الغاية عنده كانت بالدرجة الأولى هي دخول الناس في الإسلام و بخاصة العرب . و لكأننا به (ص) كان الهم الأول في رأسه هو دخول القبائل العربية جميعها في الإسلام .

و يبدو أن هذا هو ايضاً كان غاية الحكمة الإلهية نفسها أي أن يدخل الناس بالإسلام و يزدادوا قناعة فيه و حباً له . و لذلك جاء الأمر الإلهي في القرآن لمن يسمون " المؤلفة قلوبهم " (**إنما الصدقات للفقراء و المساكين و العاملين عليها و المؤلفة قلوبهم و في الرقاب و الغارمين و في سبيل الله و ابن السبيل فريضة من الله و الله عليم حكيم**) (التوبة – ٦٠) .

و المؤلفة قلوبهم إما أن يكونوا أناساً مسلمين و لكنهم لم يقتنعوا قناعة كافية بالإسلام ، فيدفع لهم المال أو العطايا ليزداد تعلقهم بالدين ، و إما أن يكونوا أشخاصاً ليسوا مسلمين و لكن يقدمون خدمات معينة للإسلام ، فيدفع لهم العطاء كذلك نظير خدماتهم و أعمالهم تلك . جاء في الطبري " حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر قال : أعطى الرسول (ص) المؤلفة قلوبهم و كانوا أشرافاً من أشراف الناس ، فأعطى أبا سفيان بن حرب مئة بعير و أعطى ابنه معاوية مئة بعير و أعطى حكيم بن خزام مئة بعير و كذلك النضر بن حارث و سهيل بن عمرو (كاتب صلح الحديبية) و الأقرع بن حابس " . و قيل إن أحدهم و يدعى عباس بن

مرداس ، لم يرض بحصته و بدأ يتذمر من ذلك و يعاتب الرسول (ص) ، فقال الرسول (ص) " اذهبوا فاقطعوا عني لسانه ، فزادوه من الإبل و المال حتى رضي ، فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به " و هؤلاء هم بالذات من سيقيض لهم فيما بعد أن يكونوا النواة الأولى للحكمة السلطانية السياسية الإسلامية التي أنشأت نظام الملك و مملكة الإسلام .

و في هذه الفترة أيضاً و عندما استتب الأمر للرسول (ص) في المدينة و معظم جوارها ، بعث الإمام علي بين أبي طالب (ع) إلى اليمن لينشر الدين الإسلامي ، و قام أيضاً ببعث رسائل إلى ملوك الدول المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام[1] ، منها رسالة إلى هرقل ملك الروم جاء فيها " من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد .. أسلم تسلم و أسلم يؤتك الله أجرك مرتين و إن تتول فإن إثم الأكاريين كان عليك " . كما بعث برسالة إلى المنذر الغساني صاحب دمشق جاء فيها " سلام على من اتبع الهدى و آمن به ، إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، و يبقى لك ملكك " . و كتب إلى النجاشي ملك الحبشة كتاباً جاء فيه " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصمم ملك الحبشة . سلم أنت بأني أحمد إليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، و أشهد أن عيسى بن مريم روح الله و كلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه و نفخه ، كما خلق آدم بيده و نفخه . و إني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له الموالاة على طاعته و أن تتبعني و تؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله إليك و قد بعثت إليك ابن عمي جعفراً و نفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم و دع التجبر فإني أدعوك و جنودك إلى الله فقد بلغت و نصحت فاقبلوا و السلام على من اتبع الهدى " . و بعث بكتاب إلى كسرى ملك الفرس جاء فيه " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى و آمن بالله و رسوله و شهد أن لا إله إلا الله و إني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فإن عليك إثم المجوس " . كما بعث بكتاب إلى المقوقس ملك مصر بالصيغ السابقة نفسها .

بعد كل هذه الأحداث ، حج الرسول (ص) بأتباعه حجة الوداع ، ليأتيه بعدها المرض الذي توفي فيه . و ذكرت بعض الروايات أنه (ص) مات من أثر السم الذي تناوله قبل ذلك في حصن خيبر[2] فقد جاء أن زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم أهدت الرسول (ص) شاة مطبوخة و كانت قد سألت قبل ذلك ، أي عضو فيها أحب إلى الرسول (ص) ؟؟ فقيل لها الذراع ، فأكثرت

---

[1] تاريخ الطبري ، ج/٢/ ، ص/٤٣٦/ .

[2] انظر تاريخ الطبري ، ج/٢/ ، ص/٤٤٣/ .

السم فيها و سممت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي الر سول (ص) ، تناول الذراع فأخذها فلاك منها مضغة فلم يستسغها . و كان معه بشر بن البراء بن معرور و قد أكل مع الرسول (ص) و استساغ الآكل . و أما الرسول (ص) فقد لفظ اللقمة من فمه و قال إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم . ثم دعا بالمرأة ، فاعترفت . فقال لها الرسول (ص) : ما حملك على مافعلت ؟؟!! فقالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت في نفسي إن كان نبياً فسيخبر و إن كان ملكاً استرحت منه . فتجاوز عنها الرسول (ص) الذي هو على خلق عظيم كما وصفه ربه . أما بشر بن البراء الذي أكل معه فقد مات من فوره . و عندما مرض الرسول (ص) بعد ذلك بسنين مرضه الذي توفي فيه ، جاءت أم بشر بن البراء تعوده فقال لها (ص) : يا أم بشر إن هذا هو الأوان و وجدت انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع ابنك بخيبر " .

مات رسول الله ... محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ... صلوات الله و سلامه عليه ، في السنة التي تم فيها إنجاز المهمة ألا و هي نزول كتاب الله تعالى ، القرآن الكريم كاملاً . و حسب الروايات التاريخية و روايات الحديث ، فإن جبريل كان يستقرئ الرسول (ص) القرآن الكريم مرة كل سنة في شهر رمضان ، إلا في السنة التي توفي فيها ، فإنه استقرأه إياه مرتين . جاء في مجمع الزوائد " عن عائشة أنها كانت تقول إن رسول الله (ص) في مرضه الذي قبض فيه ، قال لفاطمة إن جبريل (ع) كان يعارضه بالقرآن في كل عام مرة ، و إنه عارضني بالقرآن العام مرتين "[٢] . و جاء أيضاً في المجمع نفسه " إن رسول الله (ص) كان يعرض القرآن على جبريل (ع) كل عام مرة ، فلما كان العام الذي قبض فيه ، عرضه عليه مرتين " . و في المصدر عينه ، عن عبد الله بن مسعود قال " قرأت على رسول الله (ص) سبعين سورة و ختمت القرآن على خير الناس علي بن أبي طالب (ع) " . و جاء في صحيح البخاري[٣] " حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا عن فراس عن عامر عن مسروق عن عائشة قالت : ثم أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيها مشي النبي (ص) ، فقال النبي (ص) مرحباً بابنتي ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم أسر إليها حديثاً فبكت ، فقلت لها : لما تبكين ؟؟!! ثم أسر إليها حديثاً فضحكت . فقلت : ما رأيت اليوم فرحاً أقرب من حزن . فسألتها فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله (ص) ، حتى قبض النبي (ص) فسألتها فقالت : أسر إلي أن جبريل كان يعارضني بالقرآن مرة كل سنة و أنه عارضني العام مرتين ، ألا حضر أجلي و إنك أول أهل بيتي لحاقاً بي ، فبكيت ، فقال : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين ، فضحكت لذلك " . و في البخاري أيضاً جاء في

---

[٢] مجمع الزوائد ، ج/٩/ ص/٢٣/ .

[٣] صحيح البخاري ، ج/٣/ ، ص/١٣٢٦/ .

الحديث رقم / ٥٠١٩ / " حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا سفيان عن عبد العزيز بن رفيع قال : دخلت أنا و شداد على ابن عباس رضي الله عنهما . فقال له شداد بن معقل : أترك النبي (ص) من شيء ؟ قال : ما ترك إلا ما بين الدفتين[١] . و دخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه ، فقال : ما ترك إلا ما بين الدفتين " . و ذلك كله يثبت وجود القرآن الكريم كاملاً و في كم واحد . و عبارة " ما بين الدفتين " تثبت يقيناً أنه كان مكتوباً كله بالكامل و مجموع في كتاب واحد . و وفاة الرسول (ص) في السنة التي تم فيها اكتمال نزول القرآن ، يثبت أيضاً بما لا يدع مجالاً للشك أن الغاية الإلهية من رسالة الدعوة المحمدية ، هي نزول القرآن الكريم و جعله بلاغاً عاماً و بياناً شاملاً للبشرية كلها ، و لو أراد الله سبحانه و تعالى أن تكون الفتوحات بهذه الشكل الذي حصل و بالسيف ، لربما عاش الرسول (ص) عشرين عاماً بعد اكتمال نزول القرآن . و لكن الغاية الإلهية واضحة و اللبيب من الإشارة يفهم . و حتى لا يكون هنالك أية مشكلة أو سوء فهم لما أراده الله تعالى في القرآن ، شاءت الحكمة الإلهية أن تكون كل تصرفات الرسول (ص) و أعماله ، و حتى الحوادث الوقائع التي رافقت حياته كلها ، مطابقة و موافقة للخطاب القرآني . و الشمولية العالمية للقرآن الكريم من حيث التبليغ ، جاءت في الآية التالية (**هذا بلاغ للناس و لينذروا به و ليعلموا أنما هو إله واحد و ليذكر أولوا الألباب**) (إبراهيم – ٥٢) . ثم تأتي الآية الثانية لتجعل من مهمة الرسول (ص) موافقة و مؤيدة للآية الأولى (**و ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً و نذيراً و لكن أكثر الناس لا يعلمون**) (سبا – ٢٨) .

و لكي يكون هذا القرآن موجهاً للناس عامة و في أصقاع العالم كافة ، كان لا بد له من الا بتعاد عن الأمر السياسي تماماً ، و كذلك الأمر الاجتماعي التفصيلي [٢] . و هذا ما يلاحظ من خلال قراءة القرآن الكريم حيث تميز سياق خطابه ، بالإطار العام . و لكي تحقق الحكمة الإلهية هذا الأمر ، كان لا بد من أن تمنع دخول الحكمة السلطانية البشرية أو الأمر السلطاني الذي يؤدي بدوره إلى دخول الأمر السياسي و الذي يؤدي هو الآخر إلى تمييع الإرادة و الغاية الإلهية و تحريفها و قولبتها حسب ما تراه الحكمة السلطانية مناسباً لها ، و هذا كله متعلق بالمصلحة الفردية و الأداة و الوسيلة التي ترتأيها تلك الحكمة أنها الأنسب لتسيير شؤون الدولة و المجتمع و بقائها هي نفسها . و هذا كله ليس بالضرورة أن يتوافق مع ما تراه الحكمة الإلهية أنه الأنسب لشؤون الناس و المجتمعات حسب ما تريده هي أيضاً . هذه المقولة الأخيرة نابعة حسب رأينا من أمرين اثنين . الأول هو أن الحكمة السلطانية بأبعادها و صفاتها كافة ، هي بشكل ما محتواة

---

[١] أي القرآن الكريم .

[٢] بخصوص هذا الموضوع ، راجع كتابنا السابق " الزمن العربي الرديء " ، من (فصل السياسية الإسلامية و المفهوم السياسي) و ما بعده .

ضمن الحكمة الإلهية و ليس بالضرورة ضمن نطاق الإرادة بل حتماً من خلال الكم . و عملية الاحتواء هذه تقتضي عدم الإحاطة و الإدراك بما تريده الحكمة الإلهية و هو ما ثبت خلال التاريخ البشري عامة ، و هذا يؤدي بمعناه إلى إمكانية التعارض و التنافر و الاختلاف بين الحكمتين . الأمر الثاني الذي يدعم و يثبت عملية الاختلاف ، هو مفهوم المصلحة المادية الذاتية و هو أمر له وجوده حتماً في حسابات الحكمة السلطانية ، و لكنه غير موجود لدى الحكمة الإلهية . و هي قضية تفرض في حيثياتها أن ما تأخذه الحكمة السلطانية في عين الاعتبار قد يكون مختلفاً تمام الاختلاف عما تأخذه الحكمة الإلهية بعين الاعتبار ، و هو بيت القصيد في العلاقة بين الحكمتين . و الحكمة الإلهية في القرآن عندما منعت الحكمة السلطانية من الدخول ، لم تنكر وجودها و لكنها تحدثت عنها بصيغة أخرى هي صيغة انتفاء المصلحة المادية الذاتية النفع أياً كانت .

و تجلت أواصر منع الحكمة السلطانية و الأمر السياسي الاجتماعي التابع لها بالدخول ، بعدة أشكال منها

١) – عدم وجود أو ورود أية إشارة للأسس و المرتكزات الفكرية و النظرية للمفاهيم المؤسسة لهذه الحكمة أو المنبثقة عنها ، فلا نرى كلمات مثل (دولة – سلطة – سياسية -) أو ما يدل على وجود سلطة ما أو أي أثر لها ، و هذا ما سوف نناقشه في القسم القرآني . لا بل إن بعض هذه المفاهيم جاء مرة واحدة فحسب و من باب النهي و الإنكار و المنع (**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله و لرسول و لذي القربي و اليتامى و ابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم و ما أتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا و اتقوا الله إن الله شديد العقاب**) (الحشر – ٧) . إن عبارة (كي لا يكون دولة بين الأغنياء) هي واضحة تماماً ، فهي النقض التام لأية سلطة مادية تنبثق من إطار ديني و تقوم على المال المكتسب منه و هي النهي بشكل قاطع أن يكون مال الزكاة لإنشاء دول و سلطان و إمرة و سياسية و أحزاب مستترة خلف الدين للوصول إلى كرسي السلطان . أما عبارة (و ما أتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا) فهي تدل على وجود شيء ما أو محاولة ما حصلت في حياة الرسول (ص) لإنشاء سلطة معينة تستند على أسس بشرية بحتة . و جاءت عبارة (اتقوا الله إن الله شديد العقاب) لتدل على الرفض الشديد من قبل الله تعالى لهذه الموضوع .

و في تاريخ دعوة الرسول (ص) إلى الإسلام ، ظهرت على ما يبدو محاولات عدة أو أخطاء معينة كانت كفيلة بحرف سكة الإسلام الروحي عن مسارها نحو سكة السياسة و تشكيل السلطة ، بدءاً من الرسول (ص) نفسه و مروراً بمن تبعه في الإسلام و انتهاء بالناس كافة . ففي معركة

أحد جاء تنبيه و تذكير للرسول ، فقط لمجرد عبارة قالها حينما حاصر ه مشركو قريش و أرادوا قتله و أصابوه بجراح بالغة عميقة و كسور شديدة ، فأخذ يمسح الدم عن وجهه و يقول " كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم و هو يدعوهم إلى ربهم " . فأنزل الله تعالى[1] (**ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون**) (آل عمران – ١٢٨) . لمجرد هذه العبارة البسيطة و التي لا تحمل في طياتها نية القتل و الضرر ، بل السوآل و الاستفهام ، نزل أمر الله بذلك ، و هو ليس عتاباً و لوماً للرسول (ص) بقدر ما هو تنبيه للغير و وضع حد و صمام أمان لكي لا تنفلت الأمور من عقالها و تتطور إلى ما هو أسوأ ، ليس بالنسبة إلى الرسول (ص) ، بل بالنسبة إلى الناس ، و فضلاً عن الخبر القرآني بأن الرسول (ص) ليس بملك و لم يأت لأجل الملك أو الحكم ، فإن حوادث السيرة الكثيرة ، دلت أيضاً على الأمر و على انتفاء صفة الملك و نزعة الحكم و السياسية عن الرسول (ص) و الإسلام ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قصة عدي بن حاتم ، حيث جاء فيها[1] أنه كان ملكاً على قومه و كان يكره الرسول (ص) كرهاً شديداً و يناوئه الأمر . ثم صدف في إحدى المناوشات أن أسر المسلمون أناساً من قومه فيهم ابنته . و عندما وصلت إلى الرسول (ص) أكرمها إكراماً شديداً . و عندما طلبت العودة إلى أهلها ، أرسلها على الفور و ما إن وصلت إلى أبيها حتى أخبرته بالأمر فسألها عنه فقالت : أرى و الله أن تلحق به سريعاً فإن يكن نبياً فالسابق إليه له فضيلة و إن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن . قال الرجل : فخرجت حتى وصلت إلى الرسول (ص) فلقيته فسلمت عليه فقال : من الرجل ؟؟ فقلت :عدي بن حاتم . فقام رسول الله (ص) فانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بي إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها . فقلت في نفسي : و الله ما هذا بملك . ثم مضى رسول الله (ص) حتى دخل بيته فتناول وسادة من أدم محشو ليفاً فقذفها إلي فقال اجلس على هذه . فقلت لا بل أنت اجلس عليها ، فقال : لا بل أنت فجلست و جلس رسول الله (ص) على الأرض فقلت في نفسي : و الله ما هذا بأمر ملك ، ثم قال لي : إيه يا عدي بن حاتم ألم تكن ركوسياً ؟ فقلت بلى . قال : أولم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ قلت بلى . قال فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك . فقلت صحيح و عرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل " . و في الكتاب الذي بعثه الرسول (ص) إلى كسرى ، جاء فيه " إنك إن أسلمت فلك ما تحت يديك و بقي ملكك على بني قومك فلما وصل الجواب إلى الملك باذا ن تابع كسرى ، قال " ما هذا بكلام ملك و إني لأرى الرجل نبياً حقاً "[1] . و الرسول (ص) لم يكن يوماً صاحب قتال بل دعوة فحسب . و أي

---

[1] انظر السيرة النبوية ، معركة أحد .

[1] تاريخ الطبري ، ج/٢/ ، ص/٤٧٦/ .

[1] تاريخ الطبري ، ج/٢/ ، ص/٤٤٠/ .

خطأ كان يبدر من أتباعه من المسلمين في ذلك ، كان يمنع صاحبه إن أدركه ، أو يتبرأ منه علناً إن لم يدركه . و قد وقعت حوادث كثيرة في ذلك ، منها قصة خالد بن الوليد مع بني جذيمة بن مالك ، حيث جاء في التاريخ[٢] " بعث رسول الله (ص) فيما حول مكة السرايا تدعوا إلى الله عز و جل و لم يأمرهم بقتال . و كان ممن بعث خالد بن الوليد و أمره بأن يسير بأسفل تهامة داعياً ، و لم يبعثه مقاتلاً . فوطئ بني جذيمة فأصاب منهم[٣] ، ثم نزلوا على القميصاء و كان لبني جذيمة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال لهم خالد ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا . فقال رجل منهم يسمى جحدم : ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد ، و الله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار و ما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق ، و الله لا أضع سلاحي أبداً . فاخذه رجال من قومه فقالوا يا جحدم أتريد أن تسفك دماؤنا ؟ إن الناس قد أسلموا و وضعت الحرب و أمن الناس . فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه و وضع القوم السلاح لقول خالد . فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ثم عرضهم على السيف قتل منهم من قتل . فلما انتهى الخبر إلى رسول الله (ص) رفع يديه إلى السماء ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد . ثم دعا علي بن أبي طالب فقال يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم و اجعل أمر الجاهلية تحت قدميك . فخرج حتى جاءهم و معه مال قد بعثه رسول الله (ص) ، فودى لهم دماءهم و ما أصيب من الأموال حتى إنه ليَدي مليغة الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم و لا مال إلا وداه ، بقيت معه بقية من المال ، فقال لهم علي (ع) حين فرغ : هل بقي لكم دم أو مال لم يؤد إليكم ؟ فقالوا لا . فقال فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله (ص) مما لا يعلم و مما لا تعلمون . ثم رجع مرة أخرى إلى رسول الله (ص) فأخبره الخبر . فقال (ص) : أصبت و أحسنت . ثم قام رسول الله (ص) مرة أخرى فاستقبل القبلة شاهراً يديه حتى إنه ليرى بياض ما تحت منكبيه و هو يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد (قالها ثلاث مرات) . و عندما وقعت مشادة كلامية بعد ذلك بين خالد بن الوليد و عبد الرحمن بن عوف بسبب هذه القضية ، قال الرسول (ص) لخالد " مهلاً يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي و لا روحته " .

و كذلك قصته (ص) مع المرأة التي سمت الشاة له . فبعد أن عرف أنها مسمومة ، لفظ اللقمة من فمه و سأل المرأة بكل بهدوء عن سبب فعلتها الشنيعة تلك ، فقالت : قلت في نفسي إن كان نبياً فسيخبر (أي يعلم بها) و إن كان ملكاً استرحت منه . و من المعلوم أن الرسول (ص) قد علم

---

[٢] المصدر السابق ، ص/٤٦١/ .

[٣] أي قتل .

بأمر تسمم الشاة من الله و عاش بعدها بضع سنين و لم يمت من فوره كما حصل مع البراء . و كذلك الأمر في بعث الرسول (ص) عماله إلى اليمن ، فقد بعث خالد بن الوليد إلى اليمن يدعو أهلها إلى الإسلام ، فبقي فيها ستة أشهر لم يجيبوه فيها إلى شيء مما دعاهم إليه . فلم يأمره الرسول (ص) بقتالهم ، بل و بكل بساطة عمد إلى تبديل الطاقم كله ، فأرسل الإمام علي بن أبي طالب (ع) إليهم . و عندما ادعى مسيلمة الكذاب النبوة و اشتراكه مع الرسول (ص) فيها ، بعث إلى إلى الرسول (ص) كتاباً جاء فيه " من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك .. فإني قد أشركت في الأرض معك و إن لنا نصف الأرض و لقريش نصف الأرض و لكن قريش قوم يعتدون " . فرد عليه الرسول (ص) بكتاب جاء فيه " بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين "[٤] .

و نظراً لأنه برأينا أن كل ما كتب عن السيرة النبوية ، ليس دقيقاً مئة بالمئة ، و احتمال وجود اللبس و الخطأ و التدليس و الوضع فيه ، قائم على نحو ما ، أولاً لكونه كتب بعد حياة الرسول (ص) بحوالي ثلاثمئة عام . و ثانياً لورود تناقض هائل في بعض المواطن فيه . و لكن و في الوقت عينه ، عدم نبذه كله لوجود علة الصحة و الصواب فيه في مواطن أخرى ، فإننا سنعدو الشق الثاني من تحليل العلاقة بين الحكمتين الإلهية و السلطانية في الإسلام ألا و هو القرآن الكريم ، كونه الخطاب الأساس و الفيصل و المرجع الأول في الإسلام ، و نحاول استقراء هذه العلاقة من سياق آياته .

القرآن الكريم :

يختلف القرآن الكريم عن بقية الكتب الدينية الأخرى ، السماوية و غير السماوية ، في أنه لا يبدأ بالتسلسل التاريخي الاعتيادي حول نشأة الكون أو حول نسب الرسول (ص) . كما يتميز في أنه بالمجمل يتحدث عن مفاهيم عامة تأخذ أبعاداً متعددة ، و أحياناً يأتي فيه أسلوب طرق صفات معينة لأشخاص معينين أو أعمال معينة تكون المنطلق لطرح الأفكار التي أراد الله تعالى إيصاله للناس . و تحتل الأخلاقيات في القرآن الكريم مكاناً بارزاً بالإضافة إلى ما يعرف بمفهوم القصص أو السرد الزمني لأحداث و وقائع حصلت في الماضي و طرحت في بعض مفاصل القرآن كعبر و أمثال و موعظة . و القرآن الكريم ينفرد بميزتين أساستين ، الأولى أنه يخاطب العقل الإنساني و هو يصرح بذلك ، و يطالب الإنسان بالتفكير و التأمل و التدبر (**كذلك يبين الله آياته لعلكم تعقلون**) (البقرة – ٢٤٢) . (**إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**

---

[٤] تاريخ الطبري ، ج/٢/ ، ص/٤٨٨/ .

) (الأنفال – ٢٢) . (**و ما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله و يجعل الرجس على الذين لا يعقلون**) (يونس – ١٠٠) . (**إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**) (يوسف – ٢) و هذه الآية الأخيرة بالذات ، نقف عندها طويلاً ، فهي و بالرغم من كونها آية تفسيرية ، فإنها جاءت أيضاً بصيغة تأنيبية و هي تدل على استعمال العقل . و كذلك الآيات (**و ما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليه من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و لدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون**) (يوسف – ١٠٩) . (**و سخر لكم الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**) (النحل – ١٢) . (**لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون**) (الأنبياء – ١٠) . (**أف لكم و لما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون**) (الأنبياء – ٦٧) . (**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها و آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور**) (الحج – ٤٦) . (**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً**) (الفرقان – ٤٤) . (**و لقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون**) (العنكبوت – ٣٥) . (**و تلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون**) (العنكبوت – ٤٣) .

هذا غيض من فيض من آيات العقل في القرآن الكريم . و بتأملها و التمحيص فيها ، يمكن الخروج بنتيجة مؤداها أن الله تعالى لا يمدح العقل و الفكر و التدبر بقدر ما يحض عليهم و يطالب معشر الناس بالعمل بهم ، أي دعوة لإنشاء حكمة إنسانية فردية المطلوب منها معرفة ما تريده الحكمة الإلهية منها ، بقدر ما يمكنها ذلك . و ما يدعم هذه المقولة ، هو تذمر الحكمة الإلهية من قصور العقل الإنساني من حيث الكم ، على إدراك ذلك و توانيه و تقاعسه عن المحاولة الجدية في البحث . و ذلك من خلال بعض الآيات السابقة التي تصف هؤلاء الناس بالأنعام و الحيوانات ، بل أسوأ من ذلك و هو الحديث عن عمى القلوب .

و يأتي أيضاً في نطاق و محتويات القرآن الكريم ، الحدود و الشرائع و الأوامر و النواهي التي يجملها موضوع الحلال و الحرام و كيفية العبادة و هي في حد ذاتها تأخذ حيزاً صغيراً في القرآن الكريم قياساً إلى المفاهيم السابقة الآنفة الذكر . و بالأحوال كافة ، فإن القرآن الكريم يتميز كله إجمالاً بكونه خطاباً إلى الناس .

الميزة الثانية التي ينفرد بها القرآن الكريم ، هي تصريحه و بكل جرأة و صراحة و وضوح عن أن هناك قسماً فيه ، غير مفهوم لبني البشر بمعنى الإحاطة الكاملة ، و لا يمكن التعويل عليه من باب الحكم القاطع (**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و آخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله و ما**

يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا و ما يذكر إلا أولوا الألباب) (آل عمران – ٧) . (**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ...**) (الزمر – ٢٣) . و التشابه هنا بمعنى الاشتباه و الشك و عدم اليقين و الاختلاط بحيث لا يمكن تحديد أمر ما بعينه و ذلك من سياق الآية التالية (**قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي إن البقر تشابه علينا و إنا إن شاء الله لمهتدون**) (البقرة – ٧٠) .

و القرآن الكريم لم يبدأ بتسلسل معين كخلق الكون و الإنسان و ما شابه ، كما في بقية الكتب الدينية ، بل طرحت هذه القضايا كلها ضمن مواطن مختلفة في القرآن ، في إطار السرد القصصي ذي العبر ، أو في إطار الحث على التدبر و التأمل الفعلي في هذه الأمور للوصول إلى غاية الحكمة و الإرادة الإلهية من الإنسان . و يبدو أن الحكمة الإلهية هذه المرة ، قد آثرت استبعاد السرد التاريخي عن حياة وكلائها في الأرض (الأنبياء) و كيف عاشوا ، و قررت استبداله بطرح مفاهيم و أفكار إلهية عامة مؤهلة لأن تكون حجر أساس في ربط المجتمعات و الناس . و من خلال تناولنا للخطاب و السرد القرآني ، سنتناول المفاصل الرئيسة بنظرنا ، في العلاقة بين الحكمة الإلهية و الحكمة السلطانية . و هي :

١) - صفات الرسول (ص) بالقرآن – علاقته بالله و الناس – طبيعة و كيفية عمله .

٢) – مفردات المصطلحات السياسية و السلطوية التي تشكل عماد مفهوم الدولة بما تمثله من أنظمة الحكم المتعددة .

٣) – محاولة استخلاص الغاية الإلهية من نزول القرآن الكريم و من بعث الرسول (ص) نفسه .

و من هذه البنود الثلاثة مع توابعها و ملحقاتها ، نستطيع تبين العلاقة بين الحكمة الإلهية و مرادها في القرآن الكريم ، و بين الحكمة السلطانية التي نشأت في حياة الرسول (ص) و استفحل أمرها بعد وفاته لتصل إلى الذروة بعد نهاية عصر الخلفاء الراشدين و ما بعده .

صفات الرسول (ص) في القرآن الكريم :

إن القرآن الكريم لم يحدد سيرة تاريخية لولادة الرسول (ص) ، مروراً بحياته و انتهاء بوفاته ، و لكنه أعطى عنه صفاته التي وصفه بها الله رب العالمين . و صفات النبي عادة تكون جزءاً من برنامج الديانة التي يدعو إليها ، من صلب أفكارها و مداميكها .

و أهم صفة وصف الله تعالى ، الرسول بها ، كانت صفة الأخلاق (**و إنك لعلى خلق عظيم**) (القلم – ٤) . و تضمنت هذه الآية بالإضافة إلى وصف الرسول (ص) بالأخلاق ، وصف الصفة نفسها بالعظمة و الكم الهائل (خلق عظيم) .الصفة الثانية التي وصف الله تعالى الرسول (ص)

، هي بأنه رسول من قبل الله رب العالمين (**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق و إنك لمن المرسلين**) (البقرة – ٢٥٢) . الصفة الثالثة هي أن الرسول (ص) على حق و صواب (**و ادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم**) (الحج – ٦٧) . (**و إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم**) (المؤمنون – ٧٣) . (**فتوكل على الله إنك على الحق المبين**) (النمل – ٧٩) .

و لكن و بالرغم من كل ذلك ، فإن الحكمة السلطانية التي حاربت الرسول (ص) بادئ الأمر و خاتمته و خلال حياته ، اتهمته بالجنون (**و قالوا يا أيها الذي نزل عليك الذكر إنك لمجنون**) (الحجر – ٦) . و قد اتهموه بالجنون بالرغم من معرفتهم بأن الذكر قد نزل عليه . كما جاءت صفته أيضاً بأنه نبي و رسول معاً (**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة و الإنجيل**) (الأعراف – ١٥٧) . (**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات و الأرض لا إله إلا هو يحي و يميت فآمنوا بالله و رسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله و كلماته**) (الأعراف – ١٥٨) و غيرها من الآيات الكثيرة التي تصف الرسول (ص) بالنبي . كما جاءت آيتان تحددان مهمة الرسول (ص) و تسميانه بالاسم و هما (**و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم و من ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً و سيجزي الله الشاكرين**) (آل عمران – ١٤٤) . (**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم و لكن رسول الله و خاتم النبيين و كان الله بكل شيء عليم**) (الأحزاب – ٤٠) . و هذه الآية الأخيرة جاءت متوافقة مع موضوع ذرية الرسول (ص) حيث لم يرزق بذرية إلا عن طريق ابنته فاطمة (ع) وزوجها الإمام علي بن أبي طالب (ع) . كما جاء الرسول (ص) بالاسم في آيتين أخريتين .

و قد بينا فيما سبق ، الآيات التي جعلت الرسول (ص) مقيداً و ملزماً بأوامر الله تعالى و لا يمكن له التصرف من عنده بشيء . و تبرز لنا الآية التي تتحدث عن الرسول (ص) و تقول (**محمد و الذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة و الإنجيل ...**) (الفتح – ٢٩) لتعطي دلالة واضحة على مفهوم الخلق الإنساني و التعامل الإسلامي مع الكفار فعبارة (أشداء على الكفار) تعطي صورة العلاقة بين الرسول (ص) و بين أدائه في حالة الحرب بينهم . و عبارة (رحماء بينهم) تعطي صورة انطباعية عن حالة السلم فيما بين الفريقين لأنه كلمة (بينهم) عائدة منطقياً على الكفار ، لأنه أمر مفروغ منه أن يكون المؤمنون رحماء و ذلك حسب سياق آيات كثيرة في القرآن الكريم . كما أن عبارة (محمد و الذين معه) هي عبارة مبهمة قليلاً ، إذ لم يتم تحديد من هم الذين معه بشكل دقيق ، و هذا الأسلوب يلاحظ كثيراً في القرآن فعندما تأتي آية

تبديح القتل أو الضرب أو فيها شيء من الأذى ، فإنها تأتي دائماً بصيغة العموم و شيء من الغموض و الإبهام أو التشابه ، و ذلك منعاً من سوء الاستخدام . هنا أيضاً يتميز القرآن الكريم بميزة إضافية مهمة لعله لم يتميز بها كتاب من قبله ، و هي أن آياته صيغت بطريقة تمنعها من سوء الاستخدام الناتج عن سوء الفهم ، اللهم إلا سوء الفهم و الاستخدام المتعمدين ، و هذا ما حصل بالضبط فيما بعد .

إن القارئ المتبصر للقرآن الكريم ، يجد شبهاً كبيراً بينه و بين حالة الطريق السريع التي توضع فيها بعد كل مسافة معينة مطبات اسفلتية أو مسامير معدنية لتخفف من سرعة العربة و تكبح جماحها عند كل حاجز معدني و ذلك لمنع الأذى عن المارة و الاطفال أو أي إنسان يكون في الشارع . و كذلك الأمر في القرآن الكريم ، إذ يلاحظ أنه وضعت فيه و بمواضع كثيرة متعددة ، آيات تضبط خيال الإنسان و تعطشه للسطوة و السلطة و تكبح جماحه من الناحية العصبية أو التأويلية . و إذا كانت هناك آيات تسمى آيات الصفح و الموعظة الحسنة أو الحلال و الحرام أو السيف ، فنحن نسمي هذه الآيات **بآيات اللجم**. هي كل الآيات التي تأمر أمراً قاطعاً بالأ خلاق و الرحمة و القتل أو الآيات التي يتم فيها توجيه إنذار ظاهري للرسول (ص) ليس من باب كونه أخطأ ، بل من باب توجيه الخطاب للناس بمعنى (إياك أعني و اسمعي يا جارة) و إلا فإن الله تعالى كان بمقدوره مخاطبة الرسول (ص)بالسر بعيداً عن مسامع الناس و لا يمكن تأو يل الغاية الوحيدة من ذلك الخطاب القرآني للرسول (ص) إلا من باب درء سوء الاستخدام الذي سيأتي بعد وفاته ، و قطع الطريق على أي حكمة سلطانية تريد أن تؤسس كياناً سياسياً و سلطانياً و تريد أن تستغل هذا المنصب أو المركز لأغراض دنيوية . و لذلك جاءت الآيات غزيرة جداً و في مواضع كثيرة من القرآن ، تظهر الرسول (ص) كمتلق للأوامر فحسب و منفذ لها ، و له حدود معينة صارمة لا يمكن له تجاوزها ، و وظيفته محددة اتسمت بالبلاغ لا يمكن له أيضاً تخطيها .

(**ما على الرسول إلا البلاغ و الله يعلم ما تبدون و ما تكتمون**) (المائدة – ٩٩) . (**... فإن تولوا فإنما عليك البلاغ و الله بصير بالعباد**) (آل عمران – ٢٠) . (**و أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و احذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين**) (المائدة – ٩٢) . (**و إن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ و علينا الحساب**) (الرعد – ٤٠) و هذه الآية الأخير تعطي دلالة واضحة على أن الحساب و معاقبة الآخرين ليس من شأن البشر بل من اختصاص الله فحسب ، إلا في الحدود الدنيوية (القوانين الوضعية) . (**... فهل على الرسل إلا البلاغ المبين**) (النحل – ٣٥) . (**فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين**) (النحل – ٨٢) . (**قل أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل و عليكم ما حملتم و إن**

تطيعوه تهتدوا و ما على الرسول إلا البلاغ المبين) (النور – ٥٤) و هذه الآية أيضاً توضح معنى الطاعة الحقيقي الذي فرضه الله على الناس ، فهي طاعة اختيارية ، ترك فيها الخيار للناس أنفسهم . (**و إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم و ما على الرسول إلا البلاغ المبين**) (العنكبوت – ١٨) . (**فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ المبين ...**) (الشورى – ٤٨) . (**و أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين**) (التغابن – ١٢) .و(**كذب به قومك و هو الحق قل لست عليكم بوكيل**) (الأنعام – ٦٦) . (**و لو شاء الله ما أشركوا و ما جعلناك عليهم حفيظاً و ما أنت عليهم بوكيل**) (الأنعام – ١٠٧) . (**قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه و من ضل فإنما يضل عليها و ما أنا عليكم بوكيل**) (يونس – ١٠٨) . (**فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك و ضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير و الله على كل شيء وكيل**) (هود – ١٢) . (**ربكم أعلم بكإن يشأ يرحمكم أو يشأ يعذبكم و ما أرسلناك عليه وكيلاً**) (الإسراء – ٥٤) . و الآية هنا تعبر عن المشيئة الإلهية التي لا تأخذ اعتباراً لأي كائن من كان و تعبير عن العزة و الجبروت و القوة العظمة . و هو أمر يذكرنا بالعهد القديم حينما يقرر الرب لأدنى خطأ أن يعاقب أو ينزل القصاص ، مثلما فعل حينما قرر تقسيم مملكة إسرائيل . الكلام واضح بشكل مباشر .. أنا الجبار .. أنا الكبير .. حذار من أن يلعب أحد معي أو يتجاوز الخطوط الحمر ، لأنني و بلحظة واحدة أزيل كل شيء من الوجود (و بالطبع فإن الخطاب هو خطاب موجه للأخرين) . (**أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً**) (الفرقان – ٤٣) آية رائعة و أروع مثل عن حرية العقيدة والدين . الإنسان حر ، يعبد الشجر .. يعبد البقر .. يعبد الحجر .. يعبد ما يشاء و حسب ما تمليه عليه أهواؤه و غرائزه ، لأن الله جل و علا قد أعطى الحرية لبني البشر و في الوقت نفسه أرسل إليهم الرسل و الكتب المقدسة . (**إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه و من ضل فإنما يضل عليها و ما أنت عليهم بوكيل**) (الزمر – ٤١) . (**و الذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم و ما أنت عليهم بوكيل**) (الشورى – ٦) أيضاً هذه الآية ذات دلائل واضحة و عميقة عن حرية الرأي و المعتقد و الشرك بالله و هي رد واضح و صريح على كل من يكفر و يبيح دماء الطوائف الأخرى لمجرد اعتقادها بقدسية أشياء أو أشخاص معينين ، يعني أن الله جل و علا هو المسؤول عن هذه الطوائف و هو من يقرر ماهي عليه و ليس الرسول (ص) ، فكيف بشخص مجهول الهوية له مآرب سياسية . (**فذكر إنما أنت مذكر _ لست عليهم بمصيطر**) (الغاشية ٢١ – ٢٢) . (**و يقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر و لكل قوم هاد**) (الرعد – ٧) . (**و لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم و استغفر لهم و شاورهم في**

الأمر) (آل عمران – ١٥٩) . (**و ما نرسل المرسلين إلا مبشرين و منذرين ...**) (الأنعام – ٤٨) (الكهف – ٥٦) . (**و أن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه و من ضل فقل إنما أنا من المنذرين**) (النمل – ٩٢) .**قل إنما أنا منذر و ما من إله إلا الله الواحد القهار**) ((ص) – ٦٥) . (**إنما أنت منذر من يخشاها**) (النازعات – ٤٥) . (**بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين و ما أنا عليكم بحفيظ**) (هود – ٨٦) . (**قل ما أسالكم عليه من أجر و ما أنا من المتكلفين**) (ص – ٨٦) . و تأتي أيضاً هذه الآية القوية المعبرة بشكل واضح و هي (**قل ما كنت بدعاً من الرسل و ما أدري ما يفعل بي و لا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي و ما أنا إلا نذير مبين**) (الأحقاف – ٩) .

هذه الآيات و أشباهها ، تملأ القرآن الكريم ، و لا توجد سورة فيه إلا و تحتوي على عدد منها ، كأن الله تعالى يريد منا دائماً أن نتذكر هذا الأمر ، يضاف إلى ذلك الآيات التي وجهت ضربة قاصمة بالنسبة لموضوع الحكمة السلطانية و وجودها في عين الاعتبار بالنسبة للإرادة و المشيئة الإلهية ، و هي آيات تنفي صفة الملك عن الرسول (ص) (**قل لا أقول لكم عندي خزائن الله و لا أعلم الغيب و لا أقول لكم أني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى و البصير افلا تتفكرون**) (الأنعام – ٥٠) . خطاب واضح و هو الرد الكافي و الشافي على أولئك الذين يطرحون مقولات مثل " دولة الرسول في المدينة – الرسول الحاكم المطلق – إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة – سياسة الدولة الإسلامية – أصول السياسية في الإسلام " و ما إلى هنالك من عبارات ما أنزل الله بها من سلطان و إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم و أسلافكم و مريدوكم و موجهوكم و طلاب كرسي الحكم و الذين يبتغي الجلوس على كرسي السلطة باسم الدين و تحت أي ظرف و أي ثمن ، المهم أن يجلسوا على كرسي الحكم ، ما أنزل الله بها من سلطان . هذه الآية جاءت للرد عل هؤلاء و عبارة (هل يستوي الأعمي و البصير أفلا تتفكرون) ليست موجهة إلى الحكم السلطانية التي أنشأت نظام الدولة الإسلامية السياسي فيما بعد ، بقدر ما هي موجهة إلى من انطلت عليهم هذه اللعبة أو المعادلة ، لأن هذه الحكم السلطانية كانت تعي تماماً أن الرسول (ص) هو ليس بملك و تعي دورها تماماً في تحوير مفهوم الدين الإسلامي و تجييره لصالح الأمر السياسي ، هو خطاب موجه لأولئك الذين انطلت عليهم اللعبة السياسية و ما زالت إلى الآن و التي خربت و دمرت الإسلام و المسلمين إلى يومنا هذا . و كأن الله سبحانه و تعالى يقول : ألا تفقهون و تعرفون أن محمداً لم يأت لإنشاء كيان سياسي ، و لو أردت إنشاء كيان سياسي لبعثت نبياً في الروم أو الفرس حيث الرياسة و نظام الدولة جاهزان و مكتملان و جيوشهم جرارة و منتشرة في كل أنحاء العالم و هي الأولى بنشر الرسالة الإسلامية إذا كان

النشر لا يتم إلا بالسيف . و الملاحظ أن هذه الآية جاءت في " سورة الأنعام " و هو أمر ملفت للنظر . (**و لا أقول لكم عندي خزائن الله و لا أعلم الغيب و لا أقول إني ملك و لا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين**) (هود – ٣١) .

ثم تأتي الآيات التي تنفي عن الرسول (ص) الكهانة و التي هي نوع من السلطة الدينية و نوع من الوساطة الدينية مع الله ، فالكاهن في الأديان السابقة و القديمة كما رأينا ، كان يمثل السلطة الدينية التي كانت في بعض الأحيان تتولى السلطة السياسية و العسكرية أيضاً و تشارك الملوك في الحكم ، كما كان الكاهن هوالوسيط بين الإنسان و بين الآلهة . فجاءت هاتان الآيتان لتنفيان أي مفهوم للكهانة في الإسلام و تنزعان عن الرسول (ص) هذه الصفة بشكل قاطع و واضح (**فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن و لا مجنون**) (الطور – ٢٩) . (**فلا أقسم بما تبصرون _ و ما لا تبصرون _ إنه لقول رسول كريم _ و ما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون _ و لا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون _ تنزيل من رب العالمين _ و لو تقول علينا بعض الأقاويل _ لأخذنا منه باليمين _ ثم لقطعنا منه الوتين**) (الحاقة – ٣٨ – ٤٦) . من الواضح تماماً أنه هناك محاولة دائمة دؤوبة من الحكمة الإلهية لإصلاح خلل ما ... عطل ما في أذهان الناس ، في سكيولوجيتهم و طريقة تفكيرهم و آلية عمل ذهنيتهم ، حين يقسم بما يبصرون و ما لا يبصرون و عندما يخاطبهم رب العزة و الجبروت قائلاً **قليلاً ما تؤمنون .... قليلاً ما تذكرون** هو خطاب للذين انجروا في منطق الأداة الإعلامية و الدعائية للحكمة السلطانية السياسية .

ثم تأتي بعد ذلك الآيات التي تتحدث عن الصلاحيات الشبه معدومة المعطاة للرسول (ص) بخصوص الإسلام . (**قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم**) (الأنعام – ١٥) . (**قل إني على بينة من ربي و كذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق و هو خير الفاصلين**) (الأنعام – ٥٧) . (**و إذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم**) (يونس – ١٥) . (**قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم**) (الزمر – ١٣) . (**قل إني لن يجيرني من الله أحد و لن أجد من دونه ملتحداً**) (الجن – ٢٢) (**ما أصابك من حسنة فمن الله و ما أصابك من سيئة فمن نفسك و أرسلناك للناس رسولاً و كفى بالله شهيداً**) (النساء – ٧٩) . (**و بالحق أنزلناه و بالحق نزل و ما أرسلناك إلا مبشراً و نذيراً**) (الإسراء – ١٠٥) . (**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**) (الأنبياء – ١٠٧) . (**و ما أرسلناك إلا مبشراً و نذيراً**) (الفرقان – ٥٦) . (**يا أيها النبي إنا**

أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً) (الأحزاب – ٤٥) (**إنا أرسلناك بالحق بشيراً و نذيراً و إن من أمة إلا خلا فيها نذير**) (فاطر – ٢٤) . (**و ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً و نذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون**) (سبأ – ٢٨) و هذه الآية الأخيرة ، هي أصدق تعبير عن الحالة الإسلامية التي ألبست الرسول (ص) حلة السياسية و الحكم و السلطة ، و كسته ثوب الحاكم المطلق و السلطان الجالس فوق عرشه ، فأكثر الناس اليوم ينظرون إلى الرسول (ص) من هذا المعيار و يطرحونه من على المنابر بهذا المنظور . (**فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ ...**) (الشورى – ٤٨) . تحديد صارم لمهمة الرسول (ص) التبليغية و في الوقت نفسه طرح مفهوم الحرية الدينية التي وردت مراراً و تكراراً في القرآن الكريم . و أهمية هذه الآية في أنها جمعت المفهومين معاً و هي شبيهة تماماً بآيتي الحرية الدينية اللتين تقولان (**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ...**) (البقرة – ٢٥٦) . (**و لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**) (يونس – ٩٩) . و أما مفهوم طاعة الرسول (ص) فقد حض الله تعالى الناس عليه و لكنه جعله اختيارياً و منع الرسول (ص) من اتخاذ أي تصرف حيال ذلك (**و من يطع الرسول فقد أطاع الله و من تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً**) (النساء – ٨٠)

لقد أعطى الخطاب القرآني بياناً عاماً و واضحاً عن مراد الغاية الإلهية من رسالة و نبوة محمد (ص) و هي البلاغ و التبليغ للرسالة الإلهية ، للناس كافة و التي تمثلت بالقرآن الكريم . و لا يعدو هذا الكم الهائل و الزخم القوي من الآيات التي تشدد على أن دور الرسول (ص) هو التبليغ و الذي هو القرآن بحد ذاته . و لا يعدو بحال من الأحوال إلا محاولة جدية و واضحة من الحكمة الإلهية لتصحيح كل الانحرافات السابقة التي حصلت بدءاً من ظهور البشرية و حتى وفاة الرسول (ص) و التي حدثت بمجرد اكتمال نزول القرآن .و هي انحرافات تميزت بدخ ول الأمر السلطاني السياسي منذ البدء على خط المحور الديني للاتكاء عليه و تسخيره خدمة لأغراضها ، بغض النظر عن ماهية تلكم الأغراض .

إن التركيز القوي و الشديد على موضوع البلاغ و الرسالة ، و عدم تخطيهما بشكل من الأشكال ، لهو الدليل على أن الغاية من الرسالة المحمدية ، هو نزول البيان الإلهي و الإرادة الإلهية من الناس و التي أرادها الله أن تصل إلى كل بني البشر و الحفاظ عليه من أي زيف أو تحوير . و قد برز دور الحكمة الإلهية في أنها ركزت على شخصية الرسول (ص) بهذا الكم الهائل من الآيات التي انتشرت في كل مواضع و مفاصل القرآن الكريم و التي منعت عنه أي دور سياسي ، و بشكل مقصود ، كما لم تعطه أية حكمة سلطانية محددة في القرآن الكريم . و السبب في ذلك و من

باب الاستنتاج لا أكثر[1] ، هو أن الحكمة الإلهية أدركت أن الرسالة و الدعوة المحمدية ستكون فترة نزولها مترافقة مع معارك عسكرية حربية ضارية ، مستمرة و متتالية و شديدة الوطأة ، و هو أمر من الناحية التنظيرية و النظرية ، يفتح المجال واسعاً أمام تهيئة و دخول الأمر السياسي السلطوية و القيادي البشري البحت و من ثم تشكيل حكمة سلطانية قوية ذات أساس صلب من الصعب جداً كسره . كما أنها أدركت أنه ستكون هناك محاولات فيما بعد لإدخال الأمر السياسي في الإسلام ، في حال انتصاره . و من هذا المنطلق نستطيع إدراك لماذا اختارت الحكمة الإلهية الصحراء العربية ، حيث توجد قبائل عربية متفرقة ليس لديها دولة و لا سلطان و حيث لا وجود لأي أمر سياسي أو سلطاني في هذه القبائل . و ربما ندرك لماذا توفي الرسول (ص) بعد إتمام نزول القرآن مباشرة ، لأنه كما ذكرنا من قبل ، لو كان هناك مجرد واحد بالمئة من غاية الحكمة الإلهية في إنشاء كيان سياسي أو كيان حربي يقوم على السيف ، لعاش الرسول (ص) بعد إتمام نزول القرآن لأكثر من عشرين سنة أو ثلاثين ، و لكانت ما يسمى بالفتوحات الإسلامية قد قامت على يديه هو .

الأمر الآخر هو عدم وجود ذرية للرسول (ص) . فكل أولاده ماتوا و لم يأته ذرية إلا من ابنته فاطمة بنت خديجة و التي هي زوجة الإمام علي بن أبي طالب (ع) . و ذلك كله لعدم اتخاذ شخصية الرسول (ص) معبراً وثغرة لولوج الأمر السياسي السلطاني . و هنا نقف عند كلام الإمام علي بن أبي طالب (ع) نفسه حين سأله أحدهم قائلاً " يا أمير المؤمنين ، أرأيت لو كان رسول الله (ص) قد ترك ولداً ذكراً قد بلغ الحلم و آنس منه رشداً ، أكانت العرب تسلم إليه أمرها ؟؟ فقال الإمام : لا .. بل تقتله إن لم يفعل ما فعلت ، إن العرب كرهت أمر محمد و حسدته على ما أتاه الله من فضله و استطالت أيامة حتى قذفت زوجته و نفرت به ناقته مع عظيم إحسانه إليها و جسيم مننه عندها و أجمعت مذ كان حياً على صرف هذا الأمر عن أهل بيته بعد موته . و لولا أن قريشاً اتخذت اسمه ذريعة إلى الرياسة و سلماً إلى العزة و الإمرة ، لما عبدت الله بعد موته ، يوماً واحداً و لارتدت في حافرتها (طريقتها الأولى) و عاد قارحها جذعاً و بازلها بكراً (أي كما كانت عليه) "[2] . هذا الكلام يعطي صورة واضحة جلية لا داعي لتفسيرها أكثر و هي أن الإسلام و بكل صراحة قد استخدم لإنشاء نظام الملك . و بالرغم من أن الخليفتين أبا بكر الصديق (رض) و عمر بن الخطاب (رض) حاولاً قدر الإمكان ضبط الجانب الروحي الذي كان سائداً في حياة الرسول ، فإن الوضع السائد كان يضغط بشكل قوي لدخول الأمر السياسي . فقد كانت هناك

---

[1] نكرر القول إن الكلام عن الحكمة الإلهية ، هو من باب الاستنتاج و التخمين الاستدلالي فحسب و ليس من باب الحكم المبرم .

[2] موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ، ج/١١/ ، ص/٢٤٤/ .

محاولات حثيثة من الخليفة أبي بكر الصديق (رض) لمنع إضفاء الصبغة العسكرية على جيش المسلمين (لا تقتلوا – لا تمثلوا – لا تقطعوا شجراً – لا تحرقوا – سترون أقوام قد ركنوا إلى صوامعهم فدعوهم و ما هم عليه – لا تفعلوا – لا ... لا ... الخ) . و كذلك الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد رفض الموضوع كله من أساسه و كان دائماً يقول و يعبر عن الروم و الفرس قولته الشهيرة " ألا ليت بيني و بينهم جبلاً من نار " التي تعطي صورة المظهر الدفاعي البحت و ليس الهجومي . و فضلاً عن ذلك الابتعاد عن كل مظاهر السلطة و السلطان . و لعل حادثته مع رسول كسرى حينما رآه نائماً تحت شجرة نخيل نائية ، وحيداً بثياب عادية متواضعة فلم يعرفه و سأله عن عمر بن الخطاب ، فأجابه : قد وصلت ، أنا عمر . ففغر الرجل فاهه مبهوتاً مدهوشاً . و كذلك عندما طلب بطريك القدس حضوره شخصياً ، فذهب على دابته و عندما اقترب من المكان نزل عنها و ساقها خلفه منعاً لظهور أبهة السلطان . و كذلك عندما زار الشام و استقبله واليها معاوية بن أبي سفيان بالخيول المطهمة و الاستعراض العسكري الكبير للجند و الجيش ، نظر إليه مستنكراً و قال له قولته المشهورة " أكسروية يا معاوية ؟؟!! " .

ختاماً هذا العنوان نقول : من خلال استقرائنا لتاريخ الإسلام ، منذ بدء الدعوة المحمدية و حتى وفاة الرسول (ص) ، نقول إن هذا التاريخ لا يجوز أن يقرا من خلال مقاطع و مفاصل تاريخية مجتزأة أو فرديةو لا يمكن لنا بحال أن نستخلص حادثة أو واقعة تاريخية أو معركة حـ ربية و نتعامل معها على أنها كم منفصل ، سواء كقراءة متلقية للخروج باستنتاجات منطقية ، أو كتقديم تاريخي لإعطاء نتيجة أو رأي ما . و القارئ المتبصر الذي يمتلك ناصية الوعي الاستقرائي ، يستطيع أن يدرك أن كل حوادث هذه المرحلة خصوصاً ، هي متصلة و متكاملة بعضها مع بعض ، و لا يجوز قراءة أي حدث فيها على حدة ، إلا بإسقاطه على ما سبقه من أحداث و ما تلاه منها . و كل حدث وقع في هذه الفترة ، كان بشكل من الأشكال نتيجة لحدث سابق له .. هيأ لوجوده و كان سبباً من أسبابه .

و يلاحظ اليوم في في الخطاب الديني الإسلامي ، بأن تقديم الحوادث يأتي بشكل مجتزأ و منفصل و كأن هذه الحادثة أو غيرها لا علاقة لها زمنياً و تكتيكياً بما سبقها أو ما تلاها من أحداث ، و هذه نقطة خطيرة جداً ، يجب أخذها دائماً بعين الاعتبار .

مفردات المصطلحات السياسية و السلطوية :

لم يرد في القرآن الكريم أي مصطلح أو كلام يدل على وجود الأمر السياسي السلطاني أو يعبر عنه ، و لم يرد هناك أي مدلول يأمر بإنشاء دولة إسلامية أو حتى سلطة إسلامية ، و لم ترد أية إشارة إلى القيام بالفتوحات باعتماد على حد السيف . و لم ترد أية إشارة على أن الإسلام قائم

على الأمر أو السلطة السياسية . كذلك لم يرد أي شيء من شأنه الإشارة إلى دولة إسلامية أو كيان سياسي إسلامي أياً كان نوع هذا الكيان أو النظام . لا بل على العكس من ذلك ، وردت معظم الدلالات و المفردات التي من الممكن أن تعبر عن مقومات الدولة و نظام الملك ، وردت بالذم و الاستهجان و الاستنكار . و لقد بحثنا عن معظم – إن لم يكن كل – المفردات التي تدلل على الأمر السياسي أو السلطوي الحاكم ، فلم نجد لها أثراً في القرآن الكريم ، و الذي وجدناه منها ، جاء بصيغة الاستنكار و الاستهجان ، أو جاء لحالة و ظرف معينين و محددين ارتبط بهما و ارتبطا به ، كحالة القتال مثلاً التي جاءت فحسب في حالات الحروب الدفاعية التي خاضها الرسول (ص) ضد أعدائه من قريش و غيرهم و الذين ما فت عضدهم في مهاجمته و محاولة القضاء عليه و على الإسلام . و هذه المصطلحات[1] هي :

١) – **الدولة :** لم ترد إلا مرة واحدة في القرآن الكريم ، و قد جاءت بصيغة الذم و الاستنكار **(مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)** (الحشر – ٧) جاء هذا المصطلح بصيغة النهي و لم يخصص الله تعالى أي مال لأجله بل كله لأجل اليتامي و ذي القربى و ابن السبيل ، أي حالة إنسانية أخلاقية روحية بحتة .

٢) – **المُلكْ (بمعنى التملك و الحكم) :** جاءت في آيات متعددة في القرآن الكريم ، و لكنها جاءت كلها منسوبة فقط إلى الله عز و جل ، ما عدا آية واحدة نسبت إلى النبي سليمان (ع) الذي أعطاه الله الملك صراحة و بنص قرآني ، و آية نسبت إلى فرعون مصر . و منها على سبيل المثال لا الحصر **(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** (آل عمران – ١٨٩) . **(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** (المائدة – ٤٠) . **(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)** (النور – ٤٢) . **(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)** (البقرة – ١٠٧) . **(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**

---

[1] سوف يتم تشكيل المفردات القرآنية هنا للتمييز بين المصطلحات المتشابهة بالحروف .

وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ) (المائدة – ١٢٠) . (**أَمْ لَهُـمْ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ**) (صّ –١٠) و هي آية استنكارية لموضوع ملك الناس و الذي هو مختص بالله وحده . (**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَـلا تُبْصِـرُونَ**) (الزخرف –٥١) . هي آية متممة لسابقتها و تعني أن كل من يدعي الملك ، هو مثل فرعون تماماً و أن الملك لا يدعيه و يعمل لأجله إلا شخص مثل فرعون تماماً . و تأتي الآية التالية لتقطع الشك باليقين من أن الملك هو لله وحده فحسب و ليس لغيره (**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**) (الفرقان – ٢) .

٣) **ـ المَلِك (بمعنى الحاكم) :** جاءت منسوبة إلى الملائكة ، و في صيغة الاستنكار و النهي بالنسبة إلى البشر ، بالإضافة إلى نفي صفتها عن الرسول (ص) . **(وَاتَّبَعُـوا مَـا تَتْلُـو ا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَـرُوا يُعَلِّمُـونَ النَّـاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ...**) (البقرة – ١٠٢) . (**قُـلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُـوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ**) (الأنعام – ٥٠) نفي صفة الملك عن الرسول (ص) . (**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَـانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً**) (الكهف – ٧٩) جاء الملك بالجانب السلبي .

(**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَـكٌ فَيَكُـونَ مَعَهُ نَذِيراً**) (الفرقان – ٧) . (**مَلِكِ النَّاسِ**) (الناس – ٢) و هي آية واضحة تماماً بأن الحاكم بصيغة الملك على الناس هو الله و ليس أحد آخر .

٤) **ـ وزير :** جاءت في آيتين فحسب ، و بمعنى المساعدة و المعاونة و لم تأت أبداً بالصيغة السياسية و اختص بها هارون فحسب و بناء على طلب موسى (ع) من الله ذلك (**وَاجْعَلْ لِي**

وَزِيراً مِنْ أَهْلِي) (طه – ٢٩) . (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً) (الفرقان – ٣٥) .

٥) **ـ قائد ، قيادة ، قود :** لم ترد بالقرآن الكريم أبداً و لا بأي صيغة أو شكل .

٦) **ـ زعيم :** جاءت فقط بمعنى القول و ليس بمعنى القيادة و الرياسة ، و في آيتين فحسب هما (قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ) (يوسف – ٧٢) . (سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ)(القلم – ٤٠) .

٧) **ـ الجند :** جاءت في القرآن الكريم كجنود في خدمة الله تعالى ، و بالنسبة إلى البشر جاءت بصيغة الذم و السلبية ماعدا الذين ، اختصهم الله تعالى صراحة بالقيادة و الملك كالملك سليمان و طالوت (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة – ٢٤٩) . (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) (النمل – ١٧) . (وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة – ٢٥٠) . (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (يونس – ٩٠) . (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) (طه – ٧٨) . (ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ) (التوبة – ٢٦) . (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) (الشعراء – ٩٥) . (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) (القصص – ٦) . (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) (

القصص – ٨) . (**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ**) (القصص – ٣٩) . (**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**) (القصص – ٤٠) . (**أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ**) (الملك – ٢٠) . و جميع هذه الآيات تحدثت عن صفة الجند بشكل سلبي جداً و بالعداء لله تعالى ثم تأتي الآيات التي تتحدث عن الجنود الملائكة التابعين لله تعالى و منها (**وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ**) (يس – ٢٨) . (**وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**) (الصافات – ١٧٣) (**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**) (التوبة – ٤٠) . (**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**) (الفتح – ٤) . (**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**) (الفتح – ٧) . (**... وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ**) (المدثر – ٣١) . ثم جاءت الآية التي تتحدث عن صراع جنود الإنسان مع جنود الله تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**) (الأحزاب – ٩) .

٨) **ـ السلطة و السلطان :** لم تأت بالصيغة السياسية للسلطة و الحكم و القيادة ، بل جاءت بمجملها بصيغة البرهان و الإثبات و الحجة و القانين العلمية و إغواء إبليس لأتباعه ، و تحكم أشخاص بأشخاص كعقاب من الله . (**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ**) (آل عمران – ١٥١) . (**إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ**

أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) (النساء – ٩٠) . (**سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً**) (النساء – ٩١) أي أذن من الله و هي آية ظرفية وقتية . (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً**) (النساء – ١٤٤) . (**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) (الأنعام – ٨١) . (**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**) (الأعراف – ٣٣) . (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ**) (هود – ٩٦) . (**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**) (الحجر – ٤٢) . (**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**) (النحل – ٩٩) . (**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**) (النحل – ١٠٠) جاء السلطان في الآيات الثلاث الأخيرة ، بإغواء إبليس للناس . (**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**) (الرحمن – ٣٣) .

٩) ـ **الحكم :** جاءت بحالة مشابهة لحالة السلطان و الملك ، و جاءت بمعنى القضاء بين الناس و بشكل يأخذ الحالة الاجتماعية البحتة البعيدة عن الأمر السياسي تماماً ، و جاءت أيضاً بمعنى الدقة و الضبط و هذه الآيات تبين ذلك (**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**) (آل عمران – ٧) . (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ**) (آل عمران – ٢٣) . (**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ**

مَرْجِعُكُمْ فَأُحَكِّمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (آل عمران – ٥٥) . (**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**) (آل عمران – ٧٩) . (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً**) (النساء – ٥٨) . نلاحظ هنا أنه تعالى قال (و إذا حكمتم بين الناس) و لم يقل (و إذا حكمتم الناس) أي أن الحكم هنا هو حكم قضاء و ليس حكم سلطة بمعنى القيادية و التوجيه . (**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**) (النساء – ٦٥) و هذه الآية و بالرغم من أنها تنفي بشكل قاطع الإيمان إلا بشرط الاحتكام إلى الرسول (ص) عند أي خلاف بين المؤمنين ، إلا أنها لا تجبرهم على ذلك و يبقى لهم الخيار ، فالله قال (لا يؤمنون) و لم يقل (لا يسلمون) أي أن هذه الآية تتعلق بالجانب الإيماني الروحي . (**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً**) (النساء – ١٠٥) . نلاحظ أيضاً أن الحكم هنا آل للرسول (ص) لكي يحكم بين الناس و ليس ليحكم الناس ، و هذه إشارة قوية من الله تعالى لهذه النقطة و هي شبيهة تماماً بالآية السابقة ، و يلاحظ أيضاً شرط الحكم بين الناس هو الكتاب و بما أراه الله تعالى . و يلاحظ أنها اختصت الرسول (ص) بالذات و لم تجمل معه أحداً . (**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**) (المائدة – ٤٢) . إشارة واضحة و قوية إلى أن الرسول (ص) ليس ملزماً بالحكم بين الناس بل هو مخير و خاصة المنحرفين على الحق الضالين عن سبيل الله ، مع التشديد على تطبيق العدل في الحكم بينهم . (**وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**) (المائدة – ٤٣) . (**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) (المائدة – ٤٥) . يلاحظ في هذه الآية أن الحكم بين الناس هو في العلاقات المدنية البشرية الاجتماعية وليست الدينية التي اختص الله تعالى بها وحده فحسب دون غيره . (**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**) (المائدة – ٤٨) . العبرة الإلهية في هذه الآية ، هي أنه لا يجوز إجبار

أي أحد في المجال الديني على اتباع القوانين التي هي من خارج منهج و طب عقيدته الدينية ، و في الوقت نفسه تصريح و إشارة إلى الحرية الدينية و ذلك من عبارة (و لكل منكم جعلنا شرعة و منهاجاً) . و يتضح ذلك الأمر من الآية التي تليها في القرآن الكريم و هي (**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ**) (المائدة – ٤٩) . أي أنهم إذا لم يرضوا بما حكمت بينهم فليسوا ملزمين تجاهك و ليس لك عليهم حق الإجبار و الإكراه القسري ، بل هو أمر عائد إلى الله تعالى و لغاية أرادها لهؤلاء القوم . (**قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**) (الأنعام – ٥٧) إشارة واضحة و قوية إلى رفض مفهوم التكفير و إن الحكم فيما بين الطوائف هو لله وحده و هو خير الفاصلين . (**ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**) (الأنعام – ٦٢) تأييد للآية السابقة و إشارة إلى أن الحكم بن الطوائف الدينية هو في النهاية من اختصاص الله تعالى وحده . (**وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**) (الأعراف – ٨٧) . (**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**) (يونس – ١٠٩) عدم الاكتفاء بأن الحكم هو لله وحده ، بل التأكيد أن من يقوم بتطبيق هذا الحكم هو الله أيضاً و في الوقت الذي ترتئية الحكمة الإلهية . الذي قد يكون يوم القيامة و الحساب و هو ما أتى مدعماً بالآيتين التاليتين (**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**) (الحج – ٥٦) . (**اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**) (الحج – ٦٩) . (**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**) (النمل – ٧٨) . **(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**) (صّ – ٢٦) . **(إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ**) (صّ – ٢٢) . يلاحظ أن الحكم هنا جاء في القضاء فحسب و ليس من مفهوم القيادة و التسلط و الملك و ذلك من عبارة (فاحكم بين الناس) و (فاحكم بيننا بالحق) و لم يرد (فاحكم الناس) ، كما أن التصوير الإلهي لمشهد دخول الرجلين على النبي داؤود (ع) يوحي بأنه ليس في حالة القيادة و الملك ، بل في حالة القضاء و ذلك من عبارة (إذ دخلوا على داؤود ففزع منهم) و هي حالة توحي بأنه كان وحيداً معزولاً و ليس في قصر

يحيط به الحرس و الخدم و الجنود لكي يخاف من رجلين دخلا عليه يطلبان منه القضاء بينهما .

١٠) - **الحرب :** وردت في أربع مواضع من القرآن الكريم منها ما جاء بصيغة الحرب المعنوية و ليست الحرب التقليدية التي يسيل لها لعاب طلاب السلطة و التسلط باسم الدين و منها **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ _ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ)** (البقرة ٢٧٨ – ٢٧٩) . واضح هنا أن الحرب هي معنوية و عقاب من الله و مقاطعة من الرسول (ص) لأن الخطاب موجه بالأساس إلى الذين آمنوا و من غير المعقول أن تكون حرب تقليدية بين المؤمنين و من أجل الربا . **(الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ _ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)** (الأنفال ٥٦ – ٥٧) . جاءت هذه الآية الحربية للإشارة على الذين ينقضون العهود و المواثيق باستمرار مع الرسول (ص) في أثناء الحرب و هو ما يعرف بالخيانة كما حصل في معركة الخندق و غيرها و هي أيضاً آية ظرفية وقتية جاءت خلال فترة الرسول (ص) و من الطبيعية محاربة الخونة و ناقضي العهود . **(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ)** (محمد – ٤) و هي آية حربية تبيح القتل في حالة الحرب فحسب ، و تنتهي هذه الحالة بانتهاء السبب الا و هو الحرب و ذلك من عبارة (حتى تضع الحرب أوزارها) . **(..كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)** (المائدة – ٦٤) آية واضحة تمام الوضوح عن رفض الله لمفهوم الحرب بأشكاله كافة إلا الحرب الدفاعية الاضطرارية ، لا بل إنها تتحدث عن التدخل الإلهي لإيقاف أي حرب و التي هي حسب منظور الآية القرآنية من باب الفساد في الأرض .

١١) - **الغزو – الغزوة :** لم ترد في القرآن الكريم مطلقاً ، بل جاءت كلمة متشابهة لها مرة واحدة فحسب و في حالة متشابة ليس فيها أية إشارة للغزو **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)** (١٥٦) سورة آل عمران . جاءت كلمة (غزى) مبهمة غامضة و بمعنى الانتشار في الأرض لكسب الرزق أو ماشابه لأنها جاءت مسبوقة بعبارة (ضربوا في الأرض) التي

تعني السفر و التنقل و الارتحال و يبدو أن هذه الآية تحث على التنقل لكسب الرزق و عدم القعود و الركون ، و تحدث أيضاً عن مفهوم القضاء و القدر ، بمعنى أن الإنسان ممكن أن يموت في مكان حتى و لو كان في بيته . و لم يأت معها أية عبارة أو كلمة لحرب أو قتال أو ماشابه ، و فوق كل ذلك جاءت مرة واحدة في القرآن الكريم ، أما خارج القرآن فهي ما شاء الله تملأ كتب المفسرين و الفقهاء و خطب المنابر بحيث جعلت أساس القرآن .

١٢) **ـ جيش – جيوش – كتيبة – كتائب – سرية – سرايا – عسكر – معسكر – عساكر :** كل هذه الكلمات التي تصف هيئة و قوام أداة الحرب البشرية غير موجودة في القرآن مطلقاً و لا أثر لها حتى على مستوى الجذر . أما خارج ذلك (فيا ساتر) تقرأ الكتب فتعتقد أن الحرب العالمية الثالثة قد نشبت .

١٣) **ـ سلاح :** لم ترد إلا مرة واحدة في القرآن الكريم و في حالة حربية تكتيكية ثانوية بحتة تحث على الحذر في أثناء الصلاة في الحرب (**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا**) (النساء – ١٠٢) . و يلاحظ أن هذه الآية جاءت خطاباً للرسول (ص) أي أنها تتحدث عن الحرب التي خاضها الرسول (ص) و كان موجوداً فيها و ذلك من عبارة (و إذا كنت فيهم) .

١٤) **ـ سكين :** وردت مرة واحدة في القرآن الكريم و كأداة استعمال لتقشير الفواكه و ليس للقتل و الطعن و الغزو و النهب و السلب (**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**) (يوسف – ٣١) .

١٥) **ـ رمح :** لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة و لأجل الصيد و ليس لأجل الغزو (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) (المائدة – ٩٤) . لا بل نلاحظ أن عبارة (و من اعتدى بعد ذلك) للنهي عن استعمال الأسلحة وتسخيرها خدمة للنفس التي ألهمها صاحبها فجورها و طمعها و تسلطها باسم الدين ، فضلاً عن أن عبارة (ليبلونكم الله بشيء من الصيد) جاءت أيضاً بصيغة عدم استحباب .

١٦) **ـ السيف :** لم يرد في القرآن الكريم أبداً لا هو و لا أسماؤه .

١٧) **ـ فتوح – فتوحات :** لم ترد في القرآن الكريم مطلقاً و إنما جاءت كلمة الفتح و هي بمعنى المساعدة من الله و النصر على المشركين في الحروب التي خاضها الرسول (ص) في مكة و المدينة و جوارهما .

١٨) **ـ سفك الدماء :** جاء مرتين فحسب في القرآن ، و في آيتين ، الأولى استهجنته تماماً و الثامية حرمته بشكل مطلق (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) (البقرة – ٣٠) . (**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ**) (البقرة – ٨٤) .

١٩) **ـ الاعتداء و العدوان و البغي :** جاءت كلها بصيغة النهي و الاستهجان و التحريم (**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**) (البقرة – ٦٥) . (**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**) (البقرة – ١٩٠) . هذه الآية هي آية واضحة و هي من المحكمات و لا تحتاج إلى أي جهد في تأويلها و تفسيرها و هي تعني أن القتال هو فحسب و حتماً و حصراً حالة دفاعية بحتة من باب الدفاع عن النفس ، و جاءت التشديد فيها بذلك بالعبارة الأخيرة منها (لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) و هي حاكمة و ضابطة لكل آيات القتال في القرآن الكريم . (**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**) (البقرة – ١٩٤) . تصديق و تثبيت لمفهوم و روح الآية السابقة من أن القتال و الأذى هو للدفاع عن النفس فحسب . و جاءت عبارة (بمثل ما اعتدى عليكم) لتمنع نهائياً أي ظلم أو جور أو اعتداء على الغير و منعاً لدخول أية غايات سياسية من جراء ذلك الأمر . (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**) (المائدة – ٨٧) . (**ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**) (الأعراف – ٥٥) . (**لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ**) (التوبة – ١٠) . (**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ _ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ**) (ق ٢٤ – ٢٥) . (**مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**) (القلم – ١٢) . (**وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**) (المطففين – ١٢) . (**وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) (المائدة – ٦٢) . (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا**

لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (المجادلة – ٨) . (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**) (المجادلة – ٩) .

و على النقيض من ذلك كله ، فقد جاء مفهوم السلم و العفو و الأخلاق كحجر أساس و ركن زاوية في المفهوم القرآني و الإرادة الإلهية و إشارة واضحة لا تباين فيها لاعتماد هذه المصطلحات كركيزة للإيمان و الإسلام . و نحن لن نعقب كثيراً على ذلك و نخوض في غمار التحليل ، لأن الآيات القرآنية بحد ذاتها كافية لتعبير عن نفسها و عن الإرادة الإلهية . (**... فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) (سورة البقرة – ١٠٩) . (**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**) (سورة المائدة – ١٣) . (**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**) (الحجر – ٨٥) . (**وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) (النور – ٢٢) . (**فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**) (الزخرف – ٨٩) . (**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**) (سورة الأعراف – ١٩٩) . (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) (التغابن – ١٤) .

و أما آيات العفو من قبل الله عزو جل ، فهي كثيرة في القرآن الكريم و منها على سبيل المثال لا الحصر (**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) (البقرة – ٥٢) . (**فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا**) (سورة النساء – ٩٩) . (**إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا**) (النساء – ١٤٩) . (**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**) (الشورى – ٣٠) .

و في الختام فقد جاءت الحكمة السلطانية في القرآن الكريم تحت مسمى الملأ و هم القوم الذي ، يتحكمون في مجرى قيادة الناس و من تحت حكمهم سواء بالدين أم السياسية ، و هي الفئة التي جمعت الأمرين معاً ، و سخرت الأمر الديني خدمة للأمر السياسي ، بعد أن عادته و حاربته بداية و نترك للقارئ أن يقيّم هذا المصطلح من خلال الآيات التي تحدثت عنه و هي . (**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ _قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**) (الأعراف ٥٩ – ٦٠) . (**قَالَ الْمَلأُ**

الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَـاذِبِينَ) (الأعراف – ٦٦) . (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُـونَ أَنَّ صَـالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِـهِ مُؤْمِنُـونَ) (الأعراف – ٧٥) . (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ) (الأعراف – ٨٨) .وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ) (الأعراف – ٩٠) . (قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) (الأعراف – ١٠٩) . (وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (الأعراف – ١٢٧) . (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُـمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) (هود – ٢٧) . (وَقَـالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَـا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) (يوسف – ٤٣) . (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّـذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّـا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَـا الْـأَوَّلِينَ) (المؤمنون – ٢٤) . (وَقَالَ الْمَلَأٌ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) (المؤمنون – ٣٣) . (قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَـرِيمٌ) (النمل – ٢٩) . (وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) (القصص – ٢٠) . (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَـا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَـهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (القصص – ٣٨) . (وَعَجِبُوا أن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ

مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ) (ص ٤ – ٦) . و في النهاية نختم بالآية القرآنية التالية

(مالكم كيف تحكمون _ أم لكم كتاب فيه تدرسون _ إن لكم فيه لما تخيرون _ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون _ سلهم أيهم بذلك زعيم) (القلم ٣٦ – ٤٠)

سعر الكتاب ٢٠ دولار

القارئ المحترم .. إذا كنت قد قرأت كتابي هذا و أعجبك ، و أحببت أن تساهم بمبلغ ما .. أنت تراه مناسباً ، يمكنك مشكوراً التحويل إلى حسابي البنكي التالي مع ذكر أسباب التحويل (نزار يوسف) .

INTERMEDIARY BANK : BYBLOS BANK SAL BEIRUT LEBANON
SWIFT CODE : BYBALBBX
BENEFICIARY BANK : BYBLOS BANK SA SYRIA
SWIFT CODE : BYBASYDA
BENEFICIARY A/C NO : 2200405395001 165089
BENEFICIARY NAME : NIZAR SLEIMAN YOUSEF
REASON OF PAYMENT : (needful) يُذكر سبب التحويل

العنوان أعلاه للتحويل من خارج سورية ، أما للتحويل من داخل سورية ، يُكتفى فقط برقم الحساب

ملاحظة : لا يوجد حساب آخر .

المصادر و المراجع

* فجر الحضارة في الشرق الأدنى : هنري فرانكفورت – دار مكتبة الحياة – بيروت – ترجمة ميخائيل خوري .
* الطوطمية أشهر الديانات البدائية : علي وافي – دار المعارف بمصر ١٩٥٩ .
* تاريخ الفن في عصر الإنسان الأول : الدكتور حسن باشا – مكتبة النهضة ١٩٥٤ .
* الديانة الفرعونية : واليس بدج – ترجمة نهاد خياطة – دار علاء الدين – الطبعة الثانية – دمشق .
* ديانة مصر القديمة : أدولف إرمان – طبعة مجهولة التاريخ (الأرحج ١٩٢٠) – مصر .
* ديانة قدماء المصريين : أستيندوف – تعريب سليم حسن – طبعة عام ١٩٢٣ – دار المعارف بمصر
* تاريخ مصر من أقدم العصور و حتى العصر الفارسي : جيمس هنري برستد – مكتبة مدبولي – القاهرة ١٩٩٠ .
* فجر الضمير : جيمس هنري برستد – سلسلة ألف كتاب – مكتبة مصر .
* الفكر السياسي و أساطير الشرق الأدنى القديم : د . عمر صبحي عبد الحي – المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر – بيروت – طبعة أولى .
* الحضارات القديمة : ف دياكوف ، س كوفالييف – ترجمة نسيم واكيم اليازجي – دار علاء الدين – الطبعة الأولى .
* الفكر السياسي في العصور القديمة : د . عمر عبد الحي – المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر – طبعة أولى – بيروت .
* قصة الحضارة : ول واريل ديورانت – دار الجيل للنشر و التوزيع – بيروت – طبعة ١٩٨٨ – ترجمة محمد بدران .
* تاريخ البشرية : أرنولد توينبي – ترجمة د . نقولا زيادة – دار الأهالي – بيروت .
* الفكر الإغريقي : محمد الخطيب – دار علاء الدين – دمشق – الطبعة الأولى .
* أديان العرب قبل الإسلام : الأب جرجس داود – المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر بيروت – الطبعة الأولى .
* العرب و اليهود في التاريخ : الدكتور أحمد سوسة – دار العربي لنشر و الطباعة – دمشق الطبعة الرابعة .

* دين الإنسان : فراس السواح – الطبعة الرابعة ٢٠٠٢ – دار علاء الدين للنشر – سورية دمشق .
* السيرة النبوية : ابن هشام – مؤسسة المعارف – بيروت – الطبعة الأولى .
* المسيحية و العرب : نقولا زيادة – الطبعة الثالثة ٢٠٠١ – دار قدمس للنشر و التوزيع .
* البداية و النهاية : أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي – مكتبة المعارف – بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٠ .
* صحيح البخاري : البخاري – دار ابن كثير للنشر – بيروت – الطبعة الثالثة ١٩٨٧ – تحقيق د . محمد ديب البغا .
* مجمع الزوائد : علي ابن بكر الهيثمي ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة طبعة ١٤٠٧ هـ
* موسوعة الإمام علي بن أبي طالب في الكتاب و السنة و التاريخ : محمد الريشهري ، محمد كاظم محمود الطباطبائي ـ دار الحديث ـ بيروت .
* Arabic \ English bible – copy right © 1999 – international bible society 1820 jet stream drive . Colorado springs co 80921 – great Britain .

الحكمة بين الإله والسلطان

كتاب في سطور

الحكمة بين الإله والسلطان. دراسة متعمقة في مفهوم الحكمة ومصدرها الأول. إذ أدرك الإنسان القديم جهله قبل أن يدرك معرفته. وهذا الإدراك قاده للمعرفة. تلك هي أولى بدايات مفهوم الحكمة.

إذ بدأ الإنسان يفسر الظواهر الطبيعية القاهرة.كالرعد، والشمس، والعواصف وغيرها، وسلم بأن تلك القوى فوق قدرته العقلية والجسدية. فرضخ لها. وبدأ في عبادتها بأشكال عدة. وكان لذلك الرضوخ والقبول .الحكمة التي ظهرت لدى الإنسان قبل المعتقدات الدينية.

ثم تطورت تلك الحكمة بعد أن تشكلت التجمعات البشرية وبدأ ظهور القادة لتلك التجمعات.من هنا تشكلت الحكمة السياسية أو السلطوية.

كما إن الباحث نزار يوسف بعد بحثه الدؤوب.. وسبره الأغوار أثبت بأن أولى الحضارات البشرية المعروفة ظهرت في منطقة الشرق الأدنى القديم... وأكد على أنه لم يُكتشف حتى الآن في جميع أنحاء العالم... مجتمع حضاري سبق المجتمعات الحضارية التي نشأت في تلك المنطقة... دون تحديد أي جزء منها....

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية – دمشق هـاتـف: 6618303
تلفاكس: 6660915 ص . ب: 34312